

دُكُنُورُ
الْوَصِيفُ هَذَا الْوَصِيفُ اِبْرَاهِيمُ
أَسْنَاذُ الْبَلَاغَةِ وَالنَّقْدِ
وَعِمِيدُ كَلِّيَةِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ
جَامِعَةُ الْأَزْهَرِ بِالنَّصُورَةِ

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ

دِرَاسَتُهُ فِي أَمْسَائِ الْعِلْمِ الْبَيَانِيِّ



مَكْتَبَةُ وَهْبَةِ

٤١ شارع الجمهورية / القاهرة
ت ٢٣٩١٧٤٧٠ فاكس ٢٣٩٠٣٧٤٦



دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشؤون الفنية

إبراهيم، الوصيف هلال الوصيف .
الصورة البيانية : دراسة في مسائل علم البيان /
الوصيف هلال الوصيف إبراهيم
ط ١ - القاهرة :

مكتبة وهبة للطبع والنشر والتوزيع ، ٢٠١٨
٧١٢ صفحة : ٢٤ سم

تدمك ٣ ٤٩٠ ٢٢٥ ٩٧٧ ٩٧٨

١ - البلاغة العربية - البيان

أ - العنوان

٨١٤,٣



الصورة البيانية
دراسة في مسائل علم البيان
دكتور

الوصيف هلال الوصيف إبراهيم
الطبعة الأولى ١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م
مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية -
عابدين - القاهرة

٧١٢ صفحة ١٧ × ٢٤ سم

رقم الإيداع : ٢٠١٨/٢١٨٧٥

I.S.B.N. : الترقيم الدولي :

978-977-225-490-3

تحذير

جميع الحقوق محفوظة لمكتبة وهبة .
غير مسموح بإعادة نشر أو إنتاج هذا
الكتاب أو أى جزء منه ، أو تخزينه
على أجهزة استرجاع أو استرداد
إلكترونية ، أو ميكانيكية ، أو نقله بأى
وسيلة أخرى ، أو تصويره ، أو تسجيله
على أى نحو ، بدون أخذ موافقة كتابية
مسبقة من الناشر .

All rights reserved to Wabbah Publisher.
No Part of this Publication may be
reproduced, stored in a retrieval
system, or transmitted, in any form or
by any means, electronic, mechanical,
photocopying, recording or otherwise,
without the prior written permission of
the publisher .

جميع الآراء الواردة بالكتاب تعبر عن رأى
المؤلف وهو المسئول عنها وحده

ISBN 978 977 225 490 3



9 789772 254903

مكتبة وهبة

١٤ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة تليفون : ٢٣٩١٧٤٧٠ تليفاكس : ٢٣٩٠٣٧٤٦

e-mail: publisher_sultan@yahoo.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

اللهم إني أحمدك حق حمدك وأصلي وأسلم على سيدنا محمد نبيك
وعبدك وعلى جميع زملائه من النبيين والمرسلين وآله وصحبه صلاة وسلاما
دائمين خالدين متلازمين إلى يوم الدين .

وبعد

مِمَّا يَجِبُ أَلَا يَغِيبُ عَنْ وَعَيْنَا وَضُمَائِنَا وَيَتَأَكَّدُ لَدَيْنَا أَنَّ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ
الْخَالِصَةَ تَشْرُقُ فِي الْقُلُوبِ دِينًا ، وَتَسْرِي فِي الدِّمَاءِ أَدْبًا وَتَجْرِي عَلَى الْأَلْسِنَةِ
بَيَانًا عَذْبًا ، وَتَفِيضُ فِي الْعَوَاطِفِ عِزًّا وَشُمُوخًا وَنَكْشِفُ مِنْ خِلَالِهَا عَنْ مَوَادِرِ
الْفِكْرِ ، وَمَنَابِعِ الشُّعُورِ ، وَمَوَاقِعِ الْإِلْهَامِ وَمِنْ ثَمَّ فَهِيَ جُزْءٌ مِنْ حَقِيقَةِ الْإِسْلَامِ
ذَلِكَ أَنَّهَا كَانَتْ تَرْجِمَانَا لَوْحِي اللَّهِ وَلُغَةً لِكِتَابِهِ وَمَعْجِزَةً لِرَسُولِهِ ، وَلِسَانًا
لِدَعْوَتِهِ وَقَدْ خَلَّدَهَا الْقُرْآنُ بِخُلُودِهِ وَحَفَظَهَا بِحَفَظِهِ ، وَلَهَا سُلْطَانٌ عَلَى الْقُلُوبِ
بِحِلَاوَةِ جَرَسِهَا ، وَعَذُوبَةُ لَفْظِهَا ، وَتِلَاوُمُ صَيغِهَا ، وَبِنَاءُ جَمْلِهَا . وَتِلْكَ اللُّغَةُ
الَّتِي نَنْطِقُ بِالْفَافِظِهَا ، وَنَعْبِرُ بِكَلِمَاتِهَا عَمَّا يَتَرَدَّدُ فِي صُدُورِنَا ، وَيَخْتَلِجُ فِي
أَفْئِدَتِنَا وَيَسْتَكِنُ فِي أَعْمَاقِنَا وَيَثُورُ بِدَاخِلِنَا هِيَ لُغَةُ الْعَرَبِ وَأَنَّ اللِّسَانَ الَّذِي يَشِيرُ
مَجْدَ ثِقَافَتِهَا الْأَصِيلَةِ هُوَ لِسَانُ مُضَرٍّ وَيَعْرَبُ وَقَحْطَانٌ وَهُوَ اللِّسَانُ الَّذِي يَحْفَظُ
لِلْبَيَانِ الْعَرَبِيِّ قِسْطَهُ الْمَأْثُورَ مِنَ التَّعْبِيرِ الْمُلْتَهَمِ عَنْ كَلِمَةِ اللَّهِ الْمُنْبِثَةِ فِي الْكُونِ ،
وَمَعَانِي الْخَيْرِ الْمَضْمُرَةِ فِي الْحَيَاةِ وَلِذَا سَيَبْقَى وَيُظَلُّ جَيَاشًا نَابِضًا يَتَجَدَّدُ عَلَى
الدَّهْرِ ، وَيَزْهَوُ عَلَى طُولِ الْقُرُونِ بَعْدَ أَنْ نَزَلَ بِهِ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ لِيَكُونَ كِتَابُ
الْقُرُونِ جَمِيعًا ، وَالْأَجْيَالِ جَمِيعًا إِلَى أَنْ يَقُومَ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَسَيُظَلُّ

❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

حيًا في ضمائر المؤمنين يرشد الضال حتى يهتدي ، ويحمي الذليل حتى يعز ، ويأخذ بيد الجاهل حتى يتعلم ، ويبلغ رسالة الحق والعدل والخير والعزة والجمال .

على أن مما يجب ألا يغيب أن الأدب هو ذلك الكلام الموحى المؤثر الجميل الذي يجلي شعورنا ، وينقل أفكارنا ، ويترجم عن عواطفنا ، ويعبر عن كل ما يلبس حسنا ، ويشير انفعالنا ، ويخلق بنا في سماء عالية من الإبداع والإلهام بلغة ناصحة تنتهب عقولنا ، وتسبي مشاعرنا بحرارة نبضها ، وجميل لفظها ، وقوة تدفقها ، وحسن وقعها ، وتحليق خيالها ، وانسيابها في هدوء داخل المسامع من خلال سياقها ، في عذوبة صدح وسحر إيقاع ، وحسن تلوين ، وغزارة عطاء ، وحلاوة رنين .

إن الأدب يعبر عن عواطف أصحابه ومنشئيه ويعبر عن خلجات أهله ومبدعيه ، ويصور حياتهم بكل ما فيها من حركة وسكون وحل وترحال ، ويأس ورجاء ، وسعادة وشقاء ، وحب وبغض ، وسلم وحرب ، ورضا وغضب ، وجذب ورغد ، وحرية وقيد ، وصد ووصل ، وقرب وبعد ، وإقبال وإدبار ، وسعة وضيق ، وأمل وألم ، وعنف ولين ، وانطلاق في آفاق الحياة ، أو تجمُّ لها ، ومضاء في القريحة أو فتور في الهمة ، وثورة في النفس ، أو انطفاء في المشاعر ، وغدو في الوجود أو رواح فيه . هذا الأدب الذي تتدفق بكل هذا مياهه ، وتتزارع به أمواجه ، وتتناوح عواصفه تنوعت في أفنائه الدراسات وتعددت المجالات إلى أدب ونقد وتاريخ للأدب وبحوث في اللغة تبعاً لما تقضي به الحاجة إلى التخصص وليست البلاغة سوى واحدة دارت في أعطاف النص الأدبي ونمت في ظلاله . ولما كان النقد الأدبي هو فن دراسة النصوص وتحليلها ، والكشف عما وراء الخبيئ فيها ، والوقوف بين يديها طويلاً ، ومراجعتها كثيراً لتقويمها والحكم لها أو عليها مما يدل على أن النقد يوجه إلى الوسائل التي يمكن بها ومن خلالها التعرف على الدمامة والقبح أو الحسن



الصورة البيانية ————— دراستي في مسانيد البيان ————— ❁

والجمال والتعليل لذلك في فطنة نافذة ، وذوق مرهف سليم ، فإن البلاغة كوصف للكلام البليغ تتحد في أنها أثر الملكة ، ومظهر قدرتها القوية الخلاقة وما ينشأ عنها مما يجري على لسان البليغ وقلمه شعرا مشرق الديباجة ، متألق اللفظ ، صحيح المعنى ، قوي الفكرة ، يروع الحس ، ويشير الانفعالات ونثرا محكم النسيج ، متداخل البناء ، قوي التركيب ، يأسر النفس ، ويخلب القلب يمتع ويدهش .

فالبلاغة كأثر للملكة إنما تعني القول الجيد على نحو ما سبق أما البلاغة باعتبارها علما فهي ثمرة ما خرج بالاستقراء للأحاسيس والأذواق من المقاييس والمعايير والخصائص التي تتوفر في النص الجيد الذي يحدث تأثيره في النفس عن طريق البيان الواضح ، فالكلام البليغ إنما يحكم ببلاغته لما توفر فيه من معايير ومقاييس بلاغية منحت تلك الميزة ، وأكسبته تلك الخاصية ، وجعلته يعمل ويرتفع في سماء الإلهام ويحلّق في آفاق العبقرية. وإذا كان الأدب يعتمد على تحقيق المتعة وتوفير اللذة على أساس الإثارة وهز النفوس وتحريك الطباع والنقد يعتمد على دراسة النص وتقويمه وتحريّ الفصيح والاحتفال للمعاني ، فإن البلاغة تعتمد على الإقناع العقلي لا عن طريق البرهان المنطقي والقياس الفلسفي ، بل عن طريق الإفهام في لطف ، واللطيف من الكلام ما يؤنس القلوب المستوحشة وتلين به القلوب النافرة والعريكة الأبية ذلك أن علم البلاغة يمثل مجموعة من الخصائص التي تتزاحم في القول البليغ كما تعتمد على الإمتاع الوجداني واللذة الروحية وإثارة النفس وتحريك طباعها والإقناع العقلي والإقناع الوجداني وجهان لعملة واحدة ، وذلك أنه لكي يتحقق الإقناع دون موارد أو تردد ، فلا بد من خلخلة أي شك في العقول ومحوه وإزالته وذلك بالتغلغل في مطاوي النفوس ، والوقوف على أسرارها والتدسّس إلى المنطقة الحارة في دواخلها ، والوقوف على نواحي الضعف والقوة فيها حتى تؤتّى من الجهة التي هي أمثل للتأثير عليها ، وإقناعها ،



❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

وإزاحة اللبس من طريقها وإنَّما يتحقق ذلك بروائع الكلام التي بلغت الغاية في احتوائها على لطائف التعبير التي تغذي العقل ، وتُنشُدُ الحق والتي تجود بها السلائق المطبوعة ، وتتضح ببلغها الفطن الفاطنة المواتية ذلك أن هز النفوس وإثارتها ، وتحريك العواطف وإجاشتها وتصوير ما يعتلج في أطواء السرائر في فطنة فطينة وذوق مرهف سليم إنَّما يكون بالعبارات البليغة المؤثرة التي تنفذ إلى مكامن الإحساس ، ومناطق التأثير في نفس السامع ووجدانه فتثير فيها ما خمد ، وتحرك في أعماقها ما سكن وتبعثها بعثاً جديداً يحقق لها المتعة ، ويوفر لها اللذة ، ويحدث في داخلها الطرب ، ويحصل لها الغاية وذلك بإقناع العقل وإثارة الوجدان وينقل أبو هلال صاحب كتاب الصناعتين عن محمد بن عليّ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قوله « البلاغة قول مُفَقِّهٍ في لطف ، فالمفقه المفهم ، واللطيف من الكلام ما تعطف به القلوب النافرة ، ويؤنس القلوب المستوحشة وتلين به العريكة الأبية المستصعبة ، ويبلغ به الحاجة ، وتقام به الحجة فتخلص نفسك من العيب ، ويلزم صاحبك الذنب من غير أن تهيجه وتقلقه وتستدعي غضبه ، وتثير حفيظته »^(١).

ويقول الإمام عبد القاهر في إشادة واضحة بعلم البلاغة « ثم إنَّك لا ترى علماً هو أرسخ أصلاً ، وأسبق فرعاً ، وأحلى جنى وأعذب ورداً ، وأكرم نتاجاً ، وأنور سراجاً ، من علم البيان الذي لولاه لم تر لساناً يحوك الوشي ، ويصوغ الحلّى ، ويلفظ الدر ، وينث السحر ، ويقرى الشهد ، ويريك بدائع من الزهر ، ويجنيك الحلو اللين من الثمر والذي لولا تحفّية بالعلوم ، وعنايته بها ، وتصويره إياها لبقيت كامنة مستورة ، ولما استبنت لها يد الدهر صورة ، ولا استمرّ السرار بأهلتها ، واستولى الخفاء على جملتها ، إلى فوائد لا يدركها الإحصاء ، ومحاسن لا يحصرها الاستقصاء »^(٢).

(١) الصناعتين ص ٦٢ ، تحقيق الدكتور مفيد قميحة .

(٢) دلائل الإعجاز ص ٥ ، ٦ .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَةٌ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ❁

فالأسلوب البلاغي يجب أن يكون مظهر حاجات العقل والوجدان معاً على نحو لا ينسى حظ القلب من الإثارة ، ولا نصيب العاطفة من الإلهاب والتهيج ولا العقل من الرضا والتسليم .

هذا وهذه الدراسة التي تتناول التشبيه والمجاز اللغوي والكناية والتي تمضي في طريقها إليك والتي تتقدم نحوك في وجل واستحياء ، إنَّما تؤمن إيماناً لا منتهى لحدوده ولا لنهايتها بالأصالة والانتماء إلى أمتنا وتراثنا وترى أن منهج القدماء قبل أن تحيف عليه العجمة منهج صالح وقادر على الوقوف طويلاً أمام النتاج الأدبي وفهمه ودراسته والوقوع على ما فيه من كنوز وجواهر وذخائر وتقديمه للدارسين بمعايير المضبوطة ومقاييسه الأصيلة التي كانت ثمرة ناضجة لقيم فنية وتعبيرية وشعورية كما كانت عصارة نقية صافية لما خرج بالاستقراء الدقيق ممّا استجاده أصحاب الذوق السليم المطبوع تداولتها الأجيال المتذوقة الواعية جيلاً وراء جيل وأثبتت خلودها على مر الأيام ثم تجسدت في النهاية في تلك المصطلحات والمقاييس التي أخذت من توليدات أهل الطبع والتي صارت أصلاً يحاكم على أساسه الكلام فيحكم على أساسه بالملاحة والحسن أو بالرداءة والقبح وهي مع ذلك ترسم حدود الجمال وتحدّد منازل درجاته وتكشف لها عن السر الذي من أجله راق في أعيننا ، وتدخلنا منه العجب فصفّقنا له وهتفنا بحُسْنِه وجماله حينما نرجع إلى مقاييس مقررة وواضحة كانت ثمرة خالصة مباركة وطيبة لما استخلص من حر الأساليب وروائع البيان وهذه المقاييس إذا هي تحققت في الأسلوب تجلّي علينا في أفخم معنى من معاني الجمال سواء أكان في نثر النثر أو في شعر الشاعر المصور أو في قول الخطيب البارِع ممّا يُعين في النهاية على شحذ الأذواق وإرهاف الأحاسيس ، وإلهاب الشعور ، وتوسيع المدارك وتنمية الملكات .

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

هذا وهذه الدراسة كما تؤمن بالأصالة التي لا تجد مدداً لحيويتها ولا سنداً لقوتها ، ولا أساساً لثقافتها إلا في رسالة العرب ولغة العرب تؤمن أيضاً بالمعاصرة المستنيرة فلا تخاصم فكراً جاداً ، ولا تنكر جهداً أصيلاً يسعى في دأب ونشاط لإرهاق ذوق المتلقي والقارئ ويزيده بصراً ودراية بلغته ويقوّي إحساسه بتراثها على أن هذه الدراسة وهي تتناول مباحث التشبيه والمجاز والكناية لم تهمل المصطلح العلمي ، ولم تغفل التحليل البلاغي ، وإنما سعت ما واثتها الفرصة إلى شرح النماذج والصور لأنها تؤمن أن البلاغة التي يجب أن يحتشد لها وأن تُعبأ الجهود من أجلها هي التي تورد الشاهد في إثر الشاهد مع إدامة النظر إليه ، وتقلب الرأي في عبارته في محاولة جادة لإثارة طاقته ، واستخراج خبيئه ، ومكنون لغته ، وبيان ما فيها من غزارة وخصوبة أفاضتا عليه الحرارة والقوة وجعلتا منه شيئاً تمتلئ منه النفس ويرهُف معه الحس ، ويرقّ بسببه الشعور في غزارة فيض ، ودفء عاطفة .

وهذه الدراسة التي تناولت مباحث البيان أثرت عدم الخوض في المناقشات ، وإيراد الاعتراضات والرد عليها ثم الرد على تلك الردود التي ابتغي أصحابها من وراء ذلك كله تحرير المصطلح البلاغي وضبط قاعدته وذلك لأنّ كتابات كثيرة قد دارت في هذا الحقل واستفزع أصحابها فيها جهداً كبيراً على نحو ما تراه ماثلاً في الحواشي والشروح والتقارير كما أنّها سعت ما واثتها القدرة على الاقتراب من النص ومحاولة شرحه ودرسه وتحليله والتنبية إلى ما في دواخله ومطاويه من دقة معنى وحسن أداء .

هذا ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ (هود: ٨٨) .

المنصورة في : ٢٥ من رمضان ١٤٣٩ هـ

الموافق : ٢٥ من يونيو ٢٠١٨ م

دكتور

الوصيف هلال الوصيف

الفصل الأول

فن التشبيه

قيمته الفنية وفائدته التي تطالعها من صوره .

يحل التشبيه المصيب الممتلئ في البيان العربي محل النور من العين ، والمهجة من القلب لما يشيع فيه من نصاحة التعبير ، وحلاوة القول ، ودقة الأداء ، وإصابة الغرض ، والتصرف في فنون المعاني وذلك بتجلية الصورة وإظهار ما يترقرق به ماؤها ، وما تتلأأ به وتتوهج من إشراق وإضاءات . حتى يُفتح لها باب القبول واسعاً ويهيأ للاستمتاع بها في مطاوي النفوس مكاناً مطمئناً . تسعد به وتهناً من خلال ما تبعث به من سحر ، وما تفيض به من حيوية ؛ إذ هي تتمثل في جانبين يكون الممثل به مقابلاً للممثل له وموضّحاً لما يكتنفه من غموض ، وشارحاً لما به من استغلاق ، وخفاء ، وإبهام ، ومن ثمّ تتجلى لك الفخامة ، وتقوم العظمة . وحين تتقدم على وجل واستحياء لتستقري مفاتن الجمال ، ودقة التصوير في فن التشبيه الذي تحققه له الروعة والإصابة ، فإنك تقع على هذا الذي يهزّ النفس ، ويشير الدهش حين تحرص على أن تقف لُطيل النظر ، وتديم التفكير ، وتعمّق البحث كي تتذوق وضاعة الفن الذي يملأ وجدانك بسمو العبقريّة في بدائع القياس ، وقوة الإلهام في روائع الاقتران من خلال تشكيله في صور أخاذة ، وشكول متنوعة الظلال

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

والألوان ؛ لذا فإن تأثيرها الجيَّاش الذي يملأ شعاب نفسك بالطرب والإعجاب ، ويترك أثره فيها بعد التحليل العميق لبيانها الذي يتجدد دوماً ، ويزهو على طول القرون وامتداد الزمن بعد أن يتسلل في هدوء إلى أعماق الوجدان ، والمنطقة الحارة من عاطفتك فيحرك فيها ما سكن ، ويشير في داخلها ما خمد وكمن . فتثور أو تهدأ ، وترضى أو تغضب ، وتفرح أو تحزن ، وتحب أو تبغض ، وتقبل أو تحجم . ومن ثم فإن صورة التشبيه قد توجز وتختصر ، وتبين وتوضح وتوثق وتعمق . مع تحقيق المبالغة فيما وُظف التشبيه من أجله سواءً كان هجاء أو مدحاً ، ترغيباً أو ترهيباً ، حباً أو بغضاً تضخيماً وتكبيراً أو تحجيماً وتقليلاً ، إسراعاً أو إبطاءً ، صداً أو وصلاً . ونحو ذلك من ألوان الكلام ، وصنوف المعاني .

وانظر إلى قول النابغة حين بلغه وعيد النعمان فكان هذا بمنزلة رجفة الزلزال التي زلزلت كيانه ؛ إذ أحسَّ بخوانق الأغلال وهي تلتف حول عنقه ورقبته ، وبكل عوادي الخطوب الجسام وهي تتجمع وتتألف عليه ليتفجر في وجهه الأهوال ولتسحق أمانيه وأحلامه ، وأدرك عن يقين أن تهديده من النعمان فاجعة ضرمت أنفاسه ، وقوضت صروح آماله . فجزع أشد الجزع وأخذ يلح في الضراعة ، ويئن من الألم وبعث للنعمان يستعطفه ، ويسترضيه ، ويعتذر إليه ، ويكشف له في صدق عما آل إليه سوء حاله من هم كارب يُعْطِي حياته ، ومن خوفٍ يَرْجُفُ له وجوده كله من وراء هذا الوعيد الذي هُدِّدَ به واستمع إلى ما اخترناه من أبيات للشاعر المعتذر وهو يقلب كفيه حُزْناً ورعباً ، ويعض على يديه أسفاً ، وندماً ، وذهولاً ، وخوفاً: ^(١).

وعيد أبي قابوس في غير كُنْهه ودُونِي رَاكْسٌ فَالْضَّوَاِجِعُ
فبتَ كَانِي سَاوَرْتَنِي ضَيْلَةٌ من الرُّقْشِ فِي أُنْيَابِهَا السُّمَّ نَاقِعُ

(١) ديوان النابغة ٣٢-٣٨ ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم .



الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ الْبَيَانِ ————— ❁

يُسَهِّدُ مِنْ لَيْلِ التَّمَامِ سَلِيمُهَا حَلِيَّ النِّسَاءِ فِي يَدَيْهِ قَعَاقُعُ
أَتَانِي — أَيْتَ اللَّعْنِ — أَنْكَ لُمْتَنِي وَتِلْكَ الَّتِي تَسْتَكُّ مِنْهَا الْمَسَامِعُ
مَقَالَةٌ أَنْ قُلْتُ : سَوْفَ أَنَأَلُهُ وَذَلِكَ مِنْ تَلْقَاءِ مِثْلِكَ رَائِعُ
حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرِكْ لِنَفْسِكَ رِيَّةً وَهَلْ يَأْتِمَنَّ ذُو إِمَّةٍ وَهُوَ طَائِعُ
لَكَلَّفَتْنِي ذَنْبَ امْرِئٍ وَتَرَكْتُهُ كَذَا الْعَرَّ يُكْوِي غَيْرَهُ وَهُوَ رَاتِعُ
فَإِنَّكَ كَاللَّيْلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكِي وَإِنْ خَلَّتْ أَنْ الْمُنْتَأَى عَنْكَ وَاسِعُ
خَطَا طَيْفُ حُجْنٍ فِي حَالٍ مَتِينَةٍ تَمُدُّ بِهَا أَيْدٍ إِلَيْكَ نَوَازِعُ
وَأَنْتَ رَبِيعٌ يُنْعِسُ النَّاسُ سَيِّئُهُ وَسَيفٌ أُعِيرْتُهُ الْمَيَّةَ قَاطِعُ

لقد جاءت هذه الأبيات في سياق الاعتذار ، والنابهة يوقع أَلْحَانَهُ ، ويهزج بأغاريدِهِ على هذا الوتر في خصوبة ذهن ، ولطافة حس ، وجميل أداء ساعياً إلى أن يصل إلى قلب النعمان ليريق بين يديه ما في عينيه من عَبَرَاتٍ ، وتسكُّبَ ما في فؤاده من هَلَعٍ وحزن حتى يؤثِّرَ فيه ، وَيَسْتَرْضِيهِ ، وينالَ عطفه وشفقته والعَفْوَ عنه بعد أعلن انسحاقه أمام جبروته ، ورُعبه ، وهَلَعَهُ ؛ ولذا تأتي الصياغة متوافقة مع السياق الذي وردت فيه وسيقتُ من خلاله . فهي تكشف عن حال الشاعر ، وتبيِّنُ ضَعْفَهُ ، وانكساره ، وتمرُّغُهُ في الأَوْحَالِ والرَّعْبِ الَّذِي يَمْلَأُ حَيَاتِهِ ، والهولَ الَّذِي يَلْفُ وجوده ، والخوفَ الَّذِي يستبد به بعد أن صارت أيامه كلها مُحْتَبَقَةً بِالْأَخْطَارِ ، وملتظمة بالمخاوف وهذا ما يقوم عليه فن الاعتذار ، يقول صاحب العمدة : « وينبغي للشاعر أن لا يقول شيئاً يحتاج أن يعتذر منه ، فإن اضطره المقدار إلى ذلك ، وأوقعه فيه القضاء ، فليذهب مذهباً لطيفاً ، وليقصد مقدصاً عجيباً ، وليعرف كيف يأخذ بقلب المعتذر إليه ، وكيف يمَسِّحُ أعطافه ، ويستجلب رضاه ، فإن إتيان المعتذر من باب الاحتجاج ، وإقامة الدليل خطأ ، لا سيَّما مع الملوك ، وذوي السلطان ،

❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

وحقه أن يُلَطِّفَ برهانه مُدمجاً في التضرع ، والدخول تحت عفو الملك»^(١) .
وأنت ترى في هذه الأبيات كيف يعبر الشاعر أدق التعبير عما تجيش به عاطفته من خوف ، وما يعتلج في نفسه من فزع ورعب ، وما يتداخل وجوده من همٍّ وكرب. فوعيد أبي قابوس ، وأبو قابوس كناية عن النعمان يلاحقه ويطارده أينما حلَّ، أو شار وهو قد أتاها في «غير كنهه» أي على غير ذنب منه؛ إذ لم يفعل ما يَغْضَبُ بسببه عليه فقوله : وعيد أبي قابوس هو من وراء الهم الذي أَقْضَى مَضْجَعُ الشاعر ، وأحال نعيمه بؤساً ، وماءه مهلاً ، وأصبح من شدة الهول والفزع قائماً على ساق لا يهدأ له جَنَانٌ من الرُّوع ، ولا يَسْتَقِرُّ له مجلس من الجزع فهو على هذه الحال من الخوف والرهبة مع أنه ناء عنه وبعيد ، والمسافة التي تفصل النابغة عن النعمان بعيدة بعيدة ؛ إذ بين النابغة وبينه «راكس» وهي واد و«الضواجع» جمع لضاجعة وهي منحني الوادي ومنعطفه . وقوله في البيت الثاني : «فَبِتَّ» وهي معطوفة على قوله : في البيت الأول : «أتاني» والفاء هنا تفيد هذه السرعة السريعة بين إتيان الوعيد ، والتهديد للشاعر من النعمان وبين ما أصابه وحلَّ به بلا تَرَيُّثٍ أو إبطاء ودون إمهال ومن غير تراخ إذ أتاها الوعيد فبات كالملدوغ الذي يتجرع ضراوة الألم في خوف ورهبة و«ساورتني» أي : واثنيتني ولدَغَتْنِي و«الضئيلة» حية دقيقة الجسم ، قليلة اللحم ، شديدة السُّم. والعرب تقول : رماه الله بأفْعَى جارية يعني راجعة من غلظ إلى رِقَّةٍ يقال : جري يجري إذا رجع . و«الرقش» التي فيها نَقَطٌ سوادٍ وبياض وقوله : «ناقع» أي ثابت ، يقال : نَقَعَ الغُلَّةُ . وسم ناقع : بالغ قاتل ، ودم ناقع : طري . وموت ناقع : كثير والنقع : الغبار الساطع ، قال تعالى : ﴿ فَأَثَرُنَ بِهِ نَقْعًا ﴾ (العاديات: ٤)^(٢) .

(١) العملة في محاسن الشعر وآدابه ، ونقده ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ١٧٦/٢ ، ط . رابعة ١٩٧٢ م .

(٢) لسان العرب ، مادة (نقع) بتصرف .

الصورة البيانية ————— دراستي في مسانيد البيان ————— ❁

فالنابعة الذي يتلوَّى من شدة الألم كما تتلوَّى القطاة على جمر الغضى لا يغيب عنه ، ولا يخفى عليه أنه أمام ملك غاضب وأنه لا يمكن أن يرفع هذا الغضب الذي يقضُّ مضجعه ويورق حياته والذي انتشر في جنبات نفسه فأثار فيها برح الآلام ، وحرَّق المخاوف والأحزان إلا أن يسلك إليه باب التضرع والاعتذار ، وأن ينفذ بين يديه مشاعره ، ويبين ما يقاسيه من الخوف ، وسوء المصير ، ولذا تنفست مشاعره في صورة من الحزن ، والغم على نحو لا يهنأ فيه ، ولا يهدأ ، أو يستريح فهو يشبه حاله التي هو عليها بحال من لدغته حية في الرعب ، والرعبة ، والفزع ، ثم يفيض في تبين صفة الحية التي لدغت ، فهي حية ليست كغيرها من باقي الحيات إذ قد تجمع فيها من صفات الفتك والإهلاك ما لم يتوفّر في كثير من غيرها فهي ضئيلة في مساحة حجمها ممّا يضفي عليها القدرة على الحركة السريعة غير الهادئة ولا المتوانية كما تساعدها هذه الضئولة من اكتناز اللحم مع اشتداد السم على الالتفاف حول جسد اللديغ في مساورتها له ، ومواثبتها إياه على نحو يخيف ويرعب . فإذا كان سمها يقتل ويفنى فإن ملاصقتها للجسد حين تلتف حوله تروّع السكينة في القلب ، وتحشد المخاوف والاضطراب في الفؤاد ، ثم إن الحية هذه مع ضالة جسدها هي حية رقصاء تخذع بمظهرها ولونها وتقتل بسمها ، فالرقش كالنفس وسميت بذلك لترقيش في ظهرها وهي خطوط ونقط وفي التهذيب الأرقش لون فيه كُدرة وسواد ونحوهما كلون الأفعى الرقصاء^(١) وهذا النوع من الأفاعي يعد من أخبث أنواع الحيات لما تحوزه من سم يتضاءل معه سم الحيات الضئيلة ويأتي قول الشاعر : « في أنيابها السم ناقع » ليعتد الفزع ويشير الرعب ، فالناب الذي فاض بالسم الناقع ليس سوى الهول الذي يترصد الضحية بالقتل الذي يبيد ، والخطر الذي يروّع . فهو يملأ الصدر بالرعب ويزعزع النفس بالتوتر والقلق ، وينزع من القلب الطمأنينة ، ويسمّ الوجود ،

(١) لسان العرب ، مادة : رقص .

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

ويسلب الحياة على أن معنى (الناقع) القاتل ويأتي التعبير (في أنيابها السم ناقع) قاتل ليوثق الشاعر من خلاله ويقوّي المعنى الذي يعيشه ويحسُّ به ، لينقل إلينا هذا الإحساس الخائق فتتردّد أصداؤه في نفوسنا ، وتتجاوب مع أحاسيسه الحزينة فشعر معه بما يشعر به ، ونأسى لأساه ، ونحزن لحزنه ، وهذا ما تنسفت به صورة التشبيه التي جاءت نقلا عن شعوره وعاطفته ، ولم تكن توليدا من ذهنه وعقله . وأنت ترى كيف أبرز ذلك صفات الحية في ضراوتها ، وهولها ليجسّدْها أمامك ، ويضعها في دائرة الضوء ويجعلها بصفاتها حاضرة شاخصة حتى تأخذُ جملة صورتها ومنظرها المخيف المرعب بمجامع عينيك لتنتقل إليه أنفاس الشاعر اللاهثة وصوته المكروب الذي يتصاعد إلى فؤادك فتشاركه حزنه الذي يشير فيك كوا من الآلام ، فتشجي لشجاءه ، وتأسى لما صار إليه حاله الذي أرمض الحشا ، وأذاب لفائف الصدر والقلب على أن صورة الحية بكل شيء فيها من الصفات المرعبة تطارد النابغة في ليله فتمنعه النوم ويبقى يعاني السُّهْد والأرق يصْهره الحزن ، وتُجْهده الشدَّة والمحنة ، ويثخن في جوف الليل أنين الخيبة واليأس والضياع يترقّب لمعّة النور من الفجر ، ولكن ليله يطول ويتطاوّل ويمتد حتى صار على حال لا أمل له في نهار يطلع ، أو شمس تشرق ، أو ليل ينجلي . وهكذا فإن من افترسته الحية ، وغاصتُ بأنيابها في لحمه ، والتفت حول جسده تساوره وتواثبه يبقى مُسَهَّدا يخاصمه النوم ، ويلازمه الأرق في مرافقة لا تنفك أبدا . فمن لدغته يستمر على هذا الحال من السهد ، والحزن والقلق « لحلي النساء في يديه قعاقع » أي أن تهديد النعمان ولومه تستك منه مسامع الشاعر وتتأذى ، إذ يرى في غضب الملك منه ، وسخطه عليه ، ووعيده له ، أصواتاً مزعجة لها صليل يكاد يخرق طبلة الأذن ، قال شارح الديوان : « يُسَهَّد من ليل التَّمام »^(١) أي يمنع النوم ، وليس التَّمام : أطول ليالي الشتاء ، وليل التَّمام أيضاً : الذي يطول على من

(١) ديوان النابغة ص ٣٣ ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ الْبَيَانِ ————— ❁

قاساه ، وإن قَصُرَ . والسليم الملدوغ سمي بذلك على التفاؤل بسلامته كما سميت الفلاة المهلكة مفازة على التفاؤل للقوم بالفوز والنجاة وقوله : « لحلي النساء في يديه قعاقع » قال أبو عمرو وغيره كان يُفَعَّلُ به ذلك لئلا ينام فيدب السم فيه » .

هذا وتتجلى قيمة التشبيه هنا وتبرز ميزته من تحقيقه على نحو أظهر من أن يشار إليه وظيفته التي ينهض بأدائها وهي التبيين والشرح والتوضيح ومحو اللبس ، وكشف الغموض ، وذلك بتجلية المعنى وإظهاره في صورة سافرة ليس عليها قَتَمٌ أو بها غبار فإذا كان المعنى هو الحزن على نحو ما هو محقق هنا فإن صورة التشبيه لا بد أن تحدثك عن الهم الذي يعتلج في الصدر ، والأسى الذي يذهب القلب ، والمرارة التي تملأ الفم والخوف من المستقبل المجهول الذي لا يُعرف إلى أي شاطئ يستقر فيه ، أو لآية نهايةٍ ينتهي إليها ولذا لا بد أن تلج في الضراعة ، وتئن من الحزن ، والألم ، وتزخر بالاعتذار ، وتبالغ فيه حتى تنال موضع العطف من القلب ، والشفقة من الفؤاد وبذلك تكون الصورة قد قامت بوظيفتها وأحسنَت السَّفارة ، ونالت الخطوة لدى المستقبل لها بعد أن شرحتُ وبيّنتُ وصوّرتُ فأحسنَت التصوير ، ومثّلتُ فبلغت المدى البعيد في حسن التمثيل على أن مِمَّا يحققه التشبيه من ميزة وفائدة : إفادته إصابة الغرض ، مَعَ المبالغة في مقارنة تنأى عن الإغراق والإبعاد والغلو وهو ما تجده هنا على نحو يروق ويعجب إذ كان صادقاً في الإبانة ، واستطاع من خلال إحياء مفرداته التي قام بناؤه منها ، وبصورته أن يلهب عواطفنا من فداحة حزن الشاعر ، وما جرّه هذا الحزن إليه من التَّضَعُّعِ ، والتَّهَالُكِ ، والجَزَعِ والمذلة ، والجَنَاحِ الخَفِيفِ المهيض ، والخوف من سوء المصير وهو ما يدعوننا إلى أن تحيّا مأساته ، وأن يتصل شعورنا بشعوره ، كان صادقاً في نقل مشاعره وأوجاعه ، وكَيْسًا حاذقاً في تصوير عاطفته فحزنه تجيش به كلماته ، ومخاوفة يفيض بها بيانه في لغة حية تجري على اللسان عذبة ،

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

وَتَسْرِي فِي الدِّمَاءِ أَدَبًا حَيًّا وَهَذَا هُوَ الْفَنُّ الْأَصِيلُ الَّذِي يَدْهَشُكَ بِجَمَالِ بَيَانِهِ ،
وَيَسْتَبِيحُكَ بِجَلَالِ مَنْطِقِهِ ، وَبِرَاعَةِ تَعَابِيرِهِ . هَذَا وَفِي قَوْلِهِ :

أَتَانِي — أَيْتَ اللَّعْنِ — أَنْكَ لُمْتَنِي وَتَلَكَ الَّتِي تَسْتَكُ مِنْهَا الْمَسَامِعُ
مَقَالَةٌ أَنْ قُلْتَ — سَوْفَ أَنَالُهُ وَذَلِكَ مِنْ تَلَقَّاءِ مِثْلِكَ رَائِعُ

فِي قَوْلِهِ : « أَيْتَ اللَّعْنِ » هُوَ مِنْ تَحِيَّاتِ الْمُلُوكِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالِدَّعَاءِ لَهُمْ
أَي : أَيْتُ أَنْ تَأْتِي مِنَ الْأُمُورِ مَا تَلْعَنُ عَلَيْهِ ، وَتَذْمُ بِسَبَبِهِ ^(١) وَقَوْلُهُ : « وَتَلَكَ
الَّتِي تَسْتَكُ مِنْهَا الْمَسَامِعُ » تَسْتَكُ أَي تَشْتَدُّ وَتَضَيِّقُ وَالشَّاعِرُ يَرِيدُ أَنْ يَعْبُرَ عَمَّا
صَنَعَتْ بِهِ الْمَلَامَةُ وَالْأَثَرُ الْعَمِيقُ الَّذِي خَلَفَتْهُ لَدَيْهِ ، وَتَرَكْتَ جَرَحَهَا الْغَائِرُ فِي
نَفْسِهِ حَتَّى أَصَمَّتْ مَسَامِعُهُ وَفِي الْبَيْتِ الثَّانِي : « مَقَالَةٌ » هِيَ تَوْضِيحٌ وَتَبْيِينٌ
لِقَوْلِهِ فِي الْبَيْتِ السَّابِقِ : « أَنْكَ لُمْتَنِي » فَمَا هِيَ الْمَقَالَةُ الَّتِي صَكَتْ أُذُنَ الشَّاعِرِ ،
وَأَصَابَتْهُ بِالرَّعْبِ وَفَزَعَتْهُ ؟ إِنَّهَا : « سَوْفَ أَنَالُهُ » وَالْمَقَالَةُ يُقَالُ وَتَنْطِقُ تَخْتَلِفُ
فِي شِدَّةِ وَقْعِهَا وَقُوَّةِ أَثَرِهَا ، وَرَدَّ فَعْلُهَا مِنْ إِنْسَانٍ إِلَى آخَرٍ غَيْرِهِ ذَلِكَ أَنَّهَا إِنَّمَا
تَسْتَمِدُّ قُوَّتَهَا مِنَ الْجَهَّةِ الَّتِي صَدَرَتْ عَنْهَا ، وَعَبَّرَتْ بِهَا . فَالْلُّومُ الَّذِي لِيَمَ بِهِ ،
وَالْتَهْدِيدُ الَّذِي وَجَّهَ إِلَيْهِ إِنَّمَا جَاءَهُ وَأَتَاهُ مِنْ قَبْلِ مَلِكٍ يَأْمُرُ فِطْطَاعَ ، وَيَقُولُ
فِيُسْمَعُ قَوْلُهُ : وَيَهْدَدُ فَيُسَجِّلُ التَّارِيخُ تَهْدِيدَهُ فَاعْتِمَادُهُ عَلَى الزَّعَامَةِ ، وَقُوَّةُ
الْجَيْشِ ، وَطَاعَةُ الْجُمْهُورِ كُلُّ ذَلِكَ هُوَ الَّذِي جَعَلَ النَّابِغَةَ يَحْسُ بِالْكَرْبِ
الْكَارِبِ الَّذِي يَحِيطُ بِهِ ، وَيَتَرَصَّدُهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ وَأَنَّهُ لَنْ يَهْرَبَ ، أَوْ يَفْلِتَ مِنْ
الْعُقَابِ وَالنَّيْلِ مِنْهُ رَائِعٌ مِنْ مِثْلِهِ مِنْ أَصْحَابِ الزَّعَامَةِ وَالْمُلُوكِ فَكَيْفَ بِهِ لِأَنَّ
مِنْهُ هُوَ عَلَى شَاكِلَتِهِ وَعَلَى أَخْصِ خَصَائِصِهِ يَكُونُ مِنْهُ بِهَذَا الْحَدِّ فَكَيْفَ
بِالنَّعْمَانِ ذَاتِهِ إِنَّهُ سَيَكُونُ بِهَذَا أَحَقُّ وَأَوْلَى ؟ وَلِذَا تَرَاهُ يَقْسِمُ وَيُؤَكِّدُ الْيَمِينَ أَكْثَرَ
مِنْ مَرَّةٍ فِي اعْتِذَارِيَّتِهِ وَنَرَاهُ فِي قَوْلِهِ :

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرَكَ لِنَفْسِكَ رِيَّةً وَهَلْ يَأْتُمِّنُ ذُو إِمَّةٍ وَهُوَ طَائِعُ

(١) لِسَانُ الْعَرَبِ ، مَادَّةُ : أَبْي .

الصورة البيانية ————— دراستي مسأله البيان ————— ❁

فهو « إمة » صاحب دين وطريقة مستقيمة وهو للنعمان طائع وصاحب الدين يمنعه دينه من أن يحلف كاذبا فكيف أكذب عليك ؟ إنه بقسمه هذا يزيل الشك من صدر النعمان ، ويؤكد له أنه صادق ، وفي قوله :
لَكَلَّفَتْنِي ذَنْبَ امْرِئٍ وَتَرَكْتُهُ وهل يَأْتِمَنُ ذُو إِمَّةٍ وَهُوَ طَائِعُ

فقوله : « لَكَلَّفَتْنِي » جواب القسم في قوله : « حلفت » و« العُرَّ » داء يصيب الإبل وقيل : هو قُرْحُ بشْفَرِ البعير ، فإن أرادوا أن يعالجوه كَوُواً بغيراً آخر صحيحاً فيبرأ ذلك البعير هكذا حكى عن فصحاء العرب ممن أخذ عنهم الرواة وكان أبو عبيدة هذا لا يكون ، وإنما هذا مثل أي أخذتني بذنب غيري»^(١).

هذا وفي البيت صورة تشبيهية تنهض من خلال تشبيه النابغة نفسه ، وقد أخذه النعمان بذنب لم يقع منه ، ولم تَجْفُه يدها في الوقت الذي ترك فيه المجرم الحقيقي يشيع الفتنة والكذب أينما حل أو سار ، ويذيع التَّخَرُّصَ والبُهْتان في كل وقت ، فهو كالذنب المقنَّع يعيثُ فساداً في كل مكان والشبه الذي يلتقي فيه طرفا الصورة ويجتمعان عليه هو إيقاع الأذى بالبريء الذي لم يذنب ، وترك الجاني سالماً معافى من غير عقاب .

وبهذا المنطق في الاحتجاج الذي لا يَتَلَجَّجُ فيه ، ولا يتزَيَّدُ باللغو ، وبفكر عميق دون إعنات أو إرهاب . ينفي النابغة عن نفسه اتهامها بأي جرم ، ويعلم براءتها من أي ذنب فكيف يعاقب وهو البريء على جريمة لم يرتكبها وذنب لم يقع منه ويترك المجرم الحقيقي يَسْعُدُ بنعيم العيش ، ورغد الحياة يلهو ويلعب في زهو غير مكترث بما خاض فيه من عَرَضٍ ، ولا بما أراق من دم ؟ وبهذا يسعى النابغة لكسب عطف النعمان ، ونيل ، العفو منه ، ومنحه ودّه ورضاه فهو مُؤَرَّقٌ مهموم ومن ثمَّ يُلْقِي من فوق كاهله هذا الحمل الثقيل الذي

(١) الديوان ص ٣٧ .

❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

حطم جذعه ، وهَدَّ قواه بعد أن أثبت له وَبَّيْن أن ما اتَّهَم به كان وشايةً من واش خاض في أحشائه ، وَفَرِيَّة من كذوب مُسْتَأْسِدِ الْهَوَى ، مُتَمَرِّم النفس لا يريد من افترائه وكذبه إِلَّا إحداث الواقعة وليس لما قاله قَدَمٌ من صدق ، وإنَّما هو يرمي إلى بث العداوة ، ونشر الفتنة ، وقطع أسباب التواصل والتآلف .

وصورة التشبيه هنا شرحت وبيّنت ووضّحت حين وضعت الأمر بين يدي الملك ليقارن ويوازن بين الشاعر المفترى عَلَيْهِ ، وما هو فيه من أَسَى يَتَكَثَّر . ويتصعَّد ، وجسْم يتلاشى ويذبل ، وعزْم يخور ويضعُف وتفكير يَهْدُّ ويقلق ونفس تذوب حسرة وألما فالمقارنة . تقوم بين النابغة وهو على هذه الحال من الأئين ، والنشيج ، والألم ، والخوف ، وبين هذا الحاقد الكذاب الذي مَهَر الكَذِب ، وحذق الخداع ، ومضى في طريقه هذه يثير الحفيظة ، ويلبّد الجو ، ويبعث الغضب والكره ، ولذا كان التشبيه على هيئته تلك حجة ينصبها الشاعر و يقيمها لبيان أَنَّهُ يعاقب وهو البريء وَيُتْرَكُ الجاني الذي صنع الجريمة يرتع ويلعب بلا مؤاخذه ولا حساب ، وجاء التشبيه منتزعا من واقع العرب وحياتهم في الجاهلية إذ كانوا يأتون إلى البعير الأجرب الذي يراد معالجته فيتركونه ويلجئون إلى بعير سليم لا جرب فيه ويكونونه بالنار حتى يبرأ البعير الذي فيه جرب فيقيس حالته على هذه الحال : « كذي العُرِّ يَكُوي غيره وهو راتع » وبهذا التنظير القائم على الإقناع والمنطقُ والحجة يَسْعَى النابغة لَأَن يَدْرَأَ عن نفسه التهمة ، ويجلّي براءته على نحو كاشف صحيح ومُقنع حتى ينال عطفه ويكسب وده وعفوه وحماه ويتجلى ذلك حين قَدَمَ دعواه وبين يديها الدليل الذي يؤكد ويوثق ما يدعيه والدعوى حين تساق وبين يديها الدليل يكون ذلك آكد في حجّتها ، وأدَل على إقناعها وصدقها وهي حين تجيء على هذا النحو تكون أفعَل في النفس وفرق بين دعوى تقدم ومعها الدليل وأخرى تأتي من غير دليل وتترك تتأرجح بين القبول والرفض .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ❁

هذا ومع أن التشبيه بيّن ووضّح فإنه مع هذا حقق فائدة أخرى ضاعفت من جماله ، ووسّعت مساحة إحسانه وقبوله على نحو يحقق الإقناع للعقل والمتعة للعاطفة والوجدان ، هو التأكيد والتوثيق لحال المشبه وتثبيتها في الذهن من خلال قياسه على شيء ثابت محقّق واضح لا يحوم حوله شك وريب ولا يثور من أجله جدل أو حوار من غير أخذ أو ردّ وقبول أو رفض وذلك أكد في توضيحه وتقويته فالتشبيه هنا على حد قول صاحب الصناعتين : « والتشبيه يزيد المعنى وضوحاً ، ويكسبه تأكيداً وهذا ما أطبق جميع المتكلمين من العرب والعجم عليه ولم يستغن أحد منهم وقد جاء عن القدماء وأهل الجاهلية من كل جيل ما يستدل به على شرفه وفضله وموقعه من البلاغة بكل لسان»^(١) ، ومن قبله يقول : أبو الحسن عليّ بن عيسى الرماني : « وهذا الباب يتفاضل فيه الشعراء وتظهر فيه بلاغة البلغاء . وذلك أنّه يكسب الكلام بيانا عجيبا وعلى طبقات في الحسن كما بيّنا . فبلاغة التشبيه الجمع بين شيئين بمعنى يجمعهما يكسب بيانا فيهما»^(٢) .

وفي قول النابغة :

فإنّك كالليل الذي هو مدركي وإن خلّت أن المتأى عنك واسع

تراه وقد أتى بهذه الصورة المعبرة عن المأساة التي تفترسه ، والمحنة التي تُظلم عليه نهاره وتُسوّده ، وتطيل ليله وتقيمه في هم ناصب وكرب كارب لقد حاول ما وسعته المحاولة ، أن يلين جنب النعمان ، وأن يرقق مشاعره ويعطّف قلبه ، حتى يعفو عنه ويصفح ؛ لأنّه يحسّ بالخطر يترصدّ له ، ويتربّص به ، والكون كله على امتداده وسعته يضيق أمام ناظريه ؛ لذا حلف له أكثر من مرة

(١) الصناعتين للعسكري ، تحقيق مفيد قميحة ص ٢٦٥ ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

(٢) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الكريم ، تحقيق محمد خلف ودكتور محمد زغلول سلام - ص ٨١ ، دار المعارف .

❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

بأنَّه البريء الذي لم يُجْرَم ، ولم يذنب وأن غيره هو الذي وشى به وكذب عليه ، وإنه كشف القناع عن هذا الوجه الخادع الذي رماه بما لم يقع منه ، أو يقيم به ، وقدّم الدليل على براءته ، وأنه تحمل إجرام غيره ، وعوقب عليه في الوقت الذي ترك فيه المجرم الحقيقي يَخْتَل في كل مكان ، ويفسد في كل أرض يلهو ويرتع بلا عقوبة أو مطاردة يهنأ في بلهنية من العيش ، ويسعد في رغد من النعيم . أمّا هو فصار يتحسّس في مطاوي الغيب عفو النعمان ، ومشية القدر ؛ ولذا فهو يرجو ويأمل أن يُرَفَّع عن نفسه الضارعة المستجدية قتامُ الذلّ وأن تنجلي عن حياته غواشي الكُرب ، وعوادي الخطوب بعد أن سقط من الوئى والوهن في طريق غاب الدليل فيه يملؤه الضنى ويغطيه الحسك والشوك وكل ما يؤذي ويضرّ ويتراءى لعينيه فيه مصارع أمثاله من الهارين المطاردين ؛ لذا تمثّل في نهايتهم المؤسفة نهايه الحزينة إنه يسعى جاهدا لإثبات أنّه برىء بكل مؤثمة من الإيمان حتى أمسى حاله وقد عوقب وترك المذنب « كذي العر يكوئى غير وهو راتع » والنابعة الذي يعيش وسط المخاطر ، والأهوال من غضب النعمان عليه يدرك أنّه واقع في يده لا محالة ذلك أن سطوته تمتد وتتسع لتصل إلى أي مكان في الأرض ؛ إذ هو كالليل الذي يغطي وجه الأرض ويصل إلى كل مكان فيها فأينما حلّ النابعة في أي قطعة من الأرض ، وهرب إليها فيد الملك سوف تطوله ، وتصل إليه ؛ إذ هو كالليل الذي يغطي وجه الدنيا على سعيها وعقابه الصارم سيحلّ به وينزل عليه في أي مكان ؛ لأنّه لا يفوته هارب ، فالنابعة يقول في صراحة وهو يخاطب النعمان بألا يتلجلج فيه ، ويصارحه بأنّه مهما سار وأوغل في السير ، وبعد وأوغل في البعد ، لا يجد مكانا يأويه ، ويهرب إليه بعيداً عن يد النعمان التي ستطوله حتما ، وتصل إليه . كما أن الليل يصل إلى كل مكان في الأرض . هذا والتشبيه في بيت النابعة : « فإنك كالليل الذي هو مدركي » كان محلا لدراسة فاحصة إذ تناولت بناءه التركيبي للتهدّي إلى ما أضمر من بديع المعاني ورقيق المحاسن

الصورة البيانية ————— دراستي في مسأله البيان ————— ❁

ذلك أن الشعر هو نضح العاطفة ، وشعاع النفس يتأثر حتما بالموقف الذي يعبر عنه ؛ لأنه فيض الإحساس ، ووليد الانفعال ، وتقلب الأحوال ؛ لذا فهو ينشأ تبعا لما يعرض للروح والعاطفة والنفس من القوة أو الضعف ، والفساد أو الصلاح ، والرفعة أو الهبوط . ومن ثم ندرك أن الصورة هي انعكاس لما يتردد في النفس ، ويثور في الخاطر ، ويعتمل في الفؤاد ، فالصورة التشبيهية هنا تصور آلام الشاعر ، وأهوال المستقبل الغامض الذي ينتظره ، ووسطوة الملك ، وجبروته ، وامتداد سلطانه ، وسعة ملكه ؛ لذا كانت ترجمة صادقة وأمينة لمشاعر الخوف ، والذعر ، والرغبة التي كانت داعية آلامه التي صورتها الصورة في صدق ، وعبرت عنها في إبانة لأنها نقل عما يجري في فؤاده ، ولأنها تصدر عما يعتقد في قلبه . ولقد وقف عبد القاهر أمام صورة التشبيه في البيت وأطال في وقفته التي امتدت وتعمقت ، وتحسس بذوقه ما بها من ألوان ، وما تراءى له فيها من ظلال ورسم من خطوط وأدار حولها نقاشاً لغويا يكشف من خلاله عن مفاتن الجمال فيها ، وكيف استطاع الشاعر أن ينقل بلسانه آلامه التي تجيش في صدره ، وعاطفته الصادقة التي تدمم في خاطره ، وتتوَّب في شعوره إلى المتلقي لا من خلال المقاربة الشكلية التي لا تتجاوز السطح ولا تتخطاه فقط وإنما لهذا ما وراءه من بعد نفسي يرمي إليه النابغة ويقصده ، وذلك لإثارة الانفعال في وجدان المتلقي الذي يعيش محنة الشاعر الذي يرتجف ، ويرتعش فيتعاطف معه ، ويشعر بشعوره ، ويروِّعه ما يروِّعه ، فيأسى لمأساته فلا أحد يغيب عنه أو هكذا يجب أن حالة الشاعر النفسية كانت تترأى في انكشاف بين وواضح من خلال التشبيه بالليل وإيثاره على النهار واختياره له والمتأمل الفاحص يرى الدلالة الإيحائية للصورة التشبيهية إنما تدل في وضوح وقوة على هول الموقف ، وشدة عنفه بالنسبة للشاعر المرتجف المذعور ، فالشاعر الخائف لا يمكن له أبدا أن يفلت من القبضة القويّة للملك ، كما أنه لا يستطيع وكيف يمكن له أن يهرب أو يحاول ذلك

❁—————الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ—————دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

وهو لا يقدر على ذلك ؟ ذلك أن الحِمَامَ الرَّاصِدَ يتعقبه في كل مكان ، وأينما حل أو رحل . فيد الممدوح التي تهيمن وتسيطر سوف تبطش به بعد أن تأتي به وهو يرسف في أغلاله وقيوده من أي مكان في الأرض بما له من سلطان يملأ الأرض ، ويعم الدنيا ، كما يعمها ظلام الليل . لَشَدَّ ما تفعل بالشاعر مَشَاعِرُ الخوف وأنسداد آفاق الأمل والرجاء في وجهه !

إن طريق حياته أصبح مفروشاً بالأشواك والحسك ، فهل يأتي اليوم الذي يراه فيه موشى بالورود منصور الجنبات فيعفو عنه الملك ويصفح؟

إن مشاعر الرعب تملأ صدر الشاعر ؛ لأنَّه لن يمكنه الإفلات من قبضة النعمان الباطشة ، أو الهروب منها . فلن يستطيع أن يذهب إلى أي مكان لا تهيمن عليه يد الملك وتسيطر وأنت تنظر في لفظ « الليل » وتديره في وعيك وعقلك ، فلا تجد لفظاً غيره على يسره ، وبساطته ، وجريانه على اللسان في خفة ورشاقة ينهض بتصوير سطوة النعمان المرهوب ، والعجز عن الفرار منه من جانب وتصوير امتلاء قلب الشاعر بالخوف والرعب والظلمة لغضب النعمان عليه من جانب آخر . يقول ابن رشيق : « إنَّما قدم الليل في كلامه ؛ لأنَّه أهول ، ولأنَّه أوَّل ، ولأنَّ أكثر أعمالهم إنَّما كانت فيه ؛ لَشِدَّةِ حرِّ بلادهم ، فصار ذلك عندهم متعارفاً »^(١).

هذا ولقد أدار الإمام عبد القاهر حول صورة التشبيه في بيت النابغة حواراً اتسم بالتفكير الحي ، والبصيرة النافذة ، وحركة الذهن ، وغوصها الدائب الذي لا يتوقَّف عند السطح ، وإنَّما يحاول الوصول إلى الأعماق فتراه يقلب صورة الفكرة في وعيه وعقله مع الملاحظة والتأمل وتعميق البحث في فهمها حتى يصل في النهاية بعد تحليلها وفحصها إلى تجلّيتها على الوضع المائل في ذهنه بعد مناقشة جادة تكشف مستويات الأداء في الصورة وتفصح عن رضاه عن

(١) العملة ٢٠١/٢ بتحقيق محمد محيي الدين .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ الْبَيَانِ ————— ❁

مستوى معين في التركيب التي بُنِيَتْ مِنْهُ الصُّورَةُ وعدم قبوله لغيره معللاً ومناقشاً . مستثمراً في كل ذلك طاقات الألفاظ في بنائها التركيبي وما تُسْفِرُ عنه من الأداء الجمالي الذي يستمدُّ وجوده من قُدْرَةِ المنشئ على التَّظْلِيلِ والتَّلْوِينِ ، ومن الأبعاد الدَّلَالِيَّةِ للألفاظ التي تُغْزِّرُ من كثافتها ، وتعمِّق من خلال الموقف الذي جاء الشعر من أجله ، وفي سياقه .

إن الإمام يدرك بحسِّه اللغوي استحالة أن يكون المعنى في بيت النابغة على حدّ : « إن فررت منك أظلني الليل ، أو إن فررت منك وجدت ليلاً يدركني ، وإن خلت أن المنتأى واسع والمهرب بعيد » ممّا يتحول معه التمثيل إلى استعارة . والسر وراء هذه الاستحالة في المثال الأول وهو : « إن فررت منك أظلني الليل » أن القبول بهذا أو الرضى به يذهب بمراد الشاعر ، وبما يعمد إليه ، ويقصده بعيداً ، ويُضَيِّعُ الفكرة الأساسية التي عبّر عنها البيت ، وجاء ليقدمها وهذه الفكرة هي تصوير سطوة الملك وعُنفه وجبروته ؛ إذ لا يمكن أن يفوته هارب ، أو يفلت من قبضة يده ، ولا يستعصى عليه الإتيان به ومن ثمّ تشبيهه بالليل الذي يغطي الأرض كلها ويصل إلى كل مكان فيها وأقصى ما يمكن أن تدل عليه الصياغة الجديدة في مثل : « إن فررت منك أظلني الليل » أن تبين وتوضح أن الشاعر حين يهرب من النعمان يكون في تيه لا يجد فيه هدىً ، وفي حيرة لا يستطيع الخلاص منها .

إذ إن الفكرة الجديدة التي ستقدمها الصياغة بعد التحويل والتبديل ستكون على هذا النحو : « إذا هربت منك استحالة الحياة كلها عليّ ظلاماً وضللت طريقي كمن يضرب في أطناب ظلمة حالكة » وهذا شيء لم يقصد إليه الشاعر ، ولم يرده ، ولم يضعه في تقديره وحسابه . فهو خارج عن الهدف الذي يهدف إليه ، ويقصده . والسر من وراء ذلك أنّه بهذه الصياغة وفي هذه الصورة يؤدي إلى عدم الإحساس بسطوة النعمان وهَوْلِهِ وقوّة أَخْذِهِ ، وقدرته المذهلة على الوصول إلى أي مكان من الأرض يريد أن يصل إليه بنفسه أو برجاله بعد

❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

أن ضاعت مع تحويل التشبيه التمثيلي إلى استعارة كل الإمكانيات اللغوية التي توصلُ إلى هذا .

ومن ثَمَّ فإن « السواد » لا يُحقِّق الغرض ، ومن الخطأ عده على أنه الخاصية المرادة والمطلوبة .

وفي المثال الثاني : « إن فررت منك وجدت ليلاً يدركني ، وإن خلفت أن المنتأى واسع ، والمهرب بعيد » لا تقبلُ بهذه الاستعارة المحوَّلة عن التمثيل وإن كان لا يوجد ما يمنع من أن الشاعر واقع فيها تحت غضبة الملك ، وسخطه والسُّرُّ وراء عدم القبول هو معرفتنا أن هناك حداً يمكن معه تحويل التشبيه إلى استعارة وذلك حين يكون الشَّبه ظاهراً وذلك كمن قصد بالتشبيه السواد والظلمة كقول ابن طباطبا : « بعثت معي قطعاً من الليل مظلماً » .

يقصد زنجياً أرسله معه المخاطب من بيته ومنزله ، فإن كان الشَّبه خفياً ، فإنه لا يجمل ولا يصحّ كما في قول النابغة .

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع^(١)

على أنه لابد من رصد القيم الجمالية النابعة من دلالة الألفاظ ، ومن الموقف الشعري ، وربطها بالأحوال والمقامات ، ووصلها بالذوق العام ، وانسجامها مع ما يسمح به العرف ويرتضيه ، ويقبل به ، ولا يتصادم معه .

وخلاف الجميل أن تقول ما لا تقبل به الطباع ، وأن تسلك طريقة مجهولة في الإفضاء بما يتردد في نفسك ، وأن تخالف العرف فيما توافق عليه ، وارتضاه فتجعل من الممدوح « لَيْلاً » هكذا ولذا كان الشاعر دقيقاً في اختياره لكلمة « الليل » وإيثارها على كلمة « النهار » مع أن كلا منهما يحمل معنى العموم والانتشار « فالنهار » قسيم الليل في هذا وصنوه ، ومثال ، وما يصل إليه الليل يصل إليه النهار . وما من موضع في الأرض إلا ويدركه ويصل إليه كل واحد منهما ،

(١) أسرار البلاغة ، ص ٢٤٥ ، تحقيق علامة العرب محمود محمد شاكر .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ الْبَيَّانِ ————— ❁

ولمّا كان المقام مقامَ خوف ، ورهبة ، وغضب كان المقام لليل لا للنهار إذ إن الليل هو الذي يشعرك بهذا وليس شيئاً آخر: يقول الإمام عبد القاهر «فاختصاصه الليل دليل على أنّه قد رَوَى في نفسه ، فلما علم أن حالة إدراكه وقد هرب منه حالة سُخْط رأى التمثيل بالليل أولى»^(١).

ويقوَّى هذا الاختيار المواءمة بين الموقف وما يعبرّ به عنه ويتجلى ذلك في وضوح بين وظاهر فيما ذكره الإمام عبد القاهر ، ونص عليه من قول الشاعر عباس بن الأحنف .

نعمة كالشمس لما طلعت بثت الإشراق في كل بلد
فهو يريد ما يريده النابغة ، ويقصّد الذي يقصده . من تعميم الأقطار ، والوصول إلى كل مكان ولكن الشأن في النعمة أن تسرّ وتؤنس ، وتُفرح وتُبهِج ؛ لذا كان اللائق بها أن تكون نظيراً للشمس التي يُمثّل بها للنعمة التي هي من مواطنها إذ هي أليق بها ، وأدل عليها ، فاختياره للشمس ليمثل بها للنعمة اختيار الشيء لما هو به أشبه ، وأولى ، وأليق ولو أنّه عبر «بالليل» بدلاً من «الشمس» لكان كمن يضع الشيء في غير موضعه الذي يجب أن يوضع فيه .

يقول الإمام عبد القاهر : «ولو أنّه ضرب لوصول النعمة إلى أقاصي البلاد وانتشارها في العباد بالليل ووصوله إلى كل بلد ، وبلوغه كل أحد لكان قد أخطأ خطأ فاحشاً إلا أن هذا وإن كان يجيء مستويا في الموازنة ، ففرق بين ما يُكره من الشبّه وما يُحبّ ؛ لأنّ الصفة المحبوبة إذا اتصلت بالغرض من التشبيه نالت من العناية بها ، والمحافظة عليها قريباً ممّا يناله الغرض نفسه . وأمّا ما ليس بمحبوب فيحسُن أن يعرض عنه صفحاً ، ويدع الفكر فيه»^(٢).

(٢٠١) أسرار البلاغة ص ٢٥٥ .

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

إن الليل وحشة ، ورهبة ، وهول ، وخوف . ولما كان النابغة يريد بيان شدة سخط النعمان عليه وتهديده وغضبه « وراعي حال المسخوط عليه ، وتوهم أن الدنيا تظلم في عينيه حسب الحال في المُسْتَوْحِش الشديد الوحشة »^(١).

وهكذا يأتي التمثيل « بالليل » بظلمته المطبقة ، وبسُدُولِهِ المرخاة ، وبصمته الرهيب الذي يروع بالخطر ، ويبعث بالخوف ، وبسكونه المرهوب الذي يعمق وحشة الأخطار في الفؤاد ، ويحشد الأهوال في النفس ، فالليل كما قيل هو مجمع الويل ؛ ولذا يحاول الإنسان أن يتجنب مخاطره فيأخذ لنفسه الحذر ، ويحتاط لها ، حفاظا عليها ، وتأمينا لسلامتها فلفظ « الليل » المعبأ بالرهب ، والذعر والمشحون بالهول والخوف . أوجز واختصر الموقف إذ قام مقام كلام طويل ، وسد مسدّ عبارات وجمل . وكان معبراً عن جلال الموقف تعبيراً صحيحاً ، ومصوراً له تصويراً صادقاً؛ ذلك لأنه لا شيء غيره يتطلبه الحال ، ويقتضيه المقام ، ويفرضه الموقف .

هذا ويأتي بعد قول الشاعر :
فإنك كالليل الذي هو مدركي
قوله :

خطايفُ حُجْنٌ في حبالٍ متينةٍ تُمَدُّ بِهَا أَيْدٍ إِلَيْكَ نَوَازِغُ
أي جواذب ، ويقال : نزع من البئر دَلْواً أو دلوين ، إذا جذبتهما ، والمنتأى : المكان الذي يبعد عن النعمان وينأى فيه بعيداً عنه .

فإذا كان في البيت السابق ! فإنك كالليل الذي هو مدركي :
يبين أنه لا يمكن للنابغة أن ينجو من مؤاخذه النعمان وعقابه مهما اتسعت أمامه طرق البعد عنه . وخصّ الليل دون النهار ؛ لأنه ثقيل مُوحِشٌ يُخْشَى شره كما يُخْشَى عقابُ الملك .

(١) أسرار البلاغة ص ٢٥٢ .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دُرُوسٌ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ❁

فإنَّ في قوله : « خطاطيف حُجْن » ما يؤكد من خلاله ما أبان عنه في قوله « فإنك كالليل الذي هو مدركي : الذي يُظهر سطوة النعمان ، وسلطانه ويده الطويلة الممتدة التي ستصل إليه في أي مكان يصل إليه الليل ، وتأتي به لتحاسبه وتعاقبه . إذ يقول له إِنَّكَ يَمْقُدُوكَ أَنْ تَدْرِكْنِي وتصل إليَّ مهما أوغلت في البعد بما لك من سلطان قوي ، وقدرة متمكنة فخطاطيفُك الحُجْن التي تمتد بها إليَّ أيد تنزع بي إليك وتجذبني وتأتي بي إليك ما يوثق سلطان الملك وقدرته على الوصول إليه وجذبه مهما كان ، كما يظهر ضعفه ليستعطفه ويمدحه بقوله :

وَأَنْتَ رِبِيعٌ يُنْعِشُ النَّاسَ سَيِّئُهُ وَسَيفٌ أَعْرِثُهُ الْمَيِّتَ قَاطِعُ

فالشاعر الهارب الهائم على وجهه يرى نفسه طريداً من طرداء الخوف في بطون الأودية ، وأعالي الجبال فيسعى لالتماس ظلال الأمن والأمان في كنف النعمان الذي يجمع بين جمال النفس ، وكثرة العطاء والبذل ، وبين قوة الأخذ ، وشدة البأس وصرامة السيف ؛ لذا اختار الربيع بما فيه من خضرة تروق ، وعبير يفوح ، وحياة هامدة تنتعش ، وثرى يتفجر بالخصب ويرف بالجمال ليكون نظيراً للنعمان فيشبهه به فهو الذي يخلع على الوجود وضاء الحسن ، وعلى الكون رونق السعادة فيحقق الصفاء في النفس ، ويشعل الحب في القلب ، وينشر الجمال في الكون ، ولذا يفتّر الدهر العابس عن بسمات البشر التي تفيض في الصدور ، وتزدان بها الشفاة . فالنعمان ربيع على هذا النحو حياة متفجرة وسيب ممتد بعطائه الفياض المتدفق لأحبابه وأوليائه ينعشهم ، ويجعل دم الحياة يتدفق في شرايينهم . ثم إن الشاعر بعد أن صورهُ بالربيع على هذا صورهُ مرة أخرى بالسيف النافذ القاطع ، فهو خيرٌ يتدفق للأحباب والأولياء ، وسيف يقطع ويهلك ويفنى للأعداء ، والشاعر الخائف الذي شرح ووضح من خلال الصورة التشبيهية أن الملك سلسبيل جار ، وخير يتدفق بالعطاء ، لأحبابه ،

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

هو نار تحرق وتُبِيدُ بالنسبة لخصومه يلتمس من خلال هذا التصوير أن يصل إلى قلب النعمان ؛ لأنَّ الشاعر مع ذعره وخوفه ، ويأمل في عفوه وصفحه .

وانظر إلى الصورة المعجبة التي راقت وفتنت كيف التقى فيها الحياة والموت التقاء سعيداً من خلال المقابلة الدقيقة بين إمراع الربيع الذي يجعل الحياة تزهر وتنضّر ، وبين قطع السيف وفتكه الذي يهلك ويفنى .

هذا ومما قاله الشاعر في نفس السياق فأوجز واختصر وعبر به عن خوف يملأ قلبه ، وعن هلع ترتعد معه مفاصله ، وينخلع له فؤاده ، وذلك حيث يقول^(١) :

- ١- فلا لَعْمُرُ الذي مَسَّحتْ كَعْبَتَهُ وَمَا هُرِيقَ عَلَى الْأَنْصَابِ مِنْ جَسَدِ
- ٢- وَالْمُؤْمِنِ الْعَائِذَاتِ الطَّيْرِ يَمْسَحُهَا رُكْبَانُ مَكَّةَ بَيْنَ الْغَيْلِ وَالسَّعْدِ
- ٣- مَا قُلْتُ مِنْ سَيِّئٍ مِمَّا أُتِيَتْ بِهِ إِذَا فَلَا رَفَعَتْ سَوْطِي إِلَى يَدِي
- ٤- إِلَّا مَقَالَةَ أَقْوَامٍ شَقِيَتْ بِهَا كَانَتْ مَقَالَتُهُمْ قَرَعًا عَلَى الْكِدِ
- ٥- أَنْبِئْتُ أَنْ أَبَا قَابُوسَ أَوْعَدَنِي وَلَا قَرَارَ عَلَى زَارٍ مِنَ الْأَسَدِ

في قوله : (مَسَّحتْ كَعْبَتَهُ) أي أُتِيَتْ بَيْتُهُ وطففت به والكعبة : كل بيت مربع وهُرِيقَ : أي صُبَّ عَلَى الْأَنْصَابِ وهي حجارة كانت تُذْبَحُ عندها الذبائح للآلهة التي كانوا يعبدونها والجسد : الدم اللاصق فهو يقسم بهذا كله .

وقوله في البيت الثاني : الْمُؤْمِنِ : الذي أَمَّنَهَا مِنَ الْخُوفِ وَالْعَائِذَاتِ أي أَمَّنَهَا أَنْ تُصَادَ فِي الْحَرَمِ ، أي أَنَّ الطَّيْرَ الْعَائِذَاتِ بِالْحَرَمِ لَا تُهَيِّجُ وَلَا تُرَوِّعُ بِأَخْذِ وَالْغَيْلِ : الشَّجَرُ الْمَلْتَفِ وَكَذَلِكَ : السَّعْدُ وَالشَّاعِرُ يَقْسِمُ بِالَّذِي أَمَّنَ الطَّيُورَ الْعَائِذَاتِ بِالْحَرَمِ مِنْ أَنْ تَهَاجَ أَوْ تُصَادَ .

(١) ديوان النابغة ص ٢٥ ، ٢٦ .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَةٌ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ❁

وفي البيت الثالث قوله : (ما قلت من شيء) جواب القسم في قوله « فلا لعمرُ » الذي مَسَّحَتْ كَعْبَتَهُ وقوله : (فلا رَفَعْتُ سَوطِي إلى يَدَيَّ) إِذَا فُشِّلَتْ يَدَيَّ حَتَّى لَا أَطِيقَ رَفْعَ السَّوْطِ بِهَا مَعَ خَفَتِهِ ، وكثرة الاحتياج إليه لِحَثِ المَطْيِ فِي السَّفَرِ والنَهْوِضِ إِلَى الْغَارَةِ .

وفي البيت الرابع قوله : (إِلَّا مَقَالَةَ أَقْوَامٍ) نَصَبَهَا عَلَى الِاسْتِثْنَاءِ الْمُنْقَطِعِ .
والمعنى : ما قلت شيئاً مِمَّا أَتَوَكُّ بِه عَنِّي لَكُنْهُمْ قَالُوا مَقَالَةً شَقِيتُ بِهَا عِنْدَكَ ثُمَّ يَبِينُ شِدَّةَ مَقَالَتِهِمْ عَلَيْهِ وَتَأْثِيرَهَا فِيهِ ، وَوَقَعَهَا عَلَيْهِ فَيُشَبِّهُهَا فِي ذَلِكَ بِقَرَعِهَا كَبَدِهِ .

أَمَّا الْبَيْتُ الْخَامِسُ وَهُوَ :

أَنْبِئْتُ أَنْ أَبَا قَابُوسَ أَوْعَدَنِي وَلَا قَرَارَ عَلَى زَارٍ مِنَ الْأَسَدِ
وَأَبُو قَابُوسَ هُوَ النِّعْمَانُ بْنُ الْمَنْذَرِ وَأَوْعَدَنِي : يَعْنِي هَدَدَنِي ، وَزَارَ الْأَسَدَ وَزَيْئِرَهُ صَوْتَهُ الْمَرْعَبَ وَوَعِيدَهُ الَّذِي إِذَا زَارَ فَلَا قَرَارَ لِأَحَدٍ بِجَوَارِهِ ، وَلَا اطمئنَّانَ ، وَإِنَّمَا هُوَ الرَّعْبُ وَالْفَزَعُ الَّذِي لَا يَكُونُ مَعَهُمَا حَيَاةٌ وَلَا اسْتِقْرَارٌ . فَالشَّاعِرُ يَوْجِزُ وَيَخْتَصِرُ مَا يَحِيطُ بِهِ مِنْ أَهْوَالٍ وَمَا يَتَرَبَّصُ بِهِ مِنْ شَرٍّ وَيَطْوِي كُلَّ مَا يُمْكِنُ أَنْ يُرْعِبَهُ وَيُرَوِّعَهُ وَيَتَوَقَّعَهُ مِنْ إِهْلَاكِهِ وَتَدْمِيرِهِ وَيَعْبِّرُ عَنْهُ بِعِبَارَاتٍ وَجُمَلٍ فِي « زَارَ الْأَسَدَ » الَّذِي يَتِمَثَّلُهُ فِي شَخْصِهِ حِينَ يَكُونُ قَرِيباً مِنْهُ وَهُوَ يَزَارُ فَيَرْتَجِفُ مِنْ هَذَا كَيَانُهُ كُلَّهُ ، وَيَمْلَأُ الْفَزَعَ وَالْخَوْفَ قَلْبَهُ ، وَتَرْتَعِدُ مَفَاصِلُهُ هَلَعًا وَلَا يَطْمَئِنُّ بِهِ مَجْلِسٌ ، وَلَا تَسْكُنُ لَهُ نَفْسٌ ، وَلَا يَهْنَأُ لِشَخْصِهِ خَاطِرٌ ، وَلَا يَقْرَءُ لَهُ جَنَانٌ مِنَ الرُّوْعِ فَتَهْدِيدِ النِّعْمَانِ وَوَعِيدِهِ هُوَ زَيْئِرُ الْأَسَدِ الَّذِي يَخِيفُ وَيُرْعِبُ ، وَالتَّشْبِيهُ مَأْخُوذٌ مِنْ مِزْمُونِ الْكَلَامِ ؛ لِأَنَّ الْمَشْبَهَ وَالْمَشْبَهَ بِهِ لَا يَظْهَرَانِ ، وَلَا نَرَاهُمَا فِي تَعْبِيرٍ ظَاهِرٍ وَوَاضِحٍ ، وَإِنَّمَا يَفْهَمَانِ مِنَ الْمَعْنَى ، وَيَبْدُوَانِ مِنْ خِلَالِهِ . وَالنَّابِغَةُ يَشْبَهُ خَوْفُهُ وَعَدَمُ اطمئنَّانِهِ مِنْ وَعِيدِ النِّعْمَانِ ، وَهَيْبَتِهِ وَتَهْدِيدِهِ بِخَوْفِهِ مِنْ زَيْئِرِ الْأَسَدِ الَّذِي يَخِيفُ وَيَكُونُ مَصْدَرُ هَلَكَةِ وَمَوْتِ

❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

في شبه هو التوقع لمصير بائس ، ومُسْتَقْبَلٍ مظلم غامض لا يوجد فيه مَنْ يَدْفَعُ الخطر ، ويدراً الهول .

هذا ومما يحققه التشبيه من ميزات المبالغة في التصوير ، فأسلوب التشبيه يتضمن طرفان قصد اشتراك أحدهما (المشبه) مع الآخر المشبه به في صفة أو أكثر فهما يلتقيان معاً على هذا الشبه الذي يجمعهما ، ويقاس أحدهما المشبه على الآخر المشبه به الذي يواجه الطرف الأول ، ويقابله في صفة أو أكثر ، وتقوم المقارنة بينهما على أساس هذه المقابلة التي صُوِّرَ فيها الطرف الأول بالطرف الثاني منها وهذا الثاني يرسم صورة الأول بما بداخله من صفات وأحوال وبما يموج في هذه الصفات والأحوال من رؤى ومشاعر وعواطف وأحاسيس وحين تأتي بالتشبيه على هذا النحو يكون قد استقر في ذهنك ووعيك أنك إنما شبهت ووضعت المشبه به في مقابل المشبه ؛ لأنك إنما تهدف من وراء هذا التقابل تأكيد صورة المشبه في النفس ، وتقريرها في الفؤاد بصورة المشبه به وهذا يفيد المبالغة في الصفة التي يراد التقاء الطرفين فيها على أية صورة كانت هذه الصورة مدحاً أو ذمّاً ، أو إسراعاً ، أو إبطاءً ، ترغيباً أو ترهيباً تصغيراً أو تكبيراً التقاء أو افتراقاً ، حبا أو صدا . وترى هذا يتحقق بدرجة من الدرجات في جميع صور التشبيه التي تلازمها المبالغة ولا تفارقها ؛ لأنها الهدف التي تهدف إليه وتسعى لتحقيقه حتى تأخذ مكانها الرائد ، وتحتل المنارة العالية ذلك أن المبالغة هي النافذة المضيئة ، والباب الأعظم لصورة التشبيه .

تأمل في قول امرئ القيس التي جثمت الهموم فيه على صدره وأرخت سدولها المظلمة عليه في ليله الممتد المتطاوّل ، والذي تحدث عن تراكب طوله على نحو رأى معاناته وأحزانه تموج به في ظلام مطبق على أنفاسه اللاهثة ،

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دُرُوسَةٌ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ❁

ولذا قاس ليله الذي تموج فيه الهموم وتزاهر وتتدافع على هذه الحالة واستمع إلى الصورة الماثلة من فم الشاعر ^(١).

ولَيْلٍ كموج البحر أرخى سدوله عليّ بأنواع الهموم ليبتلي
فقلت له لما تَمْطى بحوزه وأردف أعجازاً وناء بكلّكل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي بصبح وما الإصباح فيك بأمثل

فامرؤ القيس يصور الليل كما أحسّ به ، وكما عاشه ، وعلق بمشاعره تصويراً يُضفي من المعاني على هذا التصوير ما لم يخطر في الذهن أو في الخواطر ، وأنت تراه يتحدث عن ليله الطويل الذي أرخى عليه ستائره ليبتلي صبره وجزعه فيبثه حزنه وشجاءه ، ويتحاور معه ويكمّله والليل يستمع وينصت بعد أن خلع عليه من صفات الحيوان ، ما جعل له حوزاً يتمطى ، وصدره ينهض ، وأعجاز تردف ، ويطلب منه أن يتخلى ، وينكشف عن صبح وليد ، وشمس ضاحية ، ثم يتحقق أمام ناظريه أن همومه ستظل جاثمة على صدره ، وأن الصبح الذي طلبه وتمنّاه لن يكون أمثل ولا أحسن من الليل ؛ لأنّ الهموم التي تمرور في قلبه وتتدافع باقية معه لا تبرّحه ، ولا تفارقه لا في ليل ، ولا في نهار ، وتأمل التشبيه الذي أقامه في قوله :

وليل كموج البحر أرخى سدوله

والتشبيه يقوم من خلال حديثه عن الليل الذي تموج فيه الهموم وتزاهر في عنفوان وجبروت كما يموج الماء في البحر ويتهالك في ضراوة هذا والأستاذ محمود محمد شاكر يرى ، فساد التشبيه الذي ارتضاه الشراح وهو تشبيه الليل فيه بموج البحر في ظلمته ووحشته وهوله على أساس أن قوله : « بأنواع الهموم » متعلق « بأرخى عليّ » ويبين فيما يرى « أن الموج في البيت مصدر وليس اسماً وأصل سياقة البيت « ليل يموج بأنواع الهموم ليبتلي » ، موجاً كموج البحر أرخى على سدوله » .

(١) ديوان امرئ القيس ، بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - ص ١٨ ، دار المعارف .

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

فظلّمة الليل مِنْ قوله : « أُرْخَى عَلَيَّ سَدُولُهُ » أمّا التوحش والهول فهو توحش الهموم الطاغية المتضرية عليه في ظلام الليل وهذا أحق بامرئ القيس ونبالة معانيه ، ومن تأمل عَرَفَ ما فيه من الروعة والإيجاز واللمح القريب البعيد القريب للمعاني المختلفة . وههنا أمر مهم ذلك أن الحذف في شعر امرئ القيس خاصة وفي غيره كثير^(١) .

وتقرير التشبيه أن يكون الشاعر قد شبه ليله الذي يموج بأنواع الهموم موجا كموج البحر في شدة المخاطر وكثرة المهالك ، وهذا حال ليل امرئ القيس في همومه ، وما خلفه هذا الليل من تأثير ومعاناة في صاحبه ، فالليل هذا هو الذي تموج فيه الهموم وتتكاثر في ضراوة وطغيان وفوران وقهر موجا على حد الموج في البحر وتدفعه وتهالكه في عنف وشراسة ، والتشبيه مع تحقيقه للإيجاز بالحذف مع التأكيد في تقرير صورة المشبه في النفس هذا الليل الذي تموج فيه الهموم وتتدافع بصورة المشبه به ، وبذلك تتحقق المبالغة وتتكثر وتظهر وتتوضح .

وقال امرؤ القيس :

وقد اغتدى والطير في وُكُنَاتِهَا بمنجردٍ قِيدَ الْأَوَابِدِ هَيْكَلِ
مَكْرَ مَفْرٍ مَقْبَلٍ مَدْبِرٍ مَعَا كَجُلُودِ صَخْرٍ حَطَّ السَّيْلُ مِنْ عِلِّ

والوكنات : المواضع التي يأوي إليها الطير . والمنجرد : الماضي المنسلخ من الخيل عند السياق . والأوابد : الوحوش ، وجعله قيداً لها لأنه يسبقها فيمنعها من أن تفوته : والهيكل : الضخم فهو يبكر بفروسه هذا الذي يقيد الوحش الذي لا يفوته إلى الطيور في وكناتها قبل أن تغادرها وفي قوله :

مَكْرَ مَفْرٍ مَقْبَلٍ مَدْبِرٍ مَعَا كَجُلُودِ صَخْرٍ حَطَّ السَّيْلُ مِنْ عِلِّ

(١) طبقات فحول الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي ، تحقيق الأستاذ محمود محمد شاكر ، السفر الأول ص ٨٥ ، مطبعة المدني .

الصورة البيانية ————— دراستي في مسأله البيان ————— ❁

فالشاعر يتحدث عن فرسه الذي خرج عليه للصيد وعن سرعته التي تتجاوز كل حد حين يريد الكرّ على العدو وكذلك إذا أراد الفرار منه ، وفي قوله : «مقبل مدبر» يفسر شارح الديوان المقبل بالمكر والمدبر بالمفر يعني أن هذه الأشياء عنده والتشبيه يقوم من خلال تشبيه الفرس في سرعته وشدة صلابه خلقه بجلمود صخر رمى به السيل من فوق الجبل إلى حضيضه . «وهذا البيت من الأبيات التي تعاورها الشراح ليزيلوا تناقضها لقوله : «مكرّ مفر معاً» وهما صفتان لا تجتمعان معاً . والمكرّ الحسّن الكرّ: أي العطف والرجوع إلى ما انصرف عنه . والمفر الحسن : الفرار عما يريد أن ينصرف عنه ، وما أراد امرؤ القيس إلّا ما ظنوه تناقضاً ليزيلوه فهو يَصوّر سرعة انتقال فرسه من كر إلى فر ومن إقبال إلى إدبار حتى يعجز رائيه أن يفرّق بين كرتيه وفرته لا يكاد يقول كر حتى يراه فرّ ثم شبه اجتماع بدنه وقوائمه ، وسرعته في نزوه ، وشدة اندماجه في ذلك بجلمود صخر حطه السيل من رأس الجبل فتدّهدى يخطف على صفحة الجبل خطفاً يمسّها مسّة ثم ينقذف في الهواء حتى يمسّ صفحة الجبل مرة أخرى وهكذا دواليك ، وفي خلال ذلك تبدو صفحة منه وتختفي أخرى مرة بعد مرة»^(١).

«وقال بعض من فسّره من المحدثين إنّما أراد الأفراد ، فزعم أنّه يرى مقبلاً ومدبراً في حال واحدة عند الكر والفر لشدة سرعته ، واعترض على نفسه واحتج بما يوجد عياناً ؛ فمثله بالجلمود المنحدر من قنّة الجبل ، فإنك ترى ظهره في النصبه على الحال التي ترى فيها بطنه وهو مقبل إليك ، ولعل هذا ما مرّ قطّ ببال امرئ القيس ولا خطر في وهمه ، ولا وقع في خلدّه ، ولا رُوعه»^(٢).

(١) طبقات فحول الشعراء ، بتحقيق الأستاذ محمود محمد شاكر ، ص ٨٣ ، ٨٤ .

(٢) العملة لابن رشيق بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، ص ٩٣ .

❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

وتنتهي من هذا إلى أن حديث امرئ القيس عن فرسه حديث المعجب المفتون إذ أنه يصحبه في مسيرته ؛ ولذا فإنه حين يخص سرعته بحديث يكشف عن امتلائه ؛ وافتتانه ، وزهوه ، بحصانه من متانة خلقه ، وقوة تركيبته وعظم هيكله ، فهذا هو المنطق الذي يعرفه الشاعر ويتردّد في داخله ذلك لأنه يجد نفسه وهواه وعشقه في كل هذا ، فالفرس الذي يتفجّر بالقوة والحيوية والنشاط هو جزء من حياة الشاعر الذي يتغلّت كثيرا من ربقة القيد فيهتف بالمعجز من قلائد البيان ، وروائع الشعر ، فالفرس رفيقه في غدوه ورواحه وتجوّله في البادية ، وتنقله من مكان إلى مكان وراء رغباته ونزواته ومغامراته يضرب به من ألق إلى ألق ، ويخرج به من هول إلى هول ؛ لذا هو يغدو به في البكور قبل خروج الطير من أعشاشها في نشاط وهمّة في سرعة عدو ليذكر قطعان الأوابد فيقيدها ، ولا تستطيع أن تغلّت منه ؛ لأنه يسبقها فيمنعها من أن تفوت ومع ضخامته فهو شديد في حركته مكرّ لا يسبق مفراً لا يلحق إذ أريد إقباله لا يمنع ولا يصد ، وإذا أريد إدباره فلا يرد يفر ويكر على هذا النحو في وقت واحد ، ويقبل ويدبر كذلك في وقت واحد ، فهو في انطلاقته وسرعته ، ومتانة هيكله ، وصلابته كأنه جلمود صخر هوى به السيل وحطّه من جبل مرتفع .

هذا ومما يميز به التشبيه ويتفوق على نحو يجليّ فائدته ، ويبرز قيمته ما تبعث به الدلالة الإيحائية لصورة أمام من يتلقاه حين تفتح نافذة للخيال المتوثب يُطل منها على النصّ بُعْدِ النفس الذي يسبح في أجوائه فيخيّل من سحر بيانه ما يوحى به من معان ، وأفكار ، وما يمكن أن يفيض به ، ويتدفّق من رؤى ، وخواطر تشيع اللذة في النفس ، والطرب في الفؤاد على نحو يتّسع لها النص ، ولا يضيق بها .

الصورة البيانية ————— دراستي مسائل عليّ البيان ————— ❁

انظر إلى قول المتنبي من قصيدة يمدح بها بدر بن عمار :

كأَنَّمَا قَدَّهَا إِذَا انْفَلَتَتْ سَكَرَانُ مِنْ خُمِرِ طَرْفِهَا ثَمَلُ^(١)
يَجْذِبُهَا تَحْتَ خَصْرِهَا عَجُزٌ كَأَنَّ مَنْ فَرَقَهَا وَجِلُ
بِي حَرُّ شَوْقٍ إِلَى تَرَشُّفِهَا يَنْفَصِلُ الصَّبْرُ حِينَ يَتَّصِلُ

والصورة في البيت الأول تحكي الحركة المتأنية المتمائلة البطيئة النشوى تتجلى من خلال هذا : القد الممشوق ، والقوام الأهيف الذي يسبى ويأسر وهو يتمايل ويتثنى في تنبه وعجب كالسكران الذي انتشى من خمر لحظها ، وإنها لفاتنة أسرة تستوي على عرش القلوب ملكة متوجة تأمر ، وتنهي فتصرع بطرفها كل مَنْ يراها فيتمايل ، ويترنح وهو ثَمَلٌ سكران بعد أن اختَلَبَتْ عقله ، وسَبَتْ فؤاده ، وصادت بسهميها قلبه والتشبيه ينهض ويقوم من خلال تشبيهها وهي تتمايل وتتثنى في مِشْيَتِهَا وهي قائمة بتمايل المخمور السكران في مِشْيَتِهِ إذ لا يَسْتَطِيع التحكم في إيقاع خطوه ، وحركة مشيه ووجه الشبه الذي يلتقي فيه الطرفان ، ويجتمعان عليه هو بطء الحركة مع الميل فيها . وقد تعجب من هذا القَدَّ المنفعل النشوان المتمايل وهو ثَمِلٌ من صَهْبَاءِ خَمْرَةٍ مسكرة تحكي هذه المِشْيَةَ التي تفعل بقلب من يراها كل هاتيك الأفاعيل ، وتأخذ منه كل هذا الأخذ . ولكن ألا ينظر الواحد منا في المرأة وقد صَفَّ شعره ونسَّقَ هندامه فيرى نَفْسَهُ واضح السَّمْتِ جميل المحيّا مشرق الغرر ، مُتَأَلِّقُ القِسمات فيأخذه الزهو ، ويملؤه العُجْبُ ، ويتيه من فيض النشوة ويظهر أثر ذلك في حركته ومِشْيَتِهِ. فكيف بالغيد الحسان ؟

وفي البيت الثاني تظهر الحركة المختلة المضطربة يمثلها التشبيه من خلال هذا الرَّدْفِ الثقيل ، والعجز السمين الممتلئ باللحم والمكتنز به وهو يجذب صاحبتَه في قوة حتى لتكاد تعجز عن القيام والنهوض من قعود :

(١) الديوان بشرح العكبري ٢١٠/٣ .

❁—————الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ—————دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

يَجْذِبُهَا تَحْتَ خَصَرِهَا عَجْزٌ كَأَنَّهُ مِنْ فِرَاقِهَا وَجِلٌّ

وإنك لتطالع هذه المعركة الدائرة من خلال هذا العجز الثقيل الذي يجذبها إليه ويشدها نحوه وهي تحاول أن تنهض فيرتعد ويهتز ويضطرب ويوحى إليك هذا المشهد مصورا بظل الكلمة ، وإيحائها ، ودلالاتها أن هذا الردف ثقيل وثقيل جداً ولكن في دقة واستواء ، وهو في حركته مضطرب مذعور تضطرم النار في حنايا ضلوعه خوفاً من الفراق ، وسهده ، وعذابه هذا العجز الثقيل في حركته المرتجة والمضطربة من شدة ثقله ، وكثرة لحمه وامتلأه يشبه في حركته تلك بحركة المضطرب الخائف الذي تعتريه رعدة الخوف والجامع الذي يلتقي عليه الطرفان ، ويجتمعان فيه هنا هو هذا الاهتزاز والرجرجة والاضطراب في الحركة .

هذا وقد ترى أن التعبير بالخائف في الحدّ الثاني المصوّر من الصورة في مقابل الطرف الأول منها المصوّر غير مقبول ذوقاً ولا مستساغ أدباً ؛ لأنّ الشاعر المسبوه يتغنّى بجمال المرأة ، وبِعَظَمِ أُرْدَافِها والحديث عن روعة الجمال لا يلائمه الحديث عن الرّعشة والخوف وفي ظني أن النظر الفاحص المتأمل في الصورة التشبيهية يدفع هذا الظن ويبعده ذلك أن المقصود من التشبيه تشبيه الأرداف في حركتها ، واضطرابها ، ورجرجتها بالاضطراب والردة والرّعشة في حركة الخائف المذعور . والحركة على هذا النحو في الإنسان الخائف المرتجف أوضح من أن تكون محلاً لخلاف وقديما كانوا يمتدحون المرأة بضمور خصرها وبِعَظَمِ الأُرْدَافِ واكتناز الخصر وامتلاء الصدر ، ونهود الثدي وارتفاعه ويرون في حركة عجز المرأة وارتجاجه مثاراً للفتنة ، ودليلاً على الرغبة فيها .

هذا وقد تجد مماثلة بين الحركة في هذا التشبيه هنا وبين الحركة في تشبيه مشية المرأة المتمايلة ومشية السكران ولكنني أرى أن الحركة في اضطراب الردف ورجرجته ، ورّعشة الخائف ، وارتعاده تفترق عن حركة المرأة المتمايلة

الصورة البيانية ————— دراستي مسائل علي البيان ————— ❁

في مشيتها ، والسكران في ترنجه المشية المتمايلة في المرأة والسكران فيها مشي ولكن في بقاء ، والحركة المتمثلة في الردف والخوف حركة من غير مشي ولا قطع مسافة قد يتشابهان ولكنهما لا يتماثلان^(١).

ولذا كانت امرأة المتنبي بما حوته من فتنة خالصة لاحت له من خلال حركة عجزها الثقيل الممتلئ ، وصدرها الناهد قد أشعلت نار الشوق في فؤاده ، وحركت الرغبة المجنونة في نفسه ليتشرف فاهها ، ويلتذ بمائه ، ليترد السأم عنه ، ويجدد الرغبة فيها . حتى يفارقه صبره ، وينأى بعيداً عنه ، فقد جدد اتصاله بها حرارة الشوق ولهيب الوجدان الشوق ، ولهيب الوجدان ، وهذا ما يوحي به البيت الثالث .

بي حُرُّ شوقٍ إلى ترشُّفها ينفصل الصبر حين يتصل
فصبر الشاعر ينفصل عنه ويتباعد حين يتصل به حرُّ الشوق إلى ترشُّفها والتمتع به .

وتأمل ما تبعث به الدلالة الإيحائية للتشبيه الذي يعبر عن الحركة السريعة التي تنقضي معها أيام الوصل التي كانت تفيض بالمسرات المتجددة من تدفق الحياة ، وانبثاق الحب ، وإشراق الصفاء ، وطلاقة الحيوية وبهجة العيش ، وكل هذا يشرق في النفس إشراق الأمل ، ويورق فيها إبراق الربيع ويجعلها تنظر إلى الدنيا بعين الخيال فتطير كالفراشة في كل روض وتحلق في كل جو لا تتشم غير الزهر ، ولا تتذوق إلا الرحيق وحين تمر وتتصمر يعيش صاحبها على ذكرياتها السعيدة والجميلة وإن كان يحسّ بوحشة في النفس ، وظلمة في العين فيأسى لتقضيتها ويحزن وكأنها ما كانت ولا تألق في سمائها كوكب ولا أشرقت في دنياها شمس وأتركك مع الشاعر وهو يرجع شدوه وأنغامه في شعره الذي يمدح فيه سيف الدولة في قصيدة مطلعها :

(١) التصوير البياني في شعر المتنبي ، للمؤلف ، ص ٣٩١ ، الطبعة الثانية ، مكتبة وهبة .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ —————﴾ دراستی في مسائل علم البيان

فدينك من ربع وإن زدنا كرباً فإنك كنت الشرق للشمس والغرباً^(١).

فالربع : المنزل في كل أوان والمربع : المنزل في الربيع خاصة ، فهو يخاطب الربع ويتحدث معه ، ويقول له : فدينك من كل سوء يحل بك ، ومكروه ينزل بساحتك ، وبقيت مُنعمًا سعيدًا بعيدًا عن غيرِ الدهر وكوارثه ، ومَعصومًا من نوائبه ومصائبه . وإن كنت قد هيَّجتُ أشجاننا ، وأثرتُ مواجعنا وأحزاننا بِتذكيركَ إيانا عهد الأوبة الذين تعارفوا بالجمال ، وتآلفوا بالحب ، ففي أجوائك كنا نرتع ونلعب ، ونُهْدِدُ الأحلام على نغمات الحب والأمل ونشد السعادة والسكينة في جوك البهيج ، ونسِيمُك الرخى ، وشمسك الضاحية في نشوة متصلة من الوداد المَحْضِ لم تخفت أصدأوه بعد إذ كنت مثوىً للحبيب نشأ في رحابك ، ونمى في ظلاك ، وطوّف في أنحائك وكنت موضعاً لخروجه ، وموئلاً لعودته ورجوعه هذا وقد استعار الشمس للحبيب فجعلها شمساً إذا أشرقت كان الربع مشرقها التي تشرق فيه وكان أيضاً مغرباً لها حين تغرب فيه وتحتجب . وفي قوله من نفس القصيدة في تشبيه يعير فيه عن الحركة السريعة في تقضي أيام الوصل والعيش السعيد .

ذكرت به وصلًا كأن لم أفز به وعيشًا كأنى كنت أقطعه وثبًا والبيت نفثة من نفثات صبٍّ واله مشوق ، يحمل زفرات كبد ناضجة محترقة ودمعة حارة ساخنة تنفست بها ذكرى الصبابة والهوى ، وأنّة حبسة شاجية أطلقها عان معذب يشكو بثه وأساه ، يتوقف أمام الربع وفي قلبه هوى عاصف وفي خياله ذكريات حبيبة ، وتلهمه جراحه أن أوقات الطيب والسعادة والمسرات تمضي في سرعة ، وتنقضي في ومضة وكأنها ما كانت وما قامت ، وأن العيش الهانئ الرغيد يتقضى على هذا النحو في سرعة سريعة ، وكأنه طريق يقطعه الإنسان وثبًا لا مشيًا ، ولا حتى عدوا .

(١) الديوان ، ٥٦/٣ - ٥٨ .

الصورة البيانية ————— دراستي مسائل علي البيان ————— ❁

والمتنبى يشبه أيام الوصل في تقضيها ، وسرعة انتهائها ، حتى إن الإنسان ما يشعر بها ، ولا يحس بمرورها بعدم وجودها ، والفوز بها ويجمع بين الطرفين (السرعة السريعة التي تجعله يستشعر ويدرك أن ما كان كأنه لم يكن) وهو موطن الشاهد إذ يسترجع ماضيه الحلو ، وذكرياته المعسولة فيشبه نفسه حين كان يعيش أيام الوصل برغدها وطيبها وكيف قضائها ، وانتهى منها في سرعة لم يشعر بها بقطع الطريق القصير والانهاء منه وثباً . ووجه الشبه هو الحركة السريعة ، وأنت حين تتأمل ترى الحركة السريعة تطل عليك من خلال التعبير بالوثب وما فيه من معنى القفز الذي يحتاج لاستجماع الطاقة والقوة والتهيئة البدنية لاستمرار الانطلاق فيه مما يدل ويؤكد على الحركة السريعة التي تكون أشبه ما تكون بحركة السهم المنطلق كما ترى كيف تكون أيام المسرات التي تفيض بالحب ، والعيش الرغيد الطيب والهنيء طريقاً قصيراً يقطعه الإنسان بأقصى سرعة ^(١).

هذا والجهير أن المتنبى كان رسولاً من رسل الإلهام والشعر. هيأته طبيعته التي تمت في أخلاق الجرأة والقوة أن يحتفظ لنفسه بالنصيب الأوفر من الفكر ، كثمرة لتجاربه التي اختلفت عليها العوامل ، وتزاحمت فيها الأحداث ، والأحوال ، وقد أوتي قريحة متوقدة تغذى هذا الفكر ، وتمده بقلائد الحكم ، وشوارد الأمثال على أن المتنبى كان غوصاً يغوص في الأعماق للحصول على جليل المعاني ، والتقاط لآلئها وجواهرها ، وسوقها في حكمه الذائعة ، وتشبيهاته المصورة ، ومن الجلي أن التشبيه لون من ألوان التعبير الفني المصور يصور فيه الشاعر ما يريد أن يحاكيه ويوازيه بغيره من المعادل الذي يوضحه ويبينه في بيان ملهم تعتمد مادته التي تقيم صورته الفنية على المدركات الحسية من جهة والمدركات الذهنية والعقلية من جهة أخرى مع التفاوت بينها في القوة والضعف .

(١) التصوير البيان في شعر المتنبى ، للمؤلف ، ص ٢٩٨ ، الطبعة الثانية ، مكتبة وهبة .

❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

يقول الشاعر من قصيدة يمدح فيها بدر بن عمار ^(١) :

والطعنُ شَزْرٌ والأرضُ واجِفَةٌ كأنما في فُؤادِها وهَلُ
قد صَبَغَتْ خَدَّها الدماءُ كَمَا يصبُغُ خَدَّ الحَرِيْدَةِ الخَجَلُ
والخَيْلُ تُبْكِي جلودها عَرَقًا بأذْمَعٍ ما تَسُحُّها مُقَلُّ

الشَزْرُ بالسنان الطعن به وأصل الشَزْرُ : أن يقبل الفارس يده عن يمين وشمال وهو أشد الطعن وواجفة : مضطربة . والوهل : الخوف والخريضة : المرأة الحيية وجمعها خرائد وخرَد .

أبو الطيب المنغمس في تيار الحياة لعهدده والحرب حينذاك قائمة على ساق وقدم ومن وحي الحياة وظروفها كان وصف أبي الطيب للجيش وساحات الحروب والقتال وإجاداته لهذا اللون الذي يجد فيه نفسه فيجلوه ويضع الصورة أمامك لتراها وتسمع جلبتها وضوضاءها على نحو ترتعد معه المفاصل ، وأنت تمضي مع البيت الأول وتدير تفكيرك فيه فترى الصورة الفنية وقد ناب التصوير البياني فيها عن ريشة المصور البارِع الذي يرسم صُورَه الزاهية بالخطوط والألوان ، فهو يضع أمام ناظريك من خلال الهول الذي يطل من الكلمات صورة الطعن ويصِفُه بأنَّه شَزْرٌ وهذا اللون من الطعن يوصف بأنَّه أشد أنواعه هولاً ، وأكثره فتكاً وتدميراً ، والطعن على أرض المعركة بهذه الصورة القوية قد أثار الرعب في فؤاد الأرض وجعلها تهتز ، وتميد ، وتضطرب . والتشبيه ينهَضُ من خلال تشبيه الأرض التي هزها الطعن الشديد ففزعت ودُعِرَت واضطربت بصورة المضطرب الفزع الذي استبد بفؤاده الرُّوعُ ، وهيمن على كيانه الخوف . ولاحظ كيف دَبَّتْ الحركة في الصورة ، وكيف تدفق الدم حاراً جياشاً في شرايينها وذلك بتكثيف التصوير من خلال بناء التشبيه على الاستعارة التي طالعت منها صورة الأرض وهي حيَّة نابضة متحركة

(١) ديوان المتنبي ، ٢١٤/٣ .



الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دُرِّسَتْ فِي مَسَائِدِ الْبَيَانِ ————— ❁

تَنْفَعَلْ ، وَتَتَأَثَّرْ ، لَهَا نَفْسٌ تَحْبَسُ ، وَفؤَادٌ يُذْعَرُ وَيَخَافُ وَيَهْتَزُّ وَيَصَابُ بِالْوَهْنِ
وَالْبَيْتُ الثَّانِي هُوَ :

قَدْ صَبَغَتْ خَدَّهَا الدَّمَاءُ كَمَا يَصْبُغُ خَدَّ الْخَرِيدَةِ الْخَجَلُ

فَمِنْ خِلَالِ جَوِّ الْمَعْرَكَةِ الَّتِي تَنَاثَرَتْ فِيهَا الْأَشْلَاءُ ، وَتَفَرَّقَتْ عَلَيْهَا الْجِثَثُ ،
تَرَى الدَّمَاءَ ، وَقَدْ سَالَتْ أَنْهَارًا عَلَى أَرْضِهَا فَغَطَّتْ وَجْهَهَا ، وَصَبَغَتْهُ بِاللَّوْنِ
الْأَحْمَرِ ، فَكَانَ نَظِيرًا لَخَدِّ الْعَارِيَةِ الْحَيَّةِ حِينَ يَصْبِيحُهَا الْخَجَلُ فَيَتَصَاعَدُ الدَّمُ
فَوَارًا إِلَى وَجْنَتَيْهَا وَيَلْوُنُ وَجْهَهَا بِلَوْنِ الْوَرْدِ وَالتَّشْبِيهِ يَقُومُ مِنْ خِلَالِ تَشْبِيهِ وَجْهِ
الْأَرْضِ فِي حَمَرَتِهِ بَعْدَ سِيلَانِ الدَّمَاءِ عَلَيْهِ ، وَتَغْطِيَتُهُ بِلَوْنِهِ بَوَاجِهُ الْفَتَاةِ الْحَيَّةِ
حِينَ تَصَابُ بِالْخَجَلِ فَيَتَصَاعَدُ الدَّمُ إِلَى وَجْهَهَا وَيَلْوُنُهُ بِلَوْنِهِ .

وَتَأْمَلُ التَّكْثِيفَ فِي التَّصْوِيرِ هُنَا وَكَيْفَ بَنَى التَّشْبِيهِ مِنَ الْاسْتِعَارَةِ ، فَأَرَاكَ
لِلْأَرْضِ خَدًّا كَخَدِّ الْإِنْسَانِ ، وَبَالِغًا فِي الصِّفَةِ حِينَ جَعَلَ الدَّمَاءَ الَّتِي تَفْجَرَتْ مِنْ
نَحْوِ الْقَتْلَى وَهِيَ تَصْبُغُ وَجْهَ الْأَرْضِ عَلَى نَحْوِ تَرَى مَعَهُ هَذِهِ الْكَثْرَةُ الَّتِي أَرِيقُ
مِنْهَا الدَّمُ عَلَى هَذَا النَّحْوِ الَّذِي جَعَلَ وَجْهَهَا يَتَحَوَّلُ إِلَى وَجْهِ قَدْ صَبَغَتْهُ الدَّمَاءُ
وَوَظَعَتْهُ حَتَّى لَمْ تُبْقَ عَلَى شَيْءٍ مِنْهُ مِنْ غَيْرِ تَغْطِيَةٍ ، وَلَا تَلْوِينٍ ، ثُمَّ انْظُرْ ،
وَتَعْجَبْ مِنَ الْمُتَنَبِّيِّ الَّذِي تَرَاهُ يَسْتَعْمِلُ أَلْفَاظَ النِّسَبِ فِي وَقْتِ الشَّدَةِ وَالْحَرْبِ ،
وَهَكَذَا تَرَاهُ يَنْقُلُ مَشَاهِدَ الْحُبِّ وَالْعَشْقِ إِلَى مَوَاطِنِ النِّزَالِ وَالْحَرْبِ ، أَلَا تَرَاهُ
يَقُولُ وَهُوَ فِي رُكْبِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ فِي طَرِيقِهِ إِلَى الْمَوْصِلِ لِنُصْرَةِ أَخِيهِ :

أَعْلَى الْمَمَالِكِ مَا يُبْنَى عَلَى الْأَسَلِ وَالطَّعْنِ عِنْدَ مُحِبِّيهِنَّ كَالْقُبُلِ

وَالْمَمَالِكُ : جَمْعُ مَمْلَكَةٍ ، وَهِيَ سُلْطَانُ الْمَلِكِ فِي رَعِيَّتِهِ ، وَالْأَسَلُ : الرِّمَاحُ ،
وَالْقُبُلُ : جَمْعُ قُبْلَةٍ .

فَهُوَ يَرِيدُ أَنْ يَقُولَ إِنَّ أَعْلَى الْمَمَالِكِ شَأْنًا ، وَأَرْفَعُهَا مَنْزِلَةً ، مَا بَنِيَ عَلَى
الْحَرْبِ ، وَرُفِعَ عَنْهُ بِالطَّعْنِ وَالضَّرْبِ ، وَالْأَسَلُ : تَشِيرُ إِلَى هَذَا ثُمَّ يَبِينُ أَنَّ
خَوْضَ الْمَعَارِكِ ، وَالطَّعْنَ بِالرِّمَاحِ أَمْرٌ مُسْتَعْذِبٌ ، وَمُرْغُوبٌ فِيهِ ، فَمَا الْقِتَالُ

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

عند محبه إلا كالقبل المستعذبة واللذات المغتتمة والتشبيه يحكي ويمثل الحالة النفسية لسيف الدولة وجيشه الذي يرى في الحرب وأهوالها ، وما فيها من القتل ، وإراقة الدماء ، وتقطيع أجساد الخصوم والأعداء نشوة ومنتعة تماثل النشوة والمنتعة المتحققة من تقبيل الغيد الحسان . وكأن الموقف ليس موقف حرب ، وإنما هو موقف فرح ومنتعة ؛ لأنَّ سيف الدولة يعشق مثل هذه المواطن ويحبها .

وهكذا انتهى إلى أن ميزات التشبيه وفائدته أنَّه يبين ويشرح ويوجز ويختصر مع المبالغة التي تتحقق والتكثيف من الدلالة الإيحائية وتأكيد وتوثيق قياس المشبه على المشبه به وإحاقه به في صفة أو أكثر ذلك أن صورة التشبيه إنما تُحقَّق فيما تُحقَّق الغيرية لا العينية ويقول ابن الأثير « التشبيه يجمع ثلاث صفات المبالغة والبيان والإيجاز »^(١).

* * *

(١) المثل السائر ص ١٥٢ .

تعريف التشبيه

يقوم بناء التشبيه من خلال القيام بعقد مقارنة وموازنة بين طرفين يشتركان معاً في صفة أو أكثر بأداة ملفوظة أو ملحوظة لهدف يريده المنشئ ويقصده تبعاً لما يتردد في نفسه ، ويجول في خاطره ، ويعرض لعاطفته وشعوره من القوة أو الضعف ، والفرح أو الحزن ، والرضا ، أو الغضب ، وغير ذلك ، وينقل ما يحس به إلى المتلقي في تعبير فني ليشركه أحاسيسه ، ويعيش معه وجدانياً وشعورياً ..

على أن هذه المقارنة التي يُلحَقُ فيها طرف بآخر إنّما تَنْهَضُ على أساس التشابه الحسّي أو التشابه العقلي والذهني والتلاقي الوجداني والنفسي ، ومن ثمّ فإن التشبيه الفني إنّما تتكوّن صورته من طرفين ، أحدهما : المشبه ، وهو الطرف المصوّر ، والثاني المشبه به ، وهو المصوّر ، وهما يلتقيان معاً في صفة أو أكثر يكون وجودها في الطرف الأول كوجودها في الطرف الثاني على نحو من الأنحاء ، أو على لون من الألوان ، ويكون الغرض الوضوح ، والتبيين ، والتأثير . فالمشبه به يوضح المشبه ، ويبينه ، ويقرب صورته إلى من يتلقاه ، وذلك لاشتراك بينهما في الصفة ، أو في مقتضاها ، وحكمها مع ضرورة . مراعاة أثر وقع التشبيه على النفس وقبولها ، أو رفضها له ، لبشاعة فيه ، فالتشبيه المصيب هو الذي يحدث أثره في النفس ، ويكون لديها مقبولاً ، ولا يكون بين المشبه ، والمشبه به فيه بعد حتى لا يكون مطروحاً مردولاً ، بل يكون بينهما تلاؤم وتناسب .

التشبيه عند المبرد

يقول المبرد في كتابه الكامل : « واعلم أن للتشبيه حدًّا فالأشياء تشابه من وجوه وتباين من وجوه ، فإنما ينظر إلى التشبيه من حيث وقع ، فإذا شبه الوجه بالشمس ، فإنما يراد الضياء والرونق ، ولا يراد العظم والإحراق ، قال الله جل وعز : ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ (الصفات: ٤٩) والعرب تشبه النساء ببيض النعام تريد نقاءه ونعمة لونه »^(١).

ويقول في موطن آخر : « والتشبيه جار كثير في كلام العرب حتى لو قال قائل هو أكثر كلامهم لم يبعد ، قال الله عَزَّ وَجَلَّ ، وله المثل الأعلى : ﴿ أَلَزَّجَاجَةٌ كَانَتْ كَوَكْبٌ دُرِّيٌّ ﴾ (النور: ٣٥) ، وقال سبحانه : ﴿ طَلَعَهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ (الصفات: ٦٥) ، وقد اعترض معترض من الجهلة الملحدين في هذه الآية فقال : إنما يمثل الغائب بالحاضر ورؤوس الشياطين لم نرها فكيف يقع التمثيل بها وهؤلاء في هذا القول كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ (يونس: ٣٩) وهذه الآية قد جاء تفسيرها في ضربين :

أحدهما : أن شجرا يقال له الأُسْتُنُّ منكر الصورة ويقال لثمره رؤوس الشياطين ...

والقول الآخر : هو الذي يسبق إلى القلب أن الله جل ذكره شنع صورة الشياطين في قلوب العباد بما تنفر منه كل نفس ... ويقول ويزعم أهل اللغة أن كل متمرد من جن أو إنس يقال له شيطان ، وأن قولهم تشيطن إنما معناه تخبث وتنكر . قال تعالى : ﴿ شَيْطَانُ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ﴾ (الأنعام: ١١٢) وقال امرؤ القيس .

(١) الكامل ٤٧/٢ ، المكتبة التجارية بمصر ١٣٥٥ هـ .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَةٌ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ﴿﴾

أنوع عدي والمشرقي مضاجعي ومستونة زرق كأياب أغوال (١)

هذا والمبرد الذي كانت وفاته سنة ٢٨٥هـ قد سبقه الجاحظ في أكثر من موضع للرد على ما أثير حول قوله تعالى : ﴿ طَلَعَهَا كَأَنَّه رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ (الصفات: ٦٥) من هول حين قال : « زعم ناس أن رؤوس الشياطين ثمر شجرة تكون ببلاد اليمن لها منظر كريه ، والمتكلمون لا يعرفون هذا التفسير ، وقالوا : ما عني إلا رؤوس شياطين معروفين بهذا الاسم من فسقة الجن ، ومردتهم ، فقال أهل الطعن والخلاف : كيف يجوز أن يضرب المثل بشيء لم نره فننهمه ، ولا وصفت لنا صورته في كتاب ناطق ، أو خبر صادق ، ومخرج الكلام يدل على أن التخويف بتلك الصورة والتفريع منها ، وعلى أنه لو كان شيء أبلغ في الزجر من ذلك لذكره ، فكيف يكون الشأن كذلك والناس لا يفزعون إلا من شيء هائل شنيع قد عاينوه أو صورته لهم واصف صدوق اللسان بليغ في الوصف ونحن لم نعاينها ، ولا صورها لنا صادق ، وعلى أن أكثر الناس من هذه الأمم لم تعايش أهل الكنائس ، وحملة القرآن من المسلمين ، ولم تسمع الاختلاف ولا يتوهمون ذلك ولا يقفون عليه ، ولا يفزعون منه ، فكيف يكون ذلك وعيداً عاماً ؟

قلنا وإن كنا نحن لم نر شيطانا قط ، ولا صور رؤوسها لنا صادق بيده ففي إجماعهم على ضرب المثل بقبح الشيطان حتى صار يضعون ذلك في مكانين أن يقولوا لهو أقبح من الشيطان .

والوجه الآخر : أن يسمى الجميل شيطانا على جهة التطير له كما تسمى الكريمة شوهاء ، والمرأة الجميلة صماء ، وقرناء وخنساء ، وجرباء ، وأشباه ذلك على جهة التطير به ، ففي إجماع المسلمين والعرب وكل من لقيناه على ضرب المثل بقبح الشيطان دليل في الحقيقة على أنه أقبح من كل قبيح (٢) .

(١) الكامل ٧١/٢ .

(٢) الحيوان للجاحظ ٤٦٠/٦ ، تحقيق فوزي عطوان .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ —————﴾ دَرَسْتُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

هذا والتشبيه في الآية الكريمة : ﴿ طَلَعَهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ (الصفات: ٦٥)، ممّا عرف بالتشبيه الوهمي وهو ما اخترعه الوهم من عند نفسه من غير أن تكون له ولمادته وجود في الخارج وجرى خطاب الله فيها للعرب على حدّ ما يتعارفون ممّا تنطق به ألسنتهم ويشيع في كلامهم والتشبيه في الآية على حد التشبيه في قول امرئ القيس :

أَيَقْتَلْنِي وَالْمَشْرِفِي مُضَاجِعِي وَمَسْنُونَةُ رِزْقِ كَأَيَابِ أَغْوَالِ ؟

التشبيه عند ابن طباطبا

بيّن ابن طباطبا في كتابه عيار الشعر أن العرب أودعت أشعارها من الأوصاف والتشبيهات ما أحاطت به معرفتها يقول : « فتضمنت أشعارها من التشبيهات ما أدركه من ذلك عيانها وحسها ، إلى ما في طبائعها وحسها من محمود الأخلاق ومذمومها في رخائها وشدتها ورضاها وغضبها من حال الطفولة إلى حال الهرم ، وفي حال الحياة إلى حال الموت . فشبهت الشيء بمثله تشبيها صادقا إلى ما ذهبت إليه في معانيها التي أرادت ، فإذا تأملت أشعارها وجدتها على ضروب مختلفة تتدرج أنواعها فبعضها أحسن من بعض فأحسن التشبيهات إذا عكس لم ينتقص ، بل يكون كل مشبه بصاحبه مثل صاحبه ، ويكون صاحبه مثله مشتبه به صورة ومعنى وربما أشبه الشيء صورة وخالفه معنى ، وربما أشبهه معنى وخالفه صورة وربما قاربه وداناه أو شامه^(١) وأشبهه مجازاً لا حقيقة^(٢) .

(١) شامة : داناه وقاربه .

(٢) عيار الشعر لابن طباطبا ، تحقيق عباس عبد الساتر ، ص ١٧ ، نشر دار الكتب العلمية ، بيروت .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَةٌ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ❁

وهذا الكلام صادر من شاعر أديب تجود به وتسخو سليقة مطبوعة على حر القول ، وناصح البيان ، ويصدر عن ذوق مرهف ، وحسٍّ واعٍ سليم يَتَّبِعُهُ دوماً إلى ما في مطاوي التشبيهات وما يتردد في أديمها . من المحاسن وجميل البيان ، ويفطن إلى ما يجول في صفحتها من دقيق المعاني ، وحسن الأداء ، وهذه التشبيهات جاءت تمثيلاً صادقاً لحياتهم وبيئاتهم ، وكل تجاربهم ، وما وقعت عليه أَعْيُنُهُمْ في غُدُوِّهِمْ ، ورواحهم وظعنهم وإقامتهم وحلهم وترحالهم ولأن ابن طباطبا لا يغيب عن وعيه وهو الذكي الفطن يرى أنه قد يعقب الجيل الذي يحيا فيه من يَشْكُلُ عليه فهم كلام من سبقه فيتهمه بالقصور ، وسوء الإبانة فيقول في شأنه ما ليس بحق ولا صدق ؛ لذا فهو يُسَدِّي نصيحته الواضحة بالترثيث ومعاودة النظر ، وذلك في قوله : فإذا اتفق لك في أشعار العرب التي يحتج بها تشبيه لا تتلقاه بالقبول ، أو حكاية تستغربها فابحث عنه ونقر عن معناه ، فإنك لا تَعْدَمُ أن تجد تحته خبيئة إذا أثرتها عرفت فضل القوم بها ، وعلمت أنهم أدق طبعاً من أن يلفظوا بكلام لا معنى تحته^(١).

والتشبيهات عند ابن طباطبا على ضروب مختلفة :

فمنها تشبيه الشيء بالشيء لونا وصورة كقول امرئ القيس :

كَأَنَّ عَيُونَ الْوَحْشِ حَوْلَ خَبَائِنَا وَأَرْحَلُنَا الْجَزْعَ الَّذِي لَمْ يَثْقُبْ

وَالْجَزْعَ : الْخَرْزُ .

ومنها تشبيه الشيء بالشيء لونا وصورة كقول امرئ القيس في وصف درع :

مَسْرُودَةُ السَّكِّ مَوْضُوءَةٌ تَصَّاءَلُ فِي الطَّيِّ كَالْمِبْرَدِ

تَفِيضُ عَلَى الْمَرْءِ أَرْدَانُهَا كَفَيْضِ الْأَتِيِّ عَلَى الْجَدِّ

(١) عيار الشعر لابن طباطبا ، ص ١٧ .

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

موضونة : الدرع المنسوجة ، وقيل المنسوجة بالجواهر . أردانها : أكمامها
الأتني : السيل : الجدَّجْدُ الأرض الصلبة .

ومنها تشبيه الشيء بالشيء صورة ولونا وحركة وهيئة كقول امرئ القيس :
جمعت ردينا كأن سناناه سنا لـ هب لم يتصل بدخان
الرديني : الرمح . والسنا الضياء .

وكقول الأعشى :
غراءُ فرعاء مصقول عوارضُها تمشي الهويى كما يمشي الوجى الوجلُ
كأن مشيتها من بيت جارتها مرُّ السَّحابة لا ريث ولا عجلُ
عوارضها : أسنانها . الوجى : الظبي .

ومنها تشبيه الشيء بالشيء معنى لا صورة فكتشبيه الجواد الكثير العطاء
بالبحر وتشبيه الجميل الباهر الحسن بالشمس ، وتشبيه المهيب الماضي الأمور
بالسيف .

وقد فاز قوم بخلال شهرها بها من الخير والشر ، وصاروا أعلاماً فيها فربما
شُبَّهَ بهم فيكونون في المعاني التي احتوا عليها ، وذكروا بشهرتها نجومًا
يقتدى بهم وأعلامًا يشار إليهم كالسموأل في الوفاء ، وحاتم في السخاء ،
والأحنف في الحلم ، وسحبان في البلاغة ... فهم في التشبيه يَجْرُونَ مجرى
ما قدمنا ذكره من البحر ، والشمس ، والسيف ويكون التشبيه بهم مدحًا
كالتشبيه بها وكذلك أضدادها وقوم يذمون فيما شهرها به يشبه بهم في حال
الذم كما يشبه بهؤلاء في حال المدح . كباقل في العيِّ فالشاعر الحاذق يمزج
بين هذه المعاني في التشبيهات لتكثر شواهداها ، ويتأكد حسنُها ويتوقى
الاقتصار على ذكر المعاني التي يغير عليها دون الإبداع فيها ، والتلطيف
لها»^(١).

(١) عيار الشعر ص ٢٣-٢٧ .

الصورة البيانية ————— دراستي مسائل علي البيان ————— ❁

على أن قول ابن طباطبا . فالشاعر الحاذق يمزج بين هذه المعاني إلخ ليس فيه دعوة إلى الإغارة على أقوال الآخرين ولا تقليد لمعاني الأقدمين ولا جعل لتشبيهاتهم على أنها أمثلة ينسج على منوالها ، وطريقة تتبع وإنما فيه إلحاح على الشاعر الذي تترأى له هذه التشبيهات أن ينظر فيها ، ويطيل النظر ، وأن يجود فيها ، ويضيف إليها ما تتجدد به وتزهو ، ولا تنتهى في هذا بعد أن يسكب عليها من عصارة نفسه ، ومن فيض حسه وخفق قلبه ، وسوانح خواطره ، ومن حيويته الدافقة وعاطفته المتوهجة ما يجعلها شبيهة به وهذا هو معنى الإبداع في المعاني والتلطيف لها وهو شيء غير الاحتذاء والتقليد .

التشبيه عند قدامة

وقدامة يرى أن الشيء لا يشبه بنفسه ولا بغيره من كل الجهات ؛ إذ كان الشئان إذ تشابها من جميع الوجوه ولم يقع بينهما تغاير البتة اتحدا فصار الإتيان واحدا فبقي أن التشبيه إنمّا يقع بين شيئين بينهما اشتراك في معانٍ تعمّهما ، ويوصفان بها ، واقتراق في أشياء ينفرد كل واحد منهما بصفتها ، وإذا كان الأمر كذلك فأحسن التشبيهات هو ما أوقع بين الشيئين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما فيها حتى يدنى بها إلى حال الاتحاد ، ومن جيد التشبيه قول أوس بن حجر يشبه ارتفاع أصواتهم في الحرب تارة وهمودها وانقطاعها تارة بصوت التي تجاهد أمر الولادة ^(١) .

لَهَا صَرْخَةٌ ثُمَّ إِسْكَاتَةٌ كَمَا طَرَقَتْ بِنَفَاسٍ بِكَرٍ

(١) نقد الشعر لأبي الفرج قدامة بن جعفر ص ١٢٤ ، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسْتُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ﴾

ولم يرد المشبه في هذا الموضع نفس الصوت ، وإنما أراد حاله في أزمان مقاطع الصرخات ، وإذا نظر في ذلك وجد الذي وقف بين الصورتين واحداً هو مجاهدة المشقة والاستعانة على الألم بالتبديد في الصرخة .

وهكذا يرى قدامة أن أحسن التشبيه هو ما أوقع بين الشيئين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما فيها حتى يدنى بهما إلى حال الاتحاد الأمر الذي جعل ابن طباطبا يرى في مثل هذا التشبيه على نحو ما سبق « أن التشبيه إذا عكس لم ينتقص ، بل يكون كل شبه بصاحبه مثل صاحبه ، ويكون صاحبه مثله مشتبهاً به صورة ومعنى »^(١).

فالعلاقة التي تكون بين المشبه والمشبّه به تقوم على التناسب الذي يتحقق من خلال سند عقلي يجمع بين الطرفين مع كثرة الصفات التي تقوّي المشابهة ، هذا وفي نقد النثر المنسوب لقدامة جاء أنه « كلما كان المشبه منهم في تشبيهه ألطف كان بالشعر أعرف ، وكلما كان بالمعنى أسبق كان بالحدق أليق » ويقسم التشبيه إلى تشبيه للأشياء في ظواهرها وألوانها وأقدارها ... وكما شبه الله النساء في نقد ألوانهن بالياقوت ، وفي نقاء أبشارهن بالبيض. قال تعالى : ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ (الصفات: ٤٩).

وإلى تشبيه في المعاني : كتشبيههم الشجاع بالأسد ، والجواد بالبحر ، ومن هذا النوع من التشبيه قول الشاعر :

هو البحر من أيّ النواحي أتيته فلجته المعروف والجود ساحله^(٢)

(١) عيار الشعر ص ١٠٧ .

(٢) نقد النثر ، حققه وعلق حواشيه دكتور طه حسين ، وعبد الحميد العبادي ، ص ٥٨ ،



التشبيه عند الرمانى

تعريف التشبيه لأبى الحسن على بن عيسى الرمانى .
 يعرف التشبيه بقوله : التشبيه هو العقد على أن أحد الشيئين يَسُدُّ مَسَدَ الآخر فى حسٍّ أو عقل ، ومعنى هذا أن هيئة الكلام وصورته تفيد أن أحد الشيئين مشبّه بالآخر فى شيء معين محسوس أو معقول ويقسمه إلى قسمين: تشبيه حسى كماءين وذهبين وتشبيه نفسى كتشبيه قوة زيد بقوة عمر ، ويقول الرمانى فى شأن التشبيه « وهذا الباب يتفاضل فيه الشعراء وتظهر فيه بلاغة البلغاء ، وذلك أنه يكسب الكلام بيانا عجيبا وهو على طبقات فى الحسن ... فبلاغة التشبيه الجمع بين شيئين بمعنى يجمعهما يكسب بيانا فيهما والأظهر الذى يقع فيه البيان بالتشبيه على وجوه : منها إخراج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه الحاسة ، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوهُمْ كَسْرَابٍ بِقَيْعَةٍ تَحْسَبُهُ الظُّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ تَجِدْهُ شَيْئًا ﴾ (النور: ٣٩)، فهذا بيان قد أخرج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه ، وقد اجتمعا فى بطلان المتوهم مع شدة الحاجة وعظم الفاقة وهذا هو وجه الشبه ولو قيل يحسبه الرائي ماء ثم يظهر أنه على خلاف ما قدر لكان بليغاً وأبلغ منه لفظ القرآن ؛ لأنَّ الظُّمَانَ أشدَّ حرصاً عليه ، وتعلّق قلب به ، ثم بعد هذه الخيبة حصل على الحساب الذى يصيره إلى عذاب الأبد فى النار وتشبيه أعمال الكفار بالسراب من حسن التشبيه فكيف إذا تضمّن مع ذلك حسن النظم ، وعذوبة اللفظ ، وكثرة الفائدة ، وصحة الدلالة ؟

ومنها : إخراج ما لم تجر به عادة إلى ما جرت به عادة كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۖ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ ۖ ﴾ (القمر: ١٩، ٢٠) .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ ﴾

يقول : « وفي ذلك البيان العجيب بما قد تقرر في النفس من الأمور ، والشويق إلى الجنة بحسن الصفة مع ما لها من السَّعة وقد اجتمع في العِظَم ومنها إخراج ما لا قوة له في الصفة إلى ما له قوة فيها كما في قوله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَلَهُ أَلْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَمِ ﴾ (الرحمن: ٢٤) . فهذا تشبيه قد أخرج ما لا قوة له في الصفة إلى ما له قوة فيها ، وقد اجتمع في العِظَم إلا أن الجبال أعظم ، وفي ذلك العبرة من جهة القدرة فيما سَخَّر من الفلك الجارية مع عظمها ، وما في ذلك من الانتفاع بها وقطع الأفطار البعيدة فيها » وبين الرمانى أن التشبيه البليغ إخراج الأغمض إلى الأظهر بأداة التشبيه مع حسن التأليف^(١) .

التشبيه عند أبي هلال العسكري

التشبيه : الوصف بأن أحد الموصوفين ينوب مناب الآخر بأداة التشبيه ناب منابه ، أو لم ينب - وقد جاء في الشعر وسائر الكلام بغير أداة التشبيه ... وتراه يقول « ويصح تشبيه الشيء بالشيء جملة ، وإن شابهه من وجه واحد مثل قولك - وجهك مثل الشمس - ومثل البدر - وإن لم يكن مثلهما في ضيائهما وعلوهما ولا عظمهما وإنما شبه بهما لمعنى يجمعهما وإياه وهو الحسن ، وعلى هذا قول الله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَلَهُ أَلْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَمِ ﴾ (الرحمن: ٢٤) ، إنما شبه المراكب بالجبال من جهة عظمها لا من جهة صلابتها ورسوخها ورزانتها ، ولو أشبه الشيء الشيء من جميع جهاته لكان هو هو ... ثم يتحدث عن أجود التشبيه وأبلغه ويبين أنه يقع على أربعة أوجه ، وينتفع

(١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الكريم للرمانى والخطابى وعبد القاهر الجرجاني ، تحقيق دكتور محمد خلف الله ، دكتور محمد زغلول سلام ، ص ١٨٠-١٨٥ دار المعارف .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دُرُوسَةٌ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ❁

في هذا بكل ما جاء عند الرماني وبما أورد من شواهد وأمثلة. والأوجه الأربعة التي ذكرها هي :

إخراج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما يحسّ ، وإخراج ما لم تجر به العادة إلى ما جرت به العادة ، وإخراج ما لا يعرف بالبديهة إلى ما يُعرف بها وإخراج ما لا قوة له في الصفة إلى ما له قوة فيها ، وقد أتى في هذا بكل ما ورد عند الرماني : وبين أن على هذا الوجه يجري أكثر تشبيهات القرآن الكريم ، وهي الغاية في الجودة ، والنهاية في الحسن ثم بين أن المحدثين قد جاء في أشعارهم تشبيه ما يرى للعيان بما ينال بالفكر وهو ردىء وإن كان بعض الناس يستحسنه لما فيه من اللطافة والدقة وهو كقول الشاعر :

ونذمان سقيتُ الراح صرفاً وأفق الليل مرتفع السّجوف
صفتُ وصفتُ زجاجتها عليها كمعنى دقّ في ذهن لطيف

فأخرج ما يقع عليه الحاسة إلى ما لا يقع عليه ، وما يعرف بالعيان إلى ما يعرف بالفكر ويعيد تقسيم التشبيه مرة أخرى منتفعاً بما رأيناه عند ابن طباطبا فيقول : « والتشبيه بعد ذلك في جميع الكلام يجري على وجوه منها تشبيه الشيء بالشيء صورة . مثل قول الله عزّ وجلّ : ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ (يس: ٣٩) .

ومنها تشبيه الشيء بالشيء لونا وحسناً كقول الله عزّ وجلّ : ﴿ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ (الرحمن: ٥٨) .

ومنها تشبيهه به لونا وسبوغاً كقول امرئ القيس :

ومشودة السّك موضونة تضاءلّ في الطيّ كالبرد
يفيض على المرء أردانها كفيض الأتيّ على الجدجد

❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

السَّكُّ : الدرع الضيقة : والموضونة : الدرع المنسوجة والجَدَّجْد الأرض
المستوية الصلبة الملساء والآتِي : السيل الذي يأتي من كل وجه شبه الدرع
بالآتِي في بياضها وسبوغها لأنها تعم الجسد كما يعم الآتِي الجدد .

ومنها تشبيهه به لونا وصورة كقول النابغة :

تَجْلُو بِقَادِمَتِي حَمَامَةً أَيْكَةً بَرْدًا أُسِفَ لِنَائِثُهُ بِالْإِثْمِ
كَالْأَقْحَوَانِ غَدَاةَ غِبِّ سَمَائِهِ جَفَّتْ أَعَالِيهِ وَأُسْفَلُهُ نَدِي

(تجلو بقادمتي حمامة) يقول : إذا تبسّمت كشفت عن أسنان كأنها بَرْد
لبياضها وصفائها . (والقادمتان) الريشتان اللتان في مقدم الجناحين يعني أن في
شفتيها لعسًا وحوّة ، وهو سمرة في الشفتين وهما لطيفتان براقتان فشبههما
بالقادمتين لذلك ، وأراد الحمامة القمرية وخص القادمتين لأنهما أشد سوادا من
سائر الريش .

(والأقحوان) نبت له نور أبيض وسطه أصفر فشبه الأسنان ببياض نوره وقوله :
(غداة غب سمائه) السماء المطر وغب الشيء بعده ، وقوله : (جفت أعالیه) أي
مُطَر ليلا فمحي المطر ما عليه من الغبار وصفا لونه ، فجف الماء من أعلاه
فاشتد بياضه وحسن وارتوى أصله من ذلك المطر فغذي أعلاه فاشتد بياضه .

ومما يتضمن تشبيه معنى اللون وحده قول امرئ القيس :

وَلَيْلُ كَمَوْجِ الْبَحْرِ مَرْخٍ سَدُولُهُ عَلَيَّ بِأَنْوَاعِ الْهَمُومِ لِيَتَلِي

ومنها تشبيهه به حركة كقول الأعشى :

غَرَاءُ فِرْعَاءٍ مَصْقُولٍ عَوَارِضُهَا تَمْشِي الْهُوَيْنِي كَمَا يَمْشِي الْوَجِي الْوَحْلُ

ويقول أبو هلال : وقد يكون التشبيه بغير أداة التشبيه كقول امرئ القيس :

لَهُ أَطْلَا ظَنِّي وَسَاقًا نَعَامَةً وَإِرْخَاءَ سِرْحَانٍ وَتَقْرِيبَ تَنْفُلٍ

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دُرُوسَةٌ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ❁

هذا إذا لم يحمل على التشبيه ، فسد الكلام لأنَّ الفرس لا يكون له أَيْطَلًا ظبي ولا ساقا نعامة ولا غيره مِمَّا ذكره وإنَّما المعنى له أَيْطَلان كَأَيْطَلِي ظبي وساقان كساقِي نعامة وهذا من بديع التشبيه ؛ لأنَّه شبه أربعة أشياء بأربعة أشياء في بيت واحد ، والمتأمل في بيت امرئ القيس يجد أن المشبه غير مذكور في الكلام ، وعليه فيكون هذا من باب الاستعارة التصريحية التي صرح فيها بلفظ المشبه فأبو هلال هنا قد أدخل في التشبيه ما هو من قبيل الاستعارة ، ومما هو أكثر وضوحا قوله في بيت الوأواء :

وَأَسْبَلْتُ لَوْلُؤًا مِنْ نَرَجَسٍ فَسَقْتُ وَرَدًّا وَعَصَّتْ عَلَى الْعَنَابِ بِالْبَرْدِ
فشبه خمسة أشياء بخمسة أشياء في بيت واحد - الدمع - باللؤلؤ - والعين ، بالنرجس - والخد ، بالورد - والأنامل ، بالعناب لما في أشعارهم وظاهر جلي أن ما عدّه أبو هلال من التشبيه هو استعارة تصريحية أصلية ، فاستعار اللؤلؤ للدمع ، والنرجس للعين ، والورد للخد ، والعناب للأنامل ، والبرد للثغر .

هذا وقد بيّن أبو هلال القيمة الفنية للتشبيه في قوله : « والتشبيه يزيد المعنى وضوحاً ويكسبه تأكيداً وهذا ما أطبق جميع المتكلمين من العرب والعجم عليه ولم يستغن أحد منهم عنه وقد جاء عن القدماء وأهل الجاهلية من كل جيل ما يستدل به على شرفه وفضله وموقعه من البلاغة بكل لسان »^(١).

التشبيه عند ابن رشيق

التشبيه صفة الشيء بما قاربه وشاكله من جهة واحدة أو جهات كثيرة لا من جميع جهاته لأنَّه لو ناسبه مناسبة كلية لكان إياه ألا ترى أن قولهم : « خدَّ

(١) انظر كتاب الصناعتين لأبي هلال ، ضبط وتحقيق مفيد قميحة ، ص ٢٦١-٢٧٣ .



﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ —————﴾ دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

كالورد» إنّما أراد حمرة أوراق الورد وطراوتها لا ما سوى ذلك من صفرة وسطه وخضرة كمائمه وكذلك قولهم : « فلان كالبحر وكالليث » إنّما يريدون كالبحر سماحة وعلما ، وكالليث شجاعة وقرما وليس يريدون ملوحة البحر ، ولا شتامة الليث وزهومته فوقوع التشبيه إما هو أبدا على الأعراض لا على الجواهر ؛ لأنّ الجواهر في الأصل كلها واحد اختلفت أنواعها أو اتفقت ، فقد يُشَبَّهون الشيء بسميّهِ ونظيره من غير جنسه كقولهم : « عين كعين المهابة ، وجيد كجيد الرئم » فاسم العين واقع على هذا العضو من الإنسان والريم والكاف للمقاربة وإنّما يريدون أن هذه العين لكثرة سوادها قاربت أن تكون سوداء كلها كعين المهابة ، وأن هذا الجيد لانتصابه وطوله كجيد الرئم .

هذا ونرى ابن رشيق وهو ينتفع بما جاء عند الرماني من أن التشبيه يخرج الأغمض إلى الأوضح والأظهر فيقول : والتشبيه والاستعارة جميعا يخرجان الأغمض إلى الأوضح ، والأظهر ويقربان البعيد كما شرط الرماني في كتابه ، وهما عنده في باب الاختصار ، وبين أن التشبيه الحسن هو الذي يخرج الأغمض إلى الأوضح فيفيد بيانا ، وأن التشبيه القبيح ما كان بخلاف ذلك كما بين أن ما تقع عليه الحاسة أوضح في الجملة ممّا لا تقع عليه الحاسة ، والمشاهد أوضح من الغائب ، وما يدركه الإنسان من نفسه أوضح ممّا يعرفه من غيره ، والقريب أوضح في الجملة من البعيد ، وما قد ألف أوضح ممّا لم يؤلف .

وسبيل التشبيه إذا كانت فائدته إنّما هي تقريب المشبه من فهم السامع ، وإيضاحه له أن تشبه الأدون بالأعلى إن أردت مدحه ، وتشبه الأعلى بالأدون إن أردت ذمه فتقول في المدح : تراب كالمسك ، وحصى كالياقوت ، فإن أردت الذم قلت مسك كالتراب ، وياقوت كالزجاج .

الصورة البيانية ————— دراستي في مسأله البيان ————— ❁

وتحدث عن تعدد التشبيه وبين أن أصل التشبيه مع دخول الكاف وأمثالها أو كأن وما شاكلها ، وذلك بأن يشبه شيء بشيء في بيت واحد إلى أن صنع امرؤ القيس في صفة عقاب :

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العناب والحشف البالي

فشبه شيئين بشيئين في بيت واحد واتبعه الشعراء في ذلك فقال لبيد بن ربيعة :

وجلا السيول عن الطلول كأنها رُبُرٌ تُجَدُّ مُتُونُهَا أَقْلَامُهَا

فشبه الطلول بالزبر ، والسيول بالأقلام ، بل زاد فشبه جلاء هذه عن هذه بتجديد تلك لتلك ، وحكى عن بشار أنه قال ما قرَّ القرار مذ سمعت قول امرئ القيس : كأن قلوب الطير رطباً ويابساً حتى صنعت .

كأن مشار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليلٌ تهاوى كواكبها

فإن كان مراده الترتيب فصدق ، ولم يقع بعد بيت امرئ القيس في ترتيبه كبيتة ^(١).

التشبيه عند أبي الإصبع المصري في تحرير التعبير

وهو يمضي في تعريفه على ما مضى عليه الرماني فيقول : التشبيه عبارة عن العقد على أن أحد الشيئين يسد مسد الآخر في حال أو عقد هكذا حدّ الرماني وهذا هو التشبيه العام الذي يدخل تحته التشبيه البليغ وغيره ، ثم يقول : « وحدّ التشبيه البليغ إخراج الأغمض إلى الأظهر بالتشبيه مع حسن التأليف ووقوع حسن البيان فيه على وجوه منها - وهي الوجوه التي نقلها أبو هلال العسكري عن الرماني من إخراج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه ،

(١) العملة لابن رشيق ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، ٢٨٦/١ - ٢٩١ .

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

ومن إخراج ما لم تجر به عادة إلى ما جرت به العادة ، ومن إخراج ما لا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بالبديهة ، ومن إخراج ما لا قوة له في الصفة إلى ما له قوة في الصفة ، ويصنع مثل صنيع الرماني من إخراج الكلام بالتشبيه مخرج الإنكار كقوله تعالى : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ (التوبة: ١٩) .

وهذا إنكار على من جعل حرمة الجماد كحرمة من آمن بالله ، وفي ذلك أوفى دلالة على تعظيم حال المؤمن بالإيمان ، وأنه لا يساوى به مخلوق ليس على صفته بالقياس .

كما بين أن الشيء لا يشبه بنفسه ولا بغيره من كل وجه ، فإن الشئيين إذا تشابها من جميع الجهات لاتحدا ، ولا يشبه الشيء بما هو دونه في الصفة الجامعة بينهما ، والتشبيه على ضربين بأداة وبغير أداة ، وفائدته قرب المشبه من المشبه به»^(١).

على أن قول الرماني الذي انتفع به كثيرون في هذا الباب : « وهو أن التشبيه البليغ إخراج الأغمض إلى الأظهر » هو الذي شرحه الإمام عبد القاهر وأفاض فيه في حديث ممتد طويل النفس عن السر وراء تأثير التمثيل في النفس ، وكان من بين ذلك نقله النفس من العقلي إلى الحسي ، ومن النظري إلى الضروري ، يقول الإمام : « فأما القول في العلة ، والسبب لم كان للتمثيل هذا التأثير ؟

ويبين أن المعنى يعظم ويفخم ، وذلك من ناحية توثيقه ، وتقويته ، وتأكيده ، وتحقق قوة المعنى من خلال الانتقال بالنفس من المعقول إلى المحسوس ، ومما يدرك بالفكر والنظر إلى ما يعلم بالاضطرار والطبع ، وذلك يحقق للنفس أنساً بالمعنى ، واطمئناناً له ، وثقة به ، وارتياحاً إليه ، وذلك لأن العلم

(١) تحرير التعبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن لابن أبي الإصبع المصري تحقيق حفني محمد شرف ، ص ١٥٩-١٦١ .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي تَالِبٍ

الحسي والضروري أشد قوة وأكثر تمكناً من العقلي ، والنظري ، ولذلك يقولون : « ليس الخبر كالعيان ولا الظن كاليقين » ، كما أن العلم الحسي والضروري وسيلة النفس وطريقتها إلى العلمين ، العقلي ، والنظري ؛ لذا كان الحسي والضروري أقدم للنفس صحبة ، وأشد ألفة : يقول الإمام عبد القاهر : « فأول ذلك وأظهره أن أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفي إلى جلي ، وتأتيها بصريح بعد مكنى وأن تردّها في الشيء تعلمها إياه إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم ، وثقتها به في المعرفة أحكم نحو أن تنقلها عن العقل إلى الإحساس ، وعما يعلم بالفكر إلى ما يعلم بالاضطرار والطبع ؛ لأن العلم المستفاد من طرق الحواس أو المركز فيها من جهة الطبع وعلى حدّ الضرورة يفضل المستفاد من جهة النظر والفكر في القوة والاستحكام وبلوغ الثقة فيه والتمام كما قالوا : « ليس الخبر كالمعاينة ولا الظن كاليقين »^(١).

تعريف التشبيه عند الخطيب القزويني

التشبيه : « الدلالة على مشاركة أمر لأمر في معنى بالكاف ونحوها لا على سبيل الاستعارة الحقيقية ولا الاستعارة بالكناية والتجريد »^(٢).

ففي قول الرسول - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : « الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » قد دل هذا النص النبوي الشريف على وضع الجسد والحسنات في جانب ، ووضع النار والحطب في جانب مقابل ، فالحسد مع الحسنات يفتنيها ويضيع ثوابها والنار مع الحطب تغنيه وتذهب به ، وحين تدبر هذا النص الشريف في وعيك ، وتدبره بعقلك تجد أن التشبيه الذي تطالعه من

(١) أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني ، تحقيق محمود محمد شاكر ، ص ١٢١.

(٢) بغية الإيضاح ٧/٣ .

❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

القول الشريف يحذرك ويخوفك من أمراض النفس الباطنة ، الحقد ، والحسد ، والشنان ، ويسعى إليك ليغرس فيك الخلق الفاضل الطيب الكريم ، فلا تحقد ، ولا تتألم لنعم الله يسبغها على عباده ونعم الله لا تنفذ ولا تنتهي ؛ لذا فهو يحل الإنسان المحلّ الذي يجب أن يحلّ فيه ساعياً في عزم إلى الكمال بعيداً عن الأثانية للسمو الروحي معنى أصيل في نفسه وللشعور الإنساني مجرى في حسه ليس للحقد والحسد من سبيل إلى قلبه .

ولذا يوفقك أمام هذه الصورة لتتملأها ، وهي صورة واضحة المعالم ، محدّدة الملامح ، ظاهرة الشيات لا لبس فيها ولا إيهام ولا التواء ، ولا غموض ثم إنها صورة تخيف وتُرعب ، يريد الرسول - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أن يشبّتها في الفؤاد ، وأن يُقرّرها ويؤكدّها لديه ، وأن يضعها أمام العين بصورتها التي تمثّلها بما فيها من شرر يتطاير ، ولهيب يتصاعد ، ونار تحرق وتبيد وتدمر وتأتي على كل شيء ، ولا تبقي شيئاً ، وما تخلفه رماد محترق لا يغني شيئاً ولا قيمة له لتتطرق الصورة في النهاية وتقول : إن أعمالك أيها الإنسان الصالحة مهما تضخّمت وتكاثرت وتعملقت ، فإن الحسد سوف يبيدها ويفنيها وكأنك لم تعمل حسنة واحدة كما تآكل النار الحطب ، والتشبيه أرى أنّه ينهض ويتمثل من خلال الهيئة الحاصلة من اجتماع ووجود الحسد مع الحسنات ، وإحباط الحسد بكل آثامه وشروبه ومقابحه لثواب الحسنات الجميلة والقضاء عليها والمشبه به الهيئة الحاصلة من الحطب والنار التي تشتعل فيه فتفنيه وتحيله رماداً لا تبقي شيئاً منه ، ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من شيئين يجتمعان معاً يفنى أحدهما الآخر إفناء تاماً ولا يبقى على شيء منه .

وفي الحديث الشريف الكاف هي أداة التشبيه وهي أداة صريحة دالة عليه وتقيد الدلالة في التشبيه بأنها لا على وجه الاستعارة الحقيقية ولا المكنية ، ولا التجريد . ليخرج مثل قولك رأيت أسداً يحمل مدفعاً فإنه استعارة حقيقية ، وقولك : أنشبت المنية أظفارها ، فإنه استعارة مكنية وقولك : لقيت زيدا فلقيت

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دُرُسْتُ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ❁

به أسداً ، فإن هذا تجريد ؛ لأنَّ هذه الأمثلة وإن تضمنت الدلالة على مشاركة أمر لأمر في معنى ، إلاَّ أن ما يسمى تشبيهاً في اصطلاح البلاغيين هو ما كان بأداة ظاهرة ، كما في الحديث المتقدم ، أو مقدرة كقولك : العلم حياة ، والجهل موت على الرأي الراجح على اعتبار أن حذف الأداة لا يخرج من التشبيه وتكون الأداة مقدرة هذا : « وخروج التجريد من التشبيه إذا لم يكن على وجه ينبئ عن التشبيه كقولك : لي من فلان صديق حميم - فإذا كان على وجه ينبئ عن التشبيه ، فالأقرب جعله منه كقولك - لئن سألت فلانا لتسألن به البحر »^(١).

أركان التشبيه :

والتشبيه الاصطلاحي له أربعة أركان :

أولها : المشبه : وهو ما يراد تصويره من خلال إلحاقة بالمشبه به الذي يُبينُ عنه ويكشف عما يمازجه من أحوال وما بداخله من رؤى وعواطف وخواطر .

ثانيها : المشبه به : وهو الذي أتى به المشبه ليصور به المشبه المصور في صورة تفر به إلى المتلقي ، وتصف حاله ، وما بداخله من عواطف ومشاعر .

فالمشبه به هو المنوط به التوضيح والتأثير ، فهو الذي يعطي التشبيه الدلالة الفنية التي تؤثر في العاطفة وتترك لديها الصدى القوي من خلال القبول أو الرفض والحب أو البغض والأمن أو الخوف من هنا كان المشبه به هو المعول عليه في توضيح جوانب صورة المشبه وتبيينها من خلال قياسها عليه توضيحاً وتجميعاً وتحديداً وتقييماً .. الخ

ثالثها : أداة التشبيه : وهي التي تقوم بعقد الربط والقران بين الطرفين المشبه والمشب به .

(١) بغية الإيضاح ٧/٣ .

❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

رابعها : وجه الشبه : وهو الذي يجمع بين المشبه والمشبه به في صفة أو أكثر .

هذا ويجوز في التشبيه حذف الوجه في قولك : محمد كالأسد في الشجاعة فتقول محمد كالأسد كما يجوز حذف الوجه والأداة كقولك في المثال السابق: محمد أسد ويجوز حذف الأداة مع بقاء الوجه فتقول : محمد أسد في الشجاعة.

هذا وصور المشبه به تكون على النحو التالي :

١- أن يكون المشبه به خبراً للمشبه كقولك : حمزة بن عبدالمطلب أسد بدعوى الاتحاد بينهما مبالغة في تشبيه حمزة بالأسد في الجرأة والشجاعة .

٢- وقد يحذف المشبه كقوله تعالى : ﴿ صُمُّ بَكْمٌ عُمَىٰ فَهَمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ (البقرة: ١٨) أي : هم صم .

٣- وقد يكون المشبه به خبراً لما دخل على المشبه من النواسخ كما في قولك: إن محمداً أسد ، فأسد هو المشبه به وقد وقع خبراً «لأن» .

٤- وقد يقع المشبه به حالاً من المشبه أو صفة له كقول المتنبي :
بدت قمراً ومالتِ خوط بان وفاحت عنبراً ورنّت غزالاً^(١)
والثاني الصفة كقولك : مررت برجل بحر .

٥- أن يقع المشبه به مضافاً للمشبه كقول الشاعر :
والريحُ تعبثُ بالغصونِ وقد جرى ذهبُ الأصيل على لجينِ الماءِ
أي الماء المشبه باللجين أي الفضة فقدم المشبه به ثم أضيف إلى المشبه .

٦- أن يقع المشبه به مصدرًا مبيّنًا لنوع المشبه كما في قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسِبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ ﴾ (النمل: ٨٨).

(١) (الخوط) بضم الخاء ، الغصن (البان) نوع من الشجر و(رنّت) من الرنو أدامت النظر .

الْصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ الْبَيَانِ ————— ❁

أي تمر مرا كمر السحاب في السرعة ، فالمشبه هو المصدر المحذوف ،
وقد بين نوعه بالمصدر المذكور الذي هو المشبه به .

٧- أن يكون هو مبينا بالمشبه كما في قوله تعالى : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ (البقرة: ١٨٧) ،
فالبجر مشبه بالخيط الأبيض ، وقد جاء بعد المشبه به مبيناً له أي حتى يتبين لكم الفجر كالخيط الأبيض .

ومنه قول الشاعر :

فما زلت في ليلين — شعر وظلمة — وشمسين من خمر ووجه حبيب^(١)

صور نامية من التشبيه التشبيه المفرد

التشبيه المفرد : هو الذي يكون وجه الشبه فيه صفة واحدة يشترك فيها الطرفان تحقيقاً أو تخيلاً : قال تعالى : ﴿ وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْطُرْفِ عَيْنٌ ﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴿ (الصفات: ٤٨، ٤٩) ، فالتشبيه يتحدث عن أوصاف نساء أهل الجنة من الحور العين ويبين ما عليهن من صفات وما يشيع فيهن من حسن وجمال وما يحتفظن به من سحر ، ورقة ونعومة وجاذبية ، ثم إنهن مع امتلاكهن لهذه الفتنة التي تسبي وتأسر قاصرات الطرف حييات لا ينظرن إلى غير ما ليس لهن الحق في أن ينظرن إليه عفة وحياء وليس ذلك لعب يمنعهن من امتداد النظر وطموحه ، وإنما مرده إلى الخفر والحياء التي تنفرد عظمتهن بهما ، وتتجلى فخامتهن وروعتهن معهما شبههن ببيض النعام المصون

(١) المنهاج الواضح لحامد عوني ص ٩٤ ، ٩٥ .

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

والمستتر ، فلم تمسه الأيدي ، ولم يصبه الغبار والجامع على حد ما يقول العلوي هو البياض «وعين» جمع عيناء أي واسعات العيون ، جميلات ، وتشبيه النساء بالبياض هنا كأنه يرسل إلى الرجل في جميع أحواله إشعاعاً من الضوء الهادئ اللين حتى يتمكن من خلاله أن يبصر طبيعة المرأة التي تموج في لذة بأرق المشاعر النسوية التي هي مزيج من الدلال والعزة والضعف والهيبة وعليه معرفة ذلك والتأكد من أن ذلك حقيقة حتى يتعامل معها بأناة ورفق ، وأن يعايشها برقة ولطف ليعيشاً معاً في نعيم يبسط عليهما ظلاله ، وأنس يجمّل حياتيهما ، وينشر عليهما وداعته وسحره . واختيار البياض في النص القرآني لتمثل به المرأة يشير إلى أنك في تعاملك معها يجب أن تقف على حقيقة طبيعتها لثناً معها وتسعد ، ولتخطى بأكبر حظ من المنعة والسعادة ، فتكون لك آية في الوفاء والإخلاص تقاسمك همومك ، وأوجاعك ، وتتقلب معك في خفض الحياة وسعتها ، وتمضي معك في كل أحوالك من غير تبرّم ولا تجهّم ، وبذلك تستمر الحياة السعيدة التي أسسها الحب نفّاحة الزهر ، ناضرة الورد ، بهيجة الجو ، رحيّة النسيم.

هذا وصاحب روح المعاني ذكر في «الطرف» رأياً رأيت أن أثبتته هنا فهو يقول «والطرف»^(١) في كل ذلك في قوله تعالى : ﴿ قَصِرَتْ الْقَرْفُ ﴾ (الصفات: ٤٨) طرفهن أي الحور العين وجوّز أن يكون الوصف متعدياً والطرف طرف غيرهن ، والمعنى قاصرات طرف غيرهن عن التجاوز إلى سواهن لغاية حسنهن فلا يتجاوزهن طرف الناظر إليهن» إنه يريد أن يقول : إن سلطانهن القوي ، وجمالهن الصاعق إنّما يشرق ويلوح من خلال نظراتهن الوديعّة التي تتغلغل في طوايا القلب ، وتجعل من ينظر إليهن إنّما يتجمّد ويستمرّ أمام فتنتهن فلا يتجاوزهن إلى غيرهن ، فهو قد قصر طرف الناظر

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي ٨٩/٢٣ ، ٩٠.

الصورة البيانية ————— دراستي مسأله البيان ————— ❁

إيهن عليهن لا يستطيع أن ينفك عنهن أو أن ينصرف ويستشهد الألوسي لرأيه بقول المتنبي :

وخصر تثبت الأبصار فيه كأن عليه من حذق نطاقا

والمتنبي يتحدث في هذا البيت عن هذا الخصر الفاتن بما فيه من سحر وبما يبعث به من فتنة ، والتشبيه في هذا البيت ليس من قبيل التشبيه المفرد ، وإنما هو تشبيه مركب ذلك أن المتنبي يتوقف أمام هذا الخصر العجيب الذي يتلعب بالألباب وتتجمد أمامه العيون ، وتتسمّر النظرات فيشبهه في جماله ، ودقته ، وحسن استوائه ، وروعة مظهره ، وفتنته التي تخلب وتسحر وقد أحاطت به العيون وتعلقت به القلوب ، والتهمته النظرات ، وتثبتت فيه المحاجر بهيئة النطاق الذي يلتف حول وسط الحسناء في جلال وسكون ، والجامع بين الطرفين هو الهيئة الحاصلة من السكون التام الناشئ من وجود الشيء يحيط به شيء آخر ويثبت فيه في سكون تام ، وتوافق وانسجام ، وما تراه هنا هو صورة بصرية يحف بها السكون التام والعميق من خلال الأفواه المفتوحة الغائرة ، والنظرات المبهورة المحدقة التي خرّت صريعة أمام فتنة هذا الجمال بعد أن أحاطت به في صمت ، وتملّته في هدوء وسكون . وأنت حين تدبر ذهنا يقطا واعياً وعقلاً منفتحاً أمام المفردات التي بنيت منها تلك الصورة ترى الدعة والدهشة والتروّي كلها تشيع فيك وتراك تقف أمام ما يبعث به الفعل : (تثبت) مع إسناده إلى (الأبصار) والحكم به على هذا (الخصر) العجب وما يفيدته التنكير من المعاني الإضافية كالتعظيم والإجلال والتفرد ، فهو خصر تبوأ أعلى القمة في الفخامة والعظمة ، وفرض سلطانه على القلوب والعيون ، فهو منفرد في الجمال لا يشاركه في الجمال غيره ولا ينازعه فيه سواه .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ —————﴾ دراسة في مسائل علم البيان

هذا وتشبيه المرأة بالبيضة جار على ما عرف عند العرب في ذلك إذ إنهم يشبهون النساء بالبيض ، ويقولون لهن بيضات الخدور ، ومن ذلك قول امرئ القيس :

وبيضة خدر لا يرام خباؤها تمتعت من لهور بها غير معجل
والتشبيه في الآية طرفاه مفردان حسيان .

ومن التشبيه المفرد ما تراه في قوله تعالى : ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴾ كَأَمْثَلِ اللَّوْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿ (الواقعة: ٢٢، ٢٣) ، والهوراء هي التي في طرفها حور والهور أن يشتد بياض العين ، وسواد سوادها ، وتستدير حدقتها ، وترق جفونها ، وقيل الحور شدة سواد المقلة في شدة بياضها ، في شدة بياض الجسد ، ولا تكون الأدماء حوراء ، قال الأزهري لا تسمى حوراء حتى تكون مع حور عينيها بياض لون الجسد قبل الحور أن تسود العين كلها مثل أعين الظباء ، والبقر ، وليس في بني آدم حور وإنما قيل للنساء حور العين ؛ لأنهن يشبهن بالظباء ، والبقر ، وقال كراع الجور أن يكون البياض محققاً بالسواد كله ، وإنما يكون هذا في البقر والظباء ، ثم يستعار للناس ، وامرأة حوراء بينة الحور ^(١) ، وعلى كل فالحور الذي في العين يزيدها سحراً وجاذبية وجمالاً و(العين) جمع عينا وهي واسعة العين في جمال باهر وسحر أخاذ .

والتشبيه يقوم من خلال تشبيههن في حسنهن بالياقوت بحبات اللؤلؤ المصون الذي لم تمتد إليه يد ، ولم ينل منه ما يغير لونه ووجه الشبه على حد ما قال العلوي هو الحمرة وأنت تدرك أن هذه الصورة التشبيهية وردت في سياق مفعم بالمتعة ، يتنفس بالنعيم ، ويتدفق بالخير ، ويترقق بالجمال : ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿ (الواقعة: ١٠، ١١) يحصدون ثمرة ما قدموا من عمل صالح في كل ناحية من نواحي الإصلاح التي أشرقت

(١) لسان العرب ، مادة (حور) .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتُ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ❁

فيها نفوسهم ، وفي كل جانب من جوانب الصلاح والخير الذي انتشر فيها بذلهم وعطاؤهم ، ولم ينفكوا عن عملهم الصالح الذي لازمهم في أطوار أعمارهم ، وحل من قلوبهم ونفوسهم محل الفرض كل ذلك وَقَفًا عليه ؛ لذا فإن كل ما نالوه وحصلوه كان ثمرة لغرسهم الطيب والتشبيه بالياقوت والمرجان يشي فضلا عن اللون بالنقاء والصفاء وعدم التبذل وارتفاع القدر مع السمو . والتشبيه طرفاه حسيان مع التقييد ، ومن تشبيه المفرد ما يطالعك في قوله تعالى :

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَّكِرٍ ﴾ ❶ خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ❷ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ ❸ (القمر: ٦-٨) ، وفي قوله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَّكِرٍ ﴾ ❶ (القمر: ٦) في قوله سبحانه : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ ❶ (القمر: ٦) دعوة إلى النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أن يدع هؤلاء الضالين وأن يُعَلِّمَهُ أن الإنذار لا يؤثر فيهم أبداً ، وأن النور الذي يدعوهم إليه لا يزيدهم إلا عَمًى وضلالاً ، وعليه فليتول عنهم وليدعهم - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - تولى فيه كل نفس ما عملت وقوله : ﴿ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ ﴾ ❶ (القمر: ٦) أي يخرجون يوم ينادي المنادي هو إسرافيل فيخرجون جموعاً حاشدة من قبورهم في وقت واحد متجهين في سرعة إلى ساحة الحشر بسعتها ، وامتدادها في مشهد شاخص حيٍّ مشير ، ومتحرك ، وقوله : ﴿ خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ ﴾ ❶ (القمر: ٧) حال من فاعل ﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ ﴾ ❶ (القمر: ٧) وخشوع الأبصار كناية عن الذلة والانخزال ؛ لأنَّ ذلة الذليل وعزة العزيز تظهران في عيونهما ، فالانخزال والانكسار والتخاذل والانحناء والتضعُّع والفتور كلها تظهر من خلال الأبصار الخاشعة ، والنظرات القلقة الحائرة والخائفة والتشبيه بالجراد المنتشر ؛ لأنَّ الجراد مثلاً في الكثرة والتموج يقال في الجيش الكثير المائج بعضه في بعض ، جاءوا كالجراد فشبها بالجراد في الكثرة والانتشار في الأقطار والتموج يعني

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ —————﴾ دراستُ في مسائل علم البيان

إتيانهم إلى ساحة الحشر في موجات سريعة متتالية^(١) ، وهذه الجموع التي خرجت من أجدائها كالجراد المنتشر في سرعة تراها وهي تأخذ طريقها وتمضي في عجلة نحو الداعي في استجابة لدعوته ، وانقياد لأمره ، وخضوع لمشيئته . وهي خاشعة البصر ، ذليلة النفس ، منكسرة خاطر ، مع أنه يدعوها لأمر تنكره ولم تعهده ، وفي أثناء هذا المشهد التي تمدّ فيه أعناقها ، والذي يموج بكل ملابساته من الحضور ، والخشوع ، والإسراع : ﴿ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾ (القمر: ٨) وهذه إحدى مقولات الندم التي تجري على ألسنتهم ، ويتدفق بها بيانهم في هذا اليوم وما أكثرها . والتشبيه حسي الطرفين وفي مشهد آخر من مشاهد القيامة تُروّع فيه القلوب من هول ما ترى في هذا التصوير الذي يبعث الرعب ، ويشيع الخوف والفرع وقرأ قول الله تعالى : ﴿ الْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَذْرَكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴾ (القارعة: ١-٥) .

وأنت هنا مع « القارعة » بإيقاعها القوي ، وجرسها الضاغط الصارخ وهي في موقعها التي تشغله في حاجة إلى ما يخبر به عنها حتى يتضح المعنى ويتم ؛ لذا جاء عقبها « ما القارعة ؟ » لكن هذا الخبر الذي جاء في صيغة سؤال وأخبر به عن « القارعة » لم يُلَقْ أضواءً عليها ، وكان بمثابة امتداد لمساحة التجهيل ؛ لذا استدعى سؤالاً آخر وهو « وما أدراك ما القارعة ؟ » وعندئذ وحثماً وصل الأمر إلى هذا الحد كانت الإجابة في أن القارعة يوم يكون الناس كالفرش المبعوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش » ومرة أخرى وأنت تتملى قوله سبحانه : « القارعة » وتديره في وعيك ، وتجريه على لسانك يهولك ما يلقيه هذا اللفظ في روعك ، وحسك ، وسمعك من هذه الصورة الشاخصة بفزعها

(١) تفسير الكشاف ٤/٤٤ ، وتفسير روح المعاني ، ٨٠/٢٧ .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ الْبَيَانِ ————— ❁

الشديد ، وضربها المصممي وجلبتها الصاخبة على نحو تُقرع معها القلوب وتصنك الأسماع ، وتفرق المفاصل إذ تشير إلى قيامة القيامة بكل أهوالها ، وأعبائها ، وأحمالها ، ومخاوفها مما يثير الرعب ويخصّ على التساؤل « ما القارعة ؟ » أي أي شيء هي ؟ تفخيما لشأنها ، وتعظيما لهولها وأخبارها ، وكل ما يتصل بها ؛ لذا وضع الظاهر موضع المضمّر ، فلم يقل ما هي ؟ لأنّه بصورته أكثر تبيانا وتوضيحا لهولها وتهويلها ، ثم كان السؤال بعد ذلك « وما أدراك ما القارعة ؟ » أي وأي شيء أعلمك « ما القارعة » يعني أنك لا علم لك بكنهها ، ومدى عظم شأنها على أنّه من العظم والشدة بحيث لا يبلغ درايته أحد مهما قدر في نفسه حالها إذ هي أعظم من كل ذلك ؛ لذا كان السؤال في قوله « وما أدراك ما القارعة ؟ » كأنّه إجابة عما هي وكأنّه يقول : القارعة يوم يكون الناس كالفرّاش المبعوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش .»

ومشهد القيامة بصورته التي عرض من خلالها يصور الخفة والتهافت والاستطارة مع أنّه يُصور الهول والرعب من خلال القارعة التي تقرع الناس بالإفزع ، والأهوال ، والسماء بالانشقاق ، والانفطار ، والأرض والجبال بالدكّ والنسف ، والنجوم بالطمس ، والانكدار والتشبيه في قوله سبحانه : ﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴾ (القارعة: ٤) يتمثل من تشبيه الناس بالفرّاش المبعوث في الكثرة والانتشار والتهافت والضعف ، والذل وفي المثل : أضعف من فراشة وأذل وأجهل وسمي فرّاشا لفرشه وانتشاره^(١) ، وحين شبهوا شبهوا بالفرّاش المتطاير المتفرق والمبعوث في كل اتجاه ، والتشبيه طرفاه حسيان مع تقييد المشبه به .

وقال الزجاج : ﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴾ (القارعة: ٤) قال الفرّاش ما تراه كصغار البق يتهافت في النار شبه الله عزّ وجلّ الناس يوم البعث

(١) تفسير الكشاف ، ٤ / ٢٣٠ .

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

بالجراد المنتشر ، وبالفراش المبعوث ؛ لأنهم إذا بعثوا يموج بعضهم في بعض ، وقال الليث : الفراش الذي يطير ، وفي المثل أطيش من فراشة^(١).

هذا : والتشبيه الثاني في قوله تعالى : ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴾ (القارعة: ٥) فأنت ترى الجبال الصُّلبة القوية المتماسكة وهي أعمدة الأرض وأوتادها التي تثبتُها ، وترسخُها ، وتبقى عليها من غير خلخلة ولا اهتزاز ، ولا اضطراب كيف تصير في هذا اليوم هشة ، خفيفة ، متطايرة بعد أن فقدت صلابتها ، وضاع ما بين أجزائها من تماسك ، فصارت رخوة لينة تتطاير في عرض الأثير ، وكأنها الصوف المندوف المنفوش غير الملبّد بما فيه من هشاشة وخفة وعدم تماسك شعره وأجزائه ، وكذا فالتشبيه هنا قائم من خلال تشبيه الجبال في هذا اليوم بالصوف وليس الصوف على إطلاقه ولكنه الصوف المندوف المنفوش الملون بالألوان المختلفة وذلك لاختلاف الجبال في ألوانها ، فمنها جدد بيض وحممر وغرايب سود ولذا إذا بست وطيرت في الجو أشبهت العهن المنفوش في اللون والصفة . والتشبيه طرفاه حسيان مع قيد في المشبه ، وتأمل البيان القرآني في حديثه عن مصارع المكذبين من قوم عاد وما حل بهم من عقاب . قال تعالى عز من قائل : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴾ ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴾ ﴿ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ ﴾ (القمر: ١٨-٢٠) .

ريحاً صرصرًا : أي ريحاً عاصفة شديدة البرد ، ذات صرير وزمجرة في يوم نحس : يوم شؤم .

أعجاز نخل منقعر ، أعجاز النخل : قاعدتها التي تقوم عليها وهي ما بين الساق والجذر ممّا على الأرض من النخلة ، والمنقعر : المنقطع من أصوله ، والنخل اسم جنس يذكر نظرا للفظ كما هنا ويؤنث نظر للمعنى ، كما

(١) لسان العرب ، مادة (فرش) ، ٣٣٨٤/٦ ، دار المعارف .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي تَالِبٍ

في قوله تعالى : ﴿ كَانَهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ (الحاقة: ٧) ، واعتبار كل في كل من الموضوعين لرعاية الفاصلة .

والتشبيه يرد في حديث الإخبار عما حل بعادٍ بعد رفضهم دعوة نبي الله هود - عليه وعلى نبينا وجميع الأنبياء الصلاة والسلام - وكانت النهاية : ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَّعْنَا دَايِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايَتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (الأعراف: ٧٢) .

والنص الكريم موطن التحليل الذي معنا ترى الآية الأولى فيه تبدأ مخبرة عن التأكيد فتقول : « كذبت عاد » وبعد الإخبار ، وقبل إكمال الآية تطرح السؤال المثير للتفكير والتأمل إنهم كذبوا وأجرموا ، فهل تركوا من غير أن يؤاخذوا أو يعاقبوا ؟ وكيف كان نوع هذا العذاب الذي عذبوا به ؟ والآية تسأل : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴾ (القمر: ١٨) وتأتي الإجابة على هذا السؤال من خلال هذا المشهد المصور المفزع ، والمخيف ، والذي يأتي في تصوير عجيب ، يطل منها الهول ، والرعب والموت والصرع إذ ترى الريح المدمرة وهي جند من جنود الله يسخرها الله ويسلطها على قوم عاد فتتزعزعهم من أماكن وجودهم ، وتقلعهم وهم في حفرهم ومخابئهم أو في شعابهم ، وتدق أعناقهم ، وتفصل رؤوسهم عن أجسادهم كأنهم أعجاز نخل منقعر ، فهم يتساقطون على الأرض أمواتا كأنهم أعجاز نخل منقطع عن مغارسه وأصوله روى أنهم دخلوا الشعاب ، والحفر ، وتمسك بعضهم ببعض فقلعتهم الريح وصرعتهم موتى . والصورة حسية الطرفين مع تقييد المشبه به .

فهم قد شبهوا بأعجاز النخل وهي أصولها بلا فروع ؛ لأنَّ الريح كانت تقلع رؤوسهم فتبقى أجسادا وجثثا بلا رؤوس ويزيد هذا التشبيه حسنا أنهم كانوا ذوي جثث عظام طوال ^(١) .

(١) روح المعاني للألوسي ، ٢٧/٨٤-٨٧ ، وتفسير الكشاف ، ٤/٤٦ ، تفسير أبي السعود

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ —————﴾ دراسة في مسائل علم البيان

وفي نفس السورة سورة القمر ، وفي سياق ما حلّ بثمود قوم صالح عليه السلام بعد أن حكى القرآن عنهم رفضهم اتباع نبيهم صالح وعدم استجابتهم لدعوته ﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّآ إِذَا لَفِى ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ؟﴾ (القمر: ٢٤) مع أنهم يعرفونه إذ هو منهم وتربطه بهم أواصر القربى ، وشائج النسب لكنهم : أصمّوا آذانهم وغلّقوا عقولهم ، وعقروا الناقة ، وكان قد حذرهم عليه السلام من أن يمسوها بسوء حتى لا ينالهم العذاب ولكنهم عقروها ، فكان جزاؤهم على حد ما حكى القرآن في تصوير مثير ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ فكيف كان عذابي ونذر ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمٍ الْمُحْتَظِرِ﴾ (القمر: ٢٩-٣١) .

وإذا تجاوزنا هذا الذي نودي عليه فاجترأ على تعاطي هذا الأمر الهائل الشنيع ، فأحدث العقور بالناقة على أي أمر كان هذا التعاطي سواء كان التعاطي للسيف الذي أحدث العقور به للناقة أو غير ذلك وذهبنا إلى قوله سبحانه ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ؟﴾ (القمر: ١٨) نجد أن هذا السؤال يشي بالتعجب من أمر هؤلاء القوم الذين أنذروا ولكنهم كذبوا ولم يُلقوا بالآل لما أنذروا به ، فهل يتركون من غير عقوبة أو مؤاخذه ؟ ويأتي الرد على هذا من خلال هذا المشهد الذي ترى القوم فيه وقد صَحِنُوا صَحْنًا بعد أن أرسلت عليهم صيحة واحدة فصنعت بهم ما صنعت ، وجعلتهم كهشيم المحتظر ، وهي صورة مرعبة محزنة أن يتمرغوا في الوحل ، وأن يبلغوا من الضعة والهوان هذا المبلغ وأن يشبهوا بهشيم المحتظر ، والهشيم : الشجر المتهشم ، والمتفتت والمنكسر أو الحشيش اليابس الذي تأكله الماشية ويكون علفا لها ، والمحتظر الذي يعمل في الحظيرة ، فإنه يتفتت منه حالة العمل ويتساقط أجزاء مما يعمل به والأظهر كهشيم الحظيرة والحظيرة الزربية التي تصنعها العرب ، وأهل البوادي للمواشي فهم قد شبهوا في حالهم التي ألوا إليها بعد الصيحة بهشيم المحتظر المتفتت في الشكل والهيئة لقد كانوا أعزة ، فصاروا إلى هذا الوضع من الذلة

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسْتُ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ﴿﴾

والهوان في منظر أسيف مُفْجِع ومزِرٍ هَشِيمٍ متفتت تَطْوُهُ الأقدام ، وتدوسه النعال ، ويتمرغ في الوحل والثرث كَهَشِيمٍ المحتظر وما ربك بظلام للعبيد .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۖ سَخَرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ (الحاقة: ٦، ٧) .

عاد أهلكوا بريح صرصر ، والريح الصرصر هي الشديدة الصوت الشديدة البرد التي تحرق لكثرة بردها مع ريحها الشديدة ، فهي شديدة العصف والعتو بحيث وقفت عاد يعتوها أمامها ، فما قدرت على ردّها بحيلة . لقد حملت رجالهم ، ورجالهم وقذفت بها إلى مكان ناء في الصحراء وحين داخلهم الفزع وهرعوا إلى بيوتهم يختبئون فيها ، وَيُغْلِقُونَ عَلَيْهِمْ أَبْوَابَهَا رَجَاءُ أَنْ يَنْجُوا تتبعتهم الريح وداهمتهم في أماكنهم والريح سلّطت عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوما ، حسوما : أي قاطعة مستمرة في القطع ، وهذه الريح الصرصر العاتية التي يتلاءم عتوها وجبروتها مع عتو عاد وإجرامها أنهت قصة وجودهم وتركت صورهم شاخصة مصوّرة ليكونوا لمن خلفهم آية ومثلا في مشهد مؤثر ﴿ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ والتشبيه يتسلّل إلى القلب ويضرب على أوتاره ، وهو يرى نهاية الظالمين ومصارعهم فيتنفّس المكروب ، ويأمل اليأس والتشبيه . يقوم من خلال تشبيه قوم عاد على أثر ما حل بهم بأصول نخل تآكلت أجوافها فصارت فارغة خاوية ، فهو يشبههم بأعجاز النخل في هيئته وتفرقه وهكذا تبصرهم من خلال هذا التصوير صرعى مُجَنَّدَين متفرقين في كل مكان ؛ لأنّ الريح تتبعهم حيث وجدوا وعاجلتهم في أماكنهم التي كانوا فيها فأنهت وجودهم ، وتركتهم على هذا النحو ، وفي تلك الصورة البائسة الحزينة أعجاز نخل فارغة الأجواف ، ساقطة على الأرض في هوان ، وضعة . وكأنّها ما كانت من قبل شيئا والله الأمر من قبل ومن بعد والطرفان حسيان والمشبه به مقيد .

❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

ومن تشبيهه المفرد ما تراه يطل عليك من خلال قول الله تعالى : مخاطبا بني إسرائيل بعد أن طوى الحديث عن قصة عجيبة ، ومعجزة باهرة ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ (البقرة: ٧٤) ومعنى قست غلظت وجفت ونبت ويبيست وعست فهي صلبة جافية ، فكأن القسوة في القلب ذهاب الإنابة عنه ، وخلوه منها ، وعدم إذعانه ، واستجابته ، وإسناد القسوة إلى القلوب إفراغها من الرحمة ، والعطف والرقّة والخشوع ، فهي قلوب متمردة ، عاتية غليظة متعالية ، كأنما قدت من صخر ، وصنعت من حديد ، ووصفها بالصلابة والجمود والغلظ يعني نبوها عن الاعتبار ، وعدم تأثرها بالعظة ، فهي لا تخضع ، ولا تخشع ، ولا تلين لأنه ليس بوسعها ولا في طاقتها أن تبضّ بفطرة من هذا ولا أقل منها أبداً ، فالقسوة المراد بها : الغلظ ، والصلابة ، والجفاء كما في الحجر استعيرت لنبوّ قلوبهم عن التأثر بالعظات والقوارع التي تنهدّ منها الجبال ، وتلين لها الصخور .

وفي قوله سبحانه من « بعد ذلك » من إحياء القتل عند ضربه ببعض أجزاء البقرة حتى نهض حياً وأخبر عن القاتل وعينه ، وذكر صاحب مفاتيح الغيب ، و« من بعد ذلك » « إشارة إلى جميع ما عدد الله سبحانه وتعالى من النعم العظيمة والآيات الباهرة التي أظهرها على يد موسى ﷺ فَإِنْ أُولَئِكَ الْيَهُودُ بعد أن كثرت مشاهدتهم لها ما خلوا من العناد والاعتراض وذلك بين في أخبارهم » وهذا ما يتناسب مع التاريخ الأسود لبني إسرائيل في كل مراحل وجودهم . من كفرهم ، وكذبهم ، وقتلهم الأنبياء بغير حق ، والتوائهم ، وخداعهم ، ونقضهم للعهود والمواثيق ، وتحايلهم ومكرهم ممّا هو واقع مشاهد ، نراه ونبصره على نحو لا يخفى على بصير .

والتشبيه يتمثل في تشبيه قلوبهم بالحجارة في القسوة والجفاء وعدم التأثر وقوله تعالى : ﴿ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ (البقرة: ٧٤) أي ومنها ما هو أشد قسوة من الحجارة أو أن كلمة « أو » بمعنى : بل وأنشدوا في ذلك :

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ الْبَيَّانِ ————— ❁

فوالله ما أدري أسلمى تقولت .: أم القوم أو كلُّ إلي حيب؟
 أراد: بل كل إلى حيب، أو أنه على حدِّ قولك: ما أكل إلا حلواً
 أو حامضاً: أي طعامي لا يخرج عن هذين، بل يتردّد عليهما وبالجملة فليس
 الغرض إيقاع التردد بينهما، بل نفى غيرهما أو أن «أو» حرف إباحة كقولك
 جالس الحسن أو ابن سيرين أي أيهما جالست كنت مصيباً ولو جالستهما معاً
 كنت مصيباً^(١)، وعلى كل فإن التشبيه يوضح أن ما في قلوب هؤلاء من بني
 إسرائيل من قسوة تتضاءل أمامها قسوة الحجارة وهذه القسوة جزء من
 تكوينهم، ومن طبيعتهم التي تأصل فيها الجفاء وتمكنت منها الغلظة والتشبيه
 ورد في سياق عجيب وإثر قصة مثيرة يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا
 فَادْرَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ خَرَجَ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ
 يُخَيِّ اللَّهُ أَلَمْوتَ وَيُريكُمْ ءَايَتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ
 بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ
 الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ أَلْمَاءٌ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ
 وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (البقرة: ٧٢-٧٤).

في قوله تعالى: «وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادْرَأْتُمْ فِيهَا»: وفي هذا التعبير ما يشير
 إلى طبيعة بني إسرائيل ولجاجهم وعنتهم إذ قتل فيهم قتيل فادارءوا أي اختلفوا
 في التعرف على قاتله ورمى بعضهم بعضاً فيه، ودفع بعضهم بعضاً إلى موقف
 الاتهام ولجئوا إلى سيدنا موسى يسألونه آية تجعل القتل ينطق باسم قاتله
 وهم إنما يريدون من وراء ذلك امتحان سيدنا موسى ﷺ واليقين من أنه
 رسول الله إليهم وكان ما كان وتحققت الآية، وقام الميت مبعوثاً حياً ناطقاً
 فهل أثر فيهم هذا المشهد؟ فحرك الرحمة في قلوبهم، وأيقظ أحاسيس البر

(١) مفاتيح الغيب، ١٧٨/٢، وحاشية الشهاب الخفاجي على البضاوي، ١٨٤/٢،
 ١٨٥، والألوسي ٢٩٥/١، وأبو السعود ١١٤/١، ١١٥، والقرطبي، ١٩٥/١، ٤٩٨.

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

في صدورهم ، وهل ساعد على أن يتبرّءوا من أوزار الحياة ، ويتطهروا من أضرار المادة ويتزوّدوا من قوى الحق والخير ما يعينهم على السير في الحياة هانئين سعداء ؟ أبداً لم يتحقق هذا أبداً مع أنهم رأوا الموت والحياة أمام عيونهم ، وشاهدوهما حيّين ماثِلَيْنِ في لحظة حين أحيا الله القَتِيلَ فأخبر عمن قتله ثم أماته الله مرة أخرى ، وفي قوله سبحانه : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ (البقرة: ٧٤) أي من بعد أن أحيا الله الميت لكم بضربه بعضو من أعضاء البقرة وهذه آية عظيمة كان يجب على من شاهدها فشاهد بمشاهدتها قدرة الله أن يلين قلبه ، وتذل نفسه ، وترق مشاعره ، ولكن أنى وكيف وهذه قلوب لا تلتقي مع الخير أبداً ، ولا تنتفع به ، إذا هو طاف بها ، وطرق بابها ؟ وحين تتأمل كيف أقيم هذا التشبيه وبنى تجد مدى قساوة قلوب هؤلاء وجفائهم ، وصلابتهم ، فالتشبيه الذي قرن قلوبهم بالحجارة وقاسها عليها وشبهها بها أكد أن قلوبهم أمحل وأقحل وأجذب وأصلد وأقسى من الحجارة ، فقد رأوا وهم في التيه حين استسقى موسى ربه فأمره أن يضرب بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا ، ورأوا الجبل وهو يتهاوى ويندك حينما طلب موسى ﷺ من ربه أن يراه : ﴿ فَلَمَّا تَخَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ﴾ (الأعراف: ١٤٣) ولكن هؤلاء لهم قلوب ممحّلة مجدبة جاسية لا تأتي بخير كافرة جاحدة .

وفي قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ (البقرة: ٧٤) حرف العطف «ثم» هنا لا يراد منه دلالة الحقيقية وهو الترتيب والتراخي ؛ وإنما المراد استبعاد القسوة بعد مشاهدة ما يزيلها ، ويدفعها فما ذكر من إحياء القَتِيلِ بعد ضربه بجزء من البقرة فيخبر عن قاتله ثم يميتة الله مرة أخرى تُسَبِّعُ القسوة من بعد ما شوهد ورؤى ممّا يوجب لين القلوب ورققتها ويلاحظ أن التعبير القرآني جاء على هذه الصورة «فهي كالحجارة أو أشد قسوة» وفعل «القسوة» ممّا يأتي منه أفعل التفضيل ، فكان من الممكن أن

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَةٌ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ❁

يُعَبَّرُ فِي غَيْرِ الْقُرْآنِ : « فِهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَقْسَى لَكِنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَضَعَ هَذِهِ الْقُلُوبَ فِي مَكَانِهَا الصَّحِيحِ وَأَنْ يَبَالِغَ فِي ضَرَاوَةِ قَسَوَتِهَا وَعَنْفِهَا وَجَبْرُوتِهَا وَظُلْمَتِهَا ، وَأَنَّهَا لَا يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ غَيْرَ هَذَا ؛ لِذَا عَبَّرَ بِالْأَشَدِّ فَلَمَّا اشْتَدَّتْ قَسْوَةُ الْحِجَارَةِ فَقُلُوبُهُمْ أَشَدَّ قَسْوَةً ، وَهَذِهِ صُورَةُ الْيَهُودِ وَهَذَا شَأْنُهُمْ سَوَادٌ فِي الْقَلْبِ ، وَظُلْمَةٌ فِي الْعَيْنِ ، وَضَعِينَةٌ فِي الصَّدْرِ ، وَأَثَرَةٌ تَغْلِبُ ، وَسَفَاهَةٌ تَحْكُمُ ، وَعَصَبِيَّةٌ لِلدَّمِ وَالْجِنْسِ تَجُورُ وَتَظْلِمُ ، وَسُطُورَةٌ تَطْغَى عَلَى الْعَدْلِ خَبْثٌ وَمَكْرٌ وَدِهَاءٌ وَاحْتِيَالٌ نَقْضٌ لِكُلِّ عَهْدٍ يَعِيشُونَ عَيْشَ الْوَحْشِ يَشِيرُونَ الرَّعْبَ ، وَيَفْتَكُونَ فِي كُلِّ مَكَانٍ ، وَيَخْتَلُونَ فِي كُلِّ زَمَنِ ، يَنْسَجُونَ الدِّسَائِسَ وَالْهَوَاجِسَ وَالْأَوْهَامَ وَالْمُؤَامِرَاتِ مُحَاوِلِينَ إِفْسَادَ الْبَشَرِيَّةِ ، وَإِبْعَادَهَا عَنِ التَّمَسُّكِ بِالْدِينِ ، وَالْعَقِيدَةِ ، وَالْأَخْلَاقِ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ .

وَمِنَ التَّشْبِيهِ مَا يَطَالِعُكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنْ أَلَّهِ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ (لَقْمَانُ: ٢٨) .

وَالْتَّشْبِيهِ هُنَا يَصُورُ قُدْرَةَ اللَّهِ الْقَادِرَةَ الَّتِي لَا تَحُدُّهَا حُدُودٌ وَلَا يَعْجِزُهَا شَيْءٌ وَتَأْمُرُ فَيَكُونُ لَهَا مَا تَرِيدُ « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » فَقُدْرَةُ اللَّهِ الَّتِي تَنْجِزُ ، وَتَنْفِذُ يَكُونُ خَلْقُ النَّاسِ جَمِيعًا ، وَبَعْثُهُمْ جَمِيعًا مِنْ يَوْمٍ أَنْ كَانَ آدَمُ الْأَوَّلُ وَحَوَاءُ الْأُولَى إِلَى يَوْمٍ أَنْ يَقُومَ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ كَخَلْقِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَبَعْثِهَا فِي سَهُولَةٍ ذَلِكَ كُلُّهُ وَيُسْرُهُ ، وَالتَّشْبِيهِ عَلَى حَدِّ التَّشْبِيهِ فِي قَوْلِ امْرِئِ الْقَيْسِ يَصِفُ عُقَابًا بِكَثْرَةِ اصْطِيَادِ الطَّيُورِ .

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابَسًا لَدَى وَكْرِهَا الْعَنَابِ وَالْحَشَفِ الْبَالِيِ فَلَقَدْ شَبَّهَ الرُّطْبَ مِنْ قُلُوبِ الطَّيْرِ بِالْعَنَابِ فِي الشَّكْلِ وَالْمِقْدَارِ وَاللَّوْنِ وَشَبَّهَ الْيَابِسَ مِنْهَا بِالْحَشَفِ الْبَالِيِ فِي هَذِهِ الثَّلَاثَةِ أَيْضًا .

جَاءَ فِي تَفْسِيرِ أَبِي السَّعُودِ : ﴿ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ (لَقْمَانُ: ٢٨) أَيْ إِلَّا كَخَلْقِهَا وَبَعْثِهَا فِي سَهُولَةٍ التَّائِي إِذْ لَا يَشْغَلُهُ شَأْنٌ عَنْ شَأْنٍ؛

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ —————﴾ دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

لأنَّ مناط الكل تعلق إرادته تعالى الواجبة مع قدرته الذاتية حسبما يفصح عنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (النحل: ٤٠) « إن الله » يسمع كل مسموع « بصير » يبصر كل مُبْصَر لا يشغله علم بعضها عن علم بعض فكذلك الخلق والبعث » وهذه الآية ترد في سياق يراد منه أن تتوثق مشاعر الإيمان حتى تتكون العقيدة الصحيحة لدى النفس البشرية وهو يعرض عليها غنى الله الذي لا حدود لنهايته ، وعلمه الواسع المحيط الذي لا يُحَدِّ وقدرته على الخلق والإنشاء المتجددين والإعادة كما خلق وذلك حين يقول : ﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَنْخُرٍ مَا نَفَدْتَ كَلِمَتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ (لقمان: ٢٦-٢٨) .

﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ (لقمان: ٢٦) في هذا إعلان واضح بأن الله ما في السماوات والأرض وهو بذلك يقطع الطريق أمام المشركين الذين يظنون أن دعوة الله لهم وإفراده وحده بالعبادة ، والإلحاح عليهم في هذا الشأن مبعثه احتياج الله إليهم وافتقاره لهم - تقدس الله وتعالى عن ذلك علواً كبيراً ، فله ما في السماوات والأرض ، وما فوق السماوات إن كان للسماوات فوق وما تحت الأرض إن كان للأرض تحت فهو يملك سبحانه ما لا يملكون من أنفسهم ؛ لأنَّ كل شيء منه وإليه يُرَدُّ إن الله هو الغني الحميد .

وفي قوله سبحانه : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَنْخُرٍ مَا نَفَدْتَ كَلِمَتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (لقمان: ٢٧) . وقوله تعالى : ﴿ مِنْ شَجَرَةٍ ﴾ (لقمان: ٢٧) على التوحيد دون اسم الجنس « شجر » لأنَّ في « من شجرة » استغراق كل ما على ظهر الأرض شجرة شجرة حتى لا يبقى من جنس الشجر ولا شجرة واحدة إلا قد برت أقلاما ولو جاء

الصورة البيانية ————— دراستي في مسأله البيان ————— ❁

النظم « من شجر » بالجمع لما أفاد الاستغراق الذي يشمل كل شجرة في الأرض أو الشجر الذي تستعمل منه الأقلام دون غيره وليس هذا هو المراد على أنه عبّر بقوله : « أقلام » وهي جمع قلة مع أن الأنسب للمقام « قلام » كلام جمع كثرة ؛ لأنه لم يعهد للقلم جمع سواء وقلام غير متداول ، فلا يحسن استعماله^(١) ، كما أن في استعمال جمع القلة « كلمات » إشارة إلى أن القليل من كلام الله وهو الكلمات لا ينفد ولو فنيت في كتابتها الأقلام من كل شجر الأرض ونفدت في مدّ هذه الأقلام بالمداد كل بحار العالم ، فكيف بالكثير من كلام الله ؟

واقرأ الآية مرة أخرى ودع خيالك يتملأها ، وينطلق في أجوائها وهو يحلق في كل أرجاء الأرض ليحصر ما فيها من شجر وليتخيل أن كل ما في الأرض من شجرة شجرة برت أقلاماً ثم يجعل البحر مداداً يمد به هذه الأقلام لتكتب ، ثم يجد أن البحر ليس بحراً واحداً ، وإنما وراءه سبعة أبحر ، تمده بالمداد ، ثم ماذا بعد هذا الانطلاق للخيال الذي خلق في كل تلك الأجواء ، وسبح في كل تلك الآفاق ، وتصور كل هذا التصوير ، ووقف مع تلك الأقلام وهي تمد بهذا المداد ، وتكتب من غير توقف أقدار الله التي يخلق بها الأشياء ؟ هل بعد ذلك كله نفدت كلمات الله ؟ لا ما نفدت كلمات الله لأنها من الكثرة بحيث لا تحصى ، ولا تنفد ، فهي مشيئة سبحانه الأزلية وهي ماضية من غير حدود ، وبلا قيود ، أمام هذه الصورة التي تتسرّب داخل الوجدان من منافذ شتى والتي تؤكد من خلال هذا المشهد بكل ما فيه سعة علم الله وبسطة سلطانه يجيء قوله سبحانه بعد ذلك : ﴿ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ۖ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ (لقمان: ٢٨) تدليلاً على قدرته التي لا تحدّ فبلايين البشر الذين خلقهم الله على تعاقب الأجيال ، وعلى مدار الأحقاب والأزمان كخلق نفس واحدة ؛ لأنّ الله لا يعجزه شيء ، وهو يقول للشيء كن فيكون ؛ ولذا يتساوى عنده

(١) تفسير روح المعاني للألوسي ص ٩٨-١٠١ .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ﴾

خلق النفس الواحدة ، وخلق البلائيين منها ، بإرادة الله تنفذ وتخلق بمجرد أن تتوجه المشيئة إلى ذلك وحين تطمئن النفس إلى حقيقة أن الله يخلق حين تتوجه مشيئته إلى ذلك وأن خلق الأنفس المتعددة كخلق النفس الواحدة في سهولة ويسر تكون مُهيَّاة لتقبل أن بعث الأنفس كلها في لحظة كبعث نفس واحدة ، وبطريقة لا تختلف « كن فيكون » ولذا جاءت الصورة التشبيهية في هذا السياق من خلال هذا المشهد الكوني الذي يقف القلب أمامه خاشعاً من خشية الله ، ومن جلاله سبحانه ، إنه عزيز حكيم ، ذكر القرطبي « أن الآية نزلت في أبي بن خلف ، وأبي الأسود ومنبه ونبه ابني الحجاج بن السَّبَّاق قالوا للنبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إن الله تعالى قد خلقنا أطواراً ، نطفة ، ثم علقه ، ثم مضغه ، ثم عظاماً ، ثم تقول إننا نبعث جميعاً في ساعة واحدة ! فأنزل الله ﴿ مَا خَلَقُكُمْ وَلَا بَعَثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ (لقمان: ٢٨) ؛ لأن الله تعالى لا يصعب عليه ما يصعب على العباد ، وخلق له للعالم كخلق له نفس واحدة»^(١).

ومن تشبيه المفرد ما تراه في قوله تعالى في شأن سفينة نوح عَلَيْهِ السَّلَام وهي تحمل الجماعة المؤمنة ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴾ (هود: ٤٢).

ولأن الموقف صعب ، والهول شديد ، والخطر ضخم ، وجسيم ؛ لذا كان ما يتناسب مع هذا الموقف ، وما يتوافق مع حجمه ، ويتلاءم مع صخامته أن يأتي بكلمة « الجبال » بما ترمز إليه من عظم و ضخامة لتتماثل معه ، ولتكون مصورة له بما فيه من رعب ، وهول ، وخوف ، وإنك لتتسارع منك الأنفاس مصورة له بما فيه من رعب ، وهول ، وخوف وإنك لتتسارع منك الأنفاس وأنت تتخيل المشهد مع متابعتك للسياق من خلال التصوير القرآني لجريان السفينة في هذا الطوفان والموج الغاضب ، العالي والمتابع يعلو بها ويهبط والذي جاء ثمرة ونتيجة لالتقاء ماء السماء بماء الأرض على أمر قد قدره الرحمن وقضاه : ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ

(١) تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن ص ٣٥٣٥ ، دار الغد العربي .

الصورة البيانية ————— دراستُ في مسألتِ البيانِ ————— ❁

وَكَاثَ فِي مَعَزِلٍ يَبْنِي أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٣﴾ قَالَ سَأُوِيَّ إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٤﴾ (هود: ٤٣، ٤٤) وفي لحظة أنهى الموج الحوار الدائر بين الوالد وولده فكان الولد من المغرقين ويشبهه الموج بالجبال في الضخامة ويذهب الزمخشري إلى أن هذا يعني تشبيه كل موجة من هذا الموج بالجبل في تراكمها وضخامتها^(١) والتشبيه طرفاه حسيان . ومما يعلي من القيمة الفنية للتشبيه أن تكون الألفاظ التي بنى منها وصُور ألفاظ دقيقة معبرة ذات إحياء وإشعاع بحيث تثير في النفس معاني وأحاسيس مختلفة ومتنوعة ، ولذا كان اختيار امرئ القيس موج البحر مشبها به رمزا لذلك في قوله :

وليلٍ كموج البحر أرخى سُدُولُهُ عليَّ بأنواعِ الهمومِ ليبتلي
فالشاعر الذي يعاين من وطأة الهموم والكروب وهو ينقل إلينا ما يجيش بداخله وما يتزاهر في صدره من مواعج ، وأحزان تضغط على قلبه في قسوة وعنف وبلا رحمة ، وتؤرقه في ليله الذي يطول ويمتد بأهواله وويلاته ومخاطره حتى وكأنه يعيش في ظلام دامس ويصور تجربته كما يعيشها ، ويحسن بها فهمومه المتراكبة وويلاته الضارية التي تموج وتندافع في داخله يجد لها نظيراً في موج البحر بما يصوره من ظلامه الممتد ، وويلاته المتوقعة ومهالكه ، ومخاطره الكثيرة فيشبه ليله الذي تموج فيه الهموم وتتزاحم بموج البحر ، فالليل هو مجمع الويل بالنسبة للشاعر المؤرّق المحبّط الذي يعاين من البؤس النفسي ، والظلام الوجداني ولذا كان يعيش دائماً في ظلام شامل. ودع عنك معابته وعدم تأثمه ، وتحرجه من قول أو نُكِرَ فما مساخره ومعابته وحديثه عن « هند والرباب وفرتني وفاطمة » وحياته الالهية العابثة إلا محاولة

(١) تفسير الكشاف ، ٢/ ٢١٧ .

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

للتغطية على حياة القهر التي كان يعيشها الشاعر ، فامرؤ القيس ابن ملك وأبوه يريد منه أن ينصرف إلى جلائل الأعمال بعيداً عن التهلك ، ومطاردة النساء ، وشرب الخمر ، والخروج للصيد وبطانة السوء من فتیان وقيان ، وإنشاد الشعر الذي يصور به حياته مِمَّا اضطر أبوه إلى خلعه وطرده لعدم استجابته لرغبته .

والمهم أن الشاعر كان مهموماً مكروباً دوماً وأبداً في حياة أبيه وبعد مقتله ومصرعه إذ قال عبارته الجهيرة « ضيَّعني صغيراً ، وحملني دمه كبيراً » ولذا كان الشاعر في توقٍ إلى التخلص من هذا الظلام وإلى انجلائه وكان يبحث في جدِّ عما يفرِّحه ، ويدخل البهجة إلى قلبه المعذب ؛ لذا كان يحاول أن يتوجه إلى ما يباعد بينه وبين الظلام من خلال حديثه عن الإشراق ، والألق ، والضياء ، والتخوم ، وتكون المرأة بوجهها المضيء المشرق هي الرمز الحي لهذا كله استمع إليه وهو يقول :

تُضي الظلام بالعشاء كأنها منارة مُمسي راهب متبتل

المتبتل : المنفرد المنقطع عن الناس ، المشغول بعبادة الله ، وقوله :

بالعشاء في العشاء كأنها منارة والمعنى أن منارة الراهب تشرق بالليل إذا أوقد فيها قنديل ، والمنارة تفعله من النور وخصَّ الراهب لأنه لا يطفئ سراجَه ومُمس راهب : إمساء راهب .

فامرؤ القيس الذي يتوق إلى التخلص من الظلام الذي يحيط بوجوده ، ويتطلع إلى الضياء الغابر الذي يأنس إليه ، ويجد في مشاهدته والنظر إليه بهجة النفس ، واطمئنان القلب ، يتخذ من حسناته طريقاً إلى هذا ، ثم إنه حين يتحدث عن إشراق الوجه ووضاءته يريد أن يبعث إلى من يتلقى هذا عنه أن هذا الوجه الذي يحمل وضاءة الحسن ، وإشراق الجمال والنقاء والطهر يُشَبَّه بمنارة الراهب وهو حين اختار منارة الراهب بما فيها من إضاءة لاحظ السَّمَو الروحي والرفعة والكمال والنقاء والطهر والسلام .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي تَالِبٍ

ولذا فإن التبريزي الذي نقلنا عنه شرح مفردات البيت يقول إن معناه «أنَّها وضيئة الوجه ، إذا ابتسمت بالليل رأيت لثاياها بريقاً وضوءاً وإذا برزت في الظلام استنار وجهها ، وظهر جمالها حتى يغلب ظلمة الليل»^(١).

وإذا كانت هذه المرأة تملك هذا الوجه وهو على هذه الدرجة من الوضاعة والحسن تلك الوضاعة التي أظهرت جمالها الذي يغلب ظلمة الليل كما ذهب شارح القصائد العشر ، فهل يعني أن وجه الشبه الذي التقى عليه الطرفان وهما تشبيهاً بمنارة الراهب الضياء والإشراق أم أن هناك شيئاً آخر ؟ يُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنَّ منارة الراهب بما ترمز إليه من سمو ونقاء ، وكمال ، وطهر ، وسلام مع النفس ، وتبتل ، ودعوة إلى الارتقاء النفسي والتطهّر الوجداني مهما أفحش الإنسان وأغرق في الإفحاش هي مُعْتَبَرَةٌ في خيال الشاعر حين انتزع تشبيهاً مع البياض والإشراق .

ومما يوثق هذا قوله :

نظرتُ إليها والنجومُ كأنَّها مصابيحُ رُهبانٍ تُسبُّ لِقْفَالٍ

فنحن أمام مشهد يفيض بالإشراق ويرى الأستاذ محمود شاكر أن هذا من أبيات الشاعر التي صرفها الشراح إلى غير معناها والضمير في قوله : « نظرت إليها » للمرأة التي وصفها كأنها نار من جمالها وتوقدها كأنها تهديه إليها وذلك في ليلة غاب قمرها ، فاشتد لألاء نجومها فكأنها مصابيح رهبان في دير مفرد في الصحراء فرقوها وشبّوها ليهتدي بها المسافرون من بُعد والقفا : جمع قافل وهو الراجع من سفره وأراد المسافرين بلا قيّد ذاهبين أو آيين^(٢) ، والمشهد في صورته مشهد يفيض بالإشراق ، ويتزاحم بالتألق والضياء ، من خلال امرأة تتوهج جمالاً ينظر إليها من خلال النجوم المتألّثة ، والنار

(١) شرح القصائد العشر للتبريزي ، تحقيق فخر الدين قباوة ، ص ٦٣.

(٢) طبقات فحول الشعراء ، ٨٢/١ ، ٨٣ .

❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ عَلِيِّ بْنِ

المشوبة ، ومصاييح الرهبان مع الرهبان في نقائهم ، وقد استهم وتشبيه النجوم بمصاييح الرهبان التي تشبَّ ليتهدي بها المسافرون .

وهذه الصورة تراها تتردّد في شعر امرئ القيس في قوله :

أَجَارَ تَرَى بَرْقًا كَانَ وَمِضْهُ كَلَمَعَ الْيَدَيْنِ فِي حَيٍّ مُكَلَّلِ
يُضِيءُ سَنَاهُ أَوْ مَصَابِيحُ رَاهِبٍ أَهَانَ السَّلَيطَ فِي ذُبَالٍ مُفْتَلِ

«أحار» مرخم حارث والهمزة للنداء و«الوميض» لمع البرق شبهه في البيت الأول انتشار البرق وتَشَعُّبه في السحاب المتراكم حتى إنه لتراكمه كأنه سحاب مكَلَّل بسحاب بحركة اليدين وتقلييهما في أكثر من اتجاه مع الإشارة السريعة «والحبي» ما حبا من السحاب أي ما عَرَضَ لك وارتفع ويقال هو المتداني . والمكَلَّل الذي في جوانب السماء كالإكليل ويقال : هو الذي بعضها على بعض وهو الأظهر .

وفي البيت الثاني وهو ما نقصده «والسَّنا» هو الضوء «والسليط» الزيت الذي يمدّ المصباح بالوقود ليضيء «والذُّبَال» الفتائل» وقوله : «يضيء سناه» مردود على البرق «وأهان السليط» أي كثر منه وهو هنا يشبه البرق بمصاييح الراهب الذي يرعى زيت فتيله فيظل ضوء المصباح مضيئاً فكما شبه وميض البرق ، وتشعُّبه في السحاب المتراكم يُشَبَّه البرق هنا بمصاييح الراهب .

ترى هل كان الشاعر بائساً مؤرّقاً مُتَعَباً تستبد به مشاعر من الظلمة النفسية ، والحسّية وهو يريد أن يُنْقَلَب من إطار هذه المشاعر المظلمة ، وأن يسلك الطريق الذي يُوصِّله إلى هذا ، ولن يكون إلّا بالتطلع إلى الضياء ، وإلى الإشراف ، وإلى النقاء والصفاء والطمأنينة ، ولذا تكررت كلمة الراهب في شعره بدلالاتها الرمزية لتعميق ذلك كله وللخلاص من هذه الظلمة التي يعيشها ، وتجنّس على صدره ؟

الصورة البيانية ————— دراستي في مسأله البيان ————— ❁

إن ليل الشاعر الذي يموج بأنواع الهموم موجاً كموج البحر في توحشه وهوله وتراكمه ، وشدة عنفه ، وظلمته والذي امتد وتطاول والذي ناء بكل كل ، وأردف أعجازا والذي تمنى الشاعر انجلاءه وانكشاف ظلامه حتى يأتي من بعده نور الإصباح ولكن تبين له أن الإصباح لن يكون أحسن حالاً من الليل ؛ لأن الهموم سوف تبقى جاثمة على صدر الشاعر تنقض ظهره ، وتهدد قواه ، وسيظل في ظلمة حالكة وهم مقعد ومقيم فقال :

وليل كموج البحر أرخى سدوله علي بأنواع الهموم ليبتلي
فقلت له لما تمطى بجوزه وأردف أعجازا وناء بكل كل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي بصبح وما الإصباح فيك بأمثل
فيا لك من ليل كأن نجومه بكل مغار الفتل شدت يذبل^(١)

فلكي ينتصر على مشاعر اليأس والظلمة والظلام تراه يولي وجهه شطر البياض بما يلبسه من ضياء ، وإشراق ، ونقاء ، وصفاء ، وطهر لينظر به ؛ لأن هذا هو الذي يصور ما يتغلغل في داخله ، وما يحسه ويوده ويتمناه .

ومن التشبيه المفرد الذي جاء تصويراً لمشاعر الشاعر الكايبة الحزينة ، ولنفسه الشاجية إذ تبصر من خلال التصوير مبلغ الإحساس ، وفداحة المعاناة حينما يقف الشاعر أمام الطلل في صورته التي يراها عليه وقد صار أثراً باهتاً ، وخطاً خافياً غير واضح ، ويوازن بين ما يراه عليه اليوم ، وبين ما كان عليه أيام أن كان الحبيب يشرق شمساً في صباحه ، ويطلع بدراً في مساءه تدب فيه الحركة ، ويضح بالحياة فيقول :

لمن طلل أبصرته فشجاني كخط زبور في عسيب يمان
ديار لهند والرباب وفررتي ليا لينا بالتعف من بذلان

(١) ديوان امرئ القيس ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ص ١٨ ، ١٩ .

❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

« كخط زبور » أي قد دُرس وخفيت آثاره فلا يرى منه إلا مثل الكتاب في الخفاء « والزبور » : الكتاب وفي « عسيب يمان » أي في عسيب رجل يمان.

و« ديار لهند » ذكر أن الطلل كانت هنا وصواحبها مقيمات فيه زمن المرتبع « ليالينا بالنعف » كانت هذه الديار لهند وصواحبها في أيام وليال كانت تجمعهن مع الشاعر فيها « والنعف » ما انحدر من الجبل وارتفع عن الوادي « وبدلان » اسم موضع .

فالشاعر ينظر إلى هذا الطلل ، وما صار إليه فيأس ويحزن وتثور مواجعه ويسترجع ذكرياته ، لقد كان لهم مغنى ومرتعاً فيه يلعبون ويهنتون ويسعدون فيه ، يثوون ويقيمون فيه يتسامرون ، لقد كان هذا الطلل يجمعه ويجمع من يتبادلن معه السمر ، والحب ، لذا فهو يحمل له في قلبه ، ويختزن في مسارب نفسه ، روحاً ومشاعر ، وعواطف وأحاسيس لا يمكن أن تنطفئ ، أو تذبل ، أو تموت ، فإذا تغيرت الأيام ، وساءت الأحوال ، وضاع كل شيء وتبخر مع تقادم العهد وخفيت معالم الطلل ، وصارت كالخط غير الظاهر ولا الواضح في عسيب يمان فلا بد أن تهيج أشجان الشاعر وأن تسيل شئونه ، وأن تتداعى أحزانه ، فهذا المكان كان ملتقى الأحبة والصحاب ، ومدرج اللهو ، والعبث ، والمتعة ، والشباب . ولذا فهو حين يراه بصورته التي هو عليها لابد أن ينطوي على نفسه ، وأن يسرح بخياله إلى الماضي البهيج ، وأن يتذكر ما كان فيه من فتنة وسحر وأيام كانت تفيض بالحب ، واللهو والسمر ، والعبث ، ولذا يأتي التشبيه ليصور حالته النفسية وما تخللها من شعور بالكآبة على أثر ما يراه ويعيشه من واقع أليم بعد أن انمحت آثار الطلل ، ودرست معالمه وما بقي منه لا يكاد يكون إلا كخط في كتاب زبور في خفائه وعدم وضوحه فهو يشبه آثار الطلل بالكتابة غير الظاهرة في عسيب يمان .

هذا وقد شغلت المرأة قلب الشاعر غيلان الملقب بذي الرمة ، وامتلك وجدانه ، وأخذها فيها الهوى ، والخفة من الصبابة والولك في هواها وحبها

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دُرُوسَةٌ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ❁

ما لا يكاد يُصدّق ، والحب شقاء كله وأكثر المحبين شقاء أولئك الذين يحبون من غير أمل أو رجاء ، ولقد ترجم الشعر للمرأة المحبوبة عند الشاعر عن ذلك وكان التشبيه من الوسائل الفنية التي توسل بها الرجل للكشف عن هذا الجانب ، وللإبانة عن مشاعره وعن ولله وجزعه واستمع إليه في وقفته أمام ديار الحبيبة التي تهيج أشواقه ، وتملك عليه لبه وعقله ، وهو موزع الخاطر ، ذاهل العقل ، مشتت الفكر ، مقيد ، قصير القيد ، عاجز عن الوصول إلى ما يحب وما يريد .

وَقَفْنَا فَقُلْنَا إِلَيْهِ عَنْ أَمِّ سَالِمٍ	وما بال تكليم الديار البلاقع
فَمَا كَلَّمْنَا دَارَهَا غَيْرَ أَنَّهَا	ثنت هاجسات من خيال مراجع
ظَلَلْتُ كَأَنِّي وَقَفْتُ عِنْدَ رُسْمِهَا	بحاجة مقصور له القيد نازع
فَمَا الْقُرْبُ يَشْفِي مِنْ هَوَى أَمِّ سَالِمٍ	وما البعد منها من دواء بنافع
هِيَ الشَّمْسُ إِشْرَاقًا إِذَا مَا تَرِينَتْ	وشبه النقا مغترة في الموادع ^(١)
مِنْ الْبَيْضِ مَبْهَاجٍ عَلَيْهَا مَلَامِحَةٌ	نضار وريعان الحسان الراويع
وَلَمَّا تَلَاقَيْنَا جَرَتْ مِنْ عَيْنِنَا دُمُوعٌ	كففنا ماءها بالأصابع
وَنَلْنَا سَقَاطًا مِنْ حَدِيثٍ كَأَنَّهُ	جنى النحل ممزوجاً بماء الوقائع

وأن تفضي إليه بأنبائها ، ولكنه يسترجع ثانيا كيف يطلب ذلك منها ؟ وكيف تكلمه هي وقد صارت على ما هي عليه خلاء موحشاً ، وخراباً بلقعا؟ إنها لا تكلمه وإنما هيّجت أشواقه ، وأثارت دفائن أحزانه وجعلته كالمخبول بعد أن استولت عليه الهواجس ، ثم إنه ظل واقفاً ، وأطال الوقوف ، وأنه في وقوفه الطويل الممتد كالجمل الذي قيد تقييداً محكماً فلا يستطيع الحراك معه ،

(١) مغترة : لم تأخذ أهبتها . وموادع جمع المبدع وهو كل ثوب جعلته من ثوب جديد يودعه به ، لسان العرب مادة (ودع)

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

ولا الوصول إلى ما يحب ويريد ، ويبرز هذا المعنى من خلال تشبيه نفسه في وقفته بالجمال المقيد القصير القيد . ووجه الشبه عدم حرية الحركة للوصول إلى ما يراد ، ثم تراه وهو يتحدث عن عذابه الدائم في القرب وفي البعد ، فلا القرب يشفي من الهوى وينقع الغلة ويطفئ الشوق لأنَّه لا يستطيع الاتصال بها ولا البعد لأنَّه لا ينسيه إياها ، ثم تحدث عن جمال حبيبته الذي يروع ويخلب فشبها بالشمس في الإشراف حين تتجمل وتزين وهي ناعمة الجسد كرمال النقا إذ أتيتها في غفلة منها ولم تكن قد تهَيَّأت ، وأخذت أهبتها واستعدادها ، فهي والحال هذه على أحسن ما تكون وضاءة ، وإشراقاً ، وجمالاً ، فكيف بها لو تجملت وتزينت هذا ومع أنَّها ملساء ناعمة فهي بيضاء يزيدنها بياضها مَلاحَة ونضارة تأسر من يراها ، وتروع بجمالها وحسنها من يُبصرها ثم يوقفك الشاعر على مشهد من المشاهد الواقعية مع الحب الذي يبسط المشاعر ، وينشر الأنس ، ويجمل الحياة تبصرهما معاً فيه هو وهي لحظة يلتقيان في سلام للروح ، وإمتاع للعاطفة ، وراحة للقلب لحظتها لا يملكان نفسيهما من برح الشوق ومن شدة الوجد فتفيض عيونهما بالدموع التي يجففونها بأطراف الأصابع في منظر معهود ومعلوم مع عفوية بعيدا عن التعمّل ، ثم جرى بينهما حديث كان كعسل النحل في عذوبته ، ومعنى سقاط الحديث أن يتكلم وتنصت هي وبعد أن يفرغ من حديثه تتكلم ويستمتع هو وهكذا ، والشاعر يشبه ما جرى بينه وبين حبيبته تلك من حديث بعسل النحل في الاستمتاع به وفي ذلك تعبير عن الحب الصادق ، والعاطفة الجياشة وما تلك الدموع التي جرت من عيونهما ويمسحانها ويكفّفانها بأصابعهما مع الحديث الوتري الرخيم الذي جرى بينهما والذي يشبه عسل النحل إلّا براعة في تصوير هذا الموقف الخاطف والمذهل والتشبيه حسي .

ومن التشبيهات التي تلفت انتباه القارئ ، تلك التشبيهات التي توسل فيها ذو الرمة بالناقة ويتضح من خلال حديث الشاعر عنها أنَّها أكثر من رفيق في

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَةٌ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ❁

السفر ، وصاحب أليف في طريق الرحلة فهو يشعر بشعورها ، يتعاطف معها ، يحس بمعاناتها ، يعي تماما ما تلاقيه من إجهاد وإعياء ، وإرهاق بسبب سفرها المتواصل ، ورحلاتها المتتالية ، يتألم لألمها ، ويحس بأحاسيسها ، فهو يحبها ؛ لذا يكون حديثه عنها حديثاً عن حبيب يمتلئ قلبه حباً له ، ورحمة به ، وعطفاً عليه ، وقرباً منه ؛ لذا تراه يتأمل في عيونها ، ويديم النظر فيها فيراها وقد غارت إلى الداخل مع الإجهاد ، والكد ، والسير الطويل ، والتعب ، والإرهاق ، فينتزع لها شبحاً من قوارير زجاج أخضر لم يبق فيه من دهن كان يملؤها إلا بمقدار أنصافها ليتحقق التشابه فيقول :

كَأَنَّ عَيْنَهَا مِنْ طَوْلِ مَا تَرَحْتُ إِذَا خَزَرْتُ خُضْرُ الْقَوَارِيرِ
مِنَ اللِّوَاتِي لَهَا دُهْنٌ مَنْصَفُهَا قَدْ غَيَّرَتْهَا الْفِيَا فِي أَيِّ تَغْيِيرٍ^(١)

فهو يشبه عيني الناقة التي طال نزح دموعها حين تحزر وهي عين غائرة بالزجاجة غير الفارغة وغير الممتلئة وإنما ينصفها الماء .

والتشبيه حسي .

ومن هذا التشبيه الذي يتحدث عن عيون الإبل التي أجهدتها وأرهقتها التعب وما تحملته من مشقة وإعنات نتيجة لسفرها الدائم ، ولرحلاتها الطويلة التي لا تتوقف فيظهر هذا الإجهاد في عيونها على نحو واضح وظاهر إذ تغور إلى الداخل ويجد الشاعر شبحاً لها في الآبار التي قلَّ ماؤها بسبب نزح الكثير من مياهها تلك فيقول :

عَلَى حَمِيرَاتٍ كَأَنَّ عَيُونَهَا ذِمَامُ الرِّكَايَا أَنْكَرَتْهَا الْمَوَاتِحُ

(١) نزحت منها - أي الدموع . وخزرت : نظرت إلى جانب ومؤخر العين .

لها دهن منصفها : يعني أن الدهن صار في أنصافها ، وبهذا يتحقق التشبيه .

❁—————الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ—————دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

وحميريات : نوع من الإبل : والركايا جمع رَكِيَّة : وهي البئر والدِّمَام : الذي يستقي من البئر ويأخذ منه الماء .
وَأَنْكَرَتْهَا الْمَوَاتِحُ : أي أَفْنَتْ مَاءَهَا .

شبهه عيون الإبل الغائرة بسبب الإجهاد والتعب من طول الرحلة وتحمل المشقة بالآبار قليلات الماء التي ترح السقاة الكثير من مائها ووجه الشبه الصورة والشكل في ظل .

ومن التشبيهات التي استحسناها قدامة بن جعفر قول الشماخ في حديثه عن أضلاع ناقة براها السير وشبهها بالقسيّ الموترة فقال :

فَقَرَّبْتُ مُبْرَأَةً كَأَنَّ ضُلُوعَهَا مِنْ الْمَاسِخِيَّاتِ الْقَاسِيَّ

والمبراة : الناقة التي في أنفها برة : وهي حلقة من فضة تجعل في أنفها .

والماسخِيَّاتِ : القسي تنسب إلى ماسخة وفي اللسان « مسخ » والماسخي : القَوَّاس .

والشماخ قد شبه أضلاع الناقة حين براها السير بالقسي الموترة من قبل اجتماع الأضلاع والقسي الموترة في الشكل ويقول قدامة : « وقد أحسن الشماخ في هذا التشبيه ، من قبل اجتماع الأضلاع والقسي الموترة في الشكل والتوتر والأعصاب والأوتار ولم يرد إلا الشكل فقط وقد أتى على ما فيه »^(١).

وعَدَّ هذا التشبيه من التشبيهات الحسنة بناء على ما يراه قدامة من « أن أحسن التشبيه هو ما أوقع بين الشيئين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفردهما فيها حتى يدني بهما إلى حال الاتحاد »^(٢).

ولكن ما الذي راع قدامة من هذا التشبيه هل ما لاحظته من واقع الناقة الحسي التي هي عليه وقد هزلت وضعفت حتى لكان ضلوعها مبراة من شدة

(١) نقد الشعر ، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي ، ص ١٢٦ .

(٢) نقد الشعر ص ١٢٤ .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دُرُوسَةٌ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ❁

هزأها ونحافتها مع أن وصفها بالوصف الحسِّي لا أثر للوجدان بدلالته النفسية فيه ؟

أم أنه تجاوز الواقع الماثل أمامه في الناقة ونظر بأعماقه إلى سبب ما آلت إليه في منظرها الشاخص أمام عينيه بسبب إجهادها وإتاعها ، وسفرها ، وضربها في الصحراء ؟ والشاعر من رهافة حسه ورقة مشاعره تجاه الناقة يتألم لما يبصره من منظرها ، ويراه ولذا يدفع هذه الأحاسيس الفياضة إلى من يتلقى عنه ليحس بما يحس به ذلك أن الناقة بالنسبة له هي الرفيق في الرحلة ، المصاحب له في السفر تسير معه حيث يسير في الفيافي والصحارى في الليل وفي النهار تطيعه فيما يريد من انقياد وتسليم .

واستمع إلى ذي الرُّمة في قوله :

عشية مالي حيلةٌ غير أنِّي بلقُط الحصى والخطَّ في التُّرب موكُعُ
أخط وأمحو الخط ثم أعيدُه بكفي والغربانُ في الدار وقعُ
كان سنانا فارسياً أصابني على كبدي بل لوعة البين أوقعُ

هذه الأبيات ليست مجرد تصوير فني بقدر ما هي تعبير صريح وصادق بما تدل عليه من دلالة نفسية ، وبما ترمز إليه ، وتوحي به من حال الشاعر من حرقة ألم ، وشدة أسى ، ومن ضنى ومعاناة ، مع ما فيها من بساطة ويسر وسهولة إنها تمثل مأساة الشاعر في إبانة ، وصدق ، وصراحة ، إذ تجلِّي حزنه ، وتكشف عن أساه في تعبير مؤثر ، حين ذهب إلى رسم دارس لدار . كانت تزينها الحبيبة وقد أصبحت خرابا يبابا فلم يتمالك نفسه المتهالكة وجلس على الأرض في يأس قاتل ، وحسرة مردية وأخذ يدير في الجو نظرا حائرا وبدأت أصابعه تعبث في الرمال تلقط الحصى ، وتخط خطوطا ، وتمحو ما تخط في ذهول وشروود وبينما هو في ذهوله وشروده لا يدري ممَّا يفعل شيئا تكون الغربان شارة الفرقه ، ورمز البين والخراب واقعة بالدار تحط عليها وتسكنها ممَّا يضاعف من مساحة الحزن ، ويجعل الجو يفيض بالأسى ويجلّل بالظلمة

❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

والسواد ثم جسد أثر هذا الجو بما فيه من دلالة نفسية تموج بالألم بهذا التشبيه الذي شبه آلامه التي يقاسيها بطعنة رمح نفذت من جسده إلى كبده في شدة الألم لكنه يرى أن هذه الآلام الجسدية مهما تكاثرت فتكها تتضاءل أمام لوعة البين وعذاب الفراق .

كَأَن سَنَانَا فَارِسِيًّا أَصَابَنِي عَلَى كَبْدِي بِلَ لَوْعَةِ الْبَيْنِ أَوْقَعَ

والتشبيه من تشبيه المعنى بالصورة .

يعد ذو الرمة من الشعراء المصورين ، فالتصوير وخصوصا بالتشبيه هو ظاهرة لاحظها عليه القدماء وكانت مقولتهم الذائعة : « أحسن الناس تشبيها في الجاهلية امرؤ القيس وأحسن أهل الإسلام تشبيها ذو الرمة » وانظر إلى قوله :

كَأَنَّمَا خَالَطْتُ فَاهَا إِذَا وَسَنْتُ بَعْدَ الرَّقَادِ بِمَا ضَمَّ الْخِيَاشِيمُ

مَهْطُولَةٌ مِنْ خُزَامَى الرَّمْلِ حَرَكَهَا مِنْ نَفْحِ سَارِيَةٍ لَوْنَاءِ تَهْمِيمِ

حَوَاءُ قَرْحَاءُ أَشْرَاطِيَّةٌ وَكَفَّتْ فِيهَا الذَّهَابُ وَحَفَّتْهَا الْبِرَاعِيمِ

أَوْ نَفْحَةٌ مِنْ أَعَالِي حَنَوَةٍ مَعَجَتْ فِيهَا الصَّبَا مَوْهِنَا وَالرَّوْضُ مَرْهُومُ

وسنت : نامت ، ومهطولة : روضة ممطورة ، واللوناء : بطيئة . والتهميم : المطر الدائم المستمر . وحواء : شديدة الاخضرار . وقرحاء : فيها نور أبيض . وأشراطية : مطرت بنوء الشرطين . ومعجت : أسرع وتحركت . وموهينا : أي بعد ساعة من الليل . ومرهوم : يعني ممطور .

إن الحبيبة سحر يغلب على أحاسيس الشاعر ، فيغرق في فيض من الشعور الرخيّ الرضيّ السعيد ، تمسّ طيوفُ الهوى قلبه فيهفو ويختلج ؛ لذا تراه وهو يتحدث عن أنفاسها يلتمس لها نظيراً في أريج ، وشذا ، وعطر انبعث من روضة زهر الخزامى . وهذه الروضة قد جاد عليها المطر ، بل إن هذا المطر قد تغازر وتكثّر ؛ لأنّه هطل عليها من نفح سارية وهي سحابة بطيئة لوناء فبطّوها لأنها مُثْقَلَةٌ بحملها الغزير من المطر والمياه تسري بذلك ليلاً في تهيم دائم ،

الصورة البيانية ————— دراستي في مسانعة البيان ————— ❁

وهطول مستمر فيتحرك شذا الروضة وأريجها ، وعطرها وهي شديدة الخضرة في كامل نضارتها يهطل عليها المطر فيفتح نورها الأبيض ، وتنبت براعمها الصغيرة التي تخفها وتلتف حولها وتحيط بها في منظر بديع فاتن .

كما يشبهها مرة أخرى بروضة من نبات الحنوة انبعث رائحته الفواحة ونشرتها نسيمات الصبا في ساعات الصباح والروض تهطل عليه الأمطار في منظر ساحر ، ورائحة نفاذه معطرة .

وترى في هذين التشبيهين الشاعر وهو يطيل الوقفة أمام المشبه به ويكثر من الحواشي والتفاصيل حوله ويستقصي كل جزئياته ، ويضيف إلى ذلك من الألوان والأوضاع ما يضعه في الصورة التي أبرزت أجمل وأبدع جوانبه .

ومن تشبيه المفرد ما تراه في قول ذي الرمة .

ديارميمة إذ ميّ تساعفنا ولا يرى مثلها غرب ولا عجم
براقة الجيد واللبات واضحة كأنها ظبية أفصى بها لب
بين النهار وبين الليل من عقد على جوانبه الأسباط والهدب

تساعفه : ساعفه أي أسعفه ودنا منه وقضى حاجته ومساعفه موافية . اللبات : الجيد والعنق . واللبب : موضع القلادة من الصدر ، ومن كل شيء وما استرق من الرمل ، وانحدر من معظمه .

وأفصى بها : صار بها إلى الفضاء . والعقد : الرمل المتجمع المتراكب . والأسباط : اسم لبنات . والهدب : أغصان الشجر وكل ورق ليس له عرض كأوراق السرو .

وذ الرمة هنا يعبر عن هواه ، وحبه لمي بهذا الشعر ، فهي حلمه الذي يصبّحه ويمسيه وهو مأخوذ بسحرها يحوم حولها حومان الروح حول جسدها لا يجد في قلبه شيئا غيرها يعصف حبها بقلبه عصف الريح بالشجر المتهدلة ولا يبصر في عينيه إلا جمالها الطاغى الذي يسبي ويلوح في لباتها المتوهجة

❁—————الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ—————دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

المتلائة ، ولذا يبدأ بتشبيث هذه الحقيقة التي يقرّرها ، ويؤكدّها كما يراها إنها ليس لجمالها مثل ولا ضريع لا بين العرب ، ولا بين العجم ؛ إذ أنّها تفوّقت عليهم جميعاً فجمالها الرائع يجري في شعوره ، ويستولي على كل قلبه ، فالتشبيه في البيت الأول قائم على النفي نفياً أن يكون أحد مثلها سواء كان ذلك في العرب والعجم ، فهي متفردة في هذا الحكم العام لا يشاركها فيه غيرها ولا ينافيها فيه سواها وفي البيت الثاني يقف وقفة العاشق المتوجّد أمام جيدها بما عليه من فتنة تنشر أضواءها السحرية التي تبدّد ظلام الكآبة ، وتشعل نار الشوق ، والحب . فيصف جيد ميّ بقوله : برّاقة الجيد وهو عضو يضيف على المرأة سحراً وجمالاً ، ومعنى هذا أنّه أبيض ولكنه لا يتوقف عنه وصفه بالبياض ، ولكن بياضٌ برّاق يتلألأ ويتوهّج من شدة هذا البياض ، ومن كثرة لآلئه ثم إن لآلئه إنّما يكون في موضع القلادة من الصدر ممّاً يجعل الجمال يفيض من الصدر وينتشر على الوجه وعلى الجسم كله ويتفنّن الشاعر في توضيح هذا المشهد الخالب والأسر من خلال هذا التشبيه الذي يجمّل الصورة ويزيّنها كأنها ظبية أفضى بها لبّ والظبية حيوان معروف برّقته وهو لا يشبّها بالظبية في أي حال من الأحوال ولكنه يقيّد هذا التشبيه حين يختار للظبية الوضع الأمثل والأجمل والأحسن التي تكون فيه وذلك حين تكون منطلقة في عدوها ، ومسرّعةً فيه بين كثران الرمال من أعلى ومنطلقة إلى الوادي بفضائه الممتد العريض حيث انتشرت أشجار وانتشرت ألوان من النبات كان ذلك ساعة أن دنت شمس الأصيل للمغيب ، فهو هنا يشبه محبوبته بالظبية ولكنه شبّها بالظبية مقيدة بأن جعلها في أجمل وأحسن حالاتها وهي منطلقة تعدو على نحو ما وضحنا ثم اختيار الوقت وهو ساعة الأصيل قبل المغيب ممّاً يلوّن الصورة باللون الأخاذ .

وذو الرمة له أذن رهيبة ، تجيد التقاط الأصوات ، والتمييز بينها في براعة؛ لذا كانت أذناه تتسمّعان كل ما يصدر عن الطبيعة من دقيق الأصوات وكان

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دُرِّسَتْ فِي مَسَائِدِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي تَالِبٍ ————— ❁

يفرق بينها ويعرف لكل صوت الصوت الذي يشبهه ، أو يقترب منه فيقرنه به .
انظر إليه في قوله :

لِلْجَنِّ بِاللَّيْلِ فِي أَرْجَائِهَا زَجَلٌ كَمَا تَنَاحُ يَوْمَ الرِّيحِ غَيْشُومٌ

« والغيشوم » شجر ينبسط على الأرض ، فإذا هبت عليه الريح وهو جاف فإنه يحدث هذا الصوت والذي جَمَلَ التشبيه ما بين الطرفين من الملاءمة ، فهو يشبه زجل الجن وهو ما ينبعث عنه من صوت بصوت الغيشوم في الصوت .

هذا والخصوصية دقيقة في وصف الأصوات وازنوا بين أصوات الإبل في حال مضغها في قول ذي الرُّمة .

وَكَأَنَّ عَلَى أَنْيَابِهَا كُلُّ سُحْرَةٍ صِيْحَ الْبَوَازِي مِنْ صَرِيفِ اللِّوَاكِ

السُّحْرَةُ : هي السحر الأعلى قبل انصداع الفجر . وصَرِيف : صوت الناب واللواك جمع لأك من لأك الطعام أي مضغة ، والتشبيه قائم من خلال تشبيه صوت اللواك بصوت البوازي وفضلوه على قول امرئ القيس :

كَأَنَّ صَلِيلَ الْمَرْوَحِينَ تَشْدُهُ وَصَلِيلُ زَيْوْفٍ يُنْتَقِدُنَ بَعْقَرَا

المرو : الحجارة البيض الرقاق . تَشْدُهُ : تنحيه وتبعده .

عبقر : بلد باليمن . صليل زيوف : أي أنه شديد الصوت صافيه .

والتشبيه هنا قائم من تشبيه صوت المروحين تدفعه الناقة بصوت الدراهم الزائفة في شدة الصوت وبالتأمل مع أن الشاعرين ذا الرمة وامراً القيس قد التقيا معاً في تشبيه صوت بصوت واجتمعا على ذلك ، بل إن كل واحد منهما قد لاحظ خصوصية معينة في هذا الصوت على أساسها أجرى تشبيهه فذو الرمة نظر إلى ما في صوت البوازي من خصوصية ، وهي تلك النغمة الخاصة التي يتميز بها الصوت وتلك هي التي جعلته يتلاءم ويتناسب ويتوافق مع صوت الناقة أمّا امرؤ القيس ، فقد نظر إلى ما في صوت الدراهم الزائفة حين نقدها ، وما يتميز به صوتها من خصوصية هذه الخصوصية جعلته يتلاءم ،

❧ ————— الصَّوْرَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

ويتوافق ، ويتناسب مع صوت المرو الذي تقذفه الناقة في سيرها لكن الذي جعل ذا الرمة ينال الأفضلية ويتفوق أن نظرتة أدق وأعمق ، لأنه حقق تمام المشابهة بين الطرفين ولأن صوت البازي قلما يسمع .

يقول الإمام عبد القاهر تعقيباً على بيتي ذي الرمة وامرئ القيس السابقين وتفضيله لبيت ذي الرمة « لأنَّ التفصيل والخصوص في صوت البازي أبين وأظهر منه في صليل الزيوف . وكما أن قوله : يقصد تميم بن أبي مقبل .

وللفؤادِ وجيبٌ تحْتَ أبهره لدمُ الغلام وراء الغيب بالحجر

لا يسوَّى بتشبيه وقع الحوافر يهزمه الرعد ، وتشبيه الصوت الذي يكون لعلبان القدر بنحو ذلك كقول عمرو بن أحمر الباهلي .

لها لغطٌ جنح الظلام كأنه عجافٌ غيثٌ راح متهزِّم

لأنَّ هناك من التفصيل الحسن ما تراه ، وليس في كون الصوت من جنس اللغط تفصيل يعتد به ، وإنَّما هو كالزيادة والشدة في الوصف»^(١).

فتشبيه دق القلب بدق الغلام بالحجر من وراء الحائط في الصوت وتشبيه لغط القدر وأزيزها بعجاف الغيث التشبيهان يجتمعان في أنهما تشبيهان قائمان على تشبيه صوت بصوت ولكن حين تتأمل التشبيه في البيت الثاني تجد فيه دلالة على شدة صوت القدر وقوة لغطها لكن الشاعر الأول الذي شبه وجيب قلب الفرس ودق بدق الغلام بالحجر من وراء الحائط نجده عمداً إلى تفصيل ما في صوت دق الغلام من نغمة خاصة وصوت معين من غير نظر إلى قوة في الصوت أو ضعف فيه وإنَّما لاحظ هذه الخصوصية في الصوت ونعمتها المعينة بما لها من وقع في السمع هذا الوقع هو الذي أحدث التشابه بين دق قلب الفرس ووجيبه وبين دق الغلام بالحجر من وراء الحائط ، الأمر الذي أحدث التوافق بين الطرفين المشبه والمشبه به .

(١) أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر ، تحقيق وتعليق محمود محمد شاكر ، ص ١٦٢ ،

الصورة البيانية ————— دراستي في مسأله البيان ————— ❁

وقد نرى التشبيه يستثمر اللون الأسود فيجعله من عناصر صورته وانظر إلى قول المتنبي في وصفه لشعر غرير أسود :

حالك كالعُذاف جشل دَجُوجيٍّ أثيث جَعْدٍ بلا تجعيد

«والحالك» هو الشديد السواد «والعذاف : الغراب الأسود ، «والجشل»

الكثير الملتف «والأثيث» الكثيف ، «والدجوجي» أسود مظلم أي شديد السواد .

والصورة بصرية لونية توضح مقدار حال المشبه والتشبيه ينعقد ويقوم من خلال تشبيه الشعر بالعذاف الأسود في لونه وسواده ثم تتابع الأوصاف وتتلاحق لتؤكد وتوثق وصف المشبه بالسواد وبيان مقداره فلا يتوقف الشاعر عند بيان أنه حالك ولكنه يتجاوز الحلوة حين يشبهه بالغراب الأسود ثم يؤكد هذا ويوثقه بما يفيد شدة سواد اللون في الشعر فيصفه بأنه دجوجي مظلم شديد السواد ، وأنه كثير ملتف مجعد بطبيعته والشعر المجعد يكون خشنا غليظاً وبذلك يبين ويوضح أن هذا الشعر مع شدة سواده جعد خشن غليظ .

ومن التشبيهات التي يتوسل فيها بالصوت الذي يصور النعومة والرقّة ما تراه في تصوير مسيل المياه على الحصى وارتطام بعضه في بعض محدثاً أصواتاً ناغية كوسوسة صوت الحلي في أيدي الغواني الحسان يقول المتنبي :

وأمواء يصل بها حصاها صليل الحلي في أيدي الغواني

والشاعر يقف أمام المياه وخيريرها ، ويصغي إلى الصوت المنبعث من تدفقها وجريانها ولعلها وهي تتدفق وتنساب كذوب التبر كانت تمر بمسيل فيه دقات الحصى وهي تهدر مندفة من أعلى فيرتطم الحصى ويصطك بعضه ببعض فينشأ عن ذلك هذا الصليل الذي يشبه صوت الحلي في أيدي الحسان والتشبيه ينعقد من خلال تشبيه صوت ارتطام الماء بالحصباء بصوت الحلي في

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

أيدي الغواني حين يحركن أيديهن فيضرب بعضه بعضا ووجه الشبه هو الصوت المميز ويلاحظ أن المشبه هنا هو المصدر المبين لنوع الفعل « يصل » أي يصل صليلا كصليل الحلي في أيدي الغواني وأداة التشبيه محذوفة مما يعطي للتشبيه قوة ويزيد في المبالغة .

وانظر إلى هذا التشبيه الذي توصل فيه الشاعر بحاسة الذوق الذي ألمح فيه إلى مدرك شمي لم يصرح به في قول المتنبي :

ترشفتُ فها سُحْرَةٌ فكأنني ترشفت حرَّ الوجد من باردِ الظلم

« الترشف » المصّر . « والظلم » ماء الأسنان وبريقها .

والمعنى كما ذكره شارح الديوان : « هي طيبة النكهة ؛ لأنها إذا كانت آخر الليل طيبة النكهة فهي أوله أطيب ؛ لأنَّ الأفواه تتغير آخر الليل ، فإذا كانت النكهة طيبة آخر الليل كان أمدح » ^(١).

وحين تنظر في قول الشاعر تراه يتحدث عن رضاب المحبوبة الذي تبله ، وأشعل النار في فؤاده حين أطلق طائر السحر أولى نغماته الرقيقة في فضاء الكون الساهم وهزيع الليل الأخير ومظنة تغير رائحة الفم في هذا الوقت المتأخر من الليل حاضرة وقائمة ، ولكن الظنون أخلفته حين أحسَّ برائحة الفم تُثْمِلُهُ وتسكّره من سحرها الساحر ، ورائحتها المعطرة ثم يوضح أثر هذا الرضاب في نفسه ، وما صنعه به حين كان يترشف من خمرة البارد لينقع غلته ، ويطفئ ظمأه . فإذا به يشعل الرغبة في أعماقه ، ويلهب ساكن الوجد في جواه وفي داخله .

والتشبيه ينعقد من خلال تشبيه ترشفه لرضاب المحبوبة البارد في هذا الوقت من الليل بترشفه لحر الوجد في الطعم .

(١) ديوان المتنبي ٤/٤٨ بشرح العكبري .

الصورة البيانية ————— دراستي مسائل عليّ البيان ————— ❁

وانظر إلى التغيير (بالسحر) وما يضيفه إلى ريق تلك المرأة من طيب الرائحة ذلك أن رائحة فمها في هذا الوقت المتأخر من الليل إذا لم تتغير وفعلت به كل تلك الأفاعيل فماذا يصنع به رضاها إذا ترشفه في أول الليل؟ المؤكد أن رضاها في أول الليل سيكون أحلى وأشهى ثم تأمل كيف يتحول «بارد الظلم» إلى جوى ساخن، وحرّ لاهب بعد أن ترشفه ذائقوه.

ومن التشبيه الذي أضيف فيه المشبه به إلى المشبه في تشبيه ووضعت «لا» بين المشبهين فيما تراه قول المتنبي :

كم قتل كما قتلت شهيد بياض الطلى وورد الخدود
وعيون المها ، ولا كعيون فتكت بالميتيم المعمود

(والطلى) الأعناق (والمها) جمع مهاة وهي بقر الوحش تشبه أعين النساء بها لحسنها وسعتها (وفتكت) قتلت (والميتيم) المذلل المدلل الذي قتله الحب وأذله واستعبده (والمعمود) الذي قد هدّه الشوق ، وأصله شدة المرض يقال : عمده وأعمده وعني بالمعمود نفسه .

فهو يتحدث عن الجمال الذي تصبّاه وسباه في الطلى البيضاء الآسرة ، والعيون الساحرة الفاتنة ، فهو مأخوذ من هذا السحر الذي يصبّيه في لون النحور ، وتورد الخدود ، وانظر إلى هذه العيون التي جعل منها قاتلا يقتل ، ويكون له شهداء وإلى ما صنعه جمالها الصارخ من أثر في الذي صرخته فتنتها ، واستند له هواها واستعبده حبها .

ثم انظر إلى التشبيه في آخر البيت الأول ؛ حيث شبه لون الخدود بلون الورود وقد أضيف المشبه به إلى المشبه وهذه الإضافة رفعت من جمال المشبه حتى ليخيل إليك أن المشبه به وهو (الورد) نوعان نوع عام مشترك يعرفه الناس جميعا ، ونوع خاص بالوجوه وهو ما شبه به هنا إنه ورد الخدود وكأنه إنما كان من أجل الخدود ، فهو وردّها الخاص بها وليس وردّ الشيء آخر

❧—————الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ—————دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

غيرها وفي البيت الثاني يشبه عيون المها في فتكها بالعيون التي فتكت به ، ولكن العيون التي فتكت به عيون لا شبيه لها وأن ما يدل على ذلك وقوع (لا) بين المشبَّهَيْن .

ومن قصيدة للمتنبي يعزي سيف الدولة في موت أخته الصغرى ويسليه بالكبرى فيقول :

وإذا اهتزَّ للندى كان بحراً وإذا اهتزَّ للوغى كان نصلاً
وإذا الأرض أظلمت كان شمساً وإذا الأرض أمحلت كان ونبلاً
الاهتزاز : الارتياح . والوغى . الحرب . والنصل . السيف . والمحل : قلة
النبات في الأرض من عدم المطر . والوبل : المطر الكثير .

فهو يصف سيف الدولة بأنه غزير العطاء ، جواد كريم يهتز للندى ويرتاح وينتعش أمام طالبي نداءه وإحسانه وهو يعطي من غير حساب ؛ لأنه لا حدود لعطاياه . ومع هذا يصفه بالبسالة والشجاعة والإقدام فهو يهتز للحرب ، ويفرح بها يحب خوض أهوالها لثقتة التامة بأن نتيجتها محسومة بنصره ، وهزيمة أعدائه وترى التشبيه ينهض من خلال تشبيهه في فرحه بالعطاء ، واهتزازه له بالبحر في كثرة مواهبه ، وغزارة منحه ، ووفرة عطاياه . وفي الشطر الثاني من البيت الأول تراه يصور شجاعته ، وإقدامه وبسالته فيشبهه في اهتزازه للحرب ، وخوضه معاركها بالسيف القاطع في نفاذ أمره ، وتحقيق مشيئته ، وقوته فيما يحاول ويريد .

وفي البيت الثاني تراه وهو النور الباهر الذي يكتسح الظلام فيبدده إذ هو الشمس في إشراقها ، وعلوها ، وضياؤها ونباهة شأنها . بنورها الذي يعم الدنيا حين تظلم الأرض فيضيء مجاهلها ، وينشر أضواءها المتألقة على كل بقعة من بقاعها فيحل عليها الإشراق ، والصفاء ، والسرور ، والدعة ، وإذا أمحلت فهو الغيث الذي يغيثها ، ويحيي مواتها ، ويبعث القوة فيها إذ هو المطر الغزير

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ الْبَيَانِ ————— ❁

الدائم الذي يمنحها الخصوبة والإثمار والحياة فهو يشبه بالشمس المشرقة التي تكتسح مواكب الظلام في النباهة ، والإشراق ، وعلو المكانة ، ورفعة الشأن . ويشبهه بالوبل الدائم الذي يحيي موات الأرض في كثرة النفع ، وازدهار الحياة ، وعموم الخير .

وحين تقرأ قول الله تعالى : ﴿ أَجَلٌ لَّكُمْ لَيْلَةٌ الصَّيَامِ الرَّفْتُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ (البقرة: ١٨٧) .

اللباس ساتر وحاجب وواقٍ يستتر صاحبه ويحجبه ويقيه. والزواج في حقيقته وأصل وجوده نشوة من الحب المتصلة يتدفق فيه قلب في قلب ، وتمتزج فيه نفس بنفس ، ولذا فكل من الزوج والزوجة لباس لصاحبه يصونه عما يشينه، ويحفظه مِمَّا يعيبه، ويستتره من كل ما يسوءه من فاحشة أو رذيلة، أو نقيصة كما يصون الثوب لابسَه عن كشف مستوره ، أو إظهار عيبه ، أو أيِّ نقص فيه ووجه الشبه هو الصون في كل .

ويقول المتنبي من قصيدة يمدح أبا عليّ هارون بن عبد العزيز الأوراجي^(١):
مثلت عينك في حشاي جراحةً فتشابهها كلتاهما بخلاء
نَفَذتَ عليّ السابريَّ وربما تندقُ فيه الصعدة السمراء
وقوله : « فتشابهها » كان حقه أن يكون فتشابهتا ، ولكن حمل الجراحة على الجرح ، والعين على العضو ، فقال : « تشابهها » أي المذكور أو الشيطان كقول زياد :

إن السَّماحةَ والمروءةَ ضمًّا قبراً بمرو على الطريق الواضح
ذهب بالسَّماحةِ إلى السخاء ، وبالمروءة إلى الكرم .

(١) الديوان ، ١٤/١ ، ١٥ .



❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

ولم يقل : « بخلاوان » لأنَّ لفظ كلتا واحد مؤنث كقوله تعالى : ﴿ كَلَّمَا
الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أَكْلَهَا ﴾ (الكهف: ٣٣) و« البخلاء » الواسعة وطعنة بخلاء أي
طعنة واسعة .

وفي البيت الثاني « نَفَذَتْ » أي وصلت وخلُصت « والصَّعْدَةُ » القناة التي
نبئت معتدلة فلا تحتاج إلى تقويم « والسَّابِرِيُّ » الدرع التي لا يخترقها ولا ينفذها
شيء .» .

إنها زفرات ترجم بها اللسان عن كل ما أعيى القلب وأضناه من هذه الجراحة
التي أصابت حشاه ، ومثلتُ فيه من عين جميلة نجلاء حين نظرت إليه فأحدثت
في قلبه جراحة واسعة سعة عينيها النجلاوين الواسعتين الجميلتين .

وفي البيت الثاني يؤكد ما صنعه به تلك النظرة النافذة من عينيها الواسعتين
الساحرتين ، لقد اخترقت الحواجز ونفذت إلى قلبه فجرحته وأصابته ،
واخترقت ما كان الرمح في صلابته ومضائه لا يصل إليه ، بل يتكسر ويتحطم
دون الوصول إلى قلبه .

هذا والتشبيه ينعقد في البيت الأول من خلال تشبيه عين المحبوبة التي يتدلَّه
الشاعر في حبها ، ويتغزَّل في جمال عينيها والمشبه به الجراحة التي مثلت في
حشاه والتي تشبه عينيها ووجه الشبه هو السَّعَةُ في كل .

* * *

التشبيه المركب

التشبيه المركب هو ما كان وجه الشبه فيه مركبا من متعدد تركيبا اعتبارياً بأن يكون هناك شيئان أو أكثر فينتزع منهما هيئة تعمها ، وبحيث لا يصلح واحد منها على انفراده وجه شبه ، أو لو سقط واحد منها لا يتحقق التشبيه . انظر ما قاله البحرني في مدح الفتح بن خاقان :

غرائبُ أخلاقٍ هي الروضُ جَدَاهُ مُلِثُ الْعَزَالِي ذُو رَبَانٍ وَهَيْدَبٍ
وقَدْ زَادَهَا إِفْرَاطُ حُسْنِ جَوَارِهَا لِأَخْلَاقٍ أَصْفَارٍ مِنَ الْمَجْدِ خَيْبٍ
وَحُسْنُ دَرَارِي الْكَوَاكِبِ أَنْ تُرَى طَوَالِجُ دَاجٍ مِنَ اللَّيْلِ غَيْهَبٍ

الملث : المطر الذي يدوم لعدة أيام . والعزالي . جمع عزلاء وهي مصب الماء من القربة ونحوها ويقال : أنزلت السماء عزاليها إشارة إلى شدة وقع المطر . الرباب . السحاب الأبيض . التهيدب من السحاب هو المتدلي الذي يدنو من الأرض وتراه كأنه خيوط عند انصباب المطر ، وخلائق أصفار : أصفار جمع صفر يعني أنهم خالون من الأخلاق . وخيب : جمع خائب وهو الخاسر والمحروم ، والكوكب الدرّي : المتألّي المشرق نسبة إلى الدرّة وهي اللؤلؤة العظيمة . والداجي : المظلم . والغيب : الظلمة .

فهو يتحدث عن أخلاق ممدوحه فيصفها بأنها بيضاء ناصعة في بياضها ومما زاد في تألقها ، وألقها ، وإبهارها ، وعظم قدرها ، وازديادها في الحسن والبهاء مجاورتها لأخلاق قوم لئام خالين من كل مجد فهو يشبه أخلاق ممدوحه التي ترف بالحسن وتزداد حسنا وجمالا بمجاورتها لأخلاق ذوابه لقوم لئام بدراري الكواكب المتألقة تتألق جمالا وتزداد حسنا وضياء بمجاورتها لغيب الليل الداجي المظلم ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من الشيء الحسن الجميل يزداد حسنا وجمالا حين يجاور ما يضاده ، وما يناقضه .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ —————﴾ دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

ومن الشكوى قول ابن الرومي :

طلبت إليكم بالعتاب مودَّةً وعطفًا فأعتبتم بإحدى البوائق
فكنت كمستقٍ سماءً مُخيلةً حياً فأصابته بإحدى الصواعق^(١)

البائق : الدواهي . والمخيلة : بضم الميم التي تحسب ماطره . والحيا : المطر
شبه حاله معهم حين عاتبهم وهو يأمل من وراء عتابه لهم المودة والعطف
فعاتبوه بالدواهي والبوائق بحال من توهم في السماء ماء فطلبه فأصابته
الصواعق ووجه الشبه الهيئة الحاصلة من وقوع الأذى والضرر لا الخير والنفع .
والتشبيه الصوتي يطل علينا من خلال قول ذي الرمة .

دَوِيَّةٌ وَدُجَى لَيْلٍ كَأَنَّهُمَا . . . يَمُّ تَرَاطُنُ فِي حَافَاتِهِ الرُّومُ^(٢) .

إن الصحراء على سعتها ، وامتدادها بوحشتها المخيفة ، وهولها الجاسم
المرعب وتناوح الرياح في أرجائها ، وظلام الليل البهيم الذي تتكاثر مواكب
ظلامه فلا ترى لمعة من ضوء تبرق ، وتتردد في جنباتها أصداً أصوات الجن
مع إبهامها وغموضها يتخيل ذو الرمة هذه الأصوات على هذا النحو ، وبهذه
الصورة بحرًا يتراطن في لججه ملاحون من الروم وذلك لعدم الإبانة في
أصواتهم فهو يشبه الدَوِيَّةَ والأصوات المنبعثة منها في هذا الوقت بتراطن الروم
في بحر لجي ووجه الشبه الصورة الحاصلة من أصوات منبعثة من غير أن يفهم
لها معنى أو تبين عن شيء .

ومن هذا النوع من التشبيه ما تراه في قول المتنبي في عليّ بن إبراهيم
التنوخي^(٣) :

كَأَنَّ سَخَاءَكَ الْإِسْلَامُ تَخْشَى إِذَا مَا حُلَّتْ عَاقِبَةُ ارْتِدَادِ

(١) الديوان ، بتحقيق حسن كامل الصيرفي ، ١٩٢/١ ، ١٩٣ .

(٢) دوية المقصود الصحراء والأصوات التي تدوي بها .

(٣) الديوان ٣٥٩/١ ، ٣٦٠ .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ الْبَيَانِ ————— ❁

كَأَنَّ الْهَامَ فِي الْهَيْجَا عُمُونَ وَقَدْ طُبِعَتْ سَيُوفُكَ مِنْ رُقَادٍ

في البيت الأول صورة جزئية تشبيه مفرد يقوم من خلال حفاظ الممدوح على الجود والسخاء كما يحافظ على شعائر الإسلام، فهو يشبه سخاء الممدوح ومحافظته على الجود والعطاء وعدم التفريط في شيء من ذلك بمحافظته على إسلامه، وشعائره وملته لا يتهاون ولا يقصر في شيء من ذلك أبداً .

وفي البيت الثاني تجدك أمام تشبيه هيئة بهيئة والصورة فيها طابع التجريد وقد تجاوزت حدود الصورة الحسية، ولم تكف بمجرد عقد مشابهة بين متشابهين، بل تخطت ذلك لتدلّ على أن سيوف الممدوح قد ألقت رؤوس الأعداء كما يألف النوم العين فلا يقع إلاّ فيها وبمثل هذا تأخذ الصورة دورها في الاتجاه بالمعنى .

فالسيف قد جردت من حسيّتها لتتحول إلى رقاد . طبعت منه، وصيغت والرقاد إنّما يأوي إلى المقلّ ليحلّ فيها، وينزل بها فلا مكان للرقاد سوى العيون .

والتشبيه في البيت يقوم بتشبيه السيوف وقد حلت بالرؤوس بالنوم وقد حل بالعيون ووجه الشبه أن كلا منهما قد حل فيما يناسبه وفيما لا يحل إلاّ فيه وفي قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾ (إبراهيم: ١٨) .

من البين الواضح أن الله سبحانه وتعالى يتحدث عن الأعمال الطيبة التي يعملها الكفار في الدنيا وأنهم يستنجدون بها في وقت الضيق والكرب والشدّة، فلا يجدون لها أثراً؛ لأنّ الله أذهب بها، وضيّعها لفقدائها شرط القبول وهو الإيمان بالله، والعقيدة الصحيحة وأنت تدير نظرك في النص القرآني فيتبيّن لك أن المعنى الذهني المجرد قد صور في صورة حسية ظاهرة، فالآية تُبيّن أن الله سيضيّع أعمال الذين كفروا الصالحة كأن لم تكن من قبل شيئاً وستضيع إلى

❁ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

غير عودة فلا يملكون لها ردًّا كما تحمل الريح العاصف الرماد وتذروه ، وتذهب به بددا إلى حيث لا يتجمع أبدا والوقوف أمام العناصر التي بنيت منها الصورة ودراسة ما فيها من خصائص تفصح عن خفايا المعاني التي حفلت بها على نحو لا يخفى على بصير وحين تسأل عن سر التعبير بكلمة «رَمَاد» ولماذا أوثرت على كلمة تراب ؟ ولماذا استخدمت «الكاف» هنا أداة للتشبيه ولم تستخدم «كأن» مثلا مع أنها أقوى في الدلالة على قوة المشابهة ؟ وما القيمة البلاغية للتعبير «بالباء» في قوله سبحانه ﴿ أَشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ (إبراهيم: ١٨) وما الصلة التي لمحت بين طرفي هذا القياس ؟ ثم ما الفائدة التي تستفاد من التعبير القرآني في قوله : ﴿ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ﴾ (إبراهيم: ١٨) ؟ وما سر التقديم في قوله «مِمَّا كَسَبُوا» على قوله : «شيء» ثم لم عرف الطرفان وفصل بينهما بضمير الفصل في قوله : ﴿ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾ (إبراهيم: ١٨) ثم لماذا وصف «الضلال بالبعيد» سيل من الأسئلة يتدفق كان من وراء استنطاق اللغة ، والغوص في أعماقها ، وسبر أغوارها : قرآن ربنا الكريم يفسح مجالا رحبا لدراسة تبحث عن السر الذي كان من وراء التعبير بالتعابير التي حوت تلك الكلمات المنتقاة ، وسلكتها في هذا النظم المعجز البديع ، والذي لا يخالجنأ أدنى ارتياب في أن اللغة وطرائق التعبير بها بكلماتها في القرآن الكريم باب واسع وملء بالدقائق ومحاولة التعرف والوقوف على شيء منها غاية لا تكاد نقاربها حتى مع طول الكدّ ومع الجهد ومواصلة البحث فأنت مع القرآن أمام بحر لا ساحل له ، كما أنك محتاج دائما إلى أن تعرف كيف وضعت كلمات وضعا لا يمكن تغييره يوحى فيها الحرف الواحد أحيانا بأبعاد رحبة يطويها وراءه وما وراء ذلك من دقة في أداء المعاني وهو مَيِّدان تترامى أطرافه ، ولا تنتهى عجائبه ، فكل آية في القرآن يطل عليك منها معنى ظاهر يبدو في هذا المدلول اللغوي الذي تحمله الألفاظ ، وتؤديه أداء يصلح عليه المعنى المراد ، ويستقيم به ، ثم ترى مما يشع

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَةٌ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ❁

من تلاحم الألفاظ ، وسبكها مع بعضها ومن احتكاكها بعضها ببعض وهو كثير ما يكتسي المعنى منه ألوانا زاهية لا تملأها العين ، ولا يشبع منها الفؤاد .

وعلى أساس من هذه الإضاءة نحاول أن نبصر في ضوءها ، ونرى عناصر هذه الصورة التبصيرية التي معنا والتي تتمثل في الرماد ، والريح ، واليوم العاصف وكلها من خلال سياقها تحمل معنى التلاشي والضياع والحرمان والخيبة وأن الأعمال الطيبة التي أدوها من صلة الرحم ، وإطعام المساكين وغير ذلك كلها تتبخّر ، وتتلاشى ، وتضيع ، ولا قيمة لها ، ولا أجر عليها ، ولا يقع في أيديهم شيء منها ، ثم كان التعبير بكلمة «رماد» لما فيها من معنى الاحتراق «والرماد» معروف «وعرفه ابن عيسى بأنه جسم يسحقه الإحراق سحق الغبار ويجمع على رمد في الكثرة وأرمدة في القلة»^(١).

فالرماد فيه معنى الخفة والتطايير وحقارة الشأن ، وكان هذا والله أعلم سرَّ إشار التعبير القرآني «برماد» دون «التراب» لأنَّ التراب قد يكون فيه نفع كما أنه ليس فيه معنى الاحتراق على أن التنكير في كلمة «رماد» يضيفي عليه الدونية ، والحقارة والهوان ، أمّا اتخاذ الكاف أداة للتشبيه دون سواها كأنَّ مثلا فلأنها تشعرك أن الأعمال التي يعملها الكفار لأنها بنيت على غير أساس من الإيمان بالله ، والعقيدة الصحيحة هي في مرتبة أهون وأحقّر وأقلّ وأدنى من الرماد المحترق الذي يتلاشى ويفنى ويضيع بعد أن تذروه الرياح في كل اتجاه ، وتطيره في كل أفق .

أمّا القيمة البلاغية «للباء» في قوله سبحانه : ﴿ أَشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ ﴾ (إبراهيم: ١٨) فالباء للتعدية أو للملابسة أي حملته وأسرعت الذهاب به ، فمعنى ذلك أن الريح قد كنسته كنسًا ، وذهبت به إلى حيث لا يتجمع أبدا . بعد أن تلاشى في كل الاتجاهات ، ولو أنَّه قيل في غير القرآن اشتدت عليه الريح إذا فهمنا من الفعل «اشتد» معناه الظاهر من استعماله وهو قوي وزاد

(١) روح المعاني للألوسي ، ٢٠٤/١٣ .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ —————﴾ دَرَسْتُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

لكان من الممكن أن تكون الريح قد قويت عليه ، وزادت ، واشتدت ، ولكنها لم تقتلعه ، ولم تبدده . فقد تشدد عليه وهو ثابت لا تأتي عليه كله ، وإنما عبر بقوله سبحانه : ﴿ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ (إبراهيم: ١٨) والعصف اشتداد الريح وصف به زمان هبوبها على الإسناد المجازي فجعل اليوم نفسه عاصفا مع أن العصف في الأصل لما هو فيه وهو الريح ؛ لأنَّ انتقال هذه الصفة من الريح إلى اليوم يشير إشارة لافئة إلى شمول العصف وديمومته واستغراقه لليوم كله على نحو نهاره صائم وليله قائم للمبالغة ، ولو أن التعبير جاء في غير القرآن على نحو آخر فقليل : اشتدت به ريح عاصفة لأمكن أن تكون هذه الريح في عصفها غير دائمة وإنما تعصف وقتنا ثم تهدأ وتسكن والمقصود الإشارة إلى استمرار العصف الشديد بهذا الرماد والذهاب به في كل الآفاق والاتجاهات ولاشك أن الصلة التي لمحت بين طرفي القياس هنا هو التلاشي التام والإفناء والضيء وعدم الإبقاء على شيء من اليأس القاتل والحسرة المردية ويقول صاحب مفاتيح الغيب «اعلم أن وجه المشابهة بين هذا المثل وبين هذه الأعمال هو أن الريح العاصف تطير الرماد وتفرق أجزائه بحيث لا يبقى لذلك الرماد أثر ولا خبر ، فكذا ههنا أن كفرهم أبطل أعمالهم وأحبطها بحيث لم يبق من تلك الأعمال معهم خبر ولا أثر»^(١).

هذا والدلالة اللغوية لقوله تعالى : ﴿ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ﴾ (إبراهيم: ١٨) وإنما قُدِّمَ الجار والمجرور في قوله سبحانه : ﴿ مِمَّا كَسَبُوا ﴾ (إبراهيم: ١٨) على قوله سبحانه : ﴿ عَلَى شَيْءٍ ﴾ (إبراهيم: ١٨) لبيان أن هذه الأعمال على الرغم أَنَّها أعمالهم ، وليست من عمل سواهم وأنها أعمال في مجالات الخير كصلة الأرحام وغير ذلك وأنهم حين تشدد حاجتهم إليها ، ويستتجدون بها ، وتتعلق آمالهم عليها يبحثون عنها ، فلا يجدون لها أثراً ولا خبراً لقد تلاشت وتبخرت وضاعت وحرموا من ثوابها إذ صارت هباء

(١) التفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازي ، ٣١٥/٩ ، دار الغد العربي .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ الْبَيَانِ ————— ❁

تطائر وفنى وضاع مع حياتهم التي أضاعوها بعيداً عن الإيمان بالله ، والعقيدة الصحيحة ، والدخول في الإسلام العظيم فكان تقديمها لبث المزيد من الحسرة والألم .

وإنَّما عُرِفَ الطرفان وذكر ضمير الفصل بينهما في قوله سبحانه : ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾ (إبراهيم: ١٨) لإفادة القصر والدلالة على القصر إنَّما تولدت من الدلالات المستكنة فيما بين الكلمات من علاقات نتيجة لاحتكاك الألفاظ في العبارة ، وتفاعل معانيها ؛ لأنَّ ضمير الفصل « هو » حين جاء بعد اسم الإشارة المشار به إلى المفهوم من حال الكافرين مع أعمالهم الضائعة التي لا يجدون لها ثمرة في قوله سبحانه : ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أفاد تمييزه وتحديده وتخصيصه قبل الإخبار عنه بقوله تعالى : ﴿ الضَّلَالُ ﴾ وهذا يعني الحرص على عدم مشاركة المبتدأ في خبره شيء آخر ممَّا يعني أن الضلال مقصور على مدلول اسم الإشارة فيكون الخبر مقصوراً على المبتدأ ودلالة القصر هنا تؤكد ما فهمناه في الآية من دراسة بلاغية وهو أن أعمال هؤلاء الكافرين لبنائها وقيامها على غير أساس من معرفة الله سبحانه ، والإيمان به ، ولكونها لغير وجهه هي غاية الضلال ، ومنتهاه ، ومعلوم أن الضلال يضاد الهدى والإيمان ، وإنَّما وصف الضلال بالبعيد إشارة إلى أنهم أوغلوا في هذا الضلال ، وأبعدوا فيه إذ الكلام والله أعلم ذلك الضلال البعيد أصحابه وأهله .

وحاصل التمثيل في الآية تشبيه أعمال الكفار الصالحة التي يعملونها في الدنيا في حبوطها وذهابها هباءً منثوراً لابتنائها على غير أساس من معرفة الله تعالى ، والإيمان به ، وكونها لوجه برماد طيرته الريح العاصف وأذهبت به وفرقه في كل اتجاه ولم تبق له على أثر وقد اجتمع المشبه والمشبّه في الهلاك وعدم الانتفاع والعجز عن الاستدراك لما فات ، وفي ذلك الحسرة العظيمة والموعظة البليغة على حد ما يقول الرماني ^(١) .

(١) انظر الألوسي ٢٠٣/١٣ ، ٢٠٤ ، والشهاب الخفاجي على البيضاوي ٢٦٠/٥ ، وتفسير أبي السعود ، ٤٠/٥ ، والكشاف ٢٩٧/٢ ، ٢٩٨ .

❁ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

هذا وهناك تشبيه آخر تتفق صورته مع الصورة التي ذكرناها في التشبيه السابق في سورة إبراهيم في الغرض ، لكن صورة التشبيه هنا تختلف معها في وجه الدلالة على الغرض في قوله سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (النور: ٣٩) .

واضح أن الغرض العام هنا متفق مع الغرض في الآية السابقة وهو أن أعمال الكافرين الطيبة من صلة الأرحام وغيرها لن ينالوا عليها أجراً ، ولا ثواباً لفقدائها شرط القبول وهو العقيدة الصحيحة ، والإيمان بالله .

لكن كيف صيغ هذا ؟ وكيف قدم ؟ وكيف تفصح دراسة الخصائص في هذا القول الكريم عن خفايا المعاني ؟ ثم كيف تعاونت العناصر التي تكونت منها الصورة في هذا الأداء المتحدّي المعجز ؟ ثم إلى أي مدى أكسبت الدقة في اختيار هذه العناصر الصورة ثراء وخصوبة ؟ وإلى أي مدى جعلتها أقدر الأشياء على التعبير والإيحاء والإشارة ؟

تلك أسئلة أستعين بمعونة الله في محاولة الإجابة عليها بما يتيسر لي من فهم أستطيع به أن أفهم معها بما تنطوي عليه من أسرار ، وودائع تستهدف إثارة وتحريك أقدس ما في الإنسان من طاقات التفكير الواعي المستبصر ومنفعة بكل ضوء من الأضواء التي كشفت المجاهل والتي هُدي إليها أهل العلم في هذا الميدان .

لا يخفى أن في الآية تشبيهاً مركباً جرى بين تشبيه أعمال الكافرين الصالحة الذين كانوا يتوقعون أن نفعاً يعود عليهم منها حينما يكونون في غاية الحاجة إليه وحينما يأتي هذا الوقت العصيب يبحثون عن هذا النفع فلا يجدونه ؛ لأن أعمالهم صارت هباء ، وكأن لم يعملوا شيئاً ، وهذه الحالة على هذا النحو وبذلك الصورة أبرزت في صورة السراب يسرّب على وجه الأرض المنبسطة الممتدة فيخيل لمن يراه في الصحراء أنه ماء يجري فيتعلق أمل

الصورة البيانية ————— دراستي مسأله البيان ————— ❁

الظامئ به ، ويلهث نحوه ، وكلما جد في الطلب كلما اشتد ظمؤه وتحرقه حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ، ويفاجأ بما لم يكن يدور له في خاطر إذ يجد هولاً رهيباً ، ومستقبلاً أسود مظلماً ينتظرانه لينال جزاءه وحسابه وهذا القول الكريم في صورته التي ورد عليها يفرض علينا تساؤلات معينة لماذا عبر « بالظمان » ولم يعبر بالرائي مثلاً ؟

ثم لم كان التعبير بلفظه « سراب » ولم جاءت منكراً ؟ ولم كان التعبير بكلمة « شيئاً » ووقعها مفعولاً به لقوله « لم يجده » ؟ ولم ذكر ضمير السراب في قوله سبحانه : « ولم يجده » ؟ وما القيمة البلاغية للكلمة « حتى » في قوله سبحانه ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾ (النور: ٣٩) ؟ وما الذي أضافه للموقف قوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ ﴾ (النور: ٣٩) ؟ وما القيم الفنية التي تتراءى من خلال هذا التعبير المعجز البديع ؟

أما لماذا أثر التعبير « بالظمان » على الرائي فلكي يشعرك بشدة التلهف ، وكثرة الحاجة ، وتعلق القلب ولاشك أن هذه المعاني تكون متحققة في هذا الظامئ المتحرق وسط هذه البقعة الممتدة المترامية في وقت تشتد فيه الحرارة ، وتكثر فيه الرغبة الملحة ، والحاجة إلى الماء لينقح الغلة ، ويطفىئ الظمأ ، ويبرد الجوف ، وينعش النفس وإنما عبر بالسراب وهو ما يرى في الفلاة من ضوء الشمس ولمعائها وقت الظهيرة يسرب على وجه الأرض كأنه ماء يجري ؛ لأنه وهم وخداع إذ ليس فيه ما يمت إلى شيء من الحقيقة ثم كان التذكير في كلمة « سراب » لينبئ على أنه سراب ضئيل تافه وأنه مع كونه كذلك إلا أنه يشي بمدى تعلق هذا الظامئ المحرور المتحرق بالأمل وإن كان ضعيفاً تافهاً وإنما عبر بلفظ « شيئاً » وأوقعها مفعولاً لقوله : « لم يجده » ولم يقل له يجده ماء لأن كلمة « شيء » تجعل السراب هنا شيئاً لا وجود له فهو عدم مطلق ليس له حقيقة ، ولا أصل ، ولا وجود ، ثم في ذكر ضمير السراب في قوله : « لم يجده » وكان من الممكن حذفه فيقول : « لم يجد » ليهيئ الكلام لقوله بعد

❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

ذلك « ووجد الله عنده » لأنه لو قال : لم يجد شيئاً ثم قال « ووجد الله عنده » لكان الكلام متناقضاً أمّا القيمة الفنية لقوله : « حتى » فإن حتى هذه تطوى وراءها رحلة شاقة من المعاناة المؤلمة والمرهقة والضنى والعذاب فالظماً قاتل لكن الأمل دافع وحافز ، والوصول إلى أمل منشود ، وأمنية مرتجاة ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ ﴾ (النور: ٣٩) ما يشعر بأن هذا الظامئ المحرور وسط تلك الفلاة المنقطعة من الأرض في وقت القيلولة ، واشتداد الهاجرة ، والحر يشوي الوجوه لم ينته عند هذا الحد الذي انتهت إليه من الحسرة والخيبة ، وعدم الحصول على ما يريد ؛ بل إن وراء ذلك ما هو أنكى وأشد ، وأشد ويلاً ، وأكثر هولاً وهلاكاً وثبوراً إذ إن هناك « ووجد الله » وجد عذابه وجزاء ما جنت يده والتعبير أفاد أنه وجد ذا الجلال سبحانه بعزته وجبروته ، وفي ذلك من الهول ما تزلزل له الأرض ، وتخر له الجبال هدا ، فهذا الذي وجد الله كافر ينكر وجوده ، ولا يؤمن به ، ثم يفاجأ بهذه الحقيقة التي تصعقه صعباً ، وتهذه هداً في هذا الموقف العصيب الذي لا يملك فيه شيئاً ، ولا يستطيع استرجاعاً إنها مفاجأة مذهلة ما كانت تجري له في خاطر ، أو تدور له في حسابان في لحظة لا يملك معها عودة ولا توبة ، ثم انظر إلى ما جاء وراء قوله تعالى ﴿ وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ ﴾ (النور: ٣٩) من قوله بعدها في سرعة ﴿ فَوْقَهُ حِسَابَهُ ﴾ (النور: ٣٩) وما تشير إليه هذه الفاء في هذا الموطن من السياق من السرعة السريعة في قوة الأخذ ، وشدة الكبح ، والسرعة في نزول العذاب ثم يكون نزول العذاب السريع من الله بعد توفيته حسابه على نحو واف وكامل ، وفي إسناد التوفية إلى ضمير ذي الجلال سبحانه في قوله : « فَوْقَهُ حِسَابَهُ » إشعار بأن الله الذي حاسبه على عمله حساباً وافياً كاملاً هو الذي يتولى عذابه ، وفي ذلك من شدة الغضب ما فيه ولكنه الغضب الذي يقوم على الإنصاف والعدل ، إنه لم يعدّه انتقاماً ، ولا ظمماً ، ولا مجاوزة للحد ، ولكن بعد حساب عادل دقيق فكلمة « حسابه » هنا تشير إلى الإنصاف

الصورة البيانية ————— دراستي مسأله البيان ————— ❁

والعدل إذ لا يظلم ربك أحداً ﴿ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (النور: ٣٩) لا يشغله حساب عن حساب .

لقد وقفنا مع آيتين من آيات ربنا في كتابه الكريم وأدركنا أنهما قد اتفقتا في الغرض العام لكن وجه الدلالة على هذا العرض كان مختلفا تبعا لسياقها ، ولذا فإننا لا نبالغ إذا قلنا إن كل واحدة منهما تفيد معنى لا تفيد الأخرى ؛ ولذا إن نشدنا الدقة العلمية نقول إن هنا معنيين لا معنى واحدا لأن صورة المعنى في الآية الأولى مختلفة عنها في الآية الثانية ، وهذا ما أطلق عليه الإمام عبد القاهر - رحمه الله - أنه خصائص المعاني وهيأتها التي يطلب من العبارة الوفاء بها .

فنحن نجد في الآيتين أن الممثل له هو أعمال الكافرين الطيبة كصلة الأرحام وغيرها التي تضع وتذهب بددا وفي وقت الشدة والحاجة لا ينتفعون منها بشيء أبداً لفقدائها شرط القبول وهذا المعنى قد تمثل مرة في هذا الرماد الذي تعصف به الريح وتذهب به في كل الاتجاهات والآفاق بحيث لا يتجمع أبداً ومرة أخرى في صورة هذا السراب الذي يسرب على أرض الفلاة المنبسطة وقت الهاجرة ، واشتداد الحر ويخيل للظامئ أنه ماء ، فإذا ما جدّ في الطلب لم يجد إلاّ العدم المحض ، والخيبة وسوء المصير .

فالصورتان معا تتفقان في لب الغرض وهو بيان الاهتمام بعدم نفع الأعمال الطيبة للكافرين وأنها تصير يوم القيامة هباء وبدداً ، والصورة الأولى تركز على معنى اللهفة والتعلق بالأمل أما الصورة الثانية فإنها تصور اللهفة ، والحاجة الملحة ثم الخيبة والمفاجأة بخديعة الأمل وأنه ما كان إلاّ وهمًا وتشكّلت عناصر هذه الصورة من الظامئ والقيعة وكلمة السراب التي تعني الوهم والخديعة^(١).

(١) انظر الإعجاز البلاغي دراسة تحليلية لتراث أهل العلم ، دكتور محمد أبو موسى ص ١٠٥ .

❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

هذا ومما يجب أن يعلم أن مساءلتنا للغة وتحليلنا لبعض جوانبها إنما كان ورائه محاولتنا الوقوف على الجو الذي جاء فيه التمثيل البلاغي وليس خروجاً عن طبيعة منهج الدراسة ، ولا عَمَّا نتحدث فيه ؛ لأنَّ هذا من صميمه ، فالوقوف أمام السياق الذي ورد الشاهد فيه يوضح لنا القيمة الفنية لما نحن بصدد الوقوف أمامه لفهمه بدراسة خصائص عناصره والاقتراب منها أكثر حتى تتضح صورة التشبيه في نفوسنا ويكون لها وقعها وتأثيرها على أن دراسة ما تتميز به الصياغة من خصائص تُفصحُ لنا عن دقيق وخفي المعاني كما أنَّها في ترابطها يوضح بعضها بعضاً ، ويكشف عن أشياء لم تكن لتكون لولا هذا الترابط فتحليل اللغة ، ومساءلتها ، ومحاولة الوقوف أمام معرفة طرق بناء تراكيبها ، ودلالة هذه التراكيب وخصائصها أمر ضروري يساعدنا على أن ندق طعوم الكلام ونميز جيده من مغسوله .

وفي سورة الرعد نجد ملهوفاً ظامئاً يعاني من لفح الهاجرة ، وشدة العطش ، ولكنه ليس في صحراء بقية ممتدة مبسوطة الأرض وإنما هو أمام شاطئ نهر والماء أمامه وهو على هذا الحد من العطش ، والقيظ ولكنه يُحرّم فلا يشرب أبداً . ويبقى يعاين من شدة الحرمان ، والظماً والحاجة إلى الرّي والماء أمامه ؛ لأنّه لم يسلك المسلك الصحيح الذي يوصله إلى تحقيق مطلوبه ، قال تعالى : ﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِطٍ كَفِّهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَلِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ (الرعد: ١٤) .

﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ﴾ (الرعد: ١٤) أي الدعاء الحق فإنه الذي يحق أن يُعبّد ، ويدعى إلى عبادته دون غيره أو الدعوة الثابتة الواقعة في محلها المجابة عند وقوعها وإضافتها إلى الحق للإيذان بملاسة الدعوة للحق واختصاصها به وبعدها عن شائبة البطلان والضياع ، أمّا الذين يدعون من دونه فإن النص

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتُ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ❁

الكريم يرسم صورتهم وهم في ضياع كامل ما بعده ضياع ؛ إذ يبين لهم أن آلهتهم التي يدعونها لا تحقق لهم نفعاً ، ولا ينالون منها خيراً ، مهما كانت في منتهى القرب منهم ، وفي تناول أيديهم ، ومطارح عيونهم . فيقدمهم في هذه الصورة ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَسِطَ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ﴾ (الرعد: ١٤) ، فهذه صورة يرتسم فيها الضياع الكامل لهؤلاء الذين يتركون دعوة الله ، ويدعون غيره ، وكيف يظهر فيها تسفيهم حين يصرفون وجوههم عن دعوته ، فلا يدعونه ويدعون غيره .

انظر إلى هذا الضلال الذي ارتكسوا في حماته من خلال سلوكهم الضال وعبادتهم لتلك الأصنام التي صنعوها بأيديهم ، وانصرفوا عن عبادة الله الذي له وحده لا لغيره دعوة الحق ، وهو الخالق لهذا الكون ، وهو الذي يرسل الرعد والبرق والصواعق . لقد خلفوا هذا الخالق الذي خلق على هذه الصورة وراء ظهورهم وراحوا يدعون من لا يستجيب لهم بشيء .

وتأتي «إِلَّا» هنا في هذا السياق وفي صيغة التشبيه ، وفي هذا الموقع وكأنها تُشعر أن ما بعدها سوف يكون نوعاً من أنواع الاستجابة ، وأن آلهتهم التي يدعونها سوف تتحقق لهم على أيديهم هذه الاستجابة وهنا ترهف الحواس ، وتشخص الأبصار ، وتفتح كل منافذ الحس والوجدان لترى ما هذه الاستجابة وكيف تكون ؟ فإذا بالغطاء يكشف عن هذه الاستجابة وإذا بها تظهر أَنَّهَا استجابة أسوأ من عدم الاستجابة حين جعل نفوسهم تجيش بالطمع ، ثم خذلهم وحرّمهم ، وذلك حين صورهم في صورة هذا المحروم الظمان الذي يعاني لفح الهاجرة ، وشدة العطش ، وهو ملهوف إلى قطرات من الماء يطفئ بها ظمأه ، ويروي بها عطشه ، وينقع غلته والماء في منتهى القرب منه ، ولكنه أضاعه ولم ينتفع به ، وبقي يكتوي بنار الظمأ ، ويتلوّى على جمر الحرمان

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ —————﴾ دَرَسَتُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

والعطش حين فقد السلوك الصحيح الذي يبُلِّغ به الماء فاه المفتوح ، فَآلِهَتُهُم التي يدعونها لا تستجيب لهم بشيء مِمَّا طلبوه منها إِلَّا استجابة كاستجابة من بسط كفيه إلى الماء ليلبِّغه فاه وما هو ببالغه .

فهذا الملهوف الظامئ الذي يعاني من لَفْحِ الهاجرة ، وشدة العطش والماء أمامه ، ولو أَنَّهُ مدَّ يديه واغترف منه لشرب ولكنه بسط كفيه إلى الماء أي نشر أصابعيْهما ممدودة ، وَبَسَطَ الكَفَيْنِ على تلك الصورة لا يمكن أن يرفع الماء إلى فمه أبداً ويبقى على حاله يعاني من قسوة الظمأ والعطش مع أن الماء في متناول يديه ، وهو شديد الحاجة إليه ، ويبقى يكتوي بنار الحسرة والحرمان ، وهكذا تراهم في ضياعهم ، وخيبتهم ، وعدم جدوى دعائهم لآلهتهم قد شبهوا بهذا الظامئ المحرور الذي أراد أن يغرف الماء بيديه ليشربه فبسطهما ناشراً أصابعه ، ومفرِّقاً لها فلم تحمل كَفَاه ماء ولم يحقق ما يبتغي من الري وظل في ظمئه يعاني من شدة العطش ولم يحصل على طائل وذلك في عدم الجدوى والتشبيه تلمس فيه روح التهكم والسخرية من هذا العطشان الظامئ الذي يريد أن يشرب ولكنه لا يشرب أبداً على الرغم من وجود الماء .

هذا ويمكن فهم التشبيه على نحو آخر بأن يكونوا هم مع آلهتهم التي علَّقوا آمالهم عليها ، ووضعوا رجاءهم فيها إذ كانت مُسَبِّحاً لأحلامهم وقد تمنَّوا أن ينالوا الخير عن طريقها ، وأن تُفَتِّح أبواب السعادة عليهم من خلالها ثم ظهر أنهم لن ينالوا منها نفعاً ، ولن يحققوا من ورائها خيراً ولا ثمرة ؛ لِأَنَّ حكايتهم مع آلهتهم تلك كمن وقف أمام الماء وهو ملهُوف ظمآن ، وبسط كفيه إلى الماء وناداه ودعاه أن ينتقل إليه حيث كان ليلبِّغ فاه حتى يشرب ويطفئ ظمأه وهيئات هيهات فإن الماء لا يسمع ولا يستجيب وصدق الله « وما دعاء الكافرين إِلَّا في ضلال » .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَةٌ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ❁

وصورة التشبيه على الفهم الأول تراها وقد شبهوا في قلة جدوى دعائهم لألهتهم ، وعدم جنيهم أية فائدة بمن أراد أن يَعْرِفَ الماء بيديه ليشرب فبسط كفيه ناشراً أصابعيهما فلم تُبَقِّ كفاه منه شيئاً ، وخاب سعيه ، أو قبض على الماء بشدة لزيادة حرصه عليه ؛ لأنَّ الماء بالنسبة له أمل غال لا يكفيه ليتحقَّق ذلك إلاَّ أن يقبض عليه وهذا القبض هو الذي أضاعه ؛ إذ جعله يتسرب من بين أصابعه ، وعلى كل فالتشبيه يعد من التشبيه المفرد المقيد كقولك لمن لم يحصل من سعيه على طائل أنت كمن تكتب على الماء فإن المشبه هو الساعي مقيداً بكون سعيه في غير طائل والمشبه به هو الكاتب مقيداً بكون كتابته على الماء .

أمَّا التشبيه في التحليل الثاني الذي شبه فيه حال المشركين في عدم حصولهم من دعاء آلهتهم على شيء أصلاً وبقائهم يخبطون في غواش الخيبة ، ويتردون في مهاوي الخسران بحال ماء بمرأى من لاهث لاهف ظمآن تراه باسطاً كفيه يناديه أن يأتي إليه ويبلغ فاه وما هو ببالغه ولذا يظل يعاني من جفاف الريق ، وشدة العطش وفداحة الخسران ، والتشبيه من المركب التمثيلي أبرز في معرض التهكم والسخرية حين اثبت أن للماء استجابة زيادة في مكابدتهم ، ومعاناتهم من الخيبة والخسران مع أن الغرض نفي الاستجابة أصلاً على القطع ؛ إذ أن هذا من باب التعليق بالمحال مع تصوير أنهم في أشد الحاجة إليها لتحقيق ما يبتغون وهكذا تراهم من أشد الناس خيبة في سعيهم لما هم في حاجة ملحة إليه وفي هذا التمثيل تأكيد للذم بما يشبه المدح .

الدلالة المنفية في التشبيه

على أننا قد نرى من التشبيهات ما يكون مرآة تفصح عن نفس صاحبها ، وتعكس على صفحتها ما يمكن في أعماقها ، وأغوارها من خوالج ودفائن يقول المتنبي في حديثه عن الأسد في مدحه لبدر بن عمار ^(١) .

يَطَأُ الثَّرَى مُتَرْفِقًا مِنْ تَيْهِهِ فَكَأَنَّهُ آسٌ يَحُوسُ عَلَيَّالًا
وَيَرُدُّ غُفْرَتَهُ إِلَى يَافُوحِهِ حَتَّى تَصِيرَ لِرَأْسِهِ إِكْلِيَالًا
وَتَظُنُّهُ مِمَّا يَزْجُرُ نَفْسُهُ عَنْهَا لَشِدَّةُ غِيْظِهِ مَشْغُولًا
قَصَرَتْ مَخَافَتُهُ الْخُطَى فَكَأَنَّمَا رَكِبَ الْكُمَى جَوَادَهُ مَشْكُولًا

المتنبي يصف مشية الأسد وحين تتأملها تراها معبرة عن الموقف النفسي لملك الغابة من خلال التوافق بين حركته الداخلية مع حركته الخارجية فالصورة الحركية ممثلة للفكرة ، و دالة على الموقف من خلال المنظر المتحرك للأسد فهي قد جاءت مظهرًا خارجيًا لحركة داخلية فأنت تحس بالهيبة ، والاستعلاء والتوثب ، والتحفز من خلال هذه المشية المترفقة المتأنية في تيه ودلال ووطؤه للثرى على هذا النحو كأنه لا يرى غير نفسه إذ ليس في الأرض قوة تعدل قوته ، أو تقترب منها ثم تأمل كيف يصعد الإحساس بهذا كله حين يصور التشبيه تلك المشية وكأنه يؤثر بها خوفًا من أن يسبب للأرض رهقا وألما ، أو يحدث بها عاهة ثم إنه في مشيته المترفقة طيب يجس عليلا ، ويتحسس بيده الحانية موطن العلة والداء من جسده ويد الطبيب المعالج ، والمداوي تمثل هذا أصدق تمثيل والتشبيه ينعقد من خلال تشبيه حركة الأسد في مشيته على الثرى في رفق وهدوء وأناة بحركة يد الطبيب المعالج يتحسس

(١) ديوان المتنبي ، ٢٢٨/٣ .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ الْبَيَانِ ————— ❁

بها جسد مريضه في رفق وأناة ومن غير عجلة ووجه الشبه الهيئة الحاصلة من صورته شيء يمس شيئاً آخر في رفق ، ولين ، وأناة .

وقد ترى انفصلاً في الشعور ، والموقف النفسي بين حدي الصورة مشية الأسد ، وحركة يد الطبيب حتى لو كان المقصود هو تشبيه الحركة المتمهلة المترهلة البطيئة في حظو الأسد بالحركة المترفة في يد الطبيب يشخص بها علة مريضه مهما كان بينهما من توافق شكلي إذ إن الأسد جبار مخيف مُستعل مفترس ، والطبيب المعالج حان رحيم عطوف الأسد يرمز إلى الافتراس والهلاك ، والفتك ، والموت والطبيب يُمثّل الأمل ، والنجاة ، والحياة فهما من واديين مختلفين .

وانظر إلى الأسد في صورة غاضبة مزمجرة يصورها التشبيه في قوله :
وَيَرُدُّ غُفْرَتَهُ إِلَى يَافُوخِهِ حَتَّى تَصِيرَ لِرَأْسِهِ إَكْلِيلًا
الغفرة : الشعر اجتمع على قفاه . واليافوخ الرأس . الإكليل : التاج الذي يكون على رأس الملوك .

إن ملك الغابة المتوج ، وحاكمها الأعلى في هيئته الراحدة حين ينفعل غاضباً ويثور في حدة تراه يرفع رأسه ، ويُطَوِّح به في الفضاء جهة اليمين وجهة الشمال ليردد شعره المتدلّي والمنسدل عليها فيصير في هيئة التاج ، وصورة الإكليل ، أو ليس ملكاً حتى ولو كان للغاية ، فلم لا يخلع عليه الشاعر من خلال التشبيه أداة الملك وصفته لم لا يلبسه التاج ؟ وهذا ما قد حدث .

والتشبيه ينعقد من خلال تشبيه الأسد وهو يحرك رأسه فيردُّ الشعر المنسدل والمتدلّي على عنقه ورقبته إلى رأسه وينصبه واقفاً عليها بصورة التاج والإكليل على رأس الملك في الصورة والهيئة وتمضي الصورة الغاضبة من خلال هذا المزمجر في قول الشاعر :

وَتَظْنُهُ مِمَّا يَزْجُرُ نَفْسُهُ عَنْهَا لَشِدَّةُ غَيْظِهِ مَشْغُولًا

❁—————الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ—————دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

الزمجرة : تردُّ الصوت وكذا التَّزْمَجِر وهو شدة الصياح .

يعني تظنه نفسه عنها مشغولا عنها من صياحه وزئيره .

إن الأسد في الصورة السابقة يلبس إكليل الملك ، ويستوي على عرشه في غابته وهو هنا يزمجِر زمجرة عالية يتردد صداها في آفاق مملكته ونفسه التي بين جنبيه تتقاذفها الظنون ، وتخشى أن يكون بزئيره ، وصياحه وتفرُّغه لذلك صار كالمشغول عنها ، فالتشبيه قائم من خلال تشبيه الأسد بزئيره ، وبترديده ، وعدم تفرُّغه لنفسه بالمشغول الذي لا يجد فراغاً والذي يجمع بين الطرفين هو الانصراف ، وعدم الاكتراث .

والتشبيه يصوِّر هذه النفس في توتُّرها ، واضطرابها ، وقلقها بانشغال الأسد عنها بزئيره واهتمامه ، بإعلاء سلطانه في غابته ، وبسُط نفوذه ، وسيطرته عليها من خلال بث الرعب والفرع ، وإشاعة الخوف بين وحوشها وكواسرها من صوته وصياحه الذي يشغل الفضاء ، ويملأ المكان والزمان بالغيَرى وكأن نفسه تطلبه لنفسها لا تريد ولا تحب أن يشاركها فيه غيرها حتى ولو كان زئيرا وصياحا من الأسد ذاته .

وفي البيت الآتي ينسل الشاعر في هدوء إلى المديح وأنت ترى ذلك من خلال خطوات الأسد التي تقاصرت بين إقدام وإحجام خوفا من بدر بن عمار حين بصرت به في قوله :

قَصَّرَتْ مَخَافَتُهُ وَالْخَطَى فكَأَنَّمَا رَكِبَ الْكَمِيَّ جَوَادَهُ مَشْكُولَا

إن خطوات الأسد بدأت تتقاصر وتضيق ، ونفسه مُوزَّعة بين إقدام وإحجام ، أيقدم أم يحجم ؟ إن ضيق خطوات الأسد إنما تتمثل من خلال خطوات هذا الجواد المشكول المُقَيَّدَ يمتطيه كميُّه فارسه الشجاع يحاول أن يحثه على المشي السريع ولكن خطواته مقيدة ؛ لأنَّه مشكوك فلا ينهض برغبة الفارس .

والتشبيه ينعقد من خلال تشبيه صورة الأسد وهيئته حين أبصر الممدوح بين إقدام وإحجام خوفا من بَدَرٍ فَتَقَصَّرُ خطواته ولا تطول بهيئة الفارس الشجاع

الصورة البيانية ————— دراستي مسأله البيان ————— ❁

يمتطي صهوة جواده المقيّد يريد أن ينطلق به ولكن القيد في الفرس يمنعه ويضيّق خطواته ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من الشيء يريد أن يقدم وأن ينطلق ولكن يمنعه مانع فيحجم وتتقاصر خطواته ، ووجود الكمي الفارس الشجاع مع الجواد هنا ضروري لاستكمال عناصر الصورة التشبيهية ، فصورة الجواد المقيّد من غير فارسه الشجاع لا يتوفر له الحافز والداعي إلى المسير والمشي ، فالكمي يريد أن يسابق الريح بفرسه إلى خصيمه فهو شجاع باسل ، ولكن القيد يمنع الفرس ويضيّق مساحه خطواته ، فماذا يفعل ؟

وبذلك يوجد توازن في المساحة النفسية بين طرفي الصورة ، فالقيد في الفرس يقابله الخوف عند الأسد ، وامتطاء الفارس لجواده وحته على الاندفاع والانطلاق يقابله الرغبة النفسية عند الأسد في الإقدام ، واعتزازه بنفسه ، وثقته بها ، وأنه ملك الغابة الذي لا يهزم ولكن الخوف يغلب فيه الشجاعة فتقصر الخطوات ولا تطول وبذلك تتعاون عناصر الصورة في تشكيلها ، وإخراجها في هذا الثوب الجميل بالإضافة إلى ما تومئ إليه ، وتوحي به من قوة الممدوح ، وهيئته تلك القوة التي الأسد يفكر أيقدم أم يحجم ؟ وتتضاءل خطواته حين يستبد به الخوف ويملاً عليه أقطار نفسه .

ومما ترى التشبيه يحكي الرؤية النفسية ويجليها على نحو لا يخفى ما تراه في هذا التشبيه على حد ما يقول المتنبي ^(١).

رمى حلبا بنواصي الخيول	وسمر يرقن دما في الصعيد
وبيض مسافرة ما يُقْمَنَ	لا في الرقاب ولا في الغُمُود
يُقْدُنُ الفَنَاءَ غداة اللّقاء	إلى كل جيشٍ كثير العديد
فَوَلَّى بِأَشْيَاعِهِ الخَرَشَنِيَّ	كشَاءٍ أَحْسَنَ بزأر السود

(١) الديوان ، ٣٤٤/٢ .

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

يُرُونُ مِنَ الذَّعْرِ صَوْتَ الرِّيحِ صَهِيلَ الْخِيُولِ وَخَفَقَ الْبَنُودِ

إن المتنبّي يبدأ حديثه مشيدا بمدوحه إشادة بالغة ؛ فقد أباد أعداءه وأفناهم ، وجعل الأرض تشرب من دمائهم التي أريقت بعد أن رمّاها بالخييل يمتطيها فرسان بواسل بأيديهم سُمِرَ القنا يمزقون بها صدور ومهج الأعداء ، ومعهم أيضاً سيوف بيض مسافرة يعني أنّها مستعملة في الحروب لئلفها تنتقل منها إلى أعمادها غير مقيمة فيها ؛ لأنّ السلم لا يدوم .

والضمير في « يَقْدُنْ » يرجع لما ذكر من الرماح ، والخيول ، والسيوف وهي ومعها الأبطال من وراء إفناء الأعداء ، والقضاء عليهم ، مهما كثروا ، وتجيشوا ؛ إذ هي تبيدهم ، وتقضي عليهم . وحين تصل إلى قول الشاعر :

فَوَلَّى بِأَشْيَاعِهِ الْخَرَشْنِيَّ كَشَاءٍ أَحْسَنَ بَزَارِ السُّودِ
يُرُونُ مِنَ الذَّعْرِ صَوْتَ الرِّيحِ صَهِيلَ الْخِيُولِ وَخَفَقَ الْبَنُودِ

فالتشبيه متصل بالإحساس ، ومعبر عن الموقف النفسي ، والبيت الأول يحكي صورة الخرشنّي ومعه أشياعه وأنصاره وأحباؤه في ذعرهم ، وهروبهم ، فرارهم وكيف أطلقوا سيقانهم مع الريح ، وولوا الأدبار في سرعة سريعة .

لقد فروا من المعركة ، وهربوا منها كما تفر الشياة حين تحسُّ بزئير الأسود يتردد صده في الفضاء الواسع ، وقلوبها ممتلئة بالرعب ، والخوف ، والفرع .

أرأيت إلى الخرشنّي ومعه رجاله . أمام الممدوح ومعه أبطاله وأسوده والخزي يجلّل المهزومين فيفرون في صورة الشياة الفارة الهاربة من رعب الصوت ، وامتلائه فكيف بصاحبه ؟ ولك أن تعجب وأن يزداد هذا العجب من الشجاعة حين تتجسد في الممدوح وفي رجاله فيصيرون أسودا يرهبون عدوهم بزئيرهم ، فكيف بأسلحتهم وبقتالهم ؟

وانظر إلى قمة التركيز في حكاية الرؤية النفسية للهاربين كالشياة أمام زئير الأسود حين يحكيها التشبيه بصوته ، وتسمّعها أنت من فم الشاعر وقد صور

الصورة البيانية ————— دراستي مسائل على البيان ————— ❁

لهم خيالهم من هلع الخوف وشدته أن كل شيء حولهم قد تحول إلى أداة قتال ترميهم في مقاتلتهم ، ونحورهم ؛ لقد صارت الطبيعة خصماً لهم تترصد لهم ، وتتعبهم في فزارهم وهربهم لتعمل السيف في رقابهم .

أرأيت إلى الصوت يرنّ صده في الأفق الرّحب ، وفي الخلاء الواسع ، وفي الفضاء العميق العريض فيحدث دويّاً وطنيناً يظنّ القوم معه أن دويّه وطنينه إنّما هو دويّ الخيول الصاهلة يمتطيها أسود مغاوير ، وصوت الرايات الخافقة يحملها ليوث كواسر يتعقبونهم ، ويسرون وراءهم ، ويريدون القضاء عليهم . إن التشبيه يصور الرؤية النفسية للهاربين في ذعرهم وفرعهم من خلال تشبيه ما أثاره صوت الرياح من خوف ، وذعر ، وفرع بما يشبه سهيل الخيول ، وخفق الرايات من ذعر ، ورعب ، وفرع ، ووجه الشبه بين الطرفين هو الرعب والخوف .

هذا وقد يصور التشبيه النفس المريضة ، المعقدة ، الملتوية ، ويكشف زيفها ، وزورها ، وخداعها ، وتضليلها حين ينزع عنها ثوب نفاقها الذي استترت به ، وتغطت فصارت عارية مفضوحة لا تستطيع أن تظهر في الناس إلا كما تظهر العقارب برؤوسها من جحورها .

قال تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَحَتِ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ۝ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَةٍ لَّا يَبْصِرُونَ ۝ صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝ أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَةٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِيٓ أَذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ۗ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ۝ ﴾ (البقرة: ١٦-١٩) .

وكلمة « مثل » بمعنى الشبه والنظير ثم اختص بإطلاقه على الحالة الغريبة العجيبة الشأن ، ولهذا يحفظ ويسير بين الناس لما فيه من بيان وبلاغة كالمثل

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ —————﴾ دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ عِلْمِ الْبَيَانِ

السائر يقول الزمخشري : « ولم يضربوا مثلاً ، ولا رأوه أهلاً للتفسير إلا قولاً فيه غرابة من بعض الوجوه ثم حوِّظ عليه ، وحُمي من التغيير ^(١) .

ففي قوله تعالى : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ (البقرة: ١٧) .

المشبه حال المنافقين الغريبة والعجيبة حين تبدو لهم الدلائل الواضحة على أن الإسلام هو الحق ، وأنه الأحق والأولى بالاتباع ويرون سناً من هداه ونوره ثم يرتكسون ويعودون إلى ما كانوا فيه من كفر ومن خيبة الضلال والخسران يشبههم بحال من استوقد ناراً ، وبذل وسع الطاقة في طلبها ، وجدّ في ذلك فتمتع بهذه النار قليلاً ثم لم يلبث أن أطفئت هذه النار التي جدّ واستفرغ الجهد في إضاءتها وذهبت بكل أنوارها فغشيه الظلام الدامس ، وظل يركض ويضرب في أطناب ظلمة حالكة ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من وجود هداية في برهة قصيرة يتلوها ظلام الارتباك ، والخيبة ، والحيرة والقلق والاضطراب ، ولذا يُضْرَبُ المثل هنا لما يمثله هذا النموذج البشري من : التَّارُجِح ، والتذبذب ، والتقلُّب ، وزيادة في الكشف ، وتتميماً للبيان وتجلية لما يقوم به داخل الجماعة المسلمة من الألاعيب والخديعة ، وهذا اللون هو لون من ألوان التشبيه التمثيلي وفيه هيئة عقلية مركبة شبهت بهيئة حسية مركبة بوجه عقلي فما في داخل هذا النموذج البشري من حيرة ، وشكٍّ ، وضلال وهداية ضئيل صار صورة واضحة المعالم شاخصة تراها العين ، وتبصرها في صورة هذا النموذج يلفه ليل بهيم ويحتويه ظلام حالك شديد السواد لا يرى من حلّكه حتى أقرب الأشياء إليه ، ولا يدري شيئاً عما يحيط به ، وما يتربّص به من مخاطر وأهوال

(١) انظر تفسير الكشاف ٣٨/١ ، وبذيله كتابان : الانتصاف لابن المنير ، والتنبية على ما بالكشاف من الاعتزال للشيخ محمد عليان المرزوقي ، مطبعة مصطفى محمد ، ط. الأولى سنة ١٣٥٤ هـ .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَةٌ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ❁

فجدّ ساعياً في طلب النار ليبصر في ضوئها ويرى ظلها الأيمن من الخوف ، فلما أضاءت النار وأفادت عليه شيئاً من الأنس ، وأحسّ بالأمن ، ذهب الله بالنور وعاد كل شيء إلى ما كان ، وحينما ندير بصرًا فاحصاً ، وذهناً واعياً وراء وسائل الصياغة ونتساءل لماذا كان التعبير في النص القرآني بقوله : «استوقد» ولم يقل مثلاً أوقد ؟ ذلك أن المعروف أن الألف والسين والتاء هذه الحروف الثلاثة حين تدخل على الفعل الماضي تفيد الطلب وهذا يعني أنه في حيرته وقلقه ، واضطرابه ، وشقائه جدّ وسعى واجتهد في طلب النار ومعنى ذلك أن وراء ذلك حاجة ملحة قوية كانت تدفعه في شدة إلى أن يفعل هذا ، وتحثه حثا عليه ، وأنه كان من الضروري عليه أن يبذل غاية الطلب ، وأقصى الجهد في الوصول إلى النار لتضيء له ظلمة مكانه الحالكة ، ومحيطه الذي هو فيه ، ولتهدئ من ثائرتة ، ولتسكن من روعه ، ولتطمئن فؤاده ممّا يعتلج في داخله من ألوان المخاوف والمخاطر ، وما ترتعد له فرائضه من مكان من الأذى والمهالك التي يمكن أن تحل به ، وأن تعصف بكيانه ، وتزلزل وجوده ، ولا تبقيه حياً ولذا يُجدّ في طلب نار ، أي نار مهما كانت خافتة ضئيلة لتتير له أية إنارة حتى يستطيع أن يبصر موطئ قدمه ، وما حوله وهذا هو السرُّ في قوله سبحانه «نارا» أي نار مهما كانت قليلة النور ، خافتة الشعاع ، باهتة الإنارة ، فهذا القدر من النار يكفيه ومن علل للتنكير في قوله «ناراً» بالتفخيم^(١) لعله يلفت إلى هذا لأن هذا القدر من النور مهما يكن ضئيلاً فهو شيء ضروري لدى هذا النموذج في هذا الموقف الذي يعاني فيه الظلمة ، والحيرة ، والخوف ، والارتباك ، والرعب ، وحين نتساءل لماذا قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ (البقرة: ١٧) ولم يقل : ذهب الله بضوئهم ؟

(١) تفسير أبو السعود ٥٠/١ .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ ﴾

لأنَّ الضوء هو زيادة في النور ، فلو قال سبحانه ذهب الله بضوئهم لأوهم ذلك أن الذهاب إنما هو ذهاب للزيادة فقط دون الأصل أي بقاء ما يسمى نوراً والغرض إزالة النور عنهم أصلاً بحيث لم يبق منه شيء أبداً^(١).

على أن في إسناد ذهاب النور إلى الله في قوله سبحانه : ﴿ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ (البقرة: ١٧) إشارة واضحة إلى السرعة السريعة التي انطفأ فيها النور ، وذهب وغاب ، وكأنه ما إن بزغ وظهر حتى ذهب واختفى وعبرة الزمخشري : « وكأنه قيل فلما أضاءت ما حوله خمدت خابطين في ظلام متحيرين متحسرين على فوت الضوء خائبين بعد الكدح في إحياء النار^(٢) .

على أنه بالتأمل في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ (البقرة: ١٧) مع التعدية للفعل بالباء يقفز إلى الذهن سؤال ماذا لو كانت التعدية للفعل بالهمزة كأن يقال في غير القرآن : أذهب الله نورهم ؟

والفرق بين ذهب الله بنورهم ، وأذهب نورهم أن أذهب يعني أن الله أزاله ، وجعله ذاهباً أما « ذهب الله بنورهم » فيعني أنه استصحبه يقال : ذهب به إذا استصحبه ومضى به معه ، ويقال : ذهب السلطان بماله إذا أخذه كقوله تعالى في شأن إخوة يوسف ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ ﴾ (يوسف: ١٥) ومنه ذهبت به الخيلاء والمعنى أخذ الله نورهم وأمسكه وما يمسك الله فلا مرسل له ، فهو أبلغ من الإذهاب^(٣) وهذه الباء التي تفيد المصاحبة والصحبة تراها في قوله تعالى في آخر سورة الحجر ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ (الحجر: ٩٨) أي اجعل هذا التسبيح وذلك السجود عبادتك حتى آخر نفس من أنفاس الحياة والخطاب للنبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ولأمته من خلاله وترى هذه الباء في

(١) انظر تفسير الكشاف ٣٩/١ .

(٢) تفسير الكشاف ٣٨/١ .

(٣) تفسير الكشاف ٣٩/١ .



الصورة البيانية ————— دراستي مسائل علي البيان ————— ❁

قوله في شأن اليهود ومن لف لفهم من المنافقين : ﴿ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ﴾ (المائدة: ٦١) إنه يصور هذا النموذج البشري في صورة حية نابضة ، ومشهد متحرك مثير يخاطب الحس والوجدان ، وينفذ إلى النفس من منافذ شتى ويؤثر فيها التأثير القوي الفعال من خلال وضع النموذج في صورة حية شاخصة يذهب فيها التخيل مذاهب شتى إن هذا النموذج البشري ومن معه وعلى طريقته من منافقي المدينة على حسب ما يفهم من السياق ، حين يجيئون للمسلمين يقولون : آمنا وهم في حقيقة واقعهم إنما يحملون الكفر في دواخلهم ، وقد دخلوا به وخرجوا فلغلظ هذا الكفر ، وكثافته ، وصحبته لهم ، ومعاشته إياهم صار كأنه كائن مجسد محسوس يصحبهم في غدوهم ورواحهم ، ويعيش معهم كما يعيش بعضهم مع بعض ، فهذا الكفر ليس شيئاً منفصلاً عنهم ، وإنما هو لهم صاحب يصاحبونه يدخلون ويخرجون به ولا يفارق بعضهم بعضاً .

وهناك من فهم من إسناد ذهاب النور إلى الله أن هؤلاء القوم لفسادهم وسوء سلوكهم ، وغضب الله الشديد عليهم قد قطع معيته عنهم وفصلهم منها ، وضيق الخناق عليهم ، وأخذهم بإجرامهم وتركهم في خداعهم ، وحيرتهم ، وقلقهم مقيدون ومحاصرين يركضون في ظلام حالك حسي ومعنوي ، داخل نفوسهم المعتمدة المظلمة ، وداخل الظلام الذي يحيط بهم ، ويلف وجودهم ، ولعل هذا هو السر في قول ابن القيم ، وقال سبحانه وتعالى : ﴿ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ (البقرة: ١٧) ولم يقل : ذهب نورهم ، وفيه سرٌ بديع ، وهو انقطاع سر تلك المعية الخاصة التي هي للمؤمنين من الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ (النحل: ١٢٨) فذهب الله بذلك النور هو انقطاع المعية التي خص بها أوليائه فقطعها بينه وبين المنافقين ، فلم يبق عندهم بعد

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ ﴾

ذهاب نورهم ولا معهم، فليس لهم نصيب من قوله: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ (التوبة: ٤٠) ولا من: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ (الشعراء: ٦٢) ^(١).

على أن في قوله سبحانه: ﴿وَتَرْكُهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (البقرة: ١٧) وظلمات: جمع ظلمة وهي عدم النور، وذهابه، ومحوه جميعه، وانطماسه بالمرّة حتى لا يبقى منه شيء أبداً، ولم يكنف بظلمة واحدة على الرغم من تمثيلها لكل الذي سبق، ولكنه جعلها ظلمات بعضها فوق بعض فجمعها ليشير إلى تراكمها، وتضاعفها وتكاثفها، وتراكب بعضها فوق بعض؛ ليؤكد شدة ظلامها فجمعها ونكّرها ثم أتبع ذلك بما يدل على إيهامها، وأنه لا يتراءى فيها شبح فهي مانعة وحاجزة، وحاجبة تماماً من رؤية شيء أي شيء حتى لو كان شيئاً براقاً، فهي ظلمة عامة شاملة مطبقة؛ ولذا فهم في هذا الظلام لا يبصرون. وهي ظلمة في النفس والقلب، وظلمة في العين، وحيرة ما بعدها حيرة ^(٢).

وفي المثل الثاني: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ (البقرة: ١٩) إلخ.

ففي هذا المثل: يشبه الله حالهم ويصوّرُها بحال قوم أصابتهم السماء بصيب هاطل في غزارة وتتابع، شديد الانسكاب، وقد لفّهم، وأحاط بهم، وحاصرهم فيه ظلمات. ظلمة تكاثفه، وظلمة الغمام والسحاب، وظلمة الليل. وهذه كأنها أفادت أن لهذا الصيّب ظلمة خاصة به وهي ظلمة تمنع رؤية البصر، وتحجب نور العين وفيه رعد، وبرق، وصواعق وهو جوٌّ من العنف والرهبة قد احتشدت فيه المخاطر والأهوال، يزلزل، ويروّع، ويخيف،

(١) التفسير القيم لابن القيم، تحقيق محمد حامد الفقي، ص ١١٥، دار الكتب العلمية - بيروت.

(٢) انظر تفسير الكشاف، ٣٩/١.

الصورة البيانية ————— دراستي مسائل عليّ البيان ————— ❁

ويرعب ويدمدم فأفسوا في هلع ، وتيه ، وذعر كلما أضاء لهم البرق أخذوا يمشون وحين ينطفئ يقفون .

ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من أسباب الهداية والفلاح والفوز عرضت لقوم فانتفعوا وقتاً قليلاً ثم تملكهم الفزع ، والرعب حين أحاطت بهم أسباب الغواية ، والضلال ، والخسران وتملكتهم ، وهكذا .

إن المنافقين تغشاهم الحيرة ، ويتلبسهم القلق ، والاضطراب فهم صورة للنفس الملتوية غير الواضحة ، والقلقة ، والغامضة ، والمريضة ، والمتقلبة يسمعون آيات من القرآن الكريم فيها تخويف ، وتهديد وآيات فيها وعد ورضا وتبشير فتبدو منهم بوارق هداية ؛ لكنها لا تبقى ولا تستمر وإنما ما تكاد تبدو وتبرق حتى تنمحى ، وتتلاشى ، وتضيع ، وتتبخر ويعودون إلى كفرهم الجاثم في قلوبهم ، والذي يدخلون على الناس ويخرجون فترددهم قد وصلهم في النهاية إلى الكفر الغليظ ﴿ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ .

على أن التشبيه بهذه الصورة التي تصور هول الموقف ، وجو العنف والترهيب بالنسبة للمنافقين ترى فيه الحركة وهي التي تهيمن على المشهد كله ، وتتجلى واضحة في كل عناصره وتراها من خلال الصيب الهائل في انسكاب وغزارة ، والظلمات المطبقة والغاشية ، والرعد القاصف المزلزل ، والبرق الخاطف اللام ، والخطوات المرتعشة المرتعدة الوجلة الخائفة التي لا تتقدم ولا تواصل المسير ولكنها تقف عندما يحل الظلام ويخيم « إن هذه الحركة في المشهد لترسم - عن طريق التأثير الإيحائي - حركة التيه والاضطراب والقلق ، والأرجحة التي يعيش فيها أولئك المنافقون بين لقائهم المؤمنين ، وعودتهم للشياطين ، بين ما يقولونه وما ينكصون عنه فجأة ، بين ما يطلبونه من هدى ونور ، وما يفيئون إليه من ضلال وظلام . فهو مشهد حسيّ يرمز لحالة نفسية ؛ ويُجسّم صورة شعورية وهو طريق من طريقة القرآن العجيبة في تجسيم أحوال النفوس كأنها مشهد محسوس^(١) .

(١) في ظلال القرآن ، دار الشروق ، ١ / ٤٦ .

❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

وإذا ذهبنا نتساءل لماذا أثر القرآن التعبير بـ « بصيب » ؟ لأن المراد الإنباء عن شدة الانسكاب والانصباب الذي له وقع وتأثير وكلمة « صيب » وهي من الصوب هي التي تتوفر على أداء هذا المعنى ولأن الصَّيْب الذي تدفق وانهمر هائل وعظيم وشديد وكأنه نوع مُعَيَّن نكرت كلمة « صيَّب » .

ومع أن الصيب لا يكون إلا من السماء فلماذا نص عليها وذكرها ؟ ذكرها لإفادة المبالغة ، وتربية المعنى ، وتأكيده وتوثيقه كما تقول رأيته بعيني ، وقبضته بيدي ، ووطئته بقدمي ، وذقته بفمي وكل هذا يظن الظان أنه زيادة لا حاجة إليها ويقول إن الرؤية لا تكون إلا بالعين ، والقبض لا يكون إلا باليد ، والوطء لا يكون إلا بالقدم ، والذوق لا يكون إلا بالفم وليس الأمر كذلك ؛ بل هذا يقال في كل شيء يعظم مثاله ، ويعز الوصول إليه فيؤكد الأمر فيه على هذا الوجه على نيله والوصول عليه ... كما ورد قوله تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾ (الأحزاب: ٤) ، وقوله تعالى : ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ (النحل: ٢٦) فكما أن القلب لا يكون إلا في الجوف فكذلك السقف لا يكون إلا من فوق وهذا مقام ترهيب وتخويف كما أن ذاك مقام إنكار وتعظيم ، ألا ترى إلى هذه الآية بكمالها وهي قوله تعالى : ﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰ اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِّن فَوْقِهِمْ وَأَتَنَّهُمُ الْعَذَابُ مِّن حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (النحل: ٢٦) ولذا ذكر لفظة « فوقهم » فائدة لا توجد مع إسقاطها من هذا الكلام وأنت تحسُّ هذا من نفسك فإذا تلوت هذه الآية تخيل إليك أن سقفا خرَّ على أولئك من فوقهم ، وحصل في نفسك من الرعب ما لا يحصل مع إسقاط تلك اللفظة ^(١) .

هذا على أن مجيء السماء معرفة بالآلف واللام « بصيب من السماء » ولم تأت نكرة « بصيب من سماء » للدلالة أن الصيب مطبق محيط وشامل وأنه آخذ

(١) المثل السائر لابن الأثير ص ٢١٤ ، ٢١٥ ، المطبعة البهية حوش قدم بمصر المحمية .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتُ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ❁

بَافَاق السَّمَاءِ كُلِّهَا ، فَالتَّعْرِيفُ هُنَا أَفَادَ الْعُمُومَ وَلَوْ نَكَّرْتَ السَّمَاءَ لَمَا أَفَادَ هَذَا الْعُمُومَ ، وَلِجَازِ أَنْ يَكُونَ الصَّيْبُ مِنْ بَعْضِ الْآفَاقِ وَلَا يَكُونُ مُطَبَّقًا وَلَا مُحِيطًا .
أَمَّا التَّنْكِيرُ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ « ظَلَمَاتٌ ، وَرَعْدٌ ، وَبَرْقٌ ، فَلِلتَّهْوِيلِ وَالتَّفْخِيمِ وَبَيَانِ الشَّدَةِ ، وَالْعَظَمِ فِيهَا كَأَنَّهُ قِيلَ فِيهِ ظَلَمَاتٌ شَدِيدَةٌ دَاحِيَةٌ ، وَرَعْدٌ قَاصِفٌ ، وَبَرْقٌ خَاطِفٌ .

وَقَدْ تَسْأَلُ لِمَاذَا عَبَّرَ بِقَوْلِهِ : ﴿ تَجْعَلُونَ أَصْبِعُهُمْ ﴾ (البقرة: ١٩) وَلَمْ يَعْبُرَ بِيُدْخِلُونَ لِأَنَّ يَجْعَلُونَ فِيهَا إِنْبَاءً عَنْ دَوَامِ الْمَلَابَسَةِ وَالِاسْتِقْرَارِ فِي آذَانِهِمْ أَمَّا الْإِدْخَالُ فَلَيْسَ فِيهِ سِوَى مُجَرَّدِ الْإِتْقَالِ مِنَ الْخَارِجِ إِلَى دَاخِلِ الْأُذُنِ ، وَلَا يَفِيدُ الْإِسْتِقْرَارَ .

وَالْتَعْبِيرُ بِـ « أَصَابِعُهُمْ » وَالْأَصَابِعُ لَا تَدْخُلُ الْأُذُنَ ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ تَجْعَلَ فِيهَا وَذَلِكَ لِلْمُبَالَغَةِ فِي بَيَانِ سَدِّ الْمَسَامِعِ لَمَا يَقَاسُونَهُ مِنْ شِدَّةِ الْأَصْوَاتِ الْخَارِقَةِ وَالْمَدْمَدَمَةِ الَّتِي يَسْمَعُونَهَا وَهُمْ بِهَذَا السَّلُوكِ يَحَاوِلُونَ أَنْ يُخَفِّفُوا مِنْ شِدَّةِ تَأْثِيرِهِمُ الَّذِي يَكَادُ يَخْرُقُ آذَانَهُمْ عَلَى أَنْ هَذَا يُشِيرُ إِلَى كَمَالِ حَيْرَتِهِمْ ، وَتَخْبِطِهِمْ ، وَاضْطِرَابِهِمْ ، وَبَلْبَلَتِهِمْ ، وَقُوَّةِ دَهْشَتِهِمْ ، وَبَلُوغِهِمْ إِلَى الْحَدِّ الَّذِي لَا يَهْتَدُونَ فِيهِ إِلَى كَيْفِيَّةِ اسْتِعْمَالِ جَوَارِحِهِمْ عَلَى النِّحْوِ الَّذِي يَجِبُ أَنْ تَسْتَعْمَلَ عَلَيْهِ ، وَكَأَنَّ عَقُولَهُمْ قَدْ غَابَتْ ، وَلَمْ يَعُدْ لَدَيْهِمْ وَعْيٌ ، فَالْخَطَرُ دَاهِمٌ ، وَالْمَوْتُ مُتَرَبِّصٌ بِهِمْ ، وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ لَا يَفُوتُونَهُ أَبَدًا .

وَفِي قَوْلِهِ : ﴿ يَكَادُ الْبَرْقُ خَطْفُ أَبْصَرِهِمْ ﴾ (البقرة: ٢٠) هُوَ اسْتِثْنَاءٌ وَقَعَ جَوَابًا لِسُؤَالٍ فَمَا حَالُهُمْ مَعَ ذَلِكَ الْبَرْقِ ؟ وَالْبَرْقُ هُوَ مَا يَلْمَعُ مِنَ السَّحَابِ بِبَرْقٍ بَرِيقًا يَكَادُ يَخْتَلِسُ أَبْصَارَهُمْ ، وَيَخْتِطِفُهَا فِي سُرْعَةٍ وَقَوْلُهُ : كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ أَيُّ فِي أَيِّ أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا خَطَوَاتٍ يَسِيرَةٍ خَشْيَةً أَنْ تَخْتِطِفَ أَبْصَارَهُمْ ؛ وَإِنَّمَا عَبَّرَ بِالْمَشْيِ وَلَمْ يَعْبُرَ بِالْعَدْوِ أَوْ السَّعْيِ وَذَلِكَ لِفَقْدَانِ اسْتَطَاعَتِهِمْ لَهُمَا عَلَى أَنْ وَرَاءَ التَّعْبِيرِ بِكَلِمَةِ « كُلَّمَا » مَا يَفِيدُ مَدَى حَرْصِهِمُ الشَّدِيدِ عَلَى اسْتِثْمَارِ

❁ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

أية إضاءة تأتيهم من البرق ليمشوا حتى يتخلصوا من الويل المحيط بهم ومما يحاصرهم من أهوال متجاوزين في ذلك ما يمكن أن يتعرضوا له من مخاطر بسبب ضوء البرق الذي لعله أن يخطف أبصارهم وفي قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ﴾ (البقرة: ٢٠) أثر التعبير هنا بـ « قاموا » دون غيره كالوقوف ؛ لأنَّ معنى « قاموا » هنا أنهم وقفوا في أماكنهم على هيئتهم التي كانوا عليها متخيرين ومترصدين ، ومتهيئين للتحرك والمشي ومستعدين لذلك حين تأتيهم الفرصة ليصلوا إلى مقصدهم ، أو يلجأوا إلى ملجأ يعصمهم ولهذا فإن التعبير بـ « قاموا » هو ما يناسب الموقف ، وما يلائم السياق . على خلاف وقفوا التي تعني الثبوت والجمود .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (البقرة: ٢٠) حذف مفعول المشيئة لوقوعه في حيز الشرط وليس شيئاً مستغرباً أي لو شاء الله ذهب سمعهم بقصف الرعد ، وخطف أبصارهم بوميض البرق لفعل ؛ وإنما خص السمع والأبصار لتقدم ذكرهما وفي هذا ما يدل على الهول الرعب الذي هم فيه ، والخطر الداهم الذي يحيط بهم . لقد وصلت أحوالهم من الفظاعة والسوء الشديد إلى الدرجة التي لو تعلق مشيئة الله تعالى بإزالة سمعهم وأبصارهم لزال ولكن الله لم يشأ ذلك حتى يظلوا يركضون في نار هذا العذاب ويسقون من حميمه ولو فعل لا نقطع عنهم هذا الإحساس^(١) ، وإنما تركهم بحواسهم الكاملة ليتجرعوا غصص الآلام بحسن كامل هذا وحين توازن بين هذا التشبيه والتشبيه الأول تجد أن التشبيهين يلتقيان معاً في أن هذا النموذج البشري الذي يَصَوَّرُ في المثليين رمزاً للتيه ، والحيرة والضلال ، والاضطراب وهي في التمثيل الأول ظلمة تحجب

(١) انظر في هذا تفسير الكشاف ٣٩/١ ، ٤٣ ، تفسير أبي السعود ٥٢/١-٥٧ وحاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي ، ٢٠٢/١-٢٠٥ وتفسير الألوسي ١٧٠/١-١٨٠ .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَةٌ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ❁

الضوء ، وتمنع الرؤية ، وتحول دون تبيينهم مواضع أقدامهم ، فالظلمة التي تحيط بهم إنّما يسعون جادين للانتصار عليها ، وفضّ إشكالها فيستوقدون ناراً مهما كانت قليلة الضوء لتبصرهم طريقهم فهم يرمون إلى الإنارة ويقصدونها .

وفي المثل الثاني تجد فيه مثل ما تجد في الأول من ظلمة الحيرة والتهيه والضلال ولكن يضاف إلى ذلك هذه العناصر التي أثرت الصورة ، وزادتها هولاً فوق هول ، وخطراً فوق خطر من الصيب المنهمر الهائل ، والرعْد المنزلل القاصف ، والبرق الذي يختلس النظر ، ويختطف الأبصار وهذه كلها كثفت من مساحة الأهوال ، والأخطار التي كادت تؤدي بهم إلى الهلاك لولا إرادة الله ومشيئته التي أبقت عليهم أحياء ليدوقوا ويلات الآلام وعصفها .

والصيب جند من جنود الله - وما يعلم جنود ربك إلا هو - تكمن في طيه النعمة والنقمة ، فتارة تكون فيها حياة كل شيء في هذه الأرض من الإنسان والحيوان والنبات وغير ذلك يهطل على الأرض الجذباء القاحلة الهامدة ، فإذا بها تهتز وتربو وتنبث من كل زوج كريم ، وتصبح خصبة غنية ممرعة خضراء تؤتي أكلها بإذن ربها ، وهذا وجه النعمة وتارة تكون أداة إبادة ، ومحق ، وهول ، ورعب ، وعذاب كما تحدث القرآن في قوله : ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ۖ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالْهَرِمِ ۖ ﴾ (الذاريات: ٤١، ٤٢) وإنّما سميت الريح عقيماً لأنها لا تحمل ماء وحياة كما توقعوا وإنّما تحمل هلاكاً وتدميراً ولأنهم كانوا يتوقعون الماء ، فإذا الذي ينزل موت وهلاك يحكي القرآن عن نفس عاد ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۖ ﴾ (الأحقاف: ٢٤، ٢٥) فالصيب إما أن يكون خصوبة وحياة وثراء ، وإما أن يكون هلاكاً وعذاباً وإغراقاً .

❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

يتحدث ابن القيم عن أن المنافق لا ينتفع بالجانب الممرع الخصب من الصيب وهو ما يحمله من الحياة ، والنماء ، والنفع ، وذلك لغبائه ، وعناده وحيرته ؛ ولذا يبقى يعيش في ظلمة تسحقه فيها الأهوال سحقاً ، وتكاد تقضي عليه يتحدث عن المنافق فيقول : « فهو في ظلمة يسمع أصوات الرعد القاصف ويرى ذلك البرق الخاطف . فإن أضاء له ما بين يديه مشى في ضوئه وإن فقد الضوء قام متحيراً ، لا يدري أين يذهب ، ولجهله لا يعلم أن ذلك من لوازم الصيب الذي به حياة الأرض والنبات وحياته هو نفسه ، بل لا يدرك إلا رعداً ، وبرقاً وظلمة ، ولا شعور له بما وراء ذلك ، فالوحشة لازمة له ، والرعب والفرع لا يفارقانه ، وأما من أنس بالصيب ، وعلم ما يحصل به من الخير والحياة والنفع ، وعلم أنه لابد فيه من رعد وبرق وظلمة بسبب الغيم فإنه يستأنس بذلك ، ولا يستوحش منه ، ولا يقطعه ذلك عن أخذ نصيبه من الصيب »^(١).

ويقول الزمخشري « فإن قلت » أي التمثيلين أبلغ قلت : الثاني ؛ لأنه أدل على فرط الحيرة ، وشدة الأمر وفضاعته ولذلك أخر وهم يتدرجون في نحو هذا من الأهون إلى الأغلاظ »^(٢).

ومن التصوير الذي يأخذ باللب ويدع مساحة للتخيل في رسم هذه الحالة بما تجسده من مثل وعبرة لمن يفقد الرؤية الصائبة ويضل الطريق طريق التوحيد لله سبحانه فيورد الموارد المبيدة مرارة الهلاك والضياع ، والخيبة على نحو ما تراه في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ (الحج: ٣١).

إن من يشرك بالله قد أهلك نفسه وهو مشبه بحال من خر من السماء ولم يثبت له وجود على الأرض فاختطفته جوارح الطير بعد أن تمزق مزعاً في

(١) التفسير القيم لابن القيم ، ص ١٢٨ .

(٢) تفسير الكشاف ٤١/١ .

الصورة البيانية ————— دراستي في مسأله البيان ————— ❁

حواصلها ، أو تهوي به الريح في مكان سحيق ، فهذه حال الإنسان المشرك يختر من السماء ويسقط لكن لا يستقر على الأرض ولا يكون له وجود فيها وإنما يضيع ، ويتبخر وتنتهي حكايته على النحو السابق في حواصل الطيور الجوارح أو تكنسه الريح وتهوي به إلى مكان سحيق بحيث لا يدري أحد عنه شيئاً .

إن النص القرآني الكريم يرسم صورة واضحة لمن يفقد الاتجاه الحق ، والموقف الصحيح ، وتزلّ قدماءه ، ويسقط في مستنقع الشرك ، ويشرك بالله وفي هذه الصورة ترى الحركة المتتابعة السريعة ماثلة قائمة وهي حركة تجعل بصرك يلاحقها في صورتها المحسوسة التي أبرز النص الكريم هيأتها وعبر عنها من خلال مشهد ثري ترى العنف بجلله ، ويغشاه ، ويرسم له ملامحه ، ويجعل خيالك يمرح في حقل خصيب ؛ ذلك أن من يشرك بالله قد فقد جلاء البصيرة الكامل ، والارتقاء الحقيقي حين ضل الطريق إلى الله ، ولم يعرفه . وخرّ وهوى من الآفاق سماء التوحيد العالية ، وقواعده الثابتة إلى التلاشي ، والفناء ، والضياح ، فتخطفه الأهواء والأوهام والنسور الجوارح ، وتتقاذفه وتتلاعب به الرغبات ، والميول والشهوات تقاذف الريح التي تشتد بالرماد وتذهب به فلا يدري أحد عنه شيئاً ولا أين يكون في المغارات والكهوف .

وهكذا ضاع هذا الذي خر من السماء وانتهت قصة وجوده كلها في حواصل طيور كاسرة مزقت جسده ، وابتلعت به بعد أن خطفته أو تخطفته وكأن كلا منها كان يتنافس على أن ينال نصيبه من هذه الوجبة الدسمة في سرعة سريعة ، أو كنسته الريح إلى مكان سحيق بعيد لا يصل إليه أحد .

إن العبودية إنما هي لله وحده لا شريك له ، وفي تلك العبودية لله لا شريك له منتهى السيادة والحرية والأمان والاطمئنان للإنسان في هذه الدنيا ؛ لأن من يكون عبداً موحداً لله سيكون سيد الأحرار في هذا العالم ذلك أنه ما دام قد أقر بهذه العبودية لله ، وأقامها في حياته وقبلها ، وسعى دوماً وأبداً

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ —————﴾ دراستہ فی مسائل علی البیان

لتأدية موجباتها سيكون في هذا الوقت سيد الأحرار في هذا العالم ؛ لأنه لن يكون عبداً لأي شيء آخر سوى الله الذي خلقه ، ورزقه ، وبيده وحده ولا أحد غيره النفع والضرر ، فلن يكون عبداً لشهوته ، ولا لرغباته ، ولا لمنصب ، أو ثروة ، أو جاه ، ولن يكون عبداً لفلان أو غيره لأنَّ أحداً غير الله لا يملك من أمره شيئاً فعبوديته لله جعلته سيد الأحرار في هذا العالم ؛ ولذا كان النهي عن الشرك والتحويل من عاقبته في قوله سبحانه : ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ ﴾ (الحج: ٣١) أمراً عاماً للناس جميعاً وإنَّما وجهه إلى الفرد ليحسَّ بالتبعية الكاملة ، وبجسامة المسؤولية عن ذلك ، وكأنه أمر خاص موجه إليه ، وليدرك عن بينة أن الشرك انقطاع تام بين الله سبحانه والفرد المشرك ، فليس له أمل في مغفرة إذا خرج من الدنيا وهو على شركه ولأنه فقد التوحيد فضاعت مع هذا حريته جميعها من غير أن يبقى منها شيء إذ أصبح مستعبداً للمال ، وللمنصب ، وللشهوة ، وكل ما يتصل بكل تلك العبوديات ، وأصبح خادماً ومملوكاً لها بعد أن أصبح فارغاً من التوحيد . فالشرك هو انقطاع الحبل السري بين الإنسان وبين مصدر إنشائه ووجوده وهو الله سبحانه وتعالى .

ولأن المشرك يتنكب الفطرة السوية التي فطر الله الناس عليها وهي عقيدة التوحيد ؛ لذا يمضي في طريق متعرج ومُلتَوٍ لا استقامة فيه ، ولا وضوح مع أهوائه المتقلبة المضطربة التي تتلاعب به وتتقاسمه وتشده معها في غير اتجاه فتتفرق به الطرق ، وتتوزع السبل ، ولا يعرف أين يستقر بعد أن انحرف عن الخط المستقيم الذي يحميه ، ويعصمه من الأهواء التي تعصفُ به ، وتعصمه من عبوديته للهوى ، وللعباد ولذا فهو متخبط يضرب في تيه على غير هدى . انظر للصورة المرسومة للعبد المؤمن وللعبد المشرك من خلال هذا المثل الذي ضربه الله عزَّ وجلَّ مثلاً لهما حين : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ ﴾ (الزمر: ٢٩).

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ الْبَيَانِ ————— ❁

فالمثل المضروب للعبد الموحّد ، والعبد المشرك ، فالمشرك يملكه شركاء متشاكسون يخاصم بعضهم بعضا ، لكل من الشركاء في العبد رأي وتوجيه يخالف رأي الآخرين ، وتوجيههم وهو بينهم حائر مقسّم ومشتّت لا يستقر على قرار ، ولا يستقيم ويثبت على طريق ، أمّا الآخر وهو العبد الذي يملكه سيد واحد فهو يعرف ما يريد منه سيده ؛ لذا فهو مستريح ، مطمئن ، ومستقر على نهج واضح ، وطريق لا حبّ بين ؛ ولذا لا يمكن أبداً أن يتساويا والتشبيه يقوم على أساس تشبيه من أضله الله وأشرك وتلاعبت به الأفكار الفاسدة ، والخواطر الضالة بهيئة وصورة من خر من السماء وسقط منها وتمزق قطعاً وإربا بعد أن اختطفها الطير أو بمن هوت به ريح شديدة عاصفة فألقته في مكان سحيق ومفازة بعيدة بحيث لا يرى ولا يعرف ، ووجه الشبه الصورة الحاصلة للهلاك التام المتيقّن أو المظنون. على أن التشبيه يمكن أن يعد مفارقة بتشبيه الإيمان لارتقائه وعلوه بالسماء ، والشرك بالسقوط منها ، والأهواء التي تتناوشه وتوزع طاقته ، وتشتت أفكاره بالطيور الجارحة المختطفة ، ووساوس الشيطان التي يتذبذب معها ويتأرجح بالريح التي تهوي به وتعصف .

والزمخشري يبين هذا فيقول : « ويجوز في هذا التشبيه أن يكون من المركب والمفرق ، فإن كان تشبيها مركبا فكأنه قال : من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكا ليس بعده نهاية بأن صور حاله بصورة حال من خر من السماء فاخطفته الطير فتنفرق مزعا في حواصلها ، أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المطارح البعيدة ، وإن كان مفارقة فقد شبه الإيمان في علوه بالسماء ، والذي ترك الإيمان ، وأشرك بالله بالساقط من السماء ، والأهواء التي تتوزع أفكاره بالطير المختلطة ، والشيطان الذي يطوّح به في وادي الضلالة بالريح التي تهوي بما عصفت به في بعض المهاولي البعيدة »^(١).

(١) تفسير الكشاف ، ج ٣ ، ص ٣٢ .

❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

وابن المنير يرى انقسام الكافر إلى قسمين الأول : المرتد ، فهو قد خر وسقط من علياء الإيمان وسمائه وهو المتذبذب ، المتمادي على الشك ، وعدم التصميم على ضلالة واحدة ، فهذا القسم مشبه بمن اختطفته الطير ، وتوزعته ، فلا يستولي طائر على مزعة منه إلا انتهبها منه آخر وتلك حال المذبذب لا يلوح له حال إلا اتبعه وترك ما كان عليه ، والثاني مصمم على معتقد باطل لا يتزحزح عنه ولو نشر بالمناشير ولم يرجع ، ولا سبيل إلى تشكيكه ، ولا مطمع في نقله عما هو عليه . فهو فرح مبتهج لضلالته ، فهذا يشبه في إقراره على كفره باستقرار من هوت به الريح إلى واد سافل فاستقر فيه ونظير تشبيهه بالاستقرار في الوادي السحيق الذي هو أبعد الأخبار عن السماء وصف ضلاله بالبعد ^(١).

ويلاحظ في قوله : ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنْ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ ﴾ (الحج: ٣١) عطف بالفاء التي تفيد الترتيب والتعقيب ، ومعنى هذا أن الخرور ما كاد يحدث حتى أسرع الطير لتخطفه في سرعة سريعة وبدون تريث أو تمهل وهذه السرعة تنعكس على الحركة التي فيها انقضاض ، والتهام ، والتعبير بالمضارع في قوله : « تهوي » بدلاً من الماضي للإشعار باستحضار تلك الحالة في مشاهدة المخاطب تعجيباً له وكأنها حاضرة وهو يشاهدها ^(٢).

هذا والصورة التي تكونت منها الصورة التشبيهية مفرداتها حسية فهي صورة حسية لكن صورتها الكلية لا وجود لها في الخارج ، ولذا تعد من التشبيه الحسي الخيالي وهو ما كان من الأمور المتخيلة المؤلفة من أشياء محسوسة ، فصورتها الكلية لا وجود لها على ما هي عليه في الواقع ، وإن كانت مفرداتها تحت نطاق الحواس فهي محسوسة .

(١) تفسير الكشاف ، ٣/ ٣٢ .

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم للألوسي ، ١٧/ ١٤٩ .

الصورة البيانية ————— دراستي في مسائل عليّ البیان ————— ❁

هذا وما دام الحديث قد جرنّا إلى التشبيه الخيالي فإننا نبصر ما يسمى بالتشبيه الوهمي في قوله تعالى : ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴾ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَأَكَلُونَ مِنْهَا فَمَا لَيْسُوا مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ (الصافات: ٦٤-٦٧) .

إن الشجرة في قوله سبحانه : ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴾ (الصافات: ٦٤) شجرة غريبة لم تُعهد من قبل ، ولم تعرف ، وغرابتها تكون أشد وضوحاً ، وأكثر وذلك لغرابة المكان التي تخرج فيه ، وتنبت . وهو قلب جهنم ، وقعرها ، ووسط سعيها ، ولهيبها . فهي تنبت في القلب وفي المكان الذي تنكشف فيه النيران وتشتعل ومع هذا تظل تنبت وكذلك أغصانها وتأخذ في النمو ، والارتفاع على أن طلع هذه الشجرة بما فيها من دهش وغرابة استعير من النخلة ؛ لأنّ الطلع إنّما يكون للنخلة استعير منها لهذه الشجرة الغريبة غرابة المكان الذي خرجت فيه وهي شجرة الزقوم ، وهذا الطلع من الجهل به وهذا شأن المشبه غالباً شبه برؤوس الشياطين وهي رمز لكل قبيح وكره وفظيع ومُستشع . فتشبيه الطلع برؤوس الشياطين دلالة على تناهيه في الكراهة وقبح المنظر ؛ لأنّ الشيطان مكروه ، مستقبح في طباع الناس لاعتقادهم أنّه شر محض لا يخلطه خير فيقولون في تقبيح الصورة كأنّه وجه شيطان وكأنّه رأس شيطان .

ولذا أثير جدل حول إمكانية التشبيه بالمجهول غير المعروف وانتهوا إلى أن التشبيه برؤوس الشياطين ليس تشبيهاً بشيء مجهول ، بل هو تشبيه بمعلوم استقرت كراهيته ، والنفور منه عند الناس جميعاً ، وما كان كذلك وبهذه الصورة كان له قوة المدرك الحسي فصورة المشبه به معروفة بالتنفير والتخويف والتقبيح ، ولذا عدّوا هذا من التشبيه الوهمي وهو ما اخترعه الوهم من عند نفسه من غير أن تكون له ، ولا لمادته وجود في الخارج - والتشبيه في الآية على حد قول امرئ القيس :

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ —————﴾ دَرَسَتُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

أَيْقَتُنِي وَالْمَشْرِفِي مُضَاجِعِي وَمَسْنُونَةُ زَرْقِ كَأَنِيَابِ أَغْوَالِ

إذ ليس المقصود بيان حال المشبه ، وتوضيح صورته المجهولة وإنما المراد رسم صورة مخيفة ومفزعة ، والعرب تشبه قبائح الأشياء ومنكرها بالغول والشیطان وإن كانوا لم يروهما ومن التشبيهات التي لها دلالة على أن لها منزعا نفسيا ما يصور القرآن به حال هذا النموذج التي تصادم مع فطرة التوحيد ، والإيمان بالله وحده فارتد عن دين الإسلام ؛ ولذا فهو في تيه لا يجد فيه هدى ، وفي حيرة لا يستطيع التخلص منها بعد أن توزع بين الهدى والضلال والإيمان والكفر ، وقد استهوته الشياطين في الأرض ، وأخذته إلى متاهات بعيدة ، فضل ، وضاع منه الطريق الصحيح يناديه أصحابه أن اتتنا إلى الهدى والإيمان لكنه حيران لا يستطيع أن يضع قدمه على طريق لأنه محبط الفكر ، مشتت الخاطر ، موزع النفس والمشاعر غير قادر على أن يقطع برأي ، ولا أن يسلك أي الطريقين ويمضي فيه طريق الهدى والإيمان ، أو طريق الردّة والخذلان . يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ أُنَدِّعُوا مِنْ دُوبِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى أَتُنَبِّئُكُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأَمْرًا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الأنعام: ٧١).

قل لهم يا محمد مستكرا حالهم التي هم عليها ، ورافضاً لها ، ومقبّحا لشأنها ، ومعظما لجريها وهي دعوتهم غير الله ، واللجوء إليه واللياذ بحماه ، والاستعانة به ، وطلب النصرة منه أن هذا من أوهام الجهل والخرافة ، والخضوع للهوى ، مع انفلات العقل من المعايير الثابتة الصحيحة حين يسلمون قيادهم للذين يدعونهم من دون الله وهم حين يفعلون ذلك إنما يُسَلِّمُونَ أنفسهم لمن لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً على أي حال كان هذا الذي يدعونه صنما أو وثناً ، إنسانا أو شيطانا فكلهم في مُسْتَوًى واحد من الهشاشة والضعف وذلك أنهم أعجز من أن ينفعوا أو يضرّوا ؛ لأنهم

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ الْبَيَانِ ————— ﴿﴾

لا يملكون لا نفعاً ، ولا ضرراً ، بل هم من الهوان والانكسار والخيبة بحيث لا يقدرّون على شيء أيّ شيء أبداً ؛ ولذا كَبَّرَ الله جريمة الشرك ، وعظَّم من شدة أخطارها وأهوالها فأبعدها من دائرة الغفران ذلك أن توحيد الله هو النور الذي يأخذ بالنفوس الهائمة المتحيّرة فينقذها ، ويخلصها من التيه ، والتخبُّط والشُرود ، والضلالة إلى واحة الراحة ، والأمن والهدوء ، والاستقرار ، والأمان ، فلا استفهام في قوله سبحانه : ﴿ اُنْدَعُوا مِنْ دُوبِ اللَّهِ ﴾ (الأنعام: ٧١) إنكاري وقوله : ﴿ وَنُرْدُ عَلَى أَعْقَابِنَا ﴾ (الأنعام: ٧١) معطوف على « ندعوا » داخل في حكم الإنكار والنفي أي ونرد إلى الشرك والتعبير عنه بالرد على الأعقاب لزيادة تقبيحه بتصويره بصورة ما هو علّم في القبح مع ما فيه من الإشارة إلى كون الشرك حالة قد تركت ونبذت وراء الظهر^(١).

والتشبيه يقوم من خلال تشبيه حال العائد والمرتد إلى ظلام الكفر وقلق الإلحاد ، والشرك بعدما كان آمناً مطمئناً في نور الإيمان والمعرفة الصحيحة له بحال من استهوته الشياطين ، وخلبت عقله وذهبت به في المهامة والقفار وله أصحاب مؤمنون يدعونه إلى الهدى وهو يسمع أصواتهم وينادونه أن يذهب إليهم بعيداً عن استهواء الشياطين وهو بين دعاء أصحابه أن يأتي إليهم وبين استهواء الشياطين حيران لا يدري ماذا يفعل ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من الحيرة والقلق ، وعدم وضوح الرؤية والتردد والتذبذب بين القبول أو الرفض ، والإقبال أو الإحجام ، والتقدم أو التأخر .

وهذا حال المرتد على أعقابهِ بعد أن هداه الله إلى الإيمان والهدى تخبُّطٌ على غير هدى ، وضربٌ في متاهات مجهولة يتخالجها الشك ، وتتلعب به الهواجس والأهواء ، فهو مضطرب حائر منقسم على ذاته ، موزع الهوى ، ومشتت الفكر ، ومببلل خاطر لا يستقر على رأي ، ولا يثبت على نهج ،

(١) تفسير أبي السعود ، ١٤٩/٣ ، وتفسير أبي السعود ، ١٨٨/٧ .

❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

ولا يضع قدمه على طريق واضح صحيح تمزق الاتجاهات المتعارضة قواه ، وتشئت الأهواء المتنازعة فكره وخواطره بعد أن فقد القاعدة الصلبة التي تبنيه ، وتؤسسه ويطمئن إليها ، وهي قاعدة التوحيد ؛ لذا تتخطفه الأهواء تخطف الجوارح ، وتستهويه الشياطين ، وتملك لبه ، وتسحر فؤاده ، وتستبد به ، ويفرض سلطانها على كل حركة وسكنة فيه ، وتأخذه إلى متاهاتها البعيدة ، في المهامة والفيافي ، والصحاري والمهالك والقفار ، وحين يناديه أصحاب له إلى الهدى يعرفهم ويسمع أصواتهم ، ويدعونه هلم إلينا اتتنا تعال إلى الشاطئ المخضّر في طريق لاحب واضح تنتشر على مدارجه نواضر الورود ، وترف على جوانبه نوافح الرياح ، وينبلج في أجوائه الأنس ، وينبسط على أرجائه السلام ، ويتسق في ظلاله النعيم ، وترقص على حفافيه عرائس الحور العين في مشهد يبهج ويسر ، ولكنه يقف بين استهواء الشياطين وأخذهم إياه إلى متاهات الضياع والخيبة والخسران ، وبين نداء الأصحاب المفعم بالوداد المحض وهو مرتبك حيران لا يدري ماذا يصنع أو يعمل .

ويقول الألوسي : « والاستهواء استفعال من هوى في الأرض يهوي إذا ذهب كما هو المعروف في اللغة كأنها طلبت هُويّه وحرصت عليه أي كالذي ذهبت به مَرَدّة الجن إلى المهامة والقفار والكلام من المركب العقلي أو من التمثيل حيث شبه فيه منخلص من الشرك ثم نكص على عقبيه بحال من ذهبت به الشياطين في المهامة وأضلته بعد ما كان على الجادة المستقيمة »^(١).

والإمام فخر الدين الرازي يرى أن قوله سبحانه « استهوته » مشتق من الهويّ في الأرض وهو النزول من الموضع العالي إلى الوهدة السافلة العميقة في قعر الأرض ، فشبه الله تعالى حال هذا الضال به وهو قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنْ السَّمَاءِ ﴾ (الحج: ٣١)^(٢) ، ولا شك أن حال هذا الإنسان عند

(١) سورة الحج ، من الآية ٣١ .

(٢) روح المعاني ، ١٨٩/٧ .

الصورة البيانية ————— دراستي في مسأله البيان ————— ❁

هويه من المكان العالي إلى الوهدة العميقة المظلمة يكون في غاية الاضطراب والضعف والدهشة»^(١).

ومع أن الألو سي ذكر هذا إلا أنه قال وفيه بُعد ولأنه يتوقف على ورود الاستفعال من هوى بهذا المعنى .

وحين تقف مع امرئ القيس في مطلع معلقته تجد فيه ما يشي فيه بالدلالة على نفسية الشاعر ، وعلى الصراع الذي يمور في داخله ، ويتزاور في أعماقه إذ تنطلق انفعالات نفسه من تلك الأعماق مصورة أحاسيسه ومشاعره وامرؤ القيس هو أفحل شعراء عصره يرفعه أهل البصر بصناعة الشعر إلى قمة الذروة في البيان ويحلونه في ذلك المحل الذي لا ينازعه فيه غيره ، ولا يشاركه فيه سواه ، فهو الأب للشعر الجاهلي ، ولئن كان الشاعر قد ولد في بيت أبيه الملك ، وعاش حياته كما يعيش أبناء الملوك مترفاً منعماً لكنه كان متهتكاً طائشاً ممّا دفع هذا السلوك أباه إلى طرده لكن هذا الطرد والإبعاد لم يفتّر من سلوكه ، بل ازداد طيشاً ومجوناً وتهتكاً لبعده عن رقابة أبيه وحين قتل أبوه في ثورة أشعلها بنو أسد ضده وجاءه الخبر وكان في مجلس شراب قال عبارته الذائعة « ضيعني صغيراً ، وحملني دمه كبيراً لا صحو اليوم ولا سكر غدا ، اليوم خمر وغداً أمر » وحاول الرجل أن يستردّ ملك أبيه الذي ضاع وفقد وأن يأخذ بثأره ومع محاولته لم يتمكن حتى انتهت حياته على أي نحو من الأنحاء وفي تقديري أن المعلقة إنّما أنشأها الشاعر في الفترة المضطربة من حياته والتي عانى فيها من شقاء العيش لتحمله المسؤولية الثقيلة ، واعتلاج الهموم في صدره وتدافع الأحزان في فؤاده ، ومع أن معلقته قد أجاد الشاعر فيها في براعة التصوير مع تلوّن موضوعاتها إلا أن الشاعر كان يعاني ضغوطاً نفسية كبيرة ، وتوتّراً طاحناً ، ومشاعر كابية ولئن قد تحدث في بعض المقاطع عن مساحره

(١) مفاتيح الغيب ، ٣٦٨/٦ ، دار الغد العربي .

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

ومعابثه وولعه بالنساء ومغامراته وخروجه للصيد وحديثه عن المطر فإن كل ذلك إنَّمَا يُعْطَى به الشاعر على ضخامة همومه وثقلها تلك الهموم التي امتدت وانتشرت في كل زاوية من زوايا نفسه حتى لكأن تلك الهموم وجدت مستقرها الذي تطمئن فيه في نفس الشاعر القلقة المتوترة ، وانظر إلى مطلع المعلقة ^(١) .

قفا نبك من ذكرى حبيب وموئل بسقط اللوى بين الدخول فحومل
فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب وشمال
تري بحر الأرام في عرصاتها وقيعانها كأنه حب فلفل
كأني غداة البين يوم تحمّلوا لدى سمرات الحى ناقف حنظل
وقوفاً بها صخي علي مطيهم يقولون لا تهلك أسي وتجمل

في هذه الأبيات ترى الشاعر يعبر عن نفسه تعبيراً واضحاً ، ويجلو لك مشاعره الحزينة الكابية بعد أن فقد الأمل في استرداد الملك الذي فقد وضاع ومع ضياعه ضاع معه كل شيء المجد والأهل ، والديار ، والحبيب ، لذا استبدت بنفسه الأحزان ، وسيطرت عليها ، وتملكتها في طغيان ، وتوحش ، وقهر من أجل ذلك كان البكاء هو السبيل الذي يعبر الشاعر به عن توغل هذه الأحزان ، وعن عربدتها كما يبين ويفصح عن معاناته ، وكوامن آلامه ، وأشجانه ، ولذا فإن المطلع في قوله :

قفا نبك من ذكرى حبيب وموئل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

إنَّمَا استحق أن يتبوأ موقعه على أعلى القمة لمناورات البيان العالي الرفيع وذلك لأنَّ الشاعر الذي يتجرّع غُصَصَ الحزن والهم ، ويختزن بُرَحَاءَ الأسي والكرب قد عبّر عن حالته تلك ، وتمكّن من حشد كل تلك المشاعر التي دلّلت على نفسيته الكئيبة المحزونة في نصف مساحة بيت من الشعر حتّى رأينا ابن رشيّق يقول عن مطلع القصيدة . قفا نبك .

(١) الديوان ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ص ٨ ، ٩ ذخائر العرب - دار المعارف .

الصورة البيانية ————— دراستُ في مسأَلِ البيّان ————— ❁

« وهو عندهم أفضل ابتداء صنعه شاعر ؛ لأنّه وقف واستوقف وبكى واستبكى وذكر الحبيب والمنزل في مصراع واحد »^(١).

والسَّقَط : مثلثة السين منقطع الرمل . واللوى حيث يلتوي ويرق وإنّما خص منقطع الرمل وملتواه ؛ لأنهم كانوا لا ينزلون إلّا في صلابة من الأرض ليكون ذلك أثبت لأوتاد الأبنية وإنّما تكون الصلابة حيث ينقطع الرمل ويلتوي ويرق والدَّخُول وَحَوْمَل موضعان يُحدِّدُ بهما مكان الطلل الذي يقف به ويطلب إلى صاحبيه الوقوف معه فيه وفي قوله :

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب وشمال
توضح والمقراة : موضعان يستكمل بهما تحديد مكان الطلل .

لم يعف رسمها : لم تُغيّر لتقدم عهده ، وبقيت منه آثار تدل عليه منعها من أن تذهب البتة اختلاف الريحين عليه فكلّما دفتته هذه بما هالت عليه من الرمل سفّرت عنه الأخرى وأظهرته فهو وإن تغير أثر باق فنحن ننظر إليه ونحزن ولو ذهب كل الذهاب لاسترحنا ولم ننظر إلى ما يحزننا ومعنى « نسجتها » : تعاقبت عليها فمحت آثارها وأث الضمير في قوله : « رسمها » لأنّه في معنى الدار والمنزلة .

إن هذا البيت والذي بعده من أبيات المطلع إنّما جاء ليقرر ويوثق ويؤكد على الحالة النفسية السيئة التي تستبد بالرجل وتستولي عليه وتحيط به ، فمشاعر الأسى والفقد والضياغ التي انبثت في هذه الأبيات جاءت تصويراً كاملاً لنفسية الشاعر ، وتعبيراً عما يمازجها من مشاعر ، وما يجول في أديمها من لواعج الأسى ، وكوا من الأحزان ولذا فهو يتلفّت إلى الماضي الذي أصبح اليوم مجرد ذكرى يأنس إليه ، ويستريح في ظلاله ؛ لأنّ حياته التي اختلفت عليها العوامل ، وازدحمت بها الأحداث ، وفاضت بالدروس والعبر أمكنته من

(١) العملة لابن رشيق ، ٢١٨/١ .

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

أن يقيم في نفسه موازنة بين زمن وزمن ، وتاريخ وتاريخ ، وعهد وعهد ، فيود من أعماقه لو أن الزمن كان قد توقّف وتجمّد ولم يوصله إلى ما هو فيه من الوحدة والوحشة ، والحزن ، والمرارة ، والفقد ، والضياع .

ولذا فإن التأمل اليقظ والواعي في النص الشعري الذي معنا وقراءته من خلال حياة الشاعر وما يعاينه من البرم ، والقلق حتى صار طريداً من طرائد الأسى والوجع والحزن تجعلنا نطمئن ، ونستريح أن جودة المطلع لم تكن لهذا الضغط الشديد للعبارة التي حملت أحاسيسه ومشاعره إلى من يتلقاها عنه بحيث يصبح التركيز في عبارة الشاعر هو شارة التوفيق ، وأمانة الجودة دون سواه كما ذهب إلى ذلك النقاد القدامى وعلى رأسهم ابن رشيق وإنّما لهذا ولما دل عليه من دلالة على نفسية الشاعر المكتتبة الحزينة وانظر إلى التصوير بالتشبيه الحسي الذي تراه في هاتين البصيرتين في قوله :

تَرَى بَعْرَ الْأَرْآمِ فِي عَرَصَاتِهَا وَقِيعَانِهَا كَأَنَّهُ حَبٌّ فَلُفْلُ
كَأَنِّي غَدَاةَ الْبَيْنِ يَوْمَ تَحَمَّلُوا لَدَى سَمَرَاتِ الْحَيِّ نَاقِفٌ حُنْظُلٍ

فهو حزين القلب ، منقبض الصدر ، مكروب النفس ، ساهم الوجه ، مشتت الفكر ، ينظر فيرى أن العدم الذي يشيع في مظاهر الوجود من حوله قد امتصّ نضارة الحياة في أماكن لهوه وعبثه فأرْمَضَ الحشاً ، وأذاب لفائف القلب بحيث لم يعد يبصر غيره إلّا من آثار للأَرْآمِ كحَبّاتِ الفلفل تراءت له في عرصاتها وقيعانها ولولاها لما علم أن حياة تفيض بالمَسَرَّاتِ المتجدّدة كانت بها ، وأن أحياء يضجّون بالحركة ، يلهون ويلعبون كانوا هناك .

لقد عَرَتُ حياة الشاعر من كل شيء فلم يعد يرى إلّا كلّ ما يسوء ويحزن من ذكريات أسيفة حزينة أشبه ما تكون بآثار الديار ، وبعر الطباء التي تحاكي وتشبه حبات الفلفل في لونها وهيئتها .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دُرِّسَتْ فِي مَسَائِدِ الْبَيَانِ ————— ❁

وانظر إلى قوله :

تَرَى بَعْرَ الْأَرَامِ فِي عَرَصَاتِهَا وَقِيَعَانَهَا كَأَنَّهُ حَبُّ فُلْفُلٍ .
والأَرَامُ : الظباء البيض الخالصة البياض ، واحداها رئم وهي تسكن الرمل .
عَرَصَاتٌ : الساحات وعرصه الدار : ساحتها وهي البقعة الواسعة التي ليس فيها
بناء ، وعرصات مثل : سجدة وسجدات ، وقيعان جمع قاع : وهو المستوي
من الأرض .

فالشاعر يصور حزنه وحسرتة حين يبين أن الطلل تحول إلى مسرح للظباء
التي نثرت بعرها فيه بعد أن كان أهلاً بأحبابه ، فالدار قد أقفرت من أهلها
وصارت مأوى للسباع المفترسة ، وللوحوش الضارية .

إن الشاعر التي تذوب نفسه من الحسرة والحزن ، وتفيض عيناه بالدمع
يقلّب نظره في المكان الجديد الموحش ، ويأخذ جملة منظره بمجامع عَيْنِهِ
فَيَسْبِجُ بخاطره في أجواء الماضي السعيد إذ لم تقع عيناه على شيء وَيُسْرِهُ في
الحاضر السقيم ويتذكر لهوه وعبه أيام أن كان يشرب كنوس المتعة واللذة
مترعة بالهناء والسعادة حتى الثمالة وحين يقلب نظراته في مواضع لهوه
ما تَلَبُّثُ أن ترتدّ إليه ساهمة واجمة ؛ لأنها لم تبصر إلاَّ الخلاء القابض ، ولم
تر إلاَّ الخراب الموحش كما تشاهد الموات وهو يتمشّي في أوصال الحياة
وَيُسْرِى في مظاهر الوجود . إن نظراته في المكان لا ترى حياة وإنّما ترى
عدما ، ولا تبصر حركة ، وانطلاقا ، وسعيا . وإنّما تبصر جمودا وهمودا وبلى
وموتاً . لا تشاهد حمائم تسجّع ، ولا بلابل تغرّد وإنّما تشاهد بُومًا تنعق ،
وغيربانا تنعب . وهكذا يصير نعيق البوم ، ونعيب الغراب في قوة المعادل
الموضوعي والمماثل الطبيعي لبَعْرِ الْأَرَامِ بما يحمل من دلالة قائمة ، وشاهد
ماثل على تمشّي البلى والفناء في عرصات هذه الديار المهجورة ، وقيعانها
والتي كانت مثار سعادة وبهجة ، فأضحت مثابة خوف ، وموت ، ووحشة

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

وحين تتأمل المصوّرَ البعر الذي تنأثر في عرصات الديار الدارسة المهجورة ، وقيعانها ، بعد أن صارت مأوى للسباع والوحوش ومسكنا للظباء تجد هذا [البعر] يُشعل في صدر الشاعر ناراً من البغضاء له والكراهية ، إذ يُطالع في صورته الدليل السافر والواضح على هجرة أهل هذه الديار لها ، ورحيلهم عنها ، كما أنّها رمز على أن رَوْضَه المزهر قد أجذب ، وأمحل ، وأن فردوسه السعيد قد أمحل وأقفر ، وأن عوامل البلى والانذار والفناء . قد تمشت في أوصاله ، وأنت عليه .

وأنت حين تدبر «المشبه» المصوّر بعَر الأَرَام في ذهنك ووعيك فإنما تجده يتبين ، ويتضح في المرأة التي تعكس صورته من خلال المحاكي ، والمضاهي ، والمشبه به المصوّر ؛ إذ سوف تتمكن من نفسك ، وتثبت في فؤادك ، وتستقر في أعماقك صورة المشبه الذي يتأكد من خلال الرمز الذي ترمز به إليه وهو نعيق البوم ، ونعيب الغربان ، والبلى الذي يسري ، والفناء الذي يتمشى ويخيف ، لكنك حين تحاول أن تجد شبهاً صحيحاً بين «البعر» وبين الرمز الذي سبق بيانه فلن تجده ؛ لأنّ الذي يجمع بينهما في واقع الحس ، ومرأى العين لا وجود له . ومن ثمّ فإن بعَر الأَرَام ليس شيئاً من هذا الذي سبق ؛ ولذا لا يصح أن تجري بينهما المشابهة وإنّما الذي تتحقق به المشابهة في واقع الحس ، ومرأى العين هو [حب الفلفل] الذي يكاد يتماثل مع بعَر الظباء ، والذي ترى العين في أحدهما ما تراه في الآخر من ناحية اللون ، والشكل ، والاستدارة حتى ما يبرز من نتوء على بعَر الأَرَام تجده على حب الفلفل فإذا أنت تخطيت المرئي المشاهد والشكل الحسيّ ونفذت إلى [حب الفلفل] المشبه به والمصوّر لبعر الأَرَام وما فيه من طعمٍ لاذع حارق ، يشوي الفم ، ويكوي الجوف ، ويسيل الدمع عرفت إلى أي مدى يكون أثر هذا التشبيه الذي يحكي الشاعر مأساته من خلاله ، ويدلّل على نفسيته المكتئبة الحزينة ، في تصوير بارع ، وتعبير مجوّد متقن يخاطب الشعور ، ويتوجه إلى الوجدان ، فإذا أنت

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دُرُوسٌ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ❁

ضُمَّتْ إِلَى هَذَا أَنَّ الشَّاعِرَ حِينَ وَقَعَتْ عَيْنَاهُ عَلَى [بَعْرِ الْأَرْأَمِ] لَمْ يَجِدْ فِيهِ آثَارَ الْمَهَا بِقَدَرِ مَا رَأَى فِيهِ شَوَاهِدَ الْوَحْشَةِ وَالْخَرَابِ ، وَدَلَائِلَ الْبَلَى وَالْفَنَاءِ ، فَاسْتَيْقِظَ عَلَى الْوَاقِعِ الْكَثِيبِ ، وَالْحَقِيقَةِ الْمَرَّةِ ، وَأَدْرَكَ فِي يَقِينٍ أَنَّ الظَّاعِنِينَ لَنْ يَثُوبُوا ، وَأَنَّ الرَّاحِلِينَ لَنْ يَرْجِعُوا ، وَأَنَّ الدِّيَارَ الَّتِي دُرُسْتُ وَخُرِبَتْ لَنْ تَعُودَ إِلَى سَابِقِ عَهْدِهَا ، وَأَنَّ شَمْسَهَا الَّتِي أَفْلَتْ وَغَابَتْ لَنْ تُشْرِقَ ثَانِيَةً ، وَأَنَّ الَّذِي ذَهَبَ وَمَضَى لَا يُمْكِنُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى سَابِقِ عَهْدِهِ وَيَعُودَ مِنْ جَدِيدٍ وَهَكَذَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَتَخِيلَ مَدَى مَا يَعْانِيهِ الرَّجُلُ مِنْ لَوَاعِجِ الْأَسَى وَالْحَسْرَةِ ، وَإِلَى أَيِّ حَدٍّ يَكَابِدُ مِنْ مَرَارَةِ الْأَحْزَانِ ، وَانْظُرْ إِلَى مَا يؤكدُ هَذَا فِي قَوْلِهِ :

كَأَنِّي غَدَاةَ الْبَيْنِ يَوْمَ تَحْمَلُّوا لَدَى سَمَرَاتِ الْحَيِّ نَاقِفُ حَنْظَلٍ
غَدَاةُ : الْغَدَاةُ مَعْنَاهَا الضَّخْوَةُ ، وَالْبَيْنُ : الْفِرَاقُ .

وَالسَّمَرَاتُ : جَمْعُ سَمْرَةٍ وَهُوَ شَجَرُ الْعُضَاةِ ضَخْمٍ ، وَلَهُ شَوْكٌ .

وَلَدَى : بِمَعْنَى عِنْدِي ، تَحْمَلُّوا : ارْتَحَلُوا وَهَاجَرُوا .

وَالْحَيِّ : الْقَبِيلَةُ مِنَ الْأَعْرَابِ ، وَالْجَمْعُ أَحْيَاءٌ .

وَنَاقِفُ الْحَنْظَلِ : هُوَ رَجُلٌ شَاءَ قَدْرَهُ أَنْ يَجْعَلَ مِنْهُ رَجُلًا لَهُ مُهِمَّةٌ خَاصَّةٌ وَهِيَ شَقُّ الْحَنْظَلِ لِيُخْرِجَ ثَمَرَهُ الْمَرْءَ بِمَا فِيهِ مِنْ مَرَارَةٍ شَدِيدَةٍ لَا تَحْتَمِلُ وَلَا تَطَاقُ . وَالْحَنْظَلُ هُوَ شَجَرٌ مُرٌّ كَأَنَّ الْمَرَارَةَ قَدْ تَجَمَّعَتْ فِيهِ وَصُبَّتْ وَتَرَكَّزَتْ بِحَيْثُ لَا يُمْكِنُ لِأَحَدٍ أَنْ تَكُونَ لَهُ قُوَّةٌ وَطَاقَةٌ عَلَى تَحْمِلِهَا وَحِينَ تَتَوَقَّفُ مَعَ كَلِمَاتِ الشَّاعِرِ تَلُكُ قَدْ لَا يَرْتَاحُ لَهَا ذَوْقُكَ ، وَلَا تَأْنَسُ بِهَا نَفْسُكَ ، وَلَا يَكُونُ لِإِيقَاعِهَا رَنِينَ النِّعَمِ الْعَذْبِ فِي سَمْعِكَ ، لَكِنْ حِينَ يَتَأَكَّدُ لَدَيْكَ أَنَّهَا تَرْجُمَةُ لِأَحْزَانِ نَفْسٍ ، وَتَعْبِيرٌ عَنِ نَبْضِ قَلْبٍ وَخَوَالِجِ فُؤَادٍ فَلَا بَدَّ أَنْ تَقْيِسَهَا بِمَقْيَاسِ زَمَانِهَا ، وَتَحَاكِمَهَا إِلَى بَيْتِهَا ، تَزْنِهَا بِمِيزَانِهَا ، وَتَجْرِي عَلَيْهَا أَحْكَامُهَا ، وَقَوَائِنُهَا وَتَنْظُرُ إِلَيْهَا مِنْ خِلَالِ هَذَا الْمَنْظَارِ الَّذِي لَا يَخْطِئُ ، وَسَاعَتَهَا سَتَدْرِكُ أَنَّهَا مِنْ نَضْجِ الْعَاطِفَةِ الصَّادِقَةِ الَّتِي تَتَنَّنُ مِنَ الْحُزَنِ ، وَتُضْجِحُ مِنْ مُوَاجَعِهِ وَمَآسِيهِ .

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

أعد قراءة كلمات البيت في ضوء تلك المعطيات وعندئذٍ ستري أنك أمام عالم من أنبل المشاعر ، وأرق الأحاسيس ، وأندى العواطف . بعد أن تنفذ إلى ضمير الشاعر الأحاسيس ، وأندى العواطف . بعد أن تنفذ إلى ضمير الشاعر ، وتتولج في دواخله وتتوغل في أعماقه ليمتدّ أفق خيالك ، ويمتلئ فراغ بالك فيصل شعوره بشعورك ، وتمتزج نفسه بنفسك ، ويتدفق دمه في دمك ، ولذا سوف تبصر بعينك ما يبصر ، وتشعر بما يشعر به ، ويخفق فؤادك بخفقان فؤاده . ولم يعد شيئاً غريباً عليك ، ولا بعيداً عنك فرأيت في هيئته الحزينة التي كان عليها وتبين لك الأسى في وجهه حين وقف غداة البين ووقت الفراق غدوة ليودّع الحبيب الراحل وقف بعيداً موزّع النفس ، ذاهل العقل ، مرهف الحسّ ، مُشتت الفكر .

ينظر إلى محبوبته من بعيد متخفياً حين آذنت مع أهلها بالرحيل يريد أن يملأ عينيه من جمال محاسنها الذي يشعُّ الفتنة ، ويبعث بالسحر ، ولعله كان يستشعر أنه فراق لن يكون من بعده لقاء أبداً .

إنه قد اختار لنفسه أن يكون لدى سميرات الحي بما فيها من ضخامة وبما تمتلئ به من أشواك حيث يتخفى ويستتر فلا يراه أحد ، ولا يحسّ به ، وهو يغلي ويرتجف ، ويفور ، وعيناه الحزینتان تفيضان بالدمع في كمد ووجع وحزن .

لقد غلبه تيار الهوى الجارف فلم يستطع صدّه ولا منعه ؛ لذا وقف ينظر من بعيد إلى هذا الجمال الذي يرسل السحر والذي شغفه وشغله ، والذي لن يراه من بعد اليوم أبداً .

تري لماذا أثر الشاعر أن يتخفى لدى أشجار السمر الضخمة العملاقة بما تحمله من حسك وشوك وضنى وعذاب ؟

هل أبصر الشاعر أن المستقبل الغامض المجهول لن يحمل إليه رسالة الزهور ، وأن حياته قد سفى عليها الكدر ، وامتألت بالضباب والغيوم وأنها لن

الصورة البيانية ————— دراستي مسائل عليّ البيان ————— ❁

تجد النور ، والدفء ، والجمال ، والحب والعطر ، ولن تكون إلاّ كشجر السَّمر بما يحمل من أشواكه التي تؤذي ، وحسكه الذي يوجع ويؤلم؟

هل أحسّ أنّه سيبقى محروما من لذّة العيش ، ومن نعيم الدنيا ، وأنّه سيعيش في أجادب الأرض ، في صحارى الحياة التي صوّحتّها الهواجر ، ولفحتها ريح السموم ، ولن يجد إلاّ الوحشة والحرور والرَّعب والخطر ؟ لذا عبر عن حياته ونقلها إلى من يتلقاها عنه وبيّن أن ما ينتظره إنّما هي أشواك تزحم الأفق ، وتسد مطالع الضوء .

ثم ألا ترى أن الشاعر بيّن أنين الخيبة ، والحزن ، والانكسار واليأس ، والحسرة ، والضيق وهو يبكي حاضره المعذب ، ووجوده المؤرّق ، وعمره المتعب حين يعرض عليك هذا كله على نحو ما رأيت ؟

ثم ألا ترى براعة الصورة وكيف تزداد وضوحا ، ويتعمّق وجودها في حسك حين توازن بين ذلك المتخفيّ بشجر السَّمر ، وبين ناقد الحنظل ، وما يقاسيه من مرارته النافذة الخائفة التي تملأ فمه ، وتنفذ إلى داخله ، وتتسرب إلى أعماقه فيضيق لها صدره ، ويجف معها ريقه ، وتفيض بالدمع بسببها عيناه ، ويكتوي جوفه ويكاد أن يختنق ، وأن يموت ؟

إنّك حين تسترجع وظيفة ناقد الحنظل المشبه به وتوثق ما استقر لديك معرفته بأن مهمته أن تنفذ إلى جوفه ، وأن يستخرج ثمره بكل ما فيه من مرارة تتخطّى أيّ وصف ، وتتفوّق عليه ، وتتجاوز أيّ قدرة على تحمّله ، والصبر عليه . تعرف في وثاقة وتأكيد إلى أي مدّى يكون المشبه به موفقاً في تبين وشرح وتوضيح صورة المشبه وذلك بخوضه في أعماق لجة تلك النفس الحزينة ، وفي كشفه لمعاناتها ، ومستورها ومخبئها ، ولما بها من خلجات ، وخطرات ، وأزمات في استقامة وإنصاف ، واعتدال .

إن مأساة الشاعر على النحو الذي أفصحت عنها الصورة التشبيهية مأساة تهول الحس ، وتبعث على الشفقة ، ولذا فهي تثير فيك عاطفة الرحمة لتلك

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

النفس المعذبة التي أحرقتها اليأس وأرمضها الحزن ، وبعث فيها كوامن الشجى ،
والحرقة ، والألم .

ولا يلبث المتذوقون للشعر إلا أن يصنعوا كصنيعك فتتحرك في قلوبهم
عاطفة الرحمة ، ويتأثروا بتأثر الشاعر ، ويحاولوا أن يأخذوا بيده ، وأن
يرتفعوا به فوق جراحه ، وآلام صدره حينما يرونه وهو واقف على أطلال
الديار التي شهدت أجمل أيام حياته ، والتي ضمت ذات يوم محبوبته التي كانت
تشرق فيها إشراق الأمل تسري الرعدة في جسده المتداعي المتهالك ، وتنهمر
الدموع من مآقيه في غزارة لا تنقطع فيدعونه إلى التماسك ، والتجلد وعدم
الهلاك ، وينصحونه بالصبر ، يتقوى به في محنته ، ويستعين به على التعالي
والتفوق على همومه وأحزانه .

وُقُوفاً بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيَّهِمْ يَقُولُونَ لَا تَهْلِكْ أَسَى وَتَجَمَّلْ

وقوفاً : جمع واقف حال من فاعل قفا أو مفعول مطلق .

والصَّحْبُ : جمع صاحب ، وعليَّ : أي من أجلي .

والمطِيَّ : الإبل وعليها الركب والواحدة مطية وانتصب بقوله : «وقوفاً» يقال :
وقفت الدابة أي حبستها .

يقول : إن أصحابه وقفوا مطاياهم بالطلل يأمرونه بالصبر وينهونه عن
الجزع .

وانظر إلى نُصَيْب وهو يَحْكِي قصته مع لَيْلَى ويريك كيف اشتدَّ خفقان
قلبه ، واضطرب حين جاءه نبأ رحيلها صباحاً أو ليلاً وشرح حاله من خلال
قصة قطاة وفرخيها في تعبير مؤثر ، وشدو حزين يقول نُصَيْب^(١) .

(١) شرح ديوان الحماسة لأحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي ، تحقيق أحمد أمين ،
عبد السلام هارون ، ١٣١٣/٣ ، دار الجيل - بيروت .

الصورة البيانية ————— دراستي في مسأله البيان ————— ❁

كَأَنَّ الْقَلْبَ لَيْلَةً قِيلَ يُغْدَى بَلِيلَى الْعَامِرِيَّةِ أَوْ يُرَاحُ
قَطَاةٌ عَزَّهَا شَرْكَ فَبَاتَتْ تُجَادِبُهُ وَقَدْ عَلِقَ الْجَنَاحُ
لَهَا فَرَحَانٍ قَدْ تُرِكَ بِوَكْرٍ فَعُشَّاهُمَا تَصَفَّقَهُ الرِّيحُ
إِذَا سَمِعَا هُبُوبَ الرِّيحِ نَصَا وَقَدْ أَوْدَى بِهِ الْقَدَرُ الْمَتَاحُ
فَلَا بِاللَّيْلِ نَالَتْ مَا تُرَجَّى وَلَا فِي الصُّبْحِ كَانَ لَهَا بَرَا حُ

عندما ننظر في تلك الأبيات التي يحكي فيها الشاعر حاله مع ليلى في صورة خيالية أثرت المعنى ، وشحنته ، وعبأته مع ما له من دلالة نفسية ، وإيحاء عجيب ؛ إذ أنَّ الأبيات ترسم صورة لقلب الشاعر عندما أحسَّ بقرب رحيل الأهل بليلى ، ومغادرتها معهم المكان الذي كانت تملؤه عطراً وطيباً في الصباح أو في العشيّ وفي التعبير بقوله : «يُغْدَى بها أو يُرَاح» تصوير واضح يشي بقلّة حيلتها وضعفها واستسلامها لكل ما يطلبه الأهل منها فليست تملك من أمر نفسها شيئاً ، ولا حول لها في هذا ولا قوة ، ولعلّها لو كان لها أن تختار لرفضت الرحيل ، ولما قبلت به وبقيت حيث تكون ، لا تغادر المكان . ولكن ماذا تصنع ، وليس لها من الأمر شيء ؟ هي إذن ترحل مع الأهل استجابة لإرادتهم وعلى غير رغبة منها . ولأنّ الدم الذي يتدفق في عروقها هو نفس الدم الذي يسري في شرايين نصيب ، والنبض الذي يجيش في قلبها هو نفس النبض الجيَّاش في قلبه كل هذا قد وصل الرُّوح بالروح ، والقلب بالقلب فامتزجت النفس بالنفس ، ونقل الشعور عن الشعور ، فما بها من ضعف واستسلام قد عرّف الطريق إليه فصار قلبه في الخفقان والاضطراب كقطاة وقعت في شرك يحبسها ويُمسكها ، فأصبحت ضعيفة مقهورة لا تملك من أمرها شيئاً بعد أن علّق جناحها بحبال الصياد ، وعزّها الشرك التي ظلت تجاذبه محاولة التخلص منه ممّا هي فيه ، والإفلات من قبضته ولكن محاولتها أفلست ، وباءت بالفشل ، ولم يكتب لها النجاح ، وفي قوله : «تجاذبه» مفاعلة

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

والمفاعلة تكون في الأكثر بين اثنين لتأكيد ضعفها ، وعجزها ؛ لأنَّ مَنْعَ الشَّرْكَ للقطاة من التخلص جذب منه لها .

ومما ضاعف من حجم المأساة ، وكبر من مساحة الكارثة ، وزاد من شدة الهول ، وفداحة الألم والوجع أن لتلك القطاة فرخين زغبين صغيرين ضعيفين تقوم على رعايتهما ، وتسهر على حياتهما ، بما تقدّمه لهما من غذاء ، وحب ، وعطف ، ورعاية وقد خلّفتهما وتركتهما وراء ظهرها في عشاها الهزيل المتداعي والمتهالك ، تتلعب بمشاعرهما فيه الرياح ، وتعبث بعاطفتهما من خلال إيوالها ، ونواحها ، وتصفّقها ، وهما ينتظران في لهفة وشوق عودة الأم ، ويتوخيّان رجوعها كي يرويان مشاعرهما الظائمة من عطفها ، وحبها ، وحنانها ، ويملّان جوفهما من الغداء ليتغذيا ويشبعا إنهما يتلهفان على عودة منبع الحياة لهما وكُلّما تهادتْ إلى مسامعها أصوات الرياح أشرفت نفساهما بالأمل ، وتدفق فيها نمير الحياة فمدّا عنقيهما بما فيهما من وهي وضعف خارج العش ظائنين أن صوت الرياح هو صوت جناح الأم الغائبة ، وظلاً على هذا النحو حتى أتت الرياح على عشمها ، الذي صوّحت به يد القدر العاتية ، وأخذتهما إلى مكان سحيق بحيث لا يعرف أحد عنهما شيئاً وانتهت مأساة الصغيرين إلى تلك النهاية ، أمّا الأم «القطاة» التي علق جناحها في الشوك ، وباتت تتجاذبه وتغالبه فقد انطفأت إشراقة الأمل في صدرها إذ لم تبلغ ما كانت تؤمّله وترجوه لا بالليل ، ولا بالنهار ، وبقيت الحسرة تأكل قلبها وترمض أحشاءها .

إن الشاعر يصور حال قلبه في خفقانه ، واضطرابه وثكله حين قيل يغدي بليلي العامرية أو يراح بحال تلك القطاة الواهنة الضعيفة التي وقعت في حبال الصياد وشركه بمالها من قصة غريبة مثيرة تُسِيلُ أمواه الشئون ، وتنتزع آهات القلوب وأنت تلاحظ أن الشاعر قد أفاض في حديثه عن المشبه به «القطاة» بقصتها المؤثرة المؤلمة ، وحكايتها الغريبة وقد وقعت في شرك صائد لا تخطئ نباله وهي تسعى وتحاول للتخلص مما هي فيه لتتقذ فرخيها

الصورة البيانية ————— دراستي في مسأله البيان ————— ❁

الصغيرين ولكنها تعجز فلا تقدر ولا تستطيع وهكذا ترى الشاعر كيف تتلون ، وتشكل . وذلك حين تتجسد وتتجسم في صورة حسية تشاهدها العين ، وتبصرها فيها إحياء وخلاصة على نحو متقن ، ومجود بحيث تروع وتدهش .

يقول الدكتور عز الدين إسماعيل بعد أن ذكر هذه الأبيات :

« ففي هذه الصورة يقول الشاعر إنه عندما أحس بالليله التي همت فيها محبوبته ليلى بالفراق في صبيحتها أو وقت الرواح من عشيتها أخذ قلبه يخفق كقطاة وقعت في شرك ففضت ليلتها تحاول الخلاص منه ، ولكن جناحها للأسف كان قد تعلق بالشرك بحيث لا خلاص له وكانت هذه القطاة قد تركت فرخين لها في الوكر ، فإذا سمعا صوت الريح في عشهما ظنا أنه صوت جناح أمهما فرععا عنقيهما ، لكن القدر كان قد كتب الهلاك لذلك العش ، وباءت القطاة بخسران في سعيها ولم يكن لها خلاص من شركها»^(١).

هذا والأستاذ الدكتور محمد غنيمي هلال وهو يتعرض للحديث عن المدرسة النفسية في الأدب يبين أنه إنما يقصد إلى المدرسة الإيحائية التي أفادت من اللاشعور ذلك أن المهم في الأدب بيان قدرة الشاعر على تحويل الصور الذاتية الفردية من عالم اللاشعور المكبوت إلى صور إنسانية عامة في عالم الشعور مع دلالة ذلك على صدق الشاعر في تصويره ثم بيان استجابة جمهور الشاعر له فيما إذا دل على رغبات جماعية مكبوتة لأمتة أو للإنسان .

فالكبت العاطفي قد يقع المرء منه فيما يشبه الحصار ، ويتبعه أن الذات تدافع عن نفسها للخروج من هذا الحصار فتبذل جهدا وهذا الجهد يضعف الذات لكن الكبت في منطقة - اللاشعور - قد يبحث عما يعوض الذات ، بأعمال تؤكد بها هذه الذات نفسها ، وتنفس عن نفسها بهذا التعويض والفنان والشاعر يستطيع كلاهما أن يحول هذه الطاقة المكبوتة إلى عمل فني أو أدبي يتسامى

(١) التفسير النفسي للأدب ص ٩١ ، دار المعارف ١٩٦٣ م .

❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

عن مجرد الكبت العاطفي فيتحقق التطهير الذاتي في عمل فني اجتماعي بطبيعته وإذا كنا قد تعرضنا بالتحليل لصور تسير في هذا الاتجاه على نحوٍ من الأنحاء فإننا نشير إلى ما شرحه الأستاذ الدكتور محمد غنيمي لتتوج به الحديث في الموضوع فهو يقول بعد ذكر ما سبق فإذا طبقنا ذلك على تجربة قيس ابن الملوح على حسب ما ورد إلينا من شعره نجده قد حاول الاستعاضة عن حرمانه من ليلى وذلك بوصف جمال الطبيعة وبخاصة جمال الظباء في شعره وقد أدرك ذلك بفطرته حين قال :

وَمَا أَشْرَفُ الْأَيْفَاعَ إِلَّا صَبَابَةٌ وَلَا أَنْشِدُ الْأَشْعَارَ إِلَّا تَدَاوِيَا^(١)

ولأجل هذا التداوي والتنفيس كان قيس مولعاً بالتأمل في جمال الظباء ، ويوصف هذا التأمل في شعره ، وَيَفُكُ الظِّبَاءَ مِنْ إِسَارِهَا حِينَ تَقَعُ فِي شَرَاكِ الصَّيْدِ ، وبحمائيتها من اعتداء الحيوان عليها . ولنأخذ نموذجاً لذلك من أشعار له كثيرة في هذا الموضوع .

أَيَا شَبَهَ لَيْلَى لَا تُرَاعِي فَإِنِّي	لَكَ الْيَوْمَ مِنْ وَخْشَةٍ لَصْدِيقُ
وَيَا شَبَهَ لَيْلَى لَوْ تَلَبَّثْتَ سَاعَةً	لَعَلَّ فَوَادِي مِنْ جَوَاهِ يَفِيقُ
تَفَرَّ وَقَدْ أَطْلَقْتَهَا مِنْ وَثَاقِهَا	فَأَنْتَ لِلَّيْلِ لَوْ عَلِمْتَ طَلِيقُ
فَعَيْنَاكِ عَيْنَاهَا ، وَجِيذُكِ جِيذُهَا	وَلَكِنْ عَظُمَ السَّاقُ مِنْكَ دَقِيقُ

فإذا انتقلنا في ضوء هذه الحقائق - إلى قول قيس نفسه .

أَبَى اللَّهُ أَنْ تَبْقَى لِحَيٍّ بِشَاشَةً	فَصَبْرًا عَلَى مَا شَاءَ اللَّهُ لِي صَبْرًا
رَأَيْتُ غَزَالًا يَرْتَعِي وَسْطَ رَوْضَةٍ	فَقُلْتُ أَرَى لَيْلَى تَرَاءَتْ لَنَا ظَهْرًا
فِيَا ظَنِّي كُلَّ رَغْدًا هَنِيئًا وَلَا تَخَفْ	فَإِنَّكَ لِي جَارٌ وَلَا تَرَهَّبِ الدَّهْرًا
وَعِنْدِي لَكُمْ حَصْنٌ حَصِينٌ وَصَارِمٌ	حُسَامٌ إِذَا أَعْمَلْتَهُ أَحْسَنَ الْهُبْرَا

(١) الأيفاع : جمع يفع والبفع كاليفاع : ما أشرف وعلا من الرمل وصبابة : رقة وشوقا.

الصورة البيانية ————— دراستي في مسأله البيان ————— ❁

فما راعني إلا وذئب قد انتحى^(١) فأغلق في أحشائه الباب والظفرا
ففوّقت سهمي في كتوم^(٢) غمزتها فخالط سهمي مهجة الذئب والتحرّرا
فأذهب غيظي قتله وشفى جوى بقلبي إن الحرّ قد يدرك الوثرأ

نرى أن قيساً نقل في هذا المشهد الصحراوي من شعره - صورة نفسية
لمأساته هو فليس الغزال سوى ليلى التي كان يحرص على أن تعيش معه
وبجانبه لا تذهب الدهر في كنفه ورعايته ، ينعم هو بوصالها غير المشوب في
عيش رغد هنيء ، وتعتز هي بفروسيته وشجاعته وليس هذا الذئب هو وحسن
الصحراء ولكنه - لا شعوريا - ورد غريمه الذي افترس أعزّ أمانيه وترك في
نفسه وثرأ لا يشفي ، يتطلع أبد الدهر إلى إدراكه .

ولهذا يجد قيس الراحة بقتل الحيوان وبرؤية سهمه يغوص في مهجته وقلبه
ففي النكال به شفاء جوى حبيس يتجاوز مجرد صيد ذئب الصحراء ثم يعود
قيس فيؤكد هذا الوتر الذي يقض مضجعه ، ويمني نفسه دائما بنيله ؛ لأنّه حر
كريم أصيب بما ينال من حرّيته وكرامته بفوز غريمه عليه ، وظفره بمن كرّس
هو حياته العاطفية من أجلها ، ففي هذا الشّعّر تمثيل لعواطف قيس الذاتية
وتسام بها ، وتصوير إنساني عام لها بين حيوان عام مفترس ، وآخر ضعيف
عاجز ثم في موقفه منهما ليعبر به عما عجز عن تحقيقه في دافع حياته ،
ولابد في هذا التّسامي النفسي من أن يكون الشاعر قد عانى التجربة التي تشف
عن مكنون نفسه»^(٣) .

ونظراً لأنّ الشاعر إنّما يشعر بما يشعر به غيره ، ويحسّ بما لا يحسّ به
سواه على حد ما يقول ابن رشيق فإنه لا ينشئ شعره بعيداً عن شعوره ،

(١) انتحى : اعترض .

(٢) الكتوم من القسيّ التي لا ترن إذا انبضت ورمى بها .

(٣) النقد الأدبي ، محمد غنيمي هلال ، ص ٤٠٣-٤٠٥ ، - نهضة مصر .

❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

ولا عن أحاسيسه فما يتردد في صدره ، وما يعتلج في فؤاده من همٍّ وحُزنٍ أو فرح وسرور وقبول ورضى أو رفض وامتناع يجيء شعره ليكون صدًى له ، وتعبيراً عنه ووظيفة هذا الشعر أن يثير في القارئ له الشعور بالوسائل الفنية في الصياغة التي تتمكن له النفس من خلال التصوير ، ولذا تكون مشغلة القارئ الوقوف أمام هذه الصياغة ومحاولة التعرف على ما بها من أسرار وذلك بأن يتدسس في أطوائها ، وأن يستشعر ما بها من محاسن ، ومن أين توفرت لها ؟ وذلك بدراسة ما في بُنيته التركيبية من دقائق كانت من وراء جمالها وبلاغتها .

إن قيساً هنا في نغمة هادئة حانية ، وفي نبرة وديعة مؤثرة ، وقد تفتحت نوافذ قلبه في نداوة وطلاوة وعدوبة يستمدّها من أغوار نفسه يتجه إلى شبه ليلى . ليلى التي أسرت فؤاده والتي تغلغل حبها في طوايا قلبه وتصبّاه وسبّاه يتجه إلى شبهها هذا الغزال ويستخدم في البيت الأول أداة النداء «أيا» التي ينادى بها القريب والبعيد ، فهي قريبة لأنها ماثلة في قلبه شاخصة أمام عينه تنشر أضواءها السحرية على كيانه ووجوده كله وهي بعيدة الشأن ، رفيعة المنزلّة ، عالية المكان لا يرتقي إلى مكانها ومكانتها أحد .

إنه نادى شبه ليلى بعد أن خلّع عليها الأنسنة واقتربت أنفاسه منها ، وذابت بينهما الحدود وأجرى حديثه معها وطلب منها عدم الفزع والروع والخوف وكيف تخاف وهو إلى جوارها يذود عنها ويمنعها ؟

فهو الصديق الذي لا تُنال بسوء وهي إلى جنبه وفي حماه ولاحظ أنه قوى كلامه حين استخدم الموثقات التي يؤكد بها هذه الصداقة ويثبتها من التعبير بقوله : «فإنني» وما تدل عليه «إن» هنا من التقوية والتقرير والتوكيد واللام الداخلة على خبر إن في قوله : «لصديق» فإنني لك أنت خاصة لصديق وتكرير النداء في أول البيت الثاني لما في هذا التكرار الرخيّ النَّدْيِ الرخيم لشبه ليلى من سحر ، وندى وعدوبة في قلبه وإيقاع يموج لذيذاً في سمعه على أن تكرر هذا النداء ، وجريانه على لسانه إنّما هو نابع من الوداد والوله

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَةٌ فِي مَسَائِدِ الْبَيَانِ ————— ❁

والصَّبْوَةُ والحب الذي يتدَقَّقُ في إفاضة وفي قوله : لو تلبثت ساعة تراه كيف
يتمنى من شبه ليلى وهو يتودَّدُ إليها أن تترىث وتتلبَّث فتبقى ولا تذهب لينعم
بالدفء إلى جوارها ، وبنعيم السعادة في النظر إليها حتى يقضي معها ساعة
شاعرية على نغمات الحب والأحلام والأمل ، ولذا يقول :

لَوْ تَلَبَّثْتَ سَاعَةً لَعَلَّ فُؤَادِي مِنْ جَوَاهُ يَفِيْقُ

يفيق ممَّا يضغط عليه ، ومما يشتد على حناياه اشتداد القيد على ضلوع
الأسير . وفي البيت الثالث .

تَفَرَّ وَقَدْ أَطْلَقْتَهَا مِنْ وَثَاقِهَا وَأَنْتِ لِلَّيْلِ لَوْ عَلِمْتَ طَلِيْق

فصل عما سبقه لما بينهما من اختلاف في الخبرية والإنشائية والتعبير بكلمة
« تفر » ليشير إلى ما كان يقوم به من فك الظباء من إسارها وإطلاقها حين تقع
في شرك الصائد مع قرننها ليلى في الانطلاق ولأنه إنما كان يرى ليلى في
الغزل لذا فهو أطلقها لليلى أي بسببها ومن أجلها ، أمَّا التشبيه في قوله :

فَعَيْنَاكِ عَيْنَاهَا ، وَجِيْدُكِ جِيْدُهَا وَلَكِنْ عَظَمَ السَّاقُ مِنْكَ دَقِيْق

يكاد يصل إلى درجة التوحد والتماثل فيه تجاوب بين الطرفين في حسن
الإيقاع والطرب للنغم .

أَمَّا فِي قَوْل :

أَبَى اللهُ أَنْ تَبْقَى لِحَيِّ بِشَاشَةً فَصَبْرًا عَلَى مَا شَاءَ اللهُ لِي صَبْرًا

فأنت تراه في قوله : أبى الله أن تبقى لحيِّ بشاشة .

فلعدم شعوره بالجمال بعد أن خبا الإحساس به في نفسه يرى أنه لم يعد
لحي في الوجود سعادة ، ولم تبق له بشاشة ويصْدِرُ هذا حكما عاما في توتر
وجزع وانفعال على كل حي ، ويأتي قوله بعد ذلك « فصبراً على ما شاء الله
لي صبراً » ليسلم الله بمشيئته العليا التي ليس إلى تعويقها من سبيل وليلجأ إليه

❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

ويضرع في شدته ليقوّيه بالصبر ويشبّته به أمّا «الفاء» في قوله : فصبراً فقد ربطت في سرعة بين الموقفين التضرع ، واللجوء إلى الله ، والتوتر والانفعال إذ أفادت أنّه لجأ إلى الله وتضرع إليه وطلب أن يعينه بالصبر بعد تمرده وتوتره وانفعاله .

ثم إنه يبصر ليلى ويطالع جمالها الفاتن فيما يرى من غزال حين رأى غزالاً يرتعي وسط روضة تأنّقت فيها يد الطبيعة ، وتروع بالسكون الملهم فقال أرى ليلى لمشابهة قوية بينهما وحين رأى الغزال حرص على أن يقبل عليه ، ويناديه ، ويناجيه حرص العاشق المتوجّد على مناجاة حبيبهِ ويقول له في حب ومؤانسة ومواعدة :

فيا ظبي كل رغدا هنيئا ولا تخف فإنك لي جارٌ ولا ترهب الدهرا
إنه يؤمّنه ، ويذهب عنه الخوف أبد الدهر وكيف له أن يخاف ويرتاع وهو له جار يحوطه برعايته ، ويحفظه بصارم سيفه في حصن حصين ، وسيف صقيل قاطع ونافذ ؟

وبينما الشاعر يسرّد ويحكي إذ يقع ما يروع وما يفزعه حين يباغت هذا الغزال الرقيق الوديع ذئبٌ ضار كان قد اعترض طريقه فأغمد أظفاره وأنيابه في أحشاء هذا الغزال ، وأجهز عليه حينئذ أطلق على الذئب سهماً كتوماً لا يحدث رنيناً ، ولا دويّاً ، ولا صوتاً فيغوص في مهجته وقلبه ، ويقضي عليه وبعدها يجد قيس الراحة بعد أن أذهب غيظ قلبه ، ففي النكال بقتل الذئب شفاء جوي حبيس يتجاوز ويتخطى مجرد صيد ذئب الصحراء ومن الواضح أن الغزال هنا - ليس سوى ليلى - وأن الذئب ليس هو ، وحش الصحراء وإنّما هو «ورد» غريم قيس الذي افترس أغلى أحلامه ، وأعز أمانيه .

التشبيه الضمني

ويسمى هذا التشبيه ضمناً ومكنياً عنه وإنمّا سمي ضمناً لأنّه يفهم من الكلام ضمناً وسمي مكنياً عنه ؛ لأنّه خفي ومستتر ^(١).

فهو تشبيه ليس كالتشبيه الاصطلاحي بمعنى أن العبارة لا تدل عليه دلالة واضحة وصريحة وإنمّا يفهم التشبيه من مضمون الكلام ومن سياق عبارته فهو تشبيه لا ترى ركني التشبيه المشبه والمشبه به ظاهرين في الكلام واضحين ، بل يلمحان لمحا ، ويفهمان من معنى الكلام ، ويكون المشبه به كأنّه الحجة والبرهان على إمكان وقوع المشبه غالباً ، فصورة المشبه به في هذا التشبيه لا تأتي مباشرة من خلال الصياغة اللغوية والفنية للتشبيه الذي ينهض قائماً على أساسها وإنمّا تلمح في الكلام لمحا ، وتستنتج منه استنتاجاً؛ لأنّ الكلام لا يصح أن يقوم إلّا على هذا الأساس المشبه والمشبه به ظاهرين واضحين للرؤية وإنمّا يلمحان في جوانب البناء اللغوي وعرض الكلام مثل وجه أضواء من البدر ، ونور الصباح مسروق من نور وجهها ، ووجه أنور أم البدر ومما هو واضح قول المتنبي :

ومن الخير بقاء سنيك عني أسرع السحب في المسير الجهام

إن الشاعر يريد أن يفضي إلى ممدوحه برغبته في نيل عطائه فلا يصرح له بذلك تصريحاً ، وإنمّا يلمح له تلميحاً فاستثمر طاقة اللغة ومرونتها وقدرتها على الإبداع ، وشكل منها صورته التي جعل المعنى الصريح فيها يتوارى وراء الأسلوب غير المباشر والذي يلمح فيه بما لم يصرح به فطار إلى السحب ، وأسرع نحوها لينتزع منها هذا التمثيل الرائع ، وأراك من خلال القياس

(١) حاشية الدسوقي ضمن شروح التلخيص ، ٣٩٧/٣ .

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

والموازنة بين السَّحْبِ التي تحمل المطر وبين التي تحول دون هطولها بطء الأولى مع ما فيها من خير ، وسرعة السحب الثانية مع قلة هذا الخير وندرته ودلّل بهذا على حمده لبطء عطاء الممدوح وتريثه ؛ لأنّ في تأخيرها كثرته وتدفعه إن المعنى المباشر في هذا التشبيه قد أشار إلى المعنى الخفي وأوحى به وألمح إليه .

ومما هو جدير في هذا قول أبي تمام :

لا تنكري عَطلَ الكريم من الغنى فالسَّيْلُ حربٌ للمكانِ العَالي

فالشاعر هنا يوجه خطابه إلى صاحبتة التي تنكر عليه خلوّ يده من المال فينبّهها إلى الحقيقة التي يجب أن تظل ماثلة وشاحصة في عقلها وألا تغيب أبداً ولا لحظة واحدة عن ضميرها ووعيتها ؛ لذا فهو يضعها أمام مشهد مثير وغريب حين يتحدث إليها ويبيّن أنّها أمام علَمٍ بارز ، ورأس شامخ ، وقمة لا تسامي في علوها وارتفاعها . إنها أمام ماجد كريم خلت يده حقيقة من المال وعطّلت منه ، فهو من هذا صفر اليدين فلا في اليد ولا في الجيب ؛ لأنّه عزيز النفس أبيّ الهمة ، طاهر اليد ، نظيف الضمير والوجدان يرفض في عزة وإباء أن تتناصر على مشاعره أبالسة الظلم والظلام ، فينأى بنفسه عن فتنة المال فلا يسرق ليأكل ، ولا يقتل ليعيش ، ولا يستعبد ليسود ، ولا يستبد ليحكم ، ولا يبيع دينه وضميره ليمتلك عمائر تناطح السحاب ، فهو صديق وصاحب لطرائد البؤس من ذوي الفاقة والحرمان ، ومن ثمّ يضعه أمامها في مقابلة وموازاة القمة السامقة والمكان المرتفع العالي الذي يتميّز ويتفوق على الهضاب والسهول ولئن كان المكان العالي لا يمسك ماء السيل حين يهطل عليه ، ولا يحتفظ بشيء منه فذلك لطبيعة أمره ، ولسنة الله الكونية التي يجريها وفق تقديره وإرادته فتجرها تلك المقارنة إلى أن تفهم حال هذا الرجل الكريم الذي خلت يده من المال وما هو عليه من رفعة شأن ، وعلو منزلة ، وسمو

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي تَالِبٍ

همة ، وعلو مكان فتقربه بالقمة العالية التي تستقبل مياه السيول والأمطار فلا تمسكها ولا تحتفظ بها ، وإنَّما ترسلها إلى الوديان والسهول فتروي العطاش الظمأى ، وتخصب الأرض الهامدة فتَهْتَز وتربو وتنبث الزروع والثمار فتعليل الشاعر لَهْبُهَا عن إنكارها عطل الرجل من الغنى ينبغي منه تشبيهه ضمني يقوم من خلال تشبيه الرجل الكريم بالأماكن العالية التي لا تُمَسِّك ماء ولا تحتفظ بشيء منه في وجه شبه خلو كل مِمَّا فيه نفع ينتفع به . على أنَّا يجب أن نعلم على حد ما يقول الإمام عبد القاهر تعقيباً على البيت بعد أن ذكره « فهذا قد خيَّل إلى السامع أن الكريم إذا كان موصوفاً بالعلو ، والرفعة في قدره ، وكان الغنى كالغيث في حاجة الخلق إليه ، وعظم نفعه ، وجب بالقياس أن يَزِلَّ عن الكريم زَلِيل السيل عن الطُّود العظيم . ومعلوم أنَّه قياس تخييل وإيهام ، لا تحصيل وإحكام ، فالعلة أن السيل لا يستقر على الأمكنة العالية ، أن الماء سيَّال لا يثبت إلَّا إذا حصل له جوانبٌ تدفعه عن الانصباب وتمنعه عن الانسياب ، وليس في الكريم والمال شيء من هذه الخلال »^(١).

وما ذهب إليه النقد الحديث من عدم احتفاله بمثل هذه الصورة ؛ لأنها برهانية عقلية وأنها ضارة بصدق التجربة فنياً وعقلياً ، لأنَّ الاحتجاج بتصريح لا إيهام فيه ، والتصريح يقضي على الإيهام الذي هو من خصائص التعبير الفني تراه يعود ليقول : « على أن صور الاحتجاج الصادقة قد تملح إذا شَفَتْ عن الجانب الفكري النفسي العميق فدلَّت على شعور ومسلِك فلسفي تجاه الحياة »^(٢).

ومن الإجحاف أن نحكم على قول أبي تمام بذلك ؛ لأنَّ ما فيه من تخييل يتلاءم وطبيعة الشعر ، وإذا كانت حقيقة الشعر لا تتوافق مع الجدل العقلي

(١) أسرار البلاغة ، تحقيق محمود محمد شاكر ، ص ٢٦٧ .

(٢) النقد الأدبي الحديث دكتور محمد غنيمي هلال ص ٤١٨ ، ٤١٩ ، نهضة مصر .

❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

ولا القياس المنطقي ، فإن الصورة التي معنا ليست من هذا القبيل
ولا يمكن تجاهل أثر الشعور فيها مع ما لها من عمق فكري ونفسي .

ومن التشبيه الضمني ما تراه في قول أبي فراس :

سِذْكَرْنِي قَوْمِي إِذَا جَدَّ جِدُّهُمْ فِي اللَّيْلَةِ الظُّلْمَاءِ يُفْتَقَدُ الْبَدْرُ

يُفْتَقَدُ : يُتَفَقَّدُ ويجري البحث عنه من قومه وذلك حين يضطرب البحر
ويحار المركب ، ويستحر النضال ، ويروع الخطب ، وتوهن العزائم ويحقد
الخطر بقومه ، وتتجاوب أصداء الأسى بينهم من الفرق والرعب يبحثون عن
البطل المنقذ وهم يخوضون غمرات الهول والموت ، والشاعر يرمي إلى حاله
مع قومه ، وبني عشيرته إذ يتجاهلون ، ولا يعيرونه بالاً ولا يضعونه في
حسابهم وتقديرهم ما دامت أحوالهم تجري على طبيعتها ، وتسير سيرها
العادي بلا إرهاب ولا تخويف فإذا أُلِيلَ الليل ، وحَلَّتْ مواكب الظلام وجدَّ
الجد ، ونزل بهم من المكروه ما لا يستطيعون أن يدفعوه من أنفسهم ومن غير
أن يكون وسطهم تفقدوه ، وفتشوا عليه ، وبحثوا عنه ، وطلبوا غوثه ، ومعونته
والتشبيه ضمني مأخوذ من مضمون الكلام ، والمشبه حال الشاعر مع قومه
لا يسألون عنه ما داموا في مأمن ويبحثون عنه إذا حل بهم الخطر والمشبه به
حال البدر لا يبحث عنه أحدٌ ما دامت السماء صافية الأديم لا غيم ولا حائل
فإذا أظلم الليل ، واشتد اعتكار جوانبه تفقدوه ليكون لهم هاديا يأخذ بأيديهم
إلى مقاصدهم وما يشتهون وكل من المشبه والمشبه به هيئة ووجه الشبه هو
الهيئة الحاصلة من أن كلا منهما الشاعر والبدر يبقى غير مُلْتَفَتٍ إليه ،
ولا مبحوثٍ عنه ما دامت الحاجة لا تدعو إليه ، فإذا جاءت الحاجة بحث عنه
وطلب .

ومن هذا النوع من التشبيه ما تراه في قول البحتري يمدح محمد بن عليّ

القمي :

فَأَنْفَقَ فِي الْعِلْيَاءِ حَتَّى حَسَبْتَهُ مِنَ الدَّهْرِ يُعْطِي أَوْ مِنَ الدَّهْرِ يَنْفَقُ

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي تَالِبٍ ————— ❁

ضحكٌ إلى الأبطال وهو يروعهُم ولل سيف حدٌ حين يسطو ورونقُ

فإذا أنت تجاوزت البيت الأول الذي شاهدت الممدوح من خلاله وهو ينفق في المعالي وفي المكارم بغير عدٍّ ولا حساب حتى يخيل لمن يراه أنه في هذا الإنفاق لغزارته ووفرته كأن الدهر هو الذي يمدّه بما ينفق منه ، ويعطيه. فعطاه يتخطى كل حد ، ويتجاوز كل تقدير وحساب .

وفي البيت الثاني تشبيهه ضماني ترى الممدوح وهو ينزل الأبطال الشجعان بما يملك من جسارة وقوة فيروع خصومه ويخيفهم ويفزعهم ، ويبعث الهلع والرعب في أفئدتهم بسيفه القاطع البتار مع أنه يضحك لهم استهزاء بهم وسخرية منهم والتشبيه ينهض قائما من خلال تشبيه حال الممدوح في جسارته وبسالته وهو يروع الشجعان والأبطال حين ينزلهم ويبعث الهلع والرعب في أفئدتهم وهو يضحك لهم والمشبه به حال السيف في مضائه وبتره وهو ينزل على هام الفرسان فيسقطها ويفصل كل رأس عن جسدها مع أنه يبرق ويلمع ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من اجتماع صفة تبعث على الفرح والسرور في طبي أخرى تبعث على الرعب والخوف .

وللبحتري في مدح الفتح بن خاقان قوله :

غرائب أخلاق هي الروض جادهُ مُلثَ العَزَالِي ذورَبَاب وهيدب^(١)
فكم عَجَبَتْ من ناظرٍ متأمِّلٍ ! وكم حَيَّرَتْ من سامعٍ متعجِّبٍ
وقد زادها إفراطٌ حسَّ جوارِها لأخلاقٍ أصفارٍ من الجَدِّ خَيْبٍ
وحُسْنُ دراريِّ الكوكب أن تُرى طوالع في داج من الليل عَنَهَبٍ

(١) الملت : المطر الذي يدوم أياما ، العَزَالِي : جمع العزلاء وهي مصب الماء من القرية ونحوها ويقال : أنزلت السماء عزاليها إشارة إلى شدة المطر والرباب : السحاب الأبيض والهيدب من السحاب هو المتدلي الذي يدنو من الأرض وتراه كأنه خيوط عند انصباب المطر .

❁ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

يتحدث عن أخلاق ممدوحه فيبين أَنَّهَا مصدر سعادة وبهجة ، فهو روض جاده ملث العزالي مطر دائم فأزهر نواضر الريحان وأثمر نوافح الورد فأنت معه لا تتشمم غير الزهر ، ولا تتذوق سوى الرحيق ثم يوجه حديثه إليه في انبهار به وإعجاب ليقول إن كثيرا من الناظرين ينظرون إليك في سرور وبهجة متأملين ومتعجبين لما أودع فيك من كل حسن جميل ينشر الأنس ويبسط المشاعر وإن كثيراً يسمعون لك فيرون فيك موضع الأمل ، وموطن الرجاء وأنت تستولي على قلوبهم ، وتسيطر على مشاعرهم في إمتاع وإقناع فينهرُوا ويذهُلُوا متحيرين ، وفي البيتَيْن الآتين :

وقد زادها إفراطاً حسَّ جوارُها لأخلاق أصفارٍ من الجُدد خيِّب^(١)
وحُسْنُ دراريِّ الكوكب أن تُرى طوَالِ في داج من الليل غنَّهَب^(٢)

ففي هذين البيتَيْن يشبه أخلاق ممدوحه الحسنه تزداد حسنا وجمالا بمجاورتها لأخلاق قوم لئام والمشبّه به دراريّ الكواكب تتألق جمالا ، وتزداد حسنا بمجاورتها لغيب الليل الداجي المظلم ، ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من الشيء الحسن الجميل يزداد حسنا وجمالا حين يجاور ما يضاده وما يناقضه .

ونذهب إلى الإمام عبد القاهر وهو يعقد موازنة بين المعنى في لغته العادية من خلال التعبير الحقيقي وبينه حين يأتي مصورا في تشبيه ضمني وذكر في ذلك بيتا للمتنبي وهذا البيت ذكره الإمام في أسرار البلاغة ، وقد سبق بيت آخر والبيتان هما ^(٣).

(١) خيِّب : جمع خائب محروم أو خاسر . خلائق أصفار الأصفار الخالون .

(٢) الكوكب الدري : المتلألئ المشرف نسبة إلى الدرة وهي اللؤلؤة العظيمة - والداجي : المظلم . والغيب : الظلمة .

(٣) الديوان ، شرح العكبري ، ٢٢٨/٣ .



الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ الْبَيَانِ ————— ❁

أَرَى الْمُتَشَاعِرِينَ غَرُّوا بِذِمِّي وَمَنْ ذَا يَحْمَدُ الدَّاءَ الْعُضَالَا
وَمَنْ يَكُ ذَا فَمٍ مُرِّ مَرِيضٍ يَجِدُ مُرّاً بِهِ الْمَاءَ الزُّلَالَا

والمتشاعرون : المتشبهون بالشعراء وليسوا منهم . والداء العضال : الذي لا دواء له . والزلال : الذي يزل في الحلق لعذوبته مثل السلسال . يقول مثلهم كمثل المريض الذي يجد الماء الزلال مرا من مرارة فمه والمتنبي يشبه الذين يعيبون شعره لفساد ذوقهم ، واختلال ملكة التمييز عندهم فلا يميزون بين الجيد والردىء فيحسبون الردىء جيداً والحسن قبيحاً لعيب فيهم هم وليس لعيب في الشعر بحال مريض اختلت حاسة ذوقه وإدراكه فصار يحسُّ العذب الزلال مرا وليس به مرارة ووجه الشبه أن كلا منهما يرى الشيء على خلاف حقيقته لفساد إدراكه وذوقه .

والإمام عبد القاهر حين يأتي بقول المتنبي هذا وغيره وهو يتحدث عن تأثير التمثيل وما يحدثه في المعنى المصور حين يأتي في هذا اللون من البيان ويفضله عن نفس المعنى لو جاء غير مصور وفي لغة عادية ولذا قال بعد أن ذكر البيت .

وَمَنْ يَكُ ذَا فَمٍ مُرِّ مَرِيضٍ يَجِدُ مُرّاً بِهِ الْمَاءَ الزُّلَالَا

« لو كان سلك بالمعنى الظاهر من العبارة كقولك : إن الجاهل الفاسد الطبع يتصور المعنى بغير صورته ، ويخيّل إليه في الصواب أنه خطأ . هل كنت تجد هذه الروعة ، وهل كان يبلغ من وقم الجاهل ووقده^(١) .

وقمعه وردعه والتهجين له والكشف عن نقصه ما بلغ التمثيل في البيت ، وينتهي إلى حيث انتهى ؟ »^(٢) .

(١) الوقم : فيه معنى الرد والإذلال والقهر والوقد . وفيه معنى الضرب المفضي إلى الضعف والاسترخاء .

(٢) أسرار البلاغة ، تحقيق العلامة محمود محمد شاكر ، ص ١١٩ .

❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

ومن التشبيه الضمني لون تحدث المشابهة فيه بين شيئين أو أكثر وتكون ما النافية في بدايته داخلة على المشبه به ثم يتبع بأوصاف قد تطول أو تقصر وينتهي بحرف الباء الداخلة على اسم التفضيل على وزن «أفعل» .
ومن ذلك قول النابغة ^(١) .

فَمَا الْفِرَاتُ إِذَا هَبَّ الرِّيحُ لَهُ تَرْمِي غَوَاضِيَهُ الْعُبْرِينَ بِالزَّبَدِ
يَمْدُهُ كُلُّ وَادٍ مُتَرَعٍ لَجِبٍ فِيهِ رِكَامٌ مِنَ الْيَنْبُوتِ وَالْخَضَدِ
يَظُلُّ مِنْ خَوْفِهِ الْمَلَأُ مُعْتَصِمًا بِالْخِيزَرَانَةِ بَعْدَ الْأَيْنِ وَالنَّجَدِ
يَوْمًا بِأَجُودَ مِنْهُ سَيْبَ نَافِلَةٍ وَلَا يَحُولُ عَطَاءُ الْيَوْمِ دُونَ غَدٍ

معاني المفردات :

وقوله : «فما الفرات» ليس هذا النهر في أكمل أحواله بأجود منك والغوارب : الأمواج وغارب كل جسم ما ارتفع منه وعلا : وعبرا الوادي جانباه . والزبد : ما يطرحه الوادي إذا جاش مأؤه ، واضطربت أمواجه وقوله : «يمدّه كل وادٍ» أي يزيد فيه ويقوّيه ، والمترع المملوء . واللجب : المصوّت لشدة جريه وقوة سيله . والركام : ما تراكم بعضه على بعض أي تراكم والينبوت والخضد : نباتان وقيل الينبوت شجر الخروب . والخضد : كل ما تكسر من الشجر وغيره وقوله : «يظل من خوفه» أي من خوف الفرات لاضطراب أمواجه وشدة هوله . والمعتصم : المتمسك . والخيزرانة هاهنا : سكان السفينة وقيل هي المردى وهو من أعواد المركب وكل خشبة ناعمة ليّنة فهي خيزرانة . والأين : الفترة والإعياء والنجد : العرق والكرب وقد نجد ينجد نجداً .

قوله : «يوما بأجود منه» متصل بقوله : «فما الفرات» .

(١) ديوان النابغة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ص ٢٦ ، ٢٧ .

الصورة البيانية ————— دراستي في مسأله البيان ————— ❁

والسبب : العطاء . والنافلة ليبالغ في الفضل ؛ لأنه إذا أكثر من غير الواجب فهو أجدر أن يكثر من الواجب وقوله : « دون غد » أي إذا أعطاك اليوم لم يمنعه ذلك من إعطائك غدا عطية أخرى والتقدير : لا يحول عطاؤه في اليوم دون عطاؤه في الغد .

إن النابغة يمدح النعمان بأنه جواد كريم ، وأن عطاءه فاق كل حد ، وتخطى كل وصف بما فيه عطاء هذا النهر العظيم الذي يقذف بالزبد وذلك بسبب جيشان مياهه ، وتزاور أمواجه في غزارة وكثرة وفيضان على أنه يتزاحم بالحطام المتراكب والمتكسر ، والشجر العالي والمتكاثف الذي تتعاقب فروعه ، وتلتف أغصانه ويظل صاحب السفينة من الإعياء الذي يحلّ به والعرق الذي يتصبب من كل ذرة فيه معتصما بذنب السفينة وبمؤخرتها لتلاطم أمواجه ، ولتدافع مياهه وفي النهاية إن هذا النهر العظيم بصورته تلك ، يتقاصر فيضُهُ ، ويتخاذل عطاؤه إلى جوار عطاء النعمان من سبب نافلته الذي لا ينقطع وإنما يتواصل ولا يتوقف المهم أن هنا تشبيها فيه خصوبة لبعد المسافة بين الطرفين والتشبيه تحقق حين دخلت « ما » النافية المشبه به « الفرات » ثم تتابعت أوصافه في فيض وغراره حتى وقفت عند قوله : « بأجود منه » وهذا تشبيه ضمني حيث شبه عطاء الممدوح بعطاء النهر العظيم وبالغ في التشبيه فجعل عطاء الممدوح يفوق عطاء النهر .

ومن هذا اللون من التشبيه قول الأعشى يمدح قيس بن معديكرب^(١) .
وما مَزْبَدٌ مِنْ خَلِيجِ الْفَرَا تِ ، جَوْنٌ غَوَارِبُهُ ، تَلِيطُمْ^(٢)
يَكُوبُ الْخَلِيَّةَ ذَاتَ الْقَلَا عِ ، وَقَدْ كَادَ جَوْجُوهَا يَنْحَطُمْ^(٣)

(١) ديوان الأعشى ، شرح دكتور محمد محمد حسين ، ص ٨٧ ، مؤسسة الرسالة ، الرابعة .
(٢) مزبد : أي يعلوه زبد الأمواج . جَوْنٌ أي : أبيض وهو من الأضداد يطلقه العرب على الأبيض والأسود . غارب كل شيء أعلاه والمقصود الأمواج .
(٣) الخلية السفينة الكبيرة - والقلاع : الشراع - وجوؤ السفينة صدرها .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ﴾

تَكَأْكَأٌ مَلَّاحُهَا وَسُطَّهَا مِنْ الْخَوْفِ كَوَثَلُهَا يَلْتَزِمُ^(١)
بِأَجُودَ مِنْهُ بِمَا عَوْنُهُ إِذَا مَا سَمَاؤُهُمْ لَمْ تَغْمُ^(٢)

إنه يتحدث عن كرم ممدوحه ، ويتخذ من الفرات مهما أزيد وهدر ، وتلاطمت أمواجه فيه في غزارة وكثرة وتتابع حتى إنه ليكُـبُ السفينة ذات القلاع العالية حتى ليكاد صَدْرُهَا أن يتهشم ويتحطم . وذلك لوفرة مياهه ، وغزارتها ، وتتابع أمواجه وتلاطمها في هدير وتواصل بحيث تُبْصِرُ الملامح وهو يتمايل وسطها ، وقد ألجأه الخوف الشديد إلى أن يعتصم بالمؤخرة ، ويلوذ بها ليس هذا النهر العظيم بكل ما فيه من فيضان وجيشان في مثل حال الممدوح ولا بأجود منه وقت الجذب حين ينزل القحط بالناس ولا حين ينقشع الغيم ، وتصفو السماء ، وتشرق الشمس ، وينقطع المطر ، وحين تنظر إلى صنيع الشاعر تجده بدأ بقوله : « وما مزبد من خليج الفرات » المشبه به نهر الفرات وعن قصته ، وانتهى إلى المشبه في قوله : « بأجود منه » ليختم الصورة التشبيهية .

ومن هذا اللون من التشبيه ما تراه في قول ذي الرُّمة :

فَمَا ظَبِيَّةٌ تَرْعَى تَسَاقِطَ رَمْلَةٍ كَسَا الْوَكَافُ الْغَادِي لَهَا وَرَقًا نَضْرًا^(٣)
تَلَاعًا هَرَاقَتْ عِنْدَ حَوْضِي وَقَابَلَتْ مِنَ الْحَبْلِ ذِي الْأَدْعَاصِ أَمِيلَةَ غُفْرًا

(١) تكأأ : تمايل من الخوف - وكوثل السفينة : ذنبها ومؤخرها وفيه يكون الملاحون ومتاعهم .

(٢) الماعون في الجاهلية كل عطاء وهو كالزكاة في الإسلام - وغامت السماء : أطبق بها السحاب ، ويقصد أنه يجود وقت الجذب .

(٣) المساقط : حيث يسقط الغيث . والواكف : المطر - والتلاع : مسايل الماء إلى الوادي : هراقت هراق الماء هراقة : صبه - والأدعاص : كنبان الرمال وأميلة : حبال من الرمل مستطيلة - والغفر : التي تضرب إلى الحمرة ، والأنس : الإنسان - والوقر : التأثير في العظم .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِلِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي تَالِبٍ

رَأَتْ أُنْسًا عِنْدَ الْحَلَا فَأَقْبَلَتْ وَلَمْ تُبَدِّ إِلَّا فِي تَصَرُّفِهَا ذُعْرًا
بِأَحْسَنَ مِنْ مَيِّ عَشِيَّةٍ حَاوَلَتْ لِتَجْعَلَ صَدْعًا فِي فؤَادِكَ أَوْ وَقْرًا
إِنْ ذَا الرِّمَّةُ يَحْفَظُ لِلظُّبَاءِ فِي قَلْبِهِ أَكْبَرَ حَظًّا وَنَصِيبًا مِنَ الْإِفْتِتَانِ وَالْإِعْجَابِ
وَهُوَ مِنْ خِلَالِ حَدِيثِهِ عَنِ الطَّبِيبَةِ كَأَنَّمَا يَتَحَدَّثُ عَنْ مَيِّ ؛ لِذَا يَرَسُمُ لَهَا صُورَةً
وَدِيعَةً جَمِيلَةً يَضَعُ فِيهَا ذُؤَبَ نَفْسِهِ ، وَيَمْضِي لِتَتَابَعِ حَدِيثِهِ عَنِ الطَّبِيبَةِ فَهِيَ
تَرَعَى فِي هَذَا الْمَكَانِ الْمُثْمَرَ الْخَصِيبَ الَّذِي حَدَدَ مَوْضِعَهُ إِذْ هُوَ عِنْدَ مَسَائِلِ
الْمَاءِ الَّذِي كُسِّيَ بِالْخَضْرَاءِ وَغَصَّ بِالشَّجَرِ نَتِيجَةً لِلوَكَافِ الْغَادِي وَهُوَ الْمَطَرُ
الَّذِي يَهْطِلُ فِيهِ وَالَّذِي تَتَجَمَّعُ فِيهِ رِمَالٌ مُسْتَطِيلَةٌ يَضْرِبُ لَوْنُهَا إِلَى الْحُمْرَةِ ،
وَالطَّبِيبَةِ تَسِيرُ فِي هَذَا الْمَكَانِ وَسَطَ الْمَرْعَى الطَّيِّبِ تَرَعَى وَرَقَةَ النُّضْرِ فِي خَطْوِ
مُتَتَدٍّ ، وَنَفْسٍ مَرْسَلٍ ، وَقَلْبٍ مُطْمَئِنٍّ تَنْسِمُ الْهَوَاءَ الْعَلِيلَ وَسَطَ هَذِهِ الطَّبِيعَةِ
السَّاحِرَةِ مَلَأَتْ رَثْيَتَهَا إِذْ بِهَا تَبْصُرُ إِنْسَانًا فَيَدْبُ الذُّعْرُ فِي فؤَادِهَا ثُمَّ بَعْدَ هَذَا
الْوَصْفِ الْمُمْتَدِّ لِلطَّبِيبَةِ الْمَشْبَهَةِ بِهِ يَنْتَهِي إِلَى أَنَّهَا لَيْسَتْ بِأَحْسَنَ مِنْ مَيِّ مُهِمًّا
حَدَثَ مِنْهَا إِذْ حَاوَلَتْ أَنْ تَصْدَعَ قَلْبَهُ ، أَوْ تَكْسِرَ فؤَادَهُ ، فَالْتَشْبِيهِ قَائِمٌ مِنْ خِلَالِ
الْمِشَابَهَةِ أَحَدُهَا الشَّاعِرُ بَيْنَ قَوْلِهِ : « فَمَا طَبِيبَةٌ » مُشْبَهَةٌ بِهِ وَبَيْنَ « بِأَحْسَنَ مِنْ
مَيِّ » مُشْبَهَةٌ .

وَقَالَ الْأَعَشَى فِي مِثْلِ ذَلِكَ ^(١) .

مَا رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْحَزَنِ مَعْشَبَةٌ خَضْرَاءُ جَادَ عَلَيْهَا وَابِلٌ هَطْلٌ ^(٢)
يُضَاحِكُ الشَّمْسَ مِنْهَا كَوَكَبٌ شَرْقٌ مُؤَزَّرٌ بِعَمِيمِ النَّبْتِ مُكْتَهَلٌ

(١) الْجَمَانُ فِي تَشْبِيهَاتِ الْقُرْآنِ لِابْنِ نَاقِيَا الْبَغْدَادِيِّ ، تَحْقِيقُ دَكْتُورِ مُصْطَفَى الصَّوَاوِيِّ
الْحَوْبِيِّ ، ص ١٠٨ .

(٢) كَوَكَبُ الْمَاءِ : بَرِيقُهُ - شَرْقٌ يَعْنِي زَاهٍ - مُؤَزَّرٌ يَعْنِي أَنَّهُ لَا بَسَ إِزَارًا . الْعَمِيمُ مِنَ النَّبْتِ :
النَّامُ مِنْهُ - وَالْمُكْتَهَلُ مِنَ النَّبْتِ : الْمَتَنَاهِي الْأَصْلُ بِضَمَّتَيْنِ جَمْعُ أَصِيلٍ وَهُوَ مَا بَعْدَ
الْعَصْرِ إِلَى الْمَغْرَبِ .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ﴾

يَوْمًا بِأَطْيَبَ مِنْهَا نَشْرَ رَائِحَةٍ ، وَلَا بِأَحْسَنَ مِنْهَا إِذْ دَنَا الْأَصْلُ
إنه يتحدث عن تلك الروضة بما عليها من فتنة وسحر بهوائها المعطر
بأنفاس الرياحين ، والمعبأ بشذى الزهور ، والورود فيطيل الحديث . إنها في
هذا المكان الخصب الشديد الخصوبة ، المثمر والمعطاء الذي يعلن عن سر
الحياة في الروضة بأنسها ، وجمالها ، وزهوها ، وقد اخضرت واعشوشبت ،
وزهت بجمالها المتفجر ، وخضرتها الجائشة بعد أن جادها المطر ، وهطل
عليها في غزارة فتجمعت مياهه التي انعكست عليها أشعة الشمس التي
تضاحكها فصار للمكان بريق ولمعان . ومن ثم زهت الروضة ، وتغازر نمائها
إذ كستها الخضرة ، وغطتها فصارت وكأنها لابسة إزاراً يُلْفَهَا ، ويحيط بها من
عميم النبت التام المكتمل الذي بلغ الغاية والكمال في الزهو ، والنضج ،
والجمال والحسن ، والعرف الطيب والرائحة العطرة التي تشمل ، وينتشي منها
الإنسان . ويطرب ويسعد .

الشاعر يتحدث عن المشبه به والذي جاء مسبوقاً بـ « ما » النافية في قوله :
« ما روضة » ثم مضى يفصل القول ويتحدث عن أوصافه إلى أن انتهى إلى أن
المشبه به ليس أطيب ولا أحسن من المشبه الذي جاء في قوله : « بأحسن » مبنياً
من حرف الباء التي دخلت على « أحسن » أفعل فالمشابهة قد حدثت على هذا
النحو وبذلك الصورة ويلاحظ أن « ما » التي تدخل على المشبه به تنفي فهي « ما »
النافية لكن « الباء » الداخلة على المشبه تفيد الإثبات وهكذا .

فالتشبيه الضمني : تشبيه لا يوضع فيه المشبه والمشبه به في صورة من صور
التشبيه المعروفة وإنما تدل عليه العبارة دلالة ضمنية كما أنه يجيء في لون
من التشبيه تتلاحق فيه الأوصاف والصفات من خلال تركيب فاتحته نفى
بحرف « ما » وخاتمته إثبات بحرف « الباء » واسم التفضيل الذي على وزن
« أفعل » .

التشبيه الحسي

والمراد بالحسي ما يدرك هو أو مادته بإحدى الحواس الخمس الظاهرة وهي البصر ، والسمع ، والشم ، والذوق ، واللمس ، ويدخل في هذا المركب الخيالي وهو الذي لا يوجد لصورته الكلية وجود في الخارج ولكن أجزاءه التي تركبت منها الصورة من المدركات الحسية فهو بصورته الكلية من مخترعات الخيال الذي يؤلف أجزائها من أشياء موجودة محسوسة وإن كانت صورته الكلية غير موجودة فهو إذن «المعدوم الذي فرض مجتمعا من أمور كل واحد منها مِمَّا يدرك بالحس»^(١) ومما مثل له به قول الصنوبري :

وكان محمرا الشقيق إذا تصوّب أو تصعّد^(٢)

أعلامٌ ياقوت نشـر ن على رماح من زبرجد
إذ يشبه الشاعر هذا الزهر الأحمر في حال تصوّبه وتَصَعُّده بهيئة أعلام من ياقوت منشورة على رماح مصنوعة من زبرجد وليس هناك شك أن صورة الأعلام المصنوعة من أعلام ياقوت المنشورة على رماح مصنوعة من زبرجد شيء لا يدرك بالحس الظاهر لأنها لا وجود لها خارج الأعيان وإنما الموجود الذي يدرك المادة التي تركبت منها الصورة وهي الأعلام ، والياقوت ، والرماح ، والزبرجد ومن هذا اللون الخيالي قول الشاعر في وصفه للخمر وهي في الكأس .

كأن الحباب المستدير برأسها كواكب دُرّ حشّوهُنَّ عَقِيق

(١) شرح السعد ، ضمن شروح التلخيص ، ٣١٤/٣ .

(٢) محمر الشقيق من إضافة الصفة للموصوف ، والمراد الشقيق المحمر ، وهو ورد أحمر في وسطه نقطة سوداء .

❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

فهو يشبه الفقايق الطافية فوق الكأس بهيئة كواكب من درّ منشورة في سماء من عقيق ، فالمشبه به خيالي لا يدرك بالحس ؛ لأنّه لا وجود له بصورته الكلية خارج الأعيان ، وقد فرض من أمور وأجزاء كل منها مدرك بالحسّ ، وهي الكواكب ، والدر ، والسماء ، والعقيق ، ومن هذا اللون قول المتنبي :

وَطَرْفٌ إِنْ سَقَى الْعُشَّاقَ كَأْسًا بِهَا نَقَصُ سَقَانِهَا دِهَاقًا
وَحَصْرٌ ثَبَّتَ الْأَبْصَارُ فِيهِ كَأَنَّ عَلَيْهِ مِنْ حَدَقِ نَطَاقٍ^(١)

فإذا تجاوزت اللحظ الفاتر ، والطرف الساحر الذي إذا سقى المغرّمين به كأساً ناقصة سقى الشاعر لعشقه له كأساً مترعة .

وفي البيت الثاني ترى الشاعر في وصف خصر دقيق يشد العيون شدّاً ، ويجتذبها إليه اجتذاباً . فلا تملك عين أن تتحول عنه ، وإنّما تثبت وتتجمّد فيه وتضرب نطاقاً يلتفت حوله ويتداخل فيه ، فعناصر التشبيه معروفة ومدركة يراها الناس وتقع في الواقع المرئي المشاهد ، فإذا أنت بحثت عنها ، وحاولت مشاهدتها في صورتها التي صورها فيها خيال الشاعر لم ترها . فالخصر ، والحدق ، والنطاق كل واحد منها مدرك حسي ولكن هذه المفردات حين تتجمع وتتشابك لتشكل صورة فلا يمكن لها أن توجد في عالم الحقيقة والواقع بصورتها الكلية ، اللهم إلّا إذا تخطيت نطاق الواقع إلى الخيال حينئذ تكون من مخترعاته . والتشبيه يقوم من خلال تشبيه هذا الخصر الدقيق الشفيف في دقته ، وجماله ، وحسن استوائه ، وفتنته الباهرة الخالبة قد أحاطت به الأبصار ، وتعلقت به العيون ، وثبّتت فيه الأحداث بهيئة النطاق الذي يلتفت حول وسط الحسناء .

ومن الصور الخيالية لنفس الشاعر التي اخترعها خياله المحلق والتي تشكل التشبيه من أجزائها والتي تقع في نطاق الحواسّ قوله في تصوير لحظة الوداع

(١) النطاق - كل ما شدّدت به وسطك وتقويت به .

الصورة البيانية ————— دراستي مسائل علي البيان ————— ❁

والفراق ، ووصف عيون الراحلات المفارقات وما يبدو عليهن من مظاهر الحيرة والوله والاضطراب فيبعثن بنظراتهن الوسنى في كل اتجاه ، ويردن بها يمينا وشمالاً وفي كل اتجاه في لهفة وقلق فيقول :

وَلَمْ أَرَ كَالْأَحَاطِ يَوْمَ رَحِيلِهِمْ بَعَثَ بِكُلِّ الْقَتْلِ مِنْ كُلِّ مُشْفِقٍ
أَدْرَنَ عُيُوناً حَائِرَاتٍ كَأَنَّهَُا مُرَكَّبَةٌ أَحْدَاقُهَا فَوْقَ زُبُقٍ

ف عناصر الصورة وهي العيون ، والزئبق من المدركات الحسية ولكن العيون التي ركبت أحداقها فوق الزئبق مما اخترعها خيال الشاعر ولا وجود لها بصورتها تلك في الخارج ، والتشبيه يتحقق من خلال تشبيه حركة هذه العيون في حيرتها واضطرابها ، وعدم ثباتها وسكونها ودورانها في كل اتجاه في مواقف الفراق والوداع بحركة العيون التي ركبت أحداقها فوق الزئبق في عدم الثبات والسكون .

التشبيه العقلي

والمقصود بالتشبيه العقلي هذا التشبيه الذي يكون وجه الشبه فيه عقليا سواء أكان الطرفان عقليين ، أو كانا حسيين ، أو كان أحدهما عقليا والآخر حسيا؛ لأنَّ وجه الشبه هو الباعث على إلحاق أحد الطرفين بالآخر الذي اتضحت فيه تلك الصفة وأريد إلحاق الطرف الأول بالطرف الثاني فيها ومن ثمَّ فإنَّ مفاد التشبيه أنَّه إدراك صلة بين طرفين وتكون صحته تابعة لوجود وجه الشبه بين الطرفين المشبه والمشبه به كما ذهب إليه ابن يعقوب^(١) ، ويكون الحكم بحسية التشبيه أو عقليته تابعا لهذا الوجه ، فإن كان عقليا يحكم بعقليته ولو كان الطرفان محسوسين كما في قول بهاء الدين السبكي « اعلم أن الذي تدركه الحواس هي

(١) شروح التلخيص ، ٣/ ٣٥١ .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ﴾

الأعراض ، فالبصر يدرك اللون ، والسمع يدرك الصوت ، والشم يدرك الرائحة ، والذوق يدرك الطعم ، واللمس يدرك الحرارة واللين مثلاً فإن أطلقت المحسوس على ذات لا تريد لونها مثلاً بل تريد معناها العقلي كان حينئذ عقلياً لا حسياً^(١).

فالتشبيهات العقلية تعبر عن حالة عقلية متصلة بالإحساس ، ومعبرة عنه ويُعدّ من التشبيه العقلي نوع آخر منه وهو ما لا يدرك هو ولا مادته بإحدى الحواس الظاهرة ولكنه لو وجد لم يدرك هو ولا مادته بإحدى الحواس الظاهرة ولكنه لو وجد لم يدرك إلاّ بها - وهو ما اخترعه الوهم من قبل نفسه من غير أن يكون له ولمادته وجود في الخارج « فهو يتميز عن التشبيه الخيالي بأن لا وجود لمادته ولا لنفسه حتى يدرك هو أو مادته بالحواس ويتميز عن العقلي الصرف بأنّه لو وجد وأدرك لأدرك بالحواس بخلاف العقلي المحض ، فإنه يوجد ويدرك بغير الحواس كالعلم والحياة ؛ وإنّما جعل هذا الوهمي من قبيل العقلي هنا مع أنّه لو وُجِدَ وأُدْرِكَ أدرك بالحواس لأنّه معدوم فصار إدراكه إدراك ما لا يحسّ في الحالة الراهنة فألحق بالمعقول الذي لا يحسّ^(٢).

ويمثل له بقول امرئ القيس :

أَيَقْتُلْنِي وَالْمَشْرِفِيُّ مُضَاجِعِي وَمَسْنُونَةٌ زُرُقٌ كَأَنِيَابِ أَغْوَالِ^(٣)
وَلَيْسَ بِذِي رُمَحٍ فَيَطْعَنُنِي بِهِ وَلَيْسَ بِذِي سَيْفٍ وَلَيْسَ بِبَيَالٍ

(١) عروس الأفراح ، ٣/٣٠٧ .

(٢) عروس الأفراح لبهاء الدين السبكي - شروح التلخيص ، ٣/٣١٦ .

(٣) الاستفهام إنكاري يفيد النفي أو الاستبعاد « والمشرفي » السيف المنسوب إلى بلاد باليمن تجيد صناعة السيوف ، وتختص بها و« مضاجعي » أي أن السيف ملازم له لا يفارقه حتى وهو مضطجع فكيف به في غير هذا الحال فإن ملازمة السيف له تكون أولى ، فالكناية في قوله « مضاجعي » كناية عن نسبة « ومسنونة » حادة وماضية وقاطعة ووصفها بالزرقة لصفائها ومضائها .

الصورة البيانية ————— دراستي في مسائل البيان ————— ❁

لو أدركت وكان لها وجود خارجي لم تدرك إلا بحسّ البصر ، وكقوله تعالى في شجرة الزقوم : ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿ (الصافات: ٦٤، ٦٥).

فهذه شجرة غريبة غرابة المكان الذي تخرج فيه ، فهي تخرج في القلب والوسط من نار الجحيم يقول الزمخشري (في أصل الجحيم) منبتها في قعر جهنم وأغصانها ترتفع إلى دركاتها ... وشبه برؤوس الشياطين دلالة على تناهيه في الكراهة ، وقبح المنظر لأنّ الشيطان مكروه مُستقبح في طباع الناس لاعتقادهم أنّه شر محض لا يخلطه خير فيقولون في القبيح الصورة كأنّه وجه شيطان كأنّه رأس شيطان وإذا صوّره المصورون جاءوا بصورته على أقبح ما يقدر وأهوله كما أنهم اعتقدوا في الملك أنّه خير محض لا شرّ فيه فشبهوا به الصورة الحسنة قال الله تعالى : ﴿ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ (يوسف: ٣١) ^(١).

أقسام التشبيه باعتبار حسية الطرفين وعقليتهما

ينقسم التشبيه باعتبار حسية الطرفين وعقليتهما إلى أربعة أقسام :

- ١- أن يكون طرفاه « المشبه والمشبه حسيين » أي مدركين بإحدى الحواس الخمس الظاهرة - البصر ، السمع ، والشم ، والذوق ، واللمس .
- ٢- أن يكون الطرفان عقليين أي مدركين بالعقل .
- ٣- أن يكون المشبه عقليا والمشبه به حسيا .
- ٤- أن يكون المشبه حسيا والمشبه به عقليا .

(١) تفسير الكشاف ، ٣/ ٣٠٢ .

المشبه والمشبه به في التشبيه الحسي

سبق أن أشرنا إلى أن المدرك بالحواس الخمس الظاهرة إنّما هي الأعراض ، وذلك ما نقلناه عن بهاء الدين السبكي حين قال : « واعلم أن الذي تدركه الحواس هي الأعراض ، فالبصر يدرك اللون ، والسمع يدرك الصوت إلى أن قال فإن أطلقت المحسوس على ذات لا تريد لونها مثلا بل تريد معناها العقلي كان التشبيه عقليا لا حسيا » ويقول ابن رشيق : « فوقوع التشبيه إنّما هو أبدا على الأعراض لا على الجواهر ؛ لأنّ الجواهر في الأصل كلها واحد اختلفت أنواعها أو اتفقت ؛ فقد يشبهون الشيء بسمته ونظيره من غير جنسه كقولهم : « عين كعين المهابة ، وجيد كجيد الرئم » فاسم العين واقع على هذه الجارحة من الإنسان والمهابة ، واسم الجيد واقع على هذا العضو من الإنسان والرئم ، والكاف للمقاربة وإنّما يريدون أن هذه العين لكثرة سوادها قاربت أن تكون سوداء كلها كعين المهابة ، وأن هذا الجيد لانتصابه وطوله كجيد الرئم »^(١).

وإليك نماذج من التشبيه المحسوس الذي يكون طرفاه حسيين ، ووجهه كذلك فمن التشبيهات المدركة بحاسة البصر ما تراه في قوله تعالى : ﴿ وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْإِبْرَةِ عَيْنٌ ﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿ (الصافات: ٤٨، ٤٩) ، فإن التشبيه الذي يقوم من خلال تشبيههنّ بالبَيْضِ المحفوظ المكنون الذي لم تمتد إليه يد فتبدله فيتغير لونه الأبيض الصافي لا ينظر إلى البياض النقي الصافي الذي لم يخدش ولم يشب بشائبة وإنّما يلفت إلى طبيعة المرأة وما يجب أن يوضع في التقدير والحساب عند معاملتها من الرفق ، والحذر « فإنهن ببيض مكنون » ؛ لذا

(١) العملة ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، ٢٨٦/١ ، دار الجيل - بيروت .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ الْبَيَانِ ————— ❁

من الواجب أن تكون الرقة واللفظ والمعاملة بحساب وحذر هو ديدن التعامل معهن لتخطي منهن بأكبر قدر من الحب في سعادة متصلة لا تخفت أصدائها أبداً .

وتجد هذا في قوله تعالى : ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴾ كَأَمْثَلِ اللَّوْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿ (الواقعة: ٢٢، ٢٣) ، وحور عين واسعات العيون في جمال منقطع النظير واللؤلؤ المكنون هو اللؤلؤ المحفوظ المصون ، فلم تنله يد بلمس ، ولم تقع عليه من قبل عين فهو لم يخدش ، ولم يبتذل واللؤلؤ من الأحجار الكريمة التي تصان وتحفظ ، وفي ذلك توجيه ولفت إلى أن حواء يجب أن تكون مصونة ، يحرص عليها والتشبيه باللؤلؤ المكنون لا يقصد ولا يرمي إلا اللون ، وإنما إلى اللون النفي الصافي الحي بما يبعث من راحة ، وهدوء نفسي إلى من يراه ، وفي قوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ (الرحمن: ٥٨).

فيشبههن باللؤلؤ والمرجان أيضاً في نقاء اللون وصفائه وبريقه ولمعانه .

وفي قوله تعالى في الحديث عن السفينة التي تحمل الجماعة المؤمنة من قوم سيدنا نوح عليه السلام وهي تمضي في طريقها وتجري في موج كالجبال وكأن النصَّ الكريم يضع صورة أمام العين لهذه الأمواج في ضخامتها مع إحساس ركاب السفينة بالهول والرهبة والخطر يطالعون هذه الأمواج في ضخامتها وارتفاعها حين يشبه الموج بالجبال التي توضح صورة المشبه وتبينه وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴾ (هود: ٤٢) .

وترى البحترى يتحدث عن موج البحر في ارتفاعه في قوله :

أَلَسْتُ تَرَى مَدَّ الْفَرَاتِ كَأَنَّهُ جِبَالٌ شَرُورِي جَنِّ فِي الْبَحْرِ غُومًا

الفرات ، نهر يجري في جبال طوروس ويجتاز سوريا والعراق ويصب مع دجلة في خليج العرب ، وشروري : جبل في طريق مكة إلى الكوفة .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ —————﴾ دراستی في مسائل علم البيان

الشاعر يتحدث عن موج نهر الفرات كما أحسَّ به ، ويصوره في ضخامته ، وتتابعه وتواصله فيشبهه بهذه الجبال وكأن الذي يشاهده ويبصره ليس أمواجاً وإنما جبالاتاً لضخامتها ، وارتفاعها على نحو يبعث في النفس الرهبة والجلال معاً ويبدأ البيت بهذا الاستفهام « أَلست ترى » الذي يؤكد هذه الحقيقة ويقررها على نحو موثوق وثابت ومؤكد لتُحدث تأثيرها في النفس وكأنه يقول أنت ترى على نحو واضح لا يتطرق إليه أدنى شك أو احتمال .

ومن التشبيهات الحسية التي تُرى بالبصر ما تراه في قوله تعالى : ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ (يس: ٣٩) .

القمر هذه الكلمة الغنية بكل معاني الإشراق ، والجلال ، والجمال ، وبهذا اللفظ الذي يوحي بالرضا ، والتفاؤل ، والبشر ، والوضاء ، والحسن ، والنضارة ، والزهو ، وإقبال العمر ، وربيع الحياة : مع إقبالها ، وزهرتها . وكيف يبدأ رحلته كل شهر ، وكيف ينتهي منها : القمر هذا في منازل يراه الناس في مسيرته هلالاً ثم يتدرج في النمو مع الأيام شيئاً فشيئاً حتى يكتمل نمواً ونضجاً في منتصف الشهر فيصير بدرًا ثم يأخذ بعد ذلك في النقص ، والذبول ، ويتضاءل شيئاً فشيئاً حتى يصل في النهاية بعد أن انطفأ ماء الحياة الذي كان يتدفق حاراً قوياً جياشاً في شرايينه ، فأخذ في التناقص والانسحاب ، وبدأ يشحب شيئاً فشيئاً بريقه ولمعانه حتى عاد في نهاية الشهر بعد رحلته تلك كالعرجون القديم . وَمَنْ يَمْضِي مع القمر متأملاً وناظراً في مسيرته الشهرية من بدايتها حتى نهايتها تراه يثير في النفس والحس مشاعر نديّة ، ورخيّة وعرفان بالتقدير والفضل ليد الله المبدعة الصانعة والمقتدرة التي قدرت للمقر منازل ، ودرجاته حتى وصل وانتهى في النهاية إلى هذا الشكل الذي يلتقي بالعرجون القديم في المشابهة وليس العرجون الذي هو عذق النخلة الذي يكون محلّاً للبلح ، ومكاناً له ولكنه العرجون القديم بعد أن يكون قد جف ، ويبس ، وانحنى ، وتقوّس ، وذهبت نضارته وفقد ماءه ، وذوي ودقّ ،

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ عَلِ الْبَيَّانِ ————— ❁

واحدودب وهذا ما حققه القيد في المشبه به « القديم » من معاني أضفت على الصورة السلامة بعد الجمال والخلابة .

وفي قوله تعالى : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ (البقرة: ١٨٧) .

النص القرآني هنا يتناول العلاقة بين الزوج وزوجه إذ أن كلا منهما يحيط بصاحبه ويضمه ويلتف حوله حين يعانقه فيكون كل منهما لباساً للآخر كما يكون الثوب لباساً لصاحبه .

والخطيب يبين أن الزمخشري جعل وجه الشبه حسيا « فإنه قال لما كان الرجل والمرأة يعتنقان ويشتمل كل منهما على صاحبه في عناقه شبه باللباس المشتمل عليه » .

قال الجعدي :

إِذَا مَا الضَّجِيجُ ثَنَى عِطْفَهَا تَثَنَّتْ فَكَانَتْ عَلَيْهِ لِبَاسًا

وعلى هذا يكون وجه الشبه حسيا .

« وقيل شبه كل واحد منهما باللباس للآخر لأنه يصونه من الوقوع في فضيحة الفاحشة كاللباس الساتر للعورة »^(١) . وعلى هذا يكون وجه الشبه عقلياً .

وانظر إلى قول المتنبي في صورة تشبيهية يركز فيها على الحركة وهي مركبة :

طَلَبْتَهُمْ عَلَى الْأَمْوَاهِ حَتَّى تَخَوْفَ أَنْ تُفْتَشَهُ السَّحَابُ^(٢)

فَبِتَّ لَيَالِيًا لَا نَوْمَ فِيهَا تَخُبُّ بِكَ الْمُسَوِّمَةُ الْعِرَابُ^(٣)

(١) بغية الإيضاح ، ٤٩/٣ .

(٢) أن في موضع نصب « بتخوف » : تقديره تخوف السحاب تفتيشك لأنك طلبتهم على كل مياه البادية فخاف السحاب تفتيشك ؛ لأنه حامل ماء .

(٣) المسوِّمة : المَعْلَمة ذوات الشيات - وتخُبُّ : تُعْدُو بك في طلبهم لا تعرف النوم .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ —————﴾ دَرَسَتُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

يَهْزُ الْجَيْشُ حَوْلَكَ جَانِبِيهِ كَمَا نَفَضَتْ جَنَاحِيهَا الْعُقَابُ^(١)

فأنت تلمس الحركة التي ركز الشاعر خياله عليها من خلال طلبه لهم على الأمواه ، وسعيه وراءهم في كل مكان سعياً أصاب السحاب بالذعر ، والخوف حتى خاف من التفتيش وعلى هذا النحو مضت المِسْوَمة العراب ليالي وأياما تُخبّ به وفي البيت الثالث ترى التشبيه التمثيلي الحسي الذي يحكي لك عظمه سيف الدولة وأبّهته ، وقوة جيشه وهو يمضي ويتحرك بهذا الجيش الذي يهتز عن جانبيه وتكاد ترى الأرض وهي تميد به من قوته ، وتضطرب ويلتمس لهذه الحركة نظيراً في العقاب الطائر ترفرف أجنحته عن يمين وعن شمال في هيئة تروق وتعجب ، إن صورة الفعل « يَهْزُ » هنا توحى بالحركة والرجرجة والصوت والاضطراب في السير وهو ما يمثل حال الجيش فعلاً في حركته وقائده في مكان القلب وفي وسطه ، فإذا أنت وضعت هذا الفعل في مقابل في هيئة المشبه به « نَفَضَ » وما يمثله هذا النفض من العقاب للجناحين والرققة بهما من ارتفاع وانخفاض ، وصعود وهبوط ، فإن المشبه يكتسب صفات المشبه به حتى يُخَيَّل إليك أن الأرض تهتز مع اهتزاز الجيش ، وتتحرك بحركته وتميل إلى أحد الجانبين ميلاً عظيماً ثم تعود فتعتدل ، وقد تميل إلى الجانب الآخر شأنها شأن حركة العقاب الطائر الذي ينفذ جناحيه من حوله ، ويرفرف بهما في طيرانه والتشبه يقوم من خلال تشبيه الهيئة الحاصلة من صورة جانبي الجيش من الميمنة والميسرة وسيف الدولة في القلب والوسط وما في هذه الهيئة من حركة واضطراب بالهيئة الحاصلة من عقاب طائر تنفض جناحيها وتحركهما ، ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من وجود جانبيين لشيء في حال حركة واضطراب وتموج ومن الصور الحسية التي تتمثل فيها الحركة مع الصوت قول المتنبي في بحيرة طبرية :

(١) العقاب : من سباع الطير ، والعقاب أيضاً : الراية والجيش : الجماعة ، وجيش فلان : جمع الجيوش ، واستجاشه : طلب منه جيشاً .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دُرِّسَتْ فِي مَسَائِدِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ————— ❁

وَالْمَوْجُ مِثْلُ الْفُحُولِ مُزْبَدَةً تَهْدِرُ فِيهَا وَمَا بِهَا قَطْمٌ ^(١)
وَالطَّيْرُ فَوْقَ الْحَبَابِ تَحْسَبُهَا فُرْسَانٌ بُلِقَ تَخُونُهَا اللَّجْمُ ^(٢)
كَأَنَّهُمَا وَالرِّيحُ تَضْرِبُهَا جَيْشًا وَغَىٰ هَازِمٌ وَمُنْهَزِمٌ

في البيت الأول يصور موج البحيرة ، ويصف أثره في نفسه وهو يتدافع إلى الشاطئ ويتكسر ويتتابع بعضه في إثر بعض ويصور هديره فيلحقه بهدير الفحول من الإبل بين النياق من غير شهوة للضراب والتشبيه يقوم من خلال تشبيه هدير الموج بهدير الفحول في الصوت والشدة .

وفي البيت الثاني يتخيل الشاعر في سُبْحِ الطير فوق الحَبَابِ وتحَوَّامِهَا على الماء غادية ورائحة أفراساً بُلِقًا قد خرجت من أعنتها ولجَّمتها . إن الخيول هنا قد خرجت من أعنتها بعد أن ركضها فرسانها بأرجلهم ، فهي تذهب حيث تشاء ، وتجري كما تريد بعد أن فقدت السيطرة من فرسانها والتشبيه ينعقد من خلال رفرقة الطير وتحوَّامِهَا على الماء مضطربة ذاهبة كل مذهب بأفراس بُلِقَ خرجت من أعنتها بعد أن ركضها أصحابها فهي تذهب حيث تشاء ووجه الشبه ما بين الطرفين من حركة مضطربة .

وفي البيت الثالث يستحضر الشاعر نزالا وطعانا بين جيشين فيهما هازم ومهزوم ، وضارب ومضروب ، إن الرياح تضرب الطير وهي تمضي في رفرقتها على صفحة الماء يتبع بعضها بعضاً أو تضرب الطير والموج فيتتابع الطير على أثر الموج ذلك أن ضرب الرياح للموج يجعله يصطفق على أثره

(١) مزبدة : حال من الفحول ، والضمير في « تهدر للموج » « فيها وبها » الضمير للبحيرة ، فالموج يهدر ويزيد كهدير الفحل ، وليس بها شهوة للضراب - هدرَ الفحل إذا هاج وأخرج زبده . والقَطْمُ : شهوة الضراب .

(٢) الحَبَابُ : طرائق الماء - والأَبْلَقُ : ما كان فيه سواد وبياض وشبهها بُلِقَ الخيل لأن زبده أبيض وما ليس بمزبد فهو يضرب إلى الخضرة .

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

ويتباعد ثم يعود الموج من جديد ، وهكذا في تتابع وتوال ومع هذا الضرب من الرياح تضطرب الطير ويتبع بعضها بعضا ، فالمشبه هنا مأخوذ من حال الطير والموج تضربهما الرياح فيصطفق الموج ويتباعد ثم يعود من جديد الطير ويتبع بعضها بعضا ، والمشبه به مأخوذ من حال جيش يقتتلان فيهما هازم ومهزوم ويتبع الهازم في هذا المهزوم ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من تفرق وتوزع وتباعد يتبعه تلاق وتتابع وتوال ومن بعد هذه الأبيات يأتي قوله :
كَأَنَّهُمَا فِي نَهَارِهِمَا قَمَرٌ حَفَّ بِهِ مِنْ جَنَابِهَا ظَلَمٌ

وفي هذا البيت تراه يصف ماء البحيرة نهارا في صفائه ، ونقائه وضيائه يحيط به الزرع في خضرته الداكنة التي تميل إلى السواد بصورة القمر المتألق وسط الظلام والتشبيه يقوم من خلال تشبيهه ماء البحيرة في صفائه ونقائه وقد أحاطت به البساتين في خضرتها الداكنة التي تميل إلى السواد بالهيئة الحاصلة من قمر يحفُّ به الظلام ، ويحيط به ، ووجهه الشبه هو الهيئة الحاصلة من وجود شيء أبيض يحفُّ به ويحيطه شيء أسود والتشبيه مركب حسي من طرفين مركبين حسيين ، ووجه الشبه هيئة مركبة حسية .

ومن هذا اللون من التشبيه ما قاله أبو بكر الخالدي في حديثه عن القمر وتشبيهه عند تسترهِ بالغيم ^(١) .

والبدر منتقب بغيم أبيض هو فيه بين تحفر وتبرج
كنفس الحسناء في المرآه قد نظرت محاسنها ولم تتزوج

فالشاعر يتحدث عن البدر حين يتستر بالغيم الذي يغشاه وهو غيم رقيق أبيض ، فلا يتألق معه تمام التألق ، ويملاً صفحة السماء ألقا ونوراً وضياء ولا يغيب عن المشهد ، وتختفي أضواءه تمام الاختفاء ، وإنما يتراءى لك على

(١) غرائب التنبهات على عجائب التشبيهات لعلي بن ظافر الأزدي المصري ، تحقيق ، دكتور محمد زغلول سلام ، ودكتور مصطفى الصاوي الجويني ، ص ٢٢ .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ الْبَيَانِ ————— ❁

وجل في خفر واستحياء من وراء هذا الغيم الذي لا يخفيه تمام الاختفاء ، وإنَّما يشف عنه وإن كان لا يظهره في كامل تألقه وبهجته ، ويأخذ لهذه الحالة نظيراً من فاتنة حسناء مشرقة الوجه كأن وجنتيها تجول فيهما الشمس ، فهي تفتن وتخلب حين تننفس في المرأة ، فيظهر أثر تنفسها على وجه المرأة فلا يختفي جمالها ولا ينمحي وإنَّما تنظر محاسنها وتحسد ، فالأنظار ترمقها ، وتتطلع إليها اشتهاً وبهجة ، وإن كانت لم تسعد بالزواج والتشبيه يقوم من خلال تشبيه البدر يغشاها غيم أبيض رقيق ، فلا يظهر ألقه تمام الظهور ولا يغيب ويختفي ، والمشبّه به الحسناء الجميلة تننفس في المرأة فلا تغيب صورتها ، وإنَّما تظهر محاسنها لونا من الظهور ترمقها الأنظار حسداً ، وتتطلع إليها رغبة فيها واشتهاً لها ، ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من الشيء المتألق الجميل يخفيه ويستره شيء رقيق فلا يظهر تمام الظهور ، ولا يغيب كل الغياب .

ومن الصور السَّعِيَّة التي نرى فيها أثر حاسة السمع ، ما نراه في قول ذي الرُّمَّة في حديثه عن الصحراء في وحشتها ، وظلمتها حين تتردّد في جنباتها أصوات تظهر غير مُبَيَّنَة كأنها ترابن لأفراد من الروم وذلك في قوله :

دَوِيَّةٌ وَدُجَى لَيْلٍ كَأَنَّهُمَا يَمُّ تَرَاظُنُ فِي حَافَاتِهِ الرُّومُ^(١)

فذو الرمة ينظر إلى الصحراء على امتدادها وتراميها نظرة واسعة عميقة من خلال نظرته إلى الطبيعة التي تتداخل عناصرها في بعضها تداخلاً تاماً ، وتمتزج مع بعضها ، وتنصهر على نحو تتلاشى فيه الحدود ، وتذوب الفواصل ومن ثمَّ يكون تصوُّره على هذا النحو ، فالطبيعة بالنسبة له هي الأمِّ الرُّوم التي يرتضع أفوايقها ، والتي تغدّي روحه ، وتكون مسبباً لآماله ، وما يتمثل

(١) ودَوِيَّة : الفلاة الممتدة الواسعة ، ويمُّ : بحر . وتراظن : تخاطبوا بالأعجمية - وحافاته : ما يحف به .

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

لخوابه ، ويتراءى لأحلامه ، ويشكل من كل هذا صُورَه التي يجمع فيها بين الأشياء المتباعدة ، ويوحّد بينها بعد أن وحدتها الطبيعة في داخله ، وجعلتها كأنها كيان واحد في مخيلته ، فامتزجت بروحه ، واتصلت بنفسه ؛ لذا هو يجد في هذا متنفساً يُفرغ فيه أحاسيسه وما تجيش به عاطفته ، وما يتمثل لخياله .

إنه هنا ينظر إلى الصحراء نظرة مُعمّقة فاحصة ويوحّد بينها وبين عناصر من الطبيعة في هذه الرؤية حين يجعل من الصحراء بحراً وإذا كانت السفينة تأخذ طريقها ، وتشق مياحه فإن قوافل الإبل تضرب في أكباد الصحراء ، وتمضي فيها ، وكأنها سفن أيضاً وإذا كان للسفن ملاحون يستقلونها ويتراطنون باللغة الأعجمية التي لا تبين ولا تفهم فإن الذين يمتطون ظهور الإبل مع حلوكه الليل وظلامه البهيم ، ودوي الصحراء ، وأصوات الجن المنبعثة في هذا الجو من اللَّيْلِ تتلاقى مع تراطن الملاحين في السمع بلغة غير مبيّنة ولا واضحة وهكذا ترى هذه العناصر تتداخل ، وتشابك ويمتزج بعضها ببعض على هذا النحو الذي يروق ويعجب .

والتشبيه المركب يقوم من خلال تشبيه الهيئة الحاصلة من الأصوات المبهمة الغامضة غير الواضحة المنبعثة من الجن في هذا الليل بظلامه الداجي ، والتي تدوي بها هذه الفلاة الممتدة الواسعة والمشبّه به الهيئة الحاصلة من الأصوات الغامضة التي يتراطن ملاحو السفينة من الروم وهم بداخلها وهي تمخر عباب اليمّ ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من وجود أصوات غير واضحة ولا معروفة تتردّد وتنبعث في أجواء معينة .

ومن هذا اللون من التشبيه المحسوس بالسمع ما تراه في قوله :
كَأَنَّ صِيَّاحَ الْكُذْرِ يَنْظُرُنْ عَقِبَنَا تَرَاظُنْ أُنْبَاطٌ عَلَيْهِ قِيَامٌ^(١)

(١) الْكُذْرُ : ضرب من القطا غبر الألوان رقص الظهور ، صُفْرُ الحلق وهو من الحمام عقبنا : بمعنى خلفنا ، وأنباط : شعب سامي كانت له دولة شمالي الجزيرة العربية ، استعمل أخيراً في أخلاط من الناس من غير العرب ، قيام : يعني قوام ، وقوام كل شيء عماده ونظامه ، وما يقيم الإنسان من القوت ، وقيام الأمر : يعني ما يقوم به .

الصورة البيانية ————— دراستي في مسأله البيان ————— ❁

فالشاعر تلفت انتباهه هذه الأصوات المنبعثة عن القطا في تراحمها ،
وتصايحها ، فيجد في البحث عن نظير لهذه الأصوات المنبعثة من حلوقهم
وحناجرهم والتي لا تفهم ، والمتداخل بعضها في بعض فيجد هذا النظير في
الأصوات المنبعثة من تراطن هؤلاء الأنباط بلغتهم غير المفهومة .

ومن التشبيه الحسي الذي امتزج النهر فيه بالصحراء والتقى معاً التقاء سعيداً
مباركا بعد أن صار نهر دجلة صحراء دجلة وصارت الإبل المطايا هي السفن
التي تسبح في هذا النهر ، وذلك حيث يقول :

كَأَنَّ مَطَايَاَنَا بِكُلِّ مَفَاذَةٍ قَرَاقِيرُ فِي صَحْرَاءَ دَجْلَةٍ تَسْبَحُ^(١)

فالشاعر الذي جنح بخياله وسبح في آفاق عالية جعل نهر دجلة هنا صحراء
دجلة فصارت الصحراء برمالها ، وجبالها ، ووهادها ، ونجادها هي نهر دجلة
العظيم ، وجعل هذه الصحراء في غرابتها تسبح بسفن وهذه السفن تحمل نفس
هذا القدر من الغرابة ؛ لأنها ليست سفنا كالتي يعرفها الناس ويشاهدونها ،
ولكنها سفن من الإبل التي تحمل الشاعر ورفاقه داخل هذه الصحراء الرملية
لا صحراء المياه وذلك في توحد كامل بين عناصر الطبيعة ، ومزج شديد بينها
على نحو ذابت فيه كل الحدود وتلاشت كل الفوارق والفواصل بين العناصر
المتباعدة بعد أن وحدت بينها الطبيعة في داخله وجعلت منها شيئا جديدا في
مخيلته فصارت عنصرا جديداً امتزج فيه الماء بالرمل واندمج فيه النهر مع
الصحراء فما كان مألوفاً ومعروفاً أصبح شيئاً آخر غير معروف ولا مألوف
فغدا وكأنه صحراء من مياه أو نهر من رمال وأن الذي يسبح فيهما سفن من
الإبل أو إبل من السفن ، وعلى هذا النحو ترى مخيلة الشاعر وهي تصنع
الأعاجيب والتشبيه المركب ينهض قائما من خلال تشبيه الهيئة الحاصلة من

(١) المطايا : جمع مطية ، وهي ما يمتطي من الدواب ، تذكر فالبعير مطية ، والناقة مطية ،
والمراد بالمطايا هنا الإبل ، والمفاضة : الصحراء ، وقراقرير : جمع قرقور وهي السفينة
العظيمة ، فالقراقرير يعني السفن .

❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

حال الشاعر ورفاقه وهم يمتطون مطاياهم ويضربون بها في أكباد الصحراء في سير لين هادئ بالهيئة الحاصلة المأخوذة من حال هذه السفن العظيمة وعليها ملاحوها التي تسبح في نهر دجلة وتمضي فيه في هدوء ورفق ، ووجه الشبه هو الهيئة من وجود أشياء معجبة تحمل آخرين وتمضي بهم في سهولة ولين ورفق .

ومن التشبيه الحسي الذي يدرك الأصوات المسموعة في قوتها أو ضعفها همسها أو جهرها ، وفي جميع أحوالها ما نراه في قول امرئ القيس :

يَغْطُ غَطِيطَ الْبَكْرِ شِدَّ خِنَاقِهِ لِيَقْتُلَنِي وَالْمَرْءُ لَيْسَ بِقَتَالٍ^(١)
أَيَقْتُلَنِي وَالْمَشْرِفِيُّ مُضَاجِعِي وَمَسْنُونَةُ زُرْقٍ كَأَنِّيَابِ أَغْوَالٍ

قوله : « يغط غطيط البكر » أي لغيظه عليّ يردّد صوتاً كصوت المختنق « والبكر » الفتى من الإبل ، وهو صعب عند الرياضة فيشدّ حبل في خناقه ليراض به ، فيسمع له غطيط وقوله : « وليس بقتال » أي لا يقدر على ذلك مني لأنّه من غير أهل للقتال والسلاح .

فالشاعر يتحدث عن إحدى صبواته مع امرأة ممن ذهب إليها ليتبدّل وليمارس عُهره وفحشه معها وما أكثرهن في حياته ، وقد أظهرت رغبتها فيه ، وميلها إليه فغضب زوجها وهو هنا يتحدث عن الصوت المنبعث منه في غيظه وحنقه فيشبه غطيطه أي الصوت المنبعث منه بأنّه صوت المغيظ المحنق وهو الفتى من الإبل حين يشدّ حبل في خناقه لتطويعه وتذليله ، ووجه الشبه هو درجة الصوت ، ومن هذا اللون من التشبيه قول يزيد بن عوف العليمي يذكر صوت جرّع رجل قوي اللبن في نهم وشغف وقد عدّه قدامة بن جعفر من التشبيهات الحسان^(٢) .

(١) الديوان ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ص ٣٣ .

(٢) نقد الشعر لقدامة ، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي ، ص ١٢٤ .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دُرِّسَتْ فِي مَسَائِدِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ————— ﴿﴾

فَعَبَّ دِخَالًا جَرْعُهُ مَتَوَاتِرٌ كَوَقْعِ السَّحَابِ عَلَى الطَّرَافِ الْمَمْدَدِ^(١)

والعَبَّ يقال عَبَّ الماء عبا ، شربه بلا تنفس ومصٍّ ، و«شرب» الماء ونحوه جرعه فهو شارب و«الدخال» في الوَرْد أن يدخل بعيرا شَرِبَ بَيْنَ بَعِيرَيْنِ نَاهِلَيْنِ يقال : سقى إبله دخالاً و«الطَّرَافُ» الحديث فيه تلويح وإيماء ليكون أخفَّ وأعزل و - بَيْتٌ مِنْ أَدَمَ ، وهو من بيوت الأعراب وهو المراد هنا و«الممدد» أي المبسوط .

وأنت ترى هذا الرجل يَعْبُ اللبن عبا ويشربه دخالاً في نهم وشغف وسرعة من غير أن يتنفس فهو يشربه مرة بعد الأولى : ليشرب مرة ثانية وكأنه البعير الذي شرب مرة ثم أُدْخِلَ مرة أخرى مع بعيرين ناهلين ليشرب معهما .

وقدامة الذي يرى أن «أحسن التشبيه هو ما أوقع بين الشيئين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما فيها حتى يذني بهما إلى حال الاتحاد ويعد هذا التشبيه الذي معنا من التشبيهات الحسان يقول في شأن هذا التشبيه : «فهذا المشبه إنما يشبه صوت الجرْع بصوت المطر على الخباء الذي من أدم ، ومن جودته أنه لما كانت الأصوات تختلف وكان اختلافها ، إنما بحسب الأجسام التي تحدث الأصوات اصطكاكها وليس يدفع أن اللبن وعصب المريء اللذين حدث عن اصطكاكهما صوت الجرْع قريب الشبه من الأديم الموتن^(٢) والماء اللذين حدث عن اصطكاكهما صوت المطر» .

فالملاءمة بين الطرفين واضحة والتناسب بينهما كذلك وإذا كان المشبه به في الغالب يوضح المشبه وبيّنه ، ويصفه في دقة فإنه هنا قد وضّح المشبه ، ورسم صورته ، ووصفه ، ووضح كيف تنشأ الأصوات ، وكيف تتولّد من الأجسام التي

(١) دخالاً سريعاً وعَبَّ شرب شربة بعد شربة والطراف الخيمة أي الخباء إذا كان من أدم والممدد أي المبسوط .

(٢) الموتن يعني الثابت .

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

تحدثها ومن اصطكاكها واحتكاكها على نحو يوضح ما بين هذه الأجسام من تناسب وتشابه في الخصائص التي تحدث أثرها في الصوت ومنشئه وطبيعته ، وفي هذا البيت يقول ابن سنان الخفاجي بعد ذكره للبيت .

« وهذا تشبيه جيد ؛ لأنه شبه صوت اللبن على عصب المريء من حلق الإنسان بصوت المطر على الخباء المصنوع من الأدم ، واللبن من جنس الماء فصواتهما متشابهان ؛ لأنَّ السبب في اختلاف الأصوات تخالف الأجسام التي تحدث فيها ، والغرض في هذا التشبيه المبالغة »^(١).

هذا وللأوصاف خصوصية على حدّ ما سبق وحين تكون دقيقة تكون أدلّ على براعة الشاعر ، ومهارته ، ومن ثمَّ يختلف شاعر عن آخر في مراعاة هذه الخصوصية على نحو تجعل من يلاحظها ويراعيها يتفوق على غير ويتميز ؛ لأنَّه لاحظ هذه الخصوصية فجاء الصوت معبراً عنها ، ومصوراً لها على خلاف الآخر الذي لم يعر هذه انتباهها ، ولم يلتفت إليها ، ومن هنا جاء تفضيلهم لذي الرمة الذي وصف أصوات أنياب الإبل وهي تأكل وتمضغ فانتزع لهذا الصوت المنبعث من أنياب الإبل نظيراً في صياح البوازي فأحسن وأجاد ذلك الصوت المنبعث عن أنياب الإبل ليس مجرد صوت وإنما فيه خصوصية ينطوي عليها زائدة عن كونه مطلق صوت وهذه الخصوصية هي التي تحقق التلاؤم مع صياح البوازي يقول ذو الرمة :

كَأَنَّ عَلَى أَنْيَابِهَا كُلِّ سُحْرَةٍ صِيَاحَ الْبَوَازِي مِنْ صَرِيفِ اللِّوَالِكِ

الناقة : إذ صكَّ أحد ناييه بالآخر وصريف ناب الناقة يدل على كلالها .

وصريف ناب البعير يدل على غلّته وشهوته الضراب .

والبوازي : جمع بازٍ وهو ضرب من الصقور يصاد به .

(١) سر الفصاحة ، ص ٢٤٨ ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ الْبَيَانِ ————— ❁

واللوائك : جمع لائكةٌ من لأك أي مضغ .

هذا البيت لذي الرمة فضلوه على قول امرئ القيس :

كَأَنَّ صَلِيلَ الْمَرْوَحِينَ تَشْدَهُ صَلِيلُ زَيْوْفٍ يُتَقَدَّنَ بَعْقَرَا

والمرؤ : الحجارة البيض الرقاق . وتشدّه يعني تبعده ، وتخبّه جانبا ، والزيوف : جمع زيف وهو المبهرج من النقود والصليل الصوت وعبقر : بلد باليمن ، فالصوت المنبعث من وقع الحافر على الحجارة التي ينحّيها ويبعدها جانبا بسبب وقوع الحافر عليها ليس فيه من الصفات الخاصة ما في الصوت المنبعث من صياح البوازي ، فأنت ترى أن كلا الشاعرين ذا الرمة وامراً القيس قد التقيا معاً واجتمعا في تشبيه صوت بصوت ، ولكنهما لم يقصدا إليه مجملا ، بل نظر كل منهما إلى خصوصية فيه لا تدرك إلا بشيء من التأمل ، فالأول ذو الرمة نظر إلى ما في صوت البوازي من نغمة خاصة ، وجرسٍ معيّن جعله موافقا ومتناسبا مع الصوت المنبعث من لوائك الناقة حين المضغ ، والثاني نظر إلى ما في صوت الدراهم الزائفة التي تختبر حين تُشدّها الناقة في سيرها وتقذفها جانبا لكن نظرة الأول ذي الرمة أدق وأعمق من الثاني امرئ القيس وذلك لتمام المشابهة في هذا التشبيه بين الطرفين ولأن التفصيل في صوت البازي أبين ويقول الإمام عبد القاهر في تعليل هذه المفاضلة « لأنّ التفصيل والخصوص في صوت البازي أبين وأظهر منه في صليل الزيوف »^(١).

وعلى هذا الأساس فضلوا تشبيه تميم بن مقبل من بني عجلان في قوله يصف فرساً :

وَلِلْفُؤَادِ وَجِيبٌ تَحْتَ أَبْهَرِهِ لَدَمٌ الْغَلَامِ وَرَاءَ الْغَيْبِ بِالْحَجَرِ^(٢)

(١) أسرار البلاغة ، تحقيق محمود محمد شاكر ، ص ١٦٢ .

(٢) الوجيب : شدة الخفقان والأبهر : عرق متصل بالقلب والدّم : يعني الضرب بشيء ثقيل . والغيب : ما كان بينك وبينه حجاب .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ —————﴾ دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

على تشبيه عمرو بن أحمد الباهلي في قوله :

لَهَا لَغَطٌ جَنَحَ الظَّلَامُ كَأَنَّهُ عَجَارِفٌ غِيثٌ رَائِحٌ مُتَهَزِّمٌ^(١)

ففي بيت تميم بن أبي بن مقبل شبه دقَّ القلب بدقَّ الغلام بالحجر من وراء الحائط وفي بيت عمرو الباهلي شبه لغط الفذر وأزيزها بعجارف الغيث أي شدائده والتشبيه فيهما من قبيل تشبيه صوت بصوت لكن الثاني وهو عمرو ابن أحمد الباهلي أراد بتشبيهه الدلالة على شدة صوت القدر ، وإن كانت ملاحظة الشدة والضعف في الصوت من التفصيل الذي لا يعتد به .

ومن التشبيه الحسي الذي يدرك بحاسة الذوق ما تراه في قول المتنبي :

تَرَشَّفْتُ فَاهَا سُحْرَةً فَكَأَنَّنِي تَرَشَّفْتُ حَرَّ الْوَجْدِ فِي بَارِدِ الظَّلْمِ

الترشف يعني المصَّ والظلم يعني ماء الأسنان وبريقها والجمع ظلوم الوجد يعني الحب والسُحْرَةُ يعني آخر الليل قبل الفجر .

والشاعر يتحدث عن رضاب المحبوبة ، وكيف أشعل النار في فؤاده ويبين أنه ذاقه في وقت السُحْرَةِ في آخر الليل ومظنة تغير رائحة الفم في هذا الوقت المتأخر من الليل موجودة وقائمة ، ولكنه الظنون أخلفته حين أحسَّ برائحة الفم وهي تسكره ، وتُثْمِلُهُ من سحرها الساحر ، ورائحتها المعطرة النفاذة وكأنه لا يتشمم غير عبير الزهور ، ثم يوضح أثر هذا الرضاب في نفسه ، وما صنعه به حين كان يرشِف من خمره البارد ويتذوَّق رحيقه المسكر ليطفئ ظمأه ، وينتفعُّ غلته فإذا به يشعل الرغبة في فؤاده ، ويلهب ساكن الوجد في أعماقه .

(١) واللغط : اختلاط الأصوات - والعجارف يعني الأمطار الشديدة مع الرعد والريح - والرائح - يعني الآتي - والمتهزِّم يعني الذي له هزيم وهو صوت الرعد وجنح الظلام - بكسر الجيم وضمها يعني جانب الليل وهو يصف القدور .

الصورة البيانية ————— دراستي مسأله البيان ————— ❁

والتشبيه ينعقد من خلال تشبيه ترشفه لرضاب المحبوبة البارد في هذا الوقت المتأخر من الليل بترشفه لحر الوجد

وانظر إلى التعبير «بالسحرة» وما يضيفه ريق تلك المرأة من طيب الرائحة ذلك أن رائحة فمها إذا لم تتغير في هذا الوقت المتأخر وفعلت به كل تلك الأفاعيل فمعنى ذلك أن رضابها في أول الليل أحلى وأشهى ثم تأمل كيف يتحول (بارد الظلم) إلى جوٍّ وحرٍّ لاهب بعد أن يترشفه ، بل أعجب لقد أصبح حر الوجد نفسه شرايا حلو المذاق يرشف ويمص وعلى النحو ترى الخيال وهو يفعل كل تلك الأفاعيل .

ومن التشبيه الحسي الذي يدرك بحاسة الذوق ما تراه في قول امرئ القيس :
كَأَنَّ الْمَدَامَ وَصُوبَ الْغَمَامِ وَرِيحَ الْخُزَامِيِّ وَنَشْرَ الْقَطْرِ^(١)
يُعَلُّ بِهِ بَرْدَ أَنْيَابِهَا إِذَا طَرَبَ الطَّائِرُ الْمُسْتَحَرَّ
إن الشاعر الذي أخذه الهوى ، ولحقه من الوله ما تبله تهدده النشوة على نغمات الحب فراح ينشد الصبوة التي استبدت بحسه ، وهيمنت على مشاعره في جو رخيٍّ رضيٍّ نديٍّ حين فزع إلى محبوبته ليطفئ سعيير ظمئه من رضابها الذي ذاق فيه حلاوة العسل ، وطعم الماء البارد وكأنه مزيج من الخمر وصوت الغمام مع رائحة تنفخ بالبخور والعطر من ريح الخزامى ، ونشر القطر ،

(١) المدام تعني الخمر التي يدام على شربها ويقال التي أديمت في دينها .

والغمام : السحاب وصوبه : يعني وقعه حيث يقع - والخزامى : نبت طيب الريح .
ونشر القطر : القطر العود الذي يتخير به ، والنشر يعني الريح ويقال للمرأة إنها طيبة النشر ، وخيبته النشر . ويُعَلُّ به أي يُسْقَى به يقال عله يُعَلِّهِ ويجله علأً وعللاً وهذا من الشرب وهو الثاني والأول النهل ، وقوله : إذا طرب الطائر المستحر أي إذا صوت الديك والمستحر : المصوت بالسحر أي هي طيبة ريح الفم في الوقت الذي تتغير فيه الأنفاه وإنما تتغير الأنفاه بعد النوم قوله الطائر المستحر يكون الديك غيره .

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

فالشاعر الثمل النشوان لا يذوق رضاها وإنما عسلاً وماء بارداً ولا يتشمم أنفاساً وإنما يشم ريحا للخزامي ، ونشرا عطرا .

لقد احتشد وتركز في بردها الذي يفيض بالمتعة ويتدفق بالنعيم والجمال والسحر والذي يعبر عن فيض مشاعره ، ورهافة إحساسه كل هذا ولذا فهو يعمل بهذه الأشياء جميعها من المدام ، وصوب الغمام ، وريح الخزامى ونشر القطر .

إن التشبيه حين تجريه على ألفاظه ، وتلاحظ ما فيه من مبالغة يكون الشاعر قد شبه المدام ، وصوب الغمام ، وريح الخزامى ، ونشر القطر ببرد أنيابها ، وبهذه الصورة يكون التشبيه من المقلوب للمبالغة ، لكن هل المقصود المبالغة على هذه الصورة ؟ إن الشاعر إنما يعبر عن عاطفته ، وعن أحاسيسه ويوضح شعوره نحو شيء معين ، وهو في إدراكه لما بين هذه الأشياء من صلات إنما يستعين بذلك في توضيح شعوره ، وليس الحس وحده هو الذي يجمع بين الطرفين ، وإنما الحس والشعور ، ولو أنك تأملت السياق الذي جاء من خلاله التشبيه لوجدت أن عدّه مقلوباً بجعله بارداً فاتراً ، فقلبه يضائل من حرارته وإثارته ؛ لأن الشاعر إنما يقصد إلى التعبير عن عاطفته ، وعن شعوره ، وأحاسيسه وهو في قمة انفعاله يرى أن المدام ، وصوب الغمام ، وريح الخزامى ، ونشر القطر إنما يعمل بها برّد أنيابها الذي يُمَصّ ويُرتشف ، وتمتزج هي به ؛ ولذا فعّد التشبيه من المقلوب يفسد على الشاعر رؤيته الذي شكّل تشبيهه وصورته على أساسها ، وعلى ما بين أجزائها من تناسب وملاءمة. على أن الخطيب عدّ هذا التشبيه من تشبيه الجمع ، وهو ما تعدد فيه المشبه به دون المشبه ، وذكر بيتي القيس في هذا السياق ، إلا أنه علق عليها بقوله : « إلا أن فيه شوباً من القصد إلى هيئة »^(١).

(١) شروح التلخيص ، ٤٣٢/٣ .

الصورة البيانية ————— دراستي مسائل علي البيان ————— ❁

فكان الخطيب يرى في اجتماع هذه الأشياء هيئة مركبة مع أن الشاعر كما قلنا إنما جمع هذه الأشياء لإحساسه المفعم بالنشوة المتصلة من طعم الرضاب ، وأنفاس الحبيبة ، فجمع ما يمثلها من المدام ، وصوب الغمام ، وريح الخزامى ، ونشر القطر في مكان واحد ليُعلَّ منها جميعا ، ولعل هذا هو الذي جعل الخطيب يرى في ذلك شوباً من القصد إلى هيئة بعد اختلاط هذه العناصر ببعضها وامتزاجها امتزاجاً تاماً - لكن حين نتعمق رؤية الشاعر ندرك أنه لم يقصد إلى اجتماع هذه الأشياء بخصوصها حتى يعدها الخطيب هيئة ، لكنه أراد أن ينتزع بحسب إحساسه ما يمثل أقصى حلاوة للطعم ، وأطيب رائحة ، فمثل بما مثل به ، لا لتكون هيئة مجتمعة ، وإنما لتكون نافذة يعبرُ من خلالها إلى مقصده ؛ إذ أراد أن ينتزع غاية ما يمثل حلاوة ، وأقصى ما يمثل طيب الرائحة فأتى بما أتى به ؛ ليكون تمثيلاً لذلك ؛ ذلك أن غاية ما يقصد إليه أن يقول ، وهو يَمُصُّ ريق هذا الثغر ؛ إنه لا يرتشف إلا المثال في الحلاوة ، وحين يشم أنفاسها إنه لا يتشمم إلا المثال في طيب الرائحة . وهكذا .

ومن التشبيه الحسي الذي يتشكل من كل ما يدرك باللمس من الحرارة ، والبرودة ، والرقّة ، والخشونة ، واللين ، واليبوسة ، أو الصلابة قول ذي الرمة :

لَهَا بَشَرٌ مِثْلُ الْحَرِيرِ وَمِنْطَقٌ رَخِيمٌ الْحَوَاشِي لَا هَرَاءٌ وَلَا نَزْرُ

كلام رقيق الحواشي يعني لَينٌ في دعة ، والهراء : الكلام الكثير الفاسد ، رَخِيمُ الكلام : أي لان وسهل .

فهو يصف كلامها ومنطقها حين تتحدث ، ويبين أن صوتها الوترِيّ الرخيم يموج لذيذاً في المسامع كأنه اللحن الهادئ المنسَّق الجميل ، يتسلل داخلها في أناة ورفق ؛ فتهتز له وتطرب ، وهو ساحر جذاب ؛ لأنه رقيق الحواشي ، فهو سمح لين في دعة وقبول ، لا هراء فيه ، فليس كلاماً كثيراً فاسداً ، وإنما هو رخم لين سهل ، فتغرّها الحسيّ الدقيق لحيائها ، وخفرها لا يفيض في

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

الأحاديث ، ولا يمسك عن الكلام البتة ، فمنطقها رخيـم الحواشي لا هراء ولا نزر .

وهو يشبهها بالحرير في نعومة الملمس وملاسته .

وانظر إلى هذه الصورة اللَّمسية الحسّية في قول المتنبي :

يَجِدُ الْحَدِيدَ عَلَى بَضَاضَةِ جِلْدِهِ ثَوْبًا أَخْفَ مِنَ الْحَرِيرِ وَالْيَنَّا

فالممدوح من طول ممارسته للحرب ، وإلفه لها ، وخوضه معاركها قد تعود لبس الدروع ، والتمرس بها في حروبه المتواصلة التي تتكرر ولا تتوقف ، حتى لقد أصبح وهو صاحب الجلد الناعم البضّ يجد في الحديد من كثرة ملازمته له ، ومصاحبته إياه ثوباً خفيفاً أرقّ من الحرير وألين منه . والتشبيه ينعقد من خلال تشبيه الدروع التي يلبسها وهي من الحديد بالثوب الرقيق المنسوج من الحرير في الليونة ، والنعومة ، ورقة الملمس .

وهكذا يتحوّل الحديد بما فيه من ثقل ، وغلظ ، وصلابة على جسد الفارس الشجاع إلى ثوب أخف من الحرير ، وأرق من مَلَمَسِهِ ونعومته ، ولك أن تتأمل القيمة التي يُضفيها التشبيه من خلال قرْنِ المشبه بالمشبه به على هذا الفارس المغوار ، وإلى أي حدّ وصل في شجاعته وقدرته ، وقوة تحمله وتأمل ما يوحى به قوله : « على بضاضة جلده » من الترف والرفاهية ثم مع ذلك خلُق للحرب لا يخشى بأسها ، ولا يملّ من لباسها ، ولا تفارقه آلاتها ، حتى صارت رقيقة الملمس خفيفة المحمل أخف من الحرير وألين .

ومن الصور اللَّمسية ما تجدها في قوله تعالى : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ۚ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ الشَّرَابُ ۚ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ۚ ﴾ (الكهف: ٢٩) ^(١) .

(١) المهمل : ما أذيب من جواهر الأرض ، وقيل : دَرَدِي الزيت .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَةٌ فِي مَسَائِلَ عِلَالِيَّاتٍ ————— ❁

إن الله لا يجامل أحداً ، ليس بعد الحق إلا الضلال ، بهذا التبيين الذي جاء يمضي الحق عزيز ويسير في طريقه مستقيماً لا التواء به ولا عوج ، وعلى حد ما يقول الزمخشري : « والمعنى جاء الحق وزاحت العلل ، فلم يبق إلا اختياركم لأنفسكم من الأخذ في طريق النجاة أو في طريق الهلاك ، وجيء بلفظ الأمر والتخير لأنه لما مكن من اختيار أيهما شاء فكأنه مخيرٌ مأمور بأن يتخير ما شاء من النجدين » ^(١).

والتهديد واضح ، والفاء لترتيب ما بعدها من التهديد على نفس الأمر ، أي قل لهم ذلك ، وبعد ذلك من شاء أن يؤمن به ، أو أن يصدقك فيه فليفعل ، أو أن يكذبك فيه فليفعل ، وفي قوله سبحانه : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ (الكهف: ٢٩) أعتدنا إما من العتاد ، وهو ادخار الشيء قبل الحاجة إليه ، أو « أعتدنا » أي أعددنا وهياًنا لهم ، وفي قوله : ﴿ أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ (الكهف: ٢٩) شبه ما يحيط بهم من النار بالسرادق ، وهو الحجرة حول الفسطاط وقيل « سرادقها » حائط من نار ^(٢) ، والتشبيه في قوله : ﴿ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي ... ﴾ (الكهف: ٢٩) شبه الماء الحار الذي يقدم للكافرين في جهنم بالمهل الذي يشوي الوجوه ، فكيف بالحلوق والبطون؟! *

* * *

(١) تفسير الكشاف ٣٨٨/٢ .

(٢) تفسير الكشاف ٣٨٨/٢ ، تفسير الألوسي ١٥/٢٦٥-٢٦٨ ، تفسير أبو السعود ٥/٢١٩ .

البديع المستحسن من وجه الشبه المركب الحسي

التشبيهات التي يكون وجه الشبه فيها هيئة مركبة حسية تتفاوت في درجة حسنها إذ أنها ليست في درجة واحدة من الحسن . فمنها ما هو حسن ومنها ما هو أحسن ، ومنها ما يبلغ الدرجة العالية في الحسن ، ووجه الشبه في هذا اللون من التشبيه البديع ينتزع من هيئة حركة الجسم ، أو من هيئة سكونه ، والوجه المنتزع من هيئة الحركة قسمان ، كما أن الوجه المنتزع من السكون قسمان أيضاً ، وهذا ببيانها .

النوع الأول : وهو ما يكون وجه الشبه مأخوذاً من هيئة الحركة في الطرفين مع ملاحظة ما ينضم إليها من صفات كاللون والشكل ، فيكون الوجه منتزعاً من مجموع الأمرين : حركة الجسم ، وشيء من أوصافه كما في قوله :
والشمسُ كالمرآةِ في كَفِّ الأَثَلِّ لما رأيتها بدت فوقَ الجبلِ
فالشاعر يريد منك أن ترى الشكل ، وهو الاستدارة ، والإشراق ، والتألؤلؤ مع الحركة التي تراها للشمس حين تنعم التأمل فيها ، وتديم النظر إليها ، ثم ما يحصل في نورها من أجل تلك الحركة ، وذلك أن للشمس حركةً متصلة دائمة ، ولنورها بسبب تلك الحركة تَمَوَّجٌ ، واضطراب ، وإنما يتحقق هذا ويتحصل بأن تكون المرآة في يد الأثل ؛ لأن حركته تدوم ، وتتصل ، ويكون منها سرعة وقلق .

وبدوام الحركة يتموج نور المرآة ويقع الاضطراب وتلك حال الشمس « فإنك ترى شعاعها كأنه يهْمُ بأن ينبسط حتى يفيض من جوانبها ، ثم يبدو له فيرجع في الانبساط الذي بدأه إلى انقباض ، كأنه يجمعه من جوانب الدائرة إلى

الصورة البيانية ————— دراستي مسائل علي البيان ————— ❁

الوسط ، وحقيقة حالها في ذلك مما لا يكمل البصر في ذلك لتقريره وتصويره في النفس ، فضلاً عن أن تكمل العبارة لتأديته ، ويبلغ البيان كنه صورته»^(١).

ومن ذلك قول الوزير المهلبي :

والشمسُ من مشرقها قد بدتْ مُشْرِقةٌ ليس لها حاجِبُ
كأنَّها بوثقةٍ أُحميتْ يَجُولُ فيها ذهبٌ ذائبُ

فالبوتقة حين تحمي والذهب ذائب فيها يتشكل بشكلها من ناحية الاستدارة ، وتراه يتحرك فيها بجملته حركة غريبة وعجيبة ، كأنه يهيم بأن ينسبط حتى يفيض من جوانبها ؛ لما في طبعه من النعومة ، ثم يبدو له فيرجع إلى الانقباض ، لما بين أجزائه من شدة الاتصال والتلاحم ؛ ولذلك لا يقع فيه غليان على الصفة التي تكون في الماء ونحوه «مما يتخلله الهواء فيرتفع وسطه ارتفاعاً شديداً ، ولكن جملته كأنها تتحرك بحركة واحدة ، ويكون فيها ما ذكرت من انبساط إلى الجوانب ، ثم انقباض إلى الوسط»^(٢).

ويذكر الإمام عبد القاهر للمركب البديع الحسي الذي اقترنت الحركة فيه بغيرها من أوصاف الجسم قول الصنوبري .

كَأَنَّ فِي عُذْرَانِهَا حَوَاجِبًا ظَلَّتْ تُمُطُّ

أراد ما يبدو في صفحة الماء من أشكال كأنصاف دوائر صغار ، ثم تمتد امتداداً يُنْقِضُ من انحنائها وتحديدها فينقلها من النفوس إلى حتى تقارب الاستواء وذلك أشبه بالحواجب إذا مُدَّتْ ؛ لأن للحاجب كما هو معروف ومعلوم تقويساً ومده ينقص من تقويسه .

ومن لطيف ذلك على حد ما يقول الإمام عبد القاهر ، يعني الجمع بين الشكل ، وهيئة الحركة ، قول ابن المعتز يصف وقوع القطر على الأرض :

بَكَرَتْ تُعِيرُ الْأَرْضَ ثَوْبَ شَبَابٍ رَجِيَّةٌ مَحْمُودَةُ الْإِسْكَابِ

(٢٠١) أسرار البلاغة ، تحقيق محمود محمد شاكر ، ص ١٨٠ ، ١٨١ .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ —————﴾ دَرَسَتْ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

تَثَرَتْ أَوَائِلُهَا حَيًّا فَكَأَنَّهَا نَقَطٌ عَلَى عَجَلٍ بِبَطْنِ كِتَابٍ^(١)

والنوع الثاني : وهو ما كان وجه الشبه فيه هيئةً حسيّةً مركبةً منتزعةً من حركة الطرفين ، من غير نظر إلى ما عداها من سائر الصفات ، وهذا النوع لأنه من هيئة الحركة وحدها يكون التفاوت في الحسن بين التشبيهات التي تمثل هذا النوع بحسب تفاوت قوة هذه الحركة ، أضعفها ، وكثرة الجهات التي تتجه إليها ؛ ولذا فلا بُدَّ من اختلاط حركات كثيرة للجسم إلى جهات مختلفة كأن يتحرك بعضه إلى اليمين ، وبعضه إلى الشمال ، وبعضه إلى العلو ، وبعضه إلى السفلى وكلما - كما أشرنا - كان التفاوت في الجهات التي تتحرك أجزء الجسم إليها أشد كان التركيب في هيئة المتحرك أكثر ، فحركة الرحى ، والدولاب ، وحركة السهم لا تركيب فيها؛ لأن الجهة واحدة ، ومن لطيف هذا النوع قول الأعشى يصف السفينة في البحر والأمواج تتلاعب بها :

يَقْصُ السِّفِينِ بِجَانِبَيْهِ كَمَا يَنْزُو الرُّبَاحُ خَلَالَهُ كَرَعٌ^(٢)

«الرباح . الفصيل ، وقيل القرد ، والكرع ماء السماء . شبه السفينة في انحدارها ، وارتفاعها بحركات الفصيل في نزوه ، وذلك أن الفصيل إذا نزا ولا سيمًا في الماء ، وحين يعتريه ما يعتري المهر ونحوه من الحيوانات التي هي في أول النشء - كانت له حركات متفاوتة ، تصير لها أعضاؤه في جهات مختلفة ، ويكون هناك تسفلٌ وتصعدٌ على غير ترتيب ، وبحيث تكاد تدخل

(١) «رَجَبِيَّةُ» يعني مطر شهر رجب ، وقيل : «رَحْبِيَّةُ» والرحبية بالسيال بجانب الوادي نسبة إلى الرحب ، وفاعل «بكرت» يعود إلى السحابة و«الإسكاب» صحته «التسكاب» لأنه ليس هناك فعل رباعي من السكب ، فلا يوجد «أسكب» والتشبيه في البيتين من تشبيه المفرد بالمفرد ، والوجه هيئة مركبة من حركة ضم أعلى إلى أسفل في أماكن عدة مع شكل من البقع غير منتظمة .

(٢) تقص بمعنى تثب ويقال «وقصت به راحلته» إذا نزت ووثبت ، وخلا من الخلو «والكرع» الغدير ، والضمير في «جانبه» يعود إلى البحر .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَةٌ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ❁

إحدى الحركتين في الأخرى ، فلا يَتَبَيَّنُهُ الطَّرْفُ مرتفعاً حتى يراه منحطاً مستغلاً ، ويهوي مرة نحو الرأس ، ومرةً نحو الذنب ، وذلك أشبهُ شيء بحال السفينة ، وهيئة حركاتها حين يتدافعها الموج» ^(١) .

ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من تجمع حركات سريعة مختلفة إلى جهات مختلفة ، واقعة على أجزاء كل من الطرفين على أن الشاعر في تشبيهه لم ينظر إلى شيء من أوصاف الطرفين سوى هذه الحركات .

ومن هذا اللون قول أحمد بن سليمان في وصف روضة :

جُفَّتْ بِسَرِّهِ كَالْقِيَانِ تَلَحَّفَتْ خُضْرَ الحَرِيرِ عَلَى قَوَامٍ مُعْتَدِلٍ
فكَأَنَّهَا وَالرَّيْحَ جَاءَ يُمِيلُهَا تَبْغِي التَّعَانُقَ ثُمَّ يَمْنَعُهَا الْحَجَلَ ^(٢)

فالشاعر يسبح بخياله فيتخيل أن هذا النبات والريح تتلاعب به فتميل بعضه إلى بعض ، ثم لا يلبث فيرجع إلى طبيعته ، ويعود ، أنه جماعةٌ من العشاق تهتم أن تتعانق ، ثم لا تلبث أن يدركها الحياء الذي يحول بينها وبين العناق ويمنعها منه .

فوجه الشبه في البيت الثاني منتزع من حركة التهيؤ بُغْيَةَ العِناق ، وحركة الرجوع في سرعة إلى أصل الافتراق ، وتكرارهما مرة بعد أخرى ، فالذي روعي في الوجه مجرد هذه الحركات من غير أن يلاحظ شيء آخر من أوصاف الجسم .

في البيت الأول شبه فيه شجر السرو في قامته الطويلة وأوراقه الخضراء بالجواري الحسان ذوات القوام المعتدل ، وقد التحفن بستائر من حرير أخضر ، ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من وجود أجسام منتصبه معتدلة القامة ، تحيط

(١) أسرار البلاغة ص ١٨٣ .

(٢) «السرو» شجر له رواء ، وليس له ثمر و«القيان» جمع قينة وهي الجارية مغنية كانت أو غير مغنية و«التلحف» اتخاذ الشيء لحافاً و«القوام» القامة .

❧—————الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ—————دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

بها أجسام ذات لون أخضر ، وهي هيئة مركبة لا تدخلها الحركة ، فهي ليست مما نتحدث فيه .

ووجه الحُسن في التشبيه انتزاع وجهه من الحركة ، حركة التهيؤ للعناق ، وحركة الرجوع في سرعة ، فهو لم يواجهك صراحة بالمشبه به ، فلم يقل لك : كأنَّ شجر السَّرو عاشقٌ يريد العناق ، وإنما أتى به في طي الكلام ؛ حتى صرت تتخيلُ أن الشجر نفسه هو الذي يريد العناق ، ثم يرده الخجل .

ومما هو ذائع مشهور في هذا اللون الذي يمثل الحركة بعيداً عن الأوصاف قول امرئ القيس في وصف جواده .

مَكْرَمٌ مَفْرٌ مُقْبِلٌ مُدْبِرٌ مَعَا كَجُلُودٍ صَخْرٍ حَطَّ السَّيْلُ مِنْ عِلٍ
فوجه الشبه هو حركة الشيء إلى جهات كثيرة متعددة في سرعة قائمة ، تكاد تريك جوانبه ، كلها في وقت واحد .

والتشبيه يصور الحركة المتواصلة في جهات عديدة - والتشبيه يقوم من خلال تشبيه الحصان في سرعة حركته ، ففي لحظة تراه يكر ، ويفر ، ويقبل ويدبر إذ بينما ترى كفله ترى صدره في الوقت نفسه والمشبه به جلود صخر دفعه السيل من أعلى الجبل ، فهو يتحرك حركات متواصلة بقوة اندفاعية بحيث تراك ترى جوانبه كلها ، بنظرة واحدة في آن واحد .

والنوع الثالث : وهو ما ينتزع الوجه الحسي المركب من هيئة سكون الجسم مع ملاحظة أن يراعى مع هيئة السكون شيء من أوصاف الجسم كما في قول الشاعر يصف مصلوباً .

كَأَنَّهُ عَاشِقٌ قَدْ مَدَّ صَفْحَتَهُ يَوْمَ الْوَدَاعِ إِلَى تَوْدِيعِ مُرْتَحِلٍ
أَوْ قَائِمٍ مِنْ نُعَاسٍ فِيهِ لُوثٌ شِهْ مُوَاسِلٌ لَتَمْطِيهِ مِنَ الْكَسَلِ^(١)

(١) صفحة الرجل : يعني جانب وجهه - واللُّوثة : بضم اللام الاسترخاء .

الصورة البيانية ————— دراستي في مسائل البيان ————— ❁

فوجه الشبه في التشبيه الأول منتزع من هيئة سكون عنقه وصفحته ويديه حال امتدادهما - مع اصفرار الوجه - فقد اعتبر مع هيئة السكون المذكورة - اصفرار اللون بالموت وهو من أوصاف الجسم وتلك حال العاشق المادّ لعنقه ، وصفحته على أن يديه مفتوحتان لوداع معشوقه . والمشبه المصلوب وهو قائم على جذع النخلة ، وقد مالت عنقه إلى جانب كتفه ، وعلى وجهه صفرة الموت ، والمشبه به عاشق تجمّدت حواسه في وقت الوداع ، وقد مالت عنقه ، وفي وجهه صفرة العشق .

وفي البيت الثاني وجه الشبه منتزع من هيئة السكون الحاصلة من القامة المنتصبه ، والأعناق المائلة والأذرع الممتدة مدّاً متواصلًا ، فقد اعتُبر مع هذه الهيئة وصّفان من أوصاف الجسم هما - اصفرار اللون ، والاسترخاء ، وذلك يمثل حالة القائم من النعاس متواصلًا لتمطيه . والتشبيه في هذا يقوم من تشبيه المصلوب في صورته وهيئته المشاهدة منتصبًا على جذع النخلة ، مادّاً ذراعيه إلى جانبيه امتداداً موصولاً لا انقطاع فيه ، بقائم من نعاس ، لم ينشط بعد من أثر النوم ، واسترخاء العضلات ، فأخذ يتمطّى مادّاً ذراعيه إلى جانبيه ، وعنقه إلى جهة صدره ، فلما لم يَفُقْ واصل تمطيه ، حتى لا يكاد يرد ذراعيه وعنقه إلى مكانهما من شدة الكسل .

النوع الرابع : وهو ما ينتزع فيه الوجه من هيئة السكون للجسم دون مراعاة شيء من الأوصاف ، وعلى هذا فيكون الوجه منتزعاً من هيئة سكون الجسم فقط ، ومثل ذلك قول المتنبي في وصف كلب الصيد :

يُقْعِي جُلُوسَ الْبَدَوِيِّ الْمُصْطَلِي بِأَرْبَعِ مَجْدُولَةٍ لَمْ تُجْدَلِ (١).

فهو يصف الكلب في حال إقعائه وسكونه فيشبه الكلب ؛ في إقعائه ، وإقعائه أن يجلس على إليته ناصباً ذراعيه في سكون وهدوء ، والمشبه به هيئة

(١) الإقعاء : الجلوس على الإليتين ، والاصطلاء يعني الاستدفاء بالنار ، ومجدولة : محكمة الخلق لم يجد لها إنسان ، والغرض مدح الكلب بشدة الحرص واليقظة .

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

البدوي وهو جالس أمام النار ، منحنيًا عليها بصدرة ، مَادًّا ذراعيه ، مباعدًا ما بين ركبتيه ، محاولاً أن يستمتع بأكبر قدر من الدفء في هدوء وسكون ، ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من السكون الناشئ من وقوع كل عضو من أعضاء المشبه والمشبه به في موقعه الخاص في سكون من غير حركة ، فالتشبيه هنا منظور فيه إلى هيئة السكون مجردة من كل وصف آخر سوى هذه الهيئة الساكنة ، وإنما خص البدوي بالذكر ؛ لأنه في الغالب هو الذي يقع منه الاصطلاء على هذا النحو .

يقول الإمام عبد القاهر: « فقد اختص هيئة البدوي المصطلي في تشبيه هيئة سكون أعضاء الكلب ، ومواقعها فيه . ولم ينل التشبيه حظاً من الحسن إلا بأن فيه تفصيلاً ؛ من حيث كان لكل عضو من الكلب في إقعائه موقع خاص ، وكان مجموع تلك الجهات في حكم أشكال مختلفة تؤلف فتجيء منها صورة خاصة »^(١).

* * *

(١) أسرار البلاغة ص ١٦٨ .



تشبيه المحسوس بالمعقول

وتشبيه الحسي بالعقلي ثار من حوله الجدل ، واشتدت بسببه الخصومة ؛ لأن العرب كانت تهتم بإبراز وتصوير المعاني في صور محسوسة ، وتهتم بذلك كل الاهتمام ، وتبالغ في ذلك مبالغة كبيرة ، فتتاجها في الأعم الغالب صور مادية لا تتجاوز نطاق الحواس الظاهرة ولا تتخطاها ، وقد بالغوا في البيان والتوضيح حتى وصلوا إلى ما يعرف الآن بالتجسيد والتشخيص . وإنما اهتم العرب بإبراز المعقول وتصويره في صورة محسوسة ؛ لأن الحسي أقرب إلى الإدراك من العقلي .

ولذا فإن معرفة المحسوس وإدراكه أكثر تمثلاً ، وتصوراً في الذهن من المعقول ، ولذلك قيل « إن أنس القلوب أن تخرجها من خفي إلى جلي ، وتأتيها بصريح بعد مكني ، وأن تردّها في الشيء تعلمها إياه إلى شيء آخر هي به أعلم ، وثقتها به في المعرفة أحكم ، نحو أن تنقلها عن العقل إلى الإحساس وعما يعلم بالفكر إلى ما يعرف بالاضطرار ، والطبع ؛ لأن العلم المستفاد من طرق الحواس أو المركز فيها من جهة الطبع وعلى حدّ الضرورة يفضل المستفاد من جهة النظر والفكر في القوة والاستحكام ... كما قالوا ليس الخبر كالمعاينة ، ولا الظن كاليقين ، فلهذا يحصل بهذا العلم هذا الأنس - أعني الأنس من جهة الاستحكام والقوة »^(١).

وعلى هذا النحو قيل « من فقد حساً فقد علماً ، يعني المستفاد من ذلك الحس فعلت من هذا أن الحواس أصل لمتعلقها ، وهو المحسوس ، وهو أصل للمعقولات »^(٢) ، فالعقلي مستفاد من الحسي ، ومنته إليه ، فيكون هذا

(١) أسرار البلاغة ص ١٢١ ، ١٢٢ .

(٢) حاشية الدسوقي على شروح التلخيص ، ٣١٢/٣ .

❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

التشبيه على خلاف الأصل ؛ لأن المشبه به لن يكون أظهر وضوحاً من المشبه في وجه الشبه ، وعليه فلن يتحقق التشبيه وهو قياس الأدنى على الأعلى ، أو القوي على الأكثر قوة ، وهكذا ، وللخروج من هذا الإشكال ونظراً لوجود تشبيه المحسوس بالمعقول في الأساليب العربية وجب أن ينزل المشبه به المعقول في هذه التشبيهات منزلة المحسوس الأكثر وضوحاً على سبيل الادعاء والمبالغة ، وعد هذا النوع من التشبيه المقلوب ، يقول بهاء الدين السبكي في مثل هذا التشبيه : « لا يجوز عند بعضهم تشبيه المحسوس بالمعقول ، وبه جزم الزنجاني في معيار النظر ، والإمام فخر الدين إذ المشبه به يجب أن يكون أظهر من المشبه ، ولكون المعقول في فرع المحسوس ؛ لأنه مستفاد منه ، وحيث جاء في الأشعار يؤول على أنه جعل المعقول محسوساً على سبيل المبالغة وهذا يستدرجك إلى أن تجعل جميع هذا النوع من باب قلب المشبه »^(١).

فالوجه في تشبيه المحسوس بالمعقول أن يقدر المعقول محسوساً ، يجعل كالأصل لذلك المحسوس على طريق المبالغة ، كتشبيه رائحة العطر بخلق الكريم ، وهذا على خلاف الأصل ، ولذا يُعَدُّ مثل هذا من قلب التشبيه وعكسه ؛ لأنه إنما يشبه خلق الكريم بالعطر ، ويقول ابن يعقوب في مثل هذا « بل أصل العلم العقلي هو العلم الحسي غالباً ؛ ولهذا يقال : من فاته حس فاته علم ، ويعني علم ذلك الحس الفائت ، اللهم إلا أن يجعل من عكس التشبيه مبالغة ، كما سيأتي ، بأن يجعل الأصل فرعاً والفرع أصلاً بادعاء أن الفرع أقوى مبالغة ، والأصل أضعف ، وهذا المعنى موجود في التشبيه كثيرا كما في قوله :

وَبَدَا الصَّبَاحُ كَأَنَّ غُرَّتَهُ وَجْهَ الْخَلِيفَةِ حِينَ يُتَمَدِّحُ

فإن وجه الخليفة أضعف في نفس الأمر في الضياء من الصباح ، ولكن جعله أقوى ادعاء مبالغة في مدحه ، فجعل مشبهها به ، ولقائل أن يقول ؛ لاشك

(١) حاشية الدسوقي على شروح التلخيص ، ٣١٢/٣ .

الصورة البيانية ————— دراستي مسائل عليّ البيان ————— ❁

أن الإدراك العقلي مستند للإدراك الحسي في غالب الأمر ، ولكن لا يلزم من ذلك كون المحسوس أقوى أبداً في وجه الشبه ، وأشهر به ، وإنما يكون كذلك حيث يكون الوجه أصله الحسي ، ونحن نجوز أن يكون أصله العقلي ، فيكون العقلي به أشهر ، وأظهر ، فتشبيه العطر بالخلق مثلاً في استطابة النفس يكون من عكس التشبيه ، كما قيل ؛ لأن استطابة النفس للمشموم المحسوس أقرب من استطابة المعقول ، وإنما يثبت له الاستطابة من طريق التوهم ، والقياس على الحس ، وإنما تشبيهه به في الشرف عند العقول ، وفي الارتفاع والتلذذ الروحاني ، فالخلق به أظهر ، وعلى هذا فلا حاجة إلى جعل تشبيه الحسي بالعقلي من عكس التشبيه دائماً^(١).

هذا وقد أورد بهاء الدين السبكي رأي التنوخي في الأقصى القريب ، الذي منع فيه تشبيه المعنى بالصورة ، والصورة بالمعنى إلا على نحو من التجوز «ومن عدّ تشبيه المعنى بالصورة ، ولم يعدّ تشبيه الصورة بالمعنى لا معنى لترجيحه أحد الأمرين على الآخر ، بل إما أن يعدّ معاً أو لا يعدّ معاً»^(٢).

ومن التشبيهات العقلية ما ترى المشبه فيها حسياً ، والمشبه به عقلياً كما في حديث المتنبي عن الناقة التي فضلها وآثرها على المرأة وجعل منها رمزاً لقهر الصعاب ، واجتياز الفيافي المرهقات ، وللإرادة القوية العملاقة التي لا تضعف أو تلين ، فهي منجاة من المهالك وكيد الأعداء ، وإماطة للأذى ، وسفينة للصحراء يقول الشاعر^(٣).

أَلَا كُلُّ مَا شِئَ الْخَيْرُ لِي فَدَا كُلُّ مَا شِئَ الْهَيْدِي
وَكُلُّ نَجَاةٍ بُجَاوِيَّةٍ حَنُوفٍ وَمَا بِي حُسْنُ الْمَشَى
وَلَكِنَّهُنَّ حَبَالُ الْحَيَاةِ وَكَيْدُ الْعُدَاةِ ، وَمَيْطُ الْأَدَى

(١) شروح التلخيص - ٣/٣١٣ .

(٢) شروح التلخيص ٣/٣١٢ .

(٣) ديوان المتنبي ١/٣٦-٣٨ .

❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

الخِيزَلِي : مِشْيَةٌ فِيهَا اسْتِرْحَاءٌ ، مِنْ مِشْيَةِ النِّسَاءِ ، وَقِيلَ الْخِيزَلِي ، وَالْخَوْزَلِي ، وَالْخَوْزَرِي ، وَالْخِيزَرِي ، وَهِيَ مِشْيَةٌ فِيهَا تَفَكُّكٌ .

وَالْهَيْدَبِيُّ : مِشْيَةٌ فِيهَا سُرْعَةٌ مِنْ مِشْيِ الْإِبِلِ ، وَهُوَ مِنْ قَوْلِهِمْ أَهْدَبَ الظَّلِيمَ إِذَا أَسْرَعَ : يَرِيدُ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ الْغَزَلِ ، وَلَا يَمِيلُ إِلَى النِّسَاءِ ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ أَهْلِ السَّفَرِ يُحِبُّ مِشْيَ الْجَمَالِ . وَ(كُلٌّ) فِي أَوَّلِ الْبَيْتِ الثَّانِي بِالْخَفْضِ مَعْطُوفَةٌ عَلَى الَّذِي قَبْلُ مِنْ قَوْلِهِ : [فِدَا كُلٌّ] وَالْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : النِّجَاةُ يَعْنِي النَّاجِيَّةَ الَّتِي تَنْجِي صَاحِبَهَا ، وَهِيَ النَّاقَةُ السَّرِيعَةُ ، وَبُجَاوِيَّةٌ : مَنْسُوبَةٌ إِلَى بُجَاوَةٍ ، وَهِيَ قَبِيلَةٌ بَرَبَرِيَّةٌ يُنْسَبُ إِلَيْهَا النُّوْقُ الْبُجَاوِيَّاتُ ، وَالنِّجَاةُ : اسْمٌ مُخْتَصٌّ بِالْأُنْثَى دُونَ الذَّكَرِ ، وَقَوْلُهُ : خَوْفٌ ، يَقَالُ : خِنْفَ الْبَعِيرُ يَخْنَفُ خِنَافًا إِذَا سَارَ فَقَلْبُهُ خَفَّ يَدُهُ إِلَى وَحْشِيَّتِهِ . وَقَالَ الْجَوْهَرِيُّ : خِنْفَ الْبَعِيرُ يَخْنَفُ خِنَافًا إِذَا لَوَى أَنْفَهُ مِنْ الزَّمَامِ . وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ : الْخِنَافُ : يَكُونُ فِي الْعُنُقِ ، يَمِيلُهُ إِذَا مَدَّ بَزْمَامَهَا ، وَالْخَانَفُ : الَّذِي يَشْمَخُ بِأَنْفِهِ مِنَ الْكِبَرِ .

وَالْمِشْيَ : جَمْعُ مِشْيَةٍ ، كَسِدْرَةٍ وَسِدَرٍ ، وَالْمَعْنَى أَنَّهُ لَا يُحِبُّ مِشْيَ النِّسَاءِ ، وَلَا إِلَيْهِنَّ يَمِيلُ ، وَإِنَّمَا يُحِبُّ كُلَّ نَاقَةٍ سَرِيعَةِ السَّيْرِ ، وَهَذِهِ صِفَتُهَا ، وَإِنَّمَا قَالَ : «بُجَاوِيَّةٌ» خَصَّصَهُمْ لِأَنَّهُمْ يَتَطَارَدُونَ عَلَى النُّوْقِ فِي الْحُرُوبِ ، وَغَيْرِهَا ، وَكَانَتْ النُّوْقُ تَتَعَطَّفُ مَعَهُمْ كَيْفَمَا أَرَادُوا ، فَإِذَا وَقَعَتِ الْحَرْبُ فِي رَمِيَّةٍ عَطَفَ النَّاقَةُ إِلَيْهَا فَأَخَذَهَا ، وَإِنْ وَقَعَتْ فِي غَيْرِ رَمِيَّةٍ عَطَفَهَا إِلَيْهَا فَأَخَذَهَا ، فَكَانَتْ نُوْقُهُمْ تَتَعَطَّفُ مَعَهُمْ حَيْثُ أَرَادُوا ؛ فَلِهَذَا خَصَّصَهُمْ ، وَفِي الْبَيْتِ الثَّالِثِ يَبِينُ أَنَّ هَذِهِ النُّوْقُ تَوْصَلُ إِلَى الْحَيَاةِ ، وَتَكْبِدُ الْأَعْدَاءَ ، وَتُدْفِعُ الْأَذَى ؛ لِأَنَّهَا تَخْرُجُ مِنَ الْمَهَالِكِ إِلَى النِّجَاةِ ، فَبِهِنَّ تُكَادُ الْأَعْدَاءُ ، وَيُدْفَعُ شَرُّهُمْ ، وَهَكَذَا تَرَاهُ يَنْظُرُ إِلَى النَّاقَةِ عَلَى أَنَّهَا أَدَاةُ الْوُصُولِ ، وَحَبْلُ النِّجَاةِ ، وَسَفِينَةُ الصَّحَرَاءِ ، وَمِثَالُ الْقُدْرَةِ عَلَى التَّحْمِلِ إِذَا إِنِهَا تَذَلُّ الصَّعَابَ ، وَيَهْوَنُ أَمَامَهَا كُلُّ عَسِيرٍ ، وَعَلَى كُلِّ فَهْيٍ الرِّفِيقُ فِي السَّفَرِ ، وَالصَّاحِبُ فِي قَطْعِ الْمَهَامَةِ وَالْفِيَا فِي ، وَالْقَفَارُ وَالشَّاعِرُ وَهُوَ فِي قِمَّةِ انْفِعَالِهِ بِالْحَدِيثِ عَنِ النِّيَاقِ الَّتِي يَتَحَدَّثُ مِنْ خِلَالِهَا عَنْ نَفْسِهِ ، وَيَرْمِزُ بِهَا إِلَى إِرَادَتِهِ

الصورة البيانية ————— دراستي مسائل علي البيان ————— ❁

الصلبة وأنه جواب فلوات لا يعبأ بما يلقاه من مخاطر الطريق من خلال تشبيهه مدلول الضمير في قولهم : « ولكنهن » ومدلول الضمير هو النياق وهي مدرك بصري والمشبه به حبال الحياة والنجاة وكيد العداة وذلك مما يدرك بالعقل ووجه الشبه قوة التحمل ، وميط الأذى في قهر ما يثبط ويعوق والرماني لا يعد مثل هذا التشبيه من التشبيه البليغ ؛ لأن البليغ هو الذي يخرج الأغمض إلى الأظهر بأداة التشبيه مع حسن التأليف ^(١).

ومن تشبيه المحسوس بالمعقول قول ابن كحل بايك :
وأرض كَأَخْلَاقِ الْكَرَامِ قَطَعْتُهَا وَقَدْ كَحَلَ اللَّيْلُ السَّمَاءَ فَأَبْصَرَ
والسماك : نجم نير ، وضمير أبصر يعود عليه ، ومعنى أبصر: ظهر ،
وتجلى ، أما تكحيل الليل للسماك فمعناه أن الليل حين تشتد ظلمته ازداد
السماك تألقا ، كأن الليل قد كحله بسواده .

فإنه تخيل ما لا يتصف بالصفة الحسية متصفاً بها ، ولما كانت الأخلاق
توصف بالسعة تشبيها لها بالأماكن الواسعة تخيل الشاعر أخلاق الكرام شيئاً له
سعة ، وجعل الأخلاق أصلاً في هذه السعة ، فشبه الأرض الواسعة بها ، ومنه
قول الشاعر :

رُبَّ لَيْلٍ كَأَنَّهُ أَمْلِي فِيكَ وَقَدْ رُحْتُ عَنْهُ بِالْحَرَمَانِ
فالأمل من المعاني المعقولة ، وجعله مشبهاً به ، والليل مشبهاً ، فهو تخيل
أن الأمل الذي فقده الشاعر أشد سواداً من الليل .

ومن هذا اللون من التشبيه ما تراه في تشبيه نسيم الصباح بفرصة الآيس في
قول بديع الزمان .

كَأَنَّ نَسِيمَ الصُّبْحِ فُرْصَةً آيَسٍ كَأَنَّ سَرَابَ الْقَيْظِ خَلْجَةً وَامِقٍ

(١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، ص ٨١ .

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

فالمشبه نسيم الصبح ، وهو حسي ، والمشبه به فرصة الآيس ، وهي من المعقولات ، وقد جعل الشاعر فرصة الآيس أقوى من إنعاس النفس من الصباح .

هذا وقد يشبه المعقول بمعقول ، فتشبيه المعقول بالمعقول يعني أن إدراك مفردات التشبيه إنما تدرك بالعقل ، لا بالحس ، كأن نقول العلم كالحياء في النفع ، والجهل كالموت في عدم الفائدة ، ومن هذا قول المتنبي .

يَا مَنْ يَعِزُّ عَلَيْنَا أَنْ نَفَارِقَهُمْ وَجِدَانَا كُلَّ شَيْءٍ بَعْدَ كُمْ عَدَمٌ

فهو يشبه في هذا البيت وجود كل شيء بعد مفارقة الأحباب بالعدم ، بجامع عدم الانتفاع بما يجده ، فالمشبه هو وجود الشيء أي شيء بعد فراقهم والمشبه به العدم ، ووجه الشبه عدم الحصول على أي نفع مأمول ، أو مرجو ، أو فائدة يصح أن يرجوها ويطلبها ، والمشبه به ووجه الشبه كلها من العقلي الذي لا يدرك بحاسة من الحواس ، ومن هذا اللون أيضاً قول المتنبي :

رَضُوا بِكَ كَالرُّضَا بِالشَّيْبِ قَسْرًا وَقَدْ وَخَطَ التَّوَاصِيَ وَالْفُرُوعَا

والنواصي : جمع ناصية ، وهي مقدم الرأس ، والفروع : جمع فرع ، وهو الشَّعْر . وخطط بمعنى أسرع ، ومن المجاز وخطه الشيب .

والمعنى لقد رضوا بك كارهين ، كما يصبر الإنسان على الشيب كارهًا ، إذا جَلَّلَ رأسه ، ولا يقدر على دفعه ، وكذلك أنت لا يقدرُونَ على دفعك ، وواضح أن المشبه والمشبه به عقليان حقيقيان .

ومنه قول الشاعر :

العشْقُ كَالْمَوْتِ يَأْتِي لَا مَرَدَّ لَهُ مَا فِيهِ لِلْعَاشِقِ الْمُسْكِنِ تَدْبِيرُ

فتشبيه العشق بالموت في أن كلاً منهما آت ضرورة ، وواضح أن كلاً من المشبه والمشبه به من الأمور العقلية .

* * *

تصوير العقلي في صورة حسية

ومن المعاني الذهنية العقلية التي صورت في صورة حسية ما تراه في قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمْى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ١٧١).

الآية توضّح في جلاء وظهور أن هؤلاء الضالين الذين هوت بهم أقدامهم إلى مستنقع الضلال والكفر تراهم يعبدون غير الله ، وأن الذين يعبدونهم لا يسمعون دعاءهم ، ولا يستجيبون لهم ، فدعاؤهم إياهم عبث لا جدوى من ورائه ، ولا طائل فيصور هذا المعنى في صورة حية ، واضحة محدّدة تشخّصه وتجسّده فينفذ إلى عمق الوجدان من خلال الحسّ على نحو تبصر فيه المعنى العقلي ، وهو ظاهر شاخص أمام الأعين ، والتشبيه مركب ينعقد من خلال تشبيه حال هؤلاء الكافرين المستمسكين بكفرهم ، والمتشبهين به تقليداً وهوى ، واتباعاً لأبائهم ، وعدم استماعهم لداعي الإيمان ، واستجابتهم لما يدعوههم إليه بحال الحيوان الأعجم لا يسمع نداء من يناديه ، ولا يفهم معنى ما يراد من هذا النداء ، ولا ما يطلب منه ، ولا يستجيب فلا يكون لهذا النداء صدًى في سمعه ، ولا وجوداً في حسّه سوى أنها أصوات لا معقول لها ، ولا معنى يفهم منها ، ووجه الشبه هو الصورة الحاصلة من وجود أصوات لا تميز بينها تنطلق ينادى بها ، ولا تكون لها استجابة ، ولا أثر ، ولا انتفاع .

ويمكن أن يجري التشبيه على نحو آخر ، فيشبه الكافر في دعائه للأصنام بالناعق على الغنم في العناء ، وعدم الانتفاع ، فالذين كفروا في دعائهم لآلهتهم الصمّاء الجامدة المتجرّة التي لا تفقه شيئاً ، ولا علم عندها مثلهم كمثل الناعق بغنمه ، لا ينتفع من نعيقه بشيء سوى أنه دعاء ونداء^(١).

(١) انظر : تفسير الكشاف ، ١/ ١٠٧ .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ ﴾

وعلى كل فالصورة قميئة مزريّة تتلاقى مع الجمود ، والبلادة ، والتّحجّر ومتابعة الآباء ، وتتبع مسيرتهم بتقليدهم في غباء ، وعدم استجابتهم لدعوة الحق ، وإصرارهم على أن يغطّوا بالكفر ، ويلبسوه تقليداً أعمى ، ومتابعة لهم على طريق الفساد ، والكفر ، والضلال ؛ إذ رفضوا الحق حين دُعوا إليه على نحو ما هو موجود في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أُولَئِكَ كَانُوا فِي أَعْيُنِنَا فَلَا يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (البقرة: ١٧٠، ١٧١).

ومن تصوير المعنوي في صورة حسية ما يمثل أمامك في قول الله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾

(العنكبوت: ٤١) .

إن الله وحده لا أحد غيره هو العزيز الذي يلجأ إليه ، وهو القوي الذي لا يُغلب ، وإن المشركين كالعنكبوت في ضعفها وهوانها ، وقلة حيلتها ، فالذين اتخذوا من دون الله أولياء يعبدونهم ، ويدعونهم ويلوذون بحماهم ، ويستقون بقرتهم ، ويستعزون بعزتهم ، ويتكثرون بمنعتهم وهم إنما يستعزون ، ويجمعون بيت واهٍ ضعيف كبيت العنكبوت في ضعفه ، ووهنه ، وهشاشته فهم في ضعفهم ، وضياعهم ، وما ذهبوا إليه ، وقصدوه من عبادة ودعوة غير الله كالعنكبوت اتخذت بيتاً ، وإنه أوهن البيوت ، وأهونها ، وأضعفها فلم ينتفعوا ممن اتخذوهم أولياء ونصراء إلا ضعفاً فوق ضعف ، وخذلاناً بعد خذلان .

والتشبيه يقوم من خلال تصوير حال المشركين في عبادتهم لأوليائهم ، ودعائهم لهم ، واعتمادهم عليهم في النفع والضرر ، والتّقويّ بهم بحال العنكبوت ، حين تبنى لها بيتاً ؛ لتحتمي به ، وليكون لها سكناً ، ومثابة آمن ،

الصورة البيانية ————— دراستي مسأله البيان ————— ﴿﴾

ولكنه لا يثبتُ ، ولا يصمد أمام ريح ، أو حشرة طائرة فهو واه ضعيف ، ووجه الشبه هو الصورة الحاصلة من محاولة اللجوء إلى من يمنعه ، ويحميه فإذا به يجده أشدَّ ضعفاً ، وهواناً ووهناً .

فقوة الله هي القوة ، ومنعته هي المنعة ، وولايته هي الولاية وما سواه هشاشة ، وهوان ، وخذلان ، وضياح ﴿ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ﴾ (العنكبوت: ٤١) نسجته من خيوطها : ﴿ وَإِنْ أَوْهَرَ الْبُيُوتِ لَبِيتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (العنكبوت: ٤١) .

ومن تصوير المعقول في صورة محسوسة ما يطالعك واضحاً وظاهراً في قول الله تعالى : ﴿ وَقَدْ مَنَّآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ (الفرقان: ٢٣) .

فهذه الأعمال الصالحة التي يعملها الذين كفروا بالله سيضيّعها الله ، ولن يتقبلها ، وسيرفضها ولا يقيم لها وزناً ، وكأنها لم تعمل ، ولم تكن . فهم قد أجهدوا أنفسهم في أعمال ستذهب بدداً ، وستضيع إلى حيث لا تعود أبداً ، وكأنها الهباء المنثور المتطاير . والقدوم على الشيء : يعني الورود عليه ، والوصول إليه من مكان بعيد عنه . والمراد : أننا عمَدنا وقصدنا إلى أعمالهم ، التي عملوها من عمل طيب كصلة رحم ، وإغاثة ملهوف ، وقرى ضعيف وغير ذلك من الأعمال الطيبة التي لو عملوها مع الإيمان لنا لانتفعوا بها ، وأخذوا الأجر والثواب عليها . والهباء ما يخرج من الكوة مع ضوء الشمس شبيه بالغبار وفي أمثالهم : « أقل من الهباء » شبيهه بالهباء في قلته وحقارته عنده وأنه لا ينتفع به ووصف الهباء بأنه منشور مبالغة في إبطال أعمالهم وإغائها ، فإن الهباء تراه منتظماً في ضوء الشمس فإذا حركته الريح تثار ، وذهب كل مذهب ، فلم يكف أن شبه أعمالهم بالهباء ، بل جعله متناثراً متطائراً ، لا يمكن جمعه ، والانتفاع به أبداً ^(١) .

(١) انظر تفسير الكشاف ، ٩٤/٣ .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ —————﴾ دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

والتشبيه ينهض من خلال تشبيه أعمالهم الطيبة التي فقدت شرط القبول وهو الإيمان بالله بحال الهباء المنثور الذي لا ينتفع به أبداً ، ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من وجود أشياء خادعة المظهر سيئة النتيجة ، فالمشبه عقلي أما المشبه به فهو حسي يُرى ويُبصر ، والمقصود أن الله سيذهب بأعمال الذين كفروا ، وسيضيعها ولن تكون لها ثمرة وكأنها ما قامت وما كان لها وجود .

ومما صور فيه المعنى العقلي في صورة حسية ما تراه في قوله تعالى : ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتَهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

(آل عمران: ١١٧).

والصرّ: هو البرد الشديد الذي يبلغ من شدّته وحدته أن يبید الزرع ، ويفنيه بحرّقه كالنار التي تحرق ما تأتي عليه ، والمراد بيان أن ما ينفقونه في هذه الحياة ضائع عليهم ، وحسرة لهم ؛ إذ ينفقون في الباطل ، وفي الصّد عن سبيل الله ، والتشبيه يرسم صورة هذا الإنفاق من خلال صورة ريح شديدة البرد ، تهلك الحرث وتحرقه ؛ لأنه حرث الذين ظلموا أنفسهم ، وقياس المعنى الذهني المجرد على الصورة الحسيّة مكّن للمعنى في النفس ، وجعله أشد تأثيراً وذلك لأن الخيال يلاحق هذه الريح التي فيها صرٌّ ، ويتابعها ، وقد أتت على الزرع الناضر البهيج بما فيه من خضرة تروق ، وزهر يفوح ، وقد كان المرتجى والمأمول أن يكون من ورائه النفع ، والجنى الطيب ، ولكن الريح أبادته ، وأهلكته ؛ بحيث لا ينتفع منه بشيء أبداً ، والتشبيه مركب ؛ شبه ما ينفقه هؤلاء من أموالهم في المكارم ، والمفاخر وكسب الثناء ، وحسن الذكر بين الناس ، لا يبتغون وجه الله بحال الزرع الذي يزرعه زارعه يبتغي نفعه وخيره ، فأصابته ريح شديدة البرد أحرقتة وأهلكته ، ولم تبق على شيء منه ووجه الشبه الصورة الحاصلة من بذل الجهد ، وإفراغ الوسع ، والعمل فيما لا فائدة تجنى من ورائه ، ولا ثمرة تُحصّل منه .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ❁

ومن الصور التي صور فيها المعنى العقلي في صورة حسية وهو مضاعفة الأجر أضعافاً مضاعفة للمنفق في سبيل الله وجاء المعنى فيها مقابلاً للمعنى في الصورة التي سبقتها ، ومضاداً له ما تراه في قول الله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٌ ۗ وَاللَّهُ يُضَعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ ۗ ﴾ (البقرة: ٢٦١) .

إن هذا المثل يرسم صورة طيبة للنفقة التي يقدمها المنفق في سبيل الله خالصة بها نفسه ، وكيف ينميها الله سبحانه وتعالى له ، ويضاعف الأجر والثواب عليها أضعافاً مضاعفة ، حتى إنه ليشيب على الصدقة الواحدة بسبعمائة ضعف وأكثر ، والله يضاعف لمن يشاء . إن هناك من الناس من أدمن الصيام من الفاقة ، والعوز ، والجوع ، ومن ارتدى الظلام ولبسَه ، واكتسى به من العُرَى ، ومن أرهقه الدَّيْنُ وغلبه ، وقهره ، وفدحه ، حتى أعيته الحيلة ، ومن ركه هم والمرض ، وأمثالهم غيرهم ممن يحسبهم الجاهل أغنياء من التَّعَفُّفِ ، لا يسألون الناس إلحافاً ، حتى إنهم جميعاً ليرتمون على الله أن ينقذهم من الحياة بالموت ، لهذا ولغيره كالجهاد في سبيل الله ، ضاعف الله الثواب على النفقة الخالصة لوجه الله هذه الأضعاف المضاعفة على نحو ما تحدَّث المثل القرآني ، وبيَّن فالذين ينفقون أموالهم في سبيل الله أي في كلِّ وجه من وجوه الخير ؛ إذ كلُّها في سبيل الحق ، والله هو الحق إنما يحصدون ثمار ما قدموه ، وما غرسوه أضعافاً مضاعفة ، كما يزرع الزارع في أرض طيبة خصبة يضع فيها الحبة الواحدة ، فتنبت سبع سنابل ، في كل سنبل مائة حبة ، هكذا ، وترى الحبة الواحدة تعطي سبعمائة حبة ، والحسنة تُجَازِي بسبعمائة حسنة ، والله يضاعف لمن يشاء ، ولا حرج على فضل الله ، ولا على عطائه ، وفي إسناد الإنبات إلى الحبة مجاز عقلي ، إذ إن الحبة لا تُنْبِتُ ، والمنبت الحقيقي هو الله سبحانه وتعالى ، لكن لما كانت الحبة سبباً للإنبات أسند إليها كما يُسند إلى

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ﴾

الأرض ، وإلى الماء يقول الزمخشري « وهذا التمثيل تصوير للأضعاف كأنها ماثلة بين عيني الناظر »^(١).

فالإنفاق في سبيل الله تنمية وتكثير ، والذي ينفق في سبيل الله لا ينفق من ماله ، وإنما من مال الله الذي استخلفه فيه وهو الرابح ؛ لأنه يأخذ كثيراً وإن ظن أنه يعطي .

مثّل حال النفقة ينفقها المنفق في سبيل الله سواء أكان المراد بسبيل الله الجهاد ، أو جميع سبل الخير من كل برٍّ بهيئة بذرٍ بذرة زارع في أرض طيبة ؛ فأنبتت كل بذرة سبع سنابل ، في كل سنبل مائة حبة ، ووجه الشبه : هو الصورة الحاصلة من صورة من يعمل عملاً قليلاً يجني ، ويحصد من ورائه نفعاً كبيراً يقول صاحب الظلال : « إن المعنى الذهني ينتهي إلى عملية حسابية تضاعف الحبة الواحدة إلى سبع مائة حبة أما المشهد الحي الذي يعرضه التعبير فهو أوسع من هذا وأجمل ، وأكثر استجاشة للمشاعر ، وتأثيراً في الضمائر - إنه مشهد الحياة النامية ، مشهد الطبيعة الحية ، مشهد الزرعة الواهبة ، ثم مشهد العجبية في عالم النبات ، العود الذي يحمل سبع سنابل ، والسنبل التي تحوي مائة حبة »^(٢).

ومن النماذج القرآنية التي التقى فيها معنيان متقابلان ، وصور المعنوي فيهما في صورة حسية ما تراه ماثلاً في قوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢١٦﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ

(١) تفسير الكشاف ، ٧٨/١ ، ٥٩ .

(٢) في ظلال القرآن ، ٣٠٦/١ ، دار الشروق .

الصورة البيانية ————— دراستی في مسائل عليّ البیان ————— ❁

جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَتَاتَتْ أَكْلَهَا ضَعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿البقرة: ٢٦٤، ٢٦٥﴾.

يقول صاحب الظلال - رحمه الله - بعد أن ذكر الآيتين : « مشهد كامل مؤلف من منظرين متقابلين شكلاً ووضعاً وثمرَةً ، وفي كل منظر جزئيات يتسق بعضها مع بعض من ناحية فن الرسم ، وفن العرض ، ويتسق كذلك مع ما يمثله من المشاعر والمعاني التي رُسم المنظر كله لتمثيلها ، وتشخيصها ، وإحيائها » ^(١) فالصدقة التي تنفق رثاء الناس يمثّلها الحجر الصلد الذي لا ينبت زرعاً ، فلا خير فيه ، ولا ثمرة ، ولا عطاء ، لقد كان قبل ذلك صفوان ، أي حجراً جامداً صلباً مستو غطته طبقة خفيفة من التراب كان بصورته تلك مناط الأمل ، ومعقد الرجاء ؛ إذ رُجي أن يكون موضعاً للإنبات ، والخصوبة بعد أن أصابته السماء بوابلها ، وبدلاً من أن يُنبت ، ويخرج أكله وثمره على نحو ما هو مرتجى ومأمول ؛ إذ بالمطر يُكنس التراب من فوق الحجر الصلب المستوي ، ويتركه صلباً ، لا ينبت زرعاً ، ولا يوجد بثمر وهكذا يضيع الأمل ، ويخيب الرجاء .

ويقابل هذا الذي ينفق أمواله بطراً ، ورياءً ، وسمعةً ، وأذى نموذج آخر يقابل هذا النموذج ، ويضاده ، ويناقضه ؛ إذ ينفق المال استجابة لأمر الله ، وطاعة له سبحانه يبتغي بالإنفاق وجه الله ، وتنفيذاً لهواتف البر المتأصلة في نفسه ، والمتجذرة في كيانه ووجوده ، ولذا فإن الذي يصور ، ويمثل الإنفاق ابتغاء رضوان الله هي هذه الجنة التي هي فوق ربوة عالية ، مع ضرورة التنبيه إلى أن الوابل مشترك بين النموذجين ، ولكنه في النموذج الأول يكنس التراب ، ويترك الحجر صلباً غير قابل للإنبات ، ولا لأيّ عطاء ، وفي النموذج الثاني يعطي ويشمر ، حين توتى الجنة التي هي فوق ربوة أكلها ضعفين « وإذا كانت

(١) في ظلال القرآن ، ٣٠٨/١ ، دار الشروق .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ —————﴾

حفنة التراب هناك على وجه الحال الأولى يمحو ويمحى وفي الحالة الثانية يُرْبِي ويخصب . في الحالة الأولى يصيب الصفوان ، فيكشف عن وجه كالح كالأذى ، وفي الحالة الثانية يصيب الجنة فيمتزج بالتربة ويخرج «أكلا» ولو أن هذا الوابل لم يصبها فإن فيها من الخصب والاستعداد للإنبات ما يجعل القليل من المطر يهزها ويحيها : ﴿فَإِنْ لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ﴾ (البقرة: ٢٦٥)^(١).

وفي الآية الأولى شبه أولا بإبطال ثواب النفقة المتبوعة باليمن والذي بإبطال نفقة المنافق الذي قدمها رياءً ومباهاة وفخراً ، ووجه الشبه إحباط الأجر والثواب في كل ، وشبه المنفق الذي ينفق نفقته رياء الناس لا يريد بإنفاقه رضوان الله ، ولا ثواب الآخرة ، فلا ينتفع بثواب نفقته أبداً والمشبه به حجر أملس عليه تراب قليل ، أصابته السماء بمطر غزير؛ فذهب بالتراب من فوق الحجر ، وتركه صلباً لا نفع فيه غير صالح للزرع ، ولا للإنبات ووجه الشبه صورة شيء قد يخدع الناظرين بمظهره الكاذب ، ولكن لا نفع فيه ، ولا ثمرة من ورائه .

وإذا كانت هذه الصورة مجدبة مُمَحَلَّة غشيتها الرياء ، بعيداً عن نداوة الإيمان فكانت النهاية حجراً صلباً لا يثمر ثمرًا ، ولا ينبت زرعًا ، فإن الصورة المقابلة لهذه الصورة على النقيض منها تماما جنة بريرة عالية خصبة مثمرة معطاء ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضَعْفَيْنِ فَإِنْ لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ﴾ (البقرة: ٢٦٥) ولأنها جنة بريرة عالية فهي خصبة فالطل وهو القليل من المطر يكفيها كي تنبت لكرم منبتها .

والتشبيه يقوم من خلال تشبيه حال النفقة ينفقها المنفق من ماله يبتغي بها رضوان الله ، وثواب الدار الآخرة ، وتشبيهاً لنفسه على الإيمان بحال جنة فوق ربوة عالية أصابها مطر عظيم ، ولأنها خصبة آتت أكلها ضعفين ، فإن لم يصبها

(١) التصوير الفني في القرآن ، ص ٣٥ ، ٣٦ ، دار الشروق .

الصورة البيانية ————— دراستي مسائل عليّ البيان ————— ﴿﴾

وابل فطل رزاز خفيف ، مطر قليل يكفيها للإنبات ؛ لخصوبة تربتها ، ووجه الشبه صورة من يعمل عملاً نافعاً فيجني من ورائه خيراً كثيراً .

ومن تصوير العقلي في صورة حسية ما تراه في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوا كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ سَحَسَبُهُ الظُّمُؤَانُ مَاءٌ حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فُوقَهُ حِسَابَهُ ۖ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (٤٠) أَوْ كَظُلُمْتُمْ فِي تَحْرِ لُجِّي يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمْتُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْدِ يَرَهَا وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿ (النور: ٣٩، ٤٠).

والتمثيل الأول قد وقفت أمامه وقفة طويلة في مكان سابق بين هذا البحث ، وحللت بلاغته تحليلاً لا أجد ضرورة لإعادة هنا ما ذكرته هناك ، ولكني هنا أكتفي ببيان أركان التمثيل اتباعاً لمنهج الدراسة .

وهنا ذكر الله سبحانه وتعالى مثلين ؛ مثلاً بالسراب ، ومثلاً بالظلمات المتراكمة ، وذلك على حد ما يرى ابن القيم - رحمه الله - « وذلك لأن المعرضين عن الهدى والحق نوعان : أحدهما : من يظن أنه على شيء فيتبين له عند انكشاف الحقائق خلاف ما كان يظنه وهذه حال أهل الجهل ، وأهل البدع والأهواء الذين يظنون أنهم على هدى وعلم ، فإذا انكشفت لهم الحقائق تبين لهم أنهم لم يكونوا على شيء ، وأن أعمالهم التي ترتبت عليها كانت كسراب يرى في أعين الناظرين ماء ولا حقيقة له ، وهكذا الأعمال التي لغير الله عز وجل يحسبها العامل نافعة له وليست كذلك » (١).

وهكذا يظهر لنا في كشف وجلاء أن الله سبحانه وتعالى سيضيّع هذه الأعمال ، ولن يتقبلها كأنها لم تعمل ، ولم تك من قبل شيئاً ولذا يكون

(١) الأمثال في القرآن الكريم لابن قيم الجوزية ، تحقيق سعيد محمد نمر الخطيب ، ص ١٩٢ ، دار المعرفة - بيروت .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ —————﴾

السراب بقية فلاة واسعة ، وهي أرض محل قفر ، خالية من العمران ، ومن الشمر والشجر .

والسراب وَهْمٌ ضائع ؛ لأنه لا حقيقة له ، وذلك متوافق ومتطابق مع أعمالهم ، وقلوبهم التي أقفرت من الإيمان . وانظر إلى هذا الظمآن الذي اشتد به العطش ، ويبست منه الحنجرة ، وهو يريد أن يطفى عطشه ، أو حتى أن يَبْلُ ريقه بقطرات من الماء ، فإذا به لا يجد سوى الوهم والخيبة والضياع ، إنه لا يجد شيئاً وما وجده كان سراباً فتشتد حسرته ، ويخيب رجاءه ، وتظلم حياته التي ضيَعها والتمثيل يقوم من خلال تشبيه الأعمال الطيبة التي يقوم بعملها غير المؤمنين بالله من صلة الرحم ، والصدقة وغير ذلك من مظاهر الخير؛ إذ تبدو في ظاهرها جميلة المظهر فيها نفع ، وخير ولكنها في حقيقة الأمر ضائعة لا خير فيها ، ولا ثمرة تُحصَل من ورائها ، ولا نفع ، ولا ثواب والمشبه به حال سراب بقية صحراء جرداء لا زرع فيها ولا بناء يتوهمه الظمآن ماء فيحث الخطى مسرعاً إليه ، فلا يجد شيئاً ، وإنما يجد وهماً وضياعاً ووجه الشبه الهيئته الحاصلة من منظر خادع ، ومخبر سيئ .

أما المثل الثاني فقد تحدث عنه ابن القيم ، فقال : « أصحاب مثل الظلمات المتراكمة وهم الذين عرفوا الحق والهدى ، وآثروا عليه ظلمات الباطل والضلال متراكبةً عليه ظلمة الطبع ، وظلمة النفوس ، وظلمة الجهل حيث لم يعملوا بعلمهم فصاروا جاهلين ، وظلمة اتباع الغي والهدى فحالهم كحال من كان في بحر لجي لا ساحل له ، وقد غشيه موج ، ومن فوق ذلك الموج موج ، ومن فوقه سحاب مظلم فهو في ظلمة البحر ، وظلمة الموج ، وظلمة السحاب ، وهذا نظير ما هو فيه من الظلمات التي لم يخرجها منها إلى النور»^(١).

(١) الأمثال في القرآن الكريم لابن قيم الجوزية ، ص ١٩٥ .



الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ الْبَيَانِ ————— ❁

وهذا المثل الذي ترى فيه البحر اللجِّي لا ساحل له ، وقد غشيه موج من فوقه موج من فوقه سحاب يقابل في المثل السابق الصحراء الممتدة المستوية ، وهي القيعَة تَقَابُلُ بين البرِّ المتمثل في الصحراء هناك ، وبين البحر هنا ، والصحراء جرداء لا زرع فيها ولا بناء ، ولا ضرع ، ولا حياة ، ولا ماء ، وليس فيها غير الإنسان المحرور العطشان الذي يحاول أن يطفئ لهيب العطش ، فيضرب في أطناها يلتمس الرِّيَّ ، ولا ماء ، وإنما أوهام ، وخداع ، وخيالات ، والبحر هنا ترى فيه الظلمات المطبقة من خلال هذا الموج المتلاطم يعلوه موج من فوقه موج من فوقه سحاب وهكذا .

على أن الفريق السابق تتلاطم في قلوبهم السوداء المظلمة شبهات الغيِّ ، والضلال ، والشك ، والهوى ، والباطل كما تتلاطم أمواج البحر في عنف ، وضراوة ، وتتزاوَر ، وإنها لأمواج متراكبة ، ومتراكمة بعضها فوق بعض ، وكيف لمن تركبه هذه الظلمات المطبقة أن يبصر في ظلمتها ، وأن يرى ؟ إنه لا يكاد يرى يده التي يخرجها ، والزمخشري يرى في «أخرج» ضمير الواقع فيه «لم يكد يراها» مبالغة في : لم يرها أي لم يقرب أن يراها ، فضلاً عن أن يراها ومثله قول ذي الرمة :

إِذَا غَيَّرَ النَّأْيُ الْمُحِبِّينَ لَمْ يَكْدُ رَسِيسُ الْهَوَى مِنْ حُبِّ مَيَّةٍ يَرَحُ

أي لم يقرب من البراح فما باله يبرح شبه أعمالهم أولاً في فوات نفعها ، وحضور ضررها بسراب لم يجده مَنْ خَدَعَهُ من بعيد شيئاً ، ولم يكفه خيبة وكمداً أن لم يجد شيئاً كغيره من السراب ، حتى وجد عنده الزبانية تعتله إلى النار ، ولا يقتل ظمأه بالماء ، وشبههاً ثانياً في ظلمتها وسوادها ؛ لكونها باطلة وفي خلوها عن نور الحق بظلمات متراكبة من لج البحر ، والأمواج والسحاب ، ثم قال : ومن لم يوله نور توفيقه ، وعصمته ، ولطفه فهو في ظلمة الباطل لا نور له ^(١).

(١) انظر تفسير الكشاف ، ٧٨/٣ ، ٧٩ .

❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

ويمكن إجراء التشبيه مرة أخرى بهذه الصورة شبه الأعمال الطيبة التي يعملها غير المؤمنين من صدقة ، وصلة رحم ، وما شاكل ذلك من أعمال البر ، من حيث قد تبدو ، وتظهر جميلة ، وطيبة ، ولكنها في الحقيقة حابطة ، لا أجر لها ولا ثواب عليها ، لفقدائها شرط القبول ، وهو العقيدة الصحيحة ، والمشبه به هيئة الظلمات المتراكمة والمتراكبة من لج البحر ، والموج ، والسحاب ، ووجه الشبه الهيئة الحاصلة من صورة أشياء قد تراكبت ، وخلت من النور ؛ لأن أعمال غير المؤمنين من الكافرين لإحباطها خالية من نور الحق ، والظلمات المتراكبة لا نور فيها ، ولا ضوء ، ولا بريق .

ومن تصوير الأمور المعقول في صور محسوسة واضحة وظاهره ما نراه في قول الرسول ﷺ من جملة كلام : « العلم خليل المؤمنين ، والحلم وزيره ، والعقل دليله ، والعمل قيمه ، والرفق والده ، والصبر أمير جنوده »^(١).

يصور الحديث هذه الأمور المعقولة في صور محسوسة ؛ لأنه بهذا التصوير يُخلِّبها ويوضحها ، ويؤكد مزاياها ، ويدفع إلى العمل في الحياة بمقتضاها من خلال تقريرها في النفس ، وتثبيتها في الفؤاد ؛ ليكشف عما تتميز به من فضائل في حياة الإنسان ؛ ولذا تراه ﷺ قد جسّدَها ، وشخصها ، وخلقها خلقاً آخر ، بحيث تراها العين ، وتبصرها ، وتشاهدها في صورتها الجديدة بعد أن دبّت في أوصالها الحياة ، وجاشت مفاصلها بالحركة ، وصارت شيئاً آخر يدرك بالحواس على نحو ظاهر لا تخطئه العين ، بعد أن أصبحت تدرك إدراك المحسوس بكامل ملامحه ، وقسماته ، وهيئته فتقوى في النفس ؛ لأنها لم تعد تُدرك إدراك المعقول بما فيه من تستر ، وخفاء ، وإنما صارت أموراً محسوسة تدرك بالحاسة المبصرة ، ويلاحظ أن التشبيه بكل صورته المتعددة في الحديث النبوي قد أقيم بناء كل تشبيه فيه مشبه ومشبه به دون ذكر للأداة ، ووجه الشبه

(١) المجازات النبوية للشرif الرضي بشرح محمود مصطفى ، ص ١٤٦ ، ١٤٧ .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ عَلِيٍّ الْبَيَّانِ ————— ❁

زيادة في التأكيد لما يدل عليه من معنى ، وحملًا على تصوّر اتحاد الطرفين ؛ مما يمنح التشبيه مزيداً من القوة والمبالغة وجميع التشبيهات التي ذكر فيها كل مشبه مع المشبه به مما سمي بالتشبيه المفروق .

هذا وقد أُلِمَح الشريف الرضي إلى وجه الشبه من خلال تفسيره للحديث إذ قال « فالمراد بقوله (عليه الصلاة والسلام) : « العلم خليل المؤمن » أنه يأنس به من الوحشة ، ويسكن إليه في الوحدة كما يأنس الخليل بخليله ، ويسكن الحميم إلى حميمه . والمراد بقوله (عليه الصلاة والسلام) : « والحلم وزيره » أنه يقوى به على الأمور ، ويؤازره على كظم المكروه ، والمراد بقوله - عليه الصلاة والسلام - : « والعقل دليله » أنه بالعقل يهتدي في ظلم المشكلات ، وينجو من مضايق الغمرات ، فهو كاللدليل الذي يرشد في المضالّ ، ويجنب عن المزالّ . والمراد بقوله - عليه الصلاة والسلام - : « والعمل قيّمه » أن العمل يثقف ميله ، ويقوّم زلّكه ، ويسدّ خلله ، فهو كالقيم يأتي لمصالح ما يقوم عليه ، ومرشد ما يوكل إليه ، والمراد بقوله - عليه الصلاة والسلام - : « واللين أخوه » أن اللين يفيد مؤاخاة الإخوان ومخالصتهم ، ويحفظ عليه صفاءهم ومودتهم ، فجعله عليه الصلاة والسلام أخاه من حيث كان سبباً لاجتلاب الإخوان إليه ، وحفظ المودات عليه ، والمراد بقوله - عليه الصلاة والسلام - : « والرفق ولده » كالمراد بقوله : « واللين أخوه » ، لأن الرفق يقبل إليه بالقلوب ، ويظأّر عليه كوامن الصدور ، فيصير كل واحد في الحنوّ عليه ، والميل إليه ، كالوالد الرؤوف ، والجد العطوف والمراد بقوله - عليه الصلاة والسلام - : « والصبر أمير جنوده » أن الصبر ملاك أمره ، وشدّاد أزره ، وبه تُبلّغ الآراب ، وتُدرك المحابّ ، فهو كأمر جنده الذي يقوى به على أعدائه ، ويصل به إلى أغراضه وطلباته . وقد يجوز أن يكون المراد أن الصبر رأس خلاله ، ورئيس خصاله ، فهو متقدم

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ —————﴾ دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

عليها ، وكالأمير لسائرهما كما أن الأمير متقدم على رعيته ، وله شأن على من في طبقته»^(١).

ومما جاء فيه المعقول في صورة محسوسة ما تراه في قول الرسول - عليه الصلاة والسلام - : « **أَلَا وَإِنَّ الْغَضَبَ جَمْرَةٌ فِي جَنْبِ ابْنِ آدَمَ ، أَلَمْ تَرَوْا إِلَى حُمْرَةِ عَيْنَيْهِ ، وَاتْفَاخِ أَوْدَاجِهِ ...** » في حديث طويل وفيه بعد ذلك « **فَإِذَا وَجَدَ أَحَدُكُمْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ ، فَلَا أَرْضَ ، الْأَرْضُ .. إلخ** »^(٢).

يتحدث الرسول ﷺ عن الغضب فيبين أنه جمرة توقد في جنب ابن آدم ، وحين أصدر ﷺ حكمه هذا على الغضب أكدّه ، ووثقّه ، وذلك لبيان خطره ، وحتى يتجنب الإنسان الوقوع فيه ، ويبقى في تناوله للأمور ومعضلاتها هادئ النفس ، بعيداً عن التوتر ، والانفعال ، وثورة الغضب ؛ لذا استفتح كلامه بقوله : « **أَلَا** » مفتوحة الهمزة واللام ، حرف استفتاح ، وفائدته تأكيد مضمون الجملة ، فالكلام الذي يأتي بعدها له أهمية وشأن ، وبعد « **أَلَا** » جاء « **بِإِنَّ** » ليزيد من وثاقة كلامه ، والتأكيد على الحكم الذي يقرره ، وهو حكم نبي وأقيم على التشبيه ؛ إذ شبه الغضب بالجمرة تشبيهاً مؤكّداً ، ثم وصف المشبه به « **جمرة** » بجملة الصفة وهي : « **توقد في جنب ابن آدم** » ليشير إلى توهجها واشتعالها ، والإتيان بالصفة على هذا النحو بعد المشبه به يشير إلى اتحاد الجمرة بالغضب ، وتلك قيمة تعبيرية وفنية ، ولو فصل بين المشبه « **الغضب** » والمشبه به « **جمرة** » بالجار والمجرور لما دل على اتحاد المشبه به بالمشبه ؛ إذ سيصير التعبير بالغضب في جنب ابن آدم جمرة ، وحينئذ تفقد الجمرة اتحادها بالغضب ، كما أن الفصل بينهما يضيع معه التأكيد الذي يتحقق من خلال حذف أداة التشبيه .

(١) المجازات النبوية ، ص ١٤٨ - ١٥٠ .

(٢) السابق ، ص ١٥٥ .

الصورة البيانية ————— دراستي مسأله البيان ————— ❁

إن الغضب من الشيطان ، وإن الشيطان خلق من نار ؛ فالغضب من النار . إن الانفعال الثائر والهائج عند الغضب ترتفع معه حرارة الجسم ، حتى لكأن الدم كله يتجمع في مراكز الغضب ، وكما أن النار تحدث التورم بالجسد إذا مسّه مع الالتهاب والجمرة ، فإن الغضب تنتفخ بسببه الأوداج ، وتحمر العين ، والرسول ﷺ عن طريق الاستفهام في قوله : « ألم تروا إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه ؟ يريد للإنسان أن يقف على الحقيقة ، ويعرفها من خلال الرؤية ، والمشاهدة ؛ فيرى انتفاخ الأوداج ، واحمرار العينين ، ومن ثمَّ يقبحُ في عينه ما يراه من منظر وهيئة ، فيكون ذلك دافعاً له إلى معرفة الخطر الذي ينشأ عن الغضب ، وما ينتظر الإنسان الغضبان من منظر سيئ قبيح ، فيحاول أن يتجنبه ، ويكون ذلك علاجاً له ، وفي قوله ﷺ : « إذا وجد أحدكم شيئاً أي من الغضب على هذا النحو وبهذه الصورة فالأرض » الأرض ، أي عليه أن يلزمها ، ويجلس عليها ؛ حتى تنكسر حدة غضبه .

* * *

تقسيم وجه الشبه إلى تحقيقي وتخيلي

وجه الشبه هو المعنى الذي قصد اشتراك الطرفين فيه « كالشجاعة » في قولك : « زيد كالأسد » ومثل « السرعة » في قولك : « الجواد كالريح » فكل من الشجاعة والسرعة وجه شبه ؛ لأنه المعنى الذي قصد اشتراك الطرفين فيه « زيد والأسد » في الأول « والجواد والريح » في الثاني « على أن وجه الشبه لا بد وأن يكون فيه نوع خصوصية ؛ حتى يفيد التشبيه ، ولذا لا يكون من الذاتيات ، ولا من الأعراض العامة ؛ لأن الكلام المفيد للتشبيه باعتبار ذلك لا يفيد ما لم يتعلق به غرض^(١) ، وذلك بأن يكون مقصوداً للمتكلم ، فليس كل معنى مشترك بين طرفين يعد « وجه شبه » إلا إذا قصد جعله موضع اشتراك ، وإلا فإن الطرفين قد يشتركان في كثير من المعاني كالحيوانية ، والجسدية ، والوجود ، وغير ذلك ، ومع ذلك لا يعد واحد منها وجه شبه إلا إذا قصد إليه المتكلم ، واعتبره وجه شبه لغرض معين ، فأنت قد ترى إنساناً يحنو على آخر ، ويقسو بشدة عليه ، فتتقدم نحوه لتقول له : « هذا مثلك فارحمه » تريد مثلك في الحيوانية أو الجسدية ، فيكون لهذا الوجه حينئذ مزيد اختصاص من أجل الغرض ، على أن الوصف الذي يقصد اشتراك الطرفين فيه يكون إما تحقيقاً أو تخيلاً .

فالتحقيقي ما يكون لوجه الشبه وجود في الطرفين على جهة الحقيقة كالشجاعة في تشبيه الرجل الشجاع بالأسد ، والخداع في تشبيه الرجل المخادع بالثعلب ، فوجه الشبه موجود على جهة الحقيقة في كل من المشبه والمشبه به في الشاهدين السابقين .

(١) انظر حاشية الدسوقي ، ٣/ ٣٢١ ، ضمن شروح التلخيص مع مواهب الفتاح لابن يعقوب ، نفس الصفحة .

الصورة البيانية ————— دراستي مسائل عليّ البيان ————— ❁

أما وجه الشبه التخيلي فهو ما لا يكون الوجه قائماً بالطرفين أو بأحدهما إلا تخيلاً « والتخيّل والتوهم بالألا يكون ثابتاً - يعني الوجه - فيهما وفي أحدهما حقيقة ، ولكن يشبه الوهم ، ويقرره بتأويل غير المحقق محققاً كعادة الوهم في أحكامه »^(١).

ففي قولك : « له سيرة كنفع الطيب » و« أخلاق كأريج المسك » فقد ذاع ، واشتهر وصف كل من السيرة والأخلاق بالطيب مبالغة ، حتى تخيل أنهما من ذوات الرائحة الطيبة ، فوجه الشبه وهو « الرائحة الطيبة » متخيل في المشبه في الشاهدين ، ومن هذا القبيل ما تراه في قول القاضي التنوخي :

رُبَّ لَيْلٍ قَطَعْتُهُ بِصُدُودٍ أَوْ فِرَاقٍ مَا كَانَ فِيهِ وَدَاعٌ
مَوْحِشٍ كَالثَّقِيلِ تُقْدَى بِهِ الْعَمَلُ مِثْلُ وَتَأْبَى حَدِيثُهُ الْأَسْمَاعُ
وَكَأَنَّ النُّجُومَ بَيْنَ دُجَاهُ سُنَنٌ لَأَحْيَا يَنْهَنُّ ابْتِدَاعُ

الدجى : جمع دُجَيَّة ، وهي الظلمة ، والضمير لليل ، وروى : دجاها ، وهي رواية المطول ، والضمير للنجوم .

ووجه الشبه في التشبيه المذكور في هذا البيت هو الهيئة الحاصلة من حصول أشياء مشرقة بيض في جوانب شيء مظلم أسود ، وهي بهذه الصورة غير موجودة في المشبه به ضرورة ؛ لأن (الإشراق) لكونه حسياً لا تتصف به السنة ، لأنها أمر عقلي ، وأن (الإظلام) لكونه حسياً لا تتصف به البدعة ؛ لكونها أمراً عقلياً كذلك ، فوجه الشبه على هذا النحو غير موجود في المشبه به إلا على طريق التخيل ، والتوهم باعتبار غير الحاصل حاصلاً ؛ لأن الخيال يمكن أن يعطي للمعقول صفة المحسوس ، فيجعل غير المتلَوَّن متلَوَّنًا ، وما لا يقبل الاتساع متسعاً .. إلخ ، ويفرز ذلك في النفس حتى يتأكد لديها ،

(١) ابن يعقوب ، ٣/ ٣٢٣ .

❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

ويصير عندها كالحقيقة ، ولكن على أساس قوي ، بحيث تستريح إليه النفس وتتقبله .

والتشبيه الذي يكون وجهه قائماً على التوهم والتخيل يتحقق بأمرين :
الأول : إمكان الجمع بين المعنى الذي لا لون فيه والشيء المتلون بوصف آخر خلاف اللون ؛ حتى يتأخيا ويتماثلا عند النفس ، كجمع السُّنَّة والنجم في وصف الهداية الموجودة فيهما على الحقيقة ، وكجمع البدعة والليل في صفة الإضلال وهي موجودة فيهما على الحقيقة .

الثاني : أن يقع هذا الجمع في كلام الناس ، ويذيع ، وقد ذاع تشبيه السُّنَّة ، والهدى ، وكل ما هو علم بالنور ، والكفر بالظلمة ، وعليهما قول الله تعالى : ﴿ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ (البقرة: ٢٥٧) وحين يذيع هذا في كلام الناس تتوهم النفس أن في السُّنَّة ، ما في النجم من بياض وضياء ، وفي البدعة ما في الليل من ظلام وسواد ؛ ولذا تمضي النفس على هذا الأساس ، فتشبه السنن التي اندست بينها البدع بالنجوم بتخللها الظلام في الصورة الحسية الحاصلة من وجود أشياء مشرقة مضيئة في جوانب شيء مظلم كما تشبه النجوم بين الدجى بالسنن بين البدع إذا أردت المبالغة ، ووجه الشبه هو الذي سبق وهو الهيئة الحاصلة من حصول أشياء بيض مشرقة في جوانب شيء مظلم أسود هذا إذا فهمنا أن الشاعر أراد أن يجمع بين الطرفين في وجه شبه تخيلي ، وهو وجود أشياء بيض مشرقة في جوانب شيء مظلم ، أما إذا فهم أن قصد الشاعر أن يبين حسن السُّنَّة في أعين العقلاء بمحاورتها البدعة القبيحة ، وزيادة حسن النجوم بسبب اقترانها بسواد الليل ؛ ليكون وجه الشبه هو حسن الشيء بمجاورة ضده ، وحينئذ يكون وجه الشبه هذا تحقيقاً ؛ لأنه محقق في كل من الطرفين ، وليس تخيلاً ؛ يقول الخطيب « غير أنه لا يخرج أي التشبيه مع هذا عن كونه على خلاف الظاهر ؛ لأن الظاهر أن يُمَثَّل المعقول بالمحسوس كما فعل البحثري :

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَةٌ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ❁

وَقَدْ زَادَهَا إِفْرَاطَ حُسْنٍ جَوَارَهَا خَلَاتِقَ أَصْفَارٍ مِنَ الْمَجْدِ خُيِّبِ
وَحُسْنُ دَرَارِي الْكَوَاكِبِ أَنْ تُرَى طَوَالَعٍ فِي دَاخٍ مِنَ اللَّيْلِ غَيْهَبِ^(١)

والبيت من قبيل تشبيه مفرد مقيد بمفرد مقيد ، فإن المشبه « النجوم » بقيد كونها ظهرت بين قطع الليل البهيم ، والمشبه به « السنن » بقيد كونها لاحت بين الابتداء .

ومن التشبيه التخيلي قول أبي طالب الرقي :

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ وَالظَّلَامَ كَأَنَّهُ يَوْمَ النَّوَى وَفُؤَادَ مَنْ لَمْ يَعْشِقِ

فإنه لما كانت أوقات المكاره توصف بالسواد توسعاً فيقال : اسود النهار في عيني ، وأظلمت الدنيا عليّ ، فالشاعر تخيل غير المتلون متلوناً ، فوصف يوم الفراق ، وفؤاد من لم يعشق بالسواد ، وأكد أمر هذا التخيل بأن جعل السواد في كليهما أشد وأقوى من السواد في ظلام الليل ، وجعلهما في موضع المشبه به وجعل الظلام الذي سواده محسوس محقق مشبهًا؛ قصدًا لتحقيق المبالغة .

ومنه قول ابن بابك :

وَأَرْضٍ كَأَخْلَاقِ الْكِرَامِ قَطَعْتُهَا وَقَدْ كَحَلَ اللَّيْلُ السَّمَاءَ فَأَبْصَرَ^(٢)

فإنه لما كانت الأخلاق توصف بالسعة والضيق توهمه حقيقة ، فقابل بين سعة الأرض التي هي سعة حقيقية وأخلاق الكرام التي توهمها شيئاً له سعة ، وبالع في توهمه حتى جعلها أحق بهذا الوصف من الأرض المبسوطة في مرأى العين .

ومن ذلك قول المتنوخي :

فَأَنْهَضُ بِنَارٍ إِلَى فَحْمٍ كَأَنَّهُمَا فِي الْعَيْنِ ظُلْمٌ وَإِنصَافٌ قَدْ اجْتَمَعَا

(١) شروح التلخيص ، ٣/ ٣٢٧ .

(٢) السماء : الأعزل ، والرامح : نجمان نيران وضمير أبصر يعود إليه .

❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

فقد جعل ما ليس بمتلون متلوناً على سبيل التخييل ، وذلك لأنه جعل صورة النار المشتعلة في الفحم الأسود شبيهة بصورة الظلم يصاحب الإنصاف والعدل في مرأى العين - بجامع اجتماع شيء مضيء بجوار شيء مظلم قائم وهذا الوجه معتبر وجوده في المشبه على جهة التحقيق ، وفي المشبه به على طريق التخييل بناء على ما ذاع واشتهر من وصف الظلم بالسواد في مثل قول الرسول ﷺ «الظلم ظلمات» ووصف العدل بالإشراق في مثل قولهم : عدل واضح ، كنور الصبح ثم عكس التشبيه ؛ ليؤكد هذا التخييل .
ومنه قول الشاعر :

كَأَنَّ انْقِضَاءَ الْبَدْرِ مِنْ تَحْتِ غَيْمِهِ نَجَاءٌ مِنَ الْبَاسَاءِ بَعْدَ وُقُوعِ
شاع في الاستعمال تشبيهه أوقات الشدائد والمكاره بسواد الليل ، على أساس أن الواقع فيها يعاني من المكاره ما يعانيه السائر في الظلام ، كما شاع التخلص منها بالخروج من ظلام الليل إلى نور النهار ، وبخروج البدر المنير من تحت الغيم المعتم ، وهذا ما جعل الشاعر يتخيّل الشدائد والمصاعب ملونة بلون السواد ، والنجاة منها ملونة بلون البياض ، وبالعكس في هذا التخييل حتى جعل ما فيهما من بياض وسواد أقوى منه في ضوء البدر ، وحلّكة الغيم ؛ ولذا عكس التشبيه ؛ لتأكيد هذا التخييل .

ومما جاء من تخيّل ما ليس بمشمووم مشموماً ما كتب به صاحب إلى القاضي أبي الحسن وقد أهدى له صاحب شيئاً من عطر العود ، وأرفقه بهذين البيتين :

يَا أَيُّهَا الْقَاضِي الَّذِي نَفْسِي لَهُ مَعَ قُرْبِ عَهْدِ لِقَائِهِ مُشْتَاقَهُ
أَهْدَيْتُ عَطِراً مِثْلَ طِيبِ ثَنَائِهِ فَكَأَنَّمَا أَهْدَيْتُ لَهُ أَخْلَاقَهُ

فالعادات أن يشبه الثناء بالعطر ، وقد عكس فشبّه العطر بالثناء ، ذلك ادعاء بأن ثناءه أحق بصفة العطر ، وطيبة ، من العطر ، فقد بولغ في وصفه بالطيب فجعل له من الشرف والفضل على جنسه أوفر نصيب .

* * *

التشبيه والتمثيل

التشبيه عند الإمام عبد القاهر .

التشبيه عنده ضربان :-

أحدهما : تشبيه غير تمثيلي وهو ما كان وجه الشبه فيه أمراً بيناً بنفسه لا يحتاج إلى تأويل ، وصرف عن الظاهر؛ لأن المشبه فيه مشارك للمشبه به ويتحقق ذلك بأن يكون الوجه حسياً ومعنى كونه حسياً أن يكون مدركاً بإحدى الحواس الخمس وهي السمع ، والبصر ، والشم ، والذوق ، واللمس أو أن يكون الوجه «عقلياً حقيقياً» أي ثابتاً متقدراً في ذات الموصوف من الكيفيات النفسية كالأخلاق ، والغرائز ، والطباع ، نحو الكرم ، والبخل ، والجبن ، والشجاعة ، وهكذا .

فمن أمثلة الوجه الحسي مما مثل بها الشيخ أن يُشبه الشيء الشيء إذا استدار بالكرة في وجهه ، وبالحلقة في وجه آخر ، وهو تشبيه في الصورة أي الشكل الهندسي ، وكالتشبيه من جهة اللون ، وهو تشبيه في الصورة كتشبيه الخد باللورد ، والشعر بالليل ، والوجه بالنهار ، وتشبيه سقط النار بعين الديك في الحمرة ، والسقط هو ما يسقط بين الزندين عند القدح ، والوجه في هذا هو الاشتراك في اللون .

وكالتشبيه الذي يجتمع فيه اللون والشكل كقول أبي القيس بن الأسلت :
وقَدْ لَاحَ فِي الصُّبْحِ الثُّرَيَّا لَمَنْ رَأَى كَعُنُقُودٍ مُلَاحِيَةٍ حِينَ نَوْرًا
ووجه الشبه مركب من اللون والشكل وهو الهيئة الحاصلة من اجتماع أجرام صغيرة بيض مستديرة متقاربة غير متلاصقة .

❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

وكالتشبيه من جهة الهيئة وهي الأحوال العارضة مثل تشبيه القامة بالرمح ،
والقدّ اللطيف بالغصن ويدخل في الهيئة حال الحركات في أجسامها كتشبيه
الذاهب على الاستقامة بالسهم السديد والوجه السرعة في استقامة .

أما التشبيه من جهة الغريزة والطباع أي ما يكون وجه الشبه فيه عقليا
حقيقيا كتشبيه الرجل بالأسد في الشجاعة ، وبالثعلب في الدهاء والمكر
والأخلاق كلها تدخل في الغريزة نحو السخاء واللؤم ، والكرم ، فوجه الشبه في
هذه النماذج كلها بيّن لا يجري فيه التأول ، ولا يفتقر إليه في تحصيله وأي
تأول يجري في مشابهة الخد للورد في الحمرة وأنت تراها هنا كما تراها
هناك؟ وكذلك تعلم الشجاعة في الأسد كما تعلمها في الرجل^(١).

أما الضرب الثاني : وهو التشبيه التمثيلي وهو ما لا يكون الوجه فيه أمرا
بيّنًا بنفسه ، بل يحتاج تحصيله إلى تأول وصرف عن الظاهر لأن المشبه لم
يشارك المشبه به في صفته الحقيقية والمقصود بالتأول إرجاع وجه الشبه إلى
معنى يكون متحققا في الطرفين بوجه من التلطف والحيلة . وهذا إنما يتحقق
فيما إذا كان الوجه ليس حسيا ، ولا من الأخلاق والغرائز والطباع العقلية
الحقيقية ولكنه يكون عقليا غير حقيقي . مثل قولك هذه حجة كالشمس
والمراد بالحجة معنى الكلام لا الكلام المسموع ، فأنت قد شبهت الحجة
بالشمس من جهة ظهورها كما شبهت فيما مضى الشيء بالشيء من جهة
ما أردت من لون أو صورة أو غيرهما إلا أنك تعلم أن هذا التشبيه لا يتم لك
إلا بتأول وذلك لأن وصف المشبه به الحقيقي وهو «الظهور» من خواص
المحسوسات لأن معناه ألا يكون هناك مانع للبصر - من الرؤية - لا يصح أن
يوصف به «المشبه» وهو «حجة» فاحتجنا إلى التأول وصرف الكلام عن
ظاهره ، وإرادة ما يستلزمه وهو ألا يكون دونها حجاب يمنع من الإدراك لكي
يكون مشتركا بين الطرفين وهو عقلي غير حقيقي .

(١) أسرار البلاغة ، بتحقيق محمود محمد شاكر ، ص ٩٢ .

الصورة البيانية ————— دراستي مسأله البيان ————— ❁

فالشبه نظير الحجاب فيما يدرك بالعقول ؛ لأنها تمنع القلب من رؤية ما هي شبيهة فيه ، كما يمنع الحجاب الذي هو الحجة على صحة ما أدى من الحكم قيل فيه « هذا ظاهر كالشمس » أي ليس هناك مانع عن العلم به ولا للتوقف والشك فيه مساغ كما أن الشمس الطالعة لا يشك فيها ذو بصر ولا ينكرها إلا من لا عذر له في إنكاره فقد احتجت في تحصيل الشبه الذي أثبتته بين الحجة والشمس إلى مثل هذا التأول ^(١).

هذا والتمثيل الذي يحتاج إلى تأويل تتفاوت رتبته ، فمنه ما هو قريب المأخذ ، سهل المأثى كالمثال السابق ، وكقولهم : ألفاظه كالماء في السلاسة ، وكالنسيم في الرقة ، وكالعسل في الحلاوة ، المشبه مفرد ، والمشبه به متعدد ولأن المشبه لا يصح اتصافه بهذه الأوصاف احتجنا إلى التأول ، وإرادة ما تستلزمه هذه الأوصاف في قبول النفس لها وارتياحها إليها ، وحسن وقعها لديها على نجوتهن لهذه الأشياء وينشرح لها صدرها ويمنحها نشاطا كالعسل الذي يلذ طعمه .

ومنه ما تقوى الحاجة فيه إلى التأول حتى لا يعرف المقصود من التشبيه فيه ببديهة السماع تقول فاطمة بنت الخرشب الأنمارية حين سئلت أي بنيتها أفضل؟ قالت : هم كالحلقة المفرغة لا يدري أين طرفاها ؟

والمفرغة التي أذيب معدنها ، وأفرغ في قالب ، فلا يدري لها طرف ولا يعرف ، ووجه الحاجة إلى التأويل أن المشبه ليس متصفاً بوصف المشبه به الظاهر ، وهو الاستدارة مع استواء الأجزاء ، بل المقصود ما يلزم ذلك من التناسب التام ، وعدم إمكان المفاضلة بين جزء وجزء ، وهذا هو الوجه المشترك بين الطرفين .

* * *

(١) أسرار البلاغة ، ص ٩٢ ، ٩٣ .



العلاقة بين التشبيه والتمثيل

نؤكد أن التشبيه بمعناه العام وهو على حد ما عرفه الخطيب هو الدلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى ، وهو بهذا أعم من التمثيل مطلقاً ، والتمثيل أخص منه مطلقاً ؛ لأنه قسم منه ، وعلى هذا يقول الشيخ عبد القاهر : « وإذ قد علمت الفرق بين الضربين فاعلم أن التشبيه عام ، والتمثيل أخص منه ، فكل تمثيل تشبيه وليس كل تشبيه تمثيلاً » على أن الإمام عبد القاهر نراه يطلق التشبيه ويريد به ما قابل التمثيل كقول الشاعر:

وقد لاح في الصُّبحِ الثُّرَيَّاَ لِمَن رَأَى . كَعُنُقُودٍ مُلَاحِجَةٍ حِينَ نَوْرًا

فقد قال في شأنه : إنه تشبيه حسن ، ولا تقول فيه إنه تمثيل ، وقد سبق أن عرفنا وجه الشبه فيه ، وهو هيئة حسية مؤلفة من اللون والشكل معاً؛ إذ هو الهيئة الحاصلة من اجتماع أجرام صغار بيض مستديرة غير متلاصقة على شكل مثلث ذي قدر مخصوص .

أما التمثيل فمن ذلك قول ابن المعتز :

اصْبِرْ عَلَى مَضَضِ الْحَسُو دَفِإَنَّ صَبْرَكَ قَاتِلُهُ
فَالْأَرَارُ تَأْكُلُ نَفْسَهَا إِنْ لَمْ تَجِدْ مَا تَأْكُلُهُ

والمشبه الحسود الذي يهمله المحسود ، ولا يعيره اهتماماً ، ولا يُلقِي له بالاً ، ولا يظهر له من الألم ما يشفي غليل صدره ؛ فيشتعل غيظه في داخله ؛ حتى يورده موارد الهلاك ، والمشبه به النار ، يمنع عنها الوقود ، ولا تمد به فلا تبقى مشتعلة وتظل حتى تفنى وتنطفئ ، ووجه الشبه إسراع الفناء ؛ لانقطاع ما فيه مدد البقاء والطرفان مركبان ، والوجه كذلك مركب ، وكان هذا « تمثيلاً » لأن الوجه فيه ليس حسياً ولا عقلياً حقيقياً وحاجته إلى التأول ظاهرة لأن المشبه لم يتصف بالوصف المحسوس للمشبه به .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَةٌ فِي مَسَائِلَ عَلَى الْبَيَانِ ————— ❁

ومن التمثيل ما تراه في قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ (الجمعة: ٥) .

فقد شبه حال اليهود في حملهم للتوراة ، وحفظهم لها ، مع عدم عملهم بما فيها ، وفهمهم لمراميها وأغراضها ، والمشبه به حال الحمار الذي يحمل أسفاراً من المعارف والعلوم النافعة مع عدم انتفاعه بشيء منها مع التعب في حملها واستصحابها ، ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من حرمان الانتفاع بأحسن شيء ينتفع به مع التعب والمشقة في حمله واستصحابه ، وكان هذا « تمثيلاً » لأن الوجه فيه ليس حسياً ولا عقلياً حقيقياً ، وحاجته إلى التأويل ظاهرة ؛ لأن المشبه لم يتصف بالوصف المحسوس للمشبه به ، ومن التشبيه التمثيلي على حد ما ذكر الإمام قول صالح بن عبد القدوس :

وإنَّ مَنْ أَدْبَيْتَهُ فِي الصَّابَا كَالْعُودِ يُسْقَى الْمَاءَ فِي غَرْسِهِ
حَتَّى تَرَاهُ مُورِقًا نَاضِرًا بَعْدَ الَّذِي أَبْصَرْتَ مِنْ يَنْسِهِ

ووجه الشبه هو التحول من حال النقص إلى الكمال ؛ بسبب التعهد بالعلاج في الوقت الذي يثمر فيه العلاج ويجدي ، والمشبه هو حال الصبي حين يتعهد بالتربية والأدب في صباه ، والمشبه به حال العود يغرس صغيراً ويتعهد بالسقي ، وكل ما يصلحه ، وكل من الطرفين والوجه مركب ، وحاجته إلى التأويل ظاهرة ؛ لأن الاشتراك في لازم صفة المشبه به لا في الصفة نفسها.

ويرى شيخنا الأستاذ الدكتور محمد محمد أبو موسى أن أول من أفرد التمثيل من التشبيه هو الإمام عبد القاهر ، وجعله قسماً منه ، وأبرز خصوصيته في الدلالة ، واهتم ببيان هذه الخصوصية ، وأنها تدور حول أعمال العقل والتفتيش في الطرفين ، والنفاذ إلى الشبه الحقيقي الذي تراه في المشبه على حد رؤيتك له في المشبه به ، وهذا بخلاف التشبيه الصريح الذي ترى الوجه فيه قائماً في الطرفين على حد واحد ، كالحمرة التي تراها في الورد وتراها في

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ —————﴾ دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

الخد المشبه في كل صور التمثيل التي ذكرها الإمام عبد القاهر أمر عقلي والمشبه به أمر حسّي ، ويبيّن شيخنا أنه إنما سُمي تمثيلاً لأنه يمثل الأمور المعقولة ، ويجعلها شاخصة ماثلة في أمر محسوس ، وهو من التمثال المنصوب أي التمثال بين عينيك يمثل فكرة عقلية ، أو نفسية ، أو تاريخية ، أو وجدانية ، أو ما شئت مما هو داخل في المدرك بالعقل ، وما اصطالحنا على تسمية أمراً عقلياً وهو مقابل لما يدرك بالحس ، فالتمثيل عند الإمام هو اقتناص الأحوال الروحية ، وتكثيفها ، وتجسيدها في الصور الحسية ، ويستوي أن يكون الطرفان مفردين ، أو مركبين ، أو مختلفين ، فليس التركيب شرطاً في التمثيل كما ذهب المتأخرون . وإنما المهم في التمثيل هو انتقال المعنى من حيز المعقول إلى حيز المحسوس . فقولنا : كلام كالعسل في الحلاوة تمثيل ؛ لأن الكلام وهو مدرك عقلي صار عسلاً يذوق اللسان حلاوته ، ويرى أستاذنا أن الإمام عبد القاهر يؤكد على أن وجه الشبه في التمثيل هو الصفة المحسوسة في المشبه به يعني « حلاوة العسل » فإذا انتقلت من هذه الصورة المعلومة إلى قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ (إبراهيم: ١٨) .

فوجه الشبه هو ما تراه عينك في صورة المشبه به من تبديد الرماد الذي اشتدت به الريح في يوم عاصف ، وأعمال الذين كفروا ماثلة في هذه الصورة وتخطئ إذا حاولت انتزاع وجه شبه عقلي ليستقيم قيامه بالطرفين كأن تقول : إن وجه الشبه هو عدم الانتفاع وأن الكلام يشبه العسل في ميل النفس ، هذا إفساد للصورة ، وإهدار لدلالاتها وبطلان لتسمية ذلك تمثيلاً ، لأن المعنى مع هذا الوجه العقلي ليس ماثلاً بين العينين ، ووجه الشبه في قول الشاعر :

وَإِنَّ مَنْ أَدْبَتَهُ فِي الصَّبَا كَالْعُودِ يُسْقَى الْمَاءَ فِي غَرَسِهِ
حَتَّى تَرَاهُ مُورِقًا نَاصِراً بَعْدَ الَّذِي أَبْصَرْتَ مِنْ يَبْسِهِ

الصورة البيانية ————— دراستي في مسأله البيان ————— ❁

هو هذه النظارة التي تراها في العود يسقى الماء في غرسه ، والوجه في قول الآخر :

اصْبِرْ عَلَى مُضَضِّ الْحَسُو دَفَّانٍ صَبْرَكَ قَاتِلُهُ
فَالْتَّارُ تَأْكُلُ نَفْسَهَا إِنْ لَمْ تَجِدْ مَا تَأْكُلُهُ

هو ما تراه عينك في هذه النار التي لم تمتد بالحطب ، وهي تأكل نفسها ، وليس الفناء لانقطاع ما فيه مدد البقاء كما قال المتأخرون وهذا هو الذي أسس عليه الإمام عبد القاهر الفرق حين ذكر أن التمثيل ما كان الوجه فيه متأولاً ؛ لأن الوجه العقلي لا تأويل فيه ، وإنما التأويل لأن هذا الوجه الحسي لا يقوم في المشبه إلا على وجه التأول ، كأن تقول : إن الذي تراه في الحسود الذي تركت مقاولته كالذي تراه في هذه النار التي تأكل نفسها^(١).

وقد حرصت على أن أنقل كلام أستاذنا على الرغم من طوله لما يمثله من نصاعة وفهم لما يرمي إليه الإمام عبد القاهر طيب الله ثراه .

* * *

(١) مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني ، ص ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، مكتبة وهبة ، أولى . ١٩٩٨ م .

التشبيه التمثيلي عند السكاكي

يقول : « وإعلم أن التشبيه متى كان وجهه وصفاً غير حقيقي ، وكان منتزِعاً من عدة أمور خُصَّ باسم التمثيل ، كالذي في قوله :

اصْبِرْ عَلَى مُضَضِّ الْحَسُو دَفَّانٍ صَبْرَكَ قَاتِلُهُ
فَالنَّارُ تَأْكُلُ نَفْسَهَا إِنْ لَمْ تَجِدْ مَا تَأْكُلُهُ

فإن تشبيه الحسود المتروك مقاولته بالنار التي لا تمتد بالحطب فيسرع فيها الفناء ليس إلا في أمر متوهم له وهو ما تتوهم إذا لم تأخذ معه في المقولة مع علمك بتطلبه إياها عسى أن يتوصل بها إلى نفثة مصدر من قيامه إذ ذاك مقام أن تمنعه ما يمد حياته ليسرع فيه الهلاك وأنه كما ترى منتزع من عدة أمور وكالذي في قوله :

وَإِنْ مَنْ أَدْبَيْتَهُ فِي الصَّبَا كَالْعُودِ يُسْقَى الْمَاءَ فِي غَرْبِهِ
حَتَّى تَرَاهُ مُورِقًا نَاصِراً بَعْدَ الَّذِي أَبْصَرْتَ مِنْ يَبْسِهِ

فإن تشبيه المؤدب في صباه بالعود المسقى أوان الغرس المونق بأوراقه ونضرتة ليس إلا يلزم كونه مهذب الأخلاق ، مرضي السيرة ، حميد الفعال؛ لتأدية المطلوب بسبب التأديب المصادف وقته من تمام الميل إليه ، وكمال استحسان حاله ، وأنه كما ترى أمر تصوري لا صفة حقيقية وهو مع ذلك منتزع من عدة أمور»^(١).

فالإمام السكاكي يرى أن التشبيه التمثيلي هو ما كان وجه الشبه مركباً عقلياً غير حقيقي ، ومن أمثلته أيضاً : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ (الجمعة: ٥).

(١) مفتاح العلوم للسكاكي ، ص ١٦٤ ، ١٦٥ ، مصطفى البابي الحلبي .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَةٌ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ❁

رأي الخطيب في التشبيه التمثيلي : والتشبيه التمثيلي عنده ما كان وجه الشبه فيه منتزعا من شيئين ، أو عدة أشياء مستنبطة من الطرفين ، سواء كان حسيّا أو عقليّا .

فالمركب الحسي كما في قول بشار :
كَأَنَّ مُنَارَ النَّقْعِ فَوْقَ رَعْوَسِنَا وَأَسْيَافُنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبَهُ
والمشبه : الهيئة الحاصلة من السيوف بين العجاج المظلم وهي تعلو وتنخفض ، وتتلاقى ، وتتباعد ، وتتحرك بسرعة في كل الجهات ، والمشبه به : الهيئة الحاصلة من الليل ، وقد تهاوت كواكبه اللامعة في سرعة بالغة ، وهي تتصادم وتتداخل ، ويختلط بعضها ببعض ، ووجه الشبه الهيئة الحاصلة من هوى أجرام مشرقة ، مستطيلة الأشكال ، متناثرة في جوانب شيء مظلم ، والمركب العقلي كما في قول الله في وصف حال المنافقين :
﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَةٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ (البقرة: ١٧).

والمشبه في هذه الآية هو حال المنافقين ، وقد أظهروا دخولهم في الإسلام طمعاً في الحماية وكسب الغنائم ، فلما انكشف سترهم انقلب أملهم خيبة ، والمشبه به حال قوم أوقدوا ناراً ليستضيئوا بها ، فلما اشتعلت ، وحن وقت الاستفادة منها سلبهم الله نورها وأعادهم إلى ما كانوا فيه من ضلال وظلام ، ووجه الشبه أن كلا من المنافقين ومستوقدي النار سعوا في الأسباب الموصلة إلى تحقيق الآمال ، وحين ظهرت الدلائل لقرب نجاحهم انقلب الأمر على خلاف ما أملوا .

* * *

مواقع التمثيل وأثره

يشير الإمام عبد القاهر : إلى أن التمثيل يقع على وجهين :
أحدهما : أن يجيء في أعقاب المعاني ، **والثاني** : أن يبرز المعنى باختصار في معرضه^(١) ، وينقل عن صورته الأصلية إلى صورته .

فالضرب الأول الذي يجيء في أعقاب المعاني : هو ما جاء على صورة من صور التشبيه اللفظي ، أو الضمني بعد كلام يبين به أحوال المشبه والتشبيه التمثيلي يزيد المعاني التي يقع بعدها تأكيداً ، في النفس ، وتثبيتاً لها ، وتهيئاً لقبولها ، والاطمئنان إليها ، والتأثر بها ، كما أن التمثيل يستثير^(٢) لها من أقاصي الأفئدة صباغة وكلفاً^(٣) ، وقسر الطباع^(٤) على أن تعطىها محبةً وشغفاً .

فإذا كان المعنى الذي جاء التمثيل لتثيته مدحاً كان أبهى وأفخم ، وأنبل في النفوس وأعظم ، وهكذا يرفع من شأن الممدوح ويكسبه ذيوعا وشهرة ، ويجلب له بهذا المدح أنسا وسعادة ، وطرباً ؛ إذ يجعله أسير على الألسن ، وأذكر وأولى بأن تتعلق به القلوب وأجدر ، كقول البحري :

دَانَ عَلَى أَيْدِي الْعُفَاةِ وَشَاسِعُ عَنْ كُلِّ نَدٍّ فِي النَّدَى وَضَرِبَ^(٥)
 كَالْبَدْرِ أَفْرَطَ فِي الْعُلُوِّ وَضَوْؤُهُ لِلْعُصْبَةِ السَّارِينَ جِدُّ قَرِيبِ

والتشبيه يقوم على أساس تشبيه حالة معقولة ، هي حالة الممدوح في قرب

(١) المِعْرُض كمبرد ثوب تجلي فيه العروس ليلة العرس .

(٢) يستثير : أي يهيج .

(٣) صباغة وكلفاً : محبة ورغبة .

(٤) قَسَرَ : أي أجبر .

(٥) العفاة طالبي العطاء - الضريب النظير .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دُرُسَتْ فِي مَسَائِدِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ————— ❁

عطائه ، وبعد مكانته ومنزلته ، والمشبّه به حال محسوسة هي حالة البدر في بُعد مكانه ، وقرب ضوئه ، ونوره ، ووجه الشبه هو اتصاف كل منهما في آن واحد بصفتي القرب والبعد .

وإذا كان المعنى الذي وليه التمثيل ذمًّا كان مسه أوجع ، وميسمه^(١) ألدع ، ووقعه أشد ، وحده أحد ، فلو أنك قلت : فلان يكذب نفسه في قراءة الكتب ، ولا يفهم منها شيئاً ، وسكت لم يكن كما تتبعه بقولك : كالحمار يحمل أسفاراً ، أو بقول مروان بن أبي حفصة في ذم رواة الشعر الذين لا يفرقون بين جيده وردئه مع كثرة حفظهم :

زَوَامِلُ لِلْأَشْعَارِ لَا عِلْمَ عَنْدهُمْ بِجَيِّدِهَا إِلَّا كَعِلْمِ الْأَبْعَارِ
لَعَمْرُكَ مَا يَدْرِي الْبَعِيرُ إِذَا غَدَا بِأَوْسَاقِهِ أَوْ رَاحَ مَا فِي الْغَرَائِرِ

و«الزوامل» جمع زاملة : وهي ما يحمل عليها من الإبل ، وغيرها و«الأباعر» : جمع بعير و«الأوساق» : الأحمال و«الغرائر» جمع غرارة بالكسر: الجوالق ، والتشبيه بالزوامل التي تحمل الأوساق ، ولا تدري ما فيها كالتشبيه بالحمار يحمل أسفاراً ، فهو قد شبه الرواة في تعبهم في حفظ الأشعار مع جهلها بالزوامل التي تحمل الأوساق ، وتجهل ما فيها ، ووجه الشبه التعب في استصحاب الشيء مع جهله .

ومن هذا ما تراه في قول ابن لُئَكَ :
إِذَا أَخُو الْحُسَيْنِ أَضْحَى فَعَلُهُ سَمَجًا رَأَيْتُ صُورَتَهُ مِنْ أَقْبَحِ الصُّوَرِ
وهو تعريض مؤلم ثم أتبعه بقوله :

وَهَبْكَ كَالشَّمْسِ فِي حُسْنٍ أَلَمْ تَرْنَا نَفَرُ مِنْهَا إِذَا مَالَتْ إِلَى الضَّرَرِ
فإنه سيتبين لك ويظهر أن المعنى في التمثيل قد ازداد شرفاً ، وصار أشد لذعاً ، وأكثر إيلاماً .

(١) مِيسْمُهُ : آلة الكي .

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

والتشبيه يقوم من خلال تشبيه حال من يتباهى بحسنه ، وفعله قبيح بحال الشمس لا يمنع حسنُها الباهر ، وضوؤها الساطع من كراهتها والفرار منها إذا اشتد حرها ، وتعذر احتمالها ، ووجه الشبه هو كراهة الشيء والنفرة منه لضرره ، وإن حسن منظره ، وأعجب ظاهره .

وإن كان المعنى الممثل وعظا كان أشفى للصدر ، وأدعى للفكر ، وأبلغ في التنبيه والزجر ، وأجدر بأن يجلي الغاية^(١) ، ويبصر الغاية ، ويبرئ العليل ويشفي الغليل وازن بين قولك : إن الذي يعظ غيره ، ولا يتعظ يضر نفسه من حيث ينفع غيره ، وبين أن تتبعه بقول الرسول - عليه الصلاة والسلام - : « مثل الذي يعلم الخير ، ولا يعمل به مثل السراج يضيء للناس ، ويحرق نفسه » .

وازن بين أن تقول : الدنيا لا تدوم ، ولا تبقى ، وبين أن تقول : هي ظلٌ زائل ، وعارية^(٢) تسترد ، ووديعة تسترجع ، وتذكر قول النبي ﷺ : « من في الدنيا ضيف ، وما في يديه عارية ، والضيف مرتحل ، والعارية مؤداة » .

« العارية » بتشديد الياء وجمعها « عَوَارِي » بتشديد الياء أيضاً كأنها منسوبة إلى « العار » لأن طلبها عار وعيب ، ويقال لها : « العارة » أيضاً ، وهو اسم من « الإعارة » يقال : « أعرتة الشيء ، وإعارة ، وعارة » كما قالوا : « أطعته إطاعة ، وطاعة » .

هذا وقد مثل الرسول ﷺ حال المرء في الدنيا بحال الضيف النازل في غير داره ، يقيم بها بمقدار ما تنهياً له الإقامة ، ثم يرحل ، ومثل حال ما في يده بحال الشيء تستعيره من غيرك ؛ لتنتفع به إلى حين ، ثم ترده إلى صاحبه بجامع عدم الدوام على الحال التي كان يرجو دوامها عليها .

(١) الغاية : بياين كل شيء أظل الإنسان فوق رأسه كالسحابة ، والغبرة ، والظل .
(٢) العارية بتشديد الياء وجمعها « عَوَارِي » بتشديد الياء أيضاً كأنها منسوبة إلى « العار » لأن طلبها عار وعيب .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسْتُ فِي مَسَائِدِ الْبَيَانِ ————— ❁

وإذا كان المعنى الذي جاء التمثيل لتشيته فخراً كان شأوه^(١) أبعد ، وشرفه أجد ، ولسانه ألد لقول المتنبي :

كَمْ تَطْلُبُونَ لَنَا عَيْناً فَيُعْجِزُكُمْ وَيَكْرَهُ اللَّهُ مَا تَأْتُونَ وَالْكَرَمُ مَا أَبْعَدَ الْعَيْبَ وَالنَّقْصَانَ عَنْ شِيَمِي أَنَا الثُّرَيَّا وَذَانِ الشَّيْبِ وَالْهَرَمُ

فهو يشبه حاله مع العيب والنقصان بحال « الثريا » مع الشيب والهرم ، فكما يستحيل قيام هذين بالثريا كذلك يستحيل قيام العيب والنقصان به ، فالتشبيه مركب وليس متعددًا فإنه وإن صح تشبيه نفسه بالثريا في العلو لكنه لا معنى لتشبيه العيب والنقصان بالشيب والهرم استقلالاً ، ووجه الشبه الهيئة الحاصلة من محاولة إلصاق شيء بشيء آخر لا يناسبه .

وإذا كان المعنى الذي جاء التمثيل لتأكيده وصفًا وضحه وأظهره على حد قول البحري يصف أخلاق ممدوحه بأنها ازدادت حسنًا بمجاورتها لأخلاق قوم لئام خالين من المجد :

وَقَدْ زَادَهَا إِفْرَاطٌ حُسْنٍ جَوَارُهَا خَلَّتْ أَصْفَارٌ مِنَ الْمَجْدِ خَيْبٌ وَحُسْنٌ دَلَارِي الْكَوَاكِبِ أَنْ تُرَى طَوَالَعٌ فِي دَاجٍ مِنَ اللَّيْلِ غَيْهَبٌ^(٢)

فهو يشبه أخلاق ممدوحه الحسنة تزداد حسناً بمجاورتها لأخلاق قوم لئام بدراري الكواكب تتألق جمالاً ، وتزداد حسناً بمجاورتها لغيب الليل الداجي ، ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من الشيء يزداد جمالاً وحسناً بمجاورته ما يضاده .

* * *

(١) الشأو : السبق .

(٢) أصفار : جمع صفر بسكون العين مثلث ، وهو الخالي .

وخيب : جمع خائب أي محروم أو خاسر ، والكوكب الدري : أي المتألق ، والمشرق نسبة إلى الدرة وهي اللؤلؤة العظيمة ، والداجي : المظلم ، والغيب : الظلمة .

أسباب تأثير التمثيل في النفس

بعد أن بين الإمام عبد القاهر بالمثال الناطق ما للتمثيل من أثر في النفوس وذلك في كتاب أسرار البلاغة شرع يبين السر وراء هذا التأثير الذي من شأنه توضيح المعنى ، وتقريره مما يؤدي إلى إثارة المشاعر وتحريكها ذلك أن المعنى بعد التمثيل يزداد في النفس وضوحاً وبيانا ، ويُحْدِثُ أثره المطلوب في تحريك الهممة ، أو بعث الكراهية ، أو توليد المحبة للشيء الممثل إلى غير ذلك من المشاعر والأحاسيس التي تتولد في النفس؛ حين يكون هناك من الدواعي ما يثيرها ويحركها ، وذكر الشيخ أسباباً لتأثير التمثيل ، واكتفى الخطيب القزويني بأظهر هذه الأسباب وأبرزها ، ونحن نتابعه فيما ذهب إليه . فهو يقول :

أسباب تأثير التشبيه : ولذلك أسباب منها ما يحصل للنفس من الأُنس بإخراجها من خفيٍّ إلى جليٍّ ، كالانتقال مما يحصل لها بالفكرة إلى ما يعلم بالفطرة ، أو بإخراجها مما لم تألفه إلى ما ألفته ، أو مما تعلمه إلى ما هي به أعلم ، كالانتقال من المعقول إلى المحسوس ، فإبراز المعقول في صورة المحسوس ، وإبراز ما لا يعلم علم اليقين في صورة ما يرى عياناً ، ويشاهد ، ويُبَصَّرُ مما يجعل النفس تأنس به ؛ لأن طبيعتها أن تتأثر بالمحسوس أكثر من تأثرها بالمعقول ، والذي يؤكد هذا أمران :

- ١- أنك حين تحاول المبالغة في وصف يوم بالقصر فتقول : هو يوم كأقصر ما يتصور ، أو كأقصر ما يدور في خيالك فإن هذه المبالغة لا يجد لها السامع من الأُنس ما يجده لنحو قولهم :

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَةٌ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ❁

أيام كأباهيم^(١) القطا ، وقول الشاعر :

ظَلَّلْنَا عِنْدَ بَابِ أَبِي نُعَيْمٍ يَوْمَ مِثْلِ سَالِفَةِ الذُّبَابِ^(٢)

أو تشبيهه بظل الرمح كما قال شبرمة بن الطفيل :

وَيَوْمَ كَظَلَّ الرُّمْحُ قَصْرَ طَوْلِهِ دُمُ الزَّقِّ عَنَّا وَاصْطَفَاقُ الْمَزَاهِرِ^(٣)

وإن كان قول الشاعر : كظل الرمح لا يؤدي من المبالغة مثل قولهم ! يوم كأقصر ما يكون .

ولو حاولت وصف رجل بقوة العزيمة ، والاهتمام بالأمر فقلت : فلان إذا هم بالشئ لم يزل عن ذكره ، وقصر خواطره على إمضاء عزمه فيه يعني إذا هم بالأمر لا يشغله شاغل عنه حتى ينجزه فإن هذا الوصف لا يصادف السامع له أُرِيحِيَّةً ، ولا يؤثر فيه مثل ما يؤثر فيه قول سعيد بن ناشب :

إِذَا هُمْ أَلْقَى بَيْنَ عَيْنَيْهِ عَزْمَهُ وَكَبَّ عَنْ ذِكْرِ الْعَوَاقِبِ جَانِبَا

لأن هذا التمثيل أراك عزمه شاخصاً أمام عينيه كأنه شيء مرئي ومشاهد ، وفي هذا تشبيه العزم بشيء محسوس يلقي أمام العينين بجامع العناية التامة ، ولكن هذا الشاهد ليس من التشبيه التمثيلي ، وإنما هو من الاستعارة بالكناية لحذف المشبه به ، وإثبات لازمه للمشبه .

٢- أنك إذا حاولت أن تقنع أخاك بأنه يكذب نفسه ، ويتعب في أمر لا يثمر ولا يفيد ، وأنت تريد أن تقرر له أنه لا يحصل من سعيه على طائل ، واجتهدت بكل ما لديك من وسائل الإقناع لتبين له ذلك ، فإنك لا تبلغ من إقناعه ، والتأثير عليه ما تبلغه إذا أدخلت يدك في

(١) الأباهيم : جمع إيهام ، وهو الإصبع المعروفة .

(٢) سالفة الذباب مقدم عنقه ، والمراد أنه مثلها في القصر .

(٣) الزق : الخمر المزاهر : أعواد الطرب .

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

الماء مقبوضة ، ثم قلت له : انظر هل حصل في كفى من الماء شيء ؟
فكذلك أنت في أمرك - كان لذلك ضرب من التأثير في النفس ،
وتمكين المعنى في القلب زائد على القول المجرد أي أنه يظهر لك ما
تريد تشبيهه في صورة مستحسنة تنال إعجابك وموضع الحديث في
ذلك في أغراض التشبيه .

الفائدة الثالثة من فوائده أنه يوسع آفاق التعبير أمام الأديب ويُمكنه من أن
يأخذ من الشيء الواحد إذا تعددت أحواله وصفاته أشياء عديدة ، ومعاني
مختلفة . نحو أن يعطيك من الزُّند بإيرائه الجواد ، والذكي ، والنَّجح في الأمور ،
وبإصلاحه شَبَهَ البخيل والبليد والخيبة في السعي .
وإليك أمثلة مختلفة للزُّند توضَّح هذه الفائدة .

الزُّند - إذا عولج فأخرج النار يقال أَوْرَى الزُّند ... وإذا لم يَجِئ بالنار
يقال :- أَصْلَدَ الزُّند وحين تستخدم الحالة الأولى للزند وهي إيراؤه فيمثل بها
حال الرجل الكريم يوجد بما عنده فيقال : يوجد كما يوجد الزند الموري -
وأن يمثل بها حال الرجل الذكي فيقال : يتوقد ذهنه توقد الزند الموري ، وأن
يمثل بها حال الرجل الناجح فيما يذهب إليه من الأمور فيقال : لا يخيب له
سعي كالزُّند الموري .

ويمكن أن تستخدم الحالة الثانية للزُّند وهي إصلاحه فيمثل بها للبخيل
فيقال : هو كالزُّند المَصْلَد لا يوجد بشيء ، وأن يمثل بها حال الغبي فيقال :
عقله كالزُّند المصلد لا يثمر فكراً وأن يمثل بها حال الرجل الذي لا ينجح له
مسعى فيقال : كلما ذهب لا يأتي بخبر أو نفع كالزند المصلد القمر - يدرك
المرء في القمر صفات مختلفة فهو يراه يكمل بعد نقصان وهذا أبو تمام ينظر
إلى هذه الصفة في القمر وهي الكمال بعد النقصان تتمثل في الطفل يتدرج في

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي تَالِبٍ ————— ❁

النمو حتى يبلغ مبلغ الرجال فقال في رثاء طفلين ماتا صغيرين وتمنى لو
أنهما عاشا حتى تتكامل فيهما ملامح النجاة والذكاء فقال :

لَهْفِي عَلَى تِلْكَ الشَّوَاهِدِ فِيهِمَا لَوْ أُمِّهَلَتْ حَتَّى تَصِيرَ شِمَانِلًا^(١)
لَعَدَا سُكُونُهُمَا — حَجِيٍّ وَصِبَاهُمَا حَلَمًا وَتِلْكَ الْأَرِيحِيَّةُ نَائِلًا^(٢)
وَلَأَعْقَبَ النَّجْمُ الْمُرْدُ بِدِيمَةٍ وَلَعَادَ ذَاكَ الطَّلُّ جَوْدًا وَابِلًا^(٣)
إِنَّ الْهَلَالَ إِذَا رَأَيْتَ نُمُوَّهُ أَقْنَيْتَ أَنْ سَيَصِيرُ بَدْرًا كَامِلًا

لو أمهلتهما الموت وتركها بحال الهلال حين يبدو ناقصاً ، ثم يتدرج حتى
يصير كاملاً .

والنقصان عن الكمال كما فعل أبو العلاء المعري - حين أراد نصيح الناس
بالتوسط في الأمور ؛ لأن هذا التوسط سبيل الأمن والراحة فقال :

وَإِنْ كُنْتَ تَبْغِي الْعَيْشَ فَابْغِ تَوْسُطًا فَعِنْدَ التَّنَاقُصِ يَقْصُرُ الْمَتَطَاوِلُ^(٤)
تَوْفَى الْبَدُورُ النِّقْصَ وَهِيَ أَهْلَةٌ وَيُدْرِكُهَا التَّنْقِصَانُ وَهِيَ كَوَامِلُ

والبيت الثاني محل الشاهد ، فقد شبه المعري حال الشخص في أمنه من
النقص عند التوسط في العيش ، وعدم أمنه إذا بلغ نهايته والمشبه به حال البدور
في أمنها من النقص ، وهي أهلة وإدراكه لها بعد كمالها .

(١) اللَّهْفُ الحسرة - والشواهد أمارات الفضائل فيهما - والشمائل - السجايا .

(٢) الحجى العقل ، والصبا يعني الفتوة والأريحية خصلة تجعل صاحبها يرتاح إلى
الأفعال الحميدة والنائل يعني العطاء .

(٣) المرذ : اسم فاعل من أرذ بمعنى : أمطر والمرذ : هو المطر الخفيف ، والديمة : المطر
يدوم في سكون بلا رعد وبرق ، والطل : المطر الضعيف ، والجود : المطر الغزير ،
والوابل : المطر الشديد ، التناهي : بلوغ النهاية ، والمتناول : اسم فاعل من تناول بمعنى
تمدد .

(٤) التناهي : بلوغ النهاية ، والمتناول : اسم فاعل من تناول بمعنى تمدد .

❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

ويقول الخطيب : وتتفرع من حالتي كماله ونقصه فروع لطيفة ، على حد ما فعل ابن بابك ، وهو يُسَلِّي الوزير أبا علي بن حمولة في إسناد نصف السلطة إليه بعد إسناد نصفها الآخر إلى وزير آخر ، فأصبحت السلطة كاملة بتولييه .

وَأَعْرَتْ ثَوْبَ الْمَلِكِ شَطْرَ كَمَالِهِ وَالْبَدْرُ فِي شَطْرِ الْمَسَافَةِ يَكْمُلُ
وَأَعْرَتْ بِمَعْنَى : أَعْطَيْتِ ، وَالشَّطْرُ يَعْنِي النِّصْفَ ، يَعْنِي تَدْبِيرَهُ نِصْفَ
السلطة مع أبي العباس الضَّبِّي ، والتشبيه في البيت يقوم من خلال تشبيه حال
المُلك في كماله بعد إضافة نصف السلطة إلى أبي علي بحال البدر ، يكمل في
انتصاف الشهر ، ووجه الشبه حدوث الكمال بالنصف في كل من الطرفين.

وكما فعل المتنبي في مدحه لابن منصور الحاجب :
هَذَا أَبْصَرْتُ مِنْهُ حَاضِرًا مِثْلُ الَّذِي أَبْصَرْتُ مِنْهُ غَائِبًا
كَالْبَدْرِ مِنْ حَيْثُ التَّفَتْ وَجَدْتَهُ يُهْدِي إِلَى عَيْنِكَ نَوْرًا ثَاقِبًا^(١)
فقد التفت المتنبي إلى ما في البدر من عموم ضيائه ، وأن نوره سيصل إليك
حيثما كنت ، فاستخدمه لتمثيل حال الممدوح ، يعطي البعيد كما يعطي
القريب ، فعطاؤه واصل إليهم جميعاً ، والمشبّه حال البدر ، يصل نوره وضوؤه
إليك في كل مكان تذهب إليه ، ووجه الشبه وصول النفع في حالة القرب
وحالة البعد .

إلى غير ذلك على حد ما قال الخطيب^(٢).

* * *

(١) الثاقب : المضيء ، أو النافذ في كل مكان .

(٢) ينظر : بغية الإيضاح ، ١٤-٨/٣ .

تقسيم التشبيه باعتبار الوجه إلى مفرد ، ومركب ، ومتعدد

ينقسم وجه الشبه باعتبار حسيته وعقليته وكونه مفرداً أو مركباً أو متعدداً إلى الأقسام التالية :

القسم الأول : أن يكون وجه الشبه واحداً حسياً ، كتشبيه السفن بالجبال في الضخامة في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴾ (الشورى: ٣٢) وتتشبيه الموج بالجبال في الارتفاع والضخامة في قوله تعالى: ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴾ (هود: ٤٢) .

ومن هذا اللون الذي يكون فيه الوجه مفرداً حسياً ما تراه في قول المتنبي :
كَمْ قَتِيلٍ كَمَا قُتِلْتُ شَهِيدٍ بِيَاضِ الطُّلِيِّ وَوَرْدِ الْخُدُودِ
فهو يتحدث عن قتلى العيون ، ولون النحور ، وتورد الخدود .

والتشبيه في آخر البيت ؛ حيث شبه لون الخدود بلون الورود في الحمرة ، والتشبيه قد أضيف المشبه به إلى المشبه « ورد الخدود » وهذه الإضافة أعلت من جمال المشبه ؛ حتى ليخيل إليك أن المشبه به وهو الورود نوعان : نوع عام مشترك ، ونوع خاص بالوجوه ، وهو ما شبه به هنا ، إنه ورد الخدود وليس غيرها .

ومن هذا الوجه الحسي ما تراه في قول المتنبي أيضاً في تصوير مسيل الماء على الحصى ، وارتظام بعضه ببعض محدثاً أصواتاً كوسوسة صوت الحلي في أيدي الغواني الحسان :

وَأَمْوَاهُ يَصِلُ بِهَا حَصَاهَا صَلِيلَ الْحَلِيِّ فِي أَيَدِي الْغَوَانِي

إن الشاعر يقف أمام المياه وخريرها ، ويصغي إلى الصوت المنبعث من تدفقها ، ولعلها كانت تمر بمسيل فيه دقائق الحصى ، وهي مندفعة من أعلى

❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

فيرتطم الحصى ، ويصطك بعضها ببعض ، وينشأ عن ذلك هذا الصليل الذي يشبه صوت الحلي في أيدي الجواري ، والتشبيه يقوم من خلال تشبيه صوت ارتطام الحصباء بصوت الحلي في أيدي الغواني ، حين يحركن أيديهن ، فيضرب بعضا ووجه الشبه هو هذا الصوت المميز ، ووجه الشبه مفرد حسي .

وهذا النوع من وجه الشبه لا يكون طرفاه إلا مفردين حسيين ، أما الأفراد فلأن تركيب الطرفين يستدعي تركيب وجه الشبه ، وأما الحسيّة فلاستحالة أن تستخرج الوجه الحسيّ من طرف عقلي ؛ لأن المعاني العقلية لا تقع عليها الحواس ، فكيف تدرك الحواس فيها أموراً محسوسة .

القسم الثاني : أن يكون وجه الشبه واحداً عقلياً كالهداية في قول الرسول ﷺ أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم ، فالوجه عقلي ، والطرفان حسيان .

وقد يكون الطرفان عقليين كقول المتنبي :

مُمَثِّلَةٌ حَتَّى كَأَنَّ لَمْ تُفَارِقِي وَحَتَّى كَأَنَّ الْبَاسَ مِنْ وَصْلِكَ الْوَعْدُ

يقول لها أنت ممثلة ومصورة في جَوَايَ وخاطري ، فكأنك حاضرة عندي لم تفارقيني وحتى كأن يأسي من وصلك وعدُّ لي بالوصال فهو يشبه يأسه من وصالها بوعدها له بالوصال في تحقيق أمله بالوصال ، ومن هذا اللون العلم كالحياة في النفع ، ووجه الشبه الواحد العقلي من طرفين مختلفين حساً وعقلاً في قولك العلم نور في الهداية ، فإن المشبه عقلي والمشبه به حسي ، وكاستطابة النفس في قولك :

العطر كالخلق الكريم فإن المشبه حسي والمشبه به عقلي وهذا النوع لا يكون طرفاه إلا مفردين لأن تركيب الطرفين يستدعي تركيب الوجه ولا يشترط فيه شيء من حسية الطرفين أو عقليتهما فقد ينتزع الوجه الواحد العقلي من طرفين حسيين كالمثال الأول أو من طرفين عقليين كالمثال الثاني

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَةٌ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ❁

والثالث أو من طرفين مختلفين عقلي وحسي كالشاهد الرابع أو حسي وعقلي كالمثال الأخير . فالتشبيه بالوجه العقلي لا يؤخذ من الأطراف الحسية وحدها ولا من الأطراف العقلية وحدها ، بل يؤخذ منها جميعا ، ولذا يقولون : إن التشبيه بالوجه العقلي أعم وذلك لأن دائرة العقلي أوسع في الإدراك من دائرة الحواس .

القسم الثالث : أن يكون الوجه مركبا حسيا ويكون طرفاه مركبين أو مفردين مقيدين ، أو مختلفين .

فالمركب ذو الطرفين المركبين كقول المتنبي :-

بِضَاءٍ تُطْمَعُ فِيمَا تَحْتَ حَلَّتِهَا وَعَزَّ ذَلِكَ مَطْلُوبًا إِذَا طُلِبَا
كَأَنَّهَا الشَّمْسُ يُعْبَى كَفَّ قَابِضُهُ شُعَاعُهَا وَيَرَاهُ الطَّرْفُ مُقْتَرِبَا

إنها ذكية تستخدم معه سلاح الفتنة والإغراء وهو ما تجيد استثماره حتى يدنو منها ويقترّب فإذا ما فعل وظن أنه قبض بيديه عليها فتح يديه فإذا به لا يقبض على شيء سوى الريح ، لقد فرت ونأت إلى مكان لا يستطيع أن يصل إليها فيه ، وهكذا تعرف كيف تلعب به ، وهذه الخطرات النفسية مما يحكيها التشبيه الذي يقوم من خلال تشبيه حال هذه المرأة في إطماعها له وقربها منه ، ثم بعدها عنه وصددها له بحال شعاع الشمس قريب من طرف العين فإذا ما حاول الإنسان الإمساك به والقبض عليه تفلّت منه ، وتعدّر عليه ولم يجد شيئا ، ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من حال الشيء يتناهى في قربه ثم يتناهى في بعده في آن ، ومن هذا الوجه قول بشار :

كَأَنَّ مُثَارَ النَّقْعِ فَوْقَ رُءُوسِنَا وَأَسْيَافُنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُهُ

فإن وجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من تساقط أجرام مشرقة مستطيلة متناسبة المقادير متناثرة في جوانب شيء مظلم والمركب الحسيّ ذو الطرفين المقيدين كما في قول قيس بن الخطيم :

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ﴾

وَقَدْ لَاحَ فِي الصَّبْحِ الثُّرَيَّا كَمَا تَرَى كَعُنُقُودٍ مُلَاحِيَةٍ حِينَ نُورًا

والثريا : اسم لمجموعة من النجوم متقاربة على شكل خاص ، والملاحية : بضم الميم وتخفيف اللام ، وقد تشدد كما هنا غنب أبيض حبه طويل ، ومعنى «نور» تفتح لَوْرَه .

فإن وجه الشبه فيه هو هيئة صور بيض مستديرة صغار المقادير في مرأى العين على وضع خاص ، فلا هي منظمة شديدة الانضمام ، ولا هي مبتعدة شديدة الابتعاد والطرفان ، وهما «الثريا والنجوم» مفردان ، روعي في كل منهما قيده الخاص ، ففي المشبه روعي كونه في وقت الصبح ، وفي الثاني روعي كونه عنقود ملاحية حين تفتح نوره .

والمركب الحسي ذو الطرفين المختلفين إفراداً وتركيباً كما تراه في قول الصنوبري :

كَأَنَّ مُحَمَّرَ الشَّقِيقِ إِذَا تَصَوَّبَ أَوْ تَصَعَّدَ
أَعْلَامُ يَاقُوتٍ تُشِيرُ نَ عَلَى رِمَاحٍ مِنْ زَبْرَجَدٍ

ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من اجتماع أشياء حمراء متحركة منصوبة على رءوس أجرام خضر ، والمشبه مفرد ؛ لأنه اسم لمسمى واحد هو «الشقيق» ولكن روعي فيه قيوده من الاحمرار ، والتصوب والتصعد ، والمشبه به مركب ؛ لأنه القصد فيه إلى هيئة الأعلام الياقوتية المنشورة على رماح من زبرجد ، وهو من المركبات الخيالية ، والحسي الخيالي ما كان من الأمور المخيلة التي يخترعها خيال الإنسان ويؤلفها من أشياء موجودة محسوسة وإن كانت هي في صورتها الكلية لا وجود لها في الواقع ، وفي هذا الشاهد المشبه فيه مفرد مقيد والمشبه به مركب ، وفي عكس هذا أي ما يكون المشبه فيه مركباً ، والمشبه به فيه مفرداً مقيداً ما تراه في قول أبي تمام :

يَا صَاحِبِي تَعْصِيَا نَظْرِيكُمَا تَرَى وَجُوهَ الْأَرْضِ كَيْفَ تُصَوِّرُ

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسْتُ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ❁

تَرَيَا نَهَارًا مَشْمَسًا قَدْ شَابَهُ زَهْرُ الرُّبَا فَكَأَنَّمَا هُوَ مُقَمَّرٌ

وقوله : «نقصيًا نظريكما» تفصيلته أي بلغت أقصاه ، أي : اجتهدوا في النظر ، وأمعنا فيه ، وابلغا أقصى نظريكما وقوة : «تصور» أي تتصور حذف «التاء» يقال صوره الله في صورة حسنة فتصور ، وقوله : «مشمسًا» أي : ذا شمس لم يسترها غيم ولم يحجبها و«قد شابه» أي خالطه ، و«زهر الربا» خصها لأنها أنضر وأشد خضرة ، ولأن المقصود بالنظر «فكأنما هو مقمر» أي ذلك النهار المشمس الموصوف «مقمر» أي ليل ذو قمر؛ لأن الأزهار باخضرارها قد نقصت من ضوء الشمس ، حتى صار يضرب إلى السواد ، فالمشبه به مفرد ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من اجتماع أشعة ضوئية منيرة مختلطة بأجسام كثيفة قاتمة تكسر من حدة إضاءتها ، والمشبه الهيئة الحاصلة من ضوء النهار المشمس خالط نبات الأرض ، فقُلْتُ حدة ضوئه ، والمشبه به «ليل مقمر» فالمشبه هنا مركب حسي ، والمشبه به مفرد مقيد بالوصف المذكور ، لكن قد يثار اعتراض ، يقال فيه : إن وجه الشبه هو المعنى الذي يشترك الطرفان فيه ، فينبغي أن يكون كليًا ؛ ليتأنى فيه معنى الاشتراك ، والحسِّي أي المدرك بحاسة من الحواس لا بد من وجوده في جسم معين خارجًا ، حتى يتأتى إدراكه بالحاسة كالحمرة القائمة في خد معين وَوَرِدَ معين ، ومثل هذا لا يكون إلا جزئيًا .

وللرد على هذا الاعتراض صحيح أن وجه الشبه لا يكون إلا كليًا ، حتى يشترك الطرفان فيه ، فوجه الشبه في قولك : «خد كالورد» هو «مطلق حمرة» وهو معنى كلي لا يدرك إلا بالعقل ، ولا مدخل للحواس فيه ، لكن الموصوف بالحسية إنما هو أفراد هذا الكلِّي أي جزئياته كحمرة هذا الخد المشاهد وحمرة هذا الورد المعين ، وأما الحمرة الكلية من حيث هي حمرة فهي غير مدركة بالبصر ولا بغيره من الحواس لأن الماهية من حيث هي أمر كلي معقول لا مدخل للحس فيه وإنما يدرك بالعقل ^(١).

(١) انظر حاشية الدسوقي ، ٣٥٢/٣ ضمن شروح التلخيص .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ —————﴾ دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

القسم الرابع : أن يكون وجه الشبه مركبا عقليا على حد ما تراه في قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ (الجمعة: ٥) .

شبه حال اليهود المنتزعة من حملهم التوراة ، وتكليفهم للعمل بما فيها ، والانتفاع بها ، مع عدم عملهم بموجبها ، ولا فهمهم الحقيقة مراميها بحال الحمار يحمل كتب العلم النافعة ، ويتعب في حملها وهو جاهل بحقيقة ما فيها ، فوجه الشبه كما هو ظاهر مأخوذ من عدة أمور محققة في الطرفين إذ روعي في كل منهما حمل أشياء وأن هذه الأشياء مما ينتفع به أكمل انتفاع وأن الحامل لها يتعب هذا التعب ويتحمل المشقة في استصحابها وأنه لا يحصل من تعبها على فائدة ، ووجه الشبه على هذا هو الهيئة الحاصلة من حرمان الانتفاع بأبلغ نافع مع معاناة الكد في استصحابه وهذه الهيئة أمر عقلي ، ومثل ذلك قول الشاعر :

وَالْمُسْتَجِيرُ بِعَمْرٍو عِنْدَ كُرْبَتِهِ كَالْمُسْتَجِيرِ مِنَ الرَّمْضَاءِ بِالنَّارِ

والرمضاء : هي الأرض ذات الحرارة الشديدة من الرمض وهو شدة وقع الشمس على الرمل .

والتشبيه في هذا البيت يقوم من خلال تشبيه حال من أصابته شدة ، ووقع في ضائقة فالتجأ إلى عمرو أملاً في الاحتماء به فإذا عمرو أشد خطراً مما وقع فيه ، والمشبه به حال من لذعته الرمضاء ، فالتجأ إلى ما هو أشد لذعاً ، وافدح أُلماً ووجه الشبه هو اللجوء إلى ما هو أشد ضرراً ، طمعا في الانتفاع به .

القسم الخامس : أن يكون وجه الشبه متعددًا ، وقد يكون حسياً كتشبيه فاكهة اليوسفي بالبرتقال في اللون ، والطعم والرائحة ، فوجه الشبه في كل واحد من هذه الأمور وجميعها حسي وقد يكون وجه الشبه المتعدد عقليا كتشبيه زيد بعمر و خلقه وشجاعته ، وحلمه والجميع لا يدرك بغير العقل .

الصورة البيانية ————— دراسته في مسائل البيان ————— ❁

وقد يكون وجه الشبه المتعدد مختلفاً فيه ، منه ما هو عقلي ، ومنه ما هو حسي ، كأن تشبه رجلاً بآخر في طوله وجسامته ، وحلمه وإيمانه .

ووجه الشبه في كل واحد من هذه الأمور الأربعة ، غير أن الأولين - الطول والجسامة - حسيان ، والآخرين - الحلم والإيمان عقليان .

الخطأ في انتزاع وجه الشبه المركب :

لقد سبق أن وجه الشبه المركب لا بد أن يؤخذ من أمور متعددة في كل من الطرفين ولا يمكن أن يترك بعضها ؛ لأنه إذا ترك بعضها لا يتم التشابه بينهما على أساس صحيح ويفقد التشبيه المقصود منه والهدف الذي يرمي إليه ، ويهدف إلى تحقيقه . انظر إلى قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَىٰ أُنْهَىٰ أَمْرِنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغِبْ بِآلَاءِمْ ﴾ (يونس: ٢٤)

فإن توضيح التشبيه في الآية على حد ما يقول الزمخشري : « هذا من التشبيه المركب شبهت حال الدنيا في سرعة تقضيها وانقراض نعيمها بعد الإقبال بحال نبات الأرض في جفافه ، وذهابه حطاما بعدما التف وتكاثف وزين الأرض بخضرته وريفه »^(١) ، ووجه الشبه هيئة منتزعة من حصول شيء يترتب عليه منافع كثيرة ويحصل السرور به ثم يزول بسرعة ويفنى .

ويقول الإمام عبد القاهر بعد ذكر الآية : « كيف كثرت الجمل فيه حتى إنك ترى في هذه الآية عشرَ جمل ، إذا فصلت وهي وإن كان قد دخل بعضها في بعض حتى كأنه جملة واحدة فإن ذلك لا يمنع من أن تكون صورة الجمل معنا حاصلةً تشير إليها واحدة واحدة . ثم إن الشبه منتزع من مجموعها من

(١) تفسير الكشاف ، ١٨٧/٢ .

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

غير أن يمكن فصل بعضها عن بعض ، وإفراد شطر من شطر حتى إنه لو حذف منها جملة واحدة من أي موضع كان أخل ذلك بالمغزى من التشبيه^(١).

فقد تحقق لديك أن وجه الشبه في الآية مأخوذ من أمور متعددة معتبرة في كل من الطرفين . وقد يخطئ البعض حين لا يفرق بين التشبيه المركب والمتعدد فيتصور أن في الإمكان فصل أجزاء التشبيه المركب بعضها عن بعض وإقامة التشبيه بين جزء في المشبه ونظيره في المشبه به بوجه شبه خاص مستقل وهو إذ يفعل ذلك يفسد غرض الشاعر وما يرمي إليه .

انظر إلى قول كثير :

لَقَدْ أَطْمَعْتَنِي بِالْوِصَالِ تَبَسُّمًا وَبَعْدَ رَجَائِي أَعْرَضْتَ وَتَوَلَّيْتُ
كَمَا أَتَرَقَّتْ قَوْمًا عَطَاشًا غَمَامَةً فَلَمَّا رَأَوْهَا أَقْشَعَتْ وَتَجَلَّتْ

يظهر أن غرض الشاعر تصوير حاله مع حبيبته ؛ إذ لاحت له ، وهي مبتسمة فطمع في وصالها ، وحين قوي في نفسه الأمل في تحقيقه أعرضت عنه ، وذهبت بحال قوم عطاش إلى الماء ، لاحت لهم غمامة مطمعة ثم ما برحت حين تمكن في نفوسهم رجاء أن تمطرهم أن انقشعت وتجلت ، فالمشبه حال من ظهر له شيء هو في شديد الحاجة إليه ، وقد علّق بذلك رجاءه ثم ما لبث أن فوجئ بفقدانه وذهابه حيث لا أمل فيه ولا رجاء ، والمشبه به قوم عطاش في حاجة ملحة وشديدة إلى الماء ، عرضت لهم غمامة هم في حاجة شديدة إليها ، وما إن رجوها أن تمطرهم حتى انقشعت عنهم وذهبت وتركتهم في يأس وحسرة ووجه الشبه الهيئة الحاصلة من الشيء يكون أوله مطمعا مغريا وآخره مخيبا مُيُئِسًا .

(١) أسرار البلاغة ، تحقيق شاكر ، ص ١٠٩ .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ الْبَيَّانِ ————— ❁

فأنت تلاحظ أن وجه الشبه منتزع من أمرين متصلين - ابتداء مطمع وانتهاء مؤيس والشرط الأول في كل من البيتين إنما يمثل الأمر الأول ويتضمنه ذلك أن المراد فيهما أن القلب الذي تعلق بالرجاء ، وقوى الأمل لديه بالوصال حين أبصر التبسم المطمع ، والغمامة التي برقت لقوم عطاش فقوي رجاؤهم في إمطارها ، إذاً قد تحقق الطمع من خلال ذلك .

أما الشرط الثاني في البيتين فيمثل الانتهاء المؤيس إذ معناه أن التبسم الذي أطمعه في الوصال قد انتهى إلى خيبة ويأس بعد أن خذلته ، ودلت بعيداً عنه ، والغمامة الذين رجوا إمطارها قد انقشعت وانجلت ، وتولت عنهم حين التمسوها ، فكانت الحال نهاية مؤيسة مخيبة .

فلو لم يلتفت إلى الشرط الثاني في كل من البيتين ، وما يدلان عليه من وقوع اليأس بعد الرجاء ، واكتفى بالشرط الأول في كل منهما ليكون وجه الشبه هو ظهور الأمل في تحقيق شيء مطلوب ومرغوب فيه لفسد غرض الشاعر الذي يقصده ، والذي يرمي إليه ، والذي حصلت الدلة عليه بتمام البيتين .

وهذا الوجه مأخوذ ومنتزع من مجموعة أمور مجتمعة ، ولا يمكن إغفال بعضها وهي وجود أشخاص في حاجة شديدة إلى شيء معين فالعاشق يحتاج إلى الوصل والعطاش في حاجة إلى الماء - ظهور بوادر الأمل « الابتسام والغمامة » الاختفاء السريع لهذه البوادر وانقطاع الأمل - في أعراض الحبيبة وتوليها وانقشاع الغمامة وبدون هذه الأمور مجتمعة في صورتها التي أتت عليها لا يتم وجه الشبه الذي بنى الشاعر تشبيهه عليه .

فوجه الشبه المركب منتزع من عدة أمور مجتمعة لا يمكن إهمال بعضها والاكتفاء بالبعض ؛ لأن ذلك لا يحقق الذي قصد إليه الشاعر والذي هدف إلى تحقيقه حين بنى صورته التشبيهية ومن هنا يتحقق الفرق بين وجه الشبه المركب ووجه الشبه المتعدد ذلك أن التشبيه الذي تعدد وجه الشبه فيه لو

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ —————﴾ دراستُ في مسائل علم البيان

اكتفى فيه ببعض الصفات وترك البعض فإن الغرض من التشبيه بما اكتفى به من الصفات يبقى سليماً لا يتغيّر فلو قلت : اليوسفي كالبرتقال في الطعم واللون وعددت وجه الشبه ثم عدلت فقلت : اليوسفي كالبرتقال في الطعم وأهملت صفة اللون ، فإن الغرض من التشبيه يبقى صحيحاً .

دقيقة في الوجه المركب :

قد يشار تساؤل فحواه أن مغزى الشاعر كثير في التشبيه أن يثبت ابتداءً مطمعا متصلاً بانتهاء موحش مؤيس وذلك متوقف على ما في البيتين معاً فهل هذا يقتضي أن بعض التشبيهات المجتمعة أي المتعددة كقولنا زيد كالماء يصفو ويكدر من التشبيه المركب وبهذا لا يكون هناك فرق بين التشبيهات المتعددة والتشبيهات المركبة .

ذلك أن الاختصار على إحدى الصفتين يبطل الغرض من الكلام لأن الغرض منه وصف زيد بأنه يجمع بين الصفتين صفة الصفاء وصفة الكدر؟ ويكون الرد على هذا التساؤل بأن الجمع بين الصفات التي يبنى منها وجه الشبه قد يكون مشروطاً بشرط كأن يكون بعضها موصولاً ببعض كما جعل كثير في تشبيهه ظهور بوادئ الأمل موصولة باختفاء هذه البوادر ووقوع اليأس وخيبة الأمل ومن ثمَّ يقتضي هذا الجمع تركيب الوجه وبتفريقه والاختفاء ببعضه يفسد الغرض من التشبيه وقد لا يكون مشروطاً بشرط بل يكفي بوجود إحدى الصفتين في المشبه وهذا لا يقتضي التركيب ، ففي المثال المذكور يجوز أن تلغى إحدى الصفتين فتقول : زيد كالماء يصفو ويبقى التشبيه بالماء في الصفاء صحيحاً وهو غرض مقصود للمتكلم ، والذي فات هو عطف صفة الكدر عليه بواو العطف التي هي لمجرد الجمع ولذلك لو وقع العطف بأداة تفيد معنى زائداً على مجرد الجمع كالفاء التي تفيد مع الجمع التعقيب ، وشم التي تفيد مع الجمع الترتيب والتراخي كان التشبيه مركباً كقولك زيد كالماء يصفو فيكدر

الصورة البيانية ————— دراستي مسائل علي البيان ————— ❁

أو ثم يكدر وقد جاء في بغية الإيضاح « وقد ظهر مما سبق أن التشبيهات المجتمعة - يعني المتعددة تفارق التشبيه المركب في مثل ما ذكرنا بأمرين :

أحدهما : أنه لا يجب فيها ترتيب ، **والثاني :** أنه إذا حذف بعضها لا يتغير حال الباقي في إفادة ما كان يفيد قبل الحذف فإذا قلنا - زيد كالأسد بأساً والبحر جوداً والسيف مضاء - لا يجب أن يكون لهذه التشبيهات نسق مخصوص ، بل لو قدم التشبيه بالبحر أو التشبيه بالسيف جاز ولو أسقط واحد من الثلاثة لم يتغير حال غيره في إفادة معناه على أن من وجوه الفرق أيضاً على حد ما ذكره مؤلف البغية بين التشبيه المتعدد والمركب أن المتعدد يعطف فيه كل تشبيه على الآخر عطف المستقل على المستقل أما المركب فإنه في الغالب يذكر فيه أحد أجزائه على وجه التبع للآخر كأن يكون في صفته أوصلته ، أو حالاً منه ، أو معطوفاً عليه بالفاء ، أو ثم ، فإذا توسطته الواو كانت للمعية أو عاطفة متضمنة لها أو للحال»^(١).

* * *

(١) انظر في هذا بغية الإيضاح ٣/٣٢-٣٥، وأسرار البلاغة من ، تحقيق الأستاذ محمود محمد شاكر ، ص ١٠٩-١١٢ .

التشبيه المجمل والمفصل

التشبيه المجمل : هو ما لم يذكر فيه وجه الشبه ، ولا ما يستتبعه ^(١) .
وسمي مجملاً لإجمال وجهه ، فهو من الإجمال ، وهو عدم ذكر الشيء صريحاً ولو فهم معنى .

ثم إن هذا المجمل إما ظهر لا يخفى فهمه على كل أحد ممن له دخل في استعمال التشبيه سواء كان عاماً في المستعملين أو خاصاً ؛ لمعرفة المقصود ببيدهة السَّماع ، كتشبيه الشجاع بالأسد ، والجميلة بالبدر ، فإن كلَّ مَنْ يفهم معنى هذا يدرك أن وجه الشبه هو الجراءة في الأول ، والإشراق والجمال في الثاني ، وإما خفي فلا يدركه إلا الخواص الذين أوتوا ذهنًا ، ارتقوا به عن العامة يدركون به الدقائق والأسرار ، ويتوسعون في الموصوفات وأوصافها وذلك كقول بعضهم ، قيل هو كعب بن معدان الأشعري ، حين سأله الحجاج ، فقال له : كيف تركت جماعة الناس ؟ فقال له كعب : بخير ما أملوا ، وأمنوا مما خافوا ثم قال له : فكيف بنو المهلب فيهم ؟ قال حماة السَّرح نهاراً ، وإذا أَلِيلُوا ففرسان البيان ومعنى أَلِيلُوا دخلوا في الليل ، كأصبحوا ، دخلوا في الصباح ، ثم قال له فأيهم كان أنجد أي « أشجع » قال : هم كالحلقة المفرغة لا يدري أين طرفاها وقيل إنه قول فاطمة بنت خرشب الأنمارية لما سئلت عن بنيتها أولاد زياد العبسي ^(٢) .

ففي القول المذكور قد وصف المشبه به وهو الحلقة المفرغة بأنها ليست معلومة الأجزاء والأطراف ، ومن هذا الوصف يدرك اللَّقْن الذكي أن وجه الشبه

(١) حاشية الدسوقي ، ٣/ ٣٣٤ .

(٢) ابن يعقوب ، ضمن شروح التلخيص ، ٣/ ٣٣٤-٣٣٦ .

الصورة البيانية ————— دراستي مسائل علي البيان ————— ❁

هو التناسب التام الخالي من التفاوت ؛ لأن قوله أو قولها « لا يدري أين طرفاها يستلزم أنه لا تفاوت بين أجزائها وأنها متساوية تمام التساوي .

بيد أن التساوي في المشبه يراد منه التساوي في الشرف والفضل والأصل وفي المشبه به تناسب في صورة أجزاء الحلقة التي يستحيل تعيين بعضها طرفا ، وبعضها وسطا ، وبعضها نهاية .

هذا وقد أشاد الإمام عبد القاهر بهذا التشبيه ، وأثنى عليه ، وعده من التشبيه الذي تقوى الحاجة فيه إلى التأول ، حتى لا يعرف المقصود من التشبيه فيه ببديهة السماع ، وقال في حقه : « فهذا كما ترى أنه لا يفهمه حق فهمه إلا من له ذهن ونظر يرتفع به عن طبقة العامة ؟ وليس كذلك تشبيه الحجة بالشمس ، فإنه كالمشترك البين الاشتراك ، حتى يستوي في معرفته اللبيب اليقظ والمضعف المغفل ، وكذا تشبيه الألفاظ بما ذكرت قد تجده في كلام العامي . فأما ما كان مذهبه في اللطف مذهب قوله : « وهم كالحلقة » فلا تراه إلا في الآداب ، والحكم المأثور عن الفضلاء ، وذوي العقول الكاملة »^(١).

ما يدل على وجه الشبه عند حذفه وعدم ذكره :

يعتمد عند حذف وجه الشبه الخفي غير الظاهر على :

١- وصف المشبه به بصفة يفهم منها درجة الشبه كما في « هم كالحلقة لا يدري أين طرفاها » .

وكقول المتنبي :

غَمَامٌ عَلَيْنَا مُمَطِّرٌ لَيْسَ يُقْشَعُ وَلَا الْبَرْقُ فِيهِ خُلْبًا حِينَ يَلْمَعُ

يصف ممدوحه بالسخاء والكرم ، وأن عطاياه لا تتوقف ، ولا تنقطع على الرغم من غزارتها وكثرتها ، فهو غمام ممطر أبداً وليس كغيره من الغمام الذي يمطر مرة وينقشع أخرى ، فعطاؤه كالسيل المتدفق ، وإذا رجونه بلغنا منه أوفى ما نرجو ، وضرب الغمام والبرق مثلاً ولما جعله غماماً جعل له المطر

(١) أسرار البلاغة ص ٩٤ .

❁—————الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ—————دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

وجعل برقه صادقاً بموعوده فذكر المطر ، وهو وصف خاص بالمشبه به مما يساعد على فهم وجه الشبه .

ومنه أيضاً قوله :

يُبْضَاءُ تُطْمَعُ فِيمَا تَحْتَ حُلَّتِهَا وَعَزَّ ذَلِكَ مَطْلُوبًا إِذَا طَلِبَا
كَأَنَّهَا الشَّمْسُ يُعْيِي كَفَّ قَابِضِهِ شُعَاعُهَا وَيَرَاهُ الطَّرْفُ مُقْتَرِبَا

فإذا تجاوزت البيت الأول الذي تطمعه فيها برقة حديثها ، وابتسامة ثغرها ، ولكنها تَيْسُّهُ بِتَأْبِيهَا ، وتمنعها وذهبت إلى التشبيه في البيت الثاني الذي يقوم من خلال تشبيه حال هذه المرأة في إطماعها ، وقربها منه ، ثم بعدها عنه ، وصدها له بحال شعاع الشمس قريب من طرف العين ، فإذا ما حاول الإنسان الإمساك به ، والقبض عليه تعذّر عليه ، ولم يجد شيئاً ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من حال الشيء يتناهى في قربه ثم يتناهى في بعده ، وهذا الوجه يوميئاً إليه قول الشاعر (يعيي كف قابضة شعاعها ، ويراه الطرف مقتربا) وهو وصف خاص بالمشبه به .

ومن هذا الضرب قول زياد الأعجم :

فإِنَّا وَمَا تُلْقَى لَنَا إِنْ هَجَوْتَنَا لَكَالْبَحْرِ مَهْمَا تُلْقِ فِي الْبَحْرِ يَغْرَقِ

يمدح قومه بأنهم متأصلون في الشرف ، وأصالة المعدن ، والسيادة والفضل ؛ لذا فإن هجاءهم لهم لا يؤثر فيهم ، ولا ينال منهم ، ولا يغضّ من مهابتهم كما أن البحر لا ينال منه ، ولا يؤثر فيه ما يلقي فيه من أوساخ وقاذورات ، فهو يشبه قومه في رفعة شأنهم ، وعلوّ قدرهم ومكانتهم ، وبعدم تأثرهم بالهجاء حالهم في هذا كحال البحر لا يؤثر فيه ، ولا ينال منه ما يلقي فيه من أوساخ ؛ إذ يبتلعها ، ويمضي في طريقه ، ووجه الشبه هيئة الشيء الخطير لا ينال منه الشيء الحقيقير ، ولا يؤثر فيه ، وواضح أن قوله :

(مهما تلق في البحر يغرق) مشعر بوجه الشبه ، وهو وصف خاص بالمشبه

به ، ومن هذا النوع قول النابغة :



الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي تَالِبٍ

فَإِنَّكَ شَمْسٌ وَالْمَلُوكُ كَوَاكِبٌ إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُمْ كَوْكَبٌ
يقول له : إن عزتك ، وسلطانك ، وفضائلك الظاهرة تغطي وتغطي على كل ما في سائر الملوك من عزة وسلطان ، فسلطانك يغطي على سلطانهم ، وعزتك وجاهك فوقهم جميعاً ، حالك في هذا كحال الشمس إذا أشرقت ، وتلاأت أنوارها وأضواؤها اختفت أضواء الكواكب الأخرى وأنت ترى أن المشبه به وهو الشمس التي وصفت بأنها حين تطلع تغيب أضواء الكواكب الأخرى وتختفي ، وهو وصف خاص بالشمس ، قد أعان وساعد على فهم وجه الشبه ، وهو الامتياز الظاهر للمحاسن الكبيرة الذي يجعل المحاسن الصغيرة إلى جوارها تذهب وتختفي .

٢- قد يكون الوصف الذي يشعر بوجه الشبه وصفا لكل من المشبه والمشبّه به كقول أبي تمام :

سُتْصَبِحُ الْعَيْسُ بِي وَاللَّيْلُ عِنْدَ فَتًى كَثِيرِ ذِكْرِ الرِّضَا فِي سَاعَةِ الْعُضْبِ
صَدَقْتُ عَنْهُ وَلَمْ تَصْدِفْ مَوَاهِبُهُ عَنِّي وَعَاوَدُهُ ظَنِّي فَلَمْ يَخِبِ
كَالْغَيْثِ إِنْ جِئْتَهُ وَافَاكَ رَيْقُهُ وَإِنْ تَرَحَّلْتُ عَنْهُ لَجَّ فِي الطَّلَبِ

إنه يتحدث عن ممدوحه ، فيبين أنه معطاء كريم ، وأن عطاياه الغزيرة تتدفق عليه ، وتفيض طلبها ، أو لم يطلبها أعرض عنه أو لم يعرض قدم عليه ، أو ارتحل عنه ، والوصفان مشعران بوجه الشبه ، وهو الإفاضة في حالتي الطلب وعدمه ، وحالتي الإقبال عليه والإعراض عنه .

وأنت ترى أنه قد وصف الممدوح بأن عطاياه سابعة عليه ، وأنها تتبعه ووصف الغيث بأن خيريه يأتيه في كل الأحوال رغب عنه ، أو رغب فيه .

هذا ولأن التشبيه المجمل لم يذكر فيه وجه الشبه فإنه الصفة أو الهيئة التي يلتقي عليها الطرفان ، ويجتمعان فيها تكون غير محدّدة ، ولا مضبوطة لا بلون ، ولا حجم ، ولا حال ؛ ولا هيئة ؛ ولذا فإن الخيال ينطلق في مسارحه ؛ ليتصور

❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

حال المشبه الذي ألحق بالمشبه به وما يمكن أن يجمعهما معا ويلتقيان فيه ويذهب في سبيل الوصول إلى ذلك المذهب المطلق غير المحدد لا بلون ، ولا حجم ، ولا حال ، ولا هيئة .

هذا والجملة التي تجيء بعد المشبه به لا تخلو من ثلاثة أوجه على حدها ، وقد بينها الإمام عبد القاهر فقال :

أحدها : أن يكون المشبه به معبراً عنه بلفظ موصول ، وتكون الجملة صلة ، كقولك : « أنت الذي من شأنه كيت وكيت » وكقوله تعالى : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ (البقرة: ١٧)

الثاني : أن يكون المشبه به نكرة ، تقع الجملة صفة له ، كقولنا « أنت كرجل من أمره كذا وكذا » وقول النبي ﷺ : « الناس كابل مائة لا تجد فيها راحلة » وأشباه ذلك .

الثالث : أن تجيء الجملة مبتدأة - أي مستأنفة - وذلك إذا كان المشبه به معرفة ، ولم يكن هناك « الذي » كقوله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ﴾ (العنكبوت: ٤١) .

معنى هذا أن المشبه به معرفة ليست باسم موصول ، فتكون الجملة بعده مستأنفة جواباً لسؤال مقدر : فجملة « اتخذت بيتاً » مستأنفة جواباً لسؤال سائل بعد أن سمع قول الله « كمثل العنكبوت » مستفهماً عن حالها « والغرض هو التنبية على أن المشبه به إذا كان هيئة مركبة دُلَّ على تركيبها بجمل متعددة فلا بد أن تعتمد الجمل على اسم مفرد يقع بعد أداة التشبيه ، وتكون الجمل بعده مجتمعة صفة له ، أو صلة له ، أو جواباً لسؤال ، وإفراد هذا الاسم لا يجعل هذا التشبيه من التشبيهات المفردة ؛ لاستحالة استقلاله بالدلالة المقصود بدونها ، وإنما احتيج إليها كركيزة تعتمد عليها الجمل المتوالية التي يتكون منها المشبه به »^(١).

* * *

(١) الإفصاح عما تضمنه الإيضاح ، ص ١٠٠ ، للشيخ أحمد الحجار .

التشبيه المفصل

التشبيه المفصل : وهو ما ذكر فيه وجه الشبه سواء كان المذكور وجه الشبه على طريقتيه الخاصة مجروراً بـ « في » أو منصوباً على التمييز ، أو ما يستلزمه ويستتبعه .

كما في قول الشاعر :

يَا شَبِيهَ الْبَدْرِ فِي الْحُسْنِ وَفِي بُعْدِ الْمَنَالِ
جُدْ فَقَدْ تَنْفَجِرُ الصَّخْرَةُ بِالمَاءِ الزُّلَالِ

وقول البحري :

فَهِىَ الشَّمْسُ بِهَجَةٍ وَالْقَضِيبُ اللَّدُّ نُنَا وَالرُّثْمُ طَرْفًا وَجِيدًا

هذا وقد يتسامح في ذكر نفس الوجه فيستغنى عنه بسبب ذكر ما يستتبعه أي يستلزمه مكانه ، كقولهم في الكلام الفصيح هو كالعسل في الحلاوة ، وفي الحجة الواضحة هي الشمس في الإشراق فإن الجامع في قولهم : هو كالعسل في الحلاوة لازمها أي لازم الحلاوة وهذا اللازم هو وجه الشبه وهو ميل الطبع ، واستحسانه للكلام لا نفس الحلاوة كما أن الوجه المشترك في قولهم : حجة كالشمس في الإشراق لازم الإشراق وهو إزالة الحجاب على أنه يحتمل أن يكون المذكور ، وهو « في الحلاوة وفي الإشراق » وجه الشبه ويكون وجود « الحلاوة » في الكلام على وجه التخييل ، ووجود « الإشراق » في الحجة كذلك ^(١).

(١) ابن يعقوب ، ضمن شروح التلخيص ، ٤٤١/٣ ، ٤٤٢ .

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسْتُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

وقال الدسوقي أيضاً : « ويحتمل أن يكون المذكور في هذا المثال وهو « الحلاوة » هي وجه الشبه نفسها ، ويكون وجودها في الكلام على وجه التخيل ، كما في تشبيه السنَّة بالنجم ، والبدعة بالظلمة »^(١).
ومن التشبيه المفصل قول أبي العلاء المعري .

أَنْتَ كَالشَّمْسِ فِي الضِّيَاءِ وَإِنْ جَا وَزَتْ كَيْوَانٌ فِي عُلوِّ الْمَكَانِ^(٢)

ففي هذا البيت يشبه المعري ممدوحه بالشمس ثم لا يترك الصفة أو الصفات اللذين يشتركان فيها حتى يتصور المخاطب بهذا الممدوح في صفات الشمس الأخرى ، لكنه نصرَّ على الصفة التي يلتقي فيها الطرفان « الممدوح والشمس » وهي « الضياء » فحجَّم بذلك رؤية المخاطب ، وحدَّدها في الصفة التي نص عليها ، وهي الضياء وحال بينه وبين أن يرى في الممدوح صفة أخرى .

* * *

(١) ابن يعقوب ، ضمن شروح التلخيص ، ٤٤٢/٣ .

(٢) كيوان : اسم زحل .



التشبيه المرسل والمؤكد

فالمرسل ما ذكرت فيه الأداة كقول الشاعر :

نشرت إليَّ غَدائراً من شَعْرها حذرَ الكواشِح والعدُوَّ الموبِق
فكأنني وكأنَّها وكأنَّه صبحان باتا تحتَ ليلٍ مُطْبِق

غدائر : جمع غديرة ، وهي الذؤابة المفتولة من شعر المرأة ، حذر حذراً : تيقظ واستعدّ ، وحذر الشيء : خافه واحترز منه ، الكواشِح : جمع كاشِح وهو العدو المبعض . والموبِق : أي المهلك ، وبات فلان بيتاً وبياتاً ومبيتاً ومباتاً ويبتوتة : أدركه الليل نام أو لم ينم .

والتشبيه في البيتين ينعقد من خلال تشبيه هيئة اجتماعه بها والتفاف أحدهما بالآخر وقد انسدل شعرها عليهما بهيئة اجتماع صبحين انضويا تحت ليل حالِك الظلام ، بجامع هيئة شيء أسود يطوي على شيئين مختلفين معه في الليل ، وهو تشبيه تمثيل ؛ لجريانه في الهيئات ، ومجمل لعدم التصريح بالوجه ومرسل لوجود أداة التشبيه .

وذكر أداة التشبيه يعني أن المشبه يدنو من المشبه به ويقترب منه في الصفة أو الصفات أو الهيئة التي يلتقيان فيها ، وتجمعهما معاً على سبيل المقاربة ؛ لأن أداة التشبيه المذكورة تحدد درجة المشابهة ؛ إذ إنها تعني أنه يدنو منه ويقاربه في الصفات المشتركة بينهما ، ومن هذا التشبيه ما نراه في قول المتنبي^(١) .

كَمْ وقفة سَجَرْتُكَ شَوْقاً بعدما غَرَى الرقيبُ بنا وَلَجَّ العاذِلُ

(١) الديوان ، ٢٥٢/٣ .

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسْتُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

دُونِ التَّعَانِقِ نَاحِلِينَ كَشَكْلَتِي نَصَبٍ أَدَقَّهُمَا وَضَمَّ الشَّاكِلِ

سَجَرَتِكَ يريد ملأتك ، ومنه « البحر المسجور » وقيل : أوقدتك فقد قيل في الآية : إنه الموقد ، ويروي « سحرتك » أي جعلتك مسحورا بالسوق كالواله المجنون ، وقوله : « حالين » حال من وقفة أي : كم وقفة وقفناها ناحلين ، والشكلة : أي الشكلة التي تكون في الإعراب ، وهي الفتحة ، وهي من قولهم : شكلت الدابة أي : ضبطتها ، والشكلة تضبط الحروف ، وضم الشاكل الكاتب ، ويريد بالضم القرب ، ولم يرد الضم الذي في الإعراب المسمى رفعاً .

والمعنى كم وقفة ملأتني شوقاً أو سحرتني حتى صرت والهأ لا أعقل ، وقد وقفنا دون التعانق قُرب بعضنا من بعض ، فكأننا لقربنا شكلتان دقيقتان جمع الكاتب بينهما ، وهو تشبيه حسن جميل ، يقوم من خلال تشبيه الحببين في مكان واحد ، وقد شدد في التقريب بينهما ، مفترطين في النحول بشكَلتي النصب الدقيقتين المضمومتين بعضهما إلى بعض . يقول شارح الديوان شبه تقاربهما بتقارب الشكلين ، ونحولهما بنحول الشكلة ، ووصفها بالنحول مثله ؛ لأن بها مثل ما به من الوجد ، والصورة خيالية مستوحاة من الإعراب فهما في وقوفهما دون التعانق مع اقترابها الشديد كفتحتين دقيقتين نحولا ودقة ، والتشبيه مرسل ، وهو بعيد غريب .

وفي قول الشاعر :

أَفْحَوَانُ مُعَانِقٍ لَشَقِيقٍ كَثُورٍ تَعَصُّ وَرْدَ الْخُدُودِ

والأفحوان : نبت زهره أبيض أو أصفر ، وورقه مُسنّن كأسنان المنشار .

والشقيق ورد أحمر وسطه سواد ، ويجمع على شقائق ويقال له : شقائق النعمان ، وإضافته إلى النعمان لأنه كان ينبت كثيراً في أرض كان يحميها النعمان وهو لقب لكل ملك للحيرة .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دُرُوسَةٌ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ❁

والتشبيه يقوم من خلال هيئة الأفعوان ، وهو يُعَانِقُ الشقيق بهيئة الثغور وهي تعض الخدود ، ووجه الشبه في هذه الصورة هو هيئة شيء أبيض يخالط شيئاً لونه أحمر ، والتشبيه تمثيل ومرسل لذكر الأداة ، ومجمل لعدم التصريح بالوجه ، وفي قوله : «ورد الخدود» تشبيه أضيف المشبه به وهو «ورد» إلى المشبه وهو «الخدود» وهو تشبيه مؤكد كما سنرى .

التشبيه المؤكد : وهو ما حذف منه أداة التشبيه مثل قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ (النمل: ٨٨) «وهي» أي الجبال «تمر» أي تذهب «مر السحاب» أي مثل ذهاب السحاب ، فحذف «المثل» الذي هو المراد بالأداة هنا ، وجعل الكلام على تقديره ، ليفيد أن مرها نفس مرّ السحاب ، فأفاد التأكيد في التشبيه ... فالتشبيه المؤكد ما حذف فيه الأداة ، وجعل فيه المشبه نفس المشبه به ادعاء^(١) .

وفي قول الشاعر :

وَالرَّيْحُ تَعْبُثُ بِالْفُصُونِ وَقَدْ جَرَى ذَهَبُ الْأَصِيلِ عَلَى لُجَيْنِ الْمَاءِ

فهذا من التشبيه المؤكد الذي أضيف المشبه به فيه إلى المشبه ، فالماء مشبه ، واللجين مشبه به ، والتقدير على الماء الذي هو كاللجين في الصفاء والإشراق .

ومنه قول الشاعر :

أَنْتَ شَمْسٌ فِي رَفْعَةٍ وَسَنَاءٍ تَجْتَلِيكَ الْعُيُونُ شَرْقًا وَغَرْبًا^(٢)

فحذف الأداة هنا وتشبيه الممدوح بالشمس يعني أن المشبه «أنت» يتطابق ويتلاقى مع المشبه به الشمس في الرفعة ، والثناء على نحو تام ، ومثل هذا قول الشاعر :

(١) ابن يعقوب ، ٦٥/٣ .

(٢) تجتليك العيون ، أي تنظر إليك بإعجاب .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ —————﴾ دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

عِزَمَاتِهِمْ قُضِبَ وَفَيْضُ أَكْفِهِمْ سُحِبَ وَبَيْضُ وُجُوهِهِمْ أَقْمَارُ

فهنا ثلاث تشبيهات هي عِزَمَاتِهِمْ قُضِبَ ، وفَيْضُ أَكْفِهِمْ سَحَبَ ، وبَيْضُ وُجُوهِهِمْ أَقْمَارُ وفي كل تشبيه من هذه التشبيهات حذفت الأداة كما حذفت وجه الشبه فهي تشبيهات مؤكدة .

ومثل هذا قول المتنبي :

بَدَتْ قَمَرًا وَمَالَتْ غُصْنُ بَانَ وَفَاحَتْ عَنَبَرًا وَرَرَّتْ غَزَالًا
كَأَنَّ الْحُزْنَ مَشْغُوفٌ بِقَلْبِي فَسَاعَةٌ هَجَرَهَا يَجِدُ الْوَصَالَ

ففي البيت الأول أربعة تشبيهات ، فهي قمر في حسنها ، وغصن في تشبيها وجمال مشيتها ، وعنبر في طيب رائحتها ، وغزالاً في سواد مقلتها ، والتشبيهات كلها مؤكدة بحذف الأداة ومجملة بحذف وجه الشبه .

وأداة التشبيه في التشبيه المؤكد محذوفة .

وأداة التشبيه اللفظ الدال على التشبيه وهي إما أسماء ، وإما أفعال ، وإما حرف ، فالكاف في قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴾ (الشورى: ٣٢) فالكاف أداة تشبيه لدلالاتها عليه ، ومثل الكاف كل ما يفيد معنى المماثلة والمشابهة ، وهذه الأدوات إما أسماء وإما أفعال ، وإما حروف ، ومثل ذلك الوصف المشتق المفيد لمعنى التشبيه كمماثل ، ومضارع ومحاك والخلاصة أن أدوات التشبيه هي ألفاظ تدل على المماثلة كلفظ « كَأَنَّ » حرفاً « وممثل وشبه » اسمين وكالفعل الدال على معنى التشبيه ماضياً كان أو مضارعاً « كمماثل يماثل ، وشابه يشابه ، وحاك يحاكي وكالوصف المشتق المفيد لهذا المعنى كمماثل ومشابه ، ومحاك » هذا والكاف الأصل فيها وما شابهها أن تدخل على المفرد وأن يليها المشبه به لفظاً نحو زيد كالأسد أو تقديرًا نحو قوله تعالى : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ (البقرة: ١٩) أي كمثل ذوي صيب وإنما قدر ذوي الصيب لأن الضمائر في قوله : ﴿ تَجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَةٌ فِي مَسَائِلَ عَلَى الْبَيَانِ ————— ❁

فِي ءَاذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ ﴿ (البقرة: ١٩) لا بد لها من مرجع وليس موجوداً في اللفظ وإنما قدر مثل ليناسب المعطوف عليه أي: ﴿ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾ (البقرة: ١٧) فالضمائر الثلاثة في قوله: ﴿ تَجْعَلُونَ أَصْصِعَهُمْ ﴾ (البقرة: ١٩) ترجع إلى المنافقين وهم ليسوا موجودين في الآية .

فبقيت الضمائر بلا مرجع ولا بد لها منه كما هو الشأن فيها وأما تقدير مثل فلكي يشاكل المعطوف عليه وهو قوله سبحانه: ﴿ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾ (البقرة: ١٧) ومن هذا أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَتْرَكْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ (الكهف: ٤٥) .

فليس المراد تشبيه الحياة الدنيا بالماء ولا بمفرد آخر يتحمل تقديره ، بل المراد تشبيهها في حال نضارتها وبهجتها وما يعقبها من الهلاك والفناء بحال النبات الحاصل من الماء يكون أخضر ناضراً شديداً الخضرة ، ثم يَبْسُ فتطيرهُ الرياح كأن لم يكن ، ولا حاجة إلى تقدير كمثل ماء ؛ لأن المعتبر هو الكيفية الحاصلة من مضمون الكلام المذكور بعد الكاف ، واعتبارها مستغن عن هذا التقدير ^(١) .

ومما هو على هذا النحو قول لبيد :

وَمَا النَّاسُ إِلَّا كَالدِّيَارِ وَأَهْلُهَا بِهَا يَوْمَ حَلَّوْهَا وَغَدَوْا بِلَاقِعُ

لم يرد تشبيه الناس بالديار؛ لأن هذا لا معنى له ، وإنما على حد ما بين الزمخشري « لم يشبه الناس بالديار ، وإنما شبه وجودهم في الدنيا ، وسرعة زوالهم وفنائهم بحلول أهل الديار فيها ، ووشك نهوضهم عنها ، وتركها خلاء خاوية » ^(٢) .

(١) شرح السعد ، ضمن شروح التلخيص ، ٣/ ٣٨٨ .

(٢) الكشف ، ٤١/١ .

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

والأصل في «كأن» الدالة على التشبيه أن يليها المشبه ، ومثل (كأن) في هذا الحكم كل ما له معمولان من الأفعال ، أو الأسماء المشتقة المفيدة لمعنى التشبيه ، والأفعال المنبئة عن التشبيه كـ «علمت زيدا أسداً» ، وقال بعضهم في كون هذا الفعل منبئاً عن التشبيه نظراً للقطع بأنه لا دلالة للعلم والحسبان على ذلك وإنما يدل عليه علمنا بأن أسداً لا يمكن حمله على زيد تحقيقاً ، وأنه إنما يكون على تقدير أداة التشبيه ، سواء ذكر الفعل أو لم يذكر ، ولو قيل : إنه ينبئ عن حال التشبيه من القرب أو البعد لكان أصوب^(١).

هذا وفي قولك : زيد مائل أو يماثل الأسد ، وشابه أو يشابه حاتماً وشوقي حاكي أو يحاكي أبا الطيب ، ونقول في الأسماء المشتقة زيد مماثل أو مشابه أسداً ، وشوقي محاك أبا الطيب تكون الضمائر المستكنة في هذه الأفعال والصفات هي المشبهات وقد أتت بعدها ؛ لأنها فواعل والفاعل مرتبته التقدم على المفعول به .

يقول بهاء الدين السبكي : «والتحقيق أن يقال : أداة التشبيه إن كان لها معمولات قدم ما تقتضي العربية تقديمه مشبهاً كان ، أو مشبهاً به ، فتقول : كأن زيدا أسد فيليها المشبه ؛ لأنه مخبر عنه ، والمخبر عنه هو اسم كأن لا خبرها ، فليس تقديمه لكونه مشبهاً بل لكونه اسماً لها ، ومخبراً عنه ، وتقول شابه زيد الأسد ، ومائله ، فوليه المشبه ؛ لأنه فاعل ، ووضعه التقدم على المفعول ، وتقول زيد يشبه الأسد فوليه المشبه ؛ لأنه ضمير متصل ، وإن كان لها معمول واحد وليها في اللفظ المشبه به»^(٢).

«وأشار الطيبي إلى أن من أدوات التشبيه أفعال التفضيل ، مثل : زيد أفضل من عمرو ... ومن أدوات التشبيه «لعل» في قوله تعالى : ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ

(١) التلخيص في علوم البلاغة : بشرح عبد الرحمن البرقوقي ، ص ٢٦٣ .

(٢) عروس الأفراح ، ٣/ ٣٩٠ ، ٣٩١ .

الصورة البيانية ————— دراستي في مسأله البيان ————— ❁

لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿ (الشعراء: ١٢٩) عن ابن عباس كأنكم تخلدون ... وجعل عبد اللطيف البغدادي من أدوات التشبيه كلمة سواء كقولهم : رأيت رجلا سواء هو والعدم ولا يخفى أن هذه الألفاظ بعضها يصلح للتشبيه وبعضها يصلح للمشابهة ، لكن اسم التشبيه قد يطلق على الجميع ^(١).

فمن أمثلة « أفعل » التفضيل قول المتنبي :

واهجر أقتل لي ما أراقبه أنا الغريقُ فما خوُفي من البلل
وإنما عدوا « أفعل » التفضيل من أدوات التشبيه على اعتبار أن في التفضيل طرفين اشتركا في صفة وزاد أحدهما على الآخر في هذه ، وهنا يشبه هجرها بالقتل .

ومنه قوله :

وأبصر من زرقاء جوٍّ لأنني إذا نظرتُ عيناي شاءهما علمي
جوٍّ : قصبة اليمامة ، وهي بلد . وزرقاء اسم امرأة من أهل جوٍّ حديدة البصر ، كانت تدرك ببصرها الشيء البعيد ، فضربت العرب بها المثل ، فقالوا : أبصر من زرقاء اليمامة ، وبها سميت اليمامة .

فإنه يلتقي مع الزرقاء في إجادة الإبصار والرؤية ، ولكنه يتفوق عليها ؛ لذا فضل نفسه في الرؤية عليها .

« ولعل » من أدوات التشبيه كما سبق ، ففي البخاري في قوله تعالى : ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ (الشعراء: ١٢٩) عن ابن عباس معناه كأنكم تخلدون ، وفي الكشف معناه : ترجون الخلود في الدنيا أو تشبيه حالكم حال من يخلد.

وفي مصحف « أبي » كأنكم تخلدون .

(١) عروس الأفراح ، ٣/ ٣٩٢ ، ٣٩٣ .

❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

وقال الطيبي « لعل » هذا وارد على الاستعارة التمثيلية .

تنبيه « ما ذكر من أن (كأن) أداة من أدوات التشبيه لا فرق فيها بين أن تخفف نونها أولاً ، ولا فرق بين أن تتصل «بما» الكافة أو لا فإن «ما» الداخلة عليها لا تتغير معناها كما صرح به شيخنا أبو حيان ، وصاحب البسيط ، فإذا قلت كأنما زيد أسد ، فزيد مشبه ، وأسد مشبه به» ^(١) .

الفرق بين الكاف وكأن

المتبادر إلى الذهن أن التشبيه بكأن أبلغ من التشبيه بالكاف ، بهذا صرح الإمام فخر الدين الرازي في نهاية الإيجاز ، وكذلك حاز القرطاجني في منهاج البلغاء ، وقال وهي إنما تستعمل حيث يقوى الشبه حتى يكاد الرائي يشك في أن المشبه هو المشبه به أو غيره ، ولذلك قالت بلقيس كأنه هو :

في قوله تعالى : ﴿ أَهَكَذَا عَرْشُكَ ﴾ (النمل: ٤٢) « قال فيه لم يقل : أهذا عرشك لئلا يكون تلقيناً قالت ﴿ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ (النمل: ٤٢) ولم تقل هو هو ... ولا بد في اختيار ﴿ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ (النمل: ٤٢) من حكمة ، فحكمته والله أعلم أن ﴿ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ (النمل: ٤٢) عبارة من قرب عنده الشبه حتى شكك نفسه ، وفي التغاير بين الأمرين ، حاكم بوقوع الشبه بينهما لا غير ، فلهذا عدلت إلى العبارة المذكورة في التلاوة لمطابقتها لحالها» ^(٢) .

هذا وقد ذكر بهاء الدين السبكي أن « ما تقدم من أن (كأن) للتشبيه على الإطلاق هو المشهور ، وذهب الكوفيون والزجاج وابن الطراوة وابن السيد إلى أنها إن كان خيرها اسماً جامداً فهي للتشبيه ، وإن كان مشتقاً فهي للشك ،

(١) عروس الأفراح لبهاء الدين السبكي ، ٣/ ٣٩٤ .

(٢) الانتصاف لابن المنير ، تفسير الكشاف ، ٣/ ١٤٤ .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي تَالِبٍ

بمنزلة ظننت وتوهمت ، قال ابن السيد : إذا كان خبرها فعلاً ، أو جملة ، أو صفة فهي فيهن للظن والحسبان ، ولا تكون للتشبيه إلا إذا كان الخبر مما يمثل به ، فإن قلت : كأن زيداً قائم لا يكون تشبيهاً ؛ لأن الشيء لا يشبه نفسه ، وأكثر الناس على الأول - يعني أنه للتشبيه مطلقاً - فقل : إن معنى كأن زيداً قائم تشبيه حالته غير قائم بحالته قائماً ، وقال ابن ولاد : معناه تشبيه هيئة عدم القيام بهيئته حال القيام ... وقال ابن الأنباري : كأنك بالشتاء مقبل ، معناه : أظن ، وجعل الكوفيون هذا ، وقولهم : كأنك بالفرج آت للتقريب ، وكذا قول الحسن : كأنك بالدنيا لم تكن ، وبالأخرة لم تنزل ، والجمهور يؤلون ذلك على تأويل يرجع إلى التشبيه ، وذهب الكوفيون والزجاج أن (كأن) للتحقيق في قوله:

فأصبحَ بطنُ مكةَ مُقَشَّعاً كأنَّ الأرضَ ليسَ بها هشامٌ

وقال ابن أبي ربيعة :

كأنني حينَ أُمسي لا تُكلمُني مَتِيماً يشتهي ما ليسَ موجوداً

والجمهور يؤولون ذلك»^(١).

هذا والمتبع لورود (كأن) في الكلام الفصيح يقطع بأنها للتشبيه دائماً كما ذهب إلى ذلك الجمهور .

فمن التشبيهات التي عدها ابن الأثير من الحسن الجميل ما قاله البحري في وصف السيف :

وكانَما سُودُ النَّمالِ وَحُمُرُها دَبَّتْ بِأيدٍ في قِراهِ وأرجلِ

فشبه فرند السيف بديب النمل سودها وحمرها ، وذلك من التشبيه الحسن^(٢) وعاب أبو هلال قول امرئ القيس وعده من التشبيه الفاسد :

(١) بهاء الدين السبكي ، ٣/ ٣٩٢ .

(٢) المثل السائر لابن الأثير ، ص ١٥٩ .

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

أم تسأل الربعَ القديمَ بعسْعَسَا .: كأني أنادي إذا كلمَ آخرَ سا

وعسْعَس : موضع بالبادية وجبل ، ويقول أبو هلال :

« هذا من التشبيه فاسد ؛ لأجل أنه لا يقال كلمت حجراً ، فلم يجب ، فكأنه كان حجراً » والجيد قول كثير في امرأة :

فقلتُ لها يا عزُّ : كلُّ مصيبةٍ إذا وُطئت يوماً لها النفس ذلتِ
كأني أنادي صخرةً حين أعرضتُ من الصُّم لو تمشي بها العُصم زلتِ
فشبه المرأة عند السكوت والتغافل بالصخرة ^(١).

وكان عقرباً صُدغهُ وقفتُ لَمَّا دَنَتْ من نارٍ وجتته
ومن هذا قول مسلم بن الوليد :

أجدك ما تدري أن ربَّ ليلةٍ كأنَّ دُجَاها من قُرُونِك تُنْشَرُ
ومن هذا قول المتنبي متحدثاً عن الليل :

أقلُّبُ فيه أجفاني كأنِّي أعُدُّ به على الدهرِ الذُّنوبَا

ومن التشبيه الحسي الذي اختاره ابن المعتز قول البحتري :

تُخْفِي الرِّجَاجَةَ نورُها فكأنها في الكفِّ قَاتِمَةٌ بغيرِ إِنْاءٍ
ومن ذلك قول المتنبي :

كَأَنَّكَ بِالْفَقْرِ تَبْغِي الْغِنَى وبالموتِ في الحربِ تَبْغِي الْخُلُودَا

« فهذه النماذج كلها وقع المشبه به فيها غير جامد ، وهي من صميم

التشبيه » .

* * *

(١) الصناعتين ، ص ٨٦ .

أَغْرَاضُ التَّشْبِيهِ

المراد بأغراض التشبيه الأسباب والدواعي التي تحمل المنشئ وتدفعه إلى اتخاذ أسلوب التشبيه وسيلة وغاية يَتَغَيَّأُهَا ليعبّر بها عما يجول في نفسه ، ويتردّد في خاطره دون غيره من أسلوب الحقيقة أو المجاز . وأغراض التشبيه منها ما يعود إلى المشبه ، أي أن الفائدة التي يحققها التشبيه تكون عائدة على المشبه ، ومنها ما يعود إلى المشبه به ، أي أن الفائدة التي يحققها التشبيه تعود على المشبه به ^(١).

الأغراض التي تعود إلى المشبه :

١- بيان حال المشبه وذلك حينما يكون المشبه مجهول الصفة غير معروفها للمخاطب ، فيحاول المتكلم توضيح هذه الصفة ، وتبيينها من خلال قياسها على صفة واضحة معلومة ، وبذلك تتضح الصفة المجهولة ، وهذا هو المقصود من بيان حال المشبه ، فبيان الحال يكون إذا كانت صفة المشبه به معلومة للمخاطب ، وصفة المشبه غير معلومة بأن تكون مجهولة ، أو في حكم المجهولة ، ولذا لا يأتي التشبيه بياناً لحال المشبه إذا كان معلوماً قبل التشبيه ؛ لأنه يكون بياناً لمعروف واضح من قبل ، وتعريف المعروف تحصيل حاصل ، ومن أمثلة ما تراه في قول الرسول ﷺ « الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ».

وقوله ﷺ « الرَّحِمُ لَهَا حُجْفَةٌ كَحُجْفَةِ الْمِغْزَلِ ».

والحُجْفَةُ هي الحديدية المعقّفة في رأس المِغْزَل ، ومنه المِجْحَن وهي العصا المعوجّة الرأس ، فأراد (عليه الصلاة والسلام) أن الرحم لها علائق يعتلق

(١) فن التشبيه ، ١٩٧/١ ، ١٩٨ .

❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسْتُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

بها ، وشوابك تجتذب بوصلها ، فكأنها تستعطف المعرض عنها ، وترد الشارد إليها كما يجتذب الإنسان الشيء بالمُحَجَّنِ إلى جهته ^(١) ومن هذا قول الرسول ﷺ « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم ، وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » وقوله - عليه الصلاة والسلام - « الناس سواسية كأسنان المشط » ، وقوله ﷺ « أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » .

ومن هذا قول المتنبي يرسم صورة للسيف المخضَّب بالدم الجامد حتى غدا كأنه في الغمد :

يَسَّ النَّجِيعُ عَلَيْهِ وَهُوَ مُجَرَّدٌ مِنْ غَمْدِهِ فَكَأَنَّمَا هُوَ مَغْمَدٌ
النَّجِيعُ : الدم .

يريد أن يقول : إن الدَّمَّ الجامد قد غطَّاه ، فصار عليه كالغمد ، فهو مجرد وهو مغمَّد .

وترى هذا في قول امرئ القيس :
كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابِسًا لَدَى وَكْرِهَا الْعُنَابُ وَالْحَشْفُ الْبَالِي
ومن ذلك قول النابغة :

كَأَنَّكَ شَمْسٌ وَالْمُلُوكُ كَوَاكِبٌ إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوَكَبٌ
فتشبيه النابغة لحال النعمان بين سائر الملوك بحال الشمس بين سائر الكواكب ، ووجه شبه من الهيئة الحاصلة من تلاشي الشيء الضئيل عند وجود الشيء العظيم والخطير ، والغرض تعريف حال المشبه المجهولة للمخاطب ، ولذا ينبغي لتحقيق هذا الغرض أن يكون المشبه به معروفاً عند المخاطب في وجه الشبه ؛ لأنه لو لم يكن معروفاً من قبل لزم تعريف مجهول .

(١) المجازات النبوية ص ٢٤٥ .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ الْبَيَانِ ————— ❁

ومن ذلك قول المتنبي وهو يفخر بشعره ، فيصوره مرة بالملك ، ومرة بالشمس ، ويجعل الدنيا فلكه الدوار فيقول :

إِنْ هَذَا الشَّعْرُ فِي الشَّعْرِ مَلَكٌ سَارَ فَهُوَ الشَّمْسُ وَالْدُنْيَا فَلَكٌ

فالشاعر يتيه بشعره ، ويتغنى به ، ويفخر ويرتقي بمستواه ، ويجعل مكانه بالنسبة لغيره من الأشعار بمنزلة الملائكة من الناس ، ثم يصعد به ، ويرتقي إلى أفق آخر حين يشير إلى سيورته ، وذيوعه وانتشاره فيثبت له أنه قد عمَّ الآفاق ، وملاً الأجواء ، وطاف في كل مكان ولم يتوقف عند حدٍّ وإنما اجتاز السدود ، وعبر الحدود ، وحلّق في السماوات كالشمس التي تملأ الدنيا ، وتضيء الكون ، وينعم بدفئها القاصي والداني والمشرق والمغرب ، وإذا كانت الشمس لتُجَاب بسبب إشراقها فلؤلُ العتمة ، وتنهزم أمام طلائعها مواكب الليل ، فإن شعره كذلك يبدّد ظلام الجهل ، ويبعث بأنوار المعرفة والعلم ، ويفتح مغاليق العقول ويعقد مع المعرفة نسباً وصهراً ، والدنيا فلكه الدوار التي تتردّد على قيثارها أنغامه ، وترجّع على وترها ألحانه .

والغرض من التشبيه بيان حال المشبه المجهولة ؛ ولذا اتضحت صفته وظهرت من المشبه به المعروف عند المخاطب في وجه الشبه .

٢- ومن أغراض التشبيه بيان مقدار حال المشبه .

ومعنى بيان مقدار حال المشبه أي بيان ذلك من ناحية القوة أو الضعف ، والزيادة أو النقصان كما في تشبيه الثوب الأسود بالغراب في شدة السواد ، ومن هذا قول قيس بن معاذ الملقب بمجنون بني عامر .

فَأَصْبَحْتُ مِنْ لَيْلَى الْغَدَاةِ كَقَابِضٍ عَلَى الْمَاءِ خَائِثُهُ فَرُوجُ الْأَصَابِعِ

والمجنون تراه في رنة ألم قاتلة ، وفي حسرة فردية يئن أنين الخيبة والحسرة والانكسار ، وهو يرى آماله وأحلامه قد ذوت ، وأمانيه قد ضاعت ، وفردوسه السعيد يغوص في طوايا العدم والنسيان ؛ إذ أضاع ليلى بعد أن كانت

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

في يده ، وفي منتهى القرب منه ، واللصوق به كما أضاع الماء هذا الذي كان بيده ، فقبض عليه ، فتسرب من بين فروج أصابعه ، وبقي يكتوي بنار الحسرة والحرمان والظماً .

ويتحدث الإمام عبد القاهر في سبب تأثير التمثيل أن الأمور العقلية تختلف مقاديرها في القوة والضعف ، فإذا مثلت بالمحسوس عرفت مرتبتها وحقيقتها ، فمجنون ليلي حين قال :

كقابضٍ على الماء خائنه فُروجُ الأصابع

أراك أنه بلغ في بوار سعيه إلى أقصى المبالغ ، وانتهى إلى أبعد النهايات والغايات ، فتأثير التمثيل هو البيان الذي كانت النفس مشوقة إليه .
يقول الإمام عبد القاهر : « إن الأوصاف التي يُردُّ السامع فيها بالتمثيل من العقل إلى العيان والحس » وهي في أنفسها معروفة مشهورة صحيحة لا تحتاج إلى الدلالة على أنها هل هي ممكنة أم لا ؟ » فإنها وإن غيّبت من هذه الجهة عن التمثيل بالمشاهدات والمحسوسات فإنها تفتقر إليه من جهة المقدار؛ لأن مقاديرها في العقل تختلف وتتفاوت ، فقد يقال في الفعل : إنه من حال الفائدة على حدود مختلفة في المبالغة والتوسط ، فإذا رجعت إلى ما تبصر وتُحسّ عرفت ذلك بحقيقته وكما يوزن بالقسطاس ، فالشاعر لما قال :

كقابضٍ على الماء خائنه فُروجُ الأصابع

أراك رؤية لا تشكّ معها ولا ترتاب أنه بلغ في خيبة ظنه وبوار سعيه إلى أقصى المبالغ ، وانتهى إلى أبعد الغايات ، حتى لم يحظّ لا بما قل ، ولا ما كثر^(١) .

ومن ذلك قول المتنبي :

حالك كالفداف جثل دُجوجي أثيث جعد بلا تجعّيد

الحالك : الشديد السواد . والغداف هو الغراب الأسود .

(١) أسرار البلاغة ، ص ١٢٥ .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَةٌ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ❁

والجثل : الكثير النبات ، يقال هو جثل بين الجثولة ، والأثيث مثل الجثل والدجوجي : الحالك .

يقول : ذات فرع حالك كثير النبات جعد خلق جعداً من غير أن يُجْعَدَ ، وتشبيه الشعر بالغراب في صفة السواد ، وبيان لمقدار هذه الصفة في المشبه ، فالصورة بصرية لونية ، والغرض من التشبيه بيان مقدار حال المشبه .

ومنه قول بشار :

إِذَا قَامَتْ لِحَاجَتِهَا تَثْنَتْ كَأَنَّ عَظَامَهَا مِنْ خَيْرُزَانٍ

فكلمة « تثنت » تشير إلى الوصف المشترك بين الطرفين ، فالمخاطب يعرف حال المشبه ، وأنه موصوف باللين ، ولكنه لا يدري إلى أي حد يكون هذا اللين ، وما مقداره ، فجاء المشبه به ، ليكشف عن مقدار هذا المشبه ، وهذا البيت كان موضع إعجاب من النقاد ؛ جاء في الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء هذه المقولة : « أخبرني محمد بن أبي الأزهر ، قال حدثنا محمد ابن يزيد النحوي ، قال أنشد بشار بيت كثير :

أَلَا إِنَّمَا لَيْلَى عَصَا خَيْرُزَانَةٍ إِذَا عَمَزُوهَا بِالْأَكْفِ تَلِينُ

قال : فضحك ، وقال لله أبو صخر ، أجعلها عصاً ثم يعتذر لها ، والله لو جعلها عصاً منخ أو عصاً زُبْدٍ لكان قد أساء ألا قال كما قلت :

وَبَيْضَاءِ الْمَدَامِ مِنْ مَعَدٍّ كَأَنَّ حَدِيثَهَا قَطَعَ الْجَنَانِ

إِذَا قَامَتْ لِحَاجَتِهَا تَثْنَتْ كَأَنَّ عَظَامَهَا مِنْ خَيْرُزَانِ

قال : والخيزرانة كل غصن لين يثني»^(١).

ومن هذا الغرض قول المتنبي :

وَالْغَنَى فِي يَدِ اللَّئِيمِ قَبْحٌ قَدَرُ قَبْحِ الْكَرِيمِ فِي الْإِمْلَاقِ

(١) الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء ، تحقيق محمد حسين شمس الدين ، ص ١٩٠ .

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

الإملاق : الفقر والحاجة .

يريد المتنبي أن يقول : على الإنسان في حياته أن يكون عطاؤه متوافقاً مع فطرته ، حتى يحسن القيام فيما أعطى ، ويشعر بلذة الحياة ، فإذا لم يكن كذلك ، ولم يؤد للحياة ما يجب عليه أدائه نحوها فإن الأمر حينئذ يكون المساواة في قدر القبح بين الفقر في يد الكريم ، والغنى والثراء في يد البخيل الشحيح .

وواضح أن الغرض من هذا التشبيه هو بيان المقدار .

ومن هذا الغرض أيضاً قول المتنبي .

تَشْتَى عَلَى قَدْرِ الطَّعَانِ كَأَنَّمَا مَفَاصِلُهَا تَحْتَ الرَّمَّاحِ مَرَاوِدُ
المرآود جمع مَرَوْد ، وهو حديدة تدور في اللَّجَام ، وهو من راد يَرُوْدُ إذا ذهب وجاء ، والمَرَوْد : المِيلُ ، والمحور في البكرة إذا كان من حديد يتحدث عن أعضاء الفرس وأنها طَيِّعَةٌ لينة تميل مع الرمح كيفما مال ، شبه مفاصلها لسرعة استدارتها إذ لوى عنانها عند الطعان بمسمار المَرَوْد يدور مع حلقتة كيفما أدبرت .

وواضح أن الغرض من التشبيه بيان مقدار حال المشبه ، ومن هذا قول الأعشى :

كَأَنَّ مِشْيَتَهَا مِنْ بَيْتٍ جَارَتْهَا مَرُّ السَّحَابَةِ لَا رَيْثٌ وَلَا عَجَلُ
وعد أبو هلال التشبيه هنا من تشبيه الشيء بالشيء في الحركة^(١).

وهذا البيت وَجَّهٌ إليه نقد ، فعن الهيثم بن عدي قال كنا جلوساً عند صالح ابن حسان ، فقال لنا : أنشدونا بيتاً خفراً لامرأة خفره ، فقلت : قول الأعشى :
كَأَنَّ مِشْيَتَهَا مِنْ بَيْتٍ جَارَتْهَا مَرُّ السَّحَابَةِ لَا رَيْثٌ وَلَا عَجَلُ

(١) كتاب الصناعتين ، ص ٢٧٠ .

الصورة البيانية ————— دراستي مسائل علي البيان ————— ❁

فقال هذه خراجة ولأجة كثيرة الاختلاف ، فقلنا ما عندنا شيء ، فقال : قول أبي القيس بن الأسلت :

وَيُكْرِمُهَا جَارِئُهَا فَيَزِرْ رَتْنَهَا وَتَعْتَلَّ عَنْ إِيَّانِهَا فَتُعْذِرُ
وليس لها أن تستهين بجارة ولكنها منهن تحيا وتحفز^(١)
والنقد موجه للخروج من البيت وليس إلى التشبيه .

٣- من أغراض التشبيه تقرير حال المشبه .

وتقرير حال المشبه في نفس السامع إنما يفيد التشبيه إذا كان المشبه به حسياً وكان المشبه كذلك أو عقلياً ، وإنما لا بد أن يكون المشبه به حسياً لأن النفس بالحسي أكثر إلغاً منها بغيره ، ومن هذا المعنى (أعني ظهور المعقول في المحسوس فيتمكن في النفس لإلفها المحسوس) قول الله تعالى حكاية عن سيدنا خليل الرحمن على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام : ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ (البقرة: ٢٦٠) فقد طلب شهود أثر الإحياء ؛ لأن النفس في الاطمئنان إلى المحسوس أقوى منها في الاطمئنان لغيره ، قيل إنما طلب ذلك لحق من يتبعه ، وهذا فيما بين المحسوس والمعقول ظاهر ، فإنك لو قلت : هذا اليوم مثلاً أطول من كل ما يُقدَّر لم يكن في تأثيره في النفس طول ذلك اليوم مثل قوله حيث شبهه في المحسوس بقوله :

ويوم كطل الرُّمَحِ قَصْرَ طَوْلِهِ دُمُ الزَّقِّ عَنَا وَاصْطَفَاكَ الْمَزَاهِرُ^(٢)
وكذلك إذا قلت في وصفه بالقصر ، يوم كلمح البصر ، أو كأنه ساعة لم يكن في تأثيره في النفس قصر ذلك اليوم مثل قولك : يوم كإبهام القطاة ؟

(١) معاهد التنصيص على شواهد التلخيص ، ٢٧/٢ ، والموشح مأخذ العلماء على الشعراء للمرزباني ، ص ٦٥ .

(٢) حاشية ابن يعقوب ، ٣/٣٩٨ ، ٣٩٩ .

❁ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

فتقرير حال المشبه نوع من بيان حاله ، ولكنه بيان على جهة القوة والتمكين والتحقيق والتثبيت ، ويكون ذلك حين تظهر المعنويات في صورة محسوسة ، وحينئذ يُبَصِّرُ المجرَّد ، ويُشَاهِدُ على نحو لا تخطئه العين أو يغيب بعيداً عن مشاهدتها إياه ، وإحساسها بوجوده ، ومن هذا ما تراه في الشاهد الذي تحتفظ به كتب البلاغة من تشبيه من لا يحصل من سعيه وكده على ثمرة بمن يرقم على الماء ، فأنت ترى من خلال هذا الشاهد خيبة مسعاة ، وبوار عمله في صورة مشاهدة ومرئية ومحسوسة ، وهو الرِّقْمُ على الماء ، وترى هذا واضحاً في قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ ﴾ (البقرة: ٢٦١) وفي قوله سبحانه : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾ (إبراهيم: ١٨).

إلى غير ذلك مما يبرز المعنوي فيه في صورة حسية وهذا الغرض لا بد فيه من أن يكون المشبه به أعرف بوجه الشبه من المشبه وأن يكون أتم وأقوى منه فيه ؛ حتى يتقرر المشبه في النفس ويتمكن لديها .

٤- من أغراض التشبيه بيان إمكان المشبه .

ويكون الغرض بيان إمكان المشبه كما إذا كان حالة غريبة ربما تدعى الاستحالة فيها ، فتلحق بحالة مُسَلِّمة الإمكان ؛ لوقوعها في وجه جامع لها.

ففي هذا الغرض يكون المشبه أمراً غريباً ، يمكن أن يخالف فيه ويدعي امتناعه على حد ما قاله المتنبي في حق سيف الدولة .

فَإِنْ تَفَقَّى الْأَنَامَ وَأَنْتَ مِنْهُمْ فَإِنَّ الْمَسْكَ بَعْضُ دَمِ الْغَزَالِ

فإنه لما ادعى أن الممدوح قد تناهى في الصفات الفاضلة إلى حد صار معه كأنه جنس آخر مستقل برأسه شبه حاله هذه بحال المسك الذي هو من الدماء ثم لا يُعَدُّ من الدماء لتفوقه عليها ، وذلك لما فيه من الأوصاف الشريفة ، وهذا

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَةٌ فِي مَسَائِلِ عَلَيَّ الْبَيَّانِ ————— ❁

التشبيه ضمني ومكنى عنه ، يقول الإمام عبد القاهر بعد أن ذكر البيت « وذلك أنه أراد أنه فاق الأنام ، وفاتهم إلى حدٍ تطل معه أن يكون بينه وبينهم مشابهةً ومقاربة بل صار كأنه أصل بنفسه وجنس برأسه ، وهذا أمر غريبٌ وهو أن يتناهى بعض أجزاء الجنس في الفضائل الخاصة به إلى أن تصير كأنه ليس من ذلك الجنس ، وبالمدعى له حاجة إلى أن يصحح دعواه في جواز وجوده على الجملة إلى أن يجيء إلى وجوده في الممدوح ، فإذا قال فإن المسك بعض دم الغزال ، فقد احتجَّ لدعواه وأبان أن لما ادعاه أصلاً في الوجوه وبرأ نفسه من ضعة الكذب ... وذلك أن المسك قد خرج عن صفة الدم وحقيقته ، حتى لا يُعدَّ في جنسه ، إذ لا يوجد في الدم شيء من أوصافه الشريفة الخاصة بوجه من الوجوه ، لا ما قل ولا ما كثر ، ولا في المسك شيء من الأوصاف التي كان لها الدم دمًا البتة»^(١).

ومن هذا قول ابن الرومي :

قالوا : أبو لصقرٍ من شيبانٍ قلتُ كلاً لعمري ولكن منه شيبانٌ
كم من أبٍ قد علا بابنٍ ذرا شرفٍ كما علا برسول الله عدنان
فهو لما ادعى أن أبا الصقر هو أصل شيبان ، وليست هي أصله كان ذلك غير مسلم به وكان عليه أن يحتجَّ لصحة دعواه تلك ، فجاء بالحجة والدليل حين بين أن كثيراً من الآباء تُرْفَعُ أقدارها بنسبتهم إلى أبنائهم ، كما ارتفعت عدنان شرفاً بنسبتها إلى رسول الله ﷺ وبذلك دُلَّ على إمكان وجود المشبه ، والمشبه هو ارتفاع شأن الأب ، وعلوه بابنه ، والمشبه به ارتفاع قدر عدنان وعلو مكانتها ومنزلتها بالرسول ﷺ ووجه الشبه هو ارتفاع شأن الأول بالآخر ، ولتحقيق هذا التشبيه ينبغي أن يكون المشبه به أعرف وأشهر من المشبه ؛ ليصح القياس عليه .

(١) أسرار البلاغة ، ص ١٢٣ .

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

ومن ذلك قول البحترى :

دان على أيدي العَفَاةِ وَشَاسِعُ عن كل ندٍّ في النَّدى وَضَرِبِ
كالبدْرِ أَفْرَطَ في العلوِّ وضوؤه للعُصْبَةِ السارينَ حَدُّ قَرِيبِ

فهو يصور الممدوح في قرب عطائه ، وبعد مكانته بحال البدر في بعد مكانه ، وقرب ضوئه ، ووجه شبه هو اتصاف كل منهما في وقت واحد بصفتي القرب والبعد ، وتجد التشبيه الضمني في قول المتنبي :

وجدت عليًّا وابنه خيرَ قومه وهُم خيرُ قومٍ واستوى الحرَّ والعُبدُ
وأصبحَ شعريَ منهما في مكانه وفي عنق الحسناءِ يُستحسنُ العِفْدُ

فالمشبه هو حال الشعر يثني به على الكريم ؛ فيزداد جمالاً ؛ لوضعه في مكانه والمشبه به حال العقد الغالي الثمين ، يوضع في عنق الحسناء ، فيزداد حسناً ، ووجه الشبه زيادة جمال الشيء لجمال مكانه . ومن هذا اللون قول المتنبي .

هُمَا إِذَا مَا فَارَقَ الْغَمْدَ سَيْفُهُ وَعَايِنْتُهُ لَمْ تَدْرِ أَيُّهُمَا التَّصَلُّ

فالشاعر المداح يأخذ بيدك لتقف معه أمام السيف بعد أن فارق غمده ، ثم تفحصه وتتثبت منه ثم تضعه بجوار الممدوح ، وسوف يهولك ما تراه من التشابه بينهما الذي قد وصل إلى درجة التماثل ، مما اختلط الأمر على الرائي فلم يعد يميّز بينهما ، ولم يعد يعرف مَنْ منهما النصل وَمَنْ الممدوح ؟ لأنهما معاً قد صارا وكأنهما شيء واحد ، ولا يغيب أن الممدوح قد شبه بالنصل تشبيهاً ضمناً .

ومن التشبيه الضمني قوله :

ومن الخَيْرِ بُطْءُ سَيْلِكَ عَنِّي أَسْرَعُ السَّحْبِ فِي الْمَسِيرِ الْجَهَامُ

إن الشاعر يريد أن يفُضِّي برغبته إلى ممدوحه ؛ لينال عطاه ، فلا يصرح له برغبته ، وإنما يلمح له بها تلميحاً من خلال تشكيل صورته الذي جعل المعنى

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ عَلِيٍّ الْبَيَّانِ ————— ❁

الصَّريح فيها يتوارى وراء هذا الأسلوب غير المباشر ، والذي يُلَمِّح له فيه بما لم يصرح به فطار إلى السحب ، وانطلق نحوها ؛ لينتزع مِنْهَا هذا التمثيل الرائع من خلال القياس ، والموازنة بين السحب التي تحمل المطر ، وبين التي تحول دون هطوله ، وبطء الأولى مع ما فيها من خير وسرعة الثانية مع قلة هذا الخير وندرته ، ودَلَّلَ بهذه الحالة على حمده لبطء عطاء الممدوح وتريثه ؛ لأن في تأخيرهِ كثرته وتدفعه ، إن المعنى المباشر هنا قد أشار إلى المعنى الخفي وأوحى به .

وتجد هذا الغرض في قوله :

مَنْ يَهْنُ يَسْهَلُ الْهَوَانُ عَلَيْهِ مَا لَجُرْحٍ بِمِيتٍ إِلَّا مُمْ

فالإنسان إذا كان هينا في نفسه سهل عليه احتمال الهوان من غيره كالमित الذي لا يتألم لجراحه ، فهو يشبه هيئة من يتعشاه الهوان ويقبل به ، ولا يتمرد عليه ويرفضه بالमित الذي تناله الأسنة والرماح فلا يحسّ ألماً ، ولا يشكو وجعاً ، ووجه الشبه الهيئة الحاصلة من عدم التأثر مما من شأنه التأثير منه .

ومن هذا الغرض قوله :

كُنْ أَيُّهَا السَّجْنُ كَيْفَ شِئْتَ فَقَدْ وَطَّئْتُ لِلْمَوْتِ نَفْسَ مُعْتَرِفٍ
لَوْ كَانَ سُكْنَايَ فِيكَ مَنْقُصَةً لَمْ يَكُنْ الدَّرُّ سَاكِنَ الصَّدْفِ

فهو يسخر من السجن ، ويتعالى فوق جراحه وآلامه ، ويبين أنه أعد نفسه لتتحمل وتصبر مهما كانت المحن والشدائد ، ثم يوضح أن وجوده في السجن لا ينقص قدره ، ولا يضع من شأنه ، ويدلل على ذلك أن الدَّرَّ في رفعة منزلته إنما يسكن داخل الصدف ، فهو يشبه نفسه وهو داخل السجن بالدَّرِّ في داخل الصدف تشبيهاً ضمنيا « وهذه الوجوه الأربعة تقتضي أن يكون وجه الشبه في المشبه به أتم ، وهو به أشهر » على حد ما ذهب إليه الخطيب^(١) ، ومعنى كونه

(١) بغية الإيضاح ، ٤٠/٣ .

❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

أتم أن يكون أقوى وأكمل ، وبكونه أشهر أن يكون أعرف ، واقتضاء تلك الوجوه للأعرافية ظاهر ؛ لأن المشبه به كالمبين المَعْرِفُ للمشبه ، فيجب أن يكون أعرف بوجه الشبه ؛ لأن التعريف إنما يكون بالأوضح ، أما اقتضاؤها للآتمية فإنما يظهر في غرض تقرير وتأكيد ثبوت الصفة للمشبه دون غيره ولا سيما بيان المقدار الذي لا يحتاج فيه إلا التساوي الطرفين في وجه الشبه ليتضح المقدار كما أن الغرض إذا كان بيان الإمكان فالمطلوب فيه مجرد وقوع وجه الشبه في الخارج في ضمّن المشبه به ليفيد عدم الاستحالة .

يقول ابن يعقوب « فلو لم يكن المشبه به أعرف بالوجه لزم أن يكون في التشبيه تعريف مجهول بمجهول وكون هذه الأغراض تقتضي الأعرافية جميعاً ظاهر لما ذكر ، وأما كونها تقتضي أن يكون الوجه في المشبه به أتم فليس بظاهر في الجميع ، وإنما يظهر في التقرير فقط وذلك لأن بيان الإمكان إنما المطلوب فيه مجرد وقوع وجه الشبه في الخارج في ضمن المشبه به ليفيد عدم الاستحالة ، وغاية ما يقتضيه ذلك مجرد العلم بالوجود الخارجي ؛ لَيْسَ الْمَ الإمكان ؛ إذ لا يتوقف الإمكان على الآتمية بل مطلق وقوع الحقيقة في فرد ما يكفي في إمكانها ، فإذا قلت : أنت في خروجك عن أهل جنسك كالمسك فالمراد يكفي فيه العلم بخروج المسك من جنسه ولا يطلب كونه أتم منك في الخروج بل ربما يوجب ذلك تقصيراً في المدح ، فيصح التشبيه ولو كنت أتم في الخروج . وأما بيان الحال فالفرض كما تقدم أن المخاطب جاهل به طالب المجرد تصويره وذلك يكفي فيه كونه معروفاً في المشبه به ؛ ليفيد معرفته في المشبه كما تقدم . فإذا قيل ما لون ثوبك المشتري قلت : كهذا ، فيحصل الغرض بمجرد العلم بكون هذا له سواد ؛ لأن هذا هو المطلوب ، ولا يشترط كون هذا أتم في السواد»^(١) ، وفي بيان المقدار : « لا يقتضي الآتمية بل يقتضي

(١) ابن يعقوب ضمن شروح التلخيص ، ٤٠٠/٣ ، ٤٠١ .

الصورة البيانية ————— دراستي مسائل عليّ البيان ————— ❁

أن يكون المشبه به على حد مقدار المشبه لا أزيد ولا أنقص ليتعين مقدار المشبه على ما هو عليه ، وأما تقرير الحال فيقتضي الأمرين جميعاً ، أي أن يكون أتم ، وأن يكون أشهر ؛ لأن النفس إلى الأتم والأشهر أميل ، فالتشبيه به بزيادة التقرير أجدر^(١).

٥- من أغراض التشبيه تزيين المشبه .

ومعنى تزيين المشبه أي وضعه في صورة حسنة ، وتصويره للمخاطب على نحو حسن جميل ؛ بحيث يروق ويعجب ويتحقق ذلك حين يلحق المشبه بمشبه به قد استقر في النفوس حسنه وجماله ؛ ليتصوره المخاطب كذلك ، فيرغب فيه فتزيينه : « أي تحسينه بمعنى إيقاع زينته وحسنه في ذهن السامع ، فيتخيل أنه كذلك ترغيباً فيه ، ولو لم يكن في نفس الأمر كذلك ، وذلك بسبب قراءته مع صورة حسن فيها وجه الشبه لعارض فيتخيل حسن المشبه »^(٢).

ومن ذلك قول الشاعر :

سوداء واضحة الجين كمُقَلَّةِ الظبي الغرير

الغرير : الحسن الشكل .

فمن أجل الترغيب في الوجه الأسود لأنه قد لا يستحسن في مرأى العين شبه بمقلة الظبي في حسن سوادها مع استدارته تزييناً له عند المخاطب فيتخيله حسناً .

ومن ذلك قول أبي العلاء المعري :

خبريني ماذا كرهت من الشَّيبِ فلا علم لي بنذب المشيبِ
أضيأ النهار أم وضح اللؤ لؤ أم كوئنه كنفغر الحبيب ؟

(١) شرح السعد ، ضمن شروح التلخيص ، ٤٠٠/٣ ، ٤٠١ .

(٢) ابن يعقوب ، ضمن شروح التلخيص ، ٤٠٢/٣ .

❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

الوضح : البياض والضوء .

فالغرض من التشبيه هنا تحسين المشبه وتزيينه فضياء النهار ، ووضح اللؤلؤ ، وثمر الحبيب ، كلها من الأمور الحسنة الجميلة .

وقد شبه الشاعر الشيب بهذه كلها فصار الشيب مستحسناً جميلاً ومن ذلك قول ابن المعتز :

غَدِيرُ تُرْجَرَجٍ أَمَاجَهِ هُبُوبُ الرِّيحِ وَمَرُّ الصَّابَا
إِذَا الشَّمْسُ مِنْ فَوْقِهِ أَشْرَقَتْ تَوَهَّمَتْهُ جَوْشَنًا مَذْهَبَا

الصَّابَا : ريح تهب من الشرق ، والجوش : الدرع .

فالشاعر يشبه حال الماء تَرَجَرَجَ من هبوب الريح ، وسطوع أشعة الشمس فوقه بحال درع مُوجَتْ بالذهب ، والغرض من التشبيه إظهار المشبه في صورة مزينة جميلة .

ومثله قول الشاعر :

تَفَارِيقُ شَيْبٍ فِي الشَّبَابِ لَوَامِعُ وَمَا حَسَنَ لَيْلٍ لَيْسَ فِيهِ نَجُومُ ؟

فالشاعر يشبه هيئة ظهور بياض الشيب يلمع بين سواد الشباب بهيئة نجوم تتألق وسط الظلام ، والجامع الهيئة الحاصلة من اختلاط شيء ناصع البياض بآخر شديد السواد .

٦- ومن أغراض التشبيه تقبيح المشبه .

وذلك بأن يصور للمخاطب في صورة قبيحة وذلك بإلحاقه بمشبه به تنفر منه النفس ، فإلحاق المشبه بصورة اقترنت بقبح فيه ، مما يجعل المخاطب يتخيل قبح المشبه وشيئه ؛ حيث ألحق بما تحقق فيه القبح ، والشين ومن ذلك قول المتنبي :

وَإِذَا أَشَارَ مَحْدَثًا فَكَأَنَّهُ قَرْدٌ يُقْهَقُهُ أَوْ عَجُوزٌ تَلْطِمُ

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دُرُوسٌ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ❁

فهو يحقر المهجو ، ويزدريه ، ويستهجنه ، ويسخر منه ويضعه في صورة
قميئة وضیعة ، فيشبهه في هيئة بغیضة يشير بيديه في حديثه على نحو سيئ
بهیئة قرد يقهقه ويضحك ، أو عجوز تلطم وجهها في بشاعة المنظر وقبحه .

ومما جاء على هذا النحو قول عنتره :

وأنا ابن سوداء الجين كأنها ذئبٌ ترعرع في نواحي المنزل
الساق منها مثل ساق نعامة والشعر منها مثل حب الفلّ

والغرض من كل تشبيه من هذه التشبيهات رسم المشبه في صورة قبيحة
لا ترتاح إليها النفس .

٧- استطراف المشبه .

وهو على حد ما يقول ابن يعقوب : « وأما استطراف المشبه وهو بالطاء
المهملة من استطرفت الشيء اتخذته طريقاً ، أي : جديداً ، والمال الطريف هو
المقابل للقديم ، وذلك أن لكل جديد لذة ، فالمراد جعل المشبه مستحسناً
لكونه أظهر في وصف أمر غريب مستحدث لا يعهد على ما يأتي في المثال ،
ويحمل أن يكون بالطاء فالمراد باستطرافه جعله طريقاً أي جميلاً حسناً بالوجه
المذكور»^(١) .

ومرد الاستطراف إلى شيئين .

١- أن يبرز في صورة ممتعة الوجود في الخارج عادة ، أو نادرة الحضور
في الذهن .

٢- أن يشبه بشيء ينذر حضوره في الذهن عند حضور المشبه ؛ لبعد
المناسبة بينهما ، فالأول كتشبيه الجمر الموقد في الفحم يبحر من
المسك موجه الذهب بجامع الهيئة الحاصلة من وجود شيء مضطرب

(١) ابن يعقوب ، ٤٠٣/٣ .

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

ماثل إلى الحمرة في وسط شيء أسود ، وإنما استطرف المشبه كما يقول ابن يعقوب في هذا التشبيه لإبراز المشبه ، وإظهاره في صورة الممتنع ، وذلك أن المشبه به وهو البحر من المسك الذائب وأما وجه الذهب الذائب ممتنع عادة ، وإن أمكن عقلا وفد أبرز المشبه في صورته أي في وصفه حيث ألحقه به ولاشك أن إبراز الشيء المبتدل في صورة الممنوع ، بتخييل أنه كهُوَ يوجب غاية الاستطراف»^(١) وهكذا فصورة البحر المذكورة عزيزة الوجود خارجاً ونادرة الحضور في الذهن فإذا أبرز المشبه التافه الذي لا وزن له - هيئة الجمر الموقد في الفحم - في صورة شيء نفيس ممتنع الوجود في الخارج وهو هيئة بحر من المسك موجه الذهب تخيله السامع طريفاً بديعاً .

٣- أن يكون المشبه به نادر الحضور في الذهن إما مطلقاً لبعد تصوره سواء أخطر المشبه ببالك أم لا على حد ما رأيت في المثال السابق فإنه من الصعب أن تتمثل في خيالك صورة بحر من المسك موجه الذهب حين ترى وتبصر فحما فيه جمر موقد .

أو أن تكون ندرة الحضور ليست في جميع الأوقات ، ولا في كل الأحوال ، بل عند حضور المشبه والحديث عنه ، وذلك بأن يكون المشبه به مشاهداً لكن ينذر أن تستحضره عند حضور المشبه وذلك ؛ لأنهما من واديين متباعدين فيندر حضور أحدهما في الذهن عند حضور الآخر كما في قول ابن الرومي :

وَلَا زَوْرَدِيَّةَ تَرْهُو بَرْقَتِهَا بَيْنَ الرِّيَاضِ عَلَى حُمْرِ الْيَوَاقِيتِ
كَأَنَّهَا فَوْقَ قَامَاتٍ ضَعُفْنَ بِهَا أَوَائِلُ النَّارِ فِي أَطْرَافِ كَبْرِيتِ

(١) ابن يعقوب ، ٤٠٣/٣ .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ الْبَيَانِ ————— ❁

فقد شبه نور البنفسج بأوائل النار عند أخذها بأطراف الكبريت في الهيئة الحاصلة من تعلق أجرام صغيرة لطيفة على شكل مخصوص ولون الزرقة بجرم أصغر « وتعلق أوائل النار بأطراف الكبريت موجود كثيرا عند الناس وقت الحاجة إلى ذلك ، والهيئة المذكورة واضحة في ذلك ؛ لأن نار الكبريت زرقاء »^(١).

وإنما تحققت الطرافة لأن المشبه والمشبه به من واديين متباعدين ، فالمشبه به بعيد كل البعد عن جنس المشبه والتباعد في الجنس يجعل حضور أحدهما في ذهن الشاعر عند حضور الآخر بعيدا يحتاج إلى إطالة نظر ، وإمعان فكر للجمع بين الطرفين المتباعدين .

وللإمام عبد القاهر في هذا التشبيه ملحظ آخر غير التباعد بين الطرفين في الجنس وإن كان بسبب منه وهو أنه جُمع بين نبات غُصن طري ونار محرقة يابسة يُخشى ضررها حين يقول بعد ثنائه على التمثيل : « لأنه أراك شبها لنبات غُصن يَرَف ، وأوراق رطبة ترى الماء منها يَشِف ، بلهب نار في جسم مستول عليه اليبس ، وبإد فيه اللف ومبني الطباع ، وموضوع الجيلة على أن الشيء إذا ظهر من مكان لم يعهد ظهوره منه ، وخرج من موضع ليس بمعدن له كانت صباغة النفوس به أكثر وكان بالشغف منها أجدر فسواء في إثارة التعجب ، وإخراجك إلى روعة المستغرب ، وجودك الشيء ليس من أمكنته ، ووجود شيء ولم يوجد ولم يعرف من أصله في ذاته وصفته ولو أنه شبه البنفسج ببعض النبات أو صادف له شبها في شيء من المتلونات ، لم تجد له هذه الغرابة ولم ينل من الحس هذا الحظ »^(٢).

(١) انظر ابن يعقوب ، ٤٠٦/٣ .

(٢) أسرار البلاغة ، ص ١٣٠ ، ١٣١ .

❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

ومما جاد من هذا النوع قول عدي بن الرقاع .
تزجى أغنَّ كأن إبرة روقه .: قلمٌ أصابَ من الدواةِ مدادَها
يُحكى أن جريرا حين سمع البيت الأول :
عرف الديار توهُمًا فاعتادها .: من بعد ما درس البلى أبلادها
أبلد : لصق بالأرض وصار بليداً - وبالمكان اتخذه بلدا والمراد بأبلادها هنا
آثارها .

فجرير يحكي حين سمع البيت الأول قلت في نفسي ركب والله مركبا صعبا
ولعله سيبدع فيه فما زال يتخلص من حُسْنٍ إلى حُسْنٍ حتى قال :
تزجى أغنَّ إلخ

فرحمته وقلت قد وقع ما عساه يقول وهو أعرابي جلف جاف ؟ قلما قال :
قلم أصاب من الدواة مداها .: حسدته فإنما كانت رحمة
جرير لعدي وإشفاقه عليه ؛ لأنه أتى بمشبه لا يحضر له شبهه في أول الأمر
فلما جاء بالمشبه به على هذا النحو الطيب حسده جرير على ذلك إذ لم يكن
يخطر بباله وهو يرى أنه عربي جلف أن يتم التشبيه بهذه الصورة ذلك أن
المشبه به مع أنه شديد الاختلاف مع المشبه في الجنس متفق معه على أتم
وأحسن ما يكون في اللون والوصف بكلاهما أسود دقيق الطرف على شكل
معين ، والمسافة بعيدة بين قرن الظبي والقلم الذي أصاب من الدواة مدادها
فأين قرن الظبي من القلم يقول الإمام عبد القاهر تعقيبا على ما قاله جرير :
« فهل كانت الرحمة في الأول والحسد في الثانية إلا أنه رآه حين افتتح التشبيه
قد ذكر ما لا يحضر له في أول الفكر وبديهة خاطر ، وفي القريب من محل

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دُرُوسَةٌ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ❁

الظنَّ شَبَّهُ ، وحين أتم التشبيه وأداة صادفه قد ظفر بأقرب صفة من أبعد موصوف ، وعثر على خبيءٍ مكانه غير معروف ؟^(١).

والتشبيه في البيت ينهض من خلال تشبيه صورة قرن الغزال وقد علا طرفه سواد بصورة قلم عليه أثر المداد وصورة المشبه به وهي القلم الذي به أثر الحبر والمداد قلما تخطر بالبال عند تصور المشبه وهو قَرْنُ الغزال لبعد المناسبة بين الطرفين .

* * *

(١) أسرار البلاغة ، ص ١٥٣ .

أغراض التشبيه التي تعود إلى المشبه به ١ - التشبيه المقلوب

والغرض من هذا التشبيه يعود إلى المشبه به . والتشبيه المقلوب « هو الذي يجعل فيه المشبه الذي هو الناقص بالأصالة مشبهاً به ويجعل فيه المشبه به الذي هو الكامل بالأصالة مشبهاً وإذا جعل كذلك صار بمقتضى أصل تركيب التشبيه الناقص كاملاً وهو المشبه به لفظاً والكامل ناقصاً وهو المشبه لفظاً »^(١).

فأنت ترى أن هذا التشبيه جعل فيه ما هو ناقص في وجه التشبيه مشبهاً وما هو ناقص في وجه الشبه مشبهاً به على عكس ما هو معروف في التشبيهات غير المقلوبة وهذا القلب إنما يقوم ويكون على أساس الغرض والتخيل قصداً إلى المبالغة والغرض رفع شأن الناقص وإعلاء قدره حتى وكأنه صار الأصل الذي يقاس إليه في هذا الباب وجاء في الخصائص لابن جني الذي سماه غلبه الفروع على الأصول قوله : « ولا تكاد تجد شيئاً من ذلك إلا والغرض فيه المبالغة فمما جاء فيه ذلك للعرب قول ذي الرمة :

وَرَمَلٍ كَأَوْزَاكِ الْعَذَارَى قَطْعُهُ إِذَا أَلْبَسَتْهُ الْمَظْلَمَاتُ الْحَنَادِسُ

أفلا ترى ذا الرمة كيف جعل الأصل فرعاً ، والفرع أصلاً وذلك أن العادة والعرف في هذا أن تشبه أعجاز النساء بكثبان الأنقاء ... فقلت ذو الرمة العادة والعرف في هذا ، فشبه كثبان الأنقاء بأعجاز النساء ، وهذا كأنه يخرج من مخرج المبالغة أي قد ثبت هذا الموضع وهذا المعنى لأعجاز النساء ، فصار كأنه الأصل فيه حتى شبه به كثبان الأنقاء »^(٢).

(١) ابن يعقوب ، ٤٠٧/٣ .

(٢) الخصائص ، ٣٠٨/١ ، ٣٠٩ .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دُرُوسٌ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ❁

فالتشبيه المقلوب فيه إيهام المخاطب أن المشبه أقوى من المشبه به في وجه الشبه وذلك بأن يجعل المشبه في موضع المشبه به ومكانه بادعاء أن المشبه أكمل في وجه الشبه من المشبه به مبالغة فيتوهم المخاطب حينئذ أن الأصل فرع ، والفرع أصل كما في قول محمد بن وهيب .

وبدا الصبح كأنه غرته وجه الخليفة حين يمتدح

والغرة : هي بياض في جبهة الفرس استعير لبياض الصبح ، فالشاعر يريد أن يبالغ في إضاءة وإشراق وجه الخليفة ، لذا جعل ما هو أصل في الضياء وهو الصبح مشبها ، وما هو فرع فيه وهو وجه الخليفة مشبها به قصداً إلى المبالغة في مدح الخليفة ، وإعلاء شأنه وتأكيداً للثناء عليه بإشراق الوجه وضيائه ، وإنما قيد الشاعر إشراق وجه الخليفة حين الامتداح ليدل على أمرين : اتصاف الممدوح بحسن قبوله للمدح وتقديره للمادح واتصافه بالكرم على حد ما بين ابن يعقوب « وتقيد الشاعر إشراق وجه الممدوح على وجه يقتضي أكمليته على الصبح بحين الامتداح ... يفيد بذلك معرفة الممدوح حق المادح ، وتعظيمه بين يدي الحاضرين بالإصغاء إليه والارتياح أي الاطمئنان إليه وإلى مدحه ، وأفاد كمال كرم الممدوح حيث يتصف بالبشر والطلاقة حال المدح»^(١) فقول الشاعر : « حين يمتدح » أكد وصف الممدوح بكرم الخلق ، ومعرفة حق المادح ، وبشاشته حين يستمع إليه .

وحين نوازن بين ما جاء في بيت ابن وهيب من مبالغة وبين ما ورد على ألسنة أهل العلم من قولهم : لا أدري أو جهة أنور أم الصبح؟ وغرته أضوا أم البدر؟ مما يفيد أن الوجه والصبح والغرة والبدر على درجة من التساوي في صفة الإضاءة والإشراق بلا زيادة أو نقصان ، وحين نجري نفي الموازنة بين قولهم حين يريدون الإفراط والمبالغة نور الصباح يخفي في ضوء وجهه ، ونور

(١) ابن يعقوب بتصرف ، ص ٤١٠ .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ ﴾

الشمس مسروق من نور جبينه مما يفيد أن نور الوجه والجبين قد تفوقا على نور الصباح والشمس في الإشراق والتشبيه في هذين الشاهدين ليس من التشبيه الصريح ، وإنما التشبيه فيهما غير مباشر أي أنه مأخوذ من مضمون الكلام . وهذا يدعمنا إلى أن نتساءل هل المبالغة التي حققتها هذه الأساليب الأربعة تساوي المبالغة التي أفادها التشبيه في بيت ابن وهيب ؟

والذي يظهر أن المبالغة في المثالين الأولين قد وقفت عند حد التساوي بين وجه الممدوح والصبح وبين غرته والبدر في الإضاءة والإشراق ، ولم يبلغا ما أعطاه التشبيه في بيت ابن وهيب من أصالة وجه الخليفة في الإضاءة والإشراق وجعل نور الصباح مقيساً عليه ^(١) .

أما في قولهم حين يريدون الإفراط والمبالغة نور الصباح يخفى في ضوء وجهه ، ونور الشمس مسروق من نور جبينه ، ففي هذين المثالين تساوت المبالغة فيهما مع المبالغة في بيت ابن وهيب مع فارق له اعتبار عند علماء البيان ذلك أن المبالغة في بيت ابن وهيب ليست مكشوفة إذ هي مبنية على أصل ثابت ومسلم في عقول الناس لأنها قائمة على التشبيه والمسلم به الذي لا ينازع فيه أن المشبه به في كل تشبيه أصل في الوصف وهو وجه الشبه وغيره مقيس عليه وحين تجيء المبالغة عن طريق التشبيه تكون محلا للقبول والتسليم لقيامها في ذهنه على قياس مطرد وطريقه معتبرة ، أما المبالغة في قولهم : نور الشمس مسروق من نور جبينه ، فهي مبالغة صريحة ومكشوفة؛ لأنها جاءت بأسلوب الخبر الذي يحتمل الصدق والكذب ، ولم تبني على أصل مسلم به في عقول الناس ، وقد حلل الإمام عبد القاهر هذا تحليلاً عميقاً وتابعه فيه الإمام الرازي ^(٢) .

(١) انظر الإفصاح عما تضمنه الإيضاح ، ص ٧٩ ، ٧٠ .

(٢) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للإمام فخر الدين الرازي ، ص ٧٦ ، ٧٧ .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دُرُوسَةٌ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ❁

يقول الإمام عبد القاهر بعد أن ذكر بيت ابن وهيب : « فهذا على أن جعل وجه الخليفة كأنه أعرف وأشهر وأتم وأكمل في النور والضياء من الصباح ، فاستقام له بحكم هذه النية أن يجعل الصباح فرعا ووجه الخليفة أصلاً واعلم أن هذه الدعوى - وإن كنت تراها تشبيه قولهم « لا يُدْرَى أوجهه أنور أم الصبح ، وغرته أضوأ أم البدر » وقولهم إذا أفرطوا « نور الصباح يخفى في ضوء وجهه أو نور الشمس مسروق من جبينه » وما جرى في هذا الأسلوب من وجوه الإغراق والمبالغة فإن في الطريقة الأولى خلافةً ، وشيئاً من السحر . وهو أنه كأنه يستكثر للصباح أن يُشَبَّه بوجه الخليفة ، ويوهم أنه قد احتشد له ، واجتهد في طلب تشبيه يُفَخِّمُ به أمره ، وجهته الساحرة أنه يوقع المبالغة في نفسك من حيث لا تشعر ، ويُفيدكها من غير أن يظهر ادعاؤه لها ؛ لأنه وضع كلامه وضع من يقيس على أصل متفق عليه ، ويزجي الخبر عن أمر مسلم لا حاجة فيه إلى دعوى ولا إشفاق من خلاف مخالف وإنكار منكر وتجهم معترض ، وتهكم قائل « لم ؟ » ... والمعاني إذا وردت على النفس هذا المورد كان لها ضرب من السرور خاص ، وحدث بها من الفرع عجيب فكانت كالنعمة لم تُكدرها المنة ، والصنعة لم ينغصها اعتداد المصطنع لها »^(١).

كأنها حين لجأت في تدفقها يد الخليفة لما سال وادبها

فهو يتحدث عن مشهد من مشاهد البركة حين تلج في تدفق مياهها في غزارة وانصباب ويأخذ من هذا وسيلة لمدح الخليفة التي تتدفق يده بالعطايا ، وتفيض ؛ لذا أراد البحري أن يوهم أن يد الخليفة أكثر تدفقاً ، وأغزر بالعطاء من البركة مبالغة في وصفه بالكرم ، ومن هذا قوله أيضاً :

في طلعة البدر شيء من محاسنها وللقضيب نصيب من تشبها

(١) أسرار البلاغة ، ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ﴾

فالعادة جارية على جهة الاطراد في تشبيه الوجوه الحسنة بالبدر بعكس البحثري هذه القضية وشبه البدر بها ، مبالغة في الأمر ، وتعظيما بشأنها ومن هذا قول عبد الله بن المعتز :

وَلَا حَظَّ لِهَلَالٍ كَادَ يَفْضَحُنَا مِثْلَ الْقَلَامَةِ إِذْ قُصَّتْ مِنَ الظَّفَرِ

«فالجاري في الاطراد هو تشبيه القلامة من الظفر بالهلال في نحولها ، وتقوسها واعوجاجها فعكس ابن المعتز ذلك وشبه الهلال بالقلامة مبالغة ودخولاً وإغراقاً من جهته في التشبيه كما هو دأبه ... فحاصل الأمر فيما ذكرناه من تشبيه العكس أن جريه إنما يكون فيما قد ألف وعرف حاله ، فلهذا لم يلتبس حاله ، فأما ما لا يعرف حاله ولا يؤلف فلا يجري فيه ، فإن جرى فعل القلة والندور ويكون من التشبيه المهجور»^(١).

ومن هنا نرى أن أهم أغراض التشبيه المقلوب هي شدة المبالغة في اتصاف المشبه به بوجه الشبه ، وإيهام أنه أقوى منه في المشبه ، كما ظهر واضحاً في الشواهد السابقة ، وترى هذا واضحاً في قوله تعالى : ﴿ ذَلِكْ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ﴾ (البقرة: ٢٧٥) .

فبين أنهم بلغ من اعتقادهم في حل الربا أن جعلوه أصلاً في الحل والإباحة وجعلوا البيع فرعاً فيهما قصداً للمبالغة ، في إثبات حل الربا واستجابة لشهوات نفوسهم الرخيصة في كسب المال الحرام من أي طريق كان .

ومما جاء على المثال السابق قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (النحل: ١٧) .

فالآية تنكر على المشركين تركهم عبادة الله الخلق إلى عبادة الأصنام التي لا تخلق شيئاً ، فهم لجهلهم وعنادهم وتماديهم في عبادة الأصنام وتسميتهم لها آلهة جعلهم بمثابة من يؤمن ويعتقد أن من لا يخلق أحق بالعبادة ممن يخلق ،

(١) الطراز ليحيى بن حمزة العلوي ، ٣١٠/١ ، ٣١١ .



الصورة البيانية ————— دراستي مسائل علي البيان ————— ❁

ولذا جعل من لا يخلق أصلاً مشبهاً به ، ومن يخلق فرعاً مشبهاً على طريق التشبيه المغلوب مبالغة في تصوير تماديهم في الشرك ، وكان الظاهر أن ينكر عليهم جعلهم غير الخالق شبيهاً في استحقاقه العبادة.

الغرض الثاني العائد إلى المشبه به بيان الاهتمام بالمشبه به بمعنى إظهار المتكلم للسامع أنه مهتم به ولا بد في هذا من قرينة تدل على القصد كالعِدول عما يناسبه إلى غيره مع قرينة الحال كأن يشبه الجائع وجهاً في الإشراق والاستدار بالرغيف بالاستدارة واستلذا ذا النفس بكل ، فعِدول المتكلم عن تشبيه الوجه المذكور بالبدر وهو المناسب إلى تشبيهه بالرغيف يدل على اهتمامه بالرغيف ، ورغبته فيه لجوعه ، وأنه لم يزل عن خاطره ويسمى التشبيه المشتغل على هذا النوع من الغرض إظهار المطلوب « ووجه تسميته بذلك أنه لما عدل عن تشبيهه الوجه بالبدر إلى الرغيف علم أنه إنما شبه الوجه به لكون الرغيف في خياله وطالباً له والعادة أنه لا يطلبه إلا الجائع .

قال السكاكي : ولا يحسن المصير إليه إلا في مقام الطمع في حصول المطلوب»^(١).

وذلك لإظهار وجه المناسبة في اختيار هذا الشيء وجعله مشبهاً به .

* * *

(١) حاشية الدسوقي ، ٤١٠/٣ .



تقسيم التشبيه باعتبار الطرفين

ينقسم التشبيه باعتبار الطرفين «المشبه والمشبه به» إلى أربعة أقسام :

١- تشبيه مفرد بمفرد وهما غير مقيدين كتشبيه الخد بالورد . أو مقيدين كتشبيه من لا يحصل من سعيه على طائل بالراقم على الماء .

فالمشبه الساعي المقيد بكونه لا يحصل من سعيه على شيء والمشبه به الراقم المقيد بكون رقمه على الماء ووجه الشبه هنا هو التسوية بين الفعل وعدمه أن يكون أحد الطرفين مقيداً والآخر غير مقيد كقوله :

والشمس كالمرآة في كف الأش

فالمشبه به وهو المرآة مقيدة بكونها في يد الأش ، فالمشبه كما ترى هنا هو الشمس على الإطلاق والمشبه به الشمس لا على الإطلاق ، بل بكونها في يد الأش أو عكس ذلك بأن يكون المشبه مقيداً والمشبه به مطلقاً كتشبيه المرآة في كف الأش بالشمس ، فالمشبه مقيد دون المشبه به .

٢- تشبيه مركب بمركب بأن يكون كل من الطرفين مركبا من مجموع أشياء قد تضاقت وتلاصقت حتى شيئاً واحداً وذلك كقول بشار :-

كأن مُثار النقع فوق رءوسنا وأسيفنا ليل تهاوى كواكبه

فالمشبه هو الهيئة المنتزعة من السيوف وقد سلت من أعمادها وهي تتألق في حركة سريعة في نواحي مختلفة على أشكال متناسبة وسط غبرة قاتمة انعقدت فوق الرءوس بالهيئة من النجوم وهي تتساقط إلى جهات مختلفة في ظلام الليل ووجه الشبه الهيئة الحاصلة من سقوط أجرام لامعة مستطيلة متناسبة المقادير متناثرة في جوانب شيء مظلم . فالمشبه مركب من النقع المثار فوق الرءوس ، ومن السيوف المستطيلة المتلاحمة اللامعة في حركة سريعة متصلة

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ الْبَيَانِ ————— ❁

والمشبه به مركب من الليل ومن الكواكب المتهالكة في ظلام الليل في مواقع مختلفة .

وهذا اللون وهو تشبيه مركب بمركب ينقسم إلى قسمين :
ما يصح فيه تشبيه كل جزء بما يقابله من الطرف الآخر - وما لا يصح فيه ذلك :

فالأول : وهو ما يصح فيه تشبيه كل جزء من أحد طرفيه بما يقابله من أجزاء الطرف الآخر كما في بيت بشار السابق فيمكن أن يشبه النقع بالليل ، وأن تشبيه السيوف بالكواكب غير أن ذلك لا يحمل ولا يستحسن إذ أنه فضلا عن إفقاد الصورة جمالها وتأثيرها يتنافى مع غرض الشاعر ولا يتلاقى معه ذلك أن غرض الشاعر لم يتعلق بالتشبيه على هذا النحو - تشبيه النقع بالليل والسيوف بالكواكب لأن ذلك ليس فيه من دقة المعنى ، وبديع التخيل وروعة البيان ما له في الصورة الأولى وهو تشبيه هيئة بهيئة ومن هذا النوع قول البحري يصف فرسا .

تَرى إِحْجَالَه يَصْعَدُن فِيهِ صَعُودُ الْبَرْقِ فِي الْغَيْبِ الْجَهَامِ
الْجَهَانُ : السحاب لا ماء فيه . ويقال : جاءني من الأمر بجهام : أي بما لا خبر فيه ولا نفع . والإحجال : بياض في قوائم الفرس .

فالبحري يشبه البياض الذي يمتد في قوائم الفرس حتى يتصل بسوادها بالبرق اللامع وسط الغيم المعتم ووجه الشبه الهيئة الحاصلة في المشبه من اختلاط أحد اللونين بالآخر والتشبيه مركب الطرفين ؛ لأنه نظر إلى بياض الإحجال متصلا بسوادها ، وفي المشبه به نظر إلى لمع البرق متصلا بسواد الغيم ، فلم ينظر إلى بياض الإحجال منفصلا حتى يشبهه بالبرق ولا إلى السواد منفصلا حتى يشبهه بالغيم لأن هذا التفريق يفسد على الشاعر غرضه ، وهو إظهار صورة البياض مقترنة بما جاورها من سواد .

❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

ومما هو واضح من هذا النحو قول الشاعر :

كَأَنَّ سَهِيلًا وَالنَّجُومَ وَرَاءَهُ صَفُوفَ صَلَاةٍ قَامَ فِيهَا إِمَامُهَا

فالمشبه مأخوذ من هيئة سهيل والنجوم مُصْطَفَفة وراءه ، والمشبه به مأخوذ من هيئة إمام قائم يصلي والناس خلفه في صفوف مترابطة ، فالمشبه مركب من سهيل ومن النجوم وراءه ، والمشبه به مركب من إمام قائم يصلي والمصلين يصلون خلفه في صفوف ولكل جزء من أجزاء المشبه نظير في الطرف الآخر المشبه به يمكن أن يشبه به فيشبه سهيل بإمام يصلي ، والنجوم بصفوف المصلين غير أن إجراء التشبيه على هذا النحو بعد فلك التركيب ليس من هدف الشاعر ، ولا يقصده لأنه يفسد هيئة الصورة التي تملك عليك لبك من خلال تشبيه هيئة سهيل وهو يتقدم طائفة من الكواكب المؤتلفة الالامعة بهيئة إمام يصلي ومن ورائه المصلون وهم يصلون خلفه في صفوف .

والثاني : ما لا يصح تشبيه كل جزء بما يقابله من الطرف الآخر وذلك كما

في قول الشاعر :

كَأَنَّمَا الْمَرِيخُ وَالْمَشْتَرَى قَدَامَهُ فِي شَامِخِ الرَّفْعَةِ

منصرف بالليل عن دعوة قَدْ أُسْرِجَتْ قَدَامَهُ شَمْعُهُ

١- « المريخ والمشتري » نجمان في السماء « قدامه » بتشديد الدال ظرف مكان بمعنى أمامه و« أسرجت » أي أضيئت .

فالشاعر يشبه هيئة المريخ والمشتري قدامه يتألق بهيئة إنسان منصرف بالليل عن دعوة وأمامه شمع مضيئة ، فالتشبيه مركب الطرفين غير أننا لو شبهنا كل طرف بما يقابله في الطرف الثاني فقلنا : المريخ كمنصرف بالليل عن دعوة لكان خَلْفًا من القول بقول ابن يعقوب : « فإن تشبيه المريخ وهو النجم المعلوم بالرجل المنصرف عن الدعوة إلى الطعام في وليمة مثلا لا معنى له منفردا »^(١) .

(١) ابن يعقوب ، ٤٢٠/٣ .

الصورة البيانية ————— دراستُ في مسأله البيان ————— ❁

٣- أن يكون المشبه مفرداً والمشبه به مركباً كقول الصنوبري .
 وكان محمراً الشهد ق إذا تصوب أو تصعد
 أعلام ياقوت نشر ن على رماح من زبرجد
 فالمشبه « محمر الشقيق » وهو مفرد مقيد بصفة والمشبه به مركب من
 أعلام ياقوت ومن رماح زبرجد أي من هيئة أجرام حمر مبسوطة على سيقان
 خضر مستطيلة ومثله قول الخنساء ترثي أخاها صخرًا .
 وإن صخرًا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار
 فالمشبه وهو « صخر » والمشبه به مركب من علم ومن نار على رأسه .

٤- أن يكون المشبه مركباً والمشبه به مفرداً مقيداً كقول أبي تمام :
 يا صاحبي قصيا نظريكما تريا وجوه الأرض كيف تصور
 تريا نهارة مشمساً قد شابه زهر الربا فكأنما هو مغمر
 « يا صاحبي قصيًا نظريكما » أي أبلغاً أقصى نظريكما وغايته بالمبالغة في
 تحديث النظر يقول : قصيته بلغت أقصاه ، وإذا قصيتهما نظريكما واجتهدتما
 فيه ولم تقصرا فانظرا ما قابلكما من الأرض^(١) ، فالشاعر ينادي صاحبيه ويلفت
 نظريهما إلى إنعام الرؤية في صنيع المبدع القادر وفيما أخرج نبات زها ونضر
 وكيف أن النبات لشدة اخضراره صار لونه يضرب إلى السواد حتى نقص من
 ضوء الشمس بحيث صار النهار المشمس كأنه ليل سرى فيه ضوء القمر فقد
 شبه النهار المشمس الذي شابه زهر الربا فتضاءل ضوءه وقلّ وهو مركب بالليل
 المقمر وهو مفرد مقيد .

هذا ويجب أن يعلم أن القيد المعتمد به هو القيد الذي له اعتبار في وجه
 الشبه بحيث لا يتم بدونه ، ففي المثال السابق من تشبيه الساعي المقيد بعدم

(١) ابن يعقوب ، ٢٢٤/٣ .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ عِلْمِ الْبَيَانِ ﴾

التوفيق في سعيه بالراقم على الماء ، فالراقم هنا مقيد بأن رقمه على الماء ولا بد في هذا من اعتبار القيد في المشبه والمشبه به ؛ لأن وجه الشبه على نحو ما سبق هو المساواة بين الفعل وتركه وهذا المعنى لا يتم بدون مراعاة القيد المذكورين ، وفي تشبيه الشمس بالمرأة في كف الأثل لابد في هذا من اعتبار كون المرأة في كف مرتعش ؛ لأن الشبه هو الهيئة الحاصلة من الاستدارة والحركة السريعة المتصلة مع تموج الإشراق ، وهذا لا يمكن أن يتوفر ويتحقق من غير ملاحظة هذا القيد وهو كون المرأة في كف مرتعش ، فإن لم يكن للقيد اعتبار في وجه الشبه عدداً الطرف المقيد بمثل هذا القيد من التشبيه المفرد فلو قلت رأيت رجلاً يمنح الألف كالأسد ، فإن قولك : يمنح الألف قيد لا يُعدّ المشبه بهذا القيد مقيداً ؛ لأنه لا دخل في وجه الشبه وهكذا .

هذا و«القيد قد يكون الجار والمجرور مثل هو كالراقم على الماء أو مفعولاً صريحاً كقولهم هو كمن يجمع سيفين في غمد ، وقد يكون حالاً كقول الطرمّاح :

يا طيّ السهل والأجبال موعِدُكُمْ كَمُبْتَغِي الصَّيْدِ فِي عَرِيْسَةِ الْأَسَدِ»^(١)

والعريسة : شجر ملتف يأوي إليه الأسد والوجه أن كلاً يطلب ما فيه هلاكه وفناؤه ، وكمبتغي الصيد في عريسة الأسد مثل يضرب لمن يطلب الشيء في مكان يعسر عليه أخذه منه والأجبال : جمع جبل والمراد بها أجأو سلمى والبيت من شعر الطرمّاح قاله حين هجا الفرزدق طيئاً وتوعدهم .

هذا ويجب أن يعرف أن الفرق بين المقيد من الطرفين والمركب منهما أن المقصود في التشبيه المركب هو الأجزاء مجتمعة وليس يقصد جزءاً وحده بالتشبيه وإن صح أن يشبه بجزء من الطرف الآخر على نحو ما ظهر لنا في بيت بشار ، فإن المشبه هو الأجزاء مجتمعة من النقع المثار والأسياف المسلولة

(١) عروس الأفراح ، ٤٢٥/٣ .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ الْبَيَانِ ————— ❁

التي تتحرك في اتجاهات كثيرة ، والمشبّه به مجموع الليل ، والكواكب التي تنهّادى على غير ترتيب ونظام ، ولم يتعلق الغرض بتشبيه النقع منفرداً بالليل ولا بتشبيه السيوف وحدها بالكواكب وإن صح ذلك ، أما المقيد فإن المقصود والمراد هو أحد أجزاء الطرف مع مراعاة القيد فيه - فالقيد إذاً ليس مقصوداً بذاته ، بل مقصود لذلك الجزء كما في تشبيه الساعي المقيد بأن سعيه لم يكلل بنجاح بالناقش المقيد بأن نقشه على الماء ، فإن المقصود بالذات كلٌّ من « الساعي والناقش » مراعى في كل منهما قيده الخاص به .

يقول ابن يعقوب : « إذا قيد الشيء بشيء من المقيدات النحوية من مفعول أو وصف أو ظرف أو مجرور أو غير ذلك ، فإن كان المقصود بالذات في قصد المتكلم هو المقيد والقيدُ تبع كان من باب المقيد وإن كان المقصود الهيئة الاجتماعية وتوسّل إليها بتلك القيود ولا ترجيح لما يوجد من أجزاء ذلك الطرف بعضها على بعض ، كان من قبيل المركب ، فالفرق بين المقيد والمركب القصد الراجع في شيء مخصوص وعدمه ، أما الرجحان باعتبار المتكلم أو عدمه فيكون باعتبار ذوقه المقتضى لاهتمام بشيء أكثر من غيره أو لعدم الاهتمام إلا بالمجموع ، وأما الرجحان باعتبار السامع ، فيكون باعتبار القرائن الدالة على قصد المتكلم أو باعتبار أنه لو استعمل ذلك التشبيه لم يطابق ذوقه وطبعه إلا لذلك الرجحان المقتضى للتقيد أو عدمه المقتضى للتركيب والحاصل أن التفريق بين المقيد والمركب لا يكون باعتبار التركيب اللفظي لاستوائه في الكل غالباً وإنما يكون باعتبار قصد الهيئة بالذات والأجزاء تبع أو باعتبار قصد جزء من الأجزاء والربط بغيره والحامل على أحد القصدين وجود الحسن فيه دون الآخر وهذا الاعتبار أعني إدراك وجود الحسن المقتضى لأحد الأمرين إنما الحاكم فيه الذوق الجاري على استعمال البلغاء سليقة أو تطبعاً ، ولهذا قيل إن هذا الفن إذا التبس فيه باب بباب لم يفصل بينهما إلا

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

الذوق والأذواق تختلف ولا تنضبط فلا تجري على نسق واحد في كثير من الأمور^(١)، وتخلص إلى أن مدار التفرقة بين المقيد والمركب على القصد والاعتبار لا على التركيب اللفظي ، فإن روعيت الأجزاء كلها وقصدت لذاتها في التشبيه كان التشبيه مركباً وإن قصد جزء من الأجزاء وما عده تبع كان من قبيل المفرد المقيد والمرجع لأحد القصدين وجود الحسن فيه دون الآخر بالنسبة للمتكلم أما بالنسبة للسامع فيفرق بينهما على أساس ما يبدو له من القرائن الدالة على أن المتكلم قصد الأجزاء كلها أو قصد جزءاً من الأجزاء واعتبر ما عده تبعاً له والحاكم في ذلك هو الذوق السليم أما التركيب اللفظي فلا اعتبار له في التفرقة بين المقيد والمركب إذ قد يتساويان فيه في الغالب .

هذا ومعنى تقييد الطرف المفرد أن يرتبط بوصف أو إضافة أو جار ومجرور أو حال ويجب أن يوضع في الاعتبار أنه لا اعتبار لهذا التقييد والارتباط إلا إذا كان للقيد تأثير ظاهر في تحقيق وجه الشبه بحيث لا يمكن إيجاد الشبه بين الطرفين إلا بمراعاة هذا القيد فإذا قلت هذا الرجل الطويل كالأسد في الشجاعة فلا يعتد بصفة الطول قيده في المشبه ؛ لأن وجه الشبه وهو الشجاعة لا علاقة له البتة بصفة الطول ومعنى تركيب الطرف أو الطرفين « أن يكون كل من المشبه والمشبه به هيئة حاصلة من عدة أمور كما صرح به صاحب المفتاح وأشار إليه صاحب الكشف حيث قال : إن العرب تأخذ أشياء فرادى معزولاً بعضها عن بعض فتشبهها بنظائرها وتشبه كيفية حاصلة من مجموع أشياء قد تضامت وتلاصقت حتى عادت شيئاً واحداً بأخرى مثلها^(٢) » فالطرف المركب عبارة عن هيئة مؤلفة من شيئين أو أكثر ممتزجة امتزاجاً يجعلها في حكم الشيء الواحد . على نحو ما سبق .

(١) ابن يعقوب ، ضمن شروح التلخيص ، ٤٢٢/٣ .

(٢) المطول ، ص ٣٣٦ .

التشبيه المتعدد

الأصل في التشبيه أن يأتي مفرد الطرفين كقولك ابتسمت عن أسنان كالدر وكشفت النقاب عن وجه كالبدن وكقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾ (الرحمن: ٣٧) ، وقوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ (الرحمن: ٥٨) .

ولكن مع الأيام رأينا ألوانا من التشبيه المتعدد وأبسط مظاهر التعدد :
 ١- أن يتعدد المشبه دون المشبه به وما يجيء على هذا النحو يُسمى تشبيه التسوية ، وسمي بذلك لوجود التسوية فيه بين المشبهين فيما ألحقا به وهو المشبه به مع تساويهما في الوجه ^(١) مثل :
 صدع الحبيب وحالي كلاهما كالليالي
 أي أن كلا من صدغ الحبيب وحاله أي أن كلا منهما كالليالي في السواد وإن كان السواد في حاله تخيلي ، فقد تعدد المشبه وهو شعر صدغه وحاله واتحد المشبه به وهو الليالي ، فالمشبه في البيت متعدد دون المشبه .
 وكقول الآخر :

آراؤكم ووجهكم وسيوفكم في الحادثات إذا دجّون نجوم
 ٢- أن يتعدد المشبه به دون المشبه وهو أكثر من الأول وما يجيء على هذا النحو يسمى تشبيه الجمع مثل قول البحثري .
 كأنما ييسم عن لؤلؤ منضد أو برد أو أقاح

(١) ابن يعقوب ، ٤٢٩/٣ .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ﴾

فهو يبسم عن ثغر كاللؤلؤ المنظوم ، وحبّات الثلج ، وزهر الأقحوان في بياضه الشديد ويسمى تشبيه الجمع لاجتماع شيئين أو أشياء في مشابهة شيء واحد ومثل قول البحري أيضاً .

كالقسيّ المعطفات بل الأسهم ميريّة بل الأقلام
ومنه قول المتنبي ^(١) .

تحمي السيوف على أعدائه معه كأنهن بنوه أو عشائره
حمي الشيء يحمي حمياً فهو حام ، وحم إذا اشتد حره - والعشائر جمع عشيرة ، وهم الأهل والأقارب .

يريد أن يقول إنه حين يحارب أعداءه ويشتد غضبه عليهم تغضب لغضبه سيوفه معه عليهم كأنهم بنوه أو عشائره ، فالمشبه به متعدد وهو بنوه وعشائره .

٣- التشبيه الملفوف وهو أن يتعدد طرفاه ويجمع كل طرف مع مثله بأن يؤتى بالمشبهات أولاً بطريق العطف أو غيره ثم يؤتى بالمشبهات بها كذلك أو العكس ، وسمي ملفوفاً لف المشبهات فيه أي ضم بعضها إلى بعض وكذلك المشبهات بها ^(٢) .

كقول امرئ القيس :

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العناب والحشف البالي

فامرؤ القيس يصف عقاباً بكثرة اصطياده للطيور وقد شبه شيئين بشيئين مع التفصيل في بيت واحد فأحسن التشبيه وجاء به في غاية الجودة والكلام على تقدير كأن قلوب الطير رطباً العناب ويابساً الحشف البالي وهو أردأ التمر أو الضعيف الذي لا نوى له أو اليابس الفاسد ، فشبّه الطري من القلوب

(١) الديوان ، ١٢٠/٢ .

(٢) انظر حاشية الدسوقي ، ٤٢٦/٣ .



الصورة البيانية ————— دراستي مسأله البيان ————— ❁

بالعنان واليابس منها بالحشف البالي ، وإنما خص قلوب الطير لأنها أطيب اللحوم وقد جمع بين المشبهين في المصراع الأول كما جمع بين المشبهين بهما في المصراع الثاني « وإنما جعل من تشبيه المفرد المتعدد ولم يجعل من تشبيه المركب بالمركب لأنه ليس لانضمام الرطب من القلوب إلى اليابس منها هيئة يقصد ذكرها ولا لاجتماع العنان مع الحشف البالي هيئة حتى يكون من تشبيه المركب ، ولذا لو فرق التشبيه وقيل كأن الرطب من القلوب عنان وكأن اليابس منها حشف لم يكن أحد التشبيهين موقوفاً في الفائدة على الآخر ، فالتشبيه على هذا الوجه إنما يستحق الفضيلة من حيث الاختصار فقط بحذف أداة التشبيه من أحد التشبيهين »^(١).

يقول ابن رشيق : « وأصل التشبيه مع دخول الكاف وأمثالها أو كأن وما شاكلها شيء بشيء في بيت واحد إلى أن صنع امرؤ القيس في صفة عُناب :

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا لدى وكرها العنان والحشف البالي
فشبه شيئين بشيئين في بيت واحد واتبعه الشعراء في ذلك فقال لبيد ابن أبي ربيعة :

وجلا السيول عن الطول كأنها زُبُرٌ تُجِدُّ متونها أقلامها
فشبه الطلول بالزبر والسيول بالأقلام بل زاد فشبه جلاء هذه عن هذه بتجديد تلك لتلك وحكى عن بشار أنه قال ما قرأ بي القرار مذ سمعت قول امرئ القيس : كأن قلوب الطير رطبا ويابسا حتى صنعت :

كأن مثال النقع فوق رءوسنا وأسيفنا سيف —هاوى كواكبه

(١) حاشية الدسوقي على شرح السعد ، ٤٢٨/٣ .



﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ أَعْلَامِ الْبَيَّانِ﴾

فإن كان مراده الترتيب فصدق ولم يقع بعد بيت امرئ القيس في ترتيبه كبيته ، وإن كان المراد تشبيهين في بيت امرئ القيس في ترتيبه كبيته ، وإن كان المراد تشبيهين في بيت فقد قال الطَّرْمَاح في صفة ثور وحشي :
يبدو وتضمه البلاد كأنه سيف على شرف يُسَلّ ويعمد
وهذا نهاية في الجودة ^(١).

وقد عد الباقلاني التشبيه في بيت امرئ القيس السابق من البديع الحس وقال : « وقد سبق امرؤ القيس إلى صحة التقسيم في التشبيه ولم يتمكن بشار إلا من تشبيه إحدى الجملتين بالأخرى دون صحة التقسيم والتفصيل » ^(٢).

ويقول أبو هلال : فمن بديع التشبيه قول امرئ القيس :
كأن قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العناب والحشف البالي
فشبه شيئين بشيئين مفصلاً - الرطب بالعناب - واليابس بالحشف ، فجاء في غاية الجودة ومثله قول بشار :

كأن مُثار النقع فوق رءوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه
فشبه ظلمة الليل ، بمثار النقع والسيوف بالكواكب - وبيت امرئ القيس أجود لأن قلوب الطير رطباً ويابساً أشبه بالعناب والحشف من السيوف بالكواكب ^(٣).

ولا مجال أبداً للموازنة لأن بيت امرئ القيس من تشبيه المفرد بالمفرد وأما بيت بشار فهو مركب الطرفين والوجه .

يقول الإمام عبد القاهر : « فاعلم أن ما كان من التركيب في صورة بيت امرئ القيس فإنما يستحق الفضيلة من حيث اختصار اللفظ وحسن الترتيب فيه

(١) العملة ، ٢٩٠/١ ، ٢٩١ .

(٢) إعجاز القرآن للباقلاني ، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي ، ص ١٠٥ ، ١٠٦ .

(٣) الصناعتين ، ص ٢٧٢ .

الصورة البيانية ————— دراستي مسأله البيان ————— ❁

لا لأن للجمع فائدة في عين التشبيه ... وليس كذلك بيت بشار « كأن مثار النقع » لأن التشبيه كما مضى مركب وموضوع على أن يريك الهيئة التي ترى عليها النقع المظلم والسيوف في أثائه تبرق وتومض ، وتعلو وتنخفض وترى لها حركات من جهات مختلفة كما يوجبه الحال حين يحمي الجلاذ ، وتركض بفرسانها الجياذ»^(١).

٤- التشبيه المفروق وهو أن يتعدّد طرفاه ويجمع كل طرف مع صاحبه بأن يجمع كل مشبه مع مشبه به كقول المرقش الأكبر .

النشر مسك والوجه دنا نير وأطراف الأكف عَنَم
وسمي بالمفروق « لأنه يؤتي فيه كل مشبه بمقابله من غير أن يتصل أحد المشبهين بالآخر ، بل يفرق بين المشبهين بالمشبه به فيؤتى بالمشبه ثم المشبه به ثم بـمشبه آخر مع مشبه به»^(٢).

جمع الشاعر في هذا البيت كل مشبه به مع مشبهه والنشر هي الرائحة الطيبة ويحتمل أن يريد بالنشر الشعر المنشور المطيب فيكون تشبيهه بالمسك في الرائحة الطيبة ولون السواد والعنم - شجر لين الأغصان أحمر يشبه أصابع الجواري المخضبة والتشبيه هنا محذوف الأداة ومنه قول الشاعر :

الخدود والصدغ غالية والريق خمر والثغر كالدرر
المراد بالصدغ - الشعر المتدلي على الخد والغالية - أخلاط من الطيب والمر بالثغر الأسنان .

فهو قد شبه الخد بالورد ، والصدغ بالغالية ، والثغر بالدر جاعلا كل مشبه مع مقابله ومنه قول المتنبي .

(١) أسرار البلاغة ، ص ١٩٤ .

(٢) ابن يعقوب ، ٤٢٨/٣ .



❁—————الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ—————دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

بدت قمراً ومالت خوط بان وفاحت عنبراً ورنّت غزالا

والخوط : القضيبي . وجمعه خيطان لكوز وكيزان ، والعنبر ضرب من الطيب فهو يشبهها بالقمر في الجمال والحسن ويشبه ميلها بالغصن في التشني ويشبه رائحتها بالعنبر في طيب الرائحة ورنوها بالغزال في سواد مقلتها متى يكون الائتلاف بين الطرفين المختلفين حسنا جميلا ؟

وإنما يكون الجمع بين الطرفين حسنا وجميلا إذا وجد بينهما ما يلتقيان عليه ، ويجتمعان فيه من علاقة بينة وصحيحة وذلك حين يحقق صانع الكلام من تشبيهه بين المختلفين شبهاً صحيحاً ، وملاءمة حسنة وائتلافا مقبولا فإذا تجاوز هذا وتخطاه وحاول أن يصنع تشبيها من طرفين ليس بينهما شبه صحيح ، ولا ملاءمة طيبة ، ولا ائتلاف حسن فإن صورته التشبيهية تخرج مشوهة مضطربة تنبو عنها العين ، ولا يقبل بها الذوق الصحيح ومن النماذج التشبيهية الذي التقى فيها الطرفان التقاء سعيدا مباركا ومقبولا ما تراه في قول المتنبي^(١).

كَأَن سَخَاءَكَ الْإِسْلَامَ تَخْشَى إِذَا مَا حُلَّتْ عَاقِبَةُ ارْتِدَادِ
كَأَن اِهْمَامَ فِي الْمُهْجَا عُيُونٌ وَقَدْ طُبِعَتْ سَيُوفُكَ مِنْ رِقَادِ
وَقَدْ صُغَّتِ الْأَسِنَّةُ مِنْ هُمُومٍ فَمَا يَخْطُرُنْ إِلَّا فِي فُؤَادِ

فتنوع الصورة هنا دليل على تقديم الشاعر لرؤيته تقديماً حسناً ، ففي البيت الأول يشبه سخاء الممدوح ، ومحافظته عليه ، وعدم التفريط فيه بحفاظه على إسلامه وعهده ، وملته لا يتهاون في شيء من ذلك ووجه الشبه هو المحافظة على كل فهو سخي جواد كريم فهو يعتقد في سخائه اعتقاد الدين ويخاف أنه إذا فرط في هذا أو أهمله وتجاوزته عاقبة الردة والخروج عن ملة الدين .

(١) الديوان ، ٣٥٩/١ ، ٣٦٠ .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دُرُوسَةٌ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ❁

وفي البيت الثاني ترى الصورة التشبيهية وفيها طابع التجريد وتجاوز فيها حدود الصورة الحسية ، ولم يكتف بمجرد عقد مشابهة بين متشابهين ، بل تخطى ذلك ليدلّل على أن سيوف ممدوحه قد ألقت رءوس أعدائه كما تألف العين النوم فلا يقع إلا فيها فالسيوف قد جردت من حسيّتها لتتحول إلى رقاد وطبعت منه ، وصيغت والرقاد إنما يأوي إلى المقل والعيون ليحل فيها وينزل فلا مكان للرقاد والنوم سوى العيون والتشبيه نراه من خلال تشبيه السيوف وقد حلت بالرؤوس بالنوم وقد حل بالعيون ووجه الشبه أن كلا منهما قد حل فيما يناسبه وفيما لا يحل إلا فيه .

وانظر إلى ذي الرمة في حديثه عن الحرباء :

وقَدْ جَعَلَ الْحَرْبَاءُ يَبِضُّ لَوْنَهُ وَيُخْضِرُّ مِنْ لَفْحِ الْهَجِيرِ غَبَاغِبَهُ^(١)
وَيَشْبَحُ بِالْكَفَيْنِ شَبْحًا كَأَنَّهُ أَخُو فَجْرَةٍ عَالِي بِهِ الْجَذَعُ صَالِبُهُ

فأنت ترى الرجل يتحدث عن الحرباء في مشهد من مشاهدنا ويترصدها ويصفها وقد أعطى اهتماما واسعا لها ، ووصفها في صور متنوعة تتلون وتتعدد ولكنها لا تتماثل ، ولا تتكرر ، ورصد تلونها في أكثر من لون كالأبيض ، والأخضر ووقوفها في الشمس ووقت اشتداد الحر القيقظ والتشبيه يقوم من خلال تشبيه الحرباء وهي على الجذع وقت الهجير بالمذنب المصلوب على الجذع في الشكل والهيئة .

وتجد ذا الرمة يشبّها بشيخ هندي أشيب في قوله

كَأَنَّ حَرْبَاءَهَا فِي كُلِّ هَاجِرَةٍ ذُو شَيْبَةٍ مِنْ رِجَالِ الْهِنْدِ مَصْلُوبٌ

(١) لفح : الحرّ والهجير : نصف النهار عند اشتداد الحر والقيقظ . الغباغب : جمع غُبْغَب وهي جلدة الحلق . والشبح مد الكفين .
ويشبح شبّحا أي يمدّ يديه كالمصلوب - وفجره أي ذنب عظيم .

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

فهو يشبهها في وقت الهاجرة حين يشتد الحر والقيظ بشيخ هندي أشيب الشعر مصلوب في الهيئة والشكل .

وتجد ذا الرمة يشبه الحرباء على الجذع في الصحراء وقت الهاجرة بالمسيح بالكفين في قوله :

ودَوِيَّةَ جرداء جَدَاءَ خِيَمَتْ بها هَبَوَاتُ الصَّيْفِ من كل جانب^(١)
كَأَنَّ يَدَيَّ حِرْبَائِهَا مَتَمَلِّمًا يَدَا مَذْنِبٍ يَسْتَغْفِرُ اللَّهُ تَائِبُ

فالحرباء بكفيه التائب من الذنب في الهيئة والصورة « الحرباء رويبة كالعظاية تأتي شجرة تعرف بالتنضية فتمسك بيديها غصنين منها ، وتقابل بوجهها الشمس فكيفما دارت الشمس دارت معها فإذا غربت الشمس تولت فرعت»^(٢).

ومن بديع التشبيه قول البحري :

أَلَسْتُ تَرَى مَدَّ الْفِرَاتِ كَأَنَّهُ جِبَالُ شُرُورِي جُنَّ فِي الْبَحْرِ عُومًا

شروري: جبل مطل على تبوك في شريقها وقيل لبني سليم وقيل واد بالشام . والاستفهام هنا يفيد التقرير والتأكيد والتثبيت يعني قد تحققت لديك الرؤية وتأكدت على نحو ثابت ومؤكد والتشبيه ينقل إلينا حال أمواج الفرات وهي تتدافع وتشتد وتتزائر في موج عال طاغ ضخم ومتتابع والمشبه به جبال شروري وهي تنهض لتنتقل إلينا صورة المشبه والتشبيه يقوم من خلال تشبيه أمواج الفرات في ضخامتها بجبال شروري وقد جاءت في البحر عوما فصورة جبال شروري تأتي مطلقة المساحة والهيئة إزاء أمواج الفرات ومده ، وتتابعه .

(١) الهبوات : جمع هَبْوَةٍ بالفتح العُبْرَةُ . والجَدَاءُ التي لا نبات فيها وكذلك الجرداء . وتململ: تقلب .

(٢) كتاب الصناعتين ص ٢٧٦ .

الصورة البيانية ————— دراستي في مسانعة البيان ————— ❁

وتجد هذا النوع من التشبيه في قول الشاعر نفسه في وصفه لبركة المتوكل :
ما بال دجلة كالغیری تنافسُها في الحُسْن طَوْرًا وأطوار تُباهيها
هنا يعلي من قدر الصورة ، ويرتقي بها إلى أفق عال ورفيع من البهاء والحسن والجمال من خلال أسلوب الإنشاء الذي يبعث على اليقظة ، ويشير المشاعر ويحرجها فالشاعر يتساءل في دهشة واستغراب هل يحق لدجلة أن يدخل ميدان السباق والمنافسة والمباهاة مع البركة وما تتمتع به ، وتزدان من جمال وحسن وبهاء ؟ إنه ليس من حقها أن تفعل ذلك لأنه ليس لدجلة من الحسن ما للبركة ولذا فإن عليها أن تكف عما هي عليه من الغيرة ؛ لأن النتيجة لن تكون في صالحها فهي محسومة ولن تتمكن من أن تنافس أو تلحق بالبركة ولأستاذنا الأستاذ الدكتور محمد أبو موسى هنا كلام طيب إذ يقول « والبحتري لم يقل ترى دجلة كالغیری ، وإنما قال : « ما بال دجلة كالغیری » مستعملاً صيغة الإنشاء وما فيها من إثارة وإيقاظ وكأنه يسألك عن سبب الغيرة التي دبّت في كيان هذا النهر وكأن غيرة دجلة أمر مفروغ منه والمهم هو معرفة سببه وهذا لو تأملته ضرب من تقرير التشبيه وتوكيده عهد القصد إلى التشبيه وجعل هيأتها هيئة السؤال عن علة الغيرة . ولو قال : ترى دجلة كالغیری لكان كأنه مهتم بأن يشبهها بالغیری ويحتفل لذلك ، ويحتشد له ويظهر هذا في الفرق بين قولك : نظرت أي قوة غريبة في هذه العين جعلتها كالسهم لا يخطئ رميته أنت في التعبير التي جعلت توهم السامع أن نظرتها كالسهم حقيقة والمهم هو معرفة العلة التي جعلت العين الوداعة مدمية مصمية »^(١).

ويقول ذو الرمة في وصف رأس ناقته

ورأس كقبر المرء من قوم تبع غلاظ أعاليه سهول أسافله

(١) التصوير البياني ، ص ٤٨ ، الأستاذ الدكتور محمد أبو موسى .

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

فهو يشبه رأس البعير بقبر امرئ من قوم تبع أي أن المشبه موغل في القدم ، ضارب في أطنا به إلى أبعد حد وأقصاه وإنما شبه الرأس هنا بالقبر ؛ لأن رأس البعير يعلو أعلاها ويرتفع فسيكون أشبه برأس القبر فالمشابهة محققة الأمر الذي يتحقق معه التشابه به مع بقية القبر ثم إن هذا القبر قبر للمرء من قوم تبع فهو قديم إلى أبعد حد مما جعل بناءه يتأثر في شكله وهيأته بحكم الزمن وتقادم الأيام على نحو تكون صلة أعاليه بأسافله قد صارت تتناسب وتتوافق مع رأس البعير ، وتتلاءم معه من ناحية الهيئة والشكل ومن ذلك قوله :

كَأَنَّ مَطَايِنَا بِكُلِّ مَفَازَةٍ قَرَارِقُ فِي صَحْرَاءٍ دَجَلَةٍ تَسْبَحُ

فهو يشبه الإبل في سيرها في قلب الصحراء بالسفن التي تسبح بين الأمواج وقد وقفنا أمام هذا البيت قبل ذلك وقفة طويلة وذو الرمة الذي يتحدث عن الإبل المجهددة والمتعبة نتيجة لسيورها الطويل في أعماق الصحراء مما ظهر أثر ذلك في عيونها نراه يشبه عيون الإبل الغائرة التي ظهر أثر الرحلة عليها فغيرتها فيشبهها بآبار قل مأوها لكثرة ما نزع منها لسقي الناس فيقول :

عَلَى حَمِيرَيَاتٍ كَأَنَّ عَيُونَهَا ذِمَامُ الرِّكَايَا أَنْكَزَتْهَا الْمَوَاتِحُ

والماتح الذي يستقي من البئر وأنكزتها المواتح يعني أفنت ماءها ويتحدث قدامة عن حسن التشبيه عند الشماخ فيقول وقد أحسن الشماخ في قوله حين شبه أضلاع الناقة التي براها السير بالسقى المؤثرة فيقول :

فَقَرَّبْتُ مَبْرَأَةً كَأَنَّ ضُلُوعَهَا مِنْ الْمَاسِخِيَّاتِ الْقِسِيِّ الْمَوْتَرِ

والمبراة : الناقة التي في أنفها برة : وهي حلقة من فضة تجعل في أنفها . والماسخيات : القسي المنسوبة إلى ماسخة . والماسخي : القواس والموتر : الذي شدت بالأوتار فقد شبه ضلوع الناقة في الانحناء بالقوس ويقول فيه قدامة : « وقد أحسن في هذا التشبيه من قبل اجتماع الأضلاع والقيسي الموتر في الشكل والتوتر والأعصاب والأوتار ولم يرد إلا الشكل فقط »^(١).

(١) نقد الشعر ص ١٢٦ .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ الْبَيَانِ ————— ❁

ومن جيد التشبيه ما ذكره قدامه من قول الشماخ أيضاً :

تَلُوذُ نَعَالِبُ الشَّرَفَيْنِ مِنْهَا كَمَا لَإِذَا لَغَرِيمٌ مِنَ التَّبِيعِ

تلوذ : أي تسير وتفر . والغريم : الذي عليه الدين والذي له الدين جميعاً والمراد هنا الأول وهو الذي عليه الدين والتبوع : صاحب الدين لأنه يتبع المدين بحق يطالبه به . وهو أيضاً الغريم أي المدين والمراد هنا الأول وهو الذي يتبع المدين بحث يطالبه يعني أن هذه الثعالب تجتهد وتجد في الهرب من العقاب كما يجتهد المدين الذي يجد في الهرب من صاحب الدين يقول قدامه : « وقد يختلف اللوذان بحسب اختلاف اللائذين فأما التبوع فهو ملح في طلب الغريم لفائدة يرومها منه والغريم بحسب ذلك مجتهد في الروغان في اللوذ خوفاً من مكروه يلحقه وكذلك الثعلب والعقاب سواء ؛ لأن العقاب ترجو شبعها والثعلب يخاف موته »^(١).

هذا وإذا كان قدامة يرى أن أحسن التشبيه هو « ما أوقع بين الشيئين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما فيها حتى يدني بهما إلى حال الاتحاد »^(٢) « فإن جودة التشبيه لا تتوقف على كثرة الاشتراك في الصفات فقد لا تكون هناك صفات متعددة تقضي بهذا الاشتراك وإنما المهم هو إصابة جهة الاشتراك ، وقد تكون هذه الجهة معنى واحداً »^(٣).

المهم أن تكون هناك صلة قوية تجمع بين الطرفين المشبه والمشبه به بحيث تتحقق الإصابة في التشبيه فيكون تشبيهاً مصيباً ولا يكون مصطنعاً .

هذا وقد قال ابن رشيق « ومن التشبيهات عقم لم يسبق أصحابها إليها ، ولا تعدى أحدهم بعدها عليها ، واشتقاقها فيما ذكر من الريح العقيم ، وهي

(١) نقد الشعر ، ص ١٢٤ .

(٢) المصدر السابق ص ١٢٥ .

(٣) التشبيه ، لعلي الجندي ، ١/١٥٣ .

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ عَلِّ الْبَيَّانِ

التي لا تلقح شجرة ، ولا تنتج ثمرة نحو قول عنتره العبسيّ يصف ذباب
الروض :

وَحَلَا الذَّبَابُ بِهَا فَلَيْسَ بِيَارِحٍ غَرْدًا كَفِعَلِ الشَّارِبِ الْمَتَرَّمِ
هَزَجًا يَحْكُ ذِرَاعَهُ بِذِرَاعِهِ قَدَحَ الْمِكْبَ عَلَى الزَّيَادِ الْأَجْذَمِ^(١)

البراح : الزوال والفعل برح يبرح ليس بيارح ليس بزائل .

التغريد : التصويت والتَّرتُّم : ترديد الصوت بضرب من التلحين . وهزجاً :
مُصَوِّتاً . وَالْمِكْبَ : المقبل على الشيء ، والأجذم : المقطوع اليد .

ففي البيت الأول يبين عنتره أن الذباب قد خلا بتلك الروضة فلا يبرحها
ولا يزائلها أو يغادرها ، ويشبه ما يتردد من أصواته المنسقة الجميلة بصوت
الشارب المترنم الذي يرجعه ويردده في غنائه في حسن الإيقاع ، وبديع
التنسيق ، وحلاوة النغم وعذوبته ، وفي البيت الثاني يبين أن الذباب يصوت
حال حكه إحدى ذراعيه بالأخرى مثل قدح رجل مقطوع اليد والتشبيه ينعقد
من خلال تشبيه الذباب وهو يحك إحدى يديه بالأخرى برجل أجذم مقطوع
اليد يقدح ناراً في وجه شبه هو الشكل والهيئة .

ومن التشبيهات الحسنة قول طرفة في معلقته يصف السفينة في زمنه وكيف
تشق الماء بصدرها كما يشقّ المفایل التراب المجموع بيده فيقول :

يَشَقُّ حَبَابَ الْمَاءِ حَيْزُ وَمُهَابِهَا كَمَا قَسَمَ التُّرْبُ الْمُفَايِلُ بِالْيَدِ

وحباب الماء أمواجه أو الزبد الذي يعلو سطحه . والحيزوم : الصدر ويريد
به مقدمة السفينة والضمير في « بها » يعود على السفن والترب والتراب والترباء ،
والتورب . والتيراب والتوراب واحد والقبال . ضرب من اللعب وهو أن يُجمع
التراب فيُدفن فيه شيء ، ثم يقسم التراب نصفين ويسأل عن الدفين في أيهما

(١) العملة ، ٢٩٦/١ .



الصورة البيانية ————— دراستُ في مسأَلِ البَيَانِ ————— ❁

هو؟ فمن أصابَ غَلَبَ ، ومن أخطأ غَلَبَ والتَّسمية مأخوذة من قولهم للخاسر : « فال رأيك » أي خاب وأخطأ وانحرف عن الصواب والتشبيه ينعقد من خلال تشبيه شق السفينة بصدرها الماء بشق المفاليل بيده التراب المجموع وهذا الوصف بهذه الصورة يدل على صغر حجم السفينة .

ولطرفة من التشبيهات الحسنة ما تراه في نفس المعلقة وهو يبين أن الإنسان لا يبقى ولا يستمر ، وأنه يمضي على مدرجة الطريق حيناً من الدهر ثم يختفي ، ذلك أن الموت هو المصير المحتوم الذي يتساوى أمامه الجميع ولا يَدْرِي أحد ما وراءه لأنه غيبٌ مُحَجَّبٌ والمؤكد أن من أسرف على نفسه في الحياة ومن ضَنَّ بها عليها يجثوان في حفرتين متشابهتين عليهما صفائح صمٌّ من صفيح منضد استمع إليه وهو يقول :

- ١- أَرَى قَبْرَ نَحَامٍ بِخَيْلٍ بِمَالِهِ كَقَبْرِ غَوَىٍّ فِي الْبَطَالَةِ مُفْسِدٍ
- ٢- تَرَى جُثُوثَيْنِ مِنْ تَرَابٍ عَلَيْهِمَا صَفَائِحُ صَمٍّ مِنْ صَفِيحٍ مُنْضَدٍ
- ٣- أَرَى الْمَوْتَ يَعْتَامُ الْكَرَامَ وَيَصْطَفِي عَقِيلَةَ مَالٍ الْفَاحِشِ الْمُتَشَدِّدِ
- ٤- أَرَى الدَّهْرَ كَثَرًا نَاقِصًا كُلَّ لَيْلَةٍ وَمَا تَنْقُصُ الْأَيَّامُ وَالْدَّهْرُ يَنْقُدِ
- ٥- لَعَمْرُكَ إِنْ الْمَوْتَ مَا أَخْطَأَ الْفَتَى لَكَ لَطُولُ الْمُرُخِيِّ وَثَنِيَاهُ بِالْيَدِ

في البيت الأول : النَحَامُ : البخيل الحريص على الجمع والمنع الذي يتنحَّجُ وَيَزْجُرُ إذا سئل وكأنه يماطل وَيُسَوِّفُ في الإجابة . والغَوَى : الغاوي الضال . والغِيّ والغَوَايَةُ الضلالة ولذا فالغوى : هو الذي ينساق وراء شهواته ولذاته وهو في هذا يبين أن قبر البخيل الحريص على ماله كقبر الضال الغوى المفسد لماله فالموت يُسَوِّى بين البخيل الذي عاش حياته كلها مُمَسِّكًا حريصاً على ماله ، ضنيناً به وبخيلاً وبين الكريم المسرف الذي يهلك ماله ويأتي عليه في لذاته وغواياته والتشبيه ينعقد من خلال التسوية الكاملة بين قبر النحام البخيل وقبر الغوى في البطالة المفسد .

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

وفي البيت الثاني : الجُثُوةُ : تعني الكَوَمةُ من التراب والمراد بها هنا القبر والجمع جُثى وفي الحديث « من دَعَاءُ دُعَاءِ الجاهلية فإنه من جُثى جهنم » أي من جماعات جهنم ويقال للرجل : إنما هو جُثوةُ اليوم أو غد والصفائح: جمع صفحة وهي الحجارة العريضة التي يغطى بها القبر . والصَّمّ: الصلبة والمُنْضَدّ: الذي نُضِدَ فوق القبر أي وضع بعضه فوق بعض .

والمعنى وهذه هي النهاية التي يَنْتَهِي إليها البخيل والكريم كَوْمَتَانِ من تراب عليهما صفائح صمّ من صفيح منضدّ وكأنهما لم يكونا من قبل شيئا ، ولم يتحقق لهما وجود ولم يدرجا على متن الأرض .

وفي البيت الثالث : يعتام : بمعنى يختار وينتقي ومثلها : يصطفي ، والعقيلة : الكريمة من الماء ، والنَّفِيسَةُ من النساء وعقيلة كل شيء خيرته وَأَنْفُسُهُ عند أهله ، والفاحش : السيئ الخلق القبيح والمتشددّ : البخيل وكذلك الشديد .

والمعنى إن الموت يختار الكرام بالإفناء ويصطفي كريمة مال البخيل بالإبقاء ، وفي البيت الرابع أرى الدهر أي أهل الدهر والبيت استمرارا للحديث على قضية الحياة والموت التي تحدث عنها في السابق ، فالدهر كنز وهو ينقص كل ليلة تمضي وتمر وما دام ينقص ويستمر في نقصانه ، فإن ماله إلى النَقَادِ والفناء وتأمل جمال التشبيه الذي انتزعه الشاعر من رؤيته الصائبة لحقيقة الحياة والأحياء والذي يريك الدهر كنزا والأيام والليالي كأنها أناسيُّ تنقص من هذا الكنز الذي انتزعه الشاعر من رؤيته الصائبة لحقيقة الحياة والأحياء والذي يريك الدهر كنزا والأيام والليالي كأنها أناسيُّ تنقص من هذا الكنز بلا توقف ومن غير انقطاع حتى تأتي على كل شيء فيه ولا تبقى منه قليلا ولا كثيرا .

وفي البيت الخامس :

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى لكا لطول المُرُخَى وثنيّاه باليد



الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ الْبَيَّانِ ————— ❁

العُمَرُ والعُمَرُ بمعنى ولا يستعمل في القسم إلا بفتح العين و«ما» في قوله : «ما أخطأ الفتى» مصدرية على تقدير «في إخطائه الفتى» و«الطَّوْلُ» الحبل تربط به الدابة فُطَالُ لها في المرعى إذا شاء صاحبها وَيُقَصَّرُ لها إذا شاء و«ثنيَّاه» طرفاه لأنهما يثنيَّان على اليد والإرخاء : الإرسال ويقال : أرخى الفرس : عداً عدواً شديداً وأرخى الدابة طَوَّلَ لها الحبل .

إنه يريد أن ينبه إلى حقيقة لا مجال للأخذ والرد فيها ، أو الاختلاف حولها ذلك أن للقدر مشيئةً علياً ليس إلى تعويقها من سبيل وأن الإنسان في يده وديعة يتصرف فيها كيف يشاء إن شاء أمهله وإن شاء تعجل به وإن حياة المرء رحلة والموت سوف يأتي عليها وينهيها طال الزمن أو قصر فليس له من أمر نفسه شيء ، ولن يفلت من الموت فمثله كالدابة ربطها صاحبها بحبل وجعل طرفيه في يده فهو يرخي لها الحبل إذا أرخاه ولكنه لا يتركها تفلت من يده حتى إذا شاء جذبها إليه من غير إرادة لها ولا مشيئة ؛ ولذا فإن الكيس هو الذي لا يعيش أسيراً لأعراضها ، ولا مفتوناً بهواها ومتعها وزينتها وعليه أن يدرك أن للحياة غاية أخرى راقية وسامية غير اللهو واللعب فيصل بالمعروف حبل الود بينه وبين الناس فلا يُؤثرُ بها نفسه ، ويضنُّ بها على غيره ولعل ما جاء بعدها هذا البيت من أبيات يفسر هذا من قوله :

فَمَالِي أَرَانِي وَإِبْنَ عَمِّي مَالِكَا مَتَى أَدُنْ مِنْهُ يَنَأُ عَنِّي وَيَعْدُ
يَلُومُ وَمَا أَدْرِي عَلامَ يَلُومُنِي كَمَا لَا مَنِي فِي الْحَيِّ قَرُطُ بْنُ مَعْبَدٍ
وَأَيَّاسَنِي مِنْ كُلِّ خَيْرٍ طَلَبْتُهُ كَأَنَّا وَضَعْنَاهُ إِلَى رَمْسٍ مُلْحَدٍ

فهو في البيت الأول يتحدث عن مشكلاته مع ابن عمه الذي لا يعرف لها سبباً وأنه كلما دنا منه نأى عنه وابتعد .

وفي البيت الثاني يبين حيرته من موقف ابن عمه معه ، ولومه إياه لوماً كلوماً قُرطُ بن معبد وهو رجل من حي طرفة .



❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

وفي البيت الثالث يبين أن ابن عمه قد أيأسه من كل خير عنده كأنه قد مات ودفن في القبر «الرمس» .

ويظل طرفه في تفسير موقفه وشكواه من أقاربه إلى أن قال :
وظُلُمَ ذَوِي الْقَرْبَى أَشَدُّ مَضَاضَةً عَلَى الْمَرْءِ مِنْ وَقَعِ الْحَسَامِ الْمُهَنْدِ
ومن التشبيهات الجيدة التي برزت فيها العلاقة المتلائمة الصحيحة والمقبولة بين الأشياء المختلفة ما تراه في قول عمرو بن معد يكرب :
وَلَمَّا رَأَيْتُ الْخَيْلَ زَوْرًا كَأَنَّهَا جَدَاوِلُ زَرْعٍ خُلِيَّتْ فَاسْبَطَرَتْ
اسبطرت : امتدت والسَّبَطَرُ والسَّبَطُ بمعنى واحد يقول المرزوقي « لما رأيت الفرسان منحرفين للطعن ، وقد خلُّوا أعنة دوابهم وأرسلوها وقرطوا آذانها بها فكأنها أنهارُ زرعٍ أرسلت مياهها فامتدت بها .
والتشبيه وقع على جري الماء في الأنهار لا على الأنهار ، كأنه شبه امتداد الخيل في انحرافها عند الطعن بامتداد الماء في الأنهار وهو يطرد ملتويا ومضطربا »^(١).

هذا وحين يستخرج الشاعر معنى من معنى شاعر سبقه وتقدّمه ، أو يزيد فيه زيادة فإن هذا يسمى التوليد وهو على حد ما يقول ابن رشيق : « وليس باختراع ؛ لما فيه من الاقتداء بغيره ، ولا يقال له أيضاً «سرقه» إذا كان ليس آخذا له على وجهه ، مثال ذلك قول امرئ القيس :
سَمَوْتُ إِلَيْهَا بَعْدَ مَا نَامَ أَهْلُهَا سُمُوَ حَبَابِ الْمَاءِ حَالًا عَلَى حَالٍ
فاسْتُخْرِجَ من هذا المعنى المتقدم معنى جديدا هذا وقد ولّده واقتدى فيه بامرئ القيس بن أبي ربيعة أو وضاح اليمن في قوله :
فَاسْقُطْ عَلَيْنَا كَسُقُوطِ النَّوَى لَيْلَةَ لَا نَاهٍ وَلَا زَاجِرُ

(١) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ، ١/١٥٧ .

الصورة البيانية ————— دراستي مسائل عليّ البيان ————— ❁

فولّد معنى مليحاً اقتدى فيه بمعنى امرئ القيس دون أن يشركه في شيء من لفظه ، أو ينحو نحوه إلا في المحصول وهو لطف الوصول إلى حاجته في خفية»^(١) ، والمعنى الذي يريده امرؤ القيس هو إخفاء شخصه^(٢) .
هذا ومثال المعنى الذي ولّد من معنى سابق وفيه زيادة قول عدي ابن الرقاع :

تُرْجِي أَغْنَّ كَأَنَّ إِبْرَةَ رَوْقِهِ قَلَمُ أَصَابَ مِنَ الدَّوَاةِ مَدَادَهَا
نظر فيه إلى قول جرير في وصفه للخيل .
يُخْرُجْنَ مِنْ مُسْطَبِرِ التَّقَعِ دَامِيَةً كَأَنَّ أَذَانَهَا أَطْرَافُ أَقْلَامٍ
فعديّ ولد بعد القلم إصابته مداد الدواة بما يقتضيه المعنى ؛ إذ كان القرن أسود»^(٣) .

ومن التشبيه الحسن الذي تحقق فيه الحسن لأنه قرّب بين البعيدين حتى صارت بينهما مناسبة واشتراك على حد قول ابن رشيق في بيت الأشجعي .
كَأَنَّ أَزِيْزَ الْكَبِيْرِ إِرْزَامَ شَخِيْهَا إِذَا امْنَا حَهَا فِي مَحْلَبِ الْحَيِّ مَاتُحُ
فشبه ضرع العتر بالكير ، وصوت الحلب بأزيزه فقرّب بين الأشياء البعيدة بتشبيهه حتى تناسب وذلك في رده على زعم قدامة أن أفضل التشبيه ما وقع بين شيئين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما حتى يدني بهما إلى حال الاتحاد بقول ابن رشيق ، ولو كان الوجه ما قال قدامة لكان الصواب أن يشبه الأشجعي ضرع عنزة بضرع بقرة أو خلف ناقة ؛ لأنه أراد كبره وكثرة ما فيه من اللبن ، وكان يعدل عن ذكر الكير وأزيزه الذي دلّ به على أعظم ما يكون من صفة كبر الضرع وكثرة لبنه» .

(١) العملة ، ٢٦٣/١ .

(٢) إعجاز القرآن للباقلاني ، تحقيق دكتور محمد عبد المنعم خفاجي ، ص ١٠٨ .

(٣) العملة ، ٢٦٤/١ ، وانظر فن التشبيه لعلي الجندي ، ٢٥٤/٢ .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ —————﴾

وقد ذكر ابن رشيق هذا في سياق حديثه عما عدّه قدامة من أفضل التشبيه لأنه جمع تشبيهات كثيرة في بيت واحد ، وألفاظ يسيرة كما في قول امرئ القيس :

له أَيْطَلَا ظِي ، وساقا نعامية وإرخاء سِرْحَان وتَقْرِيْب تَتَفُل ^(١)

ويقول ابن رشيق : وهذا تشبيه أعضاء بأعضاء هي بعينها إلا أنها من حيوان مختلف ، والأمر كما قال في قرب التشبيه إلا أن فضل الشاعر فيه غير كبير حينئذ لأنه كتشبيه نفس الشيء المشبّه الذي ذكره الرمانى في تشبيه الحقيقة ، وإنما حُسِّنَ التشبيه أن يقرب بين البعيدين حتى تصبر بينهما مناسبة واشتراك ^(٢) والمقصود بتشبيه الحقيقة عند الرمانى الذي أشار إليه ابن رشيق هو ما ذكره الرمانى في سياق حديثه عن التشبيه الذي ذكر أنه على وجهين تشبيه بلاغة ، وتشبيه حقيقة فتشبيه البلاغة كتشبيه أعمال الكفار بالسراب ، وتشبيه الحقيقة نحو هذا الدينار كهذا الدينار فخذ أيهما شئت ^(٣).

ولعل قدامة قد استحسنت بيت امرئ القيس لما فيه من ضغط للعبارة ، ووجازة فيها ، وتركيز شديد من حيث أتى على حدّ ما يقول هو نفسه بعد ذكره للبيت : «فأتى بأربعة أشياء مشبهة بأربعة أشياء وذلك أن مخرج قوله له أَيْطَلَا ظِي إنما هو على أنه له أَيْطَلَان كَأَيْطَلِي الظبي ، وكذا ساقان كساقى نعامية ، وإرخاء كإرخاء السرحان ، وتقريب كتقريب التّفُل ^(٤).

(١) أَيْطَلَا ظِي : خاصرتا ظبي وإنما خصّ الظبي لأنه ضامر وكذلك النعامية لأنها طويلة .
والإرخاء : الجري الذي فيه سهولة مأخوذ من الرخاء وهو الريح السهلة والسّرْحَان .
الذئب والتفّل : ولد الثعلب .

(٢) العملة ، ٢٨٩/١ ، ٢٩٠ .

(٣) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، ص ٨١ .

(٤) نقد الشعر ، ص ١٢٧ .

الصورة البيانية ————— دراستي في مسأله البيان ————— ❁

فالييت بما فيه من تشبيهات إنما استحق الفضل ، ونال الحسن عند قدامة لصياغته المتقنة ولما فيه من وجازة دللت على فضل الشاعر ، وتمكنه من أدواته ، وقدرته على استثمار طاقة اللغة ، وتوظيفها فيما يريد الإبانة عنه ونقله إلى من يتلقى عنه في إبانة وظهور .

ومن التشبيهات الحسنة تشبيه النسر في ضخامتها وسكونها وما عليها من الريش بشيوخ عليهم أكسية وذلك في قول النابغة يصف النسر :
تراهن خلف القوم خُزراً عُيُونُهَا جلوسَ الشيوخ في ثبات المرائبِ
وخُزراً عيوبها أي تنظر بآخر عيونها . فخزراً : جمع أخزر وهو الذي ينظر بمؤخر عينه والمراتب ثياب سود يقال لها : المرئيات ، وقيل : أكسية من جلود الأرانب . وإنما خصّ الشيوخ لأنهم ألزم للأكسية وأقل صبراً على البرد ، وأوفر مجالس من الشباب .

ويقول ابن رشيق وهذا التشبيه عقيم إلا أنه من قول طرفة يصف عقاباً :
وعَجَزَاءُ دَفَّتْ بِالْجَنَاحِ كَأَنَّهَا مع الصُّبحِ شبح في بجادٍ مُقَنَّعٍ^(١)
ودفّت : دنت في طيرانها من الأرض ودفّ الطائر دفيفاً حرك جناحيه ورجلاه على الأرض ، والبجاد : الكساء ، ومُقَنَّع : مُتَغَشٍّ به ، ويقال تقنّع : أي تغشّى بثوبه .

فهو يشبه العقاب وهي تحرك جناحيها ورجلاها على الأرض بشيخ تقنّع بكسائه ، وتغشّى بثوبه .

ويشير ابن رشيق إلى أن النابغة ينظر في هذا إلى قول امرئ القيس :
كَأَن ثَبِيرًا فِي عَرَانِينِ وَبُلْهِ كَبِيرُ أَنْسَاسٍ فِي بَجَادٍ مُزْمَلٍ

(١) العملة ، ٢٨٩/١ ، ٢٩٩ .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ —————﴾ دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

وثبيراً : جبل والعرايين جمع عرينين ، وهو أول كل شيء - وما صُلِبَ من عظم الأنف حيث يكون الشمم ، ويقال : هم شم العرايين أعزة أبة - وعرايين القوم سادتهم وأشرافهم ، ومن المستعار قولهم : للأشراف العرايين ، والبجاد الكساء ومزمل أي مُلَفَّفٌ ومُغَطَّى يقال تَزَمَّلَ أي تَلَفَّفَ وتَغَطَّى ويقال منه أَزَمَّلَ أيضاً فهو مُزَمَّلٌ وفي التنزيل العزيز : ﴿ يَتَأَيُّمُ الْمُزْمِلُ ﴾ قُمْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿ (المزمل: ١، ٢) .

شبه هذا الجبل في شموخه حين غشيه المطر وعمه الخصب بشيخ ملفف في بجاد وهو كساء مخطط وإنما خص الشيخ لأنه متدثر أبداً متمزمل في ثيابه . هذا والتشبيه الذي يحرك قوى الاستحسان ، ويشير الكامن من الاستطراف هو الذي يأتي مؤتلفاً من الأشياء المختلفة في الجنس بشرط أن يصيب بين المختلفين في الجنس، وفي ظاهر الأمر شبهاً صحيحاً وصلة قوية بين الطرفين، وربطاً محكماً ، وملاءمة طيبة سائغة وبذلك يكون على حد ما يقول الإمام عبد القاهر : « يكون اتئلافهما الذي يوجب تشبيهك من حيث العقل والحدس ^(١) في وضوح اختلافهما من حيث العين والحس فأما أن تستكره الوصف وتروم تصوّره حيث لا يُتصوّر فلا ؛ لأنك تكون بمنزلة الصانع الأخرق ، يضع في تأليفه وصوغه الشكل بين شكلين لا يلائمانه ولا يقبلانه حتى تخرج الصورة مضطربة وتجيء فيها نتوء ^(٢) ويكون للعين عنها من نقاوتها نبوء ^(٣) .

وعلى هذا لابد من ملاحظة ومراعاة ما يجمع بين الطرفين مهما كانت درجة اختلافهما من المعنى الخاص الذي يقصد ويراد إشراك الطرفين فيه . فالطرفان في التشبيه لا يتفقان في جميع الصفات وإلا كان الأمر حينئذ كتشبيه

(١) العقل والحدس : الظن والتخمين .

(٢) نتوء : أي نتوء ونبوء أي لا تألفها العين وتنبو عنها .

(٣) أسرار البلاغة ص ١٥١ .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دُرِّسَتْ فِي مَسَائِدِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي تَالُوتٍ ————— ❁

الشيء بنفسه وتشبيه الشيء بنفسه لا يصح . كما أنهما لا يختلفان في جميع الوجوه والصفات ؛ لأنهما حينئذ يفقدان الجامع الذي يجمع بينهما في تلاؤم وانسجام يقول قدامة : « إنه من الأمور المعلومه أن الشيء لا يشبه نفسه ولا بغيره من كل الجهات إذ كان الشَّيْءَان إذا تشابها من جميع الوجوه ولم يقع بينهما تغاير البتة اتحدا فصار الاثنان واحدا ، فبقي أن يكون التشبيه إنما يقع بين شيئين بينهما اشتراك في معان تعمهما ، واقتراق في أشياء ينفرد كل واحد بصفتها»^(١).

إن حقيقة التشبيه أن تلمح شبها صحيحا بين طرفين فتبين هذا الشَّبه وتظهر ذلك واضحا في تعبيرك ، فإذا فقد الشَّبه وكان غير ثابت ولا محقق أو موجود فلا معنى لكلامك ؛ لأن التشبيه إنما هو لملح صلة بين طرفين وعليك أن تجد وتجتهد في تبين هذه الصلة وما دام الأمر كذلك فليس التشبيه أن تضع أدواته بين طرفين لا مشابهة بينهما ، ولا تلاؤم فتكون في فعلك هذا كالصانع الأخرق الذي يضع في تأليفه وصوغه الشكل بين شكلين لا يلائمانه ، ولا يتوافقان وينسجمان معه فتخرج الصورة مضطربة ساقطة ويكون الأمر على حد ما قال الإمام عبد القاهر : « وإنما قيل شَبَّهْتَ ولا تعني في كونك مشبها أن تذكر حرف التشبيه أو تستعير إنما تكون مُشَبَّها بالحقيقة بأن ترى الشَّبه وتبينه ، ولا يمكنك بيان ما لا يكون وتمثيل ما لا تتمثله الأوهام والظنون»^(٢).

وعلى هذا فصاحب الموهبة البَيَانِيَّة الخالدة هو الذي يتصرّف في مفردات اللغة وألفاظها تصرّف المصور البارِع بألوان الطيف بحيث يشكل منها صوراً يفتن في إخراجها افتتان الرسام الماهر إذ يضع فيها من الظلال والألوان ما تتجلى فيه قُدرة ذوقه على الملاءمة والتنسيق والإبداع .

(١) نقد الشعر ، ص ١٢٤ .

(٢) أسرار البلاغة ، ص ١٥١ ، ١٥٢ .

❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

وصانع الكلام الحاذق هو الذي يصنع فنونا من القول يكشف من خلالها العلاقات القائمة بين الأشياء بحيث تشرق فيها إشراق الشمس في رائعة النهار وفيها من براعة القول ، وبلاغة اللسان ما يكشف عن ألعمية أصيلة متلائمة الذوق متناسبة الفكر ، متسقة الأسلوب بحيث تملأ المسامع ، وتُعمّر القلوب ومن ثم تبقى حيّة متوهجة لا تغوص في لُجج النسيان ولا يطويها العدم يقول الإمام عبد القاهر : « إن الحذق في إيجاد الائتلاف بين المختلفات في الأجناس أنك تقدر أن تحدث هناك مشابهة ليس لها أصل في العقل وإنما المعنى أن هناك مشابهات خفية يدق المسلك إليها فإذا تغلغل فكرك فأدركها ، فقد استحققت الفضل ولذلك يشبه المدقق في المعاني بالغائص على الدرّ ألا ترى أن التشبيه الصريح^(١) إذا وقع بين شيئين متباعدين في الجنس ثم لطف وحسن ، لم يكن ذلك اللطف وذلك الحسن إلا لاتفاق كان ثابتاً بين المشبه والمشبه به من الجهة التي بها شُبّهت إلا أنه كان خفياً لا ينجلي إلا بعد التأني في استحضار الصور وتذكرها ، وعرض بعضها على بعض ، والتقاط النكتة المقصودة منها ، وتجريدها من سائر ما يتصل بها^(٢) .

فكشف ما بين الطرفين المختلفين والبعيدتين من صلة تجمع بينهما برباط وثيق ، ومُحكّم في إخاء ودود هو محاولة لاختصار المسافة التي تباعد بينهما وتفرّق بحيث يكون كل منهما متجانسا مع الآخر وقريبا منه ، ومتلاقيا معه في تواددٍ وألفة وتراحم بعد إذابة ما بينهما من تباعد وتخالف وكأن كلا منهما يتحرق شوقا إلى صاحبه وظمنا إلى الارتباط به ، والتلاقي معه مع الشعور بالحاجة الملحة لكل منهما إلى الرفقة المؤنسة ، والصُّحبة الطيبة التي توثقت بها صلة كليهما بالآخر ، وقويت بها أواصر القربى والمودة بينهما في إخاء وعدم غربة .

(١) أي التشبيه الواقع في المحسوسات .

(٢) أسرار البلاغة ، ص ١٥٢ ، ١٥٣ .



الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ الْبَيَانِ ————— ❁

فالأصل في تلاقي المختلفين والجمع بين البعيدين النظر الدائم والموصول إلى ما يُشَبَّعُ الحنين لما يزيل الغربة ، ويُنَحِّي الغتراب والانفصام ، ويقرب المسافات على نحو تتلاشى فيه الحدود ويؤاخي فيه بين المختلفين المتباعدين ويجمع بينهما في تمازج وتشارب وتوحد مع اطمئنان لألفة الروح بعيداً عن نكبة التَّفَكُّك ، وتشَّت الوحدة ، والأثرة الموحشة ويتحدث الإمام عبد القاهر في وضوح سافر عن هذا ويشير إلى تلاشي الفوارق ، وإذابتها بين الأشياء وجعلها على نحو قد دنا فيه بعضها من بعض وأزيل ما بينهما من تخالف وتباعد وذلك حيث يقول : « وهل تشك في أنه يعمل عمل السحر في تأليف المتباينين حتى يختصر لك بعد ما بين المشمِّ والمعرق وهو يريك للمعاني المُمَثَّلَة بالأوهام ^(١) شَبَهَا في الأشخاص الماثلة والأشباح القائمة ، ويُنطق ^(٢) لك الأخرس ، ويُعطيك البيان من الأعجم ويُرِيك الحياة ^(٣) في الجماد ، ويريك التَّام عين الأضداد ^(٤) فيأتيك بالحياة والموت مجموعين ، وبالماء والنار مجتمعين ، كما يقال في الممدوح هو حياة لأوليائه موت لأعدائه ويجعل الشيء من جهة ماء ومن أخرى نارا كما يقال :

أنا نار في مرتقى نظر الحما سد ماء جار مع الإخوان ^(٥)

والتشبيه في البيت ناظر إلى تشبيه الشيء الواحد بأمرين متضادين ، فهو يشبه نفسه في حال الغضب على أعدائه بالنار في الإيلام ، وفي حال الرضا على إخوانه بالماء في اللطف والصفاء .

(١) يقصد تشبيه المعاني العقلية بالأشياء المحسوسة .

(٢) يعني يثبت الحديث لغير الناطق تشبيهاً له بالناطق .

(٣) يعني يثبت للجماد حياة تشبيهاً له بالحي .

(٤) وذلك بتشبيه الشيء الواحد بأمرين متضادين لوجود شبه بينه وبين كل منهما .

(٥) أسرار البلاغة ، ص ١٣٢ .

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

ومن إنطاق الأخرس ما تراه في قول المتنبي :
وزائري كأن بها حياءٌ فليس تزور إلا في الظلام
بذلت لها المطارف والحشايا فعافتها وباتت في عظامي^(١)

فهو يشبه زائرتَه بالحَيَّةِ الخجولة ، ووجه الشبه الحرص على عدم الرؤية وليست زائرة أبي الطيب إلا تلك الحمى التي أصابته وهو بمصر ومن يقرأ البيت الأول يرى فيه نوعاً من الخداع حيث يتصور أن زائرتَه تلك فتاة حسنة ، وأنها تحرص على أن تأتيه ليلاً خوفاً من الرقباء ، وحتى لا يفتضح أمرها ، وحين تأتي إليه يستقبلها استقبال مشغوف بها ، فرح بلقائها ويظل على أمره حتى يفهم أن تلك الزائرة ليست عادة حسنة حين عافت المطارف والحشايا وأبت إلا أن تبيت منه العظام . وإنما هي الحمى اللعينة وإبراز المعنوي في صورة المحسوس ارتقاء بمستوى الشيء المدرك وتصوير له فتصوير المعقول بالمحسوس يُفيد فيما يُفيد إحداث أثر في النفس يُحقق لها أنساً بالمعنى ، وتمكيناً له فيها ، فالعلم بالحسي والضروري أقوى من العقلي والنظري وأشد تمكناً في النفس ، ولذا يقولون : « ليس الخبر كالمعاينة ولا الظن كاليقين »^(٢).

ومما يوثق ويؤكد على أن التمثيل بالمدرَك المشاهد المرئي والمحسوس يزيد النفس أنساً بالمعنى واحتفالاً به ، واحتشاداً له أنه يُفضل غيره ويتفوق عليه ، وإن كان هذا الغير أكثر منه مبالغة في المعنى وزيادة فيه ، وتضخيماً له وازن بين قولك وأنت تصف اليوم بالطول على حد ما يقول الإمام « يوم كأطول ما يتوهم ، وكأنه لا آخر له ، وما شاكل ذلك من نحو قوله :
في ليل صول تناهى العرض والطول كأنما ليله بالحشر موصول

(١) المطارف : جمع مطرف أو مُطَرَف وهي أردية من خَزٍّ مربَّعة لها أعلام .

قال الفراء : المطرف من الثياب : ما جعل في طرفيه علمان .

والحشايا : جمع حشية وهي ما حُشي من الفرش مما يجلس عليه .

(٢) أسرار البلاغة ص ١٢١ .



الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ الْبَيَانِ ————— ❁

فلا تجد له من الأنس ما تجده لقوله :

ويوم كظل الرمح قصر طوله دم الزق عنا واصطفاق الزاهر^(١)

على أَنَّ عبارتك الأولى أشد وأقوى في المبالغة من هذا ، فظل الرمح على كل حال متناه تدرك العين نهايته وأنت قد أخبرت عن اليوم بأنه كأنه لا آخر له وكذلك تقول : «يوم كأقصر ما يتصور» ، «و كأنه ساعة» «وكلمح البصر» و«كلا ولا»^(٢) فتجد هذا مع كونه تمثيلا لا يؤنسك إيناس قولهم : «أيام كأباهيم القطا» وقول أبي المعتز :

بُدِّتْ من ليل كظل حصاة ليلا كظل الرمح غير موات^(٣)

وقول آخر :

ظللنا عند باب أبي نعيم يوم مثل سالفه^(٤) الذباب^(٥)

فالإمام يرى أن وصف اليوم بالقصر في قولهم : «يوم كأقصر ما يتصور» وغيره إلخ فيه مبالغة شديدة في هذا الوصف لليوم بالقصر ولكنه لا يؤنسك إيناس قولهم : «يوم كأباهم القطاة» أو كسالفه الذباب لأن المشبه به هنا مرئي ومشاهد بالعين فهو أقوى أثرا من المدرك بالسمع وهو مع طرافته مما لا يخطر على البال .

قلت من قبل : إن الأصل في تلاقي المختلفين وائتلافهما ، والجمع بين البعيدين النظر الدائم إلى ما يشبع الحنين لما يزيل الغربة ، ويلغي الحدود ، ويقرب المسافات ، ويؤاخي بين المختلفين المتباعدين ويجمع بينهما في تواددٍ

(١) الزق : الخمر ، والمزاهر : جمع ميزهر كمنبر العود . واصطفاقها : تحرك أوتارها .

(٢) كناية عن سرعة الانقضاء .

(٣) قوله : « كظل حصاة » مثل في القصر ، و« كظل الرمح » مثل في الطول .

(٤) سالفه الذباب » ناحية مقدم العنق .

(٥) أسرار البلاغة ، ص ١٢٧ ، ١٢٨ .



❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

وتراحم . على أن الطرفين اللذين اشتد البعد بينهما إنما يزداد حُسْنُهُما وجمالهما كأنما أُدْنِي أحدهما من الآخر ، وتحقق لاقيهما بعد إلغاء المسافات وإذابتها في شبه صحيح يقول الإمام عبد القاهر « وهكذا إذا استَقَرَّتْ التشبيهات وجدت التباعد بين الشيئين كلما كان أشد كانت إلى النفوس أعجب ، وكانت النفوس لها أطرب وكان مكانها إلى أن تحدث الأريحية^(١) أقرب وذلك أن موضع الاستحسان ، ومكان الاستظراف ، والمثير للدفين من الارتياح ، والمتألف للنافر من المسرة ، والمؤلف لأطراف البهجة أنك ترى بها الشيئين مِثْلَيْنِ مُتَبَايِنَيْنِ ، وَمُؤْتَلِفَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ ، وترى الصورة الواحدة في السماء والأرض ، وفي خِلْقَةِ الإنسان وخلال الروض وهكذا طرائف تنثال عليك إذا فصلت هذه الجملة وتتبع هذه اللوحة^(٢) ولذلك تجد تشبيه البنفسج في قوله :
ولا زورديَّةُ تَزْهُو بزرقَتِها بين الرياض على حُمر اليواقيت
كأنها فوق قاماتٍ ضَعُفْنَ بها أوائلُ النار في أطراف كبريت
أغرب وأعجب وأحق بالولوع^(٣) وأجدر من تشبيه النرجس « بمَدَاهِنِ درِ حَشْوِهِنَّ عَقِيقُ » ؛ لأنه أراك شَبَها لنبات غصن يَرِفُ وأوراق رطبة ترى الماء مِنْهَا يَشْفُ ، بلهب مستول عليه الْيَبَسُ ، وباد فيه الكلف^(٤) .

واللازوردية يعني نَوْرُ الْبِنْفَسَجِ « تزهو » يقال : زُهِِيَ الرجل فهو مَزْهُوٌّ إذا تعالى وتكبر ، وفيها لغة حكاها ابن دريد : زها يزهو زهواً بمعنى تعالى وأعجب بنفسه ، والمراد بقوله : « حمر اليواقيت » الأزهار والشقائق الحمر . والتشبيه يقوم من خلال تشبيه نَوْرِ الْبِنْفَسَجِ الأزرق فوق تلك القامات الضعيفة

(١) الأريحية : أي الارتياح ، وأصلها الارتياح إلى النَّدى والنشاط للمعروف .

(٢) اللوحة : واحدة اللَّوْحِ وهي اختلاس النظر .

(٣) وَلَعَّ به يَوْلَعُ وَلَعاً وَوَلَّوعاً : علق به شديداً .

(٤) الكلف لون بين السواد والحمرة ، أسرار البلاغة ص ١٣٠ ، ١٣١ .

الصورة البيانية ————— دراستي مسانعة البيان ————— ❁

بأوائل اشتعال النار في أطراف كبريت ووجه الشبه صورة اللون المخصوص في الشكل المخصوص متصلا بشيء مخالف للونه « والشاهد فيهما كون المشبه به نادر الحضور في الذهن عند حضور المشبه ، فإن صورة اتصال النار بأطراف الكبريت ينذر حضورها في الذهن عند حضور صورة البنفسج فيستطرف لمشاهدة عناق بين صورتين متباعدتين غاية التباعد ، فإنه أراك شها لنبات غَضُّ يرفّ ، وأوراق رطبة من لهب نار استولى عليه اليبس ، ومبنى الطّباع على أن الشيء إذا ظهر من موضع لم يعهد ظهوره منه كان ميل النفوس إليه أكثر ، وهي بالشغف به أجدر»^(١).

فكشّف ما بين الطرفين المختلفين والمتباعدين من صلة تجمع بينهما برباط وثيق وقوي هو محاولة لاختصار المسافة التي تفصل بينهما بحيث يكون كل منهما قريبا من الآخر ، ومتصلا به ومتلاقيا معه في توافق وانسجام بعد تلاشي ما بينهما من مسافات وتباعد وفوارق وكأن كلا منهما يتحرق شوقا إلى الآخر ، وظمئًا إلى الارتباط به والتلاقي معه وذلك لحاجة كل منهما إلى الرفيق المؤنس ، والصحبة الطيبة التي تُوثّق صلة كل منهما بالآخر ، وتُقوّي أواصر المودة والحب بينهما في إخاء وعدم غربة بعيداً عن نكبة التفكك والتفتت وتشّتت الوحدة . ولذا يتحدث الإمام عبد القاهر في إبانة ووضوح عن هذه القضية ، ويشير إلى تحطيم الفوارق ، وإذابتها بين الأشياء المتباعدة وإدناء بعضها من بعض وإزالة التخالف بينها وترى هذا في التشبيهات الخيالية التي وردت على هذا النحو على نحو ما جلجت به أصوات الشعر وهتفت به حناجر الشعراء من مثل قولهم :

وَكأنَّ محمراً الشقيق إذا تصوب أو تصعد

(١) معاهد التنقيص للشيخ عبد الرحيم أحمد العباسي ، تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد ، ٥٦/٢ .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ —————﴾ دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

أعلام ياقوت نشرُ ن على رماح من زبرجد

والتشبيه في البيتين لم ينل استحسان غير واحد من الدارسين المعاصرين إذ نرى الدكتور شفيح السيد وهو يقول : « إن رؤية عبد القاهر البلاغية وكذلك رؤية غيره من علماء البلاغة العرب لا ترى بأساً في أن يكون التشبيه الحسي معرضاً تتناسق فيه الألوان والأشكال والحركات ، ونحن أيضاً لا نرى بأساً في ذلك شريطة أن يكون التشبيه في هذه الحالة بريئاً من التكلف ، دالاً على خيال لمّاح ورؤية نافذة وليس معنى الاعتداد بالتشبيه الحسي الذي يقف عند حدود المظاهر الخارجية للأشياء وملاحمها المدركة بإحدى الحواس إغفال الجانب النفسي والشعوري... والحد الأدنى من الجانب النفسي والشعوري الذي ينبغي تحقيقه في التشبيه بين كلا طرفيه وفي تعليقه على البيتين السابقين قال فيما قال : وهذا التشبيه بلغ حداً كبيراً من الإغراب والإعجاب ؛ لأن الشاعر جمع فيه بين نبات غض يرف ، وأوراق رطبة ترى الماء منها يشف ويين عود جاف يلتهب بالنار وفرق شاسع بين الاثنين . ولو أننا أنعمنا النظر في هذا التشبيه لبدت لنا الفجوة واضحة بين كلا طرفيه من حيث الدلالة النفسية والشعورية التي يستدعيها كلاهما في النفس فزهرة البنفسج بنضرتها اليناعة تشير معاني الرقة والوداعة والعبير الزكي وكلها معان تنشي منها النفس وتحلق بها في عالم الجمال والأحلام على حين أن لهب الكبريت يبعث في النفس صورة النار بحرّها ولَسَعَهَا التي تَوَجَّل منه النفس ، وتنكمش الأطراف وشتان ما بين هذه وتلك»^(١).

وما أخذ على التشبيه في البيتين السابقين قد سبق إليه الدكتور أحمد أحمد بدوي في كتابه بلاغة القرآن إذ علق على التشبيه المذكور بقوله : « قبل الأقدمون من التشبيه ما عقدت الحواس على الصلة بينهما وإن لم تعقدها النفس

(١) التعبير البياني رؤية بلاغية نقدية ، ص ٧٧ ، ٧٨ .



الصورة البيانية ————— دراستي في مسأله البيان ————— ❁

فاستجادوا مثل قول الشاعر يصف بنفسجاً وذكر هذين البيتين ... وبين أن التشبيه لا يقاس بنفاسة عناصره ومثل بيت ابن المعتز :

أنظر إليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر^(١)

وهذا الكلام بمعناه قد جرت به أقلام غير واحد من الدارسين المعاصرين إذ نجد مضمونه عند الدكتور محمود زكي العشماوي وهو يتحدث عن الوحدة العضوية ويذكر بيت ابن المعتز :

وكان الهلال نور لجين رسمت في صحيفة زرقاء^(٢)

كما نرى هذا عند الدكتور مصطفى ناصف في كتابه الصورة الأدبية التي نقرأ فيه قوله : « يخيل إلى أن ابن المعتز نشر أمام الناس كثيراً من أدوات غناه وثروته وما تزال تتعثر حين تقرأ شعره في فضة وذهب وعنبر وأقحوان ومداهن وعقيق وهو لا ينظمها لحاجة وإنما يفتش عنها في عناء غريب . وكأنما يتمثل هذه المصادقة أو المباغته التي يحلم بها بعض الناس حين يأوون إلى أنفسهم ، ويقول : لا أشك أن مادة التشبيه لعبت بعقول كثيرين ممن استمعوا إليه ثم استحالت إلى التقدير المسرف للتشبيه »^(٣).

كما لمسناه عند الدكتور عز الدين إسماعيل في كتابه الشعر العربي المعاصر قضاياها وظواهره الفنية والمعنوية ، وذلك حين يقول وهو يتحدث عن التصوير في قول ابن المعتز : انظر إليه كزورق من فضة ... إلخ

فصدق المطابقة هنا لا يثيرنا كما تثيرنا الصورة الشعورية الصادقة إن المطابقة لا تفجر في نفوسنا تلك المشاعر الثرة التي تفجرها الصورة التي تبدأ رحلتها من هناك من وجدان الشاعر والتي تخرج إلى الوجود بما تجسم فيها

(١) من بلاغة القرآن ، ص ١٨٨ .

(٢) قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث ، ص ١٠٧ .

(٣) الشعر العربي المعاصر ، ص ١٤٦ .

❧—————الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ—————دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

من أهواء ونزعات تختلج في اللاشعور الجمعي عند الإنسان ، وله مثل هذا الكلام في كتابه : الأدب وفنونه ^(١).

كما نراه عند الدكتور محمد غنيمي الذي بين أن أشد ما يُضْعِفُ الصورة فنيًا أن يقف بها الشاعر عند حدود الحس وذكر بيت ابن المعتز في وصف الهلال :
أنظر إليه كزورق من فضة قد أثقلته حوله من عنبر
وقال في شأنه إنه « لا ينقل إلينا شعورا صادقًا بجمال الهلال لأن الشاعر بحث عن نظير حسيٍّ لما يراه دون أن يتصل هذا بشعور مُحدَّد أو فكرة وقد يكون في هذا التشبيه دلالة نفسية في الهرب من عالم الواقع أو دلالة على بيئة الترف التي ألفها ابن المعتز ولكن هذه الدلالة النفسية لا شعورية ولا صلة لها بالمنظر الطبيعي الذي يقصد إليه ابن المعتز إلى تصويره ونظيره - فيما نرى قول ابن الخطيم :

وقد لاح في الصبح الثريا كما ترى كعقود ملاحية حين نورا
وقد ذكر بيت أبي نواس :

تبكي فتذري الدر من نرجس وتلطّم الورد بعنّاب
ورفض استحسان الإمام عبد القاهر له لأنه لا يربط بين الصورة والشعور ، وقال : مع أن الدر والنرجس والورد والعنّاب والعيون والأنامل لا يقصد في التشبيه بها سوى الشكل ولا صلة لها بتصوير عاطفة الحزن المسوقة إطلاقاً ... ويقول الدكتور غنيمي : ولعل أول من نبه إلى ذلك في نقدنا العربي الحديث هو الأستاذ العقاد في الديوان ^(٢).

هذا والأستاذ العقاد يرى أن البلاغيين يظنون أن نفاسة التشبيه إنما تقاس بنفاسة المشبه به ، ولا فضل لها في الشعور والتخيّل ، ونرى هذا المعنى

(١) الصورة الأدبية ، ص ٤٨ .

(٢) النقد الأدبي الحديث ، ص ٤٢٠ ، ٤٢١ .

الصورة البيانية ————— دراستي في مسأله البيان ————— ❁

واضحاً في كتابه « شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي » وهو يتحدث عن الأستاذ توفيق البكري إذ يأخذ عليه ظنه أن التشبيهات مفروضة عليه فرضاً إذ يشبه الشيء بما يشبهه في لونه وشكله ، ويقول : « وليس هذا هو القصد من التشبيه ولا لهذا حسن في الذوق ، ووجب في الشعر والبيان وإنما القصد منه أن نعرف وقع الشيء كيف يكون والإحساس به كيف يحس في النفوس واستشهد بأبيات للمتنبي في وصف بحيرة طبرية وبين فضل التشبيه فيها وقال : « إنه يزيدنا إحساساً بصورتها لا أنه يرسمها لنا كما ترسمها الصورة الشمسية ، وفي كل أولئك نفهم معنى التشبيه وغرضه وموضع حسنه ؛ لأنه وسيلة إلى تمام التعبير عن الوعي والشعور ، وقد جاءت في الطريق ، ولم تكن غاية محتمة لا فائدة لها إلا أن تقرن شيئاً بشيء مثله في اللون أو في الشكل أو في الصوت .

أما التشبيه الذي لا يزيدنا حساً ولا تخيلاً فهو فضول وتعثّر يعوق عن الغاية ولا يؤدي إليها ، ولذلك نكر قول ابن المعتز في وصف الهلال وهو المثل الأعلى عند طلاب التشبيه لمحض التشبيه :

أنظر إليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر
فلو أننا تمثلنا زورقاً من فضة وتمثلنا حمولة من عنبر لما زادنا ذلك إحساساً بالهلال ولا إعجاباً بحسنه وشكله وإنما هو التشبيه « الآلي » الذي هو بالمصورة الشمسية أولى منه بخيال الشاعر وقابل الآن بين تشبيه ابن المعتز وتشبيه امرئ القيس مثلاً حين يقول في وصف الشحم :

وظل العذارى يرتمين بلحمها وشحم كهذاب الدَّمسق المقتل
فأنت حين تقرأ هذا البيت تحسّ نهم الآكل ونظرته إلى الشحم الذي يأكله والتناذه بأكله وذلك هو المقصود بالشعر ، والمقصود من أجل ذلك بالأوصاف . ولكن المولعين بالتشبيه لمحض التشبيه ربما حسبوا أن نفاسة الدَّمسق هي التي

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

عنت امرأ القيس كما كانت نفاسة العنبر هي التي تعني ابن المعتز وربما ظنوا أن «قيمة» التشبيهين سواء وهما جدّ متفاوتين لأننا حين نتخيل ابن المعتز ينظر إلى الهلال ويشبهه بالزورق والحمولة إنما نتخيل رجلا يعمل الفكرة في التوفيق بين الأشكال والألوان أما امرؤ القيس فنحن نتخيّلهن وتَنصُرف أذهاننا تَوًّا إلى «حالة الأكل» المقصودة لا إلى تسويم قيمة الشحم والحرير الأبيض في السوق ، وهذا مع التشبيه المحسوس بين الشحم والحرير الأبيض أقرب وأحكم من الشَّبه المحسوس بين زورق الفضة على فرض وجوده وإنما هي قدرة الشاعر التي تصرفنا عن ظواهر الموصوفات إلى وقع الموصوفات في النفس والخاطر لأن شعوره يصدر من داخل نفسه وخاطره ويمتلئ بها وعيه ولا يصدر من تلفيقات الظواهر والأشكال»^(١).

حرصت على عرض هذه الآراء لأصحابها على الرغم من طولها ولعل أول من فتح الباب لذيوعها وشيوعها الأستاذ العقاد - طيب الله ثراه - على نحو ما أشار إلى ذلك الأستاذ الدكتور محمد غنيمي هلال - رحمه الله - لذا نقلت كلام الأستاذ العقاد مع طوله لأنه يضعنا أمام فهم جيد يبرز لنا القيمة الفنية للتشبيه من حيث وقعه على النفس ، وأثره فيها . وإذا كنا نعلم أن الشعر فن جميل يعبر عن شخصية منشئه ، وعن بيئته باللغة التي ينظم منها شعره ، ويرسم صورته ولئن كان ابن المعتز قد تعرض للمؤاخذه في تشبيهه على نحو فتح الباب للتعميم وتقرير الاعتقاد بأن نفاسة التشبيه إنما تقاس بنفاسة المشبه به فإن هذا الكلام يحتاج إلى مراجعة حيث إننا نقرر لصاحب الكشف قوله : «إن التمثيل إنما يصار إليه لما فيه من كشف المعنى ، ورفع الحجاب عن الغرض المطلوب وإدناء المتوهم من المشاهد ، فإن كان المتمثل له عظيما كان المتمثل به مثله وإن كان حقيرا كان المتمثل به كذلك فليسَ العظم والحقارة في

(١) شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي ص ٦٦-٦٩، نهضة مصر - الفجالة - القاهرة.

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دُرِّسَتْ فِي مَسَائِدِ عَلَيَّائِيَّاتِ ————— ﴿﴾

المضروب به المثل إذاً إلا أمرا تستدعيه حال المتمثل له وتستجره إلى نفسها فيعمل الضارب للمثل على حسب تلك القضية ألا ترى إلى الحق لما كان واضحاً جلياً أبلغ كيف تمثّل له بالضياء والنور ، وإلى الباطل لما كان بضد صفته تمثّل له بالظلمة ... وما زال الناس يضربون الأمثال بالبهايم والطيور وأجناس الأرض والحشرات والهوام وهذه أمثال العرب بين أيديهم مُسَيَّرَةٌ في حواضرهم وبواديهم قد تمثّلوا فيها بأحقّر الأشياء فقالوا أجمع من ذرّة وأجرأ من الذباب وأسمع من قراد وأصرد من جرادة وأضعف من فراشة وآكل من السوس ، وقالوا في البعوضة أضعف من بعوضة^(١).

هذا وكلام البلاغيين في بلاغة التشبيه ذائع جهير في قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ تَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ (الجمعة: ٥).

فهل نسقط التشبيه هنا لأن المثل به وهو الحمار غير نفيس ؟ وهل نسقط التشبيه في قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ ذُورِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (العنكبوت: ٤١) وهل نسقط التشبيه لأن الممثل به كلب ؟ في قوله تعالى : ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ (الأعراف: ١٧٥، ١٧٦).

ثم إن الله سبحانه وتعالى لا يستحي أن يضرب مثلاً بالبعوضة فما فوقها وكلام ربنا سبحانه يُمثّل أعلى قمة الإعجاز البياني في منارات البيان . على أن مضاهاة وقياس أبيض على أبيض ، وأصفر على أصفر ، ومُسْتَطِيل على مُسْتَطِيل ، ليس من هم التشبيه ولا من أغراضه ومما يوثّق هذا ويقوّيه أن القوم

(١) تفسير الكشاف ، ٥٤/١ .

❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

بما لهم مِنْ ذوقٍ سليمٍ وحسٍّ مرهفٍ عابوا من التشبيهات ما صادم النفس والحس واستبشعوه ولم يقبلوه ورفضوه مع أن المشبه به يضاها المشبه في اللون والشكل ، وفي ذلك تأكيد على أن الأمر ليس قياس أبيض على أبيض ، أو أحمر على أحمر ، أو مستطيل على مستطيل ، وأنه من الضروري تحقيق المطابقة النفسية قبل المطابقة اللونية والشكلية مع الإحساس الدقيق بالمعنى وتصويره التصوير الذي يتوافق ويتلاءم مع الحس والإدراك وعدم تناقضه معهما ، ولذا يقول ابن رشيق : « وقد أتت القدماء بتشبيهات رغب المولدون إلا القليل عن مثلها استبشاعاً لها وإن كانت بديعة في ذاتها مثل قول امرئ القيس :

وَتَعْطُو بِرَخْصٍ غَيْرِ شَيْءٍ كَأَنَّهُ أَسَارِيعُ ظُبْيٍ أَوْ مَسَاوِيكُ إِسْحَلٍ
فالبنانة لا محالة شبيهة بالأسروعة وهي دودة تكون في الرمل وتسمى جماعتها بنات النقا وإياها عني ذو الرمة بقوله :

خَرَاعِيبُ أَمْثَالُ كَأَن بَنَاتِهَا بَنَاتُ النِّقَا تَخْفِي مَرَارًا وَتُظْهِرُ
فهي كأحسن البنات ليناً وبياضاً وطولاً واستواء ودقة وحمرة ورأس كأنه ظفر قد أصابه الحناء وربما كان رأسها أسود إلا أن نفس الحضري المولد إذا سمعت قول أبي نواس في صفة الكأس :

تُعَاطِيكَهَا كَفَ كَأَن بَنَاتِهَا إِذَا اعْتَرَضَتْهَا الْعَيْنُ صَفٌّ مَدَارِي

أو قول علي بن العباس الرومي وهو الشهير بابن الرومي :
سَقَى اللَّهُ قُصْرًا بِالرُّصَافَةِ شَاقِي بِأَعْلَاهُ قُصْرِي الدَّلَالِ رَصَافِي
أَشَارَ بِقُضْبَانٍ مِنَ الدَّرِّ قُمْعَتٍ يَوَاقِيَتْ حُمْرًا فَاسْتَبَاحَ عَفَافِي

أو قول عبد الله بن المعتز :
أَشْرُنَ عَلَى خَوْفٍ بِأَغْصَانِ فِصَّةٍ مُقَوِّمَةً أَثْمَارَهُنَّ عَقِيْقُ

كأن ذلك أحب إليها من تشبيه البنات بالورد في بيت امرئ القيس وإن كان تشبيهه أشد إصابة وقد استبشع قوم قول الآخر يصف روضاً :

الصورة البيانية ————— دراستي في مسأله البيان ————— ❁

كان شقائق النعمان فيه ثياب قد روين من الدماء
الشقائق : ورود حمراء في وسطها نكت سوداء ويقال لها : « شقائق
النعمان » أضيفت إلى النعمان بن المنذر ملك العرب في الحيرة لأنه رآها
فأعجبته فحماها وأمر ألا يقطفها أحد وقيل : أضيفت إلى النعمان الذي هو
الدم لشدة احمرارها المشابه للدم .

فهذا وإن كان تشبيها مصيباً فإن فيه بشاعة ذكر الدماء ولو قال من العصفرة
مثلاً أو ما شاكله لكان أوقع في النفس وأقرب إلى الأنس^(١) .

وأنت ترى أنهم هنا قد أسقطوا التشبيه مع المضاهاة الشكلية واللونية بين
الطرفين فشقائق النعمان والثياب المروية بالدماء يلتقيان معاً ويجتمعان في
الحمرة المحققة فيهما والطرفان متباعدان جداً وذلك لأن القياس على الثياب
المروية بالدماء لا ينبئ عن إحساس دقيق بما أراده الشاعر من تصويره وذلك
لبشاعة ذكر الدماء . ولو كان الغرض مضاهاة أحمر على أحمر وتلاقي
الطرفين واجتماعهما معاً في اللون والشكل لقلبه ولما أسقطوه ؛ لأن الشعور
بالجمال ، والإحساس به لا يتوقف على اللون والشكل وإنما لما وراءهما من
الإبانة عن سرائر الكون والحياة في نظم متقن ومجود تعبيراً عما يقع في
الحس والنفس وتصويراً لما يجري في الخيال والذهن مع عدم إغفال البيئة
بخواصها الطبيعية والاجتماعية لما لها من سلطان على ما ينشئ الشاعر ولذا
فإن لها أثراً لا ينكر ولا يغفل في جمال التصوير وحكاية ابن الرومي مع ابن
المعتز ذائعة جهيرة وقد قيل له لم لا تشبه كتشبهات ابن المعتز ؟ فقال مثل
ماذا ؟ فقل له كقوله في الهلال :

انظر إليه كزورق من فضة قد أثقلته حولة من عنبر

فقال له زدني فأنشده قوله في الأذريون :

(١) العملة لابن رشيق ، ٢٩٩/١ .



❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

كَأَن آذِرُيُونَهُمَا وَالشَّمْسُ فِيهِ كَالِيَهُ
مَدَاهُنْ مِنْ ذَهَبٍ فِيهَا بَقَايَا غَالِيَهُ

فقال ابن الرومي : واغوثاه لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ذلك إنما يصف
ماعون بيته لأنه ابن خليفة وأنا أي شيء أصف ؟ ولكن انظر أين يقع قولي من
قول الناس هل لأحد مثل قولي في قوس الغمام :

وَقَدْ نَشَرْتُ أَيْدِي الْجَنُوبِ مَطَارِفَا عَلَى الْأَرْضِ دَكْنَا وَهِيَ خَضِرُ عَلَى الْأَرْضِ
يُطَرِّزُهَا قَوْسُ السَّحَابِ بِأَخْضَرٍ عَلَى أَحْمَرٍ فِي أَصْفَرٍ إِثْرُ مُبْيَضٍ
كَأَذْيَالِ خَوْدٍ أَقْبَلْتُ فِي غَلَائِلِ مَصْبَغَةٍ وَالْبَعْضُ أَقْصَرُ مِنْ بَعْضٍ^(١)

على أن استحسان القدماء لتشبيهات ابن المعتز ليس لما لها يصف الهلال
ويشبهه بما لا نفاسة فيه في قوله :

وَلَا حِ ضَوْءَ هَلَالٍ كَادَ يَفْضَحُنَا مِثْلَ الْقَلَامَةِ قَدْ قَدَّتْ مِنَ الظَّفَرِ
وَيَقُولُ فِي الثَّرِيَا :

وَأَرَى الثَّرِيَا فِي السَّمَاءِ كَأَنَّهَا قَدِمَ تَبَدَّتْ فِي ثِيَابِ حَدَادٍ
وَرَوَى الْبَيْتَ عَلَى نَحْوِ : كَأَنَّهَا خُرْدُ تَبَدَّتْ فِي ثِيَابِ حَدَادٍ^(٢)

وقد أخذ المتنبي قول ابن المعتز السابق وأنشأ منه بيته

كَأَنَّ بَنَاتَ نَعَشٍ فِي دَجَاهَا خُرَائِدُ سَافِرَاتٍ فِي حَدَادٍ
والتشبيه رائع بديع .

وبنات نعش سبع كواكب معروفة والخرائد : جمع خريدة وهي الجارية
الحسبية والحداد : ثياب سود تلبس عند الحزن والتشبيه يقوم من تشبيه بنات

(١) العملة لابن رشيق ، ٢٣٧/٢ ، وابن المعتز وتراثه في النقد والأدب والبيان ، ص ٢٣٧ ،
٢٣٨ .

(٢) مع المتنبي ، ص ٨٥ .



الصورة البيانية ————— دراستي مسائل علي البيان ————— ❁

نعش في سواد الليل وظلمته بوجوه سافرات في ثياب سود والتشبيه مقلوب قصد به المبالغة ويقول الدكتور طه حسين عن التشبيه هنا : إنه رائع بديع يخلبك بلفظه ومعناه^(١).

هذا وابن المعتز في تشبيهه مصور بارع وهو فني في تصويره وخياله المصور يقدر الأشياء ويقدر الصور بمقدارها ثم يخرجها لك تشبيهات تمثل أصلها مما جعل تشبيهاته به تمتاز بدقة التصوير على نحو أصبح يتفوق به في هذا الاتجاه ويبلغ فيه غاية الإجادة ويتقدم بهذا كثيرا من الشعراء الوصّافين إذ يلتفت إلى كل ما تتطلبه صوره التشبيهية من ألوان وأصباغ فيحقق لها هذا حين يحكم لها ظلالها وأضواءها ويلائم بين ألوانها وأشكالها ويوضح الشبه بين الطرفين مهما اختلفا في الجنس وكثيرا ما كان يجمع بين المتباينات ويؤلف بين المتنافرات مما يدل على لطف النظر ودقة الفكر^(٢).

هذا وما أثير حول بيت أبي نواس من عدم الملاءمة بينه وبين الموقف والحال :

تبكي فتذري الدمع من نرجس وتلطّم الورد بعنّاب
مع رَفَضِ استحسان الإمام عبد القاهر للاستعارة فيه وذلك لعدم الربط بين الصورة والشعور ؛ لأن الدر ، والنرجس ، والورد ، والعنّاب ، والدموع لا يقصد بها في التشبيه سوى الشكل ولا صلة لها بعاطفة الحزن إطلاقا . فالاهتمام قائم على أساس الاحتفال بالأمر الشكلي الحسي والحرفي وعدم الملاءمة للموقف والحال وهو الحزن وعلى ذلك ففيه انفصال بين الصورة والمقام ، ولهذه الرؤية عيب بيت أبي نواس ، ومما هو على مثاله لعدم الملاءمة لعاطفة الحزن وهل كان بيت أبي نواس ممثلا لهذه العاطفة حتى يقال : إن هناك انفصالا بين

(١) انظر ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان ، ص ٢٢٣ .

(٢) انظر التصوير البياني ص ١٢٠ .

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

الصورة والشعور وعلى حدّ ما يقول أستاذنا الأستاذ الدكتور محمد محمد أبو موسى ؟ « هل يتحتّم على الشاعر أن يبكي إذا رأى صاحبتَه تبكي ؟ وهل كان أبو نواس منطفيئ الحسّ ، خامد الشعور فيقع في هذا التصادم العجيب فيذكر الدر والنجس والعناب في سياق حزنه واكتئابه »^(١) ؟

والواقع أن الشاعر رأى صاحبتَه على حالها الذي رآها عليه فأبصر فيها مفاتن للجمال الطبيعي ، وصار هوأها المُلحّ بصورتها تلك يعصف بكيانه . ومشاعره الظامئة تحاول أن ترتوي من جمالها الذي يتغلغل في طوايا قلبه ، ويبعث بالفتنة والإعجاب إلى نفسه من خلال عينيها الساجيتين الكحيلتين وهما تجودان بالدمع في سخاء والذي كان يتألّق على وجهها المتورّد المشرق كأن حبات الجمان شَاهِدَهَا بملء عينيه وقلبه فراعته ما أبصره وشاهده من فتنة وسحر وجاذبية فصور مشاعره وشعوره على نحو ما رآه مما لاح على أسرة وجهها وعينيها ودموعها وأناملها على أن بيت أبي نواس هذا قد أخذه سعيد ابن حميد فقال :

وكانما أثر الدموع بخدها طَلَّ تساقط فوق ورْدٍ يانع

وقال البحتري وقد عكس التشبيه :

شقائق يَحْمِلُن الندى فكأنه دموع التَّصَابِي في حدود الخرائد

فقطرات الندى مشبهة بدموع التصابي وشقائق النعمان بخدود الحسان على أساس فض التركيب .

وقال ابن الرومي في دموع المحبين وقت الفراق والوداع :

كأن تلك الدموع قطر ندى تقطر من نرجس على ورد

فأجاد وأبدع باختصار اللفظ وحسن السبك .

(١) ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان ، ص ٢٣٤ ، ٢٣٥ .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ الْبَيَانِ ————— ❁

وقال ابن المعتز وعكس كالمحتري :

كَأَنَّ أَحْدَارَ الطَّلِّ فِي جَنَابَاتِهَا دُمُوعٌ مَحَبٍّ قَدْ أَضَرَ بِهِ الْهَجْرُ^(١)

فقطرات الطَّل تشبه دموع المحب الذي أضرب به الهجر ومما جاء في هذا على نحو ما قال ابن الرومي قول المتنبي :

تَرْتَوِ إِلَى بَعِينِ الطَّبِيِّ مُجْهَشَةً وَتَمْسَحُ الطَّلُ فَوْقَ الْوَرْدِ بِالْعَنَمِ

مجهشة : متحيرة قد تغير وجهها للبكاء ولم تبك هذا أصل .

وترتو : تنظر . والطل : المطر الصغار أي الخفيف ، والعنم : نبت في الرمل أحمر ، وقال الجوهري هو شجر لين الأغصان يشبه به أنامل الجواري .

فهو قد شبه أربعة بأربعة من غير أن يأتي بكأن أو مثل .

شبهها بالطبي ودمعها بالطل ، وخذها بالورد : وبنائها : مخضوبة بالعنم^(٢) .

ولئن كان لابن المعتز في فن التشبيه إجادة وله به شهرة فإن مرد ذلك إلى موهبته الفنية الذي استطاع من خلالها التعبير عن أسرار الجمال المضمرة في الكون ، وألوان الحسن المبتوثة في الطبيعة وكل ما يسبح فيه خياله ويخلق في صياغة ملهمة ، ومزية ظاهرة إذ يدرك في ذكاء العلاقة بين المواد المحسوسة بعضها وبعض فيصورها على الوجه الأمثل للتصوير بدون إسفاف أو خذلان على أن ألوان البيئة وظلالها كانت ممثلة في صوره ، إذ تأتي انعكاساً لوحياً مصورة على الطريقة المثلى في النظم فتبدو مؤلفة الخلق متلائمة الذوق بفضل ذهنه المتوقد ، وثقافته الواسعة ، ومشاعره المرهفة وفتنته بسحر الجمال وتصوره وتصويره ، ومظاهر الحياة وترف الحضارة الذي عاش فيها ، لذا كان ملهم الشاعرية ينشئ الشعر إشباعاً لعاطفته وتصويراً لما يثير الإعجاب في نفسه ، وما يتردد في صدره من مشاعر وأحاسيس ، وما تفيض به حياته

(١) ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان ، ص ٢٣٤ ، ٢٣٥ .

(٢) ديوان المتنبي ٧/٤ ، والوساطة بين المتنبي وخصومه ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد الجاوي ، ص ٣٢٠ .

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

وتزخر من ألوان الترف ، ورغد العيش ، ومتع الحياة مِنْ كل ما يروع ويدهش مما يبعث البهجة في فؤاده ويشيع اللذة والمتعة في شعوره فكان شعره بصياغته الموهوبة ومزيتة الظاهرة انعكاساً لحياته وحياة أمثاله من المترفين المنعمين وكانت تشبيهاته تتدفق بظل حياته المترفة ، ولذا كانت تفيض بألوان الفتنة والجمال والنعيم وكانت في غالبها تشبيهات حسية ^(١).

وكان ابن المعتز في شعره انعكاساً وثمره لبيئته ، وفي ذلك تأكيد لما قاله ابن طباطبا العلوي من أن العرب أودعت أشعارها من الأوصاف والتشبيهات والحكم ما أحاطت به معرفتها وأدركه عيانها ومرت به تجاربها ... فتضمنت أشعارها من التشبيهات ما أدركه من ذلك عيانها وحسها ... فشَبَّهَت الشيء بمثله تشبيهاً صادقاً على ما ذهبت إليه في معانيها التي أرادتْها ، فإذا تأملتْ أشعارها وقُتِشتْ جميع تشبيهاتها وجدتها على ضروب مختلفة ... ثم يقول : فإذا اتفق لك في أشعار العرب التي يحتج بها تشبيهه لا تتلقاه بالقبول ، أو حكاية تستغريها فابحث عنه ، ونقر عن معناه ، فإنك لا تعدم أن تجد تحته خبيئة إذا أثرتْها عرفت فضل القوم بها ، وعلمت أنها أدق طبعاً من أن يلفظوا بكلام لا معنى تحته . وربما خفي عليك مذهبهم في سنن يستعملونها بينهم في حياة يصفونها في أشعارهم ، فلا يمكنك استنباط ما تحت حكاياتهم . ولا تفهم مثلها إلا سماعاً فإذا وقفت على ما أرادوه لطف موقع ما تسمعه من ذلك عند فهمك ^(٢).

وبمثل هذه النظرة يكون النظر إلى الشعر وما فيه من تشبيهات والحق الذي أراه أن هذا من ابن طباطبا العلوي يفسده التعليق لأنه لم يترك زيادة لمستزيد وقول أبي طالب الرقي :

وكان أجرام النجوم لوامعاً درر نثرن على بساط أزرق

(١) ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان ، ص ٢١٦ .

(٢) عيار الشعر لابن طباطبا ، ص ١٦ ، ١٧ .

الصورة البيانية ————— دراستی في مسائل علی البیان ————— ❁

والمشبه مأخوذ من النجوم المضيئة وصفحة السماء الزرقاء ، والمشبه به الدر المنثور على بساط أزرق ، ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من تفرق أجسام متلائة صغيرة المقدار مستديرة الشكل على صفحة جسم منبسط أزرق اللون .
وقول ابن المعتز :

أنظر إليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر

فالمشبه هو الهلال الذي امتلأ قوسه المضيء بظلام الليل شبه بزورق من فضة مشحون بالعنبر بجامع الهيئة الحاصلة من وجود أجسام مضيئة متقوسّة يملأ فراغ تقوسها أشياء قاتمة سوداء ، وقول الشاعر في وصف الخمر :

كأن الحباب المستدير برأسها كواكب در حشوهن عقيق

فهو يشبه هيئة الفقائيع وهي طافية على كأس الخمر بهيئة كواكب من در منثورة في سماء من عقيق ، والمشبه به خيالي لعدم وجوده بتلك الصورة خارج الأعيان .

فهذه التشبيهات ظهرت فيها الأشياء المعروفة من حيث لا يتصور وجودها في اقترانها وتمثيلها بأشياء جديدة مشاهدة ومرئية واقترانها على هذا النحو يدعو إلى الإثارة والدهشة نتيجة للمفاجأة التي حققها ظهور الشيء من مكان لم يعهد ظهوره فيه ، وخروجه من موضع ليس بمعدن له ؛ لأن هذا مما يشير النفس ويحركها فوجود الشيء في مكان ليس من أمكنته ووجود شيء لم يوجد ولم يعرف من أصله في ذاته وصفته مما يشير التعجب ، ويلفت النظر ، ويدعو إلى الدهشة نتيجة للمفاجأة التي لم تكن تُتَوَقَّع كثمرة لوجود الشيء في مكان ليس من أمكنته ووجود شيء لم يوجد ولم يعرف من أصله ، ولذا كانت صباية النفوس بهذا أكثر ، وكانت بالشغف بها أجدر على حد ما يقول الإمام عبد القاهر وإنما كان هذا الاستحسان لتلك التشبيهات وما هو على مثالها على هذا النحو ؛ لأن في ذلك كشفا وإظهاراً لجوانب مطوية ومستورة من أسرار الحياة والوجود وهو جانب التشابه بين الأشياء مع إنداء بعضها من بعض على

❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

نحو تتلاقى فيه وتتناسب وتتلاءم ولذا كان الحذق وكانت البراعة في أن الشاعر في كده ومواصلة رحلة اجتهاده وكفاحه من أجل سبر أغوار الوجود وإظهار مُخَبَّاتِهِ ومطوَيَّاتِهِ يكشف مشابهات بين الأشياء بعد التَّغْلغل في طواياها وتَأْمُلُها والاستغراب العميق في هذا التأمل ، والنظر الطويل للوصول إلى خصائصها وما بينها من مشابهات موجودة ومحَقَّقة بداخلها ؛ لذا هو يظهرها ولكنه لا يخلقها وهذه الصلات والمُشابهات التي اكتشفت تجعل الأشياء يدنو بعضها من بعض ويقترَب في تلاؤم وتناسب بين المختلفات في الأجناس في شَبَهٍ صحيح وارتباط سليم مهما يكن خفاؤه وعدم وضوحه ولا ظهوره فإدراك المُشابهات الخفية تستوجب الفضل وتَسْتَحِقُ الثناء والحمد ؛ لأن الوصول إلى هذا وتَحَقُّقُ إدراك ما بين المختلفين في الجنس من شبه إنما يَكُونُ بعد بذل الجهد ، ورشح الجنين ، والتغلغل في مطاوي الأشياء والتدقيق في معانيها لكشف ما بينها من صلات ومُشابهات ، ولذا نرى الإمام عبد القاهر يبين أن المدقق في المعاني يُشَبِّهُ بالغائص على الدرّ ^(١) فالأمر ليس خَلْقًا لمُشابهات لم تكن من قبل موجودة وإنما الأمر قائم على أساس كشف لهذه المُشابهات المحقَّقة بالفعل بين الأشياء ومن ثمَّ فإنه لا يضاف إلى الواقع إضافات جديدة لم تكن موجودة بينها والكدح والاجتهاد إنما يكونان في كشفها والوصول إليها ، ولذا يجب أن يتوثق لدينا ويتأكد أن كل جمع بين المختلفات لكي يحدث تأثيره في النفس ، ويكون مقبولا لديها لابد أن يحقق بين المختلفين شَبَهاً صحيحاً ، وملاءمة مقبولة ، واثلاًفاً حسناً حتى لا تخرج صورة التشبيه مضطربة فيها نُتَوُّ ويكون للعين من تفاوتها نُبوٌّ على نحو ما يقول الإمام فتصوير الشيء من حيث لا يمكن أن يتصور مرفوض وغير مقبول ؛ لأنه بمثابة أن يضع الصائغ في تأليفه وصوغه الشكل بين شكيلين لا يلائمانه ولا يقبلانه وبذلك تهتز الصورة وتضطرب ، وتُرفُض ولا تُقبَلُ ذلك أن التشبيه لمح صلة

(١) انظر أسرار البلاغة ، ص ١٥٢ .

الصورة البيانية ————— دراستي في مسأله البيان ————— ❁

وشبه بين أمرين وعليك أن تظهر هذا الشبه وهذه الصلة ، فإن لم يكن هناك شبه فماذا تبين ؟ وما وظيفة التشبيه عندئذ ؟

وترى هذا على أحسن ما يكون في بيت عدي بن الرقاع الذي حسده جرير على براعة التشبيه الذي فيه وقد سبق الحديث عنه وهو :

ترجي أغنَّ كأن إبره روقه قلم أصاب من الدواة مداها

وإنما حسده جرير لأن عدياً قد وقع على مشبه به لم يكن يخطر على بال جرير أنه سيفظف به ويهتدي إليه لأنه جلف ومع شدة مباينة المشبه به للمشبه واختلافهما الشديد في الجنس إلا أنه متوافق معه في الهيئة والوصف فكلاهما أسود مع دقة في الطرف في شكل معين . والمسافة بين إبره روق الغزال والقلم الذي أصاب من الدواة مداها طويلة وبعيدة جداً وهكذا ترى التشبيه هنا وقد أحسن في الجمع بين المتباينين المتباعدين وأصاب فضاعف فينا الشعور بالجمال والإحساس به . وروعة جماله وحسنه آتية من هذا الائتلاف بين المتباينين على نحو يسترق الأهواء بسحر بيانه ، وجودة تأليفه ، فالتشبيه لا يعمل عمل السحر في تأليف المتباينين حتى يختصر لك بعد ما بين المشرق والمغرب ويجمع ما بين المشم (من أتى من الشام) والمعرق (من أتى من العراق) ... ويريك التئام عين الأضداد فيأتيك بالحياة والموت مجموعين ، والماء والنار مجتمعين^(١) .

ومن هذا تشبيه الشيء بأمرين متضادين لوجود شبه بينه وبين كل منهما تشبيهاً بليغاً وقد مثل الإمام لذلك بقوله في الممدوح هو حياة لأولياته موت لأعدائه كما مثل للماء والنار مجتمعين بقول الشاعر :

أنا نار في مرتقى نظر الحما سد ماء جار مع الإخوان

شبه نفسه بالنار في الإيلام وبالماء في اللطف والصفاء .

* * *

(١) أسرار البلاغة ص ١٣٢ .

عيوب التشبيه

والمراد بعيوب التشبيه عدم وفائه بالغرض الذي سيق له ولأنه لون من ألوان التصوير الفني البديع تتجلى فخامته ، وتبدو عظمتة حين يوظف التوظيف الصحيح ، وذلك بأن يكون مُصَيِّباً ، دقيق الأداء محققاً للغرض الذي شُكِّلَتْ صورته من أجله ؛ لذا يهز النفس ، ويشير الوجدان لحسن خياله ، وجمال تصويره ، وسحر بيانه ، فإذا لم ينهض بالغرض كان معيباً وعيوب التشبيه مردّها إلى الصياغة والخيال والمقاييس البلاغية التي يتأسس بها ويقوم عليها ويرى ابن الأثير أن التشبيه لكي يكون مصيباً ينهض بما وظف له ، فإن عليه ألاّ يتجاوز الأصول البلاغية وألاّ يتخطاها ولتحقيق ذلك يرى ابن الأثير « أن يشبه الشيء الشيء بما هو أكبر منه وأعظم » ويوضح في سبيل ذلك عدم سداد رأي من يقول : « إن من شرط بلاغة أن يشبه الأصغر بالأكبر وذلك » لأن التشبيه يأتي تارة في معرض المدح وتارة في معرض الذم وتارة في غير معرض مدح ولازم وإنما يأتي قصداً للإبانة والإيضاح ولا يكون تشبيه أصغر بأكبر كما ذهب إليه من ذهب ، بل القول الجامع في ذلك أن يقال إن التشبيه لا يعتمد إليه إلا لضرب من المبالغة فإما أن يكون مدحاً أو ذمّاً أو بياناً وإيضاحاً ولا يخرج عن هذه المعاني الثلاثة^(١).

هذا وأبو هلال العسكري يبين فضل التشبيه فيقول : « والتشبيه يزيد المعنى وضوحاً ويكسبه تأكيداً وهذا ما أطبق جميع المتكلمين من العرب والعجم عليه »^(٢) ... « والتشبيه يقبح إذا كان على خلاف ذلك » من إخراج الظاهر فيه إلى الخافي ، والمكشوف إلى المستور والكبير إلى الصغير كما قال النابغة :

(١) المثل السائر ص ١٥٣ .

(٢) الصناعتين ص ٢٦٥ .

الصورة البيانية ————— دراستي في مسأله البيان ————— ❁

تخدي بهم أدم كأن رَحالها علق أريق على مُتون صُوار

تخدي من الخلدو وهو سرعة السير من البعير وغيره مع زج قوائمه .

والأدم : الإبل التي في لونها أدمة أي سمرة والعلق : الدلو .

والمتن : الظهر . والصُوار بكسر الصاد وضمها : القطيع من البقر ، فتشبيه الرّحال بالعلق وهو الدلو من التشبيه الذي لا يقبل ؛ لأن المسافة بين المشبه به والمشبه بعيدة ، ولذا عيب التشبيه وقال خفاف بن ندبة :

أبقي لها التعداء من عتاداتها ومتونها كخيوطه الكتان

والعتادات : القوائم أراد أن قوائمه دقت كأنها خيوط الكتان ، وتشبيه القوائم بخيوط الكتان من التشبيه البعيد لتشبيه الكبير بالصغير فلا تناسب بين الطرفين ولا مقارنة ^(١) .

ومما لا شبه فيه ولذا عيب قول ساعدة بن جؤية :

كسأها رطيب الريش فاعتدلت لها قداح كأعناق الظباء الفوارق

شبه السهام بأعناق الظباء وليس بينهما شبه ولو صفها بالدقة لكان أولى .

ومن معيب التشبيه :

وجرّ الرامسات بها ذيولاً كأن شمالها بعد الدبور

رمادّ بين أظفار ثلاث كما وشم النواشر بالنّور ^(٢)

الرامسات : الرياح الدوافن للآثار والدبور : ريح تهب من المغرب ، والأظفار جمع ظأر وهو المثل . والنّور : دخان الشحم يُعالج به الوشم ليخضر .

والتشبيه معيب لتسببه الشمال والدبور بالرماد وهو بعيد لعدم الشبه بين المشبه به والمشبه .

(١) الصناعتين ، ص ٢٨٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٨١ .

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

ومن التشبيه المعيب قول الفرزدق :

يمشون في حلق الحديد كما مشت جربُ الجمال بها الكحيل المشعل

شبه الرجال في دروع الزرد بالجمال الجرب ولا مناسبة بين الطرفين فهو من التشبيه البعيد ؛ لأنه إن أراد السواد فلا مقارنة بينهما في اللون لأن لون الحديد أبيض ومن أجل ذلك سميت السيوف بالبيض ويقول ابن الأثير ومع كون هذا التشبيه بعيداً فإنه تشبيه سخيف»^(١).

وقد عاب الأصمعي بين يدي الرشيد قول النابغة كما قال ابن رشيق :

نظرتُ إليك بحاجة لم تقضها نظرَ السَّقيم إلى وجوه العود

أي نظرت إليك نظراً خائفاً مُراقباً وأرادت كلامك وهو حاجتها ولم تقدر على ذلك وقوله : لم تقضها : يعني أن المرأة لم تقدر على الكلام لخوفها من أهلها ولا يشفع لهذا التشبيه قول الأصمعي على أنه تشبيه لا يلحق ولا يشق غبار صاحبه ولم يجد فيه المطعن إلا بذكر السقم ؛ فإنه رغب عن تشبيه المحبوبة به لعدم اللياقة بين نظرها ونظر السقيم ، ولذا فضل عليه قول عدي ابن الرقاع العاملي :

وكأنها وسط النساء أعارها عَيْنُهُ أَحْوَرُ مِنْ جَاذِرِ جَاسِمٍ

وسنان أقصده النعاس فرنقت في عينه سنة وليس بنائم

أقصده النعاس أي ليس من عينه ، ورنقت العين : انكسر طرفها .

فقد شبه عينها بعينيّ ظبي أَحْوَرٍ مِنْ جَاذِرِ جَاسِمٍ وسنان وعيناه قد أقصدهما النعاس فظهر ما بهما من تكسرٍ وفطورٍ وَوَصَفَ حالة العين حين يعلو عليها النوم فتحاول مقاومته فتغالبه فرنقت في عينه سنة وليس بنائم .

ومما عيب فيه التشبيه لذكر كلمة ينبو بها المقام ولا تتلاءم وتتناسب معه

قول صريع الغواني :

(١) المثل السائر ، ص ١٦١ .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دُرِّسَتْ فِي مَسَائِدِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي تَالِبٍ ————— ❁

فلطت يأيدها ثمر نحورها .: كأيدي الأسارى أثقلتها الجوامع

والجوامع الأكبال والقيود ، ولطت بمعنى أخفت وستر .

فتشبيه يديها وهي تلط بها ثمار نحورها كأيدي الأسارى أثقلتها الأكبال والقيود مما لا يتلاءم مع الموقف أو يتناسب معه ، فذكر كلمة «الأسارى» مع ذكر الحبيبة مردود لنبو النفس عنه على حد ما ذكر ابن سنان وقد بين أن من شروط فصاحة الكلمة «ألا تكون الكلمة قد عبر بها عن أمر آخر يكره ذكره فإذا أوردت وهي غير مقصود بها ذلك المعنى قبحت وإن كملت فيها الصفات التي بينها»^(١).

ويقصد الصفات التي جعلت شرطاً لفصاحة الكلمة فابن سنان يرى أن التشبيه قد يحقق الغرض ويصبيه ولكنه يرد ولا يقبل لوجود كلمة تنبو عنها النفس في صياغته وتشكيله ، فالكلمة التي شاع استعمالها في معنى كرهه حين تستعمل في غيره يُردّ التشبيه بسببها ولا يقبل ؛ لأنها لا يمكن لها أن تتخلّص من المعنى الذي كانت تدل عليه ؛ لأنه ملتصق بها على نحو لا تستطيع أن تتخطاه أو تتجاوزه .

ومن ذلك لفظ «الكنيف» في قول عروة بن الورد العبسي :

قلت لقوم في الكنيف ترّوحوأ عشيّة بتنا عند ماوان رزح

ومأوان : قرية من أرض اليمامة ، وقوم رزح : صعاليك ، فلفظ «الكنيف» بمعنى الساتر والتُّرس ، ويقال : تُرسٌ كنيف غير أن هذا اللفظ قد استعمل في الآبار التي تستر الحدث وشهر بها فالتصقت به هذه الدلالة الكريهة مما أفقد اللفظ شرط الفصاحة . ومما هو قائم ومحقق في التشبيه فعيب بسببه لفظ «الدلو» في قول أبي تمام :

متفجّر نادمته فكأنني لللدلو أو للمرزمين نديمٌ

(١) سر الفصاحة ، ص ٨٥ .

❁————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ —————❁ دراسة في مسائل علم البيان

والمرزمان : نجمان من نجوم المطر .

فالمقصود « بالدلو » هنا أحد البروج وفيه معنى العلو والرفعة والشموخ ولكن لأن استعماله شائع في الدلو المعروف بدلالته الكريهة لم يحسن أو يجمل تشبيه الرجل العظيم بالدلو في الارتفاع ، فابن سنان يقول : « فالدلو هاهنا أحد البروج ولا أختاره لموافقته اسم الدلو المعروف . وأنت تجد بأقرب تأمل فرق ما بين قول القائل لمن يمدحه أنت المرزم جودا ، والجنة لمن تقصده الأيام عزا - وبين قوله - أنت الدلو كرمًا والكنيف لطريد الدهر سعة والمعنيان صحيحان وحسن أحدهما وقبح الآخر ظاهر لا خفاء به ولولا ما ذكرته ونهت عليه لم يكن لذلك وجه ولا علة»^(١).

وما ذكره ونبه عليه أن من شروط فصاحة الكلمة وقبولها ألا تكون الكلمة قد استعملت وشاع هذا الاستعمال في معنى كرهه سواء كان هذا الاستعمال في التشبيه أو في أي شيء آخر من وجوه الاستعمالات ، ومن التشبيه المعيب لبعده ما بين المشبه والمشبه به قول أعرابي :

وما زلت ترجو نيل سلمى ووُدّها وتبعدُ حتى ابيضّ منك المسايحُ
ملا حاجيك الشيبُ حتى كأنه طباءُ جرت منها سنيحُ ورباحُ

ملا أصلها ملأ وسهلت الهمزة للضرورة الشعرية . والمسايح : جوانب الرأس . والسانح من الطباء والطير خلاف البارح يقال :

مرّبه الطائر سانحا وسنيحا عن يمينه وبارح مرور الطائر عن شماله ، ويقال جرى له البارح أي الطائر الأشأم والعرب تتيمن بالسانح وتطير وتتشاءم بالبارح فشبّه شعرات بيضا في حاجبيه بظباء سوانح وبوارح تمر عن يمينه وشماله وأنت ترى أن هذا من بعيد التشبيه ويذكر أبو هلال أيضاً قول أبي تمام :

(١) سر الفصاحة ، ص ٨٦ .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دُرُوسَةٌ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ❁

كَأَنِّي حِينَ جَرَدْتُ الرِّجَاءَ لَهُ عَضْبٌ صَيْتُ بِهِ مَاءَ رِجَائِي
فَتَجَرِيدُ الرِّجَاءِ كَمَاءِ الْمَلَامِ مِنَ التَّشْبِيهِ الْبَعِيدِ وَتَشْبِيهِ الرِّجَاءِ بِالْعَضْبِ وَهُوَ
الْحَادُّ مِنَ التَّشْبِيهِ الْبَعِيدِ وَيَقُولُ أَبُو هَلَالٍ فِي هَذَا التَّشْبِيهِ « وَلَا يَكَادُ يَرَى تَشْبِيهِ
أَبْرَدَ مِنْ هَذَا » ^(١).

وَمِمَّا عَدَّهُ ابْنُ سَنَانٍ الْخَفَاجِي مِنْ رَدَى التَّشْبِيهِ قَوْلَ الْمُرَّارِ ^(٢).
وِخَالَ عَلَى خَدِّكَ يَدُو كَأَنَّهُ سَنَا الْبَدْرِ فِي دَعَجَاءٍ بَادٍ دُجُونَهَا
لَأَنَّ الْخُدُودَ بَيِضٌ وَالْمَتَعَارِفَ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ الْخَالُ أَسْوَدَ وَالشَّاعِرَ هُنَا يَشْبَهُ
الْخَالَ بِسَنَا الْفَجْرِ أَيْ ضَوْئِهِ وَالْخَدَّيْنِ بِظُلْمَةِ اللَّيْلِ ، وَلِذَا فَالتَّشْبِيهِ قَدْ نَاقَضَ
الْعَادَةَ وَخَالَفَهَا فَهُوَ مُرْدُودٌ وَغَيْرُ مَقْبُولٍ وَذَلِكَ لِتَشْبِيهِهِ الْخُدُودَ بِاللَّيْلِ وَالْخَالَ
بِضَوْءِ الْبَدْرِ .

وَمِنَ التَّشْبِيهِاتِ الَّتِي عَدَّهَا ابْنُ طَبَّاطِبَا مِنَ التَّشْبِيهِاتِ الْبَعِيدَةِ الَّتِي لَمْ يُلَظَّفَ
أَصْحَابُهَا فِيهَا وَلَمْ يَخْرُجْ كَلَامُهُمْ فِي الْعِبَارَةِ عَنْهَا قَوْلُ النَّابِغَةِ الْجَعْدِيِّ:
كَأَنَّ حِجَاجَ مَقْلَتِهَا قَلِيبٌ مِنْ السَّمِيقِ أَخْلَقَ مُسْتَقَاهَا ^(٣)
وَالْحِجَاجُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ حَرْفُهُ وَنَاحِيَّتُهُ وَعَظْمُ الْحَاجِبِ وَهُوَ الْمُرَادُ هُنَا ،
وَالْقَلِيبُ الْبُئْرُ وَيَجْمَعُ عَلَى قَلْبٍ وَأَقْلَبَهُ . وَالسَّمِيقَانِ عُودَانِ فِي النَّيْرِ قَدْ لُوقِيَ بَيْنَ
طَرَفَيْهِمَا يَحِيطَانِ بَعْنَ الثَّوْرِ كَالطُّوقِ وَالسَّمِيقُ يَجْمَعُ عَلَى أَسْمَقَةٍ وَمُسْتَقَاهَا :
مَوْضِعُ السَّقِيِّ وَالْمُرَادُ بِالمَاءِ فَتَشْبِيهِ الْحِجَاجِ بِالْقَلِيبِ مِنَ التَّشْبِيهِ الْبَعِيدِ وَيَقُولُ
ابْنُ طَبَّاطِبَا ، وَالْحِجَاجُ لَا يَغُورُ لِأَنَّهُ الْعَظْمُ الَّذِي يَنْبُتُ عَلَيْهِ الشَّعْرُ .
وَالْتَّشْبِيهِ الَّذِي أَسَاءَ فِيهِ أَبُو نَوَاسٍ كَمَا يَقُولُ ابْنُ الْأَثِيرِ قَوْلُهُ فِي الْخَمْرِ :
وَإِذَا مَا الْمَاءُ وَقَعَهَا أَظْهَرْتَ شَكْلًا مِنَ الْعَزَلِ

(١) انظر في هذا وما قبله الصناعتين ، ص ٢٨٢ .

(٢) سر الفصاحة ، ص ٢٥٤ .

(٣) عيار الشعر ، ص ٩٤ .

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

لَوْلَؤَاتِ يَنْحُدْرْنَ بِهَا ————— كَانَحْدَارُ الذَّرْمَنِ جَبَلٌ

فشبهه الحبَّ في انحداره بنمل صغار ينحدرن من جبل وهذا من البعد على غاية لا يحتاج إلى بيان وإيضاح ^(١).

ومن التشبيهات التي ردّها ابن رشيق لعدم الصحة في الغرض الشعري وذلك لنبو النفس عنها وعدم طيبها لديها ولا ارتياحها لها ولا قبولها عندها قول أبي محجن الثقفي في وصف قينة :

وَتَرْفَعُ الصَّوْتَ أَحْيَانًا وَتُخَفِّضُهُ كَمَا يَطْنُ ذُبَابُ الرُّوْضَةِ الْغَرْدِ

فتشبيهه صوت المغنية في ارتفاعه وانخفاضه وهي تغني بطنين الذباب الغرد في الروضة مهما تكن إصابة الشبه قد تحققت فيه إلا أن النفس لا تستطيعه ولا تستملحه وإنما تتقرّز منه ، وتنفر من سماعه ممّا جعل ابن رشيق يقول :

فَأَيُّ قَيْنَةٍ تَحِبُّ أَنْ تُشَبَّهَ بِالذَّبَابِ ؟ ^(٢) ويشبهه صوتها في الغناء بطنين ، وقد أخذ أبو محجن بيت عنتره وهو يصف ذباب روضة فقلبه وأفسده .

وَحَلَا الذَّبَابُ بِهَا فَلَيْسَ بِيَارِحٍ غَرْدًا كَفَعَلِ الشَّارِبِ الْمُتَرْنَمِ

هذا وقد يتحقق الشبه بين طرفين متباعدين ويحكم على مثل هذا التشبيه بالسقوط لنبو النفس عنه ، وعدم ارتياحها له ، ولا لقبوله مثل قول امرئ القيس :

وَتَعْطُو بِرُخْصٍ غَيْرِ شَثْنٍ كَأَنَّهُ أَسَارِيْعُ ظُبْيٍ أَوْ مَسَاوِيْكُ إِسْحَلٍ

فامرؤ القيس يتحدث عن صاحبه ويبين أنها تتناول الأشياء بأصابع رخصة لينة وناعمة ثم يشبه أنامل تلك الأصابع بدور الرمل في اللون أو المساويك المصنوعة من شجر الإسحل فقد يكون تشبيه البنان بهذا النوع من الدود مصيباً من جهة اللون واللين والاستواء ولكن صورة الدود لا تفارق الذهن ولا تبرحه وهي تستدعي إلى النفس النفور والاشمئزاز لذا يرد التشبيه لقبحه وردائه أما

(١) المثل السائر ، ص ١٦١ .

(٢) العملة ، ٣٠٢/١ .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دُرُوسَةٌ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ❁

تشبيه الأصابع بمساويك الإسحل فهو مقبول لأن البنان قريب الشبه من أعواد المساويك ، ولذلك يقول ابن رشيق: « فالبنانة لا محالة شبيهة بالأسروعة وهي دودة تكون في الرمل وتسمى جماعتها بنات النقا وإياها عني ذو الرمة بقوله :
خَرَا عَيْبُ أَمْثَالٍ كَأَن بَنَانَهَا بَنَاتُ النِّقَا تَخْفِي مَرَارًا وَتُظْهِرُ

فهي كأحسن البنان لينا ، وبياضاً ، وطولاً ، واستواء ، ودقة ، وحمرة رأس كأنه ظفر قد أصابه الحناء وربما كان رأسها أسود إلا أن نفس الحضري إذا سمعت قول أبي نواس في صفة الكأس :

تُعَاطِيكَهَا كَفَ كَأَن بَنَانَهَا إِذَا اعْتَرَضَتْهَا الْعَيْنُ صَفٌّ مَدَارِي
..... كان ذلك إليها من تشبيه البنان في بيت امرئ القيس وإن كان تشبيهه أشد إصابة .

ومن هذا اللون من التشبيه الذي تتحقق فيه الإصابة لكمال التشابه بين الطرفين من ناحية اللون ولكنه مرفوض غير مقبول لأن وقع المشبه به على النفس فيه بشاعة ونفرة وذلك لذكر الدماء فهي تمجّه وتستكره ومن ثم يفقد خلاسته وتأثيره وسحره ولذا نرى ابن رشيق وهو يقول : « وقدم قوم قول الآخر يصف روضاً :

كَأَن شَقَائِقَ النِّعْمَانِ فِيهِ ثِيَابٌ قَدْ رَوَيْنَ مِنَ الدِّمَاءِ
فهذا وإن كان تشبيها مصيبا فإن فيه بشاعة ذكر الدماء ولو قال من العصفرة مثلاً أو ما شاكله لكان أوقع في النفس وأقرب إلى الأنس»^(١).

ومن التشبيهات التي عيبت لوقوع خطأ في المعنى على نحو ما يذكر أبو هلال قول امرئ القيس :

أَلَمْ تَسْأَلِ الرَّبْعَ الْقَدِيمَ بَعْسَعَسَا كَأَنِّي أَنْادِي إِذَا أَكَلِمَ أُخْرَسَا

(١) العملة ، ٢٩٩/١ ، ٣٠٠ .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ —————﴾ دَرَسَتُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

عسّس : جبل بالبادية :

فأبو هلال يرى « أن الكلام ألفاظ تشتمل على معان تدل عليها ويُعبّر عنها فيحتاج صاحب البلاغة إلى إصابة المعنى كحاجته إلى تحسين اللفظ ؛ لأن المدار بعد على إصابة المعنى » وإنما تتحقق هذه الإصابة حين يكون المعنى صحيحاً لا خطأ فيه هذا وقد عد أبو هلال التشبيه في البيت المذكور تشبيهاً فاسداً ذلك أن امرأ القيس في سؤاله لنفسه عن سؤالها للربع ما خالف عادة العرب ولا ناقضها وإنما مضى على سنتهم وطريقتهم من مخاطبتهم من لا يخاطب ، ومن سؤالهم للربع عن أهله ومن ثووا وأقاموا به ، والشاعر هنا يسأل نفسه عن سؤالها للربع القديم وذلك شيء لا ترفضه طبيعة الفن الشعري التي جرت العادة فيه على سؤال الطلول وعلى الاستفسار منها ، أو استدعاء الصحب ، والرفاق للوقوف في ربعها ، أو دعوتهم للبكاء عليها ، أو تحيتها ، أو الأمر بذلك وسؤالها وطلب السقيا لها ولكن الخلل الذي جاء من أن الشاعر في التشبيه كأنه شبه الشيء بنفسه في قوله :

كأنّي أنادي إذا أكلم أخرسا

ولذا يقول أبو هلال بعد أن ذكر البيت : « هذا من التشبيه فاسد لأجل أنه لا يقال كلمت حجرا فلم يجب فكأنه كان حجرا ، والذي جاء به امرؤ القيس مقلوب ... وتبعه أبو نواس فقال يصف دارا :

كأنّها إذ خرست جارم^(١) بين ذوي تفنيده مطرق

والجيد منه قول كثير في امرأة :

فقلت لها يا عزّ كل مصيبة إذا وطّنت يوما لها النفس ذلت

كأنّي أنادي صخرة حين أعرضت من الصّمّ لو تمشي بها العُصم زلت

(١) الجارم : من اقترف الذنب .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ الْبَيَانِ ————— ❁

فشبه المرأة عند السُّكوت والتغافل بالصخرة»^(١).

هذا وقد عيب قول أبي نواس في صفة الأسد^(٢).

كَأَنَّمَا عَيْنُهُ إِذَا نَظَرَتْ بَارِزَةُ الْجَفْنِ عَيْنٌ مَخْنُوقٌ

لأنه وصف عين الأسد بالجحوظ ولا يوصف الأسد بجحوظ العين ، بل يوصف بغثورها فجعله عين الأسد بارزة وتشبيهه لها بعيون المخنوق يعد من الخطأ في معنى الوصف .

ومن التشبيهات التي عيبت لمجافاتها ما يجب أن يقال في مثل هذا ما ذكره المرزباني في الموشح عن بشار الذي أُشيد له بيت كثير :

أَلَا إِنَّمَا لَيْلَى عَصَا خَيْرَانَةٍ إِذَا غَمَزُوهَا بِالْأَكْفِ تَلِينُ

فضحك وقال : لله أبو صخر جعلها عصاً ثم يعتذر لها ، والله لو جعلها عصا مخ أو عصا زبد لما كان إلا مخطئاً مع ذكر العصا ألا قال كما قلت^(٣).

وَبِيضَاءِ الْمِدَامِ مِنْ مَعْدٍ كَأَن حَدِيثَهَا ثَمَرُ الْجَنَانِ

إِذَا قَامَتْ لَصُحْبِهَا تَشَّتْ كَأَن عَظَامَهَا مِنْ خَيْرَانِ

يَنْسِيكَ الْمَنَى نَظْرُ إِلَيْهَا وَيَصْرِفُ وَجْهَهَا وَجْهَ الزَّمَانِ

فالشاعر قد أساء بذكر لفظ «العصا» لعدم اللياقة فكلمة العصا قد جافت حقيقة الموقف وما يستدعيه من التغني بمفاتن المرأة ، وذكر محاسنها و«العصا» التي شبهها بها لا تصلح صفة للمرأة ولا لشيء يتصل بها وفيها من الجلافة وعدم الذوق وقلة الوعي بطبيعة الأنثى ما يستوجب رفضها ، وعدم القبول بها حتى وإن جعلت العصا عصاً من خيران . لما ترمز إليه ، وتوحي

(١) الصناعتين ٨٤-٨٦ .

(٢) الصناعتين ص ١٣٤ .

(٣) الموشح ، ص ١٩٠ .

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

به من الهزال الشديد والضعف والضمور مع شدة الجفاف وقوله : إذا غمزوها بالأكف تلين مما يومئ إلى وصفها بالابتذال والمهانة والضَّعة . أما بشار فقد عرف طبيعة المرأة وما يصح أن يقال فيها وما يصح وما يُقبل وما يرفض فعنّى بهذا وغرّد ؛ لذا لم يشبه فتاته بالعصا كما فعل غيره ولم يشبهها مكتملة بالخيزران وإنما شبه عظامها بالخيزران فهي إذاً غصن البان ليناً وتشيّاً ، والأملود غضارة ، والورد نضرة وجمالاً .

وبعد

فما ذكرته هنا مجرد نماذج من التشبيهات التي ردها النقاد لقبحها ولما بها من عيب وهي أكثر من أن يحصرها العدّ وإنما يردّ التشبيه ويرفض لعيب في المعنى ، أو لعدم ائتلاف اللفظ مع الوزن ، أو لعيب في الصياغة ، أو لذكر لفظ تنبو عنه النفس أو تستبشعه وغير ذلك .

* * *

التشبيه القريب المبتذل والبعيد الغريب

التشبيه القريب المبتذل عرفه الخطيب فقال : والقريب المبتذل وهو ما يُنْتَقَلُ فيه من المشبه إلى المشبه به من غير تدقيق نظر لظهور وجهه في بادئ الرأي^(١). ويلاحظ هنا أنه جعل القريب والمبتذل شيئاً واحداً كما جعل البعيد والغريب كذلك أي شيئاً واحداً وعرف البعيد الغريب فقال : والبعيد الغريب وهو ما لا يُنْتَقَلُ فيه من المشبه إلى المشبه به إلا بعد فكر لخفاء وجهه في بادئ الرأي .

على أن الإمام عبد القاهر قد عقد فصلاً لبيان الفرق بين التشبيه القريب أو المبتذل أو العامي ، والتشبيه البعيد أو النادر أو الخاصي ، وبين أن المعنى الجامع في سبب الغرابة أن يكون الشبه - يقصد وجه الشبه - المقصود من الشيء مما لا يتسرع إليه الخاطر ، ولا يقع في الوهم - الخاطر - عند بديهته النظر إلى نظيره الذي يشبه به بل بعد تثبت وتذكر وفلي للنفس عن الصور التي تعرفها ، وتحريك للوهم في استعراض ذلك واستحضار ما غاب منه^(٢).

ومعنى هذا أن التشبيه البعيد هو ما لا يُنْتَقَلُ فيه من المشبه إلى المشبه به إلا بعد تلبّث ، وتذكر ، وفكر للنفس في الصور التي تعرفها ؛ لأن وجه الشبه في المشبه به مما لا ينزع إليه الخاطر ولا يقع في الوهم عند بديهته النظر إلى المشبه ويفهم من تعريف الإمام عبد القاهر للتشبيه البعيد معنى التشبيه القريب ، والتشبيه القريب هو ما ينتقل فيه من المشبه إلى المشبه به من غير حاجة إلى تلبّث وتذكر لأن وجه الشبه في المشبه به مما يسرع حضوره إلى الخاطر عند النظر إلى المشبه .

(١) بغية الإيضاح ، ص ٦٣ .

(٢) أسرار البلاغة ، ص ١٥٧ .

❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

وفي نهاية الإيجاز للإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازي نراه يعقد فصلاً في تقسيم لوجه المشابهة اقتصر فيه على القريب والغريب من غير نظر إلى الابتذال والبعد ويكون القريب في مقابلة البعيد والقريب عند الرازي ما يخطر ببالك عند ذكر المشبه كنظرك إلى استدارة الشمس فإنها تذكرك بالمرأة المجلوّة وإذا نظرت إلى الوشّى وطلبت له شبيهاً خطر في ذهنك الروض الممطور المفتّر عن أزهاره المبتسم عن أنواره وإذا نظرت إلى السيف الصّقيل عند سله تذكرت لمعان البرق .

أما الغريب فهو الذي تحتاج في إدراكه إلى دقة نظر ، وقوة فكر كشبيهه الشمس بالمرأة في كف الأشل^(١).

وابن يعقوب يرى أن الابتذال هو الامتهان وذلك لكثرة الاستعمال ويقسم التشبيه باعتبار الوجه إلى قريب مبتذل وبعيد غريب وأن القريب المبتذل يقابله البعيد الغريب تقابلاً حقيقياً^(٢).

وبهاء الدين السبكي يقسم التشبيه باعتبار الوجه إلى تشبيه قريب وهو الممتهن المستعمل وتشبيه بعيد أي غريب مستعمل^(٣) للخاصة كما يرى أن القريب ما يحصل من غير تدقيق نظر والبعيد ما كان كثير التفصيل أو قليله إلا أن المشبه فيه غير غالب الحضور والغريب في البعيد الغريب مقابل للمبتذل والمراد بالغرابة قلة الاستعمال^(٤).

والبلاغيون من خلال هذا التقسيم إنما يتجهون لوزن التشبيه والحكم له أو عليه من خلال استمداده لصوره التي يتشكل منها فما كان من الأشياء المطروحة في الطريق والتي تقع في مطارح الأبصار، وتتردّد كثيراً على الألسنة،

(١) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ص ٧٠ ، ٧١ .

(٢) مواهب الفتاح ، ٤٤٨/٣ .

(٣) عروس الأفراح ، ٤٤٢/٣ .

(٤) السابق ، ٤٤٨/٣ ، ٤٤٩ .

الصورة البيانية ————— دراستي مسائل علي البيان ————— ❁

وتجري بها الأقلام ، وتدرّكها الحواس غالب الأوقات ومعظمها هي من التشبيهات النازلة التي لا تحتاج إلى دقة نظر ، أو إعمال فكر وطول تأمل . وأن التشبيهات التي رسمت صورها من أشياء يندر أن ترى أو تقل هي من التشبيهات العزيزة الغالية . يقول الإمام عبد القاهر « إن كل شبه رجع إلى وصف أو صورة أو هيئة من شأنها أن ترى وتبصر أبداً ، فالتشبيه المعقود عليه نازل مبتذل ، وما كان بالضد من هذا وفي الغاية القصوى من مخالفته ، فالتشبيه المردود إليه غريب نادر بديع ، ثم تتفاضل التشبيهات التي تجيء واسطة لهذين الطرفين بحسب حالها منهما ، فما كان إلى الطرف الأول أقرب فهو أدنى وأنزل ، وما كان إلى الطرف الثاني أذهب فهو أعلى وأفضل وبوصف الغريب أجدر»^(١).

هذا ونحن نرى ابن طباطبا وهو يشير إلى منابع الشرة التي يستقي منها العرب تشبيهاتهم على نحو ظاهر وجليّ فيقول : « واعلم أن العرب أودعت أشعارها من الأوصاف والتشبيهات والحكم ما أحاطت به معرفتها ، وأدركه عيانها ، ومرت به تجاربها ، ثم يقول : فتضمنت أشعارها من التشبيهات ما أدركه من ذلك عيانها وحسها إلى ما في طبائعها وأنفسها من محمود الأخلاق ومذمومها في رخائها وشدتها ورضاها وغضبها ، وفرحها وغمها ، وأمنها وخوفها ، وصحتها وسقمها ، والحالات المتصرفة في خلقها من حال الطفولة إلى حال الهرم ، وفي حال الحياة إلى حال الموت ، فشبهت الشيء بمثله تشبيهاً صادقاً على ما ذهبت إليه في معانيها التي أرادت ، فإذا تأملت أشعارها ، وفشّنت جميع تشبيهاتها وجدتها على ضروب مختلفة تتدرّج أنواعها فبعضها أحسن من بعضه ، وبعضها ألطف من بعض»^(٢).

(١) أسرار البلاغة ، ص ١٦٥ .

(٢) عيار الشعر ، ص ١٦ ، ١٧ .

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

على أن هذه الأشياء كانت رافداً عذباً أمدَّ القريحة السخية عند الشعراء الموهوبين بالومضات الروحية التي أشرقت فيها نفوسهم فأنشئوا صورهم التشبيهية تخليداً للمشاهد التي وقعت عليها عيونهم ، وما جال في نفوسهم ، وتردّد في صدورهم . فكانت فيضاً دافقاً من المشاعر والأحاسيس بعد أن تشعبت في أخیلتهم ، وتكاثرت في خواطرهم . على أن هذه المنابع التي تكون مدد للشعراء ويستمدون منها صورهم التشبيهية ليست من مستوى واحد ، ولا درجة واحدة من الوضوح أو الخفاء ، فمنها ما هو بيّن واضح ومنها ما هو خفيّ يحتاج إلى دقة النظر وإعمال الفكر ، ومن ثم نجد ابن يعقوب وهو يفرق بين القريب والمبتذل فيبين :

أن الوجه إن كان قريب التناول بحيث يمكن لكل أحد التشبيه به ، ولكن اتفق على أنه لم يكثر استعماله فلا يكون مبتذلاً . أما إن كان قريب التناول وكثر استعماله فيكون مبتذلاً على أنه إن كان بعيداً عن الإدراكات بحيث لا يفوز بالتشبيه به إلا القليل من الأذكياء والبلغاء ، ولكن جرى استعماله كثيراً حتى صار ظاهراً عند المستعملين عدّ مبتذلاً من حيث كثرة الممارسة من البلغاء له لا من حيث ظهوره لعامة الناس ، فهو لا يخرج عن الغرابة المقابلة للابتذال ، ولذا يعد من البعيد الغريب الذي لا يدركه إلا الخواص^(١) .

ومن خلال هذا الفهم من ابن يعقوب ، فإن القريب لا يعد مبتذلاً إلا إذا كثر استعماله على نحو ما سبق . ومما يجب أن نعلمه عن يقين أن هناك ألفاظاً لا يمكن أن تغوص في لجج النسيان ، أو يطويها القدم ، فلا تخلق ولا تبلى ؛ لأنها اكتسبت من الفضل ما يجعلها تشعّ بالقداسة ، وتفيض بالجمال على الرغم من تطور الحياة ، وتغيّر الناس ، وتقلب الزمن ؛ ولذا فهي تبقى دوماً خالدة متألقة تشرق على وجه اللغة إشراق البشاشة ، وتبرّن في سمع

(١) مواهب الفتاح ، ٤٤٢/٣ ، ٤٤٣ .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ الْبَيَانِ ————— ❁

الزمن رنين النغم العذب المنسق الجميل بلا غثاثة ومن غير ركافة ولا جمود فمن الألفاظ التي تمثلت فيها القداسة فحظيب بالخلود والبقاء ما هو قائم شاخص في الألفاظ الدينية والروحية على نحو ما تراه في تشبيهات القرآن بالحمار في البلاة والغفلة ، وعدم الفهم ، وبالحجارة للقلوب الجاسية القاسية ، وبالعنكبوت في الوهن والضعف ، وبالعرجون القديم في تشبيه منازل القمر وأحواله من النقصان بعد الكمال ومن تشبيه الموج بالجبال والسفن بالأعلام ، وفي تشبيهات الرسول ﷺ عن النعمان بن بشير - رضي الله عنهما - قال رسول الله ﷺ : « مثل المؤمنين في توادهم وتعارفهم ، مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى سائر الجسد بالسهر والحمى » وقوله ﷺ عن أبي هريرة - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قال : قال رسول الله ﷺ : « إياكم والحسد ، فإنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب أو العشب » .

على أن هناك ألفاظاً كتبت لها البقاء دوماً لأنها في دلالتها لا يمكن أن تستبدل بغيرها ذلك أن غيرها لا يقوم بما تقوم به وتعبر عنه كالشباب والهرم والحياة والموت والقوة والضعف والألفاظ التاريخية التي صارت أعلاما في بابها مدحاً أو ذماً كحاتم في الكرم ، ومادر في البخل ، وسحبان في الفصاحة ، وباقل في العي ، وعرقوب في الموعد ^(١) .

ومن هنا نرى صاحب الوساطة القاضي علياً بن عبد العزيز الجرجاني وهو يعالج قضية الأخذ والسرقة يبين أن هناك ألفاظاً لا يمكن اتهام من أخذها بالسرقة لأنها عامة وشائعة وجارية في كل فكر فيقول : « فمتى نظرت فرأيت أن تشبيه الحسن بالشمس والبدر ، والجواد بالغيث والبحر ، والبليد البطيء بالحجر والحمار ، والشجاع الماضي بالسيف والنار ، والصَّبَّ المستهام بالمخبول في حيرته ، والسليم في سَهَره ، والسقيم في أُنِينه وتألمه أمور متفررة

(١) انظر فن التشبيه ١٥٤/٢ لعلي الجندي .

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

في النفوس ، مُتَصَوِّرةٌ للعقول ، يشترك فيها الناطق والأبكم ، والفصيح والأعجم ، والشاعر والمفحّم حكمت بأن السرقة عنها مُنْتَفِيَةٌ ، والأخذ بالاتباع مستحيل ممتنع^(١) ثم يبين أن هذا شائع وهو دليل الشاعرية ، وأنه لم يُردّ هذه بأعيانها دون غيرها ، ولم يوردها إلا دلائل على أمثالها وأن ذلك مقرر في البداية وهو مركب في النفس تركيب الخِلقة^(٢) ثم يشير إلى حضور بعض التشبيهات إلى العقل بسرعة وخفاء بعضها ، فيقول : «ومتى شئت أن ترى ما وصفته عيانا ، وتعلمه يقينا فاعترض أول عامّي غُفْلٌ تَسْتَقْبِلُهُ ، وأعجمي جُلْفٌ تلقاه ، ثم سله عن البرق فإنه يؤدي إلى معنى قول عنتره :

أَلَا يَا مَالِذَا الْبَرْقِ الْيَمَانِي يَضِيءُ كَأَنَّهُ مَصْبَاحُ تَانٍ^(٣)

وإن لم يذكر لك البان لجهله بعادة العرب في الاستصباح به ، ولأنه لم يعرف منه ما عرفه عنتره ، ومعنى امرئ القيس في قوله :

يُضِيءُ سَنَانٌ أَوْ مَصَابِيحُ رَاهِبٍ آمَالُ السَّلِيْطِ بِالذُّبَالِ الْمَقْتَلِ^(٤)

وهيهات أن يعرض لك الأديب الفطن ... لقول الآخر :

وَتَرَى الْبَرْقَ عَارِضًا مُسْتَطِيرًا مَرَحَ الْبُلُقِ جُلْنٍ فِي الْأَجْلَالِ

إلا عن روية كثيرة ، أو فكر طويل^(٥) .

وكلام صاحب الوساطة يشير إلى أن من التشبيهات ما يسرع حضورها إلى الذهن ، ومنها ما يحتاج في إدراكه إلى روية كثيرة ، وفكر طويل وكلامه هذا قد شاع عند من جاء بعده .

(١) الوساطة ص ١٨٣-١٨٥ .

(٢) البان من العضاة وله حب ومن ذلك الحب يستخرج دهن البان .

(٣) السليط : الزيت . والذبال : جمع ذبالة وهي الفتيلة .

(٤) الوساطة ص ١٨٦ .

أسباب القرب والابتدال

ويعتبر التشبيه قريباً مبتدلاً إذا اتصف وجه الشبه فيه بواحد أو أكثر من الصفات الآتية :

١- أن يكون وجه الشبه أمراً جُملياً بأن يكون أمراً واحداً لا تركيب فيه وذلك لأن الجملة أسبق أبداً إلى النفس من التفصيل ، فالرؤية لا تصل في أول أمرها إلى الوصف على التفصيل ، لكن على الجملة . ثم على التفصيل ، ولذلك قيل - النظرة الأولى حمقاء وفلان لا ينعم النظر - كذا سائر الحواس ، فإنه يُدرك من تفاصيل الصوت ، والذوق في المرة الثانية ما لم يدرك في الأولى ، وذلك كأن تُشبه ثوباً بآخر في مجرد الحمرة ، أو تشبه المصاييح بالنجوم في مجرد الإضاءة ؛ لأن ذلك يجعل صورة التشبيه من البساطة بمكان كبير ومن هذا قول المتنبي :

وَإِذَا اهْتَزَّ لِلنَّدى كَانَ بَحْرًا وَإِذَا اهْتَزَّ لِلوْغى كَانَ نَصْلًا^(١)

وَإِذَا الْأَرْضُ أَظْلَمَتْ كَانَ شَمْسًا وَإِذَا الْأَرْضُ أُمُحِلَتْ كَانَ وَبْلًا^(٢)

والبيت الأول يشبه فيه الممدوح بالبحر في كثرة عطاياه وعموم مكارمه وفي البيت الثاني يقول في الممدوح سيف الدولة إنه كالشمس المشرقة التي تضيء الأرض حين تظلم كما يشبهه بالسحاب المغدقة في الجود ، وكثرة العطاء .

٢- أن يشتمل وجه الشبه على قليل من التفصيل ويكون المشبه به من الأمور التي تتكرر دائماً على الحس ويراهها الإنسان دائماً ولا تغيب عنه وذلك كالليل والنهار والشمس والقمر ؛ لأن تكرر هذه الأشياء على

(١) الاهتزاز : الارتياح والوغى : الحرب ، والنصل : السيف .

(٢) المحل : قلة النبات في الأرض من عدم المطر ، والوبل المطر الكثير .

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

الحس يستدعي سرعة حضورها إلى الذهن عند روم التشبيه ومن ثمَّ لا يبقى للتفصيل القليل الموجود أثر في وجه الشبه بسبب كثرة تكرار المشبه به كتشبيه الشمس بالمرآة المجلوة في الاستدارة والإشراق ففي وجه الشبه تفصيل قليل لوجوده في شيئين هما الإشراق والاستدارة ولكن تكرار رؤية المرآة على هذا النحو مشرقة ومستديرة يجعل الشبه بينها وبين الشمس سهل التناول وبذلك يزول أثر التفصيل القليل ولا يكون بعيدا غريبا على أنه يجب أن يوضع في التقدير « أن التكرار على الحسن لا يكفي في الابتدال حتى يكون الوصف مُدركًا به بلا تأمل وأنه متى كان الوصف في المشبه به المتكرر على الحس يحتاج إلى تدقيق النظر كان غريبا كالمركب العقلي والوهمي والخيالي »^(١).

٣- أن يكون في الوجه قليل من التفصيل يحتاج إلى تعدد الملاحظة غير أنه يكثر حضور صورة المشبه به في الذهن عند حضور صورة المشبه لما بين المشبه والمشبه به من شدة تناسب الشيء مع ما يناسبه أقرب حضورا منه مع ما لا يناسبه وهذا تناسب من شأنه أن يستدعي إلى الذهن الأشياء المتقاربة في الملامح والصفات ، فإذا استحضر الخيال بعضها تداعى إلى هذا البعض غيره بلا تعب ولا مشقة لوضوح وجه الشبه وذلك مثل تشبيه العنب بالبرقوق في اللون والحجم والشكل وحين نتأمل وجه الشبه نلاحظ أن فيه تفصيلا لمراعاة وملاحظة هذه الأمور الثلاثة اللون والحجم والشكل الأمر الذي يستدعي غرابة التشبيه وبعده ، لكن سرعة حضور صورة المشبه به في الذهن عند استحضار صورة المشبه لما بينهما من المناسبة والتجانس إذ أن العنب والبرقوق من فصيلة واحدة ؛ لذا لا يعتد بهذا التفصيل في وجه الشبه مع قوة

(١) مواهب الفتاح ، ٤٤٧/٣ .

الصورة البيانية ————— دراستي مسائل علي البيان ————— ❁

التجانس والتناسب يقول ابن يعقوب : « إن من المعلوم أن الأشياء المتناسبة التي هي من وادٍ واحد تحضر كثيراً مجتمعة كالأواني والأزهار فتفترق في الخيال ، فإذا حضر بعضها في الخيال حضر غيره فيسهل الانتقال في التشبيه مما يحضر كثيراً مع غيره لأن ما يدرك من أحدهما يدرك غالباً من الآخر لتقارنهما»^(١).

أسباب خفاء وجه الشبه في التشبيه البعيد الغريب .

سبق أن عرفنا أن التشبيه البعيد الغريب بأنه ما لا ينتقل فيه الذهن من المشبه إلى المشبه به إلا بعد تفكير وإطالة نظر لخفاء وجه الشبه ودقته في بادئ الأمر وأسباب خفائه ما يأتي :

١- أن يكون وجه الشبه كثير التفاصيل كقول الشاعر :

والشمس كالمرآة في كف الأشل .: لما رأيتها بدت فوق الجبل

فقد روعي في وجه الشبه الشكل ، واللون ، والحركة المستديمة المضطربة ، التي يحدث من اضطرابها تموج الإشراق . فوجه الشبه لا يتكون لدى النفس إلا بعد دقة تفكير ، ونظر متمهل والمراد بكثرة التفصيل ، وكثرة الاعتبار « فإن كثرة الاعتبار في الشيء تزيده خصوصاً وكلما كثر التخصيص في الشيء قلت أفراده فتقل ملابسة وجوده فيكون غريباً لبعده عن الجملة التي تسبق إلى النفس وكثرة أفرادها»^(٢).

٢- أن يكون المشبه به نادر الحضور في الذهن ؛ لأنه في ذاته لا وجود له ، كما إذا كان من الأمور الوهمية كما في تشبيه السهام المسنونة بأنياب الأغوال ، فإن أنياب الأغوال وهمية أي يفرضها الوهم إذ لا وجود لها خارجاً ، أو كان من المركبات الخيالية كأعلام الياقوت المنشورة على

(١) مواهب الفتاح ، ٤٤٥/٣ .

(٢) مواهب الفتاح ، ٤٤٩/٣ .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ —————﴾ دراستُ في مسائل علم البيان

رماح من زبرجد كما في قول الشاعر :

وَكأنَ مَحْمَرَّ الشَّقِيقِ إذا تَصَوَّبَ أو تَصْـعَدُ
أَعْلَامُ يَاقُوتَ نَشْرُ نَ على رَمَاحِ مَن زَبْرَجَدُ
فإن التركيب الخيالي لا وجود لصورته خارجا فلا يعهد فيكون الشأن في إدراكه الدور .

أو لكونه مركبا عقليا كما في تشبيه أحبار اليهود بالحمار بحمل أسفار في قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ تَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ (الجمعة: ٥).

« فإن المراد بالمثل القصة والقصة اعتبر فيها كون الحمار حاملا لشيء ، وكون المحمول أبلغ ما ينتفع به ، وكونه مع ذلك محروم من الانتفاع به ، وكون الحمل بمشقة وتعب وهذه الاعتبارات المدلولات للقصة عقلية وإن كان متعلقها حسياً ويحتمل أن يكون سماء مركبا عقليا باعتبار الوجه وإنما تدور حضور المركب مطلقاً ؛ لأن الاعتبارات المشار إليها فيه لا يكاد يستحضرها مجموعة إلا الخواص فيجري في تعلق الوجه ما ذكر مما يوجب عدم سرعة الانتقال فيكون غريباً »^(١).

أو لندرة حضور المشبه به في الذهن عند حضور المشبه ، وذلك لبعد المناسبة بين المشبه والمشبه به لكونها من جنسَيْن بعيدي الالتقاء في مكان واحد ؛ لذا لا يخطر المشبه به بالبال عند خطور المشبه كما في قول الشاعر :

ولا زورديّة تزهو بزرقها بين الرياض على حمر اليواقيت
كأنها فوق قامات ضعفن بها أوائل النار في أطراف كبريت

(١) مواهب الفتاح ، ٤٥١/٣ .

الصورة البيانية ————— دراستي مسائل عليّ البيان ————— ❁

فإن لازوردية وهي البنفسجة شبهت بالنار في أطراف كبريت ومعلوم أن الذي ينتقل إليه بسرعة عند حضورها هي الأزهار والرياحين التي هي من جنسها لا النار في أطراف الكبريت وإن كانت بنفسها كثيرة الوقوع ، فالمشبه به يرى كثيراً وفي كل حين ولكن قل أن يخطر بالبال عند رؤية البنفسج فهذا زهر يذيّ ينفع بالطيب والعطر وهذه نار يابسة محرفة وقد جمع الشاعر بينهما رغم ما بينهما من تنافر فاكتسب التشبيه بذلك غرابة .

تنبيه :

سبق أن رأينا الإمام عبد القاهر وهو يقول : « وإذا كان هذا أمر لا يشك فيه بأن منه أن كلَّ شبه رجوع إلى وصف ، أو صورة ، أو هيئة من شأنها أن ترى وتُبصر أبداً ، فالتشبيه المعقود عليه نازل مبتذل وما كان بالضد من هذا وفي الغاية القصوى من مخالفته ، فالتشبيه المردود إليه غريب نادر بديع ، ثم تتفاضل التشبيهات التي تجيء واسطة لهذين الطرفين بحسب حالها منهما فما كان منها إلى الطرف أقرب فهو أدنى وأنزل ، وما كان إلى الطرف الثاني أذهب فهو أعلى وأفضل ، وبوصف الغريب أجدر»^(١).

وبهذا يقسم الإمام عبد القاهر التشبيه إلى قريب مبتذل وإلى بعيد غريب ومع تصنيف هذا النوع من التشبيه إلى هذين القسمين يحكم عليها فيقضى بأن القريب المبتذل هابط نازل على عكس التشبيه الثاني البعيد الغريب الذي يحكم له بأنه نادر بديع وأن التشبيهات التي تجيء واسطة لهذين الطرفين بحسب حالها فما كان منها إلى الطرف الأول أقرب فهو أدنى وأنزل وما كان منها إلى الطرف الثاني أقرب فهو أعلى وأفضل على حد ما قاله - رحمه الله - فالفضيلة في التشبيه تابعة للغرابة والندرة فهل الأمر على هذا النحو حقيقة ؟ وهل دنو التشبيه وقربه يضائل من الحسن والجمال ؟ وهل يبتذل التشبيه لكثرة تكرار

(١) أسرار البلاغة ، ص ١٦٥ .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ﴾

المشبه به على الحواس أو لسرعة حضوره إلى النفس عند حضور المشبه مع أن سرعة التداعي بين الطرفين أو بطنها كلاهما وارد في التشبيهات القرآنية ؟ هذا ومما يجب ألا يغيب عنا ، وأن نكون على بينة منه أن توصيل الفكرة والمعرفة إلى ذهن المتلقي من أقرب طريق في سرعة ووضوح وإشراق وإبانة يعد مذهباً من مذاهب الكلام ، وغرضاً من أغراضه وأن التفوق للصورة والامتياز ليستا تابعتين للندرة والغرابة وحدها وأن قرب الصورة في التشبيه ودونها لا يهبط بمستواها وينزل لأن المغزى من التشبيه قد يكون في الذي يدرك بداهة كما في تشبيه ما لم تجربه عادة إلى ما قد جرت به كما في قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾ (الرحمن: ٣٧). فهذا تشبيه كما يقول الرماني قد أخرج ما لم تجربه عادة إلى ما قد جرت وقد اجتماعاً في الحمرة وفي تشبيه إخراج ما لا يعلم بالبدئية إلى ما يعلم كما في قوله تعالى : ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ (الحديد: ٢١). ومن تشبيه إخراج ما لم يعلم بالبدئية كما في قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ (الجمعة: ٥). وهذا تشبيه كما يقول الرماني قد أخرج ما لا يعلم بالبدئية إلى ما يعلم ، وقد اجتماعاً في الجهل بما حملاً وفي ذلك العيب لطريقة من ضييع العلم بالاتكال على حفظ الرواية من غير دراية ^(١).

وعلى هذا فالتفوق والامتياز ليسا تابعتين للندرة والغرابة وحدهما مع التسليم للتشبيه النادر الغريب بالطرافة والحسن ، قلنا إن توصيل الفكرة إلى ذهن السامع من أقرب طريق يُعَدُّ من أغراض الكلام ، ومن مقاصده التي يُقَصَّد إليها ؛ ولذا فإن علينا أن نعرف أن الدنو والشيوع والتكرار كل ذلك لا يُضَادُّ بلاغة الصورة ولا يحول دون جمالها وحسنها ورونق مائها مع إدراكنا

(١) انظر ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الكريم ، ص ٨٣ ، ٨٤ .

الصورة البيانية ————— دراستي مسأله البيان ————— ❁

أن هناك ألفاظ لا ينطفيء وهجها ، ولا يخبر إشعاعها ، وأنها تتألق في مكانها التي تحتفظ به في التعبير تألق البدر ، وتبقي حية وخالدة بوميضها الذي يشع تنفح بالطيب والعطر لا تخلق ولا تبلى أو تملّ تتردد أصدائها في كل محفل ، وتهتف بها حناجر الشعراء في كل نادٍ مثل الشمس والقمر والظبي والرمم والمهاد والغصن والزهر والندى والنسيم والأسد والجبل والبحر والنار والسيف والرمح والنهر والمطر والرعد والبرق أحوال الرضا والغضب والأمن والخوف . وغير ذلك مما حفظته اللغة وحظي بالجلال وهي كلها مما يشترك فيه الناس جميعا ، فإذا شبه بها فإنها تحتفظ لنفسها بمكانها الذي لا يزاحم .

هذا وقد نبهت إلى أن قوة التداعي بين الطرفين أوضعها كلاهما مما ورد ذكره في القرآن الكريم ، ولذا نرى القرآن الكريم وهو يتحدث عن بني إسرائيل فيشبه قلوبهم بالحجارة ، وذلك لأن قلوبهم قاسية لا تقطر منها الرحمة أبداً ، والحجارة من أشيع وأعرف ما يمثل به في هذا الباب والحجارة يدور دورانها على العيون ، ويدوم ترددها في مواقع الأبصار ، فهي لشيوعها ليست مما يحسُّ بالهيئة بعد الهيئة ، وفي الفرط بعد الفرط ، وإنما تدركها الحواس في كل وقت وترى القرآن يمثل بالبعوضة وبالكلب الذي إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ، وبالعنكبوت في الوهن والضعف ، كما يشبه الجوّاري وهي السفن بالجبال ، ويشبه الموج بالجبال في استعظامه وضخامته كما يمثل بالحمار الذي يحمل فوق ظهره أسفاراً من المعارف والعلوم وهو لا يدري ماذا يحمل ولا يدرك شيئاً منها ؟ ويختار صورة الحمار الذي يحمل هذه الأحمال النافعة ولا يدري ما بها رغم التعب الذي يعانیه بسبب هذا الحمل ليشبه به من أجهدوا أنفسهم في تحصيل المعارف النافعة ، ولم ينتفعوا بشيء منها مع بذل الجهد في محاولة تحصيل المعرفة . وبذلك ندرك أن القرب والتكرار والشيوع لا يمكن أن يتصادم مع بلاغة الصورة ^(١).

(١) انظر التصوير البياني لأستاذنا الأستاذ الدكتور محمد أبو موسى ، ص ١٥٤-١٥٧ .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ ﴾

وعلى هذا يتأكد لدينا أن تشبيهات القرآن الكريم لها من البلاغة والقوة والتأثير على الرغم من شيوعها وقربها .

معنى التفصيل في وجه الشبه :

المراد بالتفصيل في وجه الشبه الموجب للغرابة ما فيه من كثرة الاعتبارات والملاحظات بأن ينظر فيه إلى أكثر من وصف لشيء واحد أو أكثر متعدداً كان ذلك الوجه ، أو مركباً اعتبارياً غير أن المركب أشد حاجة إلى إعمال الفكر ، ودقة النظر لما فيه من الهيئة التركيبية ، ففي التفصيل أنت لا تنظر إلى وجه الشبه نظرة إجمالية ، بل لابد من إطالة النظر في صفات كل من الطرفين ورؤية ما تقع به المشاركة لونا أو شكلاً أو مقداراً أو حركة أو سكونا ، وهل هو موجود في كل من الطرفين بنفس الدرجة أم أن هناك تفاوتاً ؟ وهل هذا التفاوت يفسد الغرض من التشبيه أم لا ؟

هذا وقد تعدد الأوصاف لشيء واحد كما تراه في المفرد المقيد في قول الشاعر :

وقد لاح في الصبح الثريا كما ترى كعنقود ملاحية حين نورا

إذ لوحظ في الوجه عدة أوصاف متضامة من شكل أجرام ولونها ومقدارها وهيئة أوضاعها ، فوجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من تجمع أجسام بيض مستديرة صغيرة الحجم في مرأى العين مجتمعة على كيفية مخصوصة هي أنها ليست تامة الالتصاق ، ولا تامة الانفراق في تشبيه نجم الثريا بعنقود العنب قبل تمام نضجه .

هذا والتشبيه المبني على الاستعارة ظاهر فيه التفصيل كما في قول المتنبي :

وألقي الشرق منها في ثيابي دنائراً تفر من البنان

والمقصود بالشرق الشمس يقال : طلع الشرق ولا يقال : غاب الشرق يقول : إن أشعة الشمس حين تتسلل أشعتها إليه وتلقي بضوئها من بين الأوراق لتحط

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دُرِّسَتْ فِي مَسَائِدِ الْبَيَانِ ————— ❁

على ثيابه تفرّ هاربة والتفصيل المبني على الاستعارة فيه نظر إلى ما فيه طبيعة الدوائر الضوئية التي تنفذ إلى الأرض من خلال فرج الأوراق وتظهر فيها الحركة عند محاولة القبض عليها باليد إذ أنها تفر هاربة ولا تثبت أو تستقر .

والصورة هنا بصرية وعناصرها الشكل واللون والظل والنور والحركة السريعة . وقد أخذ المعوج الشاعر حين قال في هذا المعنى :

كأن شعاع الشمس في كل غُدْوَةٍ على ورق الأشجار أَوَّلُ طالع
دنانيرُ في كف الأشل يَضُمُّهَا لَقَبْضٍ فَتَهْوِي من فروج الأصابع
وقول التلعفري :

أفدي الذي زارني في الليل مُسْتَرًّا أحلى من الأمن عند الخائف الدَّهْشِ
ولاحت الشمس تحكي عند مَظْلَعِهَا مرآة تبر بدت في كف مُرْتَعِشٍ
فقد لوحظ في كل لون الشمس وشكلها وحركتها .

ووجه الشبه الهيئة الحاصلة من الاستدارة مع الإشراق والحركة السريعة المتصلة مع تموّج الإشراق واضطرابه بسبب تلك الحركة .

ومن هذا اللون في التفصيل بديع قول إدريس بن اليماني العبدي :

قُبْلَةً كَانَتْ عَلَى دَهْشٍ أَذْهَبَتْ مَا ي مِنَ الْعَطَشِ
وَلَهَا فِي الْقَلْبِ مَزَلَةٌ لَوْ عَادَتْهَا النَّفْسُ لَمْ تَعِشْ
طَرَقْتَنِي وَالِدَجِي لَابَسٌ خَلَعًا مِنْ جِلْدَةِ الْحَبَشِ
وَكَأَنَّ النِّجْمَ حِينَ بَدَا دَرَاهِمُ فِي كَفِّ مُرْتَعِشٍ^(١)

وقد لوحظ هنا كما في غيره مما سبق اللون ، والشكل والحركة أنواع التفصيل :

(١) معاهد التنصيص ، ٣٣/٢ .

❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

١ - ملاحظة خصوصية معينة في الوصف الذي يراد الإشراف فيه وهذه الخصوصية توجد في بعض أفراد جنسه دون بعض ، فالوصف الواحد الذي معك لا تمرّ عليه مُجْمَلًا بل تُفَصِّلُ بأن تنظر إلى خاصية مُعَيَّنَةٍ وتكون هي المقصودة بالذات من التشبيه ، فلو شَبَّهت شيئًا بآخر في اللون كالحمرة فلا تكتفي بأن تنظر إلى جُمْلَةِ الحمرة ، بل تعتمد إلى خاصية فيها كأن تكون حمرة رقيقة ناصعة ، ولو شَبَّهت صوتًا بصوت آخر فلا تكتفي بأن كلا منهما صوت مسموع ، بل لابد من أن تُفَصِّلُ بأن تنظر إلى ما في الصوت من جرسٍ معين ، ونغمة خاصة . ومن المؤكّد أن إدراك الخاصية في اللون أو في الصوت المسموع تحتاج إلى تربيّة وتمهل لأنها لا تدرك بالبداهة وكلما دقّت الخصوصية احتاجت إلى مزيد من التأمل والفكر ، ومن الأمثلة التي توضح الفرق بين الجملة والتفصيل من هذه الناحية يعني من ناحية ملاحظة خصوصية خاصة في الوصف الذي يراد الإشراف فيه قول أبي الفرج البغاء في أرمذ :

غَدَتْ عَيْنُهُ كَالْجَمْرِ حَتَّى كَأَنَّمَا سَقَى عَيْنَهُ مِنْ تَوْرِيدِهِ الْخَدُّ

يشبه عينيه بحمر النار في الحمرة وانظر إلى قول الأمير تميم بن المعز .
 نَاولَتْهَا شِبْهَ خَدِّيْهَا مَشْعَشَعَةً صِرْفًا كَأَن سَنَاهَا ضَوْءُ مَقْبَاسٍ
 والمشعشعة : الخفيفة . والصِّرْفُ : الخالصة ، والسَّنَا : الضوء والمقباس
 شعلة تؤخذ من معظم النار كالقبس .

وهو هنا يشبه : الخمر بالخد .

وتأمل قول ابن المعتز :

غِلَالَةُ خَدِّهِ وَرْدٌ جَنِيٌّ وَنَوْنُ الصُّدْغِ مُعْجَمَةٌ بِخَالٍ

والغلالة : شعار يوضع تحت الثوب والمراد هنا صفحة الخد .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلَالِيَّاتِ ————— ❁

والصغد : ما بين العين والأذن ، والشعر المتدلي عليه : ونون : هي هذا الشعر الملتوي إلى أعلى بعد إرساله كحرف النون ، والخال شامة تظهر على البدن ، والشاعر هنا يشبه الخد بالورد .

وانظر إلى قول ابن المعتز أيضاً :

وكانهن غصون بان ناعم يحملن ثَفَاحاً على الوجنات
وابن المعتز هنا يشبه الخد بالتفاح .

وانظر إلى قول ذي الرمة :

وسقط عين الديك عاورتُ صاحي أباهاً وهيئنا لموقعها وكرا
والسقط شبه الشر الذي يخرج من الزند حين يُورَى . وأبوها : هو العود الذي يُحكّ أو يبرم في آخر لتخرج النار والثاني هو الأم أو الأثى ، والوكر ما توضع فيه النار لتتقد كالخشب والحطب .

وهو هنا يشبه السقط بعين الديك . وهؤلاء الشعراء جميعاً قصدوا إلى اشتراك طرفي التشبيه في الحمرة ولكن نظرهم إلى الحمرة مختلف ، فمن شبه عين الأرمد بالجمر ومن شبه الخمر بالخد قد مرّاً على وصف الحمرة مجملاً ولم ينظروا إلى تفصيل فيه أو ملاحظة خصوصية ، فلم يرد الأول أن يبين أن حمرة العين متوهّجة ولم يرد الثاني أكثر من أن حمرة الخمر من نوع حمرة الخد ولذا عدّ تشبيههما من القريب ، أما تشبيه الخد بالورد في البيت الثالث وبالتفاح في البيت الرابع ، فلم يقتصر الشاعران فيهما على مجرد الوصف بالحمرة ، بل نظروا إلى خصوص وتفصيل وهو ما في حمرة الورد والتفاح من رقة وصفاء ونوعية خاصة بها حصل التوافق التام بينهما وبين الخد وهذا يحتاج في إدراكه إلى تأمل ، وإعادة نظر فكان في هذين التشبيهين شيء من الغرابة .

وأما تشبيه سقط النار بعين الديك ، فليس الوجه فيه جنس الحمرة مجملاً وإنّما القصد إلى ما في عين الديك من تفصيل وخصوص من امتياز لحمرتها

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

على كل حمرة ولمعرفة ذلك فإن الأمر يحتاج إلى دقة النظر ومعاودة التأمل ، ولذا كان التشبيه بعيداً غريباً .

ومما يجب التنبيه إليه أن الخصوص والتفصيل هنا في نفس حمرة « عين الديك » ولونها ليكون المثل من هذا الضرب ، أما إذا لوحظ مع ذلك الشكل الكُرِّيُّ والمقدار ، فإنه يكون من الضرب الثالث الذي سيأتي لملاحظة أكثر من وصف .

وقال ذو الرمة في وصف ناقته :

كَأَنَّ عَلَى أُنْيَابِهَا كُلِّ سُحْرَةٍ صِيَاخَ الْبَوَازِي مِنْ صَرِيفِ اللَّوَائِكِ

السُّحْرَةُ - بالضم - السَّحَرُ الأعلى قبل انصداع الفجر ، ولهم سحر آخر عند انصداعه . والصَّرِيف : صوت الناب والبكرة والباب ويقال : صَرَفَ يَصْرِفُ كَضَرَبَ يَضْرِبُ صَرِيفًا إِذَا صَوَّتَ ، واللوائك : جمع لائك اسم فاعل من لأك الطعام إِذَا مَضَغَ يريد المواضع .

وقال امرؤ القيس في وصف ناقته أيضاً :

كَأَنَّ صَلِيلَ الْمَرْوَحِينَ تُشِدُّهُ صَلِيلَ زَيْفٍ يُنْتَقِدْنَ بِعَبْقَرَا

والصليل : الصوت . والمرو والحجارة البيض الرقيقة . وتُشِدُّهُ : مصارع أشدَّ : بمعنى نحي . والزيف : جمع زيف وزائف وهو المغشوش من النقد . وعبقر : موضع يزعم العرب أنه كثير الجن وبلد مشهور بإنتاج الثياب الجميلة .

كلا الشاعرين قصد إلى تشبيه صوت يصوت ولكنهما لم يقصدا إليه مُجْمَلًا ، بل عمد كل منهما أن ينظر إلى خصوصية فيه تحتاج إلى شيء من التأمل ومعاودة النظر .

فالأول : نظر إلى ما في صوت البوازي من نغمة معينة ، ونبرة خاصة جعله موافقاً لصوت الناقة .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلَالِ الْبَيَانِ ————— ❁

والثاني : نظر إلى الخصوصية القائمة في صوت الدراهم حين نقدها وما بهذا الصوت من خصوصية جعلته موافقاً لصوت الحجارة التي تقذفها الناقة في سيرها .

لكن نظرة الأول أدق وأعمق من نظرة الثاني لتمام المشابهة بين الطرفين ، ولأن صوت البازي قلماً يُسمع .

يقول الإمام عبد القاهر في هذا : « فالاشتراك في الصفة إذا كان من جهة الجملة على الإطلاق بحيث لا يشوبه شيء من التفصيل » نحو أن الشئيين أسود أو أحمر^(١) » فهو يقل عن أن تحتاج فيه إلى قياس وتشبيه فإن دخل في التفصيل شيئاً « نحو أن هذا السواد صاف برّاق والحمرة رقيقة ناصعة احتجت بقدر ذلك إلى إدارة الفكر وذلك مثل تشبيه حمرة الخدّ بحمرة التفاح والورد فإن زاد تفصيله بخصوص تدقّ العبارة عنه ويتعرّف بفضل تأمل ازداد الأمر قوة في اقتضاء الفكر »^(٢).

٢- الضرب الثاني أن يكون معك وصفان أو أكثر فتتظر فيها وتفصل بعضها عن بعض وتعتبر بعضها وهو ماله دخل في التشبيه فتبقى عليه وتنفى بعضها وهو ما لا دخل له في التشبيه فأنت بهذا تأخذ بعضها وتترك بعضها في كل تشبيه فيه دقة تحتاج إلى مزيد نظر .

٣- كما فعل امرؤ القيس في قوله :

حملت رديئاً كأن سناناه سنا هب لم يتصل بدخان

١- فهذا تشبيه محمل لعدم وجود التفصيل فيه .

(١) فهذا تشبيه محمل لعدم وجود تفصيل فيه .

(٢) أسرار البلاغة ص ١٦١ ، وانظر دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبد القاهر التشبيه والتمثيل والتقديم والتأخير ١٥٢-١٥٥ .

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

فإن الشاعر قصد إلى تفصيل بديع لا يَسْنَحُ بديهة في خاطر بدون تفكير ولا ترو ، فهو قد عَرَفَ بعد التثبّت والموازنة بين الأصل سنا الرديني^(١).

وبين الذهب أن سنا الردينيّ الرمح لا يشبه الذهب على إطلاقه لأن الذهب لا ينفك عن دخان يخالطه ، فأدرك أن ذلك يقدر في حقيقة التشبيه إذا رأى أنه لا بد من استثناء الدخان ونفيه عن سنا الذهب وبذلك تتم المشابهة من غير عيب يلحقها .

والفرق واضح بين قول امرئ القيس وقول عنتره العبسي :

يتابع لا يتبغي غيره بأبيض كالقبس الملتهب

فمع أن المشبه واحد فيهما وهو شعلة النار إلا أن الأول وهو امرؤ القيس فصلّ حين استثنى الدخان والثاني أجمل ولم يفصل حين ترك الاستثناء .

ومن هذا التشبيه الذي جاء فيه التفصيل قول امرئ القيس :

كأن عيون الوحش حول خبائنا وأرحلنا الجزع الذي لم يُثَقَّب^(٢)

إنه يتحدث عن كثرة اصطياد الوحوش وأنهم كانوا يأكلونها ويطرحون أعينهم حول أخبيتهم أشبه بالجزع الذي لم يثقب وفي نفيه للثقيب عن الجزع تحقيق للتشبيه وبيان لتساوي الطرفين في وجه الشبه لأن الجزع إذا كان مثقبا خالف المشبه وهو العيون بعض المخالفة إذ لا تثقيب فيها .

٢- أن يكون بين الطرفين عدة أوصاف كلها ملاحظة في التشبيه ، وقد دقق

الشاعر التأمل والنظر فيها وأحكم الموازنة بينها حتى وجدها في المشبه به على نفس الصفة التي وجدها في المشبه ، ففي قول الشاعر :

(١) أي : رمحا منسوباً لردينة امرأة كانت تصنع الرماح وتجيد صنعها .

(٢) «الخباء» بيت من شعر «وأرحل» جمع رحل وهو ما يحمل على البعير «والجزع» بفتح الجيم وكسرهما وسكون الزاي : عقيق فيها دوائر بيض وسود تشبه به عيون الوحش .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دُرُوسَةٌ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ❁

وقد لاح في الصبح الثريا كما ترى كعنقود ملاحية حين نُورا

فوجه الشبه الهيئة الحاصلة من اجتماع أجسام بيض مستديرة متناسبة المقادير على هيئة مخصوصة ليست تامة الاتصال ولا تامة الافتراق ، فقد راعى في نجوم الثريا شكلها ومقدارها ولونها والمسافة المتقاربة بين أجزائها وانتظامها على شكل مثلث واعتبر نظيرها في عنقود الكرم « العنب » المنور فهو قد شبه الثريا بعنقود العنب المنور والمشبه به مقيد بتمام التنوير ونظيرها هذا من شبه الثريا باللجام المفضض أو بالوشاح المفصل في قول امرئ القيس :

إذا ما الثريا في السماء تعرّضتْ تعرّض أثناء الوشاح المفصل

تعرّضت : مالت ، وأثناء الوشاح : جوانبه جمع ثنى والمفصل : الذي فصل ما بين كل خرزتين فيه بلؤلؤة أو جبة من فضة ولعلمهم كانوا يحلّون الوشاح واللجام بأجرام مستديرة بيض على شكل مثلث ليست متصلة ولا متباعدة ليتحقق التشبيه إذ لو فرض أنها كانت على سنن واحد طولا أو كانت متلاصقة بطل التشبيه والوشاح بضم أوله وكسره شريطان من لؤلؤ وجوهر منظومان نظما متخالفا بحيث يكون أحدهما معطوفا على الآخر تشدّه المرأة بين عاتقها وكشّحها والكشح ما بين الخاصرة والضلوع ويجمع على وشح بضمين وأوشحة ووشائح والتفصيل هنا يحتاج إلى زيادة تأمل فيكون أغرب مما تفصيله أقل تشبيه الثريا بالنور المفتّح في قول ابن المعتز .

كأن الثريا في أواخر ليلها تفتّح نور أو لجام مفضض

فالتشبيهات السابقة حين توازن بها هذا التشبيه الذي هنا وهو تشبيه الثريا بتفتّح نور تجد فضلها عليه لما فيها من كثرة التفصيل ذلك أن التشبيه الأخير لم يلاحظ فيه أكثر من أنها أجرام صغيرة مستديرة ، فلم يعتبر الشكل ولا الاجتماع ومن هنا فإن التشبيهات تتفاوت في الأفضلية بما فيها من كثرة

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ —————﴾ دَرَسَتْ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

التفصيل فما نظر فيه إلى ثلاثة أشياء أو ثلاث جهات أفضل مما نظر فيه إلى شيئين وما نظر فيه إلى شيئين أفضل مما نظر فيه إلى شيء واحد وهكذا ، ومما ظهر فيه الاستقصاء في التفصيل قول ابن المعتز :

كَأَنَا وَضُوءُ الصُّبْحِ يَسْتَعْجِلُ الدَّجَى نُطِيرُ غُرَابًا ذَا قَوَادِمِ جَوْنِ

فإن المشبه هو سواء الليل وقد بدت في جوانبه لمع مضيئة من أضواء الفجر بغراب أسود في أطراف جناحيه ريشات بيضاء تظهر لامعة في سواده والتفصيل يتحقق من خلال النظر إلى سواد وبياض مجتمعين وأن هذا البياض مكانه حواشي هذا الظلام ثم تروى الشاعر وأمعن في التفصيل حين وضّح أن الظلام يتبدّد في سرعة وعجلة أمام أضواء الصبح وأنواره حين جعل الصبح ، وكأنه يدفع الليل ويستعجله في أن يرحل ولتحقيق هذا في الغراب أضاف إلى صفته أنه كان أسيرا في يد قانص أو حابس له في قفص ثم جاء من يطلق سراحه فأطير بفعل فاعل فهو يمضي مسرعا في طيرانه حتى يختفي بعيداً عن الأنظار ، فابن المعتز قد حقق بهذه الإضافة الشبه كاملا بين المشبه والمشبه به ولو أنه توقّف في التشبيه عند ذكر الغراب وبياض قواده ، ولم يجعله طائراً مندفعاً إثر إزعاجه وليس عن اختيار دون أن يطيره أحد لاختلت الموازنة بين طرفي التشبيه ولما تحقق الشبه كاملا .

هذا ومن الاستقصاء في التفصيل حتى يبلغ الغاية التي ليس بعدها غاية ما تراه في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا رَبَّ عَلَيْهِمْ أَتْنَهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ ۚ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(يونس: ٢٤).

الصورة البيانية ————— دراستي مسائل عليّ البيان ————— ❁

فإن المشبه به مركب من عشر جُمْل تداخلت تلك الجمل حتى صارت كأنها جملة واحدة ومعنى فاختلط به نبات الأرض فاشتبك به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام من الزرع والبقول وقوله : حتى إذا أخذت الأرض زخرفها أي حتى إذا تزينت بزخرفها والزخرف في الأصل الذهب وقوله : وازينت أي وتزينت تفسير لما قبله وقوله : وظن أهلها أي أهل النبات وأنث ضميره لاكتسابه التأنيث من المضاف إليه وقوله : قادرون عليها أي على حصدها ورفع غلتها وقوله : فجعلناها أي النبات حصيداً : أي شبيهاً بما حصد وقوله : كأن لم تغن بالأمس أي كأنها لم تنبت ولم تكن ذلك من زمان قريب غاية القرب يقال : غني بالمكان : أقام به . فقد اشتملت الآية في جانب المشبه به كما سبق على عشر جمل بحيث لو حذفت منها جملة واحدة لأخل ذلك الحذف بالغرض المراد لأن الغرض من الآية هو توضيح وتبيين أن الحياة الدنيا وقدمن الله على الناس فيها بنعمة الوجود والحياة وآتاهم من القوة ما يستثمرون ما فيها من خيرات ينعمون بها ويسعدون ومكنهم بالعلم من تثبيت أركان حياتهم وتزيينها حتى تبدو طيبة هائلة وصرفهم ذلك عن التفكير في المصير المحتوم حتى ظنوا أنهم ملكوا ناصية الأرض ، وأن في مقدورهم أن يعمروا السماء إذ فجأة ينتهي كل شيء ويتبخّر ويضيع وكأن لم يكن من قبل شيئاً فقد « شبه حال الدنيا العجيبة الشأن في تقصّيها بسرعة وانقراض نعيمها بغتة بالكلية بعد ظهور قوتها ، واغترار الناس بها ، واعتمادهم بزوال خضرة النبات فجأة وذهابه حطاماً لم يبق له أثر أصلاً بعد ما كان غصّاً طريّاً قد التف بعضه ببعض وزين الأرض بأنواره وطراوته وتقويّه بعد ضعفه بحيث طمع الناس فيه وظنوا سلامته من الحوائج ووجه الشبه هيئة منتزعة من تلك الأمور وهي حصول شيء يترتب عليه المنافع فيحصل السرور به وتُنسى عاقبة أمره ثم يذهب ذلك الأمر بسرعة »^(١).

(١) حاشية الدسوقي على شرح السعد ضمن شروح التلخيص ، ٤٥٦/٣ .

موازنة في استقصاء التفاصيل

قال بشار :

كأن مشار النقع فوق رءوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبها
الواو في « وأسيافنا واو المعية أو عاطفة متضمنة معنى مع وجمله
« تهاوى » صفة لليل تابعة له .

وقال كلثوم بن عمرو العتابي :

تبنى سناكبها من فوق أرؤسهم سقفا كواكبها البيض المبائر
والبيض المبائر هي السيوف القاطعة .

وقال المتنبي :

يزور الأعادي في سماء عجاجة أسنته في جانبيها الكواكب
العجاجة : الغبار والدخان ، وسماء عجاجة من إضافة المشبه به للمشبه أي
عجاجة كالسماء في الارتفاع .

اشترك الشعراء الثلاثة في وصف الغبار المنعقد فوق الرؤوس وقد لمعت فيه
السيوف أو الأسنة فشبها تلك الهيئة الحسية بهيئة الليل المظلم تضيء فيه
الكواكب وفي هذا تفصيل .

لكن بشارا قد زاد عليهما بأن أحضر في نفسه هيئة السيوف وقد سلت من
أعمادها في الحرب ، واختلفت الأيدي بها في الضرب فكان لها اضطراب
وحركات سريعة إلى جهات مختلفة بين انخفاض وارتفاع واستقامة واعوجاج
وتداخل وتصادم وهي في نفسها مستطيلة وقد أحضر كل هذا في نفسه وأداه
بقوله : « تهاوى » في جانب المشبه به وهي مع أنها كلمة واحدة فمعناها منظور

الصورة البيانية ————— دراستي في مسانعة البيان ————— ❁

فيه إلى أكثر من جهة وذلك أن الكواكب إذا تهاوت اختلفت جهات حركاتها وكان لها تدافع واستطالة قد أضاف إلى التفصيل المشترك تفصيلا آخر عجيبا فكان التشبيه من الفضل والمزية ما ليس التشبيهي صاحبيه^(١).

ويقول الإمام عبد القاهر : بعد ذكره للأبيات الثلاثة « التفصيل في الأبيات الثلاثة كأنه شيء واحد ، لأن كل واحد منهم يشبه لمعان السيوف في الغبار بالكواكب في الليل إلا أنك تجد لببت بشار من الفضل ، ومن كرم الموقع ، ولطف التأثير في النفس ما لا يقل مقداره ولا يمكن إنكاره وذلك لأنه راعى ما لم يرَعه غيره وهو أن جعل الكواكب تهاوى فأتم الشبه ، وعبر عن هيئة السيوف وقد سلّت من الأغمد وهي تعلو وترسب وتجيء وتذهب ولم يقتصر على أن يريك لمعانها في أثناء العجاجة كما فعل الآخرون وكان لهذه الزيادة التي زادها حظ من الدقة تجعلها في حكم تفصيل بعد تفصيل ، وذلك أنا وإن قلنا إن هذه الزيادة - وهي إفادة هيئة السيوف في حركاتها - إنما أتت في جملة لا تفصيل فيها ، فإن حقيقة تلك الهيئة لا تقوم في النفس إلا بالنظر إلى أكثر من جهة واحدة وذلك أن تعلم أن لها في حال احتدام الحرب واختلاف الأيدي بها في الضرب اضطراباً شديداً ، وحركات بسرعة ثم إن لتلك الحركات جهات مختلفة وأحوالاً تنقسم بين الاعوجاج والاستقامة والارتفاع والانخفاض وأن السيوف باختلاف هذه الأمور تتلاقى وتتداخل ويقع بعضها في بعض ويصدم بعضها بعضاً ، ثم إن أشكال السيوف مستطيلة ، فقد نظم هذه الدقائق كلها في نفسه ثم أحضر كصورها بلفظة واحدة ونبه عليها بأحسن التنبيه وأكملها بكلمة وهي قوله : « تهاوى لأن الكواكب اختلفت جهات حركاتها وكان لها في تهاويها توقع وتداخل ثم إنها بالتهاوي تستطيل أشكالها »^(٢).

(١) انظر دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبد القاهر في التشبيه والتمثيل والتقديم والتأخير ، ص ١٧٦ ، وما بعدها .

(٢) أسرار البلاغة ، ص ١٧٥ .

❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

هذا البيت بشار بن برد من الشواهد الذائعة والجهيرة في هذا الباب ، ولقد وقف أمام التصوير فيه الإمام عبد القاهر وأطال الوقفة وأفاض في التحليل الكاشف ببراعة لا تتوفر كثيراً إلا له ، وقدرة على أن يمتص ويحتلب من الكلمة في مكانها من السياق الذي وردت فيه كل ما تَهْمِسُ به وترمز إليه ولا يبرحها حتى يفصل ما تَضُمُّره من المعاني ويفصل القول في ذلك تفصيلاً يصل به إلى الغاية التي يُتَغَيَّاها بعد أن يستشعر ما أضمرت من المحاسن ويجلي ذلك ويوضحه وَيُسَبِّغُ الحديث في ذلك إسباغاً وهو بذلك يضع المنهج الذي يحرص على أن يكون هو السائد في حفل الدراسات البلاغية وأن يتبع في تحليل النص البياني وبيان ما ينبثق عنه من إشارات ، وإيماءات ، وإيحاءات ، ورموز . انظر إليه وقد وقف أمام كلمة « تهاوى » بعد أن ترواها وأطال التحديق فيها ليدرك ما بها من ثراء وغنى وخصوبة فيمضي في شرحها وتوضيح دلالتها وما أضفته على السياق من التميز والتفرد وكيف حفلت بما حفلت به من الإضاءات والخصائص والأسرار التي منحت الصورة التشبيهية التفوق والاقتدار .

وهذا البيت من قصيدة لبشار يمدح بها هبيرة ومطلعها :
 جفا فازورّ أو قلّ صاحبه وأزري به أن لا يزال يعاتبه
 خليلي لا تستكثرا لوعة الهوى ولا سلوة اخزون شطت حباته

وفيهما يقول :
 إذا كنت في كل الأمور معاتبا صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه
 فعشّن واحداً أو صلّ أخاك فإنه مُقَارِفُ ذَنْبٍ مَرَّةً وَمَجَانِبُهُ
 إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى ظمئت وأي الناس تصفو مشاربهُ
 ومنها :

وسام لمروان ومن دونه الشَّجَا وهولٌ كُلِّجُ البحرُ جاشت غواربُهُ

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دُرُوسَةٌ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ❁

أَحَلَّتْ بِهِ أُمُّ الْمَنِيَا بَنَانَهَا بِأَسْيَافِنَا إِنَّا رَدَىٰ مِنْ تَحَارُبُهُ
وَكُنَّا إِذَا دَبَّ الْعَدُوُّ لِسَخَطِنَا وَرَاقِبَنَا فِي ظَاهِرٍ لَا نَر_اقِبُهُ
رَكِبْنَا لَهُ جَهْرًا بِكُلِّ مَثْقَفٍ وَأَبْيَضَ تَسْتَسْقِي الدَّمَاءَ مَضَارِبُهُ
وَجَشَّ كَنَحَ اللَّيْلِ يَزْحَفُ بِالْخَصَا وَبِالشُّوْكِ وَالْخَطَىٰ هَمًّا تَعَالِبُهُ

ومنها :

غَدَوْنَا لَهُ وَالشَّمْسُ فِي خَدْرِ أَمْهَا نَطَالُعُهَا وَالطَّلَّ لَمْ يَجْرِ ذَائِبُهُ
يَضْرِبُ يَذُوقُ الْمَوْتَ مِنْ ذَاقِ طَعْمِهِ وَتَدْرِكُ مِنْ نَجَى الْفِرَارِ مِثَالِبُهُ
كَأَنَّ مِثَارَ النَّقْعِ فَوْقَ رُؤُوسِنَا وَأَسْيَافِنَا لَيْلَ تَهَاوَى كَوَاكِبُهُ

وورد أن ابن هبيرة وصله بعشرة آلاف درهم وكانت أول عطية سنّية أعطيتها
بشار بالشعر ورفعت من ذكره ويروى أنه قيل لبشار وقد أنشد هذا البيت :
ما قيل أحسن من هذا التشبيه ، فمن أين لك هذا ولم تر الدنيا قط ولا شيئاً
منها ؟ فقال إن عدم النظر يقوّي ذكاء القلب ويقطع عنه الشغل بما ينظر إليه
من الأشياء فيتوفر حسه وتذكو قريحته ^(١).

ومما جاء على هذا النحو في الاستقصاء قول ابن المعتز :

وَطَافَ بِهَا سَاقُ أَدِيبٍ بِمِزْلٍ كَخَنْجَرِ عِيَارِ صِنَاعَتِهِ الْفُتْكِ
وَحُمِلَ آذْرِيونَةٌ فَوْقَ أُذُنِهِ كَكَاسٍ عَقِيقٍ فِي قِرَارَتِهَا مِسْكِ

والمقصود بالأديب هنا : الظريف الحسن التناول . والمِزْلُ كمنبر المصفاة
التي يصفي بها الشراب . والعِيَارُ كشدّاد الكثير الحركة ذهاباً وإياباً والذكي
الكثير التطواف والمراد به هنا قاطع الطريق والآذريون : زهر أصفر في وسطه
خَمْلٌ بفتح فسكون أسود حار رطب ومنه نوع أحمر الورق وهو المراد هنا :

(١) معاهد التنصص ، ٢٨/٢ .

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

وقال ابن المعتز أيضاً في وصف روضة :

عِـيـون آذريونـها للشـمس فيها كالـيـه
مـداهن مـن ذهـب فيها بقايا غاليـه

كاليه أصلها كالثمة بمعنى حافلة وواعية ومعنى ذلك أن النبات تنجذب أوراقه نحو الشمس ويتجه دائماً جهة الضوء ومن أجل هذا سمي هذا النبات «عباد الشمس» لتلك العلة «والمذهن» كبرقع قارورة الدهن و«الغالية نوع من الطيب في كل من القولين تشبيه «الآذريونة» زهرة ذات ورق أحمر مرتفع يحيط بقاع أسود يرتفع سواده في أصول الورق بعض الارتفاع ويتضاءل شيئاً فشيئاً حتى يتلاشى ففيها أربعة أمور :

- ١- ورق أحمر محيط
 - ٢- قاع أسود .
 - ٣- سواد مرتفع في أصول الأوراق ٤- السواد غير مالى لجوف الزهرة.
- هذا وقد استوفى التشبيه الثاني هذه الأمور كلها فالمداهن الذهبية تقابل الأوراق وبقايا الغالية تفيد ثلاثة أمور وهي :
- ١- سواد القاع لأنها أخلاط من الطيب ذات لون أسود .
 - ٢- السواد غير مالى لها لأنها بقايا .
 - ٣- أنه مرتفع في الجوانب لأن الغالية تؤخذ رطبة بالأصابع فيبقى لها أثر في الجوانب مرتفع عن القاع يشبه ما في الزهرة .
- أما التشبيه الأول فكأس العقيق يقابل الورق الأحمر والمسك الذي في القرارة يفيد أمرين :

- (أ) - سواد القاع
 - (ب) أنه غير مالى للكأس لأنه في القرارة .
- أما ارتفاع السواد في الجوانب فليس فيه ما يفيد لأن المسك جاف إذا وضع في شيء ظل في القاع ولم يعلق بالجوانب ، ومن هنا كان هذا التشبيه أضعف وكان التشبيه الثاني أكثر غرابة وأكمل في استيفاء جوانب الشبه بين الطرفين ^(١).

(١) انظر دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبد القاهر في التشبيه والتمثيل والتقديم والتأخير ص ١٧٩ ، وأسرار البلاغة ، ص ١٧٦ ، ١٧٧ .

رفع الابتذال عن التشبيه وتجديد صورهِ

لا بد أن يتوثق لدينا أن التشبيه البليغ هو ما يتخاطب به الخواص من البلغاء لما فيه من لطف المعنى ، ودقته على نحو ما يظهر في التشبيه البعيد الغريب . وتنشأ الغرابة من خفاء وجه الشبه بحيث يحتاج في الوصول إليه مزيداً من التَّروِّي ، وإطالة النظر ، ولا يصح أن يعترض على هذا بأن الخفاء ، وعدم الظهور والوضوح لون من التعقيد في الكلام وهو مرفوض غير مقبول لذا فهو مذموم معيب . ويُردّ على هذا بأن الخفاء الموجب للتعقيد الذي يتضادّ مع البلاغة ويصطدم معها هو هذا الخفاء المنبعث عن سوء التركيب وهو التعقيد اللفظي ، أو اختلاف انتقال الذهن من المعنى الأول إلى المعنى الثاني وهو التعقيد المعنوي ، أما هنا أي في التشبيه البعيد الغريب فمُنشأ الخفاء لطف المعنى ودقته على أن الإلف والتكرار الذي يفقد التشبيه بعده وغرابته ووضعه في دائرة الابتذال والدنوّ ليس مما يصاحب التشبيه دوماً ولا يفارقه بحيث لا يمكن الإفلات منه ولا الفكّك ، بل إن هناك من الوسائل والأدوات ما يتمكن البليغ باللجوء إليها ، والتصرف من خلالها من أن يتخطّى بتشبيهاته المهانة والضَّعة ويرتفع بها ويرتقي إلى مستوى أعلى من السمو والارتفاع حين يتصرّف فيها نوعاً من التصرف ، ويحوّلها من اتجاه إلى آخر أرقى وأسمى وذلك بأن يضيف إليها بإبداعه وقدرته البيانية نكتة بيانية ، ويطلق خياله في مسارحه ليضفي عليها إضاءات وإشعاعات وظلالاً تنقلها من ذل الابتذال وهوان الضَّعة إلى شرف البعد ، وعز الصيانة بعيداً عن رتابة الإلف . واستمسكا بما جادت به القرائح المبدعة والملهمة من الصور الآسرة والجميلة التي تعمّقت بجذورها البعيدة في حِسِّنَا ، وأعماقنا ووعينا على نحو من الجمال والجلال والروعة وقد افتتن الخيال في تشكيلها بعد أن انطلق في مسارحه ليُضفي عليها

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دراستُ في مسائلِ علمِ البيانِ

إضاءة وإشعاعات تنقلها من ذل الابتذال وهوان الضعة إلى شرف البعد وعز الصيانة هذا والخيال السَّبَّاح حين يتناول الفكرة يجعلها تنمو وتتسع ، وتتركب ، وتتشعب وتتلون ، ويصورها في غير حقيقتها ويشكلها تشكيلاً آخر يجعل منها صورة جديدة تبدو في شكل مثير وجذاب ويظهر هذا في مظاهر منها إدراك التماثل في الأشياء المختلفة أو التخلف في الأشياء المتماثلة إذ الخيال عماد الأدب ولئن كانت وظيفة الأدب إبراز الحقائق في صورة أجمل وأمثل من صورتها ، فالخيال هو الطريق الحقيقي لهذا التصوير الجميل ، ولعرض تلك الحقائق في ثوب قشيب وجديد والخيال الإبداعي « يدمج ويوحد ويفري ويخلق ويهدم وينني ويفكك ويركب فالخيال إذ يغيّر نظام العلاقات بين الظواهر والأشياء إنما يمارس في الشعر حرية بلا حدود»^(١).

فالبليغ بمقدرته البيانية يستطيع أن يُحوّل التشبيه القريب المبتذل بعيداً عن الابتذال ، ويضعه في دائرة التشبيه الغريب بعد تجديده وبعثه على نحو آخر جديداً وحياً نابضاً .

إن خيال الشاعر يجب أن يبقى حراً طليقاً ، فلا يحاصر ولا تقيد حركته في سبْحه وانطلاقه حتى يرتاد الآفاق البعيدة المجهولة لبيدع الصور الغريبة المفتتة من التشبيهات البعيدة ، فالخيال وسيلة الشاعر وأداته الذهبية التي يخلق بها في آفاق المجهول بكل غوامضه ويغوص في أعماق النفس الإنسانية ليكشف خباياها ، والمطوي المستور من أسرارها ، ولذا فهو يتجاوز الواقع ويتخطاه في صورهِ المُلهمة ليشير الوجدان ، ويشري المشاعر بحيث تحدث تجاوبا مستمراً وتفاعلاً قوياً مع نفس المتلقّي يكون على نفس القدر أو يكون قريباً منه ، مما استحوز على نفس المصور ومنشئ الكلام ، وما تردد في صدره ، وجاشت به أحاسيسه بعيداً عن المغالطة والتزوير والتلفيق هذا ووسائل إخراج التشبيه من الابتذال والقرب إلى الملاحظة والحسن كثيرة منها :-

(١) الخيال مفهومه ووظائفه ص ٢٨٠ دكتور عاطف جودة نصر .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَةٌ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ❁

١- أن يؤتى بالتشبيه مطويا وهو لون من التشبيه غير المباشر الذي يسمى بالتشبيه الضمّني وهو ما لا يتبادر فيه طرفاه المشبه والمشبه به في البناء اللغوي لأسلوب التشبيه ، بل يفهمان من معنى الكلام ويكون المشبه به حجة وبرهانا على إمكان المشبه ، فالمشبه والمشبه به يُلْمَحان ويستنبطان من الكلام ومن الشواهد الذائعة في هذا المصطلح البلاغي قول أبي تمام :

لا تنكري عطل الكريم من الغني فالسيل حرب للمكان العالي
فأبو تمام على حد ما يقول الإمام عبد القاهر : « قد خيل إلى السامع أن الكريم إذا كان موصوفاً بالعلو والرّفعة في قدره وكان الغنى كالغيث في حاجة الخلق إليه وعِظَم نفعه وجب بالقياس إليه أن يزَلَ عن الكريم زليل السيل عن الطود العظيم ومعلوم أنه قياس تخييل وإيهام لا تحصيل وإحكام ، فالعلة في أن السيل لا يستقر على الأمكنة العالية أن الماء سيّال لا يثبت إلا إذا حصل في موضع له جوانب تدفعه عن الانصباب وتمنعه من الانسياب وليس في الكريم والمال شيء من هذه الخلال»^(١).

فالشاعر أبو تمام يتحدث إلى من يخاطبها ويقول لها لا تنكري خلو الرجل الكريم من المال والغنى ويبين أنه لا غرابة في هذا ويحتج لدعواه تلك بأن الأماكن العالية لا تحتفظ بالماء ولا يستقر فيها السيل فهو يشبه نفسه وقد خلت يده من المال بالقمة العالية وهي أشرف الأماكن وقد استقبلت مياه السحب والأمطار ولم تحتفظ بها وإنما أرسلتها إلى الوديان والسهول لتتجو من القحط ومن ذلك قول المتنبي :

وما أنا منهم بالعيش فيهم ولكن مَعْدِن الذهب الرغام

(١) أسرار البلاغة ص ٢٦٧ .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ —————﴾ دراستی في مسائل علم البيان

الشاعر الممتلئ التِّياه يرى أنه فوق أهل زمانه جميعاً وينبغي أن يكون واحداً منهم وإن كان يعيش بينهم ويحتج لدعواه تلك حين يبين أنه نظير للذهب الذي يختلط بالتراب وليس منه فالذهب شيء والتراب شيء آخر فهو يشبه حاله مع أهل زمانه حين يعيش بينهم وليس واحداً منهم بحال الذهب الذي يختلط بالتراب ولكنه شيء آخر مختلف عنه تماماً .

ومن هذا التشبيه المطوي قول أبي الطيب من قصيدة يمدح فيها هارون ابن عبد العزيز الكاتب :

لم تلق هذا الوجه شمس نهارنا إلا بوجهه ليس فيه حياء
المتنبى يريد أن يشبه وجه ممدوحه بالشمس في الإضاءة والإشراق وتشبيه الوجه بالشمس مما يجري على الألسنة ينطق به العامة والخاصة وكثرة استعماله فهو دان قريب مبتذل لعدم خفاء وجه الشبه فيه فهو جليٌّ ظاهر لا يتوقف في معرفته والوصول إليه إلى التروّي وإعادة النظر ولكي يرفع الشاعر من دنوِّ هذا التشبيه ويمحو ابتذاله وينقله إلى البعيد الغريب لجأ إلى الحديث عن الحياء ويبيّن أن الشمس لتفوق وجه الممدوح عليها في الإضاءة والإشراق لا يمكن لها أن تتجرأ على لقاء الممدوح إلا بوجه قد نزع الحياء منه وأن الأليق بها عند لقائه أن تتوارى خجلاً وبمثل هذا تصرف الشاعر التصرف الذي أراك من خلاله أن وجه الممدوح أكمل وأتم إشراقاً من الشمس وفي هذا تشبيه ضمني لأنه إذا كان وجه الممدوح أتم إشراقاً من الشمس فإن ذلك يستلزم اشتراكهما في أصل الإشراق فيتحقق التشبيه ضمناً مع ما في قلب التشبيه من مبالغة إذ المقصود تشبيه الوجه بالشمس لا خلاف ذلك .

ومن هذا قول أبي نواس :

إن السحاب لتستحي إذا نظرت إلى نداك فقاسته بما فيها

يريد أبو نواس أن يقول إن السحاب بكل ما يحمل من غيث ومطر يستحي من تشبيه عطائك وكرمك والتشبيه مأخوذ من مضمون الكلام وبمثل هذا

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ❁

التصرف يتحول التشبيه من قريب مبتذل إلى بعيد قريب ذلك أن تشبيه الكريم بالسحاب تشبيه ذائع ويجري على ألسنة الخاصة والعامة فهو دان قريب لكنه حين عرض في معرض التشبيه الضمني رفع من الدنو والقرب إلى الغرابة والبعد إذ أوهم أن السحاب حي يعقل وأنه يستحي ويخجل فحديث الاستحياء خرج بهذا التشبيه من ابتذاله إلى الرفعة والسمو يقول الإمام عبد القاهر «وكذلك يوهمك بقوله «إن السحاب لتستحي» أن السحاب حي يعرف ويعقل وأن يقيس فيضه بفيض كف الممدوح فيُخزي ويخجل»^(١).

ومن هذا قول الشاعر :

سَلْبَنَ ظَبَاءٌ ذِي نَفَرٍ طُلَاهَا وَتُجَلَّ الْأَعْيُنَ الْبَقَرَ الصَّوَارِ

وذو ونفر موضع والطلا : جمع طليئة وهي الأعناق ، ونجل الأعين من إضافة الصفة إلى الموصوف . والأعين النجل هي العيون الواسعة والصَّوَار القطيع من بقر الوحش وهي نجل العيون .

والتشبيه غير مباشر والمشبّه العيون النجل والمشبّه به عيون الظباء ، ووجه الشبه الجمال والحسن وفترة النظر وهنا أوهم وتخيل أن هنا سرقة قد تمت ، وأن العيون النجل مسروقة من عيون الظباء والتشبيه من البعيد الغريب ذلك أن تشبيه العيون الواسعة بعيون الظباء قريب وعامي مشترك لأن التشبيه صريح ظاهر لا تخيل فيه ولا إيهام ولم تلحقه صنعة لكن حين تُصرف فيها بأن ركب عليه معنى وجعل التشبيه مدلولاً عليه بأمر آخر من طريق ليس من قبيل الظاهر بعد أن تُعمد إخفاؤه حتى لا يعرف إلا بعد تأمل وتدبر صار بعيداً غريباً . ويقول الإمام عبد القاهر : «كذلك المشبّه إذا قال «سرقن الظباء العيون» فقد أوهم أن ثم سرقة وأن العيون منقولة إليها من الظباء وإن كنت

(١) أسرار البلاغة ، ص ٣٤٢ .

❧—————الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ—————❧ دراسة في مسائل علم البيان

تعلم إذا نظرت أنه يريد أن يقول : إن عيونها كعيون الأطباء في الحسن والهيئة
وفترة النظر»^(١).

ومن هذا الوادي قول ابن المعتز :

صَدَتْ شُرَيْرٌ وَأَزْمَعَتْ هَجْرِي وَصَعَتْ ضَمَائِرُهَا إِلَى الْغَدْرِ

قَالَتْ : كَبُرَتْ وَشِبَتْ قُلْتُ لَهَا هَذَا غُبَارُ وَقَائِعِ الدَّهْرِ

فالشاعر يتحدث إلى شرير التي تتهمه بأنه شاخ وكبر ، ولذا فالشاعر ينكر ما ادعته عليه ، ويرفض في إنكار أن يكون ما رأته به شيب ويجد أن الاعتصام بالجحد والإنكار هو الطريق المختصر إلى العيب وقطع الخصومة - ولم يسلك الطريقة العامة فيثبت المشيب ، ثم يمنع العائب أن يعيب ويريه الخطأ في عيبه ويثبت أن ما تراه هو أثر وقائع الدهر ومقارعاته .

ومثله قول أبي تمام :

وَلَا يَرُوْغُكَ إِيْمَاضُ الْقَتِيرِ بِهِ فَإِنْ ذَلِكَ ابْتِسَامُ الرَّأْيِ وَالْأَدَبِ

والقتير هو الشيب فهو يتأول الشيب الذي يتلأأ في رأسه بأنه نور العقل والحجى والأدب فهو ينكر أن يكون الذي في رأسه من المشيب كما يظن الناس وإنما هو نضج الرأي وظهور الأدب ، ومن التشبيه الضمني قول المتنبي :
أَرَيْقُكَ أَمْ مَاءُ الْغَمَامَةِ أَمْ حُمْرُ ؟ بَغِيَّ بَرُودٍ وَهُوَ فِي كَبْدِي جَمْرُ
أَذَا الْغَصْنَ أَمْ ذَا الدَّعْصَ أَمْ أَنْتَ فَتَّةُ ؟ وَذِيَا الَّذِي قَبْلَتْهُ الْبَرْقُ أَمْ ثَغْرُ

والشاعر يقف شاكاً متردداً ولكنه شك المتيقن الذي يُخْضِعُ موقفه في التصوير للنفس وتحولاتها والتي حين تشاق تسأل عنه ولكنه الشوق الذي يجعلها تتجاهل ما هي به عارفة لتسأل عنه ، ولتقدم إحساسها العميق وتجربتها الوجدانية من خلال فن تصويري يروق ويمتع . وليس بخفي أن

(١) أسرار البلاغة ، ص ٣٤٢ .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دُرُوسَةٌ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ❁

هناك تشابها يكاد يصل إلى درجة التماثل وكأن الشيء هو هو لا هو كهو أوقع الشاعر في الخلط وعدم التفرقة بين ريقها وماء الغمام ، وبين ريقها والخمر ، وبين قوامها والغصن ، وبين ردفها والدعص ، وبين ثَغْرُها والبرق ، لقد اشتد التقارب بين ريقها وماء الغمام وبين ريقها والخمر فشبه الريق بهما تشبيها غير مباشر كما شبه قوامها بالغصن ورَدَفُها بالدَّعص - وهو قطعة من الرمل مستديرة - وثَغْرُها بالبرق إن الشاعر لا يجهل أن الذي أمامه الريق لا ماء الغمام ولا الخمر وأن الذي يراه قوامها وليس الغصن ورَدَفُها وليس الدعاص وأن الذي قَبْلَهُ إنما هو الثَّغْرُ وليس البرق ولكنه التجاهل الذي يفرضه العارف بالموقف على الموقف فيثري التجربة الوجدانية ويزيدها عمقا ^(١).

ومن هذا القبيل قول ابن نباته في صفة الفرس :

وأدهم يستمدّ الليل منه وتطلعُ بين عينيه الثريا ^(٢)
سرى خلف الصّباح يطيرُ مشيا ويطوي خلفه الأفلاك طيّا
فلما خاف وشكّ الفتوت منه تشبّث بالقوائم والمُحيا

فابن نباته يبالغ في شدة سواد الفرس ؛ لذا جعله أصلا في السواد لدرجة أن الليل يستمد منه سواده وظلمته على خلاف الأصل والمعروف من تشبيه الفرس بالليل في السواد ؛ لذا لجأ إلى عكس التشبيه بجعل الأصل فرعا والفرع أصلاً ولم يكتف بهذا ويتوقف عند قلب التشبيه وعكسه وإنما بالغ في شدة سواد الفرس فجعل الليل يستمد سواده منه وكأن السواد في جانب الفرس لا يقادر قدره فهو يفيض بجزء من سواده على الليل ، والليل يستمد لونه من الظلمة ، والسواد منه ، ثم مضى يتحدث عن سيره وجريه وراء الصباح ومطارده إياه في تصوير عجيب وفي سرعة سريعة ومثيرة فهو لا يسير وراءه السير المعهود

(١) التصوير البياني في شعر المتنبي للمؤلف ص ١٥٢ ، الطبعة الأولى .

(٢) الثريا : هي الغرة أو ما يكون فوق الرأس من الحلية .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ﴾

وإنما يطير خلفه مشياً ويطوي الأفلاك طياً ثم إن الصباح لما خاف فوته وسبقه تشبّت بقوائمه ومُحيّاه وذلك هو السرّ وراء بياضهما ، فالغرة في جبهة الفرس ، والتّحجيل في قوائمه من بقايا نور الصباح .

وهكذا ترى الحياة وقد بثت في الصباح الذي يجري وهو خائف مرتجف خوفاً من أن يفوته الفرس ويتجاوزته ويتخطاه ، ولم ير أمامه من سبيل حتى لا يسبقه إلا أن يتشبّت بقوائمه ومُحيّاه حينما حاول أن يفوته ويسبقه وهكذا يصنع الخيال صنعه إذ ترى أن البياض في الغرة والقوائم إنما هو أثر أصابع الصباح التي تشبّت بهما حتى لا يسبقه أو يفوته ويتجاوزته .

ويقول الإمام عبد القاهر : وأحسن من هذا وأحكم صنعة قوله في قطعة أخرى في صفة فرس أغر محجل^(١) :

فكأنما لَطَمَ الصَّبَاحُ جَبِينَهُ فاقْتَصَّ مِنْهُ وَخَاضَ فِي أَحْشَائِهِ

فنحن هنا مع صباح يجيش بالحياة ويمور بها على نحو يشير الدهشة إذ يلطم الفرس في وجهه ويخلف هذا اللطم غرةً في جبين الفرس الذي يتحرك في ثورة عنيفة ليأخذ بحقه ، وليقتص من الصباح فيخوص في أحشائه على نحو ترك أثراً في قوائمه التي غطاها البياض ، وهكذا ترى الخيال المصور يُطلّ عليك من خلال رؤيتك للصباح الذي ينفعل فيلطم الفرس ويترك أثراً من نوره في جبهته ومن خلال الرّدّ العنيف والمثير من الفرس الذي يخوض في أحشائه وهذا طريق يتكثف فيه التصوير بالتشبيه والاستعارة حين يتعانق التشبيه مع المجاز .

٣- مما ينقل التشبيه من الابتذال والقرب إلى الغرابة والبعد تقييد المشبه به أو المشبه بقيد يتيّن به فضل المشبه على المشبه به سواء كان التقييد بأسلوب الشرط أو الاستثناء أو الاستدراك .

(١) أسرار البلاغة ، ص ٢٨٦ .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دُرُوسَةٌ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ❁

فمما جاء بأسلوب الشرط ما هو ذائع في هذا من قول رشيد الدين :
 عزماته مثل النجوم ثواقبا لو لم يكن للثاقبات أفول
 وتشبيه العزائم بالنجوم ذائع وشائع فهو متداول قريب لکن الشاعر حين
 شبه عزائم الممدوح التي تخترق الصعاب ، وتتجاوز الحدود بالنجوم التي
 تُثَقَّبُ الظلام وتبدد دياجيره نظرَ وتأمل فوجد أن عزائم الممدوح باقية أبداً ،
 وماضية دوماً ، لا تتخلف في أي وقت أمّا النجوم فهي تظهر حيناً وتتوارى
 حيناً آخر إذ هي تأفل وتغيب فاشترط لتحقيق التشبيه ألا يكون لهذه النجوم
 أفول فدلّ بهذا الشرط على تفضيل عزائم الممدوح لأنها نافذة الأثر على
 الدوام ، أما النجوم فأثرها مقصور على وجه بزوغها وتألقها دون وقت أفولها
 وغروبها وبهذا التفضيل انتقل التشبيه من الداني القريب إلى البعيد الغريب ومما
 جاء بأسلوب الاستثناء قول أبي تمام :

مها الوحش إلا أن هاتا أوانس قنا الخط إلا أن تلك ذوابل
 فالشاعر يشبه النسوة هنا بقر الوحش في حسن العيون وجمالها ، ويبين أن
 النسوة أوانس يؤنس بهن ، ويرتاح إلى التحدث معهن ، ولذا يشترط التحقيق
 التشبيه وتمامه أن يتحد الطرفان في الأنس والملاطفة وإلا فإن تميز النسوة على
 مها الوحش ثابت لا يزول ولا يتغير مع أنهما يتلاقيان في جمال العيون
 وحسنها كما يشبه النسوة مرة أخرى في انتصاب القامة واعتدالها بالرماح
 الخطية ويشترط لتمام التشبيه أن يتخذ الطرفان في الملامسة والنعومة التي
 ينتصف بها قدا لنسوة وقوامهن وإلا فإن فضل النسوة على الرماح ثابت
 لا يزول ولا يتغير .

ومما جاء بأسلوب الاستدراك

ألا يا رياض الحزن من أبرق الحمى نسيمك مسروق ووصفك متحل
 حكيت أبا سعد فنشرك نشره ولكن له صدق الهوى ولك الممل

❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

فالبيت الأول فيه تشبيهه ضمني معكوس إذ يشبه فيه رقة النسيم برقة طبع الممدوح وعذوبة أخلاقه وأكد هذا ووثقه بتشبيهه مباشر وصريح ومقلوب في البيت الثاني بأن شبه ما في النسيم من رقة ولطف ورائحة طيبة برقة الممدوح وطيب رائحته واشترط لتحقيق التشبيه أن يكون للنسيم ما للممدوح من دوام الحب له ، وصدق الهوى فيه ، وفتنة القلوب به . وهذا بعيد إذ أن كثيراً ما يمل الناس رقة النسيم إذا لم تقو أجسامهم على تحملها وقد انتقل التشبيه من دائرة القرب والابتدال إلى دائرة الحسن والجمال يستبين الأول ما شرط فيه لتحقيق التشبيه والثاني مجيؤه على طريق القلب ومن هنا يعد قلب التشبيه والإتيان به معكوساً من الأسباب التي تحقق الغرابة والبعد في التشبيه ومن الواضح في هذا قول البحثري :

فِي طَلْعَةِ الْبَدْرِ شَيْءٌ مِنْ مُحَاسِنِهَا وَلِلْقَضِيبِ نَصِيبٌ مِنْ ثَنِيَّتِهَا

فالبدر بكل ما فيه من إشراق وضياء إنما يستمد طلوعه ونوره من شيء مما تتمتع به من حسن وجمال ومثل ذلك القضيب مهما كان فيه من ليونة لأنه إنما يسمو ليونته وطراوته من شيء ونصيب من تثنيته فهو قد شبه أولاً طلعة البدر بمحاسن المرأة وجمالها وشبه ثانياً تثني القضيب بتثني تلك المرأة والتشبيه مقلوب يفيد المبالغة يجعل الأصل في وجه الشبه فرعاً والفرع أصلاً ولكن ما أثبتته من التباعد بين الطرفين في وجه الشبه بقوله : « شيء » و « نصيب » يفيد مبالغة أقوى وأشد كأن الشبه إنما يتحقق بقليل من الحسن ، وقدر بسيط من التثني .

٤- ومما يحقق الغرابة والبعد الجمع بعدة من التشبيهات كقول امرئ

القيس في وصف جواده

لَهُ أَيُّطَلَا ظَبْيِي وَسَاقًا نَعَامَةً وَإِرْخَاءَ سِرْحَانٍ وَتَقْرِيبَ تَنْفَلٍ

فهنا جمع بين عدة من التشبيهات إذ شبه خاصرتي جواده بخاصرتي



الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ الْبَيَانِ ————— ❁

الطبي ، وساقيه بساقي النعامة وجريه في لين وسهولة بإرخاء السرحان في لينه وعدم الإجهاد ، وعدوه بتقريب ولد الثعلب وكلها تشبيهات تدور حول الفرس

٥- أن يتصرف في التشبيه بنوع من التصرف كأن يضاف إليه زيادة لطيفة تحوله من الدنو والابتدال إلى جعله سحرا يخلب ، وجمالا بسلطانه القوي ، ونضرته الزاهية التي تبعث على التخيل والتصور يقول صاحب الوساطة وهو يتحدث في السرقة « ولم يزل العامة والخاصة تشبه الورد بالخدود والخدود بالورد نظما ونثرا وتقول فيه الشعراء فتكثر وهو من الباب الذي لا يمكن ادعاء السرقة فيه إلا بتناول زيادة تضم إليه أو معنى يشفع به كقول علي بن الجهم :

عَشِيَّةٌ حَيَانِي بِوَرْدٍ كَأَنَّهُ خُدُودٌ أَضِيفَتْ بَعْضُهُنَّ إِلَى بَعْضٍ فَأُضَافَ بَعْضُهُنَّ إِلَى بَعْضٍ لَهُ ، وَإِنْ أَخَذَ فَمَنْهُ يُوْخَذُ ، وَإِلَيْهِ يَنْسَبُ »^(١).

يريد الشاعر أن يشبه الخدود بالورد في الحمرة والنضارة والجمال ولكنه عكس التشبيه وقلبه إذ جعل الورد مشبها له لإيهام أن الخدود أتم وأكمل في الحمرة والجمال من الورد مبالغة في وصف الوجوه بالتورد والحمرة والحسن والجمال وهذا التشبيه متداول على الألسنة وذائع مشهور تجري به أقلام الكتاب والشعراء لكن الحسن قد أتى إليه من إضافة وزيادة بعضهن إلى بعض فهذه الزيادة نقلت التشبيه إلى مستوى آخر من الحسن والتميز والجمال إذ تطالع في قوله : خدود أضيف بعضهن إلى بعض .

هذه الخدود الأسيلة المشربة بالحمرة بما فيها من وسامة ، وجمال هيئة عليها إشراق الحيوية وطلعة البدر الذي يقف عليها البصر لا يرتد ولا يطرف وهي تروع بنضرتها وعافيتها ، وحيويتها مما جعل التشبيه بعيدا غريبا

(١) الوساطة للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني ص ١٨٧ .



❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

ومن ذلك قول أبي سعيد المخزومي :

والورد فيه كأنما أوراقه نُزِعَتْ وردٌ مكانهن خُود

ويقول صاحب الوساطة فيه : « فلم يزد على التشبيه المجرد ، لكنه كساه هذا اللفظ الرشيقي فصرت إذا قسته إلى غيره وجدت المعنى واحدا ، ثم أحسست في نفسك عنده هذه ، ووجدت طُرْبَةً تعلم لها أنه انفراد بفضله لم ينازع فيها »

وكلام القاضي يحثنا على أن نسأل من أين جاءته هذه الفضيلة التي لا ينازع فيها والتي حققت فيه هذا الجمال وألقت عليه تلك الروعة ؟ وبالنظر نجد أن الشاعر لم يعتمد إلى تشبيه الورد بالخد في التوارد مباشرة على نحو ما فعل ابن جهم وإنما ارتفع إلى أفق آخر إذ بدل وحوّر في تصويره فقد صور أن الورد قد نزع أوراقه ورد مكانهن خدود فهي تحكي عن نزع أوراق الورد وإحلال الخدود محلها مما يؤول إلى تشبيه الورود بالخد وربما في ذلك من فتنة وجمال وطرافة من خلال هذا التصوير العجيب والمدهش ، إذ ترى فيه الخدود قد أخذت مكان الورود في جمال وسحر وصارت سيقان الورد الندية لا تحمل وردا ينفخ بالعدي والشذا وإنما تحمل خدودا ترسل السحر ، وتفتقر عن الدرر تتفجر بالشباب والحيوية وتفيض بالنعيم وبمثل هذا التصوير الذي ركبت فيه الخدود مكان الورد مما يملأ الخيال بالتأمل الحالم ، ويشير الإعجاب في النفس ، ويشيع اللذة في الشعور ، إذ ترى كيف يتلاقى جمال العذارى مع جمال الزهر والطبيعة في جو البهجة والأنس ليكون ذلك بهذه النفس وامتعة النظر وفرق بين تصوير ابن جهم وتصوير أبي سعيد إذ ترى الخدود عند ابن جهم هي الخدود وقد بقيت على حالها لم تتغير ولم تتحول ولكن أضيف بعضهن إلى بعض أما أبو سعيد فإن الخدود قد ركبت مكان الورد فصرت ترى السيقان لا تحمل وردا وإنما تحمل خدودا في صورة خيالية لا وجود لها بكل هيئتها في الخارج .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ————— ❁

ومما هو من وادي صنعة على بن الجهم صنعة امرئ القيس في حديثه عن سرعة ناقته فيشبهها في ذلك بتيس الظباء في عدوه فيقول أو تيس أظل ببطن واد : وقد أفرد الغزال .

فتشبيه الناقة في سرعتها بتيس الظباء في عدوه من الذائع الجهير فهو من الداني القريب لكن امرأ القيس زاد هنا قيда في المشبه به وهو قوله : « وقد أفرد الغزال » وهذه الزيادة وسعت المعنى ، وكبرت مساحته ، ونقلت التشبيه إلى مستوى آخر من البعد والغرابة ذلك أن المراد من التشبيه هو إثبات السرعة لأن التيس إذا أفرد الغزال كان عدوه أسرع ؛ لأنه على حد تعبير القاضي الجرجاني قد اجتمع للتيس الخوف والوله يقول علي بن عبد العزيز الجرجاني ومن ذا يشك في فضل امرئ القيس يشبه الناقة في سرعتها بتيس الظباء في عدوه بقوله :

أو تيس أظـبـ ببطن واد يعدو وقد أفرد الغزال

على كل ما قيل فيه والمعنى واحد لكن امرأ القيس زاد فراد الغزال وهذه زيادة حسنة ، لأنه إذا أفرد اجتمع للتيس الخوف والوله فكان أشد لعدوه^(١) .

هذا القيد في بيت امرئ القيس على حد الزيادة في بيت علي بن الجهم الذي جعل الورود يضم بعضها إلى بعض لكي يحيا بها وامرؤ القيس يصف الطعنة ويشبهها في سعتها بحب الحمقاء وذلك في قوله :

كحب الدفـنس الـورـها ء ريعت وهي تستفلي

والدفنس المرأة الحمقاء والدفنس أيضا المرأة الرعناء البلهاء وامرأة ورهاء خرقاء بالعمل والورة الحمق وتستفلي : اشتهد أن تفلي

وتشبيه الطعنة في سعتها وعدم انتظامها بحب الحمقاء التي ريعت وهي تستفلي من التشبيهات بهذا المستوى من الداني القريب لكن إضافة هذا القيد له

(١) الوساطة ص ١٨٨ .

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

وهو « رِيعَت وهي تستفلي » حول التشبيه إلى البعيد الغريب على أن هذا التشبيه والذي قبله تتمثل فيهما الحركة من خلال المرأة الحمقاء والرعاء والبلهاء حين تستثار وهي فزعة خائفة فتتحرك في رعونة وطيش في أكثر من اتجاه والتشبيه في البيت السابق ترى فيه إضافة هذا القيد في قوله: وقد أفرد الغزل مما يبعث في نفس التيس كثيرا من الخوف والفزع بما في ذلك من حركة واعية من دواعي الحسن والجمال في التشبيه ^(١).

ويقول القاضي الجرجاني : « ومن ذا يشك في فضل امرئ القيس زاد في قوله يصف الطعنة :

كجَيْبِ الدَّفْنِسِ الْوَرْهَاءِ ءِ رِيعَتِ وَهِيَ تَسْتَفْلِي
على كل من شبهها بجيب الحمقاء وجيب الفتاة لأنها إذا ربعت وهي تستفلي عجلت عن الرفق » ^(٢).

ومن التشبيهات التي انتقلت من الابتذال والقرب إلى الجمال والحسن ما تراه في قول طرفة :

وَتَبَسُّمِ عَنْ أَلْمِي كَانَ مَنْوَرًا تَحُلُّ حَرَّ الرَّمْلِ دَعْصٌ لَهُ نَدِ
وَوَجْهٌ كَانَ الشَّمْسُ أَلْقَتْ رِداءَهَا عَلَيْهِ نَقْيُ اللَّوْنِ لَمْ يَتَخَدَّدِ

الثغر الألمي الأسمر اللثة وهم يمدحون سمرتها لدلائها على اكتناز الدم فيها وهو أمانة الصحة كما أنه يبين بياض الأسنان والمنور صفة لموصوف محذوف أي كأن أقحوانا منورا فيها أي ظهر نوره وخبر كأن محذوف يعود على قوله « ألمي » وتحلل دخل في خلله وحر الرمل خالصة . والدعص الكثيب من الرمل والندى يكون دون الابتلال الفعل يندى يندى ندى

(١) انظر التصوير البياني للأستاذ الدكتور محمد أبو موسى ص ١٤٦ .

(٢) الوساطة ص ١٨٨ ، ١٨٩ .



الصورة البيانية ————— دراستي في مسأله البيان ————— ❁

وهو يريد أن يقول : إن حبيته تبسم عن ثغر جميل أسمر اللثات كأن فيه أقحوانا ظهر نوره وهذا الأقحوان قد نبت في كثيب من الرمل في أسفل الندى والندى دون الابتلال فشبه أسنانها في بياضها بنور الأقاحي وتشبيه السنان البياض بنور الأقاحي من المتداول الذي يجري على الألسنة فالتشبيه دان قريب ولكن ما أضافه الشاعر هنا حيث اشترط لتحقيق التشبيه لمي الشفتين وسمرتهما ليكون ذلك أبلغ في ظهور بريق الأسنان وأدعى لتحقيق بياضها وشدة تألؤها كما اشترط في المشبه به وهو « نور الأقاحي » أن يكون الأقحوان قد نبت في كثير من حر الرمل « دعص له ند » لأن ذلك أدعى لزهوه ونضرتة وكماله وبهذا انتقل التشبيه إلى الغرابة والبعد أما البيت الثاني وهو :

ووجهٌ كأن الشمس ألفت رداءها عليه نقي اللون لم يتحدد قوله : ووجه أي لها وجه ومعنى ألفت رداءها عليه أي قلعته وألبسته إياه ولم يتحدد بـيَغُضْنَ بـيَغُضْنَ .

وتشبيه الوجه بالشمس في الإشراق من القريب المبتذل لكثرة ترده على الألسنة لكن الشاعر تصرف في الصورة تصرفاً آخر بث الحياة فيها حين صور الشمس بأن لها رداء تلبسه وتكتسي به وأنها خلعتة وألقته على هذا الوجه بهذه الصورة وفي هذا التصرف خيال عجيب إذ ألقى على الصورة ظلالاً وألواناً جعلها تزخر بالحياة وتمتلئ بها مما أشاع الحسن فيها وزادها بهاء وإشراقاً وخلع عليها وشياً ينضرها ويعمق سحرها مما جعلها تثير في النفس الإعجاب من حسن التصوير الذي حقق لها الجمال وألقى عليها مزيداً من الحسن ولذا انتقلت الصور إلى البعد والغرابة هذا وقد كان القاضي الجرجاني يدرك ما بين الصور من فروق ويشير إلى ذلك إشارة طائفة فيها شيء من العموم كأن يشير إلى فضل بعض الزيادات مما يحقق الفضل لصورة على غيرها حين يقول : « وقد يتفاضل متنازعو هذه المعاني بحسب مراتبهم من العلم بصنعة الشعر فتشترك الجماعة في الشيء المتداول ، وينفرد أحدهم بلفظة تُستعَدَّب ،

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

أو ترتيب يُسْتَحْسَن ، أو تأكيد يُوضع موضعه أو زيادة اهتدى لها دون غيره
فيريك المشترك المبتذل في صورة المبتدع المخترع كما قال لبيد :

وجلا السيول عن الطلول كأنها زُرُّ ، تُجدُّ متونها أقلامها^(١)

فأدى إليك المعنى الذي تداولته الشعراء ، قال امرؤ القيس :

لَمَنْ طَلَّلَ أَبْصَرْتَهُ فَشَجَانِي كَخَطِّ زَبُورٍ فِي عَسِيبٍ^(٢) يَمَانِي

وقال حاتم :

أَتَعْرِفُ أَطْلَالَ وَنَوَّيَا^(٣) مُهْدَمَا كَخَطِّكَ فِي رَقِّ كِتَابَا مُتَمَنَّمَا

وقال الهذلي :

عَرَفْتَ الدِّيَارَ كَرَسَمِ الْكِتَابِ بَازِبِرِهِ الْكَاتِبِ الْحَمِيرِي

وأمثال ذلك مما لا يحصى كثرة ولا يخفى شهرة وبين بيت لبيد وبيتها
ما تراه من الفضل ، وله عليها ما تشاهد من الزيادة والشف^(٤).

وللوقوف على هذا الذي أشار الجرجاني إليه من الفضل والزيادة علينا أن
نقف على ما يريد أن يقوله الشاعر فلبيد يرجع البصر في حسرة وأنين وتوجع
وهو ينظر إلى آثار هذه الديار التي خلفت أثرها في نفسه هذه الديار الدارسة
التي عفا عليها الزمن محلها فمقامها وقد أزال السيول التراب عنها ، وبددت
ما نسجته الرياح عليها ، فكشفت عن بقايا معالمها وأمام هذه البقايا التي
ظهرت يثور الشوق في صدر الشاعر إلى تاريخه معها فيقف ليسترجع ذكرياته
فيها وقد تجاوزت بأصداؤ الأسى والحزن نفسه وليسألها ويستنطقها ، ويناجيها

(١) الزبور : الكتاب والجمع زبر وتجد : تجدد .

(٢) العسيب : سعف النخل .

(٣) النوى : مجرى يحفر حول الخيمة يقيها السيل .

الشف : الزيادة والفضل .

(٤) الوساطة ص ١٨٦ ، ١٨٧ .



الصورة البيانية ————— دراستي في مسانيد البيان ————— ❁

فكم تصابي في ملاعبها ونواحيها وكم شعر بالدم الحار يتدفق في جسمه نشيطا في أجوائها وهذه الطلول كان للسيول فضل عليها فقد جددتها ، وكشفت عنها ووصلت أسباب المعرفة بها فكانت كأقلام جددت خطوط كتابة باهتة على صفحات كتب فجددتها وأظهرتها . فالشاعر التي تذوب حشاشته على عرك الحزن يتحدث عن آثار هذه السيول على الطلول وإظهارها وكشفها فيشبهها بآثار الأقلام التي تمر على ما بهت من الكتابة على صفحات الكتب التي أبلاها الزمن ، وأخفاها فتجدها وتجليها وتظهرها فهو يبين ويصف حاله من أحوال الطلول تلك الحالة هي تجديد السيول لها وإظهارها بعد إزاحة ما خلفته الأيام من التراب عليها ، وكنسه بعيدا عنها وهذه الحالة يقابلها في الحد الثاني من الصورة « المشبه به » قوله « تجدد » بما تحمل من تجديد الخطوط الباهتة وتجليتها على نحو تظهر فيه وتتضح مع ما يصاحب ذلك من حركة تظهر من خلال السيول التي تفيض وتهطل فتزيج ما على الطلول من تراب وهبوات لتظهر واضحة في جلاء مع ما يقابلها من حركة في المشبه به من خلال حركة الأقلام التي تجدد ما خفي من الكتابة وما بهت منها فتظهرها واضحة في جلاء على أن التناسق الإيقاعي الذي أحدثه التلاؤم الصوتي والتناسب بين الطلول والسيول يحدث رنينا عذبا وإيقاعا منغما يحقق لببت لببتا وتميزا وفضلا والغرض الذي تلتقي الأبيات فيه غرض واحد وإن اختلف التصوير فيها في الجملة فلئن كانت الأقلام تجدد ما بهت من الكتابة عند لببت فإن الطلل الذي أبصره امرؤ القيس فكان داعية لأحزانه فتوجع وتألم حتى صار في طريق الحياة كالمكد والكئيب ، وكالشارد المهموم ينشد الراحة ولا يجد الظل فهو كخط زبور في عسيب يمانى إذ درس وخفيت آثاره ، وضاعت معالمه فلا يرى منه إلا مثل الخطوط الباهتة في كتاب وحين نوازن بين الصورة عند لببت وبينها عند امرئ القيس نجد الصورة عند لببت فيها حركة وصوت من خلال السيول الشديدة العنيفة التي تهطل وتنهمر فتكن وتكتسح ما على الطلول فتجدها

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

وتظهرها وتكشفها أما الصورة عند امرئ القيس فإنها تلوذ بالصمت فلا ضجيج ولا حركة فلا ترى منها إلا هذا السكوت المطبق ، والهمود الموحش ، والصمت العميق ، إذ يختفى الصوت وتنمحي الحركة شأنها شأن الطلل بما يجعله من تاريخ وذكريات فتجدد أوجاع الشاعر ، وتثير شجونها ، ويضاعف مأساه حزنًا على أيام غاصت في طوايا العدم كانت تضج باللهم وتغمر نفسه بالسعادة وتملاً شعوره بالنعيم .

والصورة عند حاتم لم تشجه في صراحة ولم تحزنه في إبانة ووضوح وإن كان يستفهم بالحاح عن الأطلال ويجتهد في طلب معرفتها واستفهامه الملح هذا يدل على مدى تعلقه بها ، ورغبته فيها وفي ذلك ثراء للصورة وغنى لها ، لأنه بهذا قد عبر عن حال نفسه المتعلقة بهذه الأطلال وذكرياته معها ، وأيامه الرخية التي مضت كإشعاع الحلم والتي قضاها فيها يرتع ويلهو ويلعب وقد شبه الأطلال بالكتاب المنمنم أي المرقش والمزخرف وهذه النمنمة في الخط قرينة الشبه بآثار الديار على أن تشبيهه الأطلال بالكتابة المنمنمة يلتقي مع امرئ القيس الذي شبه الطلل بخط زبور في عسيب يمانى

أما الهذلي فإنه يشبه الديار برسم الكتاب الذي يزبره ويكتبه الكاتب الحميري والشاعر حين شبه الديار بالكتاب أشار إلى أن الذي يزبره ويكتبه كاتب حميري والتعبير بقوله يزبره وهي فعل مضارع تضعنا أمام صورة الحدث وتضعه أمامنا وكأننا أمام كاتب حميري يكتب كتابا يزبره أمامنا وكأننا نراه ونبصره وهو وإن كان يتحدث عن الديار فلم يبين أنها أشجته وأحزنته كما لم يبين عن تعلقه بها ، ورغبته فيها ^(١).

* * *

(١) انظر التصوير البياني للأستاذ الدكتور محمد أبو موسى ص ١٦٥ .

التشبيه والتشابه

المعروف أن التشبيه إن أريد به تحقيق مبالغة ألحق الناقص في وجه الشبه بالكامل ومن اللازم أن يكون له في المشبه به مزية لا توجد في المشبه كأن يكون وجوده في المشبه به أكثر وضوحاً منه في المشبه، أو أن يكون أقوى وأتم حقيقة إذا عاد الغرض على المشبه أو ادعاء إذا أعاد على المشبه به ومتى كان الأمر على هذا النحو جيء بصيغة التشبيه لتشعر بهذا التفاوت بين الطرفين .

أما إذا لم تقصد المبالغة في التشبيه من إلحاق الأصغر بالأكبر والناقص بالكامل وإنما قصد تساوي الطرفين في وجه الشبه على نحو تتحير معه أيهما يكون المشبه وأيهما يكون المشبه به فالأحسن في هذا اللجوء إلى صيغة التشابه أو ما يماثلها من كل ما يدل على حصول المعنى من الطرفين على السواء مثل تشابه وتماثل فنقول تشابه محمود والأسد ، وتماثل وجهه والبدر وتحاكى نواله والغيث ، ونحو ذلك من كل فعل لا مفعول له للإشعار بأنه لا يوجد تفاوت بين الطرفين وإنما هي في مستوى واحد ووجهة واحدة وعلى هذا جاء قول أبي إسحاق الصابي في وصف الخمر

تَشَابَهَ دَمْعِي إِذْ جَرَى وَمَدَامَتِي فَمَنْ مِثْلُ مَا فِي الْكَأْسِ عَيْنِي تَسْكُبُ
فَوَاللَّهِ مَا أَدْرِي أَبَاخْمَرٍ أَسْبَلْتُ جُفُوفِي أَمْ مِنْ غَيْرَتِي كُنْتُ أَشْرَبُ

فلقد خيل للشاعر بسبب معاناته من برح الجوي وعذابه أن دمه الذي يهطل على خده أحمر قان فشبهه بما في كأسه من الخمر في الحمرة - غير أنه زعم أن الخمر والدمع تساويا في وجه الشبه بحيث لا يُفَضَّلُ أحدهما الآخر فيه حتى أشكل عليه الأمر فلم يدر أكانت عيناه تسكبان خمرا فكان يشرب خمرا أم كانتا تسكبان دمعاً فكان يشرب دمعاً ؟ لذا لم يستخدم صيغة التشبيه واستعمل صيغة التشابه المفيدة لمعنى التساوى على حد ما زعم :

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

ومن التشابه قول الصاحب بن عباد :

رَقَ الزَّجَاجُ وَرَاقَتْ الْخَمْرُ فَتَشَابَهَا فَتَشَاكَلِ الْأَمْرُ
فَكَأَنَّمَا خَمْرٌ وَلَا قَدْحٌ وَكَأَنَّمَا قَدْحٌ وَلَا خَمْرٌ

ادعى المساواة بين الخمر والقدر في الصفاء فعَدَلَ عن التشبيه إلى التشابه لتمهيد السبيل إلى أنها أَشْكَلا عليه ، فلم يستطع التمييز بين أحدهما والآخر . على أن استخدام صيغة التشابه حيث يتساوى الطرفان في وجه الشبه على جهة الأفضلية والاستحسان لا يمنع من جواز استخدام صيغة التشبيه في نفس هذه الحالة حين يراد الجمع بين الطرفين في صفة وإفادة تساويهما فيها بغض النظر عن زيادتها في إحداهما ونقصها في الآخر كتشبيه غرة الفرس بالصبح وعكسه ، والمراد بيان مساواتهما في وجه الشبه وهو ظهور منير في مظلم قاطعا النظر عما هناك من قوة الإشراق في الطرفين غير أنه في تشبيه الصبح بغرة الفرس على الوجه الذي ذكر وهو إرادة الجمع بين الطرفين في صفة مع إرادة تساويهما فيها لا يعد ذلك من التشبيه المقلوب .

* * *

الفصل الثاني

المجاز اللغوي

توطئة :

سبق أن عرفنا أن التشبيه علاقة توازن بين طرفين يجتمعان أو يشتركان في حالة أو في أكثر من حالة ومعنى هذا أن التشبيه يَقْرُنَ أَحَدَ الطرفين بالآخر ويقيسه عليه والطرف المقيس هو المشبه ، والمقيس عليه هو المشبه به وهو بهذا يفيد الغيرية ولا يفيد العينية أو الاتحاد فالحدود بين الطرفين قائمة وواضحة ويتحقق هذا في وجود أداة التشبيه التي تقف بمثابة الحاجز أو الفاصل الذي يفصل بين الطرفين . وحتى لو حذفت أداة التشبيه للاختصار أو للمبالغة فإن مبدأ تميز كل طرف من طرفي التشبيه لا يُلغى ، وإنما يظل قائماً وثابتاً والتشبيه في كل صوره أصل أساسي من أصول الصور البيانية لتصويره المعنى تصويراً هادئاً يحافظ على الحدود الفاصلة بين الطرفين فيه لأنهما شيئان متمايزان وليساً شيئاً واحداً ، ولذا نال حظاً أكبر من الدراسة المبكرة وحظي بقدر من الاهتمام والتعاطف لم تحظ به الاستعارة مع أنها مبنية عليه ، وقائمة على أساسه ولأن التشبيه يحتفظ للطرفين بذاتيتهما كان أكثر جريانا على ألسنة الشعراء في العصور التي يكونون فيها أقل حدة في الخيال ، وأكثر خضوعاً لأحكام العقل وعلة والأداة فيه تثير انتباه المتلقي إليه إذ إنها

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

بمِثَابَةِ الْفَاصِلِ بَيْنَ شَيْئَيْنِ عَلَى أَنْ كَثُرَتْ فِي الْعُصُورِ الْأُولَى لَفَتَتْ انْتِبَاهَ الدَّارِسِينَ إِلَيْهِ فَاهْتَمَوْا بِهِ اهْتِمَامًا زَائِدًا ، وَشَغَلُوا بِهِ أَكْثَرَ مِنْ سِوَاهُ مِنَ الْأَنْمَاطِ الْبَلَاغِيَّةِ لِلصُّورَةِ الْبَيَانِيَّةِ مِنْ أَجْلِ هَذَا نَالِ التَّشْبِيهِ حُظًا أَوْفَرَ مِنَ الدِّرَاسَةِ الْمُبَكَّرَةِ الَّتِي لَمْ تَتَوَفَّرْ بِنَفْسِ الْقَدْرِ لِلِاسْتِعَارَةِ الَّتِي لَا تَحَافِظُ عَلَى التَّمَايِزِ وَالْإِنْفِصَالِ بَيْنَ طَرَفَيْهَا ، وَلَا تَنْفَرُ مِنَ التَّدَاخُلِ ، وَالِاخْتِلَاطِ بَيْنَهُمَا . وَمِنْ الْمَعْرُوفِ أَنَّهُ لَمْ يُوجَّهْ اللُّومُ لِمَنْ أَكْثَرَ مِنْ اسْتِخْدَامِ التَّشْبِيهِ كَمَا وَجَّهَ لِمَنْ أَسْرَفَ فِي اسْتِخْدَامِ الْاسْتِعَارَةِ وَآيَةُ ذَلِكَ ابْنُ الْمَعْتَزِ وَأَبُو تَمَامٍ ، فَالْأَوَّلُ يُقَالُ فِي شَأْنِهِ «ابْنُ الْمَعْتَزِ حَسَنُ التَّشْبِيهَاتِ بِدِيعِهَا»^(١) بَيْنَمَا الثَّانِي قَدْ لَاحَقَتْ اسْتِعَارَاتُهُ الرِّيبَ وَالظَّنُونَ ؛ لِأَنَّهُ فِي كَثِيرٍ مِنْهَا عَلَى حَدِّ تِلْكَ النَّظَرَةِ خَرَجَ عَلَى عَمُودِ الشَّعْرِ ، وَأَخْلَ بِالتَّمَسُّكِ بِمَا أَلْفَهُ الْعَرَبُ ، وَتَعَوَّدُوا عَلَيْهِ .

* * *

(١) أسرار البلاغة ، ص ٩٥ .

المجاز أنواعه باعتبار الأفراد والتركيب

اللفظ المتجوز به إن كان مفرداً سمي مجاز مفرداً كقول المتنبي .
سَرَى السَّيْفُ مِمَّا تَطْبَعُ الْهِنْدُ صَاحِبِي إِلَى السَّيْفِ مِمَّا يَطْبَعُ اللَّهُ لَا الْهِنْدُ
فهو يريد أن يقول سریت ومعی السیف مصاحباً لي فهو صاحبي إلى سيف
أي الممدوح ، فقد شبه الممدوح بالسيف واستعار السيف له لمشابهته له في
المضاء ، والقطع ، والنفاذ ، وقد جانس بين لفظ سيف في الشطر الأول وسيف
في الشطر الثاني بما يزيد الاستعارة بهاء وحسناً والاستعارة في لفظ مفرد وهو
« سيف » الثانية .

ومن ذلك قول المتنبي في رثاء أخت سيف الدولة .
فَلَيْتَ طَالَعَةَ الشَّمْسِينِ غَائِبَةً وَلَيْتَ غَائِبَةَ الشَّمْسِينِ لَمْ تَغِبْ
فإحدى الشمسين شمس حقيقية ، والأخرى هي المرثية على سبيل
الاستعارة التصريحية التي تعكس إحساساً مفعماً بأنها كانت شمسا تشرق
الدنيا ببهجتها واستعارة الشمس للمرثية مجاز في لفظ مفرد .

وإن كان اللفظ المتجوز به مركباً - سمي مجازاً مركباً كقولك للرجل
المتردد إني أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى ، تريد أن الرجل يتردد في الأمر
بين إقدام عليه وإحجام عنه ، شبه من يتردد في الأمر ويتحير فيه بين إقبال عليه
ثم إعراض عنه بحال الرجل يتردد في الذهاب إلى شيء ما فتارة يقدم رجله
إليه وتارة يؤخرها منصرفاً عنه ، واستعار بعد ادعاء أن المشبه داخل في جنس
المشبه به اللفظ المركب الدال على المشبه به إلى المشبه فالمجاز مركب .

❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

فالمجاز المفرد هو الكلمة المستعملة في غير ما وضعت له في اصطلاح وقع به التخاطب على وجه يصح مع قرينة تمنع من إرادته .

فقوله - مستعملة - احترازاً عما لم يستعمل لأن الكلمة قبل الاستعمال لا تُسَمَّى مجازاً كما لا تسمى حقيقة - وقوله : - في اصطلاح به التخاطب - ليدخل فيه نحو لفظ الصلاة إذا استعمله المخاطب بعرف الشرع في الدعاء مجازاً فإنه وإن كان مستعملاً فيما وضع له في الجملة فليس بمستعمل فيما وضع له في الاصطلاح الذي وقع به التخاطب وقوله : - على وجه يصح - احترازاً عن الغلط وقوله : مع قرينة تمنع من إرادته - احترازاً عن الكناية^(١).

أقسام المجاز المفرد :

والمجاز المفرد ينقسم باعتبار المصطلح الذي كان مجازاً بحسبه إلى أربعة أقسام :

١- مجاز لغوي وهو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له في عرف التخاطب لعلاقة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي .

والعلاقة : هي الصلة بين المعنى الأصلي الموضوع له اللفظ والمعنى المقصود والقرينة - هي الأمر الذي يجعله المتكلم دليلاً على أنه أراد من اللفظ غير المعنى الموضوع له مثال ذلك لفظ « الأسد » إذا استعملته في الرجل كقولك : رأيت أسداً يحمل مدفعاً وكلفظ الغيث المستعمل في النبات في قولك رعت الماشية الغيث والعلاقة بين المعنيين في « الأول » المشابهة يعني مشابهة الرجل الشجاع للأسد « وفي الثاني » سببية الغيث للنبات .

٢- مجاز شرعي وهو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له في عرف أهل الشرع كلفظ الصلاة إذا استُعملت بعرف الشرع في الدعاء .

(١) لأنها موضوعة في اللغة للدعاء ، فاستعمالها فيه استعمال فيما وضع له في الجملة .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دُرُوسَةٌ فِي مَسَائِدِ الْبَيَانِ ————— ❁

٣- عرفني وهو خاص ، وعام . فالمجاز العرفي الخاص هو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له عند صاحب هذا العرف كلفظ الكناية إذا استعملها رجل البلاغة والبيان في السَّتر والخفاء ، أما العرف العام فهو اللفظ المستعمل في غير المعنى الموضوع له في العرف العام كلفظ الدابة إذا استعملت بناء على هذا العرف في الفيل .

وينقسم المجاز المفرد باعتبار العلاقة التي بين المعنيين الحقيقي والمجازي إلى قسمين ، مجاز مرسل ، ومجاز بالاستعارة ، فالأول ما كانت علاقته غير المشابهة كاستعمال الغيث في النبات في قولك :

رعت الماشية الغيث

والثاني : ما كانت علاقته المشابهة ، أي تشبيه المعنى المراد بالمعنى الذي وضع له اللفظ كقولك : ابتسمت عن در ، وكشفت النقاب عن بدر ، فلفظ درّ استعارة والمراد الأسنان البيضاء التي تشبه الدر في بياضها وتألؤها ، والمراد في كشف النقاب عن بدر ، استعارة البدر في اكتمال ضيائه للوجه المشرق الجميل .

* * *

المجاز المرسل

والمجاز المرسل هو الكلمة المستعملة في غير ما وضعت له العلاقة غير المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقي وذلك كإطلاق اليد الموضوعية للجارحة المخصوصة على النعمة لأن من شأنها أن تصدر عن الجارحة ومنها تصل إلى المقصود بها ويشترط أن يكون في الكلام إشارة إلى المولى لها ، فلا يقال : اتسعت اليد في البلد ، أو اقتنيت يداً كما لا يقال اتسعت النعمة وفي البلد ، أو اقتنيت نعمة وإنما يقال : جلّت يده عندي ، وكثرت أياديهِ لديّ يراد نعمه وعطاياه ونظير هذا قولهم : في صفة راعي الإبل إن له عليها إصْبَعاً أرادوا أن يقولوا له عليها أثَرٌ حِذْقٌ فدُلُّوا عليه بالإصبع لأنه ما من حِذْقٍ في عمل يد إلا وهو مستفاد من حسن تصوّيف الأصابع ، واللفظ في رفعها ووضعها كما في الخط والنفس وعلى ذلك قيل في تفسير قوله تعالى : ﴿ بَلَى قَدَرِينَ عَلَى أَنْ نَسْوَى بَنَانَهُ ﴾ (القيامة: ٤) أي نجعلها كخف البعير فلا يتمكن من الأعمال اللطيفة فأرادوا بالإصبع الأثر الحسن^(١) ومن المجاز المرسل ما ذكره ابن قتيبة حين قال : « ويقولون للمطر سماء لأنه من السماء ينزل فيقال : ما زلنا نطأ السماء حتى أتيناكم . قال الشاعر :

إذا سقط السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضاباً »^(٢)

فإطلاق لفظ السماء على المطر من باب المجاز المرسل الذي علاقته المكانية على أن لفظ «السماء» في البيت قد ذكر بمعنى وهو المطر ، وعاد

(١) بغية الإيضاح ، ٩٢/٣ .

(٢) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ، تحقيق الأستاذ السيد صقر ، ص ١٠٢ .

الصورة البيانية ————— دراستي مسأله البيان ————— ❁

الضمير عليه بمعنى آخر وهو النبات وذلك مُحَسَّنٌ بديعي يسمى الاستخدام ،
ومن ذلك إطلاق الرحمة على الجنة في قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْصَتْ
وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (آل عمران: ١٠٧).

وسميت الجنة لأن الرحمة حالة فيها ويقول صاحب الكشاف ﴿ فِي رَحْمَةِ
اللَّهِ ﴾ (آل عمران: ١٠٧) ففي نعمته وهي الثواب المخلد (فإن قلت) كيف موقع
قوله : ﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (آل عمران: ١٠٧) بعد قوله : ففي رحمة الله (قلت)
موقع الاستئناف كأنه قيل كيف يكونون فيها ، ف قيل هم فيها خالدون لا يظعنون
عنها ولا يموتون^(١).

ومن ذلك قول ليلى الأخيلية وقد ذكرت إبلا :

رَمَوْهَا بِأَثْوَابِ خَفَافٍ فَلَا تَرَى لَهَا شَبَهًا إِلَّا التَّعَامِ الْمُنْفَرَا
أرادت أن تقول إنهم ركبوها فرموها بأجسامهم وهي خفاف عليها ويقول
الأصمعي قيل ذلك : إذا قالت العرب الثوب والإزار ، فإنهم يريدون البدن^(٢).
فليلى الأخيلية عبرت بالأثواب وأرادت الرجال الذين رموا أنفسهم فوق
ظهرها ولا مشابهة بين الأثواب والرجال ولا علاقة تسوُّع هذا وتجاوزة حتى
يقال إنه قد استعيرت الأثواب للرجال على حدٍّ من استعار الدرر للأسنان ،
والبدر للوجه المضيء المشرق في قولهم : ابتسمت عن درٍّ ، وكشفت النقاب
عن بدرٍ ؛ لأن العلاقة هنا واضحة وظاهرة ، لكن ليلى إنما عبرت عن الرجال
بالأثواب للصلة القائمة بين الأثواب ولا بسببها وهي المجاورة ، وإنما عبرت
على هذا النحو لأن الذين رموا أنفسهم فوق الإبل كانوا خفاف الأجسام كما نوّه
بذلك صاحب الصناعتين وهذا طريق من طرق التعبير عند العرب إذ هم على
حد ما قال الأصمعي يعبرون بالثوب والإزار ، ويريدون البدن وأنشد :

(١) الكشاف ، ٢٠٩/١ .

(٢) الصناعتين ، ص ٣٨٩ ، ٣٩٠ .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ﴾

أَلَا أَبْلُغُ أَبَا حَفْصٍ رَسُولًا فِدَى لَكَ مِنْ أَخِي ثَقَّةٍ إِزَارِي
وقالوا في قول ليلى الأخيلية : أي رموها بأجسامهم وهم خفاف عليها على
حد ما ذكر من قبل .

ومن هذا قول عامر بن الحارث أعشى باهلة من قصيدة يرثي أخاه
المنتشر ، وقد قتله بنو الحرث بن كعب :

إِنِّي أَتْنِي لِسَانَ مَا أَسْرُيْهَا مِنْ غُلُوٍّ لَا عَجَبٌ مِنْهَا وَلَا سَخَرُ^(١) .

عبر عن الخبر باللسان ؛ لأنه يذكر به ، فاللسان آلة لذكره وهذه هي العلاقة
بين الخبر واللسان ، فالخبر وسيلة نقله اللسان فهو أدواته وآلته ولا يمكن أن
تكون العلاقة هنا المشابهة إذ ليس المراد تشبيه الخبر باللسان على جعل الخبر
لسانا .

ومن ذلك اللسان يوضع موضع القول ؛ لأن القول يكون بها ، قال الله - عز
وجل - حكاية عن إبراهيم عليه السلام ﴿وَأَجْعَلْ لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾
(الشعراء: ٨٤) أي ذكرا حسنا ، فالمراد باللسان الذكر الحسن والقول الجميل
عبر باللسان وأراد الذكر الحسن ، وإنما عبر باللسان ؛ لأنه آله وأداته وهذه هي
العلاقة التي تجمع بين اللسان ، والذكر الحسن . ولا يصح أن يكون المراد
تشبيه القول الحسن باللسان ؛ لأنه لا صلة تجمععهما ، ولا رابطة ، ولا علاقة
بينهما .

فالمجاز المرسل هو الذي يحصل الارتباط فيه بين المعنى الأول للكلمة
ومعناها الثاني نتيجة ملازمة من الملاحظات وهي العلاقة بين المعنى الحقيقي

(١) أراد باللسان الخبر والقول وعلو : اسم الرجل الذي حمل إليه نعي أخيه «المنتشر»
ولا عجب أي ليس ببديع ؛ لأن الناس يموتون ويقتلون ، فلا سخر من ذلك أي
لا عجب ولا هزء منه . انظر جمهرة أشعار العرب ، ص ٣٢٧ ، وتأويل مشكل القرآن
لابن قتيبة ، ص ١١١ .

الصورة البيانية ————— دراستي مسائل على البيان ————— ❁

للفظ والمعنى المجازي وهي هنا لا تقوم على المشابهة على حد ما طالعت في الصور السابقة ، فالكلمة لا تنتقل من معناها الأول إلى معناها الثاني إلا لعلاقة وملابسة تسمح بهذا الانتقال ، وتجزئه حتى لا تصير اللغة إلى طريق من الإلباس والإرباك بعيداً عن التوضيح ، والإبانة ، وتواصل الأفكار وهذه الأمور هي وظيفة اللغة ، ومهمتها الأصيلة التي تنهض بها في إبانة وتحديد ووضوح على أنه لا بد للمجاز عامة مع العلاقة من قرينة تكون بمثابة العلامة والدليل على أن الكلمة لا يراد منها حقيقتها وتوجه دلالتها إلى المعنى المراد وليس في المجاز المرسل من اللمسات الفنية التي تستثير المشاعر ، وتوقظ الأحاسيس على حد ما هو محقق في الاستعارة وسنقف على ذلك عند دراستها ، فصور المجاز الذي ليست علاقته المشابهة لا تستوي في الحسن والجمال مع المجاز الذي تكون علاقته هي المشابهة على أن الارتباط بين المعنى الأول والثاني في المجاز المرسل مما يسمى بالعلاقة فيه من الاتساع بحيث يحتوي على عدد كبير من العلاقات مع ما يبدو من تداخل وخلط في بعضها ، وسوف تعرض لبعض العلاقات التي شغلت أذهان البلاغيين ، ومنحوها مزيداً من اهتمامهم محاولين أن نبين ما وراء تلك العلاقات من أسرار كان لها أثر في بلاغة المجاز ؛ لأن العرب لا يلجئون إلى سلوك طريقة التعبير بالمجاز ويتركون المألوف إلا لحكمة تجعلهم يتصرفون هذا التصرف ؛ إذ أن التعبير بتلك الطريقة له من اللمسات البيانية التي لا تتحقق في سلوك طريق آخر للتعبير كالحقيقة ، وأبرز العلاقات في المجاز المرسل ما يلي :

علاقة السببية :

ومن يتتبع كلام العرب يجد أن المجاز بهذه العلاقة كثير ويستخدمونه في ألوان من المعاني المختلفة وعلاقة السببية تعني تسمية المسبب باسم السبب وذلك حين يقوى الارتباط ويشد بين السبب ومسببه على نحو يظهر فيه تأثير السبب في المسبب مع محاولة الإبانة عن ذلك وتوضيح أن السبب لا يتخلف

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ —————﴾ دَرَسَتْ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

عن مسببه ، فمن ذلك :

التعبير عن العطاء ، والنعمة بكلمة «اليد» ؛ لأن اليد سبب مباشر في توصيل النعمة والعطاء إلى ذوي الحاجة من المعوزين والمحتاجين وبذلك تبرز أهمية «اليد» في ذلك ويشترط في هذا الاستعمال أن يكون في الكلام ما يشير إلى صاحب النعمة كالضمير العائد على الممدوح في قولهم : جلّت يده عندي ، وكثرت أياديهِ لَدَيَّ ولا يجوز أن يخلو الكلام عما يدل على صاحب النعمة التي أسداها وقدمها حتى لا يقفز المعنى الحقيقي إلى الذاكرة ويطفو على السطح كما لو قيل كثرت لدينا الأيادي ، فيكون الكلام من باب الحقيقة ومثل المثال السابق قولك : ادخرت يدا أو اتسعت اليد في البلد والتهافت في ذلك بَيِّن وواضح بحيث لا يدخل في فصاحة العرب في قليل أو كثير ويقول ابن يعقوب « قيل إن التجوز في اليد عن النعمة يشترط فيه الإشارة إلى المُنعِم فيقال : لزيد يد عندي ولا يقال في البلد يد»^(١).

ويقول صاحب الإيضاح ونظير قولنا - له على يد - قول النبي ﷺ لأزواجه «أسر عكن لحوقا - ويروي - لحاقا - بي أطولكن يدا ويفسر ذلك على الاحتمالات الآتية :

١- أن تكون اليد مجازاً عن العطاء و«أطولكن» أفعل التفضيل ترشيحاً للمجاز وهي مأخوذة ومشتقة من الطُّول ضد القصر لملاءمته ومناسبته لليد الحقيقية والمعنى بَسَطُ العطاء وكثُرته .

٢- أن تكون اليد مجازاً عن العطاء و «أطولكن» من الطُّول بمعنى الفضل ويكون المعنى أفضلكن عطاء ونعمة كما يقال - لفلان عليّ طَوْلاً والنعمة توصف بالفضل على الحقيقة فلا ترشيح .

٣- ويحتمل أن يريد أطولكن يدا بالعطاء أي أمدكن يدا في هذا ، ففي

(١) مواهب الفتح ، ٣٣/٤ .



الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ الْبَيَانِ ————— ❁

الحديث حذف لجار ومجرور يتعلق بأفعل التفضيل وعلى هذا الوجه تكون اليد في الحديث حقيقة لا مجازاً^(١).

٤- ومن المجاز استعمال كلمة «اليد» في القدرة ؛ لأن اليد سبب فيها والقدرة مسببة عنها فاليد سبب ظهور القوة إذ هي التي تبطش وتضرب وتأخذ وتمنع وغير ذلك من الأفعال التي تدل على وجود القدرة والقوة وقد أطلقت اليد وأريد بها القدرة والقوة من باب إطلاق اسم السبب على المسبب ومن المجاز قوله تعالى : ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾

(الفتح: ١٠).

والمعنى أن قدرته وقوته ونصرته فوق قوة أصحاب بيعة الرضوان ونصرتهم ، فاليد مجاز عن القدرة على أنه لا تُعدّ من المجاز المرسل كلمة «اليد» في قول الرسول ﷺ «المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم» ، فالمراد التشبيه لذكر الطرفين في قوله : «وهم يد» وهذا هو ما يرمي إليه الحديث ، وما يهدف ذلك أن الرسول ﷺ يريد أن يؤكد على مبدأ المساواة بين أفراد الجماعة المسلمة فيقرر أنهم متساوون في الدماء يؤخذ الأمير بدم الفقير كما أنهم متساوون في الذمة . إن عاهد عنهم أدناهم درجة ، وأقلهم مكانة يسري عهده على الجميع . ومتساوون في النصرة والتعاون كل واحد منهم كالإصبع في اليد وهم الأمة كلها كاليد ذات الأصابع المتعاونة . ذلك أن مما لا يحتاج إلى تأكيد أن الأصابع لا يخذل بعضها بعضا مما ينسحب ذلك على جماعة المسلمين الذين لا يجوز عليهم أن يتخاذلوا أو يتهاونوا في ذلك ، وقوله ﷺ : «وهم يد على من سواهم» تشبيه بليغ ، وليس من المجاز المرسل .

(١) انظر بغية الإيضاح ، ٩٣/٣ .

❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

ومن علاقة السببية قول السموأل بن عادِيَاء :

تسيل على حَدِّ الطَّبَّاتِ نفوسنا .∴ وليست على غير الطَّبَّاتِ تسيل
فالشاعر الممتلئ التياها بقومه يفور دمه على مسِّ الأسنَّة ، وقد كَشَّرَ وجهه ،
وعلا صوته ، وانتفخت لغايدده تراه يفخر بعشيرته فيبين أنهم فرسان شجعان ،
يغشون المخاطر في جسارة وقوة ، ويخوضون أهوالها ، وقد أسند كلمة
« النفوس » إلى الفعل المضارع « تسيل » والنفوس لا تسيل وإنما الذي يسيل
على حَدِّ الطَّبَّاتِ وهي حَدِّ السيف إنما هي الدماء فقد عبر بالنفوس وأراد
الدماء ؛ لأن النفوس هي مصدر الدم وسبب وجوده على طريقة المجاز المرسل
الذي علاقته السببية . وفي تعبيره بالطَّبَّاتِ يضيف الحَدِّ إلى السيوف كلها ليعين
أنهم لشجاعتهم وشرفهم لا يقتلون إلا بالسيوف ، ولا يقتلون بغيرها من
العَصِيَّ والحجارة كما يقتل رعا ع الناس ، وقبل هذا البيت قوله :

وَإِنَّا لَقَوْمٌ مَا نَرَى الْقَتْلَ سُبَّةً إِذَا مَا رَأَتْهُ عَامِرٌ وَسُلُولُ
يَقْرَبُ حُبُّ الْمَوْتِ آجَالَنَا وَتَكْرَهُهُ أَجَالُهُمْ فَتُطُولُ
وَمَا مَاتَ مَنَّا سَيْدٌ حَتْفَ أَنْفِهِ وَلَا طُلَّ مَنَّا حَيْثُ كَانَ قَتِيلُ
ومعنى « مات حَتْفَ أَنْفِهِ إِذَا مَاتَ مِنْ غَيْرِ قَتْلٍ وَلَا ضَرْبٍ وَمَعْنَى الْبَيْتِ أَنَّا
لَا نَمُوتُ وَلَكِنْ نَقْتُلُ وَدَمَ الْقَتِيلِ مَنَا لَا يَذْهَبُ هَدْرًا .

٣- ومن المجاز المرسل الذي علاقته السببية استعمالهم لفظ « السوط » في
الأثر المتخلف عنه على جسم المضروب بالسوط : فيقولون : « ضربته
سوطاً يريدون الأثر الناشئ عن الصوت .

٤- استعمال لفظ الغيث في النبات الناشئ عن الغيث قال الشاعر :

إِذَا نَزَلَ السَّمَاءُ بِأَرْضِ قَوْمٍ رَعَيْنَاهُ وَإِنْ كَانُوا غَضَابَا
وعلق عليه الآمدي بقوله « يريد إِذَا سَقَطَ الْمَطَرُ رَعَيْنَاهُ يريد رَعَيْنَاهُ النَّبْتَ
الذي يكون عنه سمي النبات ندى ؛ لأنه عن الندى يكون ، وقالوا ما به طِرْقُ أَيِ

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ عَلِيٍّ الْبَيَّانِ ————— ❁

ما به قوة والطُّرُق : الشحم فوضعه موضع القوة ؛ لأن القوة تكون عنه ^(١) فالشَّحْمُ سبب القوة ، فهي مُتَسَبِّبة عنه ، فإذا ما نفى الطُّرُق «الشحم» نُفِيت القوة المتولدة عنه ، وكان سببها وفرق كبير بين فقدان الطرق وبين الضمور ؛ لأن الضمور اكتناز اللحم ، فهو قوة أما فقد الطرق فهو هزال وضعف .

٥- استعمالهم لفظ «الاعتداء» في الجزاء والعقوبة الناشئة عن الاعتداء المجاز في قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾ (البقرة: ١٩٤).

فالمراد بقوله سبحانه «فاعتدوا عليه» أي ردُّوا اعتداءه وجازوه عليه وإنما عبر عن المجازاة ورد العدوان بالاعتداء لأنه سبب هذا فردُّ العدوان على المعتدي ليس اعتداء على الحقيقة وإنما هو قصاص وجزاء على الاعتداء الذي أوقعه المعتدي بغياً وظُلماً ؛ لذا لا تواني فيه ، ولا يجب أن يتخلف يوثق هذا وجود الفاء في قوله سبحانه : ﴿ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾ (البقرة: ١٩٤) التي تشعر بسرعة الرد ، وعدم التخلف ؛ ولأن المقام هنا توضيح الموقف وتحديدته والموقف اعتداء من غير المسلمين على المسلمين ، فلا يجب المسامحة ولا العفو حتى يبقى المسلمون أعزة ، ويدهم عالية ، وشوكتهم منيعة ، وعزهم محفوظ ومصان ، فالسياق يبين أن هذا من غير المسلمين . أما إذا كان هذا مع المسلمين بعضهم وبعض ، فإن للعفو مواضع كثيرة ؛ لذا يجيء الترغيب في التسامح والعفو ؛ لأن رابطة الإسلام قوية ، والإخاء في الدين قائم بين المسلم وأخيه المسلم ؛ لذا فمن الأليق والأحسن مراعاة تلك الأخوة حتى لو كان هناك ما يعكّر صفوها من إحن ، واعتداء .

يقول الله تعالى : ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ ۚ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ ۚ وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ

(١) الموازنة للآمدي ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ص ٣٣ .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ﴾

بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءُ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّرِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿البقرة: ١٧٨، ١٧٩﴾.

ففي ذلك تشريع للقصاص بين المسلمين على نحو ما تبين الوقت بين العبد والعبد ، والحر والحر ، والأنثى والأنثى ، لكنه في الذي يتحدث فيه عن القصاص يفتح باباً للعفو والمسامحة على نحو يشيع الرضا بين الأخوة في قوله : ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءُ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّرِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ (البقرة: ١٧٨) يقول المرحوم بإذن الله سبحانه الأستاذ سيد قطب « وهذا العفو يكون بقبول الدية من أولياء الدم بدلاً من قتل الجاني ومتى قبل ولي الدم هذا ورضيه فيجب إذاً أن يطلبه بالمعروف والرضا والمودة ، ويجب على القاتل أو وليه أن يؤديه بإحسان وإجمال وإكمال تحقيقاً لصفاء القلوب وشفاء لجراح النفوس وتقوية لأواصر الأخوة بين البقية الأحياء»^(١).

ومثل المجاز في هذه الآية استعمالهم لفظ « السيئة » في معنى العقوبة المتولدة عنها في قوله تعالى : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ (الشورى: ٤٠).

السيئة الأولى حقيقة ؛ لأنها الذنب الذي يعاقب عليه ، والثانية مجاز لأن المراد بها الجزاء والعقوبة ، فسميت عقوبة السيئة سيئة لأنها سبب في الجزاء في تسمية رد السيئة والقصاص سيئة ترغيباً في العفو ، فالأصل الرد على السيئة حتى لا يتذأب الشر ويتبجح ، ويعربد ويطغى ، لكن العفو محبوب ومستحب ابتغاء لما عند الله من ثواب وأجر ذلك أن العفو إنما يتحقق ويكون من القادر على أخذ حقه والرد على العدوان بما يقلم أظافر المعتدي ويخلع أنيابه ،

(١) في ظلال القرآن ، ١ / ١٦٤ .



الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسْتُ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ❁

فالعفو إنما يكون مع القوة ومع القدرة على أخذ الحق ، ولذا فإنه في هذا يكون نبلاً وسماحة ، وليس هواناً أو ضَعْفًا ، ولذا يستحيي المعتدي ويخجل ويستشعر أن من عفا عنه وصفح وهو قادر على رد الصاع له صاعين هو الأعلى والأعظم .

ويجب أن يعلم أن المجاز في النص الكريم إنما يتحقق إذا فسّرت السيئة الثانية بالقصاص العادل والجزاء ، أما حين تُفسّر بمطلق ما يسيئ إلى الجاني ، فالسيئة الثانية من باب الحقيقة ؛ لأن القصاص مهما كان عدلاً فإنه يسيئ إلى الجاني ومن ثم فلاية إذا محتملة للحمل على الحقيقة والحمل على المجاز المرسل .

ومن المجاز المرسل الذي علاقته السببية استعمال لفظ « المكر » في العقوبة المترتبة على المكر كقوله تعالى : ﴿ وَمَكُرُواْ وَمَكَّرَ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينِ ﴾ (آل عمران: ٥٤).

فالمكر والخداع من الله محال ، فالمراد بمكر الله عقوبته للماكر على مكره ، فسمي المسبب عن المكر وهو العقوبة باسم السبب وهو المكر على طريق المجاز المرسل الذي علاقته السببية . والآية ترد في سياق الحديث عن نبي الله عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، وموقف اليهود الذين كفروا به ، ولم يؤمنوا برسالته ، وتغنّوا في تدبير المكائد له ، وأطلقوا حوله جبلاً من المفتريات ، والأراجيف ، والشائعات التي تتهمه بالشعوذة والسحر ، وإفساد عقيدة الجماهير لقد دبّروا تدبيراً سيئاً لمحاكمته ، والحكم عليه بالصلب ، والقتل ، ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ هُم ﴾ (النساء: ١٥٧) فعاقبهم الله وأبطل مكرهم ، وسوى به التراب ، ورد كيدهم في نحورهم ، وصب عليهم لعنته وحملهم دم نبي لم يقتلوه ، وإن خيل لهم أنهم قتلوه .

ومن المجاز الذي علاقته السببية ما تراه في قوله تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ (محمد: ٣١).

﴿الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ﴾ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

فاستعمل لفظ «الابتلاء» وهو الاختبار في المعرفة الناشئة عنها ، فقوله سبحانه ﴿وَبَلَّوْاْ أَخْبَارَكُمْ﴾ (محمد: ٣١) أي نعرفها . فسمى المعرفة باسم سببها وهو الابتلاء . فابتلاء المؤمنين يعني اختبارهم ، وامتحانهم ، وهو خبر مؤكد عن الله سبحانه يبين أنهم لن يتركوا متزينين بلباس الإيمان ، وإنما لابد أن يوضعوا موضع الامتحان ، والاختبار لكشف حقيقة الإيمان في قلوبهم وتجيء «حتى» في هذا السياق لتمثل غاية لهذا الاختبار والابتلاء في صدورهم ، ولتشير في إبانة بأنهم في غالبهم يتجرعون كأس الامتحان ، ويذوقون مرارته . فالابتلاء بما يَسُرُّ وبما يَضُرُّ . بما يفرح وبما يوجع ويؤلم بما يسعد وما يشقى ، كشف لمعادن النفوس ، وإظهار لما هو مخبوء ومجهول من أمرها بما في ذلك أصحاب تلك النفوس على أن الله سبحانه وتعالى لا يبتلي الناس إلا بما في طَوْفُهم تَحْمُلُهُ ، والرِّضَا به ، والصبر عليه لمن شاء ، ومن ثَمَّ فإن المؤمن يتطلع إلى عافية الله ، ويرجو ألا يتعرض لبلائه سبحانه وتعالى ، فمعنى قوله تعالى : ﴿وَبَلَّوْاْ أَخْبَارَكُمْ﴾ (محمد: ٣١) أي نعرفها ، فعبر بالابتلاء عن المعرفة ؛ لأنه سببها والابتلاء بهذه الطريقة تأصيل للإيمان بالله والزيادة فيه ، ومن المجاز المرسل الذي علاقته السببية استعمالهم لفظ «الجهل» وهو السفاهة والحمق في المجازاة عليه كقول عمر بن كلثوم :

أَلَا لَا يَجْهَلُنَّ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَجَهْلٌ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينََا

يقول لَا يَسْفَهَنَّ أَحَدٌ فَنَسَفَهُ عَلَيْهِمْ فَوْقَ سَفْهَمِ أَيُّ أَنَا نَرُدُّ عَلَيْهِمْ رَدًّا عَنِيفًا فنجازيهم بسفهمهم جزاء يزيد عنه ، ويتضاعف ، فسمى جزاء الجهل جهلاً باسم سببه ، فالجهل الصادر من أعداء الشاعر حقيقة ، والجهل الصادر منه عقوبة . وجزاء على حمق المعتدين عليه وسفاهتهم ، فهو مجاز مرسل علاقته السببية ، وفي قوله : «فجهل فوق جهل الجاهلينا» إعلان واضح بأنه يتخطى في ردّه على عُدُوَانِ الْمُعْتَدِيِّ فَوْقَ الرَّدِّ بِالْمَثَلِ ، فهو يتجاوز حدود العدل ، ولا يقف عنده .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسْتُ فِي مَسَائِعِ الْبَيَانِ ————— ❁

ومن هذا الباب ما تراه ماثلاً واضحاً في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَءُونَ ﴾ (البقرة: ١٤، ١٥) ، فسمى عقوبة الاستهزاء استهزاء ؛ لأن استهزاءهم سبب فيها فقولهم : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَءُونَ ﴾ (البقرة: ١٤) الاستهزاء من المنافقين هنا حقيقة ، أما قوله سبحانه : ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ (البقرة: ١٥) فمجاز عن مجازاتهم ، ومعاقبتهم سمى جزاء الاستهزاء استهزاء ، واستهزاء الله فيه من التهديد ما فيه ؛ لأن لا مصير لمن يستهزئ الله به إلا الضنى والشقاء الطويل والهول الذي يتربص به ، ويتلفه في نهاية الشوط بعد الإمداد له ، فهو وأمثاله ينتظرهم مصيرهم الأسود على حد ما قال جبار السماوات ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (البقرة: ١٥) .

وترى هذا في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ ﴾

(النساء: ١٤٢).

إن المنافقين يخادعون الله والله لا يخدعه أحد ، فخداع الله مجاز ، ومعناه إيقاع العقوبة بالمخادعين ومجازاتهم ، أما خداع المنافقين فحقيقة عبّر عن جزاء الخداع بالخداع من طريق المجاز المرسل الذي علاقه السببية.

على أننا حين نرى هذه الشواهد من مثل قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ (البقرة: ١٥) وقوله سبحانه : ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ ﴾ (النساء: ١٤٢) ، وقوله عز وجل : ﴿ فَمَنْ أَعْتَذَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَذَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ (البقرة: ١٩٤) ، وقول عمرو بن كلثوم :

أَلَا لَا يَجْهَلُنَّ أَحَدٌ عَلَيْنَا فنجهل فوق جهل الجاهليينَا

نجد أن هذه الشواهد من باب المجاز المرسل كما سبق ، فقد سمى جزاء الاستهزاء ، والخداع ، والسيئة ، والاعتداء ، والجهل : استهزاءً وخداعاً ، وسيئة ، واعتداء ، وجهلاً لوجود علاقة قوية ومحقة وهي السببية على أن هناك من

❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

البلاغيين كالخطيب^(١) من نص على شواهد منها وعدّها من باب المشاكلة اللفظية : وهي ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقاً أو تقديرًا . والمشاكلة لا تقوم على علاقة بين المعنى الأصلي للكلمة والمعنى الذي استعملت فيه . فالشاعر الذي قال :

قالوا اقترح شيئاً نُجِدْ لكَ طَبْخَهُ قلت اطبخوا لي جبة وقميصاً

نجد أن الجبة والقميص لا يطبخان وإنما يخاطان والذي سوغ استعمال الطبخ في جانب الجبة والقميص وجودهما في صحبة الطبخ الحقيقي ، فقد عبر عن الخياطة بالطبخ لوقوعها في صحبته ولا علاقة ولا صلة بين الطبخ والخياطة ، ولكن هذا من طرائقهم في التعبير وإن كان اللفظ حسناً لما فيه من إيهام المجانسة التي تحققت من خلال المشاكلة اللفظية على أنهم قد استعملوا لفظ « الدم » في الدية التي تُعطى وتدفع في مقابل الدم كقول الشاعر :

أَكَلْتُ دَمًا إِن لَمْ أَرَعِكَ بَضْرَةً بعيدة مهوى القرط طيبة النشر

فالشاعر يدعو على نفسه إن لم يرع زوجته ، ويكيد لها بزوجة حسناء طيبة الرائحة ، وذلك بأن يقتل له قتيل ، يعجز عن الأخذ بثأره ويرضى بأخذ ديته ليأكل منها ، ويعيش عليها ، فسمى الدية المسببة عن الدم باسم الدم الذي هو سبب فيها علاقة المسببية .

وهذه العلاقة إنما تتحقق وتكون من خلال تسمية السبب باسم المسبب ، ولذا فهي تؤم وتتوجه إلى المسبب لتشير به وتدل على السبب ، فاللفظ المذكور مسبباً عن المعنى المراد تأمل قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴾ (غافر: ١٣) .

فالمراد « بالرزق » المطر وأنت ترى أن من جملة آيات الله التي تستشير المشاعر ، وتحرك الشعور هذا الماء الذي ينزل من السماء وهو أصل الحياة

(١) بغية الإيضاح ، ٢٣/٤ .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَةٌ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ❁

والعلة في بقائها ، وديمومتها ، وأن الرزق من ثمار هذا الماء فهو مسبب عنه ، ومحقق بسببه ، ومرتبط به فيه ينبت النبات التي تخرج منه الثمرات التي تكون طعاما للإنسان يقتات منها ، ويحيا عليها ، ويعيش بها ولولاها لما كانت حياة ، ولما كانت هناك أحياء : « لذا كان إفراده بالذكر مع كونه من جملة الآيات الدالة على كمال قدرته تعالى لفرده بعنوان كونه من آثار رحمته ، وجلائل نعمته الموجبة للشكر وصيغة المضارع في الآيتين للدلالة على تجد الإرادة والتنزيل واستمرارها »^(١) ، ومن يتأمل التعبير عن المطر بالرزق يتراءى لخياله أن المسافة التي تفصل بين إنزال الماء من السماء والرزق المسبب عنه تكاد تتلاشى وتندعم إذ أن الماء سر الحياة في الأرض ، وانتشار جمال الله في الكون ؛ لذا يجب أن يكون ذلك موقفا للشعور ، وحافرا لله ، وهاديا إلى شرف الغاية ومن ثم تتدفق الألسنة بالذكر لله ، والشكر له وأن تفيض القلوب بمزيد الإيمان به ، وأن تعنو الوجوه على ما أولى من خير ، وأسبغ من نعمة ، وأفاء من فضل . ولعل في تقديم الجار والمجرور وهو قوله سبحانه : ﴿ لَكُمْ ﴾ (غافر: ١٣) على المفعول وهو قوله : ﴿ رِزْقًا ﴾ (غافر: ١٣) ما يشير إلى أنه رزق سيق من أجلكم وبسببكم وهو خير يتدفق في البيوت ، وبشر يتهلل في الوجوه ، ونفحة ترطب القلوب وتلين الأكباد ، وذكر يتضوع في المساجد وهكذا ، فالذي ينزل هو المطر الذي ينشأ عنه رزقهم من شجر ، ونخيل ، وزروع ، ويقول وغير ذلك مما يطعم ويؤكل فقد ذكر لفظ المسبب وأريد السبب ، ومن هذا ما جرى به اللسان العربي من قولهم : أمطرت السماء نباتا ، فقد أطلقوا لفظ المطر على ما كان المطر سببا فيه وهو النبات ، ومن المجاز المرسل الذي علاقته المسببة استعمالهم : « أسنمة الإبل في المطر الذي يكون سببا وأداة في إنبات النبات في قول الشاعر :

(١) أبو السعود ، ٢٧٠/٧ .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ —————﴾ دراسة في مسائل علم البيان

أَقْبَلَ فِي الْمُسْتَنَ مِنْ رَبَابِهِ أَسْنَمَةُ الْآبَالِ فِي سَحَابِهِ

المُسْتَنَ : الواضح والمعنى أن الغيث يأخذ طريقه الواضح في السحاب ومن هذا : السُّنَّةُ وهي الطريقة والسيرة حميدة كانت أو ذميمة - وسنة الله - حكمه في خليفته وسنة النبي ﷺ : ما ينسب إليه من قول أو فعل أو تقرير ، وفي الشرع : العمل المحمود في الدين مما ليس فرضاً ولا واجباً ، والرباب السحاب ، والمعنى أن الغيث أقبل عليهم من سحابه الأبيض ، وجرى في طريقه المُسْتَنَ الواضح فسقى الأرض ورواها وأنبت النبات فشبت الإبل ، وسمنت ، ونمت أسنمتها .

فالذي في السحاب على حَدِّ ما يقول الشاعر أسنمة الآبال مع أن الذي في السحاب على جهة القطع واليقين هو المطر وهو الذي تنمو عليه هذه الأسنمة . فالمطر الذي يُنبِت النبات ، وعليه تسمن وتشحم أسنمة الإبل ، فكأن أسنمة الإبل إنما تَحَصَّلَتْ وتحققت نتيجة لهذا المطر الذي يجعلك تتصور وتتخيل أنه ليس مطراً وإنما أسنمة الآبال فأطلق اسم المسبب وأراد السبب وهو الماء الذي ينشأ عنه طعام الإبل وقوتها .

الشاعر يرى العلاقة القوية بين الماء وبين أسنمة الإبل ، الأمر الذي يجعله لا يبصر سحاباً يحمل ماء وإنما يرى ويبصر أسنمة الإبل تحركها الريح وتسوقها في السماء على وجه لا يخبو أثره في النفس ولا ينطفئ في القلب إذ تشاهد فيه براعة القدرة ، وصنعة الخيال ، ومن علاقة مسببية ما تطالعه في قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ (النساء: ١٠).

فالذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً وعدواناً لا يأكلون ناراً وإنما يأكلون أموال اليتامى التي تقودهم إلى النار ، وتدعهم إليها دعاً في غير رحمة ولا شفقة ، فالنار مسببة عن أكل مال اليتيم ظلماً ولاحظ التعبير بقوله سبحانه : ﴿ يَأْكُلُونَ فِي

الصورة البيانية ————— دراستي مسائل عليّ البيان ————— ❁

بُطُونُهُمْ نَارًا ﴿ (النساء: ١٠) ليضعك أمام هذه الصورة المفزعة والمرعبة والمخيفة صورة النار التي تتأجج ، وتتوهج ، وتشتعل في بطونهم مع السعير الذي يصلونه ، ويشوي جلودهم وأبشارهم ويتجرعون ويله ، ويدوقون عذابه مع ما في هذا التعبير الواصف من الإشعار بجسامة الهول الذي ينتظرهم ، والمصير الأسود الذي يكون مأوى ، ومهداً لهم ، ويكون مأوّه مهلاً ، وظله حروراً ، وأنسه وحشة وخوفاً يقول المرحوم بإذن الله سيد قطب : «هي صورة مفزعة ، صورة النار في البطون ... وصورة السعير في نهاية المطاف ، إن هذا المال نار - وإنهم ليأكلون هذه النار . وإن مصيرهم لآلى النار ، فهي تشوي البطون وتشوي الجلود هي النار من باطن وظاهر هي النار مجسّمة حتى لتكاد تحسها البطون والجلود ، وحتى لتكاد تراها العيون»^(١).

ويقول الزمخشري «ومعنى يأكلون ناراً ما يجرُّ إلى النار فكأنه نار في الحقيقة»^(٢) ، فقد عبر «بالنار» والمراد : «مال اليتيم» فقد عبر بالنار وهي مسببة عن أكل مال اليتيم الذي هو سبب في النار عبر بالمسبب وأراد السبب ، ومن هذا المجاز الذي علاقه المسببية ما تراه في قوله تعالى : ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةً أَزْوَاجٍ خَلَقَكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ (الزمر: ٦).

فقد جرى استعمال لفظ «الأنعام» في المطر الذي ينبت النبات فتأكله الأنعام ، وتحيا به ، وتعيش عليه . والأنعام الثمانية هي الضأن والمعز ، والبقر ، والإبل ، من كل ذكر وأنثى وكل من الذكر والأنثى يسمى زوجاً عند اجتماعهما ، فهي ثمانية في مجموعها ، وإنما تكون «الأنعام» من المجاز اللغوي إذا استعمل لفظ «أنزل» في معناه اللغوي ويكون الإنزال بمعنى الإسقاط والهبوط من أعلى إلى أسفل والتجوز في نسبة الإنزال إلى الأنعام

(١) في ظلال القرآن ، ١/ ٥٨٨ .

(٢) تفسير الكشاف ، ١/ ٢٥١ .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسْتُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ ﴾

والمنزل حقيقة ما تقوم عليه حياتها ، وتبقى وتستمر كالأمطار التي تنبت العُشْبَ والنبات وهما غذاء الأنعام ، فالذي ينزل من السماء وتراه العين هو المطر ، وبه ينبت النبات لترعاه والأنعام على حد ما تراه في قوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ (البقرة: ٢٢) ، وقوله : ﴿ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ (البقرة: ١٦٤).

فأنت ترى أن لفظ الإنزال بهذا المعنى قرينة على أن المراد « بالأنعام » الماء الذي ينبت لها النبات لترعاه .

هذا وقد يخرج عن المجاز المرسل : إذا استعمل الإنزال في معنى آخر فيكون مجازاً عن القضاء والقسم ؛ لأن الله - عز وجل - إذا قضى أمراً أثبتته في اللوح المحفوظ ، ونزلت به الملائكة الموكلة بإظهاره ، إلى الأرض ، فالمراد بإنزال الأنعام حُكْمُ الله وقضاؤه بخلقها وإيجادها وعليه فيكون أنزل بمعنى قضى ، ففي أنزل استعارة تبعية ؛ حيث شبه القضاء بالإنزال بجامع الظهور بعد الخفاء وتناسى التشبيه وحذف المشبه واشتق من الإنزال بمعنى القضاء أنزل بمعنى قضى على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية وعليه فليس في الآية مجاز .

هذا وقد قيل إن الكلام في النص الكريم على ظاهره ، والله تعالى خلق الأنعام في الجنة ثم أنزلها إلى الأرض ، فالنزول حقيقي ولا مجاز في الآية^(١).

ومن المجاز المرسل بعلاقة المسببية التعبير بالفعل عن إرادة الفعل مثل قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴾ (النحل: ٩٨) أي إذا أردت القراءة فاستعذ بالله الفاء هنا رتبت ما بعدها على ما قبلها وبذلك تكون الاستعاذة بعد القراءة فالقراءة مجاز مرسل عن إرادتها أطلق المسبب على

(١) البقرة ، من الآية ١٦٤ .

الصورة البيانية ————— دراستي مسأله البيان ————— ❁

السبب إيدانا بأن المراد هي الإرادة المتصلة بالقراءة يقول الزمخشري : « فإن قلت لم عبر عن إرادة الفعل بلفظ الفعل ؟ قلت لأن الفعل يوجد عند القصد والإرادة بغير فاصل وعلى حسبه فكان منه بسبب قوي وملابسة ظاهرة »^(١). وفي قوله : « وملابسة ظاهرة » ما يشير إلى ملابسة الإرادة بالفعل وكأن الإرادة تصوير فعلا يقول الأستاذ سيد قطب - رحمه الله - : « والاستعاذه بالله من الشيطان الرجيم تمهيد للجو الذي يتلى فيه كتاب الله ، وتطهير له من الوسوسة ، واتجاه بالمشاعر إلى الله خالصة لا يشغلها شاغل من عالم الرجس والشر الذي يمثله الشيطان »^(٢).

ومن هذا ما تراه في قوله تعالى : ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ﴾ (هود: ٤٥).

فالفاء في الآية جعلت القول مرتبا على ندائه لربه والزمن في الواقع متحد بالنسبة لهما فالفاء التي رتبت القول على النداء تبين اتحاد زمنهما . القول والمناداة في الواقع ؛ ولذا كان هذا قرينة على أنه قصد بالنداء إرادة النداء وإرادة النداء سبب للنداء فيكون قد عبر بالمسبب والمراد السبب ويقول الزمخشري مؤكدا هذا : « فإن قلت : فإذا كان النداء هو قوله : رب فكيف عطف قال رب على نادى بالفاء ؟ قلت أريد بالنداء إرادة النداء ولو أريد النداء نفسه لجاء كما جاء قوله : إذ نادى ربه نداء خفيا قال رب بغير فاء إن ابني من أهلي »^(٣).

ومثل هذا قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا ﴾ (الأعراف: ٤) ، فمن الواضح أنه رتب مجيء البأس على الإهلاك بالفاء مع سبق مجيء البأس على الإهلاك لذا كان : أهلكناها « أي أردنا إهلاكها أي كثير من

(١) الكشف ٣٤٣/٢ .

(٢) في ظلال القرآن ٢١٩٤/٤ .

(٣) الكشف ٢١٨/٢ .



﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ﴾

القرى أردنا إهلاكها فجاءها بأسنا فمجىء البأس مرتب على إرادة الإهلاك والمجاز محقق من استعمال اسم المسبب وإرادة السبب .

وتجد هذه العلاقة محققة في قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا ﴾ (الأعراف: ٤).

فالآية تتحدث عن الكافرين من الأمم السابقة الذين أراد الله إهلاكهم فلم يؤمنوا وعلى نفس الطريق طريق العناد مضى المعاندون من الكافرين في زمن الرسول ﷺ على طريقهم لا يؤمنون لأن الله أراد إهلاكهم ولذا قال : « أفهم يؤمنون » بما يحمل هذا الاستفهام الإنكاري من عدم إيمانهم ونفيه ولذا يتضح أن المراد بالإهلاك في الآية إرادة الإهلاك على طريقة المجاز المرسل الذي أطلق فيه المسبب وأريد السبب .

ومن علاقات المجاز المرسل الجزئية : وهي تسمية الشيء باسم جزئه وتحقق تلك العلاقة حين يعبر بالجزء ويراد الكل . ولا بد لصحة هذه العلاقة أن يكون الجزء الذي يراد به الكل له اعتبار خاص بأن يكون جزءا منها ، وأن يكون العرف قد جرى باستعماله فيه ، وأن يكون له اختصاص قوي ووثيق بالمعنى الذي يراد بالكل وعلى هذا يتأكد أن كل جزء لا يصح أن يطلق على الكل بل إن الجزئية التي تعد علاقة معتبرة للمجاز المرسل ما يكون الجزء فيها بحيث يلزم من انتفائه انتفاء الكل غالباً وعرفاً مثل الوجه ، والرأس ، والرقبة ، لأن انتفاء كل واحد منها يستلزم انتفاء الكل الذي هو الحيوان بحسب العرف يقول العلامة الدسوقي في حاشيته : « واعلم أنه لا يصح إطلاق اسم كل جزء على الكل ، وإنما يطلق الجزء الذي له مزيد اختصاص بالكل بحيث يتوقف تحقق الكل بوصفه الخاص عليه كالرقبة والرأس بخلاف اليد فإنه لا يجوز إطلاقها على الإنسان »^(١).

(١) شروح التلخيص ، ٣٥/٤ .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ الْبَيَانِ ————— ❁

ومن شواهد هذه العلاقة ما يعبرون به عن الجاسوس بالعين . مثل عين العدو تجول في المدينة سمي الجاسوس عينا باسم جزئه والعين هي أوضح عضو يستخدم ويستثمر في التجسس ، ومن الذائع المشهور في هذه العلاقة ما تراه في قوله « ﴿ وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطْئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٌ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا ﴾ (النساء: ٩٢) .

فالمراد من الرقبة : العبد الرقيق عبر بالرقبة وأريد الإنسان العبد وإنما استخدمت الرقبة هنا لأن السياق سياق تحرير من العبودية إذ إن الرق قيد يلتف حول الرقبة ، ويضيق الخناق عليها ، ويسلبها حريتها ، ويكاد يزهد روحها ؛ لذا كان العتق وسيلة من وسائل تحرير الرقاب من ذل العبودية التي تفجرت في وجهها الأهوال فالتعبير بتحرير الرقبة فيه استجابة للمشاعر ، ولمسة حانية فيها طيٌّ لصفحة من الآلام ، والأسى ، والمعاناة ، ولفت قوي للوضع المزري والكتيب الذي يعيش فيه العبد الرقيق الذي يطالعه الموت في كل لحظة تمر وهو يرسف في خوائق الأغلال التي تلتف حول عنقه ، وتكاد تكتم أنفاسه ، ويظل يئن ويتوجع من عوادي الخطوب التي تأتلف عليه ، وتهدد وجوده وحياته وإنما اختيرت « الرقبة » لأنها محل للقيد ، وموطن للمهانة والضعة والذل والانكسار والمراد بها العبد الرقيق تسمية للشيء باسم جزئه ومن هذه العلاقة ما تجده في قول المتنبي وهو يفخر بنفسه وبيته بها ويعتز فيقول :

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا بأني خير من تسعى به قدم

والشاعر الذي يباهي بنفسه ، ويرتفع بها أفقا بعد أفق يريك في هذه الصورة المجازية بأنه خير من يسعى إليه الناس ، وتزاحم حمولة الأقدام والأقدام لا تأتي منفصلة عن أجسادها عبّر بالأقدام والمراد أصحابها من إطلاق الجزء وإرادة الكل وفي هذا التعبير لمحة فنية تشعرك بمكانته وأهميته من خلال

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ —————﴾ دراستُ في مسائل علم البيان

السياق حيث إنه قد استعمل أداة التفضيل « خير » التي تشعر معها أنه إذا كان هناك فضل يشترك فيه الناس جميعاً ، ويهدفون إليه ، ويقصدونه في سعي حثيث ودائب فإنه يفضل كل الفاضلين إنه أخيرهم وأفضلهم وأحسنهم .

ومن هذه العلاقة التعبير بالوجوه والمراد بها الأجساد في قوله تعالى : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَشِيعَةٌ ﴾ (الغاشية: ٢، ٣) فالوجوه مجاز مرسل علاقته الجزئية وهذه الوجوه ذليلة كسيرة خاشعة ، مرهقة ومكدودة ، ومتعبة « عاملة ناصبة » إنها عملت لغير ما يفيدها ، وما ينفعها ولم يكن الله في خاطرها ، ولا حسابها ، ولا وجدانها فحصدت ما زرعته سعيراً وعذاباً ونارا حامية وليس يصح أن تكون الوجوه هي وحدها التي تعاني من الونى والرهق والعذاب وإنما عبر بالوجوه عن أجساد أصحابها على طريقة المجاز المرسل الذي أطلق فيه الجزء وأريد به الكل .

ومن هذه العلاقة قول معن بن أوس في ابن أخت له وهو ذائع وجهير
أعلمه الرماية كل يوم فلما اشتد ساعده رماني
وكم علمته نظم القوافي فلما قال قافية هجاني

فالمراد بالقافية القصيدة أي لما قال قصيدة هجاني عبر ، بالجزء والمراد الكل لأن القافية جزء من البيت والقصيدة . هذا وأحب أنؤكد على ما سبق من أن الجزء الذي يطلق على الكل لابد أن يتحقق فيه وجه من الوجوه الآتية :

١- أن يكون الجزء بحيث يلزم من انتفائه انتفاء الكل غالبا وعرفا مثل الوجه والرأس والرقبة فهو جزء لا يتحقق الكل إلا به كالرقبة في سياق التحرير والعنق كما قدمنا

٢- كون الجزء مهما ، وأساسياً ، وله مزيد اختصاص بالمعنى المقصود كإطلاق العين على الجاسوس فالتعبير بالعين هنا يرسم صورة حية وفاعلة ومؤثرة لذلك الإنسان الذي كلف لمهمة خاصة وهي جمع

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي تَالِبٍ

المعلومات عن شيء معين قد حدد له فهو ما يزال يتسلل ببصره فيما حوله في خفية ، وتستتر ؛ ليسجل ما يجمعه من معلومات بعد رصدها وتسجيلها وهو يقوم بهذا العمل ويؤديه في حذر وترقب حتى لا ينكشف ستره ، ويفتضح أمره .

٣- أن يكون الجزء الذي يعبر به عن الكل من أشرف الأجزاء كإطلاق القافية على البيت أو القصيدة .

هذا ومن علاقات المجاز المرسل الكلية والمجاز بهذه العلاقة متحقق من خلال تسمية الجزء باسم الكل على نحو ما تراه في تصوير حال المنافقين في قوله تعالى : ﴿ تَجْعَلُونَ أَصَابِعُكُمْ فِي آذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ﴾ (البقرة: ١٩) ، فالمجاز في الآية الكريمة في قوله سبحانه : ﴿ أَصَابِعُكُمْ ﴾ (البقرة: ١٩) فقد أطلقت الأصابع وأريد أناملها أو أطرافها وهذه الكلمة المصورة من خلال سياقها التي وردت فيه تشعرك بفداحة الهول الذي أحاط بهم ، ومدى ما حل ونزل بساحتهم من ذعر ، وهلع ، وخوف ، وقلق ، واضطراب ، وخطر مما جعلهم يضعون أصابعهم في آذانهم فرارا وهربا من الأخطار التي يعانونها ، وسوء المصير الذي يعايشونه ، والإحساس بالرعب الذي حلَّ بهم من خلال الصيب الهاطل ، والظلمات ، والرعد ، والبرق لذا فهم يدسون أصابعهم في آذانهم التي لا تسع أصابعهم كاملة على نحو يشعر بمدى اضطرابهم ، وخوفهم ، وقلقهم حذر الموت الذي يتربص بهم .

ومن هذه العلاقة ما تجده في قول الله تعالى : ﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ (آل عمران: ١٦٧) ، إن هذا الجزء من الآية يرسم صورة المنافقين وحقيقتهم في موقفهم يوم غزوة أحد إذ يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم فلم يكن في قلوبهم إلا النفاق الذي يضاد العقيدة ، ويدمرها كما أنه يجعل ذواتهم ومصالحها فوق العقيدة فهم يقولون بأفواههم : لو نعلم قتالا تبغناكم أما ما في قلوبهم حقيقة أنهم لا يريدون القتال أصلا ، ولو تيقنوا من

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ ﴾

القتال لفروا منه وأنت تطالع المجاز المرسل هنا من خلال التعبير بقوله : يقولون بأفواههم والقول لا يكون بالأفواه ، وإنما يكون بالأسنة فإطلاق الأفواه على الأسنة مجاز مرسل علاقته « الكلية » إذ عبر بالأفواه وأراد الأسنة .

ومن علاقات المجاز المرسل اعتبار ما كان :

وهذه العلاقة تتحدّد من خلال تسمية الشيء بما كان عليه من قبل وذكره بهذا الوصف الذي كان عليه من قبل وتجد هذا في قوله تعالى : ﴿ وَءَاتُوا آلَ يَتِيمَ أَمْوَالَهُمْ ﴾ (النساء: ٢) ، والمجاز متحقق في كلمة « اليتامى » ففيها مجاز علاقته اعتبار ما كانوا عليه قبل الرشد أي الذين كانوا يتامى إذ لا يتم بعد الرشد والبلوغ وسماهم الله يتامى باعتبار ما كانوا عليه وأمر ياتيان اليتامى أموالهم ليحذر مما يمكن أن يقع عليهم من إهمال ، وظلم ، وسوء استغلال؛ لذا هو يوصي بهم خيرا والاهتمام بعدم ظلمهم ، وإقامة حياتهم على أساس من العدل ، والتأمين ، والرعاية وفي التعبير باليتامى هنا يشير إلى الوضع الذي كانوا عليه من الضعف قبل أن يبلغوا سن الرشد لذا فالنص الشريف يحذر من تضييع حق اليتيم ومن هذه العلاقة ما تراه في قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ (طه: ٧٤) ، سمي مجرما باعتبار ما كان عليه من الإجرام حال الحياة ؛ لأن المرء إنما يثاب ويعاقب على أعماله التي عملها في الدنيا ولذا لا يوصف بها بعد مفارقتها الدنيا إلا عن طريق اعتبار ما كان عليه من قبل .

ومن علاقات المجاز اعتبار ما يكون عليه الشيء في المستقبل .

وتتحقق هذه العلاقة حيث يتم النظر إلى الحال المترقبة التي يتول إليها الشيء في المستقبل فالمجاز يحصل من خلال تسمية الشيء باسم ما يتول إليه في المستقبل ومن هذه العلاقة ما تجده في قوله تعالى : ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجَنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرْنِي أَعَصِرُ خَمْراً وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرْنِي أَحْمِلُ فَوْقَ

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي تَالِبٍ

رَأَيْتُ خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ﴿ (يوسف: ٣٦) فالمراد أعصر عنباً يثول أمره إلى خمر وإنما صح هذا ؛ لأن الخمر عصير والعصير لا يعصر ففي قوله : «خمر» مجاز مرسل علاقته اعتبار ما يكون أي ما يصير إليه العنب من الاختمار .

ومن هذه العلاقة ما تراه في قوله تعالى على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام ﴿ فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ (الصافات: ١٠١) ، فالمجاز في قوله «بغلام» إذ أنه إنما بشر بطفل يثول أمره إلى غلام في المستقبل ومن هذه العلاقة ما تراه في قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ (الزمر: ٣٠) ، أي أنك ستموت ، وإنهم سيموتون عبر «بميت» على طريقة المجاز المرسل الذي علاقته اعتبار ما يكون أي ما سيثول إليه من المصير المحتوم وهو الموت والتعبير بقوله «ميت» هو وضع الرسول ﷺ أمام واقع كأنه وقع لا أمام مستقبل سيقع ؛ لأن الموت نهاية كل حي وفيه يستوي البشر ولا يبقى إلا الله قال تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ (القصاص: ٨٨).

ومن علاقات المجاز المرسل علاقة المحلية .

وهي علاقة يتبين المجاز فيها من خلال تسمية الشيء باسم محله وذلك من خلال إطلاق اسم المكان على الذي يحل فيه وترى هذا واضحاً في قوله تعالى : ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴾ (العلق: ١٧) ، فالمراد بالنادي أولئك الذين يجتمعون فيه ويلتقون من تسمية الشيء الحال باسم محله ومن هذه العلاقة ما تراه في قوله تعالى : ﴿ وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴾ (يوسف: ٨٢) ، إذ المراد أهل القرية من تسمية الحال باسم المحل .

ومن علاقات المجاز المرسل علاقة الحالية :

وهي علاقة يتحقق المجاز فيها من خلال تسمية المحل باسم الشيء الذي يحل فيه وترى هذه العلاقة في قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ

الصورة البيانية ————— دراستي في مسائل البيان ————— ❁

مجاز عن اللغة عبر باللسان لأنه أداتها وآلتها فاللسان العربي المبين هو لغة قومه التي يدعوههم إلى الله بها

ومن علاقات المجاز المرسل علاقة المجاورة .

والمجاز يحصل بهذه العلاقة من خلال تسمية الشيء باسم الذي يجاوره وترى هذه العلاقة في مثل قولهم : ركب الفرسان سروجهم عبر بالسروج وأريد الخيل التي سميت سروجاً لكثرة مجاورة السروج لظهورها ومن هذه العلاقة قولهم : شربنا من الرواية - وهي الدابة التي يحمل عليها الماء تريد: شربنا من - القربة - التي على ظهر الدابة فالرواية مجاز مرسل علاقته المجاورة لمجاورة الدابة للقربة عند الحمل فهم يطلقون على القربة « المزادة » رواية وإنما الرواية البعير الذي يحمل عليه الماء ومنها قول عنتره :

فشككت بالرمح الأصم ثيابه ليس الكريم على القنا بمحرم

أي أنه شك بالرمح جسده فلفظ « ثيابه » مجاز مرسل علاقته المجاورة لأن الشك وهو الطعن إنما يكون في الأجسام وليس في الثياب وكما صح أن تكون العلاقة المجاورة على حد ما سبق في قول عنتره هذا يصح أن تكون العلاقة فيه « المحلية » باعتبار أن الثياب محل للابسها ومن هنا تتشابه العلاقات وأن المجاز الواحد قد تكون له أكثر من علاقة كما ظهر بين المجاورة والمحلية وكما يمكن أن يكون بين الآلية والمجاورة فيمكن أن يكون كل منهما من إطلاق المحل وإرادة الحال وإنما سمي مجازاً مرسلًا لتردده بين علاقات متنوعة فلا تنحصر في نوع واحد من العلاقات ولا تقتصر على علاقة واحدة وإنما تتنوع علاقاته وتتعدد يقول العلامة الدسوقي : « وقيل إنما سمي مرسلًا لإرساله عن التقييد بعلاقة مخصوصة ، بل رُدَّ بين علاقات بخلاف المجاز الاستعاري ، فإنه مقيد بعلاقة واحدة هي المشابهة »^(١) ، فالإرسال في اللغة هو

(١) شروح التلخيص ٢٩/٤ .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ —————﴾

الإطلاق والمجاز الاستعاري مقيد بادعاء أن المشبه فرد من أفراد المشبه به وأدخل في جنسه والمرسل مطلق عن هذا القيد . وعلى كل فإن البلاغيين قد تتبعوا علاقات هذا المجاز ووضعوا أيديهم على أعداد منها وما ذكرناه هنا من علاقات هي أكثرها شهرة وذبوعا ويلاحظ أن هذه العلاقات قد تعددت آراء البيانين حول حصرها وعددها فمنهم من ذهب إلى أنها ست وعشرون علاقة كصاحب البرهان الزركشي^(١) ، ومنهم من أشار إلى خمس وعشرين علاقة كسعد الدين حين قال : « وأنواع العلاقات المعتبرة كثيرة يرتقي ما ذكره إلى خمس وعشرين »^(٢) ومنهم من أشار إلى أنها تصل إلى عشرين^(٣) ، ومنهم من يباهي فيذكر أنها تجاوزت في عددها الثلاثين^(٤) .

ومن هنا يتضح لنا ويتبين أن المجاز المرسل هو لفظ يستعمل مكان لفظ آخر ويحل محله يظهر معناه ، ويعبر عن هذا المعنى ، ويحتويه ، ولا يضيق به بقرينة تمنع من إرادة حقيقة اللفظ المستعمل في معنى لفظ آخر مع صلة قوية وملابسة وثيقة بين اللفظ وما استعمل فيه وهذه الملابسة يقبلها العقل ولا يرفضها ، ويستسيغها الذوق ، ويقبلها الناس ويتواطئون على الرضا بها ، والقبول بها جيلا بعد جيل .

على أن الكلمة في المجاز المرسل والاستعارة كلمة تجاوزت وضعها الذي وضعه لها واضع اللغة إلى معنى جديد لم توضع له أصلاً ولكن بينهما صلة وملابسة وفي معنى ذلك يقول الإمام عبد القاهر : « وأما المجاز فكل كلمة أريد بها غير ما وقعت له في وضع واضعها لملاحظة بين الثاني والأول وإن شئت قلت « كل كلمة جُزّت بها ما وقعت له في وضع الواضع إلى ما لم

(١) البرهان في علوم القرآن ، ٢/٢٥٩-٢٦٦ .

(٢) المطول ، ص ٣٥٥ .

(٣) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ، ٢/٣٦-٤٠ .

(٤) عروس الأفراح لبهاء الدين السبكي ، شروح التلخيص ، ٤/٤٣ .



الصورة البيانية ————— دراستي في مسأله البيان ————— ❁

توضع له من غير أن تستأنف فيها وضعاً لملاحظة بين ما تجوز بها إليه ، وبين أصلها الذي وضعت له في وضع واضعها فهي مجاز»^(١).

هذا وإنما يُحدّد الإمام عبد القاهر المجاز على هذا النحو ليقابل بينه وبين الحقيقة على أساس وضع الألفاظ التي وضعها واضع اللغة فيقول في توضيحه للحقيقة اللغوية التي يعرفها : « كل كلمة أريد بها ما وقعت له في وضع واضع وإن شئت قلت في مواضعه وقوعاً لا يستند فيه إلى غيره »^(٢).

ويبين الإمام السكاكي أن دلالة الكلمة على المعنى موقوفة على الوضع وأن الوضع تُعين الكلمة بإزاء معنى بنفسها أي تعيين اللفظ للدلالة على معناه بنفسه من غير قرينة ، أما دلالة اللفظ المشترك كلفظ الجون للأسود والأبيض فدلالته على معنى من المعنيين الموضوعين له دلالة وضعية ، وفي حالة احتياجه إلى قرينة تُعين أحد المعنيين المراد فليست كقرينة المجاز ؛ لأن قرينة المجاز تُعين معنى لم يوضع له اللفظ وهو المعنى المجازي ، أما قرينة اللفظ المشترك فهي تُعين له أحد المعنيين الموضوع لهما اللفظ في اللغة .

فالكلمة المستعملة عند السكاكي قد يكون مطلوباً بها نفسها أي المعنى التي هي موضوعة له وقد يكون مطلوباً بها نفسها أي المعنى التي هي موضوعة لها ، وقد يكون مطلوباً بها أخرى ، أي معنى معناها بمعونة قرينة . ومبنى كون الكلمة حقيقة لغوية أو مجازاً لغوياً على ما يعرف الحقيقة فيقول : « فالحقيقة هي الكلمة المستعملة فيما هي موضوعة له من غير تأويل في الوضع كاستعمال الأسد في الهيكل المخصوص »^(٣).

(١) أسرار البلاغة ، تحقيق محمود شاكر ، ص ٣٥١ ، ٣٥٢ .

(٢) أسرار البلاغة ، ص ٣٥٠ .

(٣) انظر مفتاح العلوم ص ١٦٩ ، وانظر بغية الإيضاح ، ٨٤/٣ ، ٨٥ ، ٨٦ .

أنواع الحقيقة :

إن الكلمة الحقيقية تتلون وتتنوع حسب ألوان وتخصص المتخصصين ، فذكر جمهور العلماء من البلاغيين والأصوليين أن الحقيقة لغوية ، وشرعية وعرفية خاصة أو عامة على حسب وضعها ؛ لذا انقسمت إلى أربعة أقسام:

١- حقيقة لغوية : وهي ما وضعها واضع اللغة ، مثل كلمة «أسد» إذا استعمله المخاطب يعرف اللغة في الحيوان المفترس .

٢- حقيقة شرعية كلفظ «الصلاة» إذا استعمله المخاطب بعرف الشرع في العبارة المخصصة .

٣- حقيقة عرفية خاصة كلفظ «اسم» إذا استعمله المخاطب بعرف النحو في كل ما دل على مُسمًى من إنسان ، أو حيوان ، أو جماد ، أو نبات أو أي شيء آخر .

٤- حقيقة عرفية عامة كلفظ «دابة» إذا استعمله المخاطب بالعرف العام في ذات الأربع^(١).

* * *

(١) بغية الإيضاح ، ٨٤/٣ .



بلاغة المجاز المرسل

عرفنا أن هذا النوع من المجاز يقوم الارتباط فيه بين المعنى الأول للكلمة ومعناها الثاني المراد منها على نوع من الملازمة والعلاقة التي تصل بينهما وتصحح إطلاق المعنى الأول للكلمة على معناها الثاني المراد منها ، ومع أن من البلاغيين من بالغ في عدد العلاقات حتى جعلها تتخطى الثلاثين على حد ما سبق أن أشرنا من قبل ^(١).

وقد سبق أن أشرنا إلى أن هناك خلطاً وتداخلاً بين بعض علاقات المجاز المرسل وبعضها الآخر على نحو يصح إطلاق إحداها على الأخرى في سهولة ويسر كإطلاق اللازمة والملزومية على السببية والمسببية والآلية على المجاورة والمجاورة على المحلية كما أن هناك من شواهد المجاز المرسل ما لا يكاد يفظن الدارس إلى مجازيتها وذلك بسبب التلاحم القوي ، والارتباط الشديد بين المعنى الأول للكلمة والمعنى المراد منها بحيث يصير التعبير بها مألوفاً ، وجارياً على اللسان من غير أن يدرك أن هناك فرقاً بين الحقيقة والمجاز ، فأنت تقول قرأت أدب المنفلوطي ، وسكنت في القاهرة ، وشربت من النيل ، وفهمت المكتوب لأن الفهم إنما يكون للمعنى ، وذلك في قولك : قرأت المنفلوطي ، وسكنت القاهرة ، وشربت النيل ، وفهمت الكتاب ، لكن المجاز المرسل مجاز هو توسع في اللغة أي أنه في حقيقة أمره عملية لغوية تتغاضرُ به اللغة وتتكتف وتتمو ، وتتوسع . انظر إلى قوله تعالى في شأن المنافقين ﴿ صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرِجُعُونَ ۖ أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِيٓءِ آذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ۗ ﴾ (البقرة: ١٨، ١٩)

(١) بهاء الدين السبكي ضمن شروح التلخيص ، ٤/ ٤٣ .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ —————﴾ دَرَسَتْ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

وحين تتأمل قوله سبحانه : ﴿يَجْعَلُونَ أَصْبِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ (البقرة: ١٩) تجده قد ورد في سياق متوتر مذعور ، وغاضب ، يطل منه الرعب والخوف والموت ، فالمنافقون الذين كانوا يُجَيِّشُونَ على الإسلام بالغل ، ويفورون له بالحفيظة والمكر والحقد ، وينصبون له الحبائل تراهم في هذا الموقف الذي يروّع السكينة في القلب لا يستقر لهم جنان من شدة الهول . والطبيعة الغاضبة تهددهم بالفناء والموت حين تحاصرهم بصيبيها المصبوب من السماء بظلمات السوداء المطبقة ، ورعده القاصف ، وبرقه الخاطف على نحو يحاولون معه أن يدسوا أصابعهم كاملة في آذانهم ، ويدخلونها كلها بداخلها ليتقوا ما يكاد يخرق آذانهم من شدة أصوات الرعد ، والبرق ، والصواعق « فالأصابع » المراد بها الأنامل أو الأطراف ، والتعبير بها هنا يرسم الصورة الحقيقية لما حل بهؤلاء المنافقين من ذعر ، وخوف ، وقلق ، واضطراب .

وترى التعبير « بالأصابع » في قوله تعالى حكاية عن نوح عليه السلام مع قومه ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْبِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾ (نوح: ٧).

يرسم صورة للعناد أمام دعوة الحق ، والإعراض التام ، والفرار الكامل من سماع صوت الداعية مع ما يبذله من جُهدٍ مُضْنٍ ، وشاق لتوصلهم دعوة الله وكلما ألحَّ في الدعوة لهم ، وإصراره عليها . ألحوا هم في الرفض ، وعدم الاستجابة لدرجة أنهم يدسُّون أصابعهم في آذانهم حتى لا يسمعوا ، والتعبير بالأصابع مجاز ، والمراد أناملهم ، لكن التعبير على هذا النحو يوضح الحد الذي وصلوا إليه من صدودهم ، ورفضهم ، وعنادهم ، وإصرارهم على الصدود ، ورفض الاستجابة والسماع ، وذلك بمحاولة غلق منافذ السمع ، وإحكام هذا الغلق بمحاولة وضع ما هو أكبر من سعة آذانهم فيها حتى لا يسمعوا ، وفي ذلك من العناد ، والرفض ، والصدود ما فيه .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَةٌ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ❁

وانظر إلى المجاز في قول الله تعالى : ﴿ وَءَاتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾

(النساء: ٢).

والتعبير بالمجاز في قوله : «يتامى» تعبير بما كانوا عليه من قبل ، واستصحاب لحالتهم التي مضت وانتهت أي الذين كانوا من قبل يتامى واليتيم هو من فقد أباه ، وهو دون سنّ البلوغ والرشد والأب هو اليد الحانية التي تواسي ، والقلب العطوف الذي يخفق ، ومن ثمَّ أوجب الإسلام فرض الوصاية عليه ، ووضع أمواله تحت رعاية وَصِيٍّ ينميها ، ويستثمرها ويتولّى أمره ، ويشرف على شئونه ، ويسهر على رعاية مصالحه ، ويرحم ضعفه ، وهوانه ، وبؤسه حتى يكتمل نضجه ، ويبلغ سن الرشد وحينئذ ترد إليه أمواله ليتصرف فيها كيف يشاء ، فكلمة «اليتامى» في سياقها مجاز مرسل بقرينة «آتوا» أي الذين كانوا من قبل «يتامى» وصَحْبَتُهُمْ تلك الصفة حيناً من الدهر ، فالتعبير بها ، وإيثارها على غيرها من أساليب الحقيقة استشارة لمشاعر العطف والرحمة والحنان في قلوب الأوصياء حتى لا يطمعوا في شيء من أموالهم ، وحتى لا تمتد أيديهم إلى ما ليس لهم ، فإن الوصي الذي ألف أن يتصرف في مال اليتيم ، وتعود على ذلك قد تغلبه أطماعه ، ويغيب ضميره نتيجة للضعف البشري ، وللتكوين النفسي فيستبدل مال اليتيم الأعلى بالذي هو أدنى ، فيضيع حقه في حجر الوصي والولي ؛ لذا كان التشديد بالأمر للأوصياء بإعطاء اليتامى أموالهم التي تحت أيديهم ، وعدم الاعتداء عليها بأكلها كلها أو أي شيء منها بحيلة من الحيل ، أو بطريق من الطرق ، وعدم الانتقاص من قيمتها بإعطائهم الرديء في مقابل الجيد ، وذلك كله مبالغة في التوقي والورع والتحرج من الوقوع في الذنب العظيم ، فاستخدام القرآن للفظ اليتامى وإيثاره على غيره من أساليب الحقيقة إحياء وإشعار بحالة الضعف وغيبة العائل ، وفقدان النصير وما كان عليه اليتيم من بؤس ومحنة وشقاء وذلك استشارة

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ —————﴾ دَرَسَتْ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

لأحاسيس العطف ، واستجاشة لمشاعر الرحمة ، واستدراراً لعاطفة البر والإحسان ، وكأنَّ اليُتمَّ ما زال مصاحباً لم يبرحهم ، ولم يغادرهم ويفارقهم .

واقراً قول الله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ (آل عمران: ١١٨).

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا ﴾ (آل عمران: ١١٨) تحذير واضح السمات للجماعة المسلمة في كل زمان ومكان من أن تتخذ لها بطانة من أعدائها الطبيعيين من غير المسلمين حتى لا يشير هؤلاء الأعداء في وجهها القلاقل والمتاعب ؛ ذلك أنهم لا يألون جُهداً في بثِّ الخَبَالِ وإشاعة البلبال بين صفوفها ؛ لأن غاية ما يهدف إليه أولئك الأعداء ، وأقصى ما يتمنونه أن يثيروا في وجهها المصاعب والمتاعب والقلاقل ، فهم ليسوا أمناء على أسرارها ، ولا على مصالحها . يظهر من خلال حديثهم الحق الذي تنطوي عليه أفئدتهم وما يخفونه من البغضاء والضغينة في صدورهم أكبر ، ففي قوله تعالى «البغضاء» مجاز مرسل ، والمقصود الكلمات الكريهة التي تدل على البغضاء والكراهية ، فألسنتهم تقطر بالسُّمِّ القاتل من فحوى كلماتهم ، فمن شدة بغضهم للمسلمين لا يملكون أنفسهم ، ولا يقدرّون على حفظ ألسنتهم «فالبغضاء» معنى من المعاني المستكنة في الصدور ، والمطوية في القلوب ، وهي لا تتجلى مشرقة وظاهرة من الأفواه وإنما الذي يبدو ويظهر هو الكلام الذي يعبر عنها ، ويترتب عليها عبرة «البغضاء» وأريد ما يتسبب عنها من إطلاق السبب وإرادة المسبب . ولتتمكن البغضاء والعداوة من نفوسهم وسيطرتهم على قلوبهم ، واستيلائها على صدورهم ، وملئها لأفئدتهم بين كيف تتزاحم المبالغة وتتضخم وتتكاثر في الكلام الدال على كل ذلك للإشعار بأن الذي تقذف به أفواههم ، وتفيض به ألسنتهم هو البغضاء ذاتها على الرغم من محاولتهم كتمانها ، وإخفاءها وسترها في داخل صدورهم .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دُرِّسَتْ فِي مَسَائِدِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي تَالِبٍ ————— ❁

على أن في لفظ « صدورهم » في قوله تعالى : ﴿ وَمَا تُخْفَى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ (آل عمران: ١١٨) مجازاً مرسلًا ، فالمراد من الصدور القلوب ، أطلق المحل وأريد الحال فيه .

هذا والمجاز المرسل تأثيره محدود ، إذ هو أقل الأساليب البيانية تأثيراً في بلاغة الكلام إلا أنه يحقق مزية الإيجاز حين يدعو المقام إلى ذلك كما أنه قد يفيد المبالغة في تصوير المعنى .

* * *

الاستعارة

عرفنا في دراستنا للتشبيه أنه عقد موازنة بين شيئين يشتركان في صفة أو أكثر بأداة مذكورة أو مقدرة لغرض يهدف إليه صانع الكلام ويقصده ، ومن ثم ندرك أن أسلوب التشبيه يتضمن طرفين : الأول المشبه ، والثاني المشبه به ، وأن الطرف الثاني المشبه به يقابل الطرف الأول المشبه ، وأنهما يلتقيان في صفة أو صفات يشتركان فيها كما أن كلا الطرفين مستقل بنفسه ، وقائم بذاته ، وأن أداة التشبيه حاضرة أو غائبة تكون بمثابة الفاصل الذي يفصل بين الطرفين كقول النابغة :

كَأَنَّكَ شَمْسٌ وَالْمُلُوكُ كَوَاكِبُ إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدَ مِنْهِنَّ كَوْكَبُ

ومن الشواهد البلاغية في التشبيه قول أبي العلاء المعري :

أَنْتَ كَالشَّمْسِ فِي الضِّيَاءِ وَإِنْ جَاءَ وَزَتْ كَيْوَانٌ فِي عُلُوِّ الْمَكَانِ

ومن الشواهد في هذا قول امرئ القيس :

كَأَنَّ عَيُونَ الْوَحْشِ حَوْلَ خِبَائِنَا سَنَا لَهَبٌ لَمْ يَتَّصِلْ بِدُخَانِ

ومن الشعر الوجداني تطالعنا هذه الزفرات المحترقة لخليل مطران تثيرها ذكرى الحبيب ساعة الغروب ، والنهار يمضي مودعا وخواطره جرحى كالسحاب الدامي فتأتي تشبيهاته كما يأتي غيرها من الصور الشعرية ترجمة لذوب نفسه ، وفيض أحاسيسه . يقول الشاعر في قصيدة المساء التي بدأها بقوله :

دَاءٌ أَلَمْ فَحَلْتُ فِيهِ شِفَائِي مِنْ صَبَوِي فَتَضَاعَفَتْ بَرَحَائِي

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِعِ الْبَيَانِ ————— ❁

وفيهما يقول في صور حزينة متلاحقة :

ولقد ذكرتكَ والنهار مودع والقلب بين مهابةٍ ورجاء
خواطري تبدو تجاه نواظري كلمي كداميةِ السحابِ إزائي
والدمع من جفنيَّ يسيل مُشْعِشِعًا كسنا الشَّعاعِ الغاربِ المترائي
والشمس في شفقٍ يسيل نُضَارُهُ فوق العقيقِ على ذرَى سوداء
مرت خلال غمامتين تحددا وتقطرت كالدمعة الحمراء
فكأن آخر دمعة للكون قد مزجت بآخر أدمعي لراثي
وكانني آنست يومي زائلاً فرأيت في المرأة كيف مسائي

فأنت ترى أن الكلمات في التشبيهات في الأبيات السابقة لم تتجاوز معناها الوضعي ؛ إذ هي مستعملة في معانيها الحقيقية التي وضعها لها واضع اللغة ، فكل كلمة قد خصّصت بمعنى معيّن تدل عليه ، وتعبر عنه ، وهو معناها الدلّالي ، ولهذا فهي مستعملة في معانيها الموضوعية له وهو المعنى الحقيقي . فالشاعر لم يتدخل في دلالة الكلمة ويستعملها في معنى آخر أرادها منها وإنما نراه وقد عقد موازنة بين كلمتين أو أكثر قصد اشتراكهما معاً ، والتقاؤهما في معنى معين لغرض يقصده المتكلم ويريده .

ففي قول امرئ القيس :

وليلٍ كموج البحر أرخى سدوله عليّ بأنواع الهموم ليبتلي
ويتفنّن في التعبير عن ذلك فليله الذي يَخْصّه بحديثه عنه تموج فيه الهموم ، وتتدافع ، وتزايد ، وتطغى ، وتعربد في عتوّ وتجاوز لكل حدّ فيشبهها بموج الماء في البحر مع مَوْرانه ، وتدافعه ، وتتابعه ، وتهالكه . فالطرفان مستعملان في معنيهما الحقيقي لا يتجاوزانه إلى غيره ، ولا يتخطيانه إلى سواه .

وكذلك ترى هذا في كل تشبيه سبق قبل تشبيه امرئ القيس من استقلال الأشياء فيها عن بعضها ، ولكن أُقيمت بينها روابط وعلاقات جعلت منها

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

أساليب فنية ذات نبع فياض ، وصدى عجيب وشفاف من خلال تصوير الهيئة والحالة التي يحتلها النعمان ملك النابغة والتي يتفوق بسببها على سواه من الملوك فيصور في صورة الشمس بالنسبة لغيرها من بقية الكواكب ، وكيف تتفوق في ضيائها ، ورفعتها ، وإشراقها على سواها من الكواكب التي تتوارى وتختفي ، ولا يظهر لها وجود ، ولا يكون لها حضور أمام طلوعها ، ومن خلال الصورة التي يرسمها أبو العلاء لممدوحه في الضياء والرفعة والإشراق ويجعل الشمس تلتقي معه وتقابله في ذلك مع تجاوزه لكيوان وهو اسم زحل في علو المكان .

ومن خلال الصورة التي يرسمها امرؤ القيس لعيون الوحش المتناثرة حول خباء الشاعر في صورتها التي هي عليها ، وأنها تصوّر بهذه الصورة صورة الجَزَع ولكي يحقق التشبيه بين المصور والمصور له بين أن الجزع لم يثقب حتى يتقابل تمام المقابلة مع المشبه .

وفي بيته الذي أراد أن يرسم صورة للردني الذي حمله تراه قد صور سنانه في مضائها ، وبريقها ، ولمعانها بسنا اللهب بعد أن نفى عنه وأزاح الدخان حتى يتحقق التشبيه ويتم التشابه .

وفي قصيدة خليل مطران «المساء» التي نظمها وهو مريض بإحدى مستشفيات الإسكندرية يعاني آلام الغربة والوحدة ، والمرض ، والبعد عن الحبيب ، وقد مزج أحاسيسه الكثيرة تلك بمشاهد الطبيعة في نغم مؤثر ، وصوت حزين ، ونفس آسية ، وقلب وجيع فهو يصور خواطره الدامية الجريحة بالسحاب الدامي ويشبه دمه الذي يفيض من جفنه بالشعاع الغارب المترائي ، ويصور الشمس وهي تنحدر خلال الغمام بالدمعة الحمراء وبمثل ما صور الدَّمْع الذي تفيض به عيناه في صمت ، وبكاء ، وحزن بسنا الشعاع الغارب ، والشمس في شفقها المحمر الذي يسيل نُضَارَه وهي تمر خلال غمامتين تحدرا كالدمعة الحمراء صور لك أن آخر دمعة للكون قد مزجت

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دُرِّسَتْ فِي مَسَائِدِ الْبَيَانِ ————— ❁

بآخر دَمْعَةٍ مِنْ عَيْنِيهِ وَكَأَنَّهُ يَرِثُنِي نَفْسُهُ ، وَصُورُ لَكَ صِفَةَ السَّمَاءِ فِي هَذِهِ
اللَّحْظَاتِ الدَّامِيَةِ الْحَزِينَةِ الَّتِي يُودَّعُ فِيهَا نَفْسُهُ بِالْمَرَاةِ الَّتِي يَرَى فِيهَا مَسَاءَ
حَيَاتِهِ .

وَهَكَذَا تَرَى كُلَّ تَشْبِيهِ فِي هَذِهِ الصُّورَةِ التَّشْبِيهِيَّةِ وَكُلَّ طَرَفٍ مِنْ طَرَفِيهِ قَائِمٌ
بِنَفْسِهِ تَرْبِطُهُمَا مَعًا رَابِطَةٌ ، وَتَجْمَعُهُمَا مَعًا عِلَاقَةٌ وَصَلَةٌ لَكِنْ كُلُّ كَلِمَةٍ مُسْتَعْمَلَةٍ
فِي مَعْنَاهَا الَّتِي تَدُلُّ عَلَيْهِ لُغَةً ، وَالَّذِي وَضَعَهَا وَاضَعَ اللُّغَةَ عَلَى نَحْوٍ لَمْ
تَتَجَاوَزْهُ فِيهِ إِلَى غَيْرِهِ ، وَلَمْ تَبْرَحْهُ وَتَغَادِرْهُ إِلَى سِوَاهُ . فَالْإِحْسَاسُ بِكُلِّ طَرَفٍ
مِنْ طَرَفِي التَّشْبِيهِ قَائِمٌ وَحَاضِرٌ ، وَكُلُّ طَرَفٍ مِنْ طَرَفِيهِ مُتَعَيِّنٌ ، وَمُتَمَيِّزٌ .
وَمَا تَجَدُّهُ فِي هَذِهِ الشُّوَاهِدِ لَا تَجَدُّهُ فِي قَوْلِ الْمُتَنَبِّيِّ وَهُوَ يَتَغَنَّى بِشِجَاعَةِ سَيْفِ
الدَّوْلَةِ وَهَزِيمَةِ أَعْدَائِهِ :

نَثَرْتَهُمْ فَوْقَ الْأَحْيَادِ نَثْرَةً كَمَا نُثِرَتْ فَوْقَ الْعُرُوسِ الدَّرَاهِمُ

وَقَوْلُهُ فِي الْإِشَادَةِ بِسَيْفِ الدَّوْلَةِ لِقَضَائِهِ عَلَى تَمَرُدِ قَبِيلَةِ بَنِي كِلَابٍ :

رَمَيْتَهُمْ بِبَحْرِ مِنْ حَدِيدٍ لَهُ فِي الْبَرِّ خَلْفُهُمْ عِبَابٌ

وَقَوْلُهُ مُفْتَخِرًا بِنَفْسِهِ وَمَعْتَدًا بِهَا .

سَرَى السَّيْفُ مِمَّا تَطْبَعُ الْهِنْدُ إِلَى السَّيْفِ مِمَّا يَطْبَعُ اللَّهُ لَا الْهِنْدُ

وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ الْحَطِيبَةِ مُسْتَجِدًّا وَمُسْتَعِظًا الْخَلِيفَةَ الرَّاشِدَ عُمَرَ

ابْنَ الْخَطَّابِ :

مَاذَا تَقُولُ لِأَفْرَاحٍ بِذِي مَرْحٍ رُغِبَ الْخَوَاصِلُ لَا مَاءَ وَلَا شَجَرٍ

أَلْقَيْتُ كَاسَهُمْ فِي قَعْرِ مَظْلَمَةٍ فَاعْفُ عَنْكَ يَا اللَّهُ يَا عَمَرَ

وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ شَوْقِيِّ أَمِيرِ الشُّعْرَاءِ :

وَلَدَ الْهَدْيُ فَالْكَائِنَاتُ ضِيَاءٌ وَفَمَ الزَّمَانُ تَبَسُّمٌ وَثَنَاءٌ

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ —————﴾ دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

فالألفاظ في هذه الشواهد قد أريد بها غير حقائقها وغير ما وضعت له أصلاً
في اللغة ، ففي قول المتنبي :

نثرتهم فوق الأحيدب نثرة

حينما نتأمل الفعل في قوله : « نثرتهم » ندرك أن النثر بمعناه الحقيقي إنما
يكون للأشياء الصغيرة كالدرهم ، والدنانير ، وليس للأجسام والرءوس وبهذا
يكون النثر بمعناه الحقيقي غير مراد وإنما المراد من خلال إشادة الشاعر
بسيف الدولة وجيشه أن يبين ما حلّ بأعداء سيف الدولة من قتل ، وتدمير إذ
قطعت أجسادهم إلى قطع صغيرة حتى لتكاد تحفن باليد ثم تنثر على الأرض
من خلال تشبيه تفرق الأجسام الكبار بالأجسام الصغار واستعير النثر للتفرق
واشتق منه نثر بمعنى تفرق ، فالنثر المراد به التفرق .

وفي قول المتنبي في إشادته بسيف الدولة لقضاء جيشه على تمرد قبيلة بني
كلاب :

رميتهم ببحر من حديد له في البر خلفهم عباب

تراه لم يرد من كلمة « البحر » المعنى الحقيقي لها ، وإنما أراد منها شيئاً
آخر وهو الجيش . فقد استعار البحر للجيش ، وعبر به عنه بجوامع الكثرة في
كل وفي كلمة « عباب » ومعناها الحقيقي كثرة الماء والسيل ، وارتفاع الموج
واضطخابه وهو غير مراد ، والمراد حركة سيرهم المتدفقة والمندفعة ، فقد
استعار « العباب » لهذه الحركة المندفعة بعد أن شبه هذه الحركة المتدفقة
والمندفعة بموج البحر واضطخابه .

وفي قول المتنبي :

سرى السيفُ مما تطع المندُ صاحبي إلى السيف مما يطع الله لا الهند

فالسيف في الشطر الثاني غير مراد به معناه الحقيقي وهو النوع المعروف
من الأسلحة ، وإنما أراد الشاعر من السيف نفسه ، فالسيف مستعار لها حيث

الصورة البيانية ————— دراستي مسائل علي البيان ————— ❁

شبه نفسه بالسيف في المضاء ، والحزم ، والقطع ، وقد جانس بين لفظ السيف الأول والسيف في الشطر الثاني

وفي قول الحطيئة مخاطب الفاروق عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -
ماذا تقول لأفراخٍ بذي مرح زُغِب الحواصل لا ماء ولا شجر
لم يرد بقوله : «أفراخ» معناها الحقيقي وهو ولد الطير يقال «أفرخت الحمامة وفرخت صارت ذات فرخ . وأفرخت البيضة : خرج فرخها وهم يستفرخون الحمام : أي يتخذونه للفراخ وقد استعار الشاعر كلمة «أفراخ» لأطفاله الضعاف الصغار ومن خلال هذا استطاع الحطيئة أن يوظف استعارة الأفراخ للأطفال الصغار بقله حيلتهم ، وضعفهم ، وعجزهم ، وحاجتهم إلى من يعول أمرهم ، ويعينهم ، ويساعدهم في استدرا عاطفة الشفقة والرحمة لدى الخليفة العادل عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فعفا عنه ، وأطلق سراحه .

وفي قول شوقي في الهزيمة النبوية :
ولد الهدى فالكائنات ضياء وفم الزمان تبسم وثناء
تراه جعل للزمان فما ، ولا فم له على سبيل الاستعارة وجعله للزمان فما يبتسم ويتحدث على أساس تشبيه الزمان بالإنسان وفي إثبات لازم المشبه به وهو «فم» للمشبه وهو «الزمان» استعارة تخيلية وهكذا نرى أن استعمال الألفاظ في غير معانيها الحقيقية التي وضعت لها واستعمالها في معان أخرى هي المرادة حيث شبه نفسه بالسيف في المضاد ، والحزم ، والقطع وقد جانس بين لفظ السيف الأول والسيف في الشطر الثاني لعلاقة المشابهة هو الذي يجعل الاستعارة تفترق وتتميز عن التشبيه فعلاقة المشابهة تكون من القوة والوضوح بحيث تجعل الشيان شيئا واحداً .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ —————﴾ دراسة في مسائل علم البيان

فالاستعارة : هي الكلمة المستعملة في غير ما وضعت له لعلاقة المشابهة مع قرينه مانعة من إرادة المعنى الأصلي الموضوع له الكلمة ومدلولها على هذا الإطلاق «الكلمة المستعملة» فتعريفها هنا بالمعنى الاسمي وهو الذائع والمشهور . وقد تطلق الاستعارة بالمعنى المصدرى وهو فعل المتكلم فيقال : هي استعمال الكلمة في غير ما وضعت له إلخ ومن هنا صح الاشتقاق فيقال : اللفظ مستعار ، والمشبّه به مستعار منه ، والمشبّه مستعار له ، والمتكلم مستعير . والمعنى الثانى المصدرى هو الأنسب لأنه يؤدي إلى معرفة هذه المشتقات التي تدور كثيرا في الكلام على الاستعارة^(١).

ومن هنا فإن أركان الاستعارة بالمعنى المصدرى مستعار وهو اللفظ ، ومستعار منه وهو المشبّه به ومستعار له وهو المشبّه فالاستعارة مجاز علاقته المشابهة بين المعنى المنقول منه والمعنى المنقول إليه ففي قوله تعالى : ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ ﴾ (البقرة: ١٠).

فكلمة «مرض» مستعملة في غير المعنى الموضوع له فليس المراد بالمرض العلة الجسدية وإنما المراد به النفاق شبه النفاق بالمرض بجامع أن كلا منهما يفسد ما يتصل به فالمرض يفسد الأجسام ، والنفاق يفسد القلوب . هذا والاستعارة تشبيه حذف أحد طرفيه ، وأداته ، ووجه الشبه غير أنها أكثر بلاغة منه وذلك لأن الطرفين في التشبيه مذكوران فهما متباينان ، وأن الصلة التي تجمع بينهما هي التداخي والتقارب وليس الامتزاج والاندماج والاتحاد على حد ما هو موجود في الاستعارة القائمة على دعوى الاتحاد وأن المشبّه والمشبّه به لقوة امتزاجهما صارا شيئا واحدا وفي هذا من المبالغة ما فيه . والمراد من التشبيه التي تبنى عليه الاستعارة وتقوم على أساسه هو التشبيه الذي يقوم في نفس المتكلم ، ويطوى ، ويضمّر في داخلها ، ولذا فهو يتناسى بعد ادعاء أن المشبّه

(١) انظر بغية الإيضاح ٩٠/٣ والتلخيص في علوم البلاغة تحقيق البرقوقي ص ٩٥.

الصورة البيانية ————— دراستي مسأله البيان ————— ❁

فرد من أفراد المشبه به وداخل في جنسه . والذي يصحح ذلك ويجوزة هو الاستحضار الذهني للارتباط القوي والصلة الوثيقة والمؤكد بين اللفظ المستعار والمستعار له التي صح على أساسها إطلاق الأول على الثاني بين الطرفين التي تحقق المبالغة ، وتهدف إليها .

طريقة إجراء الاستعارة

يقول المتنبي

ولم أر قبلي من مشي البحر نحوه ولا رجلا قامت تعانقه الأسد
فالمتنبي يستعير « البحر » للممدوح و« الأسد » له كذلك وطريقة إجراء الاستعارة في كلمة « بحر » أن يقال في هذا وفي أمثاله شبه الرجل الكريم بالبحر في الغزارة ووفرة العطاء ثم تنوسي التشبيه وادعى أن المشبه فرد من أفراد المشبه به وداخل في جنسه ثم استعير لفظ المشبه به وهو « البحر » للمشبه وأطلق عليه باعتباره أحد أفراد « البحر » وكذلك بعد إجراء التشبيه فيهما على نحو ما تقدم وهكذا ففي استعارتك « البحر » للرجل الجواد الكريم أفدت بهذه الاستعارة المبالغة في وصفه بكثرة العطاء وبغزارته وكثرته وإيقاعك منه في نفس المتلقي صورة البحر في غزارة مياهه ، وتدافعها مما يوثق سعة عطاء الممدوح وفيض كفه وفي استعارتك « الأسد » للممدوح الشجاع والجرىء والمقدام أفدت بهذه الاستعارة المبالغة في وصفه بالشجاعة وإيقاعك في نفس السامع والمتلقي صورة الأسد في شدة بطشه ، وإقدامه ، وجرأته إلى غير ذلك من المعاني المذكورة في طبيعته الدالة على الجرأة . هذا ومعنى إجراء الاستعارة تحليلها إلى عناصرها الأساسية التي تتألف منها بحيث يتعين كل من المشبه والمشبه به في الاستعارة والصفة التي تجمع بين طرفي التشبيه والقرينة التي تمنع من إرادة المعنى الحقيقي ^(١) .

(١) علم البيان للدكتور عبد العزيز عتيق ، ص ١٧٩ .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ —————﴾ دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

هل الاستعارة مجاز لغوي أو عقلي ؟

اختلف علماء البلاغة في أن الاستعارة هل هي مجاز لغوي ؟ بمعنى أن التصرف الذي يحدث فيها يكون بتغيير في دلالة الألفاظ ، ونقلها من معانيها الأصلية التي وضعت لها واستعمالها في معنى آخر فيكون تصرفا في دلالة اللغة .. أو هي مجاز عقلي : بمعنى أن التصرف الذي يحدث فيها هو تصرف عقلي بحيث لا دخل للغة فيه ، ولا نقل للألفاظ من معانيها الأصلية إلى غيرها ؟ فجمهور البلاغيين : على أنها مجاز لغوي أي أنها : لفظ استعمل في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة مع قرينه مانعة من إرادة المعنى الأصلي فالتصرف فيها إنما هو في نقل اللفظ من معناه الموضوع له في اللغة إلى معنى آخر فلفظ المستعار وهو «أسد» في قولك : رأيت أسدا يحمل مدفعا قد نقل من معناه الموضوع له في اللغة وهو الحيوان المفترس إلى الرجل المقدام الشجاع فالتصرف حينئذ يكون تصرفا في الكلمة ونزعها من معانيها اللغوية الثابتة الموضوع لها ، والمتعارف عليها إلى مجالات أخرى - والدليل على أن اللفظ المستعار قد نقل من معناه الأصلي إلى معنى آخر - أن هذا اللفظ المستعار موضوع في اللغة للمشبه به لا للمشبه ولا لمعنى أعم من المشبه والمشبه به فلفظ «أسد» موضوع في اللغة للحيوان المفترس لا للرجل الشجاع وهذا واضح وظاهر ، ولا لمعنى أعم منه ومن الحيوان المعروف كالحيوان الجريء مطلقا - رجلا كان أو أسدا إذ لو كان موضوعا لمطلق حيوان جريء لكان إطلاقه على كل منهما حقيقة كإطلاق الحيوان على الأسد والرجل باعتبارهما من أفراد هذا المطلق . والواقع على خلاف ذلك وإذا لم يوضع لواحد منهما كما هو معلوم بالنقل عن أئمة اللغة قطعا فإطلاقه على المشبه وهو الرجل الشجاع إطلاق على غير ما وضع له مع قرينة مانعة من إرادة ما وضع له فيكون مجازا لغويا وفي هذا ما يدل على أن لفظ العام إذا أطلق على الخاص لا باعتبار خصوصه بل باعتبار عمومه ، فليس من المجاز في شيء كما إذا لقيت زيدا فقلت : « قابلت

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دُرُوسٌ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ❁

رجلا ، أو إنسانا ، أو حيواناً» بل هو حقيقة إذ لم يستعمل اللفظ إلا في معناه الموضوع له .

هذا وقد قيل : إنها ، أي الاستعارة مجاز عقلي بمعنى أن التصرف في المعاني العقلية يكون على خلاف ما في الواقع . فالتصرف الواقع بالنسبة لمن نطق بتلك الاستعارة إنما هو تصرف في أمر عقلي ، والأمر العقلي المتصرف فيه هو المعاني العقلية « والتصرف فيها هو جعل بعضها نفس الآخر ولو لم يكن كذلك في نفس الأمر ، وإدخال بعضها تحت جنس غيرها على وجه التقدير والاعتقاد وحسَّ وجود المشابهة في نفس الأمر لا في أمر لغوي وهو اللفظ بمعنى أن المتكلم لم ينقل اللفظ إلى غير معناه ، وإنما استعمله في معناه بعد أن تصرف في تلك المعاني وصيّر بعضها نفس غيرها»^(١).

وعلى هذا فالتصرف في الاستعارة إنما يكون تصرفا في المعاني والمدلولات وتحويلها من حقيقة إلى حقيقة أخرى ، وهذا أمر قائم على خطوات عقلية ، فحين ننقل اسم « الأسد » في مثل قولك : رأيت أسداً يرمي - للرجل الشجاع لا ننقله مجردا عن معناه ، بل ننقله وننقل معناه معه إلى المشبه . وذلك بجعل الرجل الشجاع واحداً من أفراد الأسود بواسطة الادعاء وإذا صاروا واحداً منهم كان إطلاق اسم « الأسد » عليه حقيقة ، فالتصرف إذاً إما يكون في تحويل الرجل من حقيقة الإنسانية إلى حقيقة الأسدية بواسطة أمور عقلية هي التشبيه وتناسيه وادعاء أن المشبه صار واحداً من أفراد الأسود وكلها تصرفات عقلية .

ولتقوية هذا الرأي لدى أصحابه أيدوا قولهم : بأن اللفظ في الاستعارة إنما ينقل بعد نقل معناه إلى المشبه بما يلي :

١ - إن نقل الاسم لا يصح أن يكون مجرداً من معناه وإلا لو نقل مجردا من

(١) ابن يعقوب المغربي ، ٥٨/٤ ، ٥٩ ، ضمن شروح التلخيص .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ﴾

معناه لكانت الأعلام المنقولة كيزيد وصخر ويشكر من قبيل الاستعارة لأنها نقلت من معانيها الأصلية ، وسمي بها أشخاص دون أن تنقل معها معانيها ، والكل متفق على أنها ليست استعارة .

٢- إن نقل الاسم في الاستعارة ليس مجردا عن معناه ؛ لأنه لو جرد من معناه لما أفاد المبالغة ولصارت الاستعارة مساوية للحقيقة في الدلالة على أصل المعنى دون مبالغة ؛ لأنه لا مبالغة في نقل اللفظ بدون معناه وخاليا من دعوى الاتحاد .

٣- لا يصح في الاستعارة نقل الاسم مجردا عن معناه ؛ لأنه لو كان مجردا عن معناه لجاز أن تقول لمن سميته صخرًا أنك جعلته صخرًا مع أنه لا يجوز ؛ لأن الجعل تحويل من جنس إلى جنس - ولا تحويل في التسمية - أما إذا استعرت له لفظ الصخر للدلالة على قسوته ، وشدته جاز أن تقول : جعلته صخرًا لأنك ادعيت أنه صار كذلك .

هذا ولأن إطلاق اسم المشبه به على المشبه إنما يكون بعد ادعاء دخوله في جنس المشبه به صح التعجب في قول ابن العميد :

قَامَتْ تُظَلِّلُنِي مِنَ الشَّمْسِ نَفْسٌ أَعَزُّ عَلَيَّ مِنْ نَفْسِي
قَامَتْ تُظَلِّلُنِي وَمِنْ عَجَب شَمْسٌ تُظَلِّلُنِي مِنَ الشَّمْسِ

« تظللني » أي توقع الظل عليّ وأراد بقوله « شمس » غلاما كالشمس في الحسن والبهاء ، فلولا أنه ادعى لذلك الغلام معنى الشمس الحقيقي وجعله شمسا على الحقيقة لما كان لهذا التعجب معنى ؛ إذ لا تعجب في أن يُظلل إنسان حسن الوجه إنسانا آخر .

ولهذا صح النهي عن التعجب في قول ابن طباطبا .

لَا تَعْجَبُوا مِنْ بَلَى غِلَآلَتِهِ قَدْ زُرَّ أَرْزَارُهُ عَلَى الْقَمَرِ

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَةٌ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ❁

الْغِلَالَةُ : هي شعار يلبس تحت الثوب ، وتحت الدرع أيضاً تقول : زَرَرْتُ الْقَمِيصَ عَلَيْهِ أَزْرُهُ إِذَا شَدَّدْتَ أَزْرَارَهُ عَلَيْهِ ، فَلَوْلَا أَنَّهُ جَعَلَهُ قَمَرًا حَقِيقًا لَمَا كَانَ لِلنَّهْيِ عَنِ التَّعَجُّبِ مَعْنَى ؛ لِأَنَّ الْكَتَانَ إِنَّمَا يَسْرِعُ إِلَيْهِ الْبَلَى بِسَبَبِ مَلَابِسَةِ الْقَمَرِ الْحَقِيقِيِّ لَا بِمَلَابِسَةِ إِنْسَانٍ كَالْقَمَرِ فِي الْحَسَنِ .

لَا يُقَالُ : الْقَمَرُ فِي الْبَيْتِ لَيْسَ بِاسْتِعَارَةٍ ؛ لِأَنَّ الْمَشْبَهَ مَذْكُورٌ وَهُوَ الضَّمِيرُ فِي « غِلَالَتِهِ » وَ« أَزْرَاهُ » لِأَنَّا نَقُولُ لَا نَسْلَمُ أَنَّ الذَّكَرَ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ يَنَافِي الِاسْتِعَارَةَ كَمَا فِي قَوْلِنَا : « سَيْفٌ زَيْدٌ فِي يَدِ أَسَدٍ » فَإِنْ تَعْرِيفُ الِاسْتِعَارَةِ صَادِقٌ عَلَى ذَلِكَ ، وَفِي ذَلِكَ الْمَذْكُورِ شُبُّهُ زَيْدٌ بِالْأَسَدِ ، وَأَدْعَى أَنَّهُ فَرْدٌ مِنْ أَفْرَادِهِ ، وَاسْتَعِيرَ اسْمَ الْمَشْبَهِ بِهِ لِلْمَشْبَهِ عَلَى طَرِيقِ الِاسْتِعَارَةِ التَّصْرِيحِيَّةِ .

الرَّدُ عَلَى أَدْلَةِ الْمُخَالِفِينَ لِلْجُمْهُورِ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ الِاسْتِعَارَةَ مُجَازٌ عَقْلِيٌّ :
وَقَدْ رَدَّ الْجُمْهُورُ عَلَى أَدْلَةِ الْمُخَالِفِينَ لَهُمْ بِأَنْ نَقُلَ مَعْنَى الْمَشْبَهِ بِهِ لِلْمَشْبَهِ بَادِعَاءَ دَخُولِهِ فِي جَنْسِهِ ، وَصِيرُورَتِهِ وَاحِدًا مِنْ أَفْرَادِهِ هُوَ أَمْرٌ فَرْضِي يَقْصِدُ بِهِ الْمُبَالَغَةُ ، وَلَيْسَ تَحْوِيلًا لِلْمَشْبَهِ إِلَى حَقِيقَةِ الْمَشْبَهِ بِهِ فِي الْوَاقِعِ وَذَلِكَ لَا يُخْرِجُ الْفَلْظَ الْمُسْتَعَارَ عَنْ كَوْنِهِ مُسْتَعْمَلًا فِي غَيْرِ مَا وَضَعَ لَهُ ؛ لِأَنَّ اللَّغَةَ بَيَّنَّتْ وَحَدَّدَتْ مَعْنَى لَفْظِ الْأَسَدِ بِالْحَيَوَانِ الْمَخْصُوصِ ، فَإِذَا اسْتَعْمَلَ فِي الرَّجُلِ الشَّجَاعَ مَهْمَا كَانَتْ دَرَجَةُ الْإِدْعَاءِ يَكُونُ مُسْتَعْمَلًا فِي غَيْرِ مَا وَضَعَ لَهُ « فَالْأَسَدُ » فِي قَوْلِنَا : رَأَيْتُ أَسَدًا يَرْمِي - مُسْتَعْمَلًا فِي الرَّجُلِ وَالْمَوْضُوعُ لَهُ هُوَ « السَّبْعُ » الْحَيَوَانُ أَنَّهُ جَعَلَ أَفْرَادَ الْأَسَدِ بِطَرِيقِ التَّأْوِيلِ قَسَمِينَ : أَحَدُهُمَا : الْمُتَعَارَفُ وَالَّذِي لَهُ غَايَةُ الْجَرَاءَةِ ، وَنَهَايَةُ الْقُوَّةِ . وَالثَّانِي : غَيْرُ الْمُتَعَارَفِ وَهُوَ الَّذِي لَهُ تِلْكَ الْجَرَاءَةُ لَكِنْ لَا فِي هَذَا الْجَسَدِ الْمَخْصُوصِ وَلَفْظِ « الْأَسَدِ » إِنَّمَا هُوَ مَوْضُوعٌ لِلْمُتَعَارَفِ فَاسْتَعْمَالُهُ فِي غَيْرِ الْمُتَعَارَفِ اسْتِعْمَالٌ فِي غَيْرِ مَا وَضَعَ لَهُ .

وَأَمَّا صَحَّةُ التَّعَجُّبِ وَالنَّهْيِ عَنْهُ فَلَا يَقْضِيَانِ أَنَّكَ جَعَلْتَ الْمَشْبَهَ هُوَ نَفْسَ الْمَشْبَهِ بِهِ عَلَى الْحَقِيقَةِ ، وَإِنَّمَا جَعَلْتَهُ دَاخِلًا فِي جَنْسِ الْمَشْبَهِ بِهِ عَلَى طَرِيقِ

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

الادعاء لتحقيق المبالغة والفرق واضح بين جعل الشيء داخلا في أفراد جنس آخر على سبيل التخيل والادعاء . وبين جعله إياه على الحقيقة ، ومن هنا ندرك أن التعجب والنهي عنه كما في البيتين المذكورين ، فللبناء على تناسي التشبيه قضاء لحق المبالغة ، ودلالة على أن المشبه بحيث لا يتميز عن المشبه به أصلا حتى إن كل ما يترتب على المشبه به من التعجب والنهي عن التعجب يترتب أيضاً على المشبه ^(١).

هل نصب القرينة المانعة من إرادة المعنى الأصلي ينافي الادعاء ؟

ربما أشكل على بعض الناس أن ادعاء دخول المشبه في جنس المشبه به ، وجعله واحداً من أفراد ينافي نصب القرينة المانعة من إرادة المعنى الأصلي في الاستعارة ؛ لأن ادعاء دخول المشبه في جنس المشبه به يقتضي وحدتيهما ، وتعيين إرادة المشبه يقتضي تباينهما والواقع أنه لا إشكال ؛ لأن الادعاء ليس معناه على حد ما ذكرنا من قبل جَعَلَ حقيقة المشبه هي حقيقة المشبه به في الواقع . وإنما معناه أنه بادعاء جعل المشبه فرداً من أفراد المشبه به تصبح أفراد المشبه به على نوعين : نوع يمثل الحقيقة الأصلية للمشبه ، ونوع يمثل الحقيقة الادعائية ، فإذا استعرت - مثلاً - البدر - للمرأة الجميلة الحسنة وادعيت أنها فرد من أفرادها ، فقد جعلت بهذا الادعاء أفراد البدر على نوعين : نوع حقيقي وهو الكوكب المعروف بنوره ، وجرمه ، وضيائه . ونوع ادعائي وهو البدر في صورة الحسنة والقرينة في الاستعارة تمنع من إرادة البدر الأصلي ، وتُعيّن البدر المدعى ممثلاً في المرأة الجميلة الحسنة . على أن تنوع أفراد الجنس الواحد جرى به الاستعمال في لسان العرب وفي تصوراتهم وتخيلات عقولهم ، فهم يقولون إذا رأوا رجلاً تجاوز الحد في الجرأة والشجاعة ، إنه ليس بإنسان وإنما هو أسد فيجعلون أفراد الأسد نوعين : نوع في جسم الحيوان وهيكله ،

(١) انظر مختصر العلا سعد الدين التفتازاني على تلخيص المفتاح ، ٦٧-٥٦/٤ ، ضمن شروح التلخيص .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِعِ الْبَيَانِ ————— ❁

ونوع في صورة إنسان مقدم شجاع على نحو ما ارتكب المتنبي . هذا الادعاء في عد نفسه وجماعته من جنس الجنِّ وعدَّ جماله من جنس الطير في قوله :
نحن قوم ملجن في زي ناس فوق طير لها شُخُوص الجمال
فقد جعل الجن نوعين : نوع هو الأجسام النارية الخفيفة ، ونوع في لباس الجن وجعل الطير نوعين : نوع هو الطير ذو الجناح ، ونوع هو الجمال وفي هذا البيت استعار الطير للجمال بتشبيه الجمال بالطير بجامع الخفة والسرعة في كل ، وادعى أن المشبه فرد من أفراد المشبه به وداخل في جنسه واستعار المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية .

ومما جاء من أقوال العرب على حد هذا التنويع قولهم : تحية بينهم ضرب وجيع في قول عمر بن معد يكرب :

وخيل قد دلفت لها بخيل تحية بينهم ضرب وجيع
والمراد بالخيال أصحابها وقوله : دلفت بمعنى نهضت فقد جعل الشاعر التحية نوعين نوع بالسلام ، ونوع بالضرب . وفي قوله هذا استعارة تهكمية نُزِلَ فيها مواجهة الأعداء بالأذى منزلة ملاقاتهم بالتحية تهكُّماً وسخرية فشبه المواجهة بالأذى بالمواجهة بالتحية بجامع الإحسان في كل واستعار اسم التحية للملافة بالأذى ولا يصح أن يكون هذا من باب التشبيه المقلوب على معنى أن ضربهم الوجيع كتحية لهم ؛ لأن الشاعر يريد أن يجعل الضرب الوجيع مكان التحية فيكون من باب التنويع وهو ادعاء مُسمَّى اللفظ نوعان : متعارف ، وغير متعارف على طريق التخيُّل بأن يُنزلَ ما يقع في موقع شيء بدلا عنه منزلة فالمقصود نفي ما صدر به يعني لا تحية بينهم أو التشبيه لا يفيد هذا المعنى ، بل يعكسه ويفسده ^(١).

(١) انظر بغية الإيضاح ، ٣/ ١١٤-١١٨ .

الفرق بين الاستعارة والكذب .

تفارق الاستعارة الكذب من جهتين :

الأولى : أن الاستعارة مبنية على التأويل بادعاء دخول المشبه في جنس المشبه به بأن يجعل أفراد المشبه قسمين متعارفًا ، وغير متعارف على نحو ما مر سابقًا أما الكذب فلا تأويل فيه ولا ادعاء .

الثانية : أن الاستعارة لا بد فيها من نصب قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقي والكاذب لا يقيم قرينة على إرادة غير ما يدل عليه كلامه ، بل إن الكاذب ليبدل كل ما يستطيع من جهد لترويح ظاهر كلامه ، وإظهار صحة الباطل الذي يتكلم به .

الاستعارة لا تصح في علم الشخص .

والأصل أن الاستعارة لا تقع في علم الشخص مثل محمد وبكر ، وخالد ، وعمر ذلك أن معناه جزئي لتشخصه ، وتعيينه خارجًا ، فلفظ « محمد » لا يصح جعله استعارة لشخص آخر بينه وبين محمد مشابهة في شيء إذ إن الاستعارة تقتضي ادعاء دخول المشبه في جنس المشبه به باعتباره أحد أفراده - على نحو ما سبق - وهذا يقتضي عموم المشبه به و« محمد » المذكور لا عموم فيه ؛ إذ لا يشمل غير مسماه الذي وضع له .

هل يجوز العدول عن هذا الأصل ؟

نعم يعدل عن هذا الأصل لسبب طارئ وعارض يجعل الأعلام الشخصية شبيهة بأسماء الأجناس التي تصدق على كثيرين وذلك إنما يتحقق حين يشتهر صاحب العلم بصفة جهيرة ، وذائعة : تجعل اسمه إذا أطلق تبادر إلى الذهن معنى الصفة قبل تبادر معنى الذات ... وبذلك يشبه اسم الجنس النكرة في جواز إطلاقه على كثيرين واسم الجنس تدخله الاستعارة لوجود أفراد له يمكن إدخال المشبه تحتها . فإذا قلت عند رؤيتك رجلاً جواداً كريماً مثلاً قلت

الصورة البيانية ————— دراستي مسائل علي البيان ————— ❁

- رأيت اليوم حاتما - فحاتم موضوع لصاحبه ليعين ذاته ويشخصها ، فلما اشتهر بالجود والكرم وشاعت شهرته وذاعت في ذلك حتى إن اسمه بسبب ذلك جعل دليلا على الجود والكرم الواسع أصبح هذا الاسم كأنه عام يدخل تحته كل جواد وكريم ؛ ولذا صح أن تدخله الاستعارة فيشبه الجواد الكريم بحاتم . ويدعي أنه فرد من أفراد ، ويستعار اسم حاتم له ^(١) .

التشبيه البليغ هل يدخل في مسمى الاستعارة ؟

التشبيه البليغ هو التشبيه الذي حذفت منه الأداة ، ووجه الشبه وهو التشبيه المؤكد المجمل ، فالتأكيد مستفاد من حذف أداة التشبيه والإجمال مستفاد من حذف وجه الشبه ؛ ولأن الوجه غير مقيد المساحة ففية إطلاقا لحرية التخيل والتصور لدى المتلقي ؛ ولذا شاع في عرف البلاغيين تسميته بالتشبيه البليغ ؛ لأنه أعلى أنواع التشبيه في القيمة لاشتماله دعوى الاتحاد بين الطرفين ، وعلى دعوى عموم الاشتراك بينهما مما أوجد شبهة عدم الفرق بينه وبين الاستعارة . ومصدر الشبهة أن التشبيه البليغ يفيد المبالغة بدخول المشبه في جنس المشبه به كما تفيد الاستعارة وإذا تساويا في الإفادة تساويا في الاسم ونظرا للمبالغة التي يحققها التشبيه البليغ اختلفت وجهات النظر بين النقاد والبلاغيين حوله اختلافا بعيدا ، فمن قائل إنه ضرب من التشبيه ، ومن قائل إنه استعارة ، ومن البلاغيين من أبقى اسم التشبيه على نوع من التشبيه البليغ وبين أنه تشبيه لا غير على أنه جواز إطلاق اسم الاستعارة على نوع منه مع القلة مع جواز إطلاق اسم التشبيه عليه من باب أولى فهو إلى التشبيه أقرب ومنه نوع يترجح تسميته استعارة ، فهو أقرب إليها ومن نوع لا يعد من التشبيه ولا من الاستعارة وصاحب هذا الرأي هو الإمام عبد القاهر الجرجاني الذي بين من خلال هذا الذي سبق أن التشبيه المحذوف الأداة لا ينبغي أن يدخل كله في باب الاستعارة وسنعرض لرأيه بالتفصيل في مكان آخر .

(١) انظر شرح السعد ، ٧٠/٤ ، ٧١ .

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

ولعل القاضي علي بن العزيز الجرجاني هو أول من لفت الأذهان ، ووضع نواة الخلاف في مثل قولهم : زيد الأسد بعد نقده لنماذج من الاستعارات السيئة لأبي تمام والذي أمر بصدّ المسامع عنها ، وعدم الإصغاء إليها وبعد ذلك قال « وربما جاء من هذا الباب ما يظنه الناس استعارة وهو تشبيه أو مثل فقد رأيت بعض أهل الأدب ذكر أنواعا من الاستعارة عدّ فيها قول أبي نواس :

والحبّ ظهر أنت راكبه فإذا صرفت عنانه انصرفا

ولست أرى هذا وما أشبهه استعارة وإنما معنى البيت أن الحب مثل ظهر ، أو الحب كظهر تديره كيف شئت إذا ملكت عنانه ؛ فهو إما ضرب مثل ، أو تشبيه شيء بشيء وإنما الاستعارة ما اكتفى فيها بالاسم المستعار عن الأصل ونقلت العبارة فجعلت في مكان غيرها . وملاكها تقريب الشبه ، ومناسبة المستعار له للمستعار منه وامتزاج اللفظ بالمعنى ؛ حتى لا يوجد بينهما منافرة ، ولا يتبين في أحدهما إعراض عن الآخر»^(١).

ولعل القاضي الجرجاني يشير فيمن يشير حين يقول : « وربما جاء ما يظنه الناس استعارة : إلى الإمام المعتزلي أبي الحسن الرماني الذي عرض للفرق بين الاستعارة وبين التشبيه فقال : « والفرق بين الاستعارة والتشبيه أن ما كان من التشبيه بأداة التشبيه في الكلام فهو على أصله لم يغير عنه في الاستعمال ، وليس كذلك الاستعارة ؛ لأن مخرج الاستعارة مخرج ما العبارة ليست له في أصل اللغة»^(٢).

وحين نردّد النظر في كلام القاضي الجرجاني السابق نجده يقرر فيه خطأ من زعم أن قول أبي نواس السابق استعارة ، وأنه فرق بين التشبيه وهو حقيقة

(١) الوساطة ص ٤١ ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ومحمد علي البجاوي .

(٢) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الكريم ، تحقيق الدكتور محمد خلف الله والدكتور

محمد زغلول سلام ، ص ٨٥ ، ٨٦ .



الصورة البيانية ————— دراستي مسائل على البيان ————— ❁

لغوية وبين الاستعارة وهي مجاز لغوي كما أنه أشار إلى أن الاستعارة لا يجمع فيها بين طرفي التشبيه وإنما يحل المشبه به محل المشبه بعد حذفه والاستغناء بالمشبه به المستعار له ، وأن نقل العبارة شرط في كل استعارة من هذا النوع وهي ما أطلق عليها فيما بعد الاستعارة التصريحية ، وأنه لا بد من مناسبة تجمع بين المستعار له والمستعار منه حتى لا تبدو بين اللفظ بعد نقله والمعنى المجازي الذي أريد منه منافرة ، وإعراض أحدهما عن الآخر .

وإذا كان الرأي قد اختلف في مثل قولهم : « خالداً أسداً » و « كر خالداً أسداً » و « أعجبت برجل أسداً » من كل لفظ استعمل في معناه الموضوع له فإننا نعرض رأي القائلين بأنه تشبيه وعلى رأسهم الخطيب الذي يرى أن هذه الشواهد وأمثالها تعد من التشبيه البليغ وليست من الاستعارة ؛ لأن الاستعارة عنده : لفظ يضمن تشبيه معناه بما وضع له كما في قولك : رأيت أسداً يحمل مدفعا ، فإن لفظ « أسداً » أفاد تشبيه معناه المراد منه وهو الرجل الشجاع المقدم بالمعنى الموضوع له اللفظ وهو « الحيوان المفترس » فلو أن لفظ « أسداً » من نحو قولهم : « خالداً أسداً » استعارة لتضمن تشبيه الشيء بنفسه ؛ لأن المعنى المستعمل فيه اللفظ عين المعنى الموضوع له وتشبيه الشيء بنفسه محال ومما يدل على أنه تشبيه لا استعارة إيقاع لفظ « أسداً » على خالداً أي حملة عليه كما في المثال الأول ، أو وصفه به كما في المثالين الآخرين . وهما « كر خالداً أسداً » و « أعجبت برجل أسداً » لأن هذا يقتضي اتحاد المحمول والمحمول عليه ، أو اتحاد الصفة والموصوف في المعنى واتحادهما باطل ، فلا يمكن أن تنقلب حقيقة الإنسان إلى حيوان مفترس ، أو العكس ؛ لذا وجب المصير إلى التشبيه ، ومما يوثق هذا أيضاً أن الكلام المركب من مبتدأ وخبر - أو ما هو في حكم الخبر - يفيد في اللغة إثبات معنى الخبر للمبتدأ فقولك : « محمد قائم » دلالة اللغوية إثبات القيام لمحمد ، فإذا استحال هذا الإثبات

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

كما في قولك السابق « خالداً أسد » لمخالفته الواقع ؛ لأن « خالداً » ليس أسداً على الحقيقة . كانت هذه الاستحالة قرينة على أن المقصود للمتكلم ليس إثبات حقيقة « أسد لخالداً » بل إثبات مشابهة « خالداً » لهذه الحقيقة فيكون التشبيه حينئذ غرضاً مقصوداً بالذات يراد بالكلام إثباته ، وإفادته . وليس وسيلة إلى غيره ، ومن هنا يستحق اسم التشبيه إما في الاستعارة كقولك : « غنّت لنا ظبية » فإن الأمر هنا مختلف عن الذي سبق ؛ لأن المشبه به وهو « الظبية » لم يخبر به عن شيء ، وإنما أخبر عنه بوقوع الغناء منه ، وسبق الكلام لإثبات الغناء لا لإثبات التشبيه على نحو ما رأينا فيما سبق في « خالداً أسد » فالتشبيه هنا ليس مقصوداً لذاته ؛ لأن الكلام لم يأت لإثباته ، بل لإثبات الغناء وإنما هو مقصود تبعاً للتوصل به إلى جعل المشبه واحداً من أفراد المشبه به وداخلاً في جنسه ، ولذا نتناساه ونتجاهله ، وندل على تجاهله بحذف المشبه ، فقد شبهت الفتاة المغنية بالظبية في الرشاقة ، وسعة العينين ولم يذكر لفظ المشبه وهو الفتاة المغنية في الكلام لا لفظاً ولا تقديرًا ، فكان لفظ ظبية مستعار لها .

هذا وقد ذكر الإمام يحيى بن حمزة العلوي المتوفى سنة ٧٤٩هـ هذا الرأي حين قال : « وإنما يقع النظر والتردد في التشبيه المضمّر الأداة كقولك: زيد الأسد شجاعة ، وعمره البحر في الجود والكرم وكقول أبي الطيب المتنبي :
بدت قمراً ، ومالت خوط بان وفاحت عنبراً ورنّت غزالا

وتساءل فقال : فهل يعد مثل هذا من باب التشبيه أو من باب الاستعارة ؟
ثم ذكر أنه ليس من باب الاستعارة ، وهذا هو الذي مال إليه ابن الخطيب الرازي وأبو المكارم صاحب التبيان ، وهو رأي أكثر علماء البيان وأنه من باب التشبيه المضمّر الأداة»^(١).

(١) الطراز ، ٢٠٤/١ ، ٢٠٥ .

الصورة البيانية ————— دراستي مسأله البيان ————— ❁

رأي من قال إن التشبيه المضمّر الأداة استعارة .

ذكر العلوي : « أنه بحقيقة الاستعارة أشبه ، وقد قال به أبو هلال العسكري والغانمي ، وأبو الحسن الأمدي ، وأبو محمد الخفاجي وغيرهم من علماء البيان وحجتهم في هذا قولهم إن الاستعارة ليس لها آلة والتشبيه له الآلة فما كانت فيه آلة التشبيه ظاهرة فهو تشبيه وما لم تكن فيه ظاهرة فهو استعارة ، فقوله : زيد الأسد لا آلة فيه ، فوجب كونه استعارة »^(١).

ويلاحظ أنه ذكر أن أبا محمد بن عبد الله بن سنان الخفاجي في الفريق الذي يعد التشبيه المحذوف الأداة استعارة ، والأمر على خلاف ذلك .

يقول ابن سنان في الفرق بين التشبيه والاستعارة « فإن قال قائل : فما الفرق بين التشبيه والاستعارة إذا كان الأمر على ما ذكرتم ؟^(٢) قيل الفرق بينهما ما ذكره أبو الحسن يقصد الأمدي - وهو أن التشبيه على أصله لم يغير عنه في الاستعمال ، وليس كذلك الاستعارة ؛ لأن مخرج الاستعارة مخرج ما ليست العبارة له في أصل اللغة على أن الرماني قال في كلامه : إن التشبيه في الكلام بأداة التشبيه - وهو يعني - كأن والكاف وما جرى مجراهما - وليس يقع الفرق عندي بين التشبيه والاستعارة بأداة التشبيه فقط ؛ لأن التشبيه قد يرد بغير الألفاظ الموضوع له ويكون حسناً مختاراً ، ولا يعده أحد في جملة الاستعارة لخلوه من آلة التشبيه ، ومن هذا قول الشاعر - أبي القاسم الزاهي :

سفرن بدورا ، وانتقن أهلة ومسن غصونا ، والتفتن جاذرا
وقول الآخر - الوأواء الدمشقي :

وأسبلت لؤلؤا من نرجس فسقت وردا وعصت على العناب بالبرد

(١) الطراز ، ، ٢٠٦/١ .

(٢) يقصد تعريف الرماني للاستعارة وتعريفها عنده أن الاستعارة تعليق العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة على جهة النقل للإبانة .

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسْتُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

وكلاهما تشبيه محض ، وليس باستعارة ، وإن لم يكن فيهما لفظ من ألفاظ التشبيه ^(١).

هذا وأبو القاسم الزاهي إنما شبههن بالأهلة عند ارتداء النقاب لظهور حواجبهن مقوسات فوقه . والجآذر أولاد البقر الوحشي .

وفي بيت الوأواء الدمشقي شبه الدمع باللؤلؤ ، والعين بالنرجس ، والخد بالورد والأنامل بالعناب ، والسن بالبرد وكل هذا من باب الاستعارة التصريحية الأصلية ، هذا ويلاحظ في النص الذي ذكرناه لابن سنان أنه أقر الرمانى على أن الاستعارة قد خرج فيها اللفظ على أصل وضعه بخلاف التشبيه ولم يقره على أن التشبيه مختص بما ذكرت فيه الأداة ومن هنا تظهر عدم دقة العلوي في عدّه ابن سنان مع من يقول إن التشبيه البليغ من الاستعارة كما تظهر غفلة ابن سنان في عده بيت الوأواء : فأسبلت لؤلؤا من نرجس من التشبيه وجعله مثل بيت الزاهي : سفرن بدورا وانتقبن أهلة منه هذا والحق أن الوأواء قد استعار اللؤلؤ للدمع ، والنرجس للعين والورد للخد ، والبرد للسن فهو استعارة ؛ لأن مخرج اللفظ مخرج ما ليست العبارة له بعد أن حذف المشبه وطوى ذكره في كل استعارة من الاستعارات التي بنى بيته عليها .

هذا ويعد الشريف الرضي : وهو أبو الحسن محمد بن الحسين بن موسى الموسوي العلوي التشبيه المحذوف الأداة من الاستعارة ؛ لأن التشبيه عنده خاص بما فيه الأداة ، فالتشبيه الخالي من الأداة والوجه وذكر فيه الطرفان يعد من قبيل الاستعارة على حدّ ما ذهب إليه أبو الحسن الرمانى عند الحديث الشريف الموجه للأنصار : « أنتم الشعار ، والناس الدثار » إذ قال : « وهذا مجاز لأنه عليه الصلاة والسلام أراد أنكم أقرب الناس مني ، وأشدّهم اشتمالاً عليّ ، فأنتم لي كالشعار وهو الثوب الذي يلي بدن الإنسان ، والناس الدثار ؛ لأنهم أبعد مني وأنتم بينهم وبينى » ^(٢).

(١) سر الفصاحة ، ص ١١٩ ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية - بيروت .

(٢) المجازات النبوية ، بتحقيق محمود مصطفى ، ص ٤١ ، ٤٢ .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دُرِّسَتْ فِي مَسَائِدِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي تَالِبٍ

ومما جاء على هذا النحو وعدٌّ من الاستعارة قوله ﷺ : «المؤمن مرآة أخيه» إذ علق عليه الشريف بقوله : «وهذا القول مجاز واستعارة والمراد أن المؤمن الناصح لأخيه المؤمن يبصّره مواقع رشدّه ، ويطلعه على خفايا عيبه فيكون كالمرآة له ينظر فيها محاسنه فيستحسنها ويزداد منها ، ويرى مساويه فيستقبحها وينصرف عنها»^(١).

فالشريف الرضي يرى أن التشبيه المحذوف الأداة والوجه استعار لا تشبيه ، ومن ذلك قوله ﷺ : «أنا النذير والموت المغير» وهذه من الاستعارات الناصعة ، والمجازات الواضحة ؛ لأن الاستعارة على ضربين : ظاهرة تعرف بحليتها ، وغامضة يضطر إلى استنباط خبيّتها ، فكأنه عليه الصلاة والسلام شبه الموت الذي يطلع الثنايا ، ويطلب البرايا بالجيش المغير الذي يهجم هجوم السيل ، ويترك طروق الليل ، وشبه نفسه عليه الصلاة والسلام بالنذير المتقدم أمامه بحذر الناس من فجئته^(٢) ليعدّوا العتاد ويتزودوا الأزواد»^(٣).

ومما جاء على هذا قوله عليه الصلاة والسلام في خطبة طويلة : «والنساء حبايل الشيطان» وعلق الشريف الرضي على ذلك بقوله : «وهذه من أحسن الاستعارات وذلك أنه عليه الصلاة والسلام جعل النساء من أقوى ما يصيد به الشيطان الرجال فهن كالحبايل المبتوثة ، والأشراك المنصوبة لأنهن مظان الشهوات ، ومقاود الخطيات ، وبهن يستخف الركين»^(٤) ، ويستخون الأمين»^(٥).

رأى الإمام عبد القاهر في التشبيه البليغ .

(١) المجازات النبوية ، بتحقيق محمود مصطفى ص ٦٨ ، ٦٩ .

(٢) فجئته : الفجأة ما يأخذ الإنسان بغتة .

(٣) المجازات النبوية، ص ١٤١ .

(٤) الركين : الرزين والوقور .

(٥) المجازات النبوية ، ص ١٧٤ .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ —————﴾ دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

الإمام عبد القاهر يرى أن التشبيه المحذوف الأداة لا ينبغي أن يدخل كله في باب الاستعارة وقد سبق أن القاضي الجرجاني في وساطته قد عدّ في مثل قولهم : زيد أسد من التشبيه ونبه على خطأ من زعم أن التشبيه البليغ استعارة وذلك عندما عرض لبيت أبي نواس السابق :

والحب ظهر أنت راكبه فإذا صرفت عنانه انصرفا

ولقد عمق الإمام عبد القاهر البحث في هذه المسألة وكان حديثه فيها مادة خصبة لمن جاء بعده مؤيداً أو معارضاً ؛ لذا فإننا نستعرض جهوده في هذا المجال من خلال محاولتنا لفهم نصوصه التي أوردها في هذا الشأن وتتابعه فيها لنقف على حقيقة رأيه إذ نراه يفرق بين حالتين للاسم إذا قصد إجراؤه على غير ما هو له لمشابهة بينهما :

الحالة الأولى : أن تسقط ذكر المشبه من الكلام وتتناساه وتتجاهله بحيث لا يعلم من ظاهر الحال أنك أردته كما في قولك : غنّت لنا ظبية والمراد امرأة شبيهة بالظبية ، ووردنا بحرّاً . وأنت تريد الممدوح الموصوف بالكرم ، ومن هذا النحو ما تراه في قول البحتري :

ترّجّ الشّرب واغتالت حلومهم شمس ترجّل فيهم ثم ترّجّل

فذكر « الشّرب » شاربوا الخمر « واغتال الحلوم » العقول والارتحال يوضح أن المراد « بشمس » امرأة قينة .

الحالة الثانية « أن تذكر كل واحد من المشبه والمشبه به فتقول : زيد أسد ، وهند بدر ، وهذا الرجل الذي تراه سيف صارم على أعدائك .

ويبين الإمام عبد القاهر حكم هذه الحالة الثانية بأن لا تطلق على الأمثلة السابقة استعارة كما يدل على ذلك كلام القاضي الجرجاني في الوساطة ، ولكن تقول هو تشبيه وإذا قال : (قائل) هو أسد لم تقل استعار له اسم الأسد ، ولكن تقول شبهه بالأسد»^(١).

(١) أسرار البلاغة ، ص ٣٢١ ، ٣٢٢ .

الصورة البيانية ————— دراسته في مسأله البيان ————— ❁

ويمضي الإمام في توضيح الحالة الأولى وهي التي أسقط فيها ذكر المشبه كما في قولك غنت لنا ظبية - تريد امرأة يبين أنها استعارة لا تتوقف ولا تتحاشى البتة .

ويمضي الإمام ليؤكد على الفرق بين الحالتين ، الحالة الأولى كما في غنت لنا ظبية ، والحالة الثانية . كما في زيد أسد ، فبين أنك في الحالة الأولى « غنت لنا ظبية قد » عزلت الاسم الأصلي - (المرأة) عنه وأطرحته وجعلته كأن ليس باسم له ، وجعلت الثاني « ظبية » هو الواقع عليه والمتناول له فصار قصدك التشبيه أمراً مطوياً في نفسك ، مكنونا في ضميرك ، وصار في ظاهر الحال وصورة الكلام ونصبه كأنه الشيء الذي وضع له الاسم في اللغة .

أما الحالة الثانية فليست كذلك وبيّن لماذا ليست كذلك ؟ « لأنك قد صرحت فيها بذكر المشبه وذكرك له صريحاً يأبى أن تتوهم كونه من جنس المشبه به وإذا سمع السامع قولك : زيد أسد وهذا الرجل سيف صارم على الأعداء استحال أن يظن وقد صرحت له بذكر زيد أنك قصدت أسداً وسيفاً وأكثر ما يمكن أن يدعى تخيُّله في هذا أن يقع في نفسه من قولك : زيد أسد حال الأسد في جرائته وإقدامه وبطشه فأما أن يقع في وهمه أنه رجل وأسد معاً بالصورة والشخص فمحال »^(١).

وننتهي إلى أن التشبيه في نحو : - زيد أسد - بين وظاهر يقتضيه الكلام ، ويجب من حيث موضوعه حتى إن لم يحل مثله على التشبيه كان محالاً لأن الرجل لا يكون رجلاً وأسداً ، أو رجلاً وسيفاً في آن واحد ، أما في نحو غنت لنا ظبية فلا يمنع الحمل على الظاهر على الصحة ، فليس بممنوع أن يقال : غنت لنا ظبية ويكون المراد من هذا القول الحيوان المعروف ، وطلعت شمس وأنت تريد الشمس ، كقولك : طلعت اليوم شمس حارة ، وكذلك تقول : هزرت

(١) أسرار البلاغة ص ٣٢٢ .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ —————﴾

على الأعداء سيفاً وأنت تريد السيف ؛ لذا وجب أن يفصل بين الحالتين فتسمى الحالة الأولى : - غنت لنا ظبية - استعارة على الإطلاق ، ويقال في الحالة الثانية : زيد أسد أنه تشبيه^(١) فالإمام عبد القاهر في التشبيه البليغ يبدو مؤيداً للقاضي الجرجاني فيما أبدى من رأيٍ للتشبيه في بيت أبي نواس :

والحب ظهر أنت راكبه فإذا صرفت عنانه انصرفا

وفرق بذلك بين ما هو تشبيه في نحو : زيد أسد ، وما هو استعارة في مثل : غنت لنا ظبية حتى رأينا السعد التفتازاني يبنى رأيه في التشبيه البليغ على بعض ما ذهب إليه الإمام عبد القاهر كما سنرى حين نعرض لرأي السعد في هذه المسألة .

هذا والإمام عبد القاهر الذي فرق بين الاستعارة والتشبيه البليغ على نحو ما سبق نراه يتراجع فيبين أن التشبيه البليغ وهو التشبيه المحذوف الأداة ليس كله شيئاً واحداً ؛ لذا فصل القول في صوره ، وشعب الرأي فيها فيبين أن بعض أنواع التشبيه البليغ لا يجوز تسميته استعارة ، وبعضها يجوز تسميته بها ولكن تسميته تشبيهاً أقرب ، وبعضها يترجح تسميته استعارة ، وبعضها لا يعدل من التشبيه ولا من الاستعارة وسوف نفصل القول في ذلك على نحو ما سيأتي :

النوع الأول : وهو ما لا يجوز تسميته استعارة هو ما أمكن دخول جميع أدوات التشبيه عليه ، وكان دخولها عليه مستساغاً وذلك إنما يتحقق عندما يكون المشبه به معرفة كما في قولك : هو الأسد ، وهو شمس النهار ، وهو البدر حسناً وبهجة . وهكذا كل موضع ذكر المشبه به بلفظ التعريف يقول الإمام عبد القاهر : « فإن أبيت إلا أن تطلق الاستعارة على هذا القسم الثاني - يعني نحو زيد أسد - وما شاكلة فينبغي أن تعلم أن إطلاقها - يقصد الاستعارة - لا يجوز في كل موضع يحسن دخول حرف التشبيه فيه بسهولة -

(١) انظر : أسرار البلاغة ، ص ٣٢٢ ، ٣٢٣ .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَةٌ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ❁

كما في الأمثلة السابقة وهكذا في كل موضع ذكر فيه المشبه به بلفظ التعريف»^(١).

النوع الثاني : ما يبعد عن التشبيه ويقرب من الاستعارة بمقدار هذا البعد وهو ما أمكن دخول بعض أدوات التشبيه عليه دون بعض - وحين تسميه استعارة تكون أعذر ويتحقق ذلك إذا كان المشبه به نكرة كقولك : زيد أسد فإنه يحسن دخول بعض الأدوات عليه ويكون دخولها مستساغاً ومقبولاً عند البلغاء فتقول : كأن زيداً أسد وخلته أسداً . ولا يحسن دخول الكاف عليه فلا تقول زيد كأسد ؛ لأنه لم يُسمع من العرب دخول كاف التشبيه على نكرة غير موصوفة ومن ثم أصبح له شبه ما بالاستعارة في عدم تقدير أداة التشبيه معها ، يقول الإمام عبد القاهر في ذلك : « فإن قلت هو بحر ، وهو ليث ، ووجدته بحراً . وأردت أن تقول إنه استعارة كنت أعذر »^(٢).

وأشبه بأن تكون على جانب من القياس ، ومتشبهاً بطرف من الصواب ؛ وذلك أن الاسم قد خرج بالتذكير عن أن يحسن إدخال حرف التشبيه عليه فلو قلت : هو كأسد وهو كبحر كان كلامك نازلاً غير مقبول ... إلا أنه وإن كان لا يحسن فيه « الكاف » فإنه يحسن فيه « كأنه » كقولك : كأنه أسد أو ما يجري مجرى كأنه في نحو تحسبه أسداً ، وتخاله سيفاً »^(٣).

النوع الثالث : وهو ما يترجح تسميته بالاستعارة ما لا يمكن تقدير شيء من أدوات التشبيه فيه إلا بتغيير في صورة الكلام لأن تقديرها بدون تغيير يؤدي إلى التشبيه بشيء مجهول لا حقيقة له في بعض الأحوال ، وإلى التناقض في أحوال أخرى كقولك : هي بدر يسكن الأرض ، وهي شمس لا تغيب وكقول الشاعر :

(١) أسرار البلاغة ، ص ٣٢٨ .

(٢) أي في عدم إطلاق التشبيه على مثل هذا وعده من الاستعارة .

(٣) أسرار البلاغة ص ٣٢٨ .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ —————﴾ دراسة في مسائل علم البيان

شمس تألق والفراق غروبها — عنا وبدر والصدود كسوفه

فإنه لا يحسن في هذه الأمثلة دخول الكاف أو غيرها إلا بتغيير في صورة الكلام كأن تقول : هي بدر إلا أنها تسكن الأرض ، وهي كالشمس المتألقة إلا أن الفراق غروبها ، وكالبدر إلا أن الصدود كسوفه فتحول النكرة إلى معرفة ليكون المشبه به جنس البدر المعروف وليس واحدا من أفراده وتجيء بالاستثناء لتصرف الوصف بسكنى الأرض عن البدر الحقيقي إلى البدر الادعائي وهي المرأة الجميلة المتألقة ، فالتشبيه إنما يكون بمشبهات بها منفردة لتؤدي المقصود منها .

يقول الإمام عبد القاهر : « فإن غمضَ مكان « الكاف وكأن » بأن يوصف الاسم الذي فيه التشبيه بصفة لا تكون في ذلك الجنس ، وأمر خاص غريب فليل هو بحر من البلاغة ، وهو بدر يسكن الأرض ، وهو شمس لا تغيب وكقول البحري .

شمس تألق والفراق غروبها — عنا وبدر والصدود كسوفه

فهو أقرب إلا أن نسميه استعارة ؛ لأنه قد غمض تقدير حرف التشبيه فيه إذ لا تصل إلى الكاف حتى تُبطل بنية الكلام ، وتبدل صورته فتقول : هو كالشمس المتألقة إلا أن فراقها هو الغروب ، وكالبدر إلا أن صدوده الكسوف»^(١).

هذا ومتى أخرج تقدير أداة التشبيه إلى هذا التغيير كأن تسمية الكلام استعارة أولى بأن تجعل البدر مستعارا للمرأة الجميلة وهو المشبه بعد إدخاله في جنس البدور ، ثم تخص المرأة الجميلة بصفة تميزها وهي سكنى الأرض .

النوع الرابع : ما يتعين حمله على الاستعارة وهو ما يستحيل فيه تقدير أداة التشبيه ؛ لأن تقديرها يؤدي إلى التناقض ، أو إلى إفساد غرض المتكلم ،

(١) أسرار البلاغة ، ص ٣٢٩ .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَةٌ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ❁

ويتحقق ذلك إذا كان المشبه به نكرة موصوفة بصفات لا توجد في المشبه ومراعاة التشبيه معها يفسد معنى الكلام ، أو يبطل الغرض منه . فالأول كقول المتنبي :

أَسَدٌ دَمُ الْأَسَدِ الْهَزْبَرِ خُضَابُهُ مَوْتٌ فَرِيصُ الْمَوْتِ مِنْهُ تُرْعَدُ

فإن تقدير الأداة هنا بأن تقول هو كأسد ، هو كموت فاسد من جهة المعنى فلا يصح أن تشبهه بالأسد ، ثم تدعي أن دم الأسد الهزبر الذي هو أقوى الجنس خضاب يده ؛ لأن هذا يقتضي أنه أقوى من الأسد فيتناقضا ولا يدفع هذا التناقض إلا بحمل الكلام على الاستعارة بجعل لفظ أسد مستعار للممدوح ، وتكون الصفات بعده مُنْصَبَةً عليه هو لا على الأسد الحقيقي لتفيد أنه انفرد من بين الأسود بصفات مميزة له . وكذلك تقول في لفظ الموت أنه مستعار للممدوح ، وأجريت الصفات عليه لتدل على أنه متميز عن بقية أفراد الموت بقوة الفتك والإبادة ولا يجوز أن يكون هذا تشبيها بتشبيه الممدوح بالموت لأنك إذا شبهته بالموت فقد جعلت الموت أقوى منه وحين تجعل فرائض الموت تُرْعَدُ مِنْهُ ، فقد عدت وجعلته هو أقوى من الموت وهذا محال^(١).

والثاني الذي يؤدي إلى إفساد غرض المتكلم كقول البحثري :

وبدر أضواء الأرض شرقا ومغربا وموضع رَحْلي مِنْهُ أَسْوَدُ مَظْلَمِ

ذلك أن تقدير أداة التشبيه هنا كأن تقول : هو كبدر يضيء الأرض إلا مكاني تشبيه بمجهول لا وجود له ؛ ولذا فإن الإمام عبد القاهر يمنع هذا البيت من أن يُعَدَّ من التشبيه لأنه مع كونه تشبيها بمجهول لا وجود له هو في الوقت نفسه يُبْطِلُ غَرَضَ المتكلم الذي يريد أن يشبّه هذه الصفات للممدوح وَيُبيِّن من إثبات تلك الصفات له أن يُدَلِّلَ على أنه يعم الناس جميعا بخيره ، ويخصّه

(١) انظر : أسرار البلاغة ، ص ٣٣٠ .

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

هو بالحرمان ولكي يتحقق ذلك يُجعل لفظ البدر مستعاراً للممدوح بعد تناسي التشبيه وادعاء أنه واحد من جنس البدور فتتاسق هذه الصفات إليه لتدل على أنه مختص بصفة لا توجد فيهم - أي في بقية البدور - فإن لم تفعل ذلك - وجعلت الكلام قائماً على التشبيه بتقدير الأداة فستتصب هذه الصفات - أي إضاءة الكون مشرقاً ومغرباً إلا موضع رحل الشاعر - على المشبه به وهو البدر الحقيقي وهي صفات لا تلائم فيكون ذلك تشبيهاً بمجهول وتفوت المبالغة التي تحققها الاستعارة ويريدها المتكلم ومن هنا ندرك أن الكلام ليس موضوعاً لإثبات الشبه بين الممدوح والبدور المعروف ؛ لأنه لو كان الأمر كذلك لزم وصف البدر بما ليس فيه « فهذا النحو موضوع على تخيل أنه زاد في جنس البدر واحدٌ له حكمٌ وخاصة لم تعرف »^(١).

ثم يقول : « فالبحتري في قوله : وبدر أضاء الأرض قد بنى كلامه على أن كون الممدوح بدراً أمر قد استقر وثبت وإنما يعمل في إثبات الصفة الغريبة والحالة التي هي موضع التعجب »^(٢).

وإذا كان هذا اللون من التعبير لا يحسن إطلاق اسم التشبيه عليه فإنه يضعف لهذا السبب أن يطلق عليه استعارة لأنها قائمة على التشبيه ، فبعد القاهرة يأبى أن يطلق على هذا النص استعارة كما أبى أن يطلق عليه اسم التشبيه ، فيقول : « وتأمل هذه النكتة فإنه يضعف ثانياً إطلاق الاستعارة على هذا النحو أيضاً ؛ لأن موضوع الاستعارة - كيف دارت القضية - على التشبيه وإذا بان بما ذكرت أن هذا الجنس إذا فليته عن سره^(٣) ونقرت عن خبيئه فمحصوله أنك تدعي حدوث شيء هو من الجنس إلا أنه اختص بصفة غريبة ، وخاصة بعيدة

(١) أسرار البلاغة ص ٣٣٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٣١ .

(٣) يقال : « فليت الشعر » إذا تدبرته واستخرجت معانيه وغريبه وكذلك كل أمر تتأمله وتنظر في عواقبه .

الصورة البيانية ————— دراسته في مسانعة البيان ————— ❁

لم يكن يُتوهم جوازها على ذلك الجنس كأنك تقول : ما كنا نعلم أن هاهنا بديراً هذه صفته كان تقدير التشبيه فيه نقضاً لهذا الغرض ؛ لأنه لا معنى لقولك : أشبهه ببدر حدثٍ خلافِ البدور ما كان يعرف»^(١).

ويعترف الإمام بالعجز عن وضع اسم لهذا النوع فيقول : « وهذا موضع لطيف جدا لا تنتصف منه إلا باستعانة الطبع عليه ، ولا يمكن توفية الكشف فيه حقه بالعبارة لدقة مسلكه »^(٢).

فبعد القاهرة لم يضع اسما لما جاء في بيت البحري السابق في مدح الفتح ابن خاقان ، فلم يسمه تشبيها ، ولم يسمه استعارة لأنها مبنية على التشبيه وإذا لم يسم تشبيها ، ولا استعارة فبم يسمى ، وماذا نطلق عليه ؟

ولماذا سلك الإمام عبد القاهرة هذا المسلك التدريجي فيما أطلق عليه اسم التشبيه البليغ في مثل نحو قولهم : زيد أسد ؟

لقد رأينا الإمام عبد القاهرة يبين في النوع الأول الذي بيناه سابقا أن التشبيه لائح بين يقتضيه المقام ، ويجب من حيث موضوعه ؛ لأنه لا يصح حمل الخبر على المبتدأ في زيد أسد ، لأن حقيقة المبتدأ تختلف عن حقيقة الخبر فيكون التشبيه في مثل هذا مقصودا من أجل المبالغة وبدأ يتحول عن هذا الرأي حين بين أن بعض أنواع التشبيه لا يجوز تسميته استعارة ، وبعضها يجوز تسميته بها ، ولكن تسميته تشبيها أقرب ، وبعضها يترجح تسميته استعارة ، وبعضها لا يصح أن يطلق عليه تشبيه أو استعارة ، ولعل احترامه لظاهر النص هو الذي أملى عليه هذا التدرج ؛ لأنه فيما يبدو يرى أن تفسير النص يجب أن لا يتعد كثيراً عن النص نفسه وبذلك يؤكد احترامه لظواهر النصوص ، وتقديره لها .

وهناك من ذهب إلى أن هذا اللون من التشبيه الذي رفض الإمام عبد القاهرة أن يطلق عليه اسم الاستعارة ، وكذلك التشبيه هو جنس خيالي لا وجود له

(٢٠١) أسرار البلاغة ، ص ٣٣٢ .

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

حقيقة ويضاف إلى الأشياء الموجودة ، وندعي وجوده على حد ما ذهب إليه أستاذنا الأستاذ الدكتور محمد أبو موسى ، الذي صرَّح بأن الإمام عبد القاهر قد أدرك طبيعة هذا الأسلوب ، وأنه في الحقيقة ادعاء وجود أجناس خيالية جديدة تضاف إلى الموجودات « فهنا زهرة تتكلم ، وملاك يهوى ويذوب عشقا ، وبحر يتدفق بالحجة . وهي أشياء جديدة وإذا كان الذي يلجئنا إلى التشبيه في مثل قولهم : هو أسد أنه لا يصح حمل الخبر على المبتدأ ؛ لأن حقيقته تختلف عن حقيقة الخبر ، فليس هذا الإلجاء قائماً هنا ؛ لأنك حين تقول : هي زهرة ينفت لسانها سحراً يكون الحمل صحيحاً لأنها في الحقيقة زهرة من هذا النوع الخيالي الجديد وليس هناك تناقض بين آدميتها والزهرة ؛ لأن هذا التناقض قائم بينها وبين الزهرة المعروفة ، أما الزهرة هنا فهي زهرة من نوع مخترع ، ومن نمط جديد من أنماط الزهر لم يعرف بعد هو زهر رأيناه بعين الخيال ، ولا تجري عليه أوصاف الزهرة المعروفة ؛ ولهذا صح الحمل ، وانتفت حاجتنا إلى تقدير الأداة كما في زيد أسد وإذا كانت هناك منازعة فهي في وجود هذا النوع من الزهر وليس في إثباته للمذكورة»^(١).

رأي السعد في التشبيه البليغ :

سبق أن عرفنا أن التشبيه البليغ في قولهم : زيد أسد أعلى أنواع التشبيه في القيمة الفنية لاشتماله على دعوى الاتحاد بين الطرفين ، وعلى دعوى عموم الاشتراك بينهما مما أوجد شبهة عدم الفرق بينه وبين الاستعارة . ومصدر هذه الشبهة أن التشبيه البليغ يفيد المبالغة بدخول المشبه في جنس المشبه به كما تفيد الاستعارة ، وإذا تساويا في الإفادة تساويا في الاسم ، لكن وجود المشبه في زيد أسد يُعيِّن من بادئ الأمر أن مبنى الكلام على التشبيه لا على الاستعارة وأن المشبه به مراد به معناه الحقيقي .

(١) التصوير البياني ص ١٩٣ .

الصورة البيانية ————— دراستي مسائل علي البيان ————— ❁

هذا وقد قال السعد التفتازاني : إن قولهم : زيد أسد من قبيل الاستعارة ، وليس من قبيل التشبيه . على أساس ادعاء أن لفظ أسد مستعمل في معنى الجريء بعد ادعاء التشبيه بينه وبين الأسد ، ومن ثمّ فليس مستعملاً في معناه الحقيقي ، وإنما هو مجاز عن الرجل الجريء ، ودليل استعماله فيه ظهور حملة على زيد الذي هو فرد من أفراد الجريء ، والحمل يقتضي اتحاد الحقيقتين ولا يتم هذا الاتحاد إلا إذا كان لفظ «أسد» مستعملاً في معنى الجريء وحينئذ يكون استعارة لاستعماله في غير ما وضع لعلاقة المشابهة بين الجريء والأسد وتحقيق هذا أننا إذا قلنا : في نحو رأيت أسدا يرمي إن أسدا استعارة فلا نعني أنه استعارة عن زيد إذ لا ملازمة بينهما ، ولا دلالة عليه وإنما نعني أنه استعارة عن شخص موصوف بالشجاعة ، فقلنا : زيد أسد أصله زيد رجل شجاع كالأسد ، فحذفنا المشبه واستعملنا المشبه به في معناه ، فيكون استعارة ، ويدل على ما ذكرنا أن المشبه به كثيراً ما يتعلق به الجار والمجرور كقوله :

أسد عليّ وفي الحروب نعامة ، أي مجترئ عليّ صائل وكقوله :
والطير أغربة عليه أي باكية^(١).

هذا والبيت الأول كما جاء في حاشية الدسوقي :
أسد عليّ وفي الحروب نعامة ففتحاء تنفر من صفير الصافر
وهو لعمران بن حطان مفتي الخوارج وزاهدٌهم خطاباً للحجاج وتوبيخاً له
أي أنت أسد عليّ ، وأنت في الحروب نعامة : فعليّ متعلق بأسد لكونه بمعنى مجترئ صائل ، وفي الحروب متعلق بنعامة لكونه بمعنى جبان ؛ لأن النعامة من أجبن الحيوانات والفتحاء بالحاء المهملة والمد المسترخية الجناحين عند النزول . والمراد من قوله : تنفر من صفير الصافر : أنها تنفر من صفير الصافر عند النزول .

(١) المطول ، ص ٣٥٩ .

❁—————الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ—————دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

هذا والبيت الثاني :

والطير أغربة عليه بأسرها فُتِحَ السَّراةُ وساكنات تصَاف

وهو لأبي العلاء المعري من قصيدة يرثي فيها الشريف الطاهر الموسوي ،
والْفُتُوحُ بضم الفاء جمع فَتْحَاء من الفتح ، وهو اللين يقال : عقاب فتحاء ؛ لأنها
إذا انحطت كُسِرَ جناحها . والسَّراةُ : بفتح السين جبال اليمن ولصَاف : اسم
جبل لطبيٍّ وكلاهما مأوى للطير ، وفي قوله : والطير أغربة عليه فإنه ليس
المراد بالأغربة : الطير المعروف ؛ إذ لا معنى له هنا بل المراد : الطير باكية
فعليه متعلق بأغربة وهي في الأصل اسم للطير المعروف وهو جامد ولا يصح
تعلق الجارِّ به فاستعمله الشاعر في الباكية ، فصح تعلق الجار به وإنما نقل لفظ
«الأغربة» إلى معنى «الباكية» لأن الغراب يشبه به الباكي الحزين ؛ إذ يزعمون
أن الغراب يعلم بالموت ، ومن لازم ذلك التحزن والمعنى أن كل الطيور في
الحزن على ذلك المرثى مثل الأغربة الباكية عليه»^(١).

هذا والاستدلال بأن لفظ «أسد» في قولهم : زيد أسد محمول على زيد ، وهذا
يقتضي اتحاد الحقيقتين ، ومن المعلوم أن الإنسان لا ينقلب أسداً وأن الأسد
لا ينقلب إنساناً فوجب المصير إلى التشبيه ، إنما يتم لو كان لفظ أسد مستعمل في
معناه الحقيقي وهي الحيوان المفترس ، وليس كذلك وإنما هو مستعمل في معنى
«الجرىء» لما ذكرنا من أدلة - فحمله حينئذ على «زيد» باعتباره أحد أفراد
«الجرىء» صحيح لا ضير فيه ؛ ومن هنا عد من الاستعارة .

على أنه قد يرد على السعد : بأنه لا يصح في الاستعارة الجمع بين طرفي
التشبيه ، ومن البين الواضح أن في مثل قولنا : «زيد أسد» جمعا بين الطرفين
وقولهم : إن «زيد» في زيد أسد ليس مشبها ، وإنما المشبه الرجل الجرىء
تمحل لا معنى له إذ أن «زيد» لم يلاحظ باعتباره ذاته ، بل بمعنى وصفه

(١) انظر حاشية الدسوقي ، ضمن شروح التلخيص ٤/٥٤ ، ٥٥ .

الصورة البيانية ————— دراسته في مسانيد البيان ————— ❁

بالجرأة وهو بهذا الاعتبار - مشبه قطعاً - ولا دليل لهم فيما أورده من قول عمران بن حطان - «أسد عليّ» فإن تعلق الجار بالأسد لا باعتبار ذاته ، بل باعتبار ما لزمه من وصف ويكفي في هذا في صحة التعلق ويحتمل أن يكون الجار والمجرور متعلق بأداة التشبيه لما فيها من معنى الفعل أشبه أي أنت تشبه الأسد بالنسبة إليّ وحذف ما يتعلق به الجار والمجرور شائع^(١).

هذا وقد تحدث المتأخرون في هذا الباب عن التركيب الذي يترك فيه المشبه بالكلية وكذلك الأداة لكن قد ذكر فيه المشبه به وكذلك ذكر وجه الشبه كما في قولهم : رأيت أسداً في الشجاعة أي رأيت رجلاً كالأسد في الشجاعة ، فإن هذا التركيب قد طوى فيه المشبه وهو رجل وحذفت الأداة لكن ذكر فيه المشبه به وهو «أسد» ، وذكر كذلك وجه الشبه وهو «في الشجاعة» وعدوا هذا التركيب وما جاء على مثاله من التشبيه ومثل هذا قول الشاعر :

ولاحت من بروج البدر بُعداً بدور مها تبرجها اكتنان

أي قصور مثل بروج البدر في البعد ، فقد أسقط المشبه ولم يذكر وهو «قصور» وكذلك حذفت الأداة «مثل» لكن ذكر المشبه به وهو «بروج» كما ذكر وجه الشبه وهو «بُعداً» أي في البعد وإنما عدوا هذا وما جاء على مثاله من التشبيه ؛ لأن ذكر الوجه اقتضى معنوياً ملاحظة المشبه ووجوده في التركيب مستقلاً عن المشبه به ويقول سعد الدين معلقاً على هذا : «ففيه إشكال لأن ترك المشبه لفظاً أو تقديرًا أو إجراء اسم المشبه به يقتضي أن يكون هذا استعارة ، وذكر وجه الشبه يقتضي أن يكون تشبيهاً أي رأيت رجلاً كالأسد في الشجاعة ، ولاحت من قصور مثل بروج البدر في البعد فبينهما تدافع كذا ذكره صدر الأفاضل في ضرام السقط. والظاهر أن مثل هذا من باب التشبيه ؛ لأن المراد بكون المشبه مقدراً أعم من أن يكون محذوفاً جزء كلام كما في قوله

(١) انظر حاشية الدسوقي ، ٥٢/٤ ، ٥٥ .

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

تعالى : ﴿ صُمُّ بُكْمٌ ﴾ (البقرة: ١٨) أو يكون في الكلام ما يقتضي تقريره كما في رأيت أسداً في الشجاعة بدليل أنهم جعلوا الخيط الأسود في قوله تعالى : ﴿ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ (البقرة: ١٨٧) تشبيهاً لأن بيان الخيط الأبيض بالفجر قرينة على أن الخيط الأسود أيضاً مبين سواد آخر الليل .

هذا ونجد التشبيه يتحقق لدى المتأخرين في كل تركيب يوجد فيه ما يقتضي ذكر المشبه وملاحظته ، ففي قوله تعالى : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ (البقرة: ١٨٧) ^(١) .

فالمشبه به وهو الخيط الأبيض مبين بالمشبه وهو الفجر «الفجر» مشبه بالخيط الأبيض ، وقد جاء بعد المشبه به مبيِّناً له ، فالمشبه وهو «الفجر» صار مذكوراً على نحو من الأنحاء . ويبين الزمخشري لماذا كان هذا التركيب وما جاء على مثاله من باب التشبيه وليس من الاستعارة فيبدأ أولاً ببيان الخيط الأبيض ، وأنه أول ما يتدبَّر من الفجر المعترض في الأفق كالخيط الممدود ، ويبين الخيط الأسود بأنه ما يمتد معه من غبش الليل شُبَّهاً بخيطين أبيض وأسود على حد ما قال أبو داود :

فلما أضاءت لنا سدفه ولاح من الصبح خيط أنارا

وقوله : من الفجر بيان للخيط الأبيض واكتفى فيه عن بيان الخيط الأسود ؛ لأن بيان أحدهما بيان للثاني ، ويبين لماذا كان هذا من باب التشبيه وليس من الاستعارة ؟ لأن قوله : من الفجر أخرجه من باب الاستعارة كما أن قولك : رأيت أسداً مجاز فإذا زدت من فلان رجعت تشبيهاً ويوضح لماذا زيد من الفجر حتى كان تشبيهاً وهلا اقتصر على الاستعارة التي هي أبلغ من التشبيه وأدخل في الفصاحة ؟ ويرد على ذلك بأن من شرط المستعار أن يدل عليه الحال ،

(١) المطول ، ص ٣٥٩ ، ٣٦٠ .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ الْبَيَانِ ————— ❁

أو الكلام ولو لم يذكر من الفجر لم يعلم أن الخيطين مستعاران فزيد من الفجر فكان تشبيهاً بليغاً وخرج من أن يكون استعارة^(١).

فالكلام قد يأتي على صورة معينة توهم طي المشبه وإسقاطه فيقنع في الظن والوهم أنه من باب الاستعارة ، ثم يوجد في الكلام ما يجعله من التشبيه على نحو ما جاء في الآية الكريمة وعلى حد ما جاء في قول الشاعر:

فما زلت في ليلين — شعر وظلمة — وشمسين — من خمر ووجه حبيب
وعلى حد ما جاء في قول شوقي :

ودخلت في ليلين — فرعك والدجى — ولثمت كالصبح المنور فاك
ففي البيتين شبه الشعر بالليل ثم ذكر الشعر ، وما عطف عليه بيانا للمشبه به في قوله : ليلين .

هذا وقد أشار سعد الدين في المطول إلى ما يشعر به كلام الزمخشري في الكشف من تحقق التشبيه في الكلام الذي طوى فيه ذكر المشبه الذي لم يذكر بوجه من الوجوه ، ولم يذكر فيه وجه الشبه ولكن ذكر فيه المشبه به مستعملاً في معناه الحقيقي ، وإنما عدَّ هذا من التشبيه وليس من الاستعارة ؛ لأن هناك مقتضيات معنوية اقتضت أن يكون تشبيهاً يقول صاحب المطول : بعد أن بين التشبيه في قوله تعالى : ﴿ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ (البقرة: ١٨٧) ، وأبعد من ذلك ما يشعر به كلام صاحب الكشف من أن قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾ (الزمر: ٢٩) ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْرَابُ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٍ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ (فاطر: ١٢) من باب التشبيه المطوي فيه ذكر المشبه كما في الاستعارة وهو مشكل ؛ لأن المشبه فيه ليس بمذكور ولا مقدر ويمكن التقصّي عن هذا الإشكال بأن الاستعارة

(١) انظر تفسير الكشف ، ١/ ١١٥ ، ١١٦ .

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

تجب أن تكون مستعملة في غير ما وضع له وعلامته أن يصح اسم المشبه موقعه ولا يفوت إلا المبالغة في التشبيه فيصح في نحو : « رأيت أسداً أن يقال رأيت رجلاً شجاعاً وهذا ليس كذلك على ما يظهر بالتأمل وكذا لا يصح أن يراد بالبحرين الموصوفين المؤمن والكافر ؛ لأن قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ كُلِّ تَآكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبُسُونَهَا ﴾ (فاطر: ١٢) ينبئ عن أنه تعالى قصد التشبيه لا الاستعارة وإرادة تفضيل البحر الأجاج على الكافر بأنه قد يشارك العذب في منافع والكافر خلو عن المنفعة ، فهو في طريقة قوله تعالى : ﴿ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ أَلْأَنْهَارُ ﴾ (البقرة: ٧٤) ولخفاء ذلك ذهب كثير من الناس إلى أن الآيتين من قبيل الاستعارة ، وإن صاحب الكشف أوردهما مثالين للاستعارة ، ولا يخفى ضعفه على من تأمل لفظ الكشف»^(١).

وقد بين السيد الشريف أن ما بين به صاحب المطول الفرق بين التشبيه والاستعارة من الكلام الجيد فقال : « هذا كلام جيد فإن المدار في الفرق بين الاستعارة والتشبيه إذا تردّد بينهما أن اسم المشبه به إن كان مستعملاً في معنى المشبه كان استعارة ، وإن كان مستعملاً في معناه الحقيقي كان تشبيهاً ، وعلامة كونه مستعملاً في معنى المشبه أي ومن لوازم استعماله فيه أن يصح وقوع اسم المشبه موقعه ، فإذا انتفت هذه العلامة كما في الآيتين بشهادة الفطرة السليمة بعد التأمل فيهما انتفى كونه استعارة ، وكان تشبيهاً سواء أكان المشبه مذكوراً بالفعل ، أو مقدراً في نظم الكلام ، أو لا يكون مذكوراً ولا مقدراً . نعم يجب كونه المشبه مراداً في معنى الكلام ، وإن لم يمكن تقديره في نظمه على وجه لا يختل نظامه»^(٢).

(١) المطول ، ص ٣٦٠ .

(٢) حاشية السيد الشريف على المطول ، ص ٣٦٠ .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتُ فِي مَسَائِدِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ————— ❁

هذا وبالنظر في كلام سعد الدين الذي عدّه السيد الشريف من الكلام الجيد وهو ما وضعه من شرح للقاعدة التي تبين الفرق بين التشبيه والاستعارة ؛ إذ بين أن الفرق بينهما على نحو لا يشته به شيء آخر أن اسم المشبه به في الاستعارة مستعمل في المشبه ومراد به ذلك المشبه بحيث لو أقيم مقامه اسم المشبه استقام الكلام ، وفي التشبيه يكون المشبه به مستعملاً في معناه الحقيقي ومراداً به ذلك .

وفي قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾ (الزمر: ٢٩) ، ولو أننا أخذنا ضابط ما يصح جعله استعارة على نحو ما ذكر السيد الشريف تعليقا على ما ذكره السعد في المطول نجد أن عدم صحة وقوع المشبه موقع المشبه به يرجع إلى أن التشبيه الإنكاري الذي يفيد نفي الاستواء في قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ ﴾ (الزمر: ٢٩) والذي جاء تعقيبا على المثل ينصبُّ على هذه الصورة ويحدّد قسماتها ، وملاحظها . فالله يضرب المثل للعبد المشرك الذي يملكه شركاء متشاكسون ، وللعبد الموحّد المؤمن . فيشبه العبد المشرك الذي يعبد الأصنام بالعبد الذي يملكه شركاء متنازعون ، ومتخاصمون ، ومتشاحنون لا تتلاقى مطالبهم ، ولا تتوحد اتجاهاتهم ، فهو في صراع دائم ، وهمٌّ مقيم على نحو يجعله مُقسّما ، موزّعا ، مشتتّا وحائرا ؛ لأنه لا يملك أن يرضي أهواءهم المتضاربة ، ومطالبهم المتعارضة التي تمزق اتجاهاته ، وتهدّ قواه . كما شبه المؤمن الموحّد الذي يقطع رحلة الحياة على هدًى وبصيرة بالعبد المملوك لسيد واحد يعرف ما يرضيه فيفعله وما يغضبه فيبتعد عنه ، ويتقيه ، ويتجنبه ، ومن ثمّ لا تتوزع قواه ، ولا تشتت طاقاته ، وتتبدد فيعمل ، وينتج . ويكون في أدائه مثمرا ، ينعم براحة الاستقامة ووحدة الطاقة ، ووضوح الغاية والطريق ويجيء الاستفهام الإنكاري الذي يفيد النفي في قوله ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ ﴾ (الزمر: ٢٩) ليؤكد أنهما لا يتساويان ؛ إذ لا يمكن أن يستوي المشرك ، والمؤمن لا يمكن أن يستوي المملوك لشركاء متشاكسين ، والمملوك لسيد واحد .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ —————﴾ دَرَسَتْ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

ومما طوى فيه المشبه ، ولم يذكر على وجه من الوجوه ، وبقي المشبه به مستعملاً في معناه الحقيقي مع مقتضيات وإشارات تقتضي أن يكون تشبيهاً على حد ما رأيناه في المثل السابق وما تراه في قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبُسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَازِرَ ﴾ (فاطر: ١٢) يقول صاحب الكشاف : « ضرب البحرين العذب ، والمالح مثلين للمؤمن والكافر والعذب الفرات : الذي يكسر العطش والسائغ المري السهل ، والأجاج : الذي يحرق بملوحته ... ويشبه الجنسيتين بالبحرين ، ثم يُفَضَّلُ البحر الأجاج على الكافر بأنه قد شارك العذب في منافع السمك ، واللؤلؤ وجري الفلك ، والكافر خلو من النفع »^(١).

فالإيمان شبه بالبحر العذب السائغ ، والكفر مشبه بالماء المالح الأجاج . ذلك أن الإيمان يحيي القلوب ، ويفجر فيها ينابيع الرحمة والمودة ، ويبعث فيها دفء الراحة ، وبرد الطمأنينة ، وأنس العافية ، ونشوة الرضا ، وبهجة السعادة ، وكذلك الماء العذب الفرات السائغ الذي يحيي الأرض الهامدة ، ويجعلها تهتز وتربو ، وتنبعث بالربيع الممرع ، وتنعش الظماء المحرورين المجتهدين بعد أن تَطَرَّوْا بالماء ، وتَعَوَّذُوا به من وقدة الحرب ، ومشقة الجهد والتعب ، وتشبيه الكفر بالبحر الهادر بماء فاسد مالح لا يطفئ عطشا ، ولا يروي ظمأ ، ولا ينقع غلة ، ولا يحيي أرضا ، أو ينبت زرعاً والكلام قد جاء على نحو قد طوى فيه المشبه ، فلم يذكر وحلاً في مكانه المشبه به وبقي منصوباً عليه ، وسلط فيه نفي الاستواء على البحرين المشبه بهما لا على الإيمان والكفر ، وهذه الطريقة التي جاء النص الكريم عليها هي طريقة الاستعارة كما في قوله تعالى في نفس السورة : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى

(١) الكشاف ، ٣/ ٣٧١ .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ الْبَيَانِ ————— ﴿﴾

وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظُّلُ وَلَا الْحُرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي
الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ﴿﴾ (فاطر: ١٩-٢٢).

وهذا قد يقتضي أن تكون هذه استعارة كما أن الاستعارة محققة في هذه الآيات ، لكن ما ذكر من أحوال وهيئات وخصائص هي من خصوصيات البحر الحقيقي ، ومن لوازمه على نحو ما هو موجود في قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيفًا وَتَسْتَخْرِجُونَ حُلِيَّةً تَلْبُسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاحِرَ ﴾ (فاطر: ١٢) وما أشير به هنا مما يفيد أن الماء المالح الأجاج أنفع في وجوده من الكفر ؛ لأنه يمد الحياة بما ينفع ويفيد من اللحم الطري ، والحلية التي تلبس ، والفلك التي تمخر الماء على خلاف الكفر الذي هو خلو من كل نفع وفائدة ، فذكر هذه الأحوال التي تخص البحر تفيد في جلاء ووضوح أن البحرين المذكورين في الآية مستعملان في المعنى الحقيقي ، فالإشارة إلى منافع البحر الملح تمنع أن يراد به الكافر ؛ لأن الكافر يخلو من كل فائدة ؛ لذا كان الكلام تشبيها وليس استعارة .

الاستعارة التحقيقية : وتسمى التصريحية :

وهي الاستعارة التي يكون المعنى المراد بها وهو معنى المشبه له تحقق ووجود يدركه الحس إذا كان محسوساً ويدركه العقل إذا كان معقولا وليس أمراً خيالياً أو وهمياً ، فالاستعارة التحقيقية إنما سميت كذلك لتمييز عن التخيلية والممكنة عنها ، والمراد بالتحقق الحسي أن يكون معناها مما يدرك بإحدى الحواس الخمس فيصح أن يشار إليه إشارة حسية بأن يقال : نقل اللفظ لهذا المعنى الحسي ، والمراد بالتحقق العقلي ألا يدرك بالحواس ، ولكن يكون متحققاً في نفسه بحيث يدركه العقل ثابتاً ثبوتاً لا يصح للعقل نفاه ، والحكم ببطالان معناه في نفس الأمر باعتبار نظر العقل ^(١).

(١) ابن يعقوب المغربي ، ضمن شروح التلخيص ، ٤/٤٦ .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ —————﴾ دَرَسَتْ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

فالاستعارة التحقيقية الحسية كقولك : رأيت أسداً يحمل مدفعاً أي رجلاً شجاعاً ، فالرجل الشجاع وهو المراد من لفظ أسد له تحقق ووجود في عالم المحسوسات ، ومثله قول زهير بن أبي سلمى :

لَدَى أَسَدٍ شَاكِي السِّلَاحِ مُقَذَّفٍ لَهُ لَبْدٌ أَظْفَارُهُ لَمْ تُقَلِّمْ
فقوله : لدى أسد أي أنا عند أسد فشبه الرجل الشجاع بالأسد وادعى أنه فرد من أفراده واستعير اسم المشبه به للمشبه على طريق الاستعارة التحقيقية ؛ لأن المستعار له وهو الرجل الشجاع محقق حساً لإدراكه بحاسة البصر وقوله : شاكي السلاح : أي سلاحه ذو شوكة يقال : رجل ذو شوكة : أي رجل ذو إضرار ومعنى ذو شوكة أنه تام السلاح ؛ لأن تمام السلاح عبارة عن كونه أهلاً للإضرار ، فالرجل الشجاع من أبطال المعارك والحروب مدجج بالسلاح يقدمه قومه للمعارك لطول خبرته بمنازلة الأقران وحين جعله أسداً جعل له لبداً الأسد وأظافره .

والاستعارة التحقيقية العقلية مثل قوله تعالى : ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (الفاتحة: ٦) فالمراد بالصراط الدين الحق ، والدين من المعاني العقلية .

مثال يحتمل التحقيقية الحسية والتحقيقية العقلية وذلك كقول الله تعالى : ﴿ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ ﴾ (النحل: ١١٢) ، فمن فسر لباس الجوع والخوف بما أصاب أهل القرية بسبب الجوع والخوف من ضنك وهم واضطراب في التفكير مما لا سبيل إلى إدراكه بالحس الظاهر جعل الاستعارة تحقيقية عقلية مبنية على تشبيه ما شملهم من هذه الأحداث التي لا تدرك بالحس باللباس المشتمل على صاحبه واستعارة اللباس لهذه الأحداث .

ومن فسر لباس الجوع بصفرة الوجه ، وهزال الجسم ، وانتفاع اللون جعل الاستعارة من قبيل التحقيقية الحسية على اعتبار أنه قد شبه ما غشي أهل تلك القرية التي كفرت بنعم الله عند جوعهم وخوفهم من الصفرة ، وانتفاع اللون ،

الصورة البيانية ————— دراستي مسائل علي البيان ————— ❁

ونحول الجسم باللباس بجامع الاشتمال في كل واستعارة اللباس لهذه الأمور الحسية للدلالة على أنها قد عمت أعضاء الجسم ^(١).

قرينة الاستعارة :

وقرينة الاستعارة وكذلك كل مجاز - هي العلامة الدالة على أن اللفظ المستعار أو المتجوز به لا يراد به معناه الحقيقي ويتعين بها في الغالب المعنى المراد ، وهي نوعان : لفظية أو غير لفظية .

فاللفظية في الاستعارة التصريحية هي لفظ يلائم المشبه .

يذكر في الكلام ليصرفه عن إرادة الظاهر مثل حدثني بدر أي غلام جميل استعير البدر له وقرينة الاستعارة لفظ حدثني ؛ لأن البدر بمعناه لا يتحدث ولا يتكلم .

وغير اللفظية هي الأمر الخارج عن اللفظ الذي يصرف الكلام عن أن يكون مراداً به المعنى الحقيقي كدلالة الحال ، أو استحالة المعنى ، فمثال ما قرينته حالية أن تقول : أشرق القمر والسامع يرى فتاة حسناء مقبلة ، فالقمر مستعار لهذه الفتاة الجميلة الحسنة وقرينة الاستعارة دلالة الحال ومثال ما قرينته الاستحالة ما تراه في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكِ فِي الْجَارِيَةِ ﴾ (الحاقة: ١١).

شبه كثرة الماء بالطغيان بجامع مجاوزة الحد في كل ، ثم استعير الطغيان للكثرة واشتق منه « طغى » بمعنى كثر على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية والقرينة استحالة صدور الطغيان بمعناه الحقيقي من الماء ؛ لأن الطغيان من شأن الإنسان .

والقرينة تتنوع إلى أمرين :

الأول : أن تكون أمراً واحداً لا تعدد فيه وهو الشائع الكثير على نحو ما رأينا فيما سبق ، وكما في قولك : رأيت أسداً يرمي .

(١) انظر بغية الإيضاح ، ١٠٤/٣ - ١٠٦ .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ ﴾

الثاني : أن تكون القرينة أكثر من أمر واحد يكون كل واحد منها كافياً في الدلالة على الاستعارة كقول الشاعر :

فإن تعافوا العدل والإيمان فإن في أيـماننا نيــــرانا

وقوله : **فإن تعافوا** مأخوذ من عاف يعاف بمعنى كره يقال : عاف الرجل طعامه وشرابه أي كرهه أي إن تعافوا وتكرهوا العدل والإنصاف وتميلوا للجور وتكرهوا التصديق بالنبي ﷺ فإن في أيدينا سيوفا تلمع كالنيران نحاربكم بها ، ونلجئكم إلى الطاعة بها ، والعدل هو وضع الشيء في محله ، فهو مقابل للظلم والإيمان بكسر الهمزة تصديق النبي ﷺ فيما جاء به والأيمان بفتح الهمزة جمع يمين ويطلق على القسم ، فقد استعير لفظ « النيران » للسيوف والقرينة على أن المراد بالنيران السيوف هي كل من العدل والإيمان باعتبار تعلق الفعل تعافوا بهما ومع أن كل واحد منهما - أي العدل والإيمان - صالح لأن يستقل بكونه قرينة ، ولكن الشاعر لم يكتف بواحد منهما لتوقف المعنى الذي يريده على الأمرين معاً لا لتوقف الاستعارة عليهما مجتمعين ؛ إذ هو يريد أن يقول لمن يتوجه بالكلام إليهم ، إما أن تدفعوا الجزية لتكون أماناً لكم - وهي عدل وإنصاف - وإما أن تؤمنوا ليكون لكم مالنا ، وعليكم ما علينا ، فإن كرهتم العدل والإيمان حاربناكم على طريقة الإسلام مع أهل الكتاب ، إما الجزية ، أو الإيمان ، أو القتال .

أن تكون القرينة عدة معان ملتزمة ارتبط بعضها ببعض ؛ بحيث تكون القرينة من مجموعها بحيث لا يصلح واحد منها منفرداً لأن يكون قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي كقول البحتري :

وصاعقة من نصله تنكفي بها على أرؤس الأقران خمس سحائب

فالشاعر يتحدث عن ممدوحه ويصفه بالشجاعة والكرم ؛ لذا استعار لفظ « السحائب » فشبه أنامل الممدوح بالسحائب في عموم النفع ، وجعل القرينة

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَةٌ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ❁

على الاستعارة مجموع أشياء فذكر أن هناك صاعقة ، وأنها ساقطة من حد سيفه ، وأنها منقلبة على رؤس الأقران لتفتك بهم ، وأنها خمس بقدر أصابع اليد ، فاتضح من مجموع ذلك كله غرضه من « السحائب » وأن المراد بها أنامل الممدوح لما بينها وبين السحائب من جامع النفع ، وعموم العطاء .

هذا وقد يقال : إن واحدا من هذه الأمور التي ذكرت يكفي في الدلالة على الاستعارة ، فالقرينة بهذا الاعتبار تكون متعددة وليست معاني ملتزمة متضامة ومربوط بعضها ببعض على حد ما سبق ، ويجاب على ذلك بأن الاستعارة إنما يكتمل وضوحها بهذه الأمور كلها وأن المراد بالتثام المعاني ارتباطها لا على وجه العطف المؤذن بالاستقلال ؛ بل على وجه الربط المؤذن بعد الاستقلال ^(١).

تقسيم الاستعارة باعتبار الطرفين :

تنقسم الاستعارة باعتبار طرفيها إلى قسمين - وفاقية ، وعنادية ، فالاستعارة الوفاقية هي التي يمكن اجتماع طرفيها في شيء واحد لما بين الطرفين من الوفاق كاجتماع النفاق والمرض في قلب إنسان ، وكاجتماع العمى والكفر في شخص كافر ، وكاجتماع الحياة والهداية في الرجل المهتدي على حد ما هو موجود في قوله تعالى : ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ (البقرة: ١٠).

فقد استعير المرض للنفاق بجامع أن الأول يفسد الأجسام ، والثاني يفسد العقائد ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾ (فصلت: ١٧).

فالعمى مستعار للكفر ، وذلك لأن كلا منهما يوقع صاحبه في المخاطر والمهالك ، وفي قوله تعالى : ﴿ أَوْ مَن كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾ (الأنعام: ١٢٢).

(١) مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح لابن يعقوب ، ٧٤/٤ ، ٧٥ ، ضمن شروح التلخيص .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ —————﴾

فالإحياء مستعار للهداية بجامع النفع والفائدة التي ترتب على ذلك ،
وسميت الاستعارة في هذه الشواهد وفاقية « لموافقة كل من طرفيها صاحبه في
الاجتماع معه في موصوف واحد »^(١).

والاستعارة العنادية هي التي لا يمكن اجتماع طرفيها في شيء واحد لما
بين الطرفين من التعاند .

وهي نوعان :

الأول : ما بني التشبيه فيها على ترك الاعتداد بوجود الصفة في المشبه
لفقدان ثمرتها وتأتي في صور متعددة .

أ - استعارة اسم المعدوم للموجود عديم الجدوى والفائدة في قولك : رأيت
ميتا يتحدث تقصد جاهلا شبه الجهل بالموت وذلك بجامع عدم النفع
في كل وبعد تناسي التشبيه وادعاء أن المشبه فرد من أفراد المشبه
وداخل في جنسه استعير الجهل للموت فالاستعارة قائمة هنا على
تشبيه وجود الرجل الذي لا نفع فيه بالعدم والموت والجهل والموت
لا يجتمعان في شيء واحد ؛ لأن الميت لا يوصف بالجهل فالاستعارة
عنادية إذاً .

ب - استعارة اسم الموجود للمعدوم ذي الآثار الباقية ، والخالدة كقولك :
للرجل يوارى الثرى ويدفن في التراب ومآثره على الناس باقية وخالدة ،
كيف تدفنون في التراب موجودا لم يمت فالاستعارة قائمة على تشبيه
عدمه بالوجود لبقاء مآثره مع عدم الاعتداد بصفة الموت الثابتة في الواقع
والاستعارة عنادية إذ يمتنع بدهاة اجتماع الوجود والعدم لشيء واحد .

ج - أن تستعير اسم الميت للحي الجاهل ؛ وذلك لأن الجهل يفقد المرء
أعلى وأثمن ما هو موجود في الحياة من الفكر والمعرفة كقول الله

(١) ابن يعقوب ، ٧٦/٤ ضمن شروح التلخيص .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ عَلِ الْبَيَّانِ ————— ❁

تعالى في حق الكافرين المصيرين على بقائهم على الجهل بحقائق الدين ﴿ إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ أَلْمُوتَى ﴾ (النمل: ٨٠) فقد استعير اسم الموتى للأحياء الكافرين وذلك لعدم الاعتداد بصفة الحياة المحققة ؛ لأنهم لم ينتفعوا بشمرتها وعلى هذا الحد ما تجده في قوله تعالى : ﴿ أَوْ مَن كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾ (الأنعام: ١٢٢).

فقد جعلهم أمواتا وهم أحياء لاتصافهم بالكفر الذي يجعل حياتهم كلا حياة ، فقد استعير أولا الميت للضال وهما لا يجتمعان في شيء واحد ، فالاستعارة عنادية واستعير ثانيا الأحياء للهداية على حد ما سبق أن ذكرناه في الاستعارة الوفاقية والحياة والهداية .

فالاستعارة بهذا الاعتبار وفاقية ويكون النص الكريم قد اجتمعت فيه الاستعارتان الوفاقية والعنادية .

د - استعارة اسم الميت للرجل العاجز الذي لا يقوى على أداء عمل نافع كقولك عجبت ممن يعيش مع الأحياء ولا يعمل ما يعملون ، فقد جعل ميتا لعدم الاعتداد بصفة الحياة التي فيه لفقدانه ما يلزم الحياة من سعي وكد وعمل .

هـ - استعار اسم الميت للحي النائم ، تقول : يلقني شخير هذا الميت ، لم تعتد بالحياة التي فيها ما دام نائما لفقدته الإحساس بما حوله كما يفقده الميت .

مراتب الاستعارة العنادية في القوة والضعف .

يستعار اسم الميت لكل من الجاهل الفاقد للعلم والإيمان ، والحي الفاقد للفائدة والمنفعة ، والعاجز الفاقد للحركة والسعي ، والنائم الفاقد للإحساس اضطراراً . وهذه الاستعارات ليست كلها في درجة واحدة من القوة والضعف ، فإن من فقد العلم والإيمان أحق باسم الميت ، وأولى به ممن لا ينفع ولا يفيد لقوة شبه الأول - وهو الجاهل الفاقد للعلم والإيمان بالميت ؛ لأنه لا حياة لها

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ —————﴾ دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

قيمة من غير العلم ، ومن فقد المنفعة فُقداناً تاماً أولى باسم الميت من العاجز عن العمل والكسب والعاجز عن العمل أولى باسم الميت من النائم ؛ لأن العجز يقلل من قيمته ، ويجعله كالميت والنوم ليس كذلك ؛ لأن فقدان الإحساس فيه اضطراري .

كذلك تترتب الأولوية إذا استعرت اسم الحي للعالم الذي يخلف ثروة علمية كبيرة ينتفع الناس بها ، فهو أحق وأولى ممن ترك ثروة علمية قليلة لقوة صلة الأولى بالحياة ، وانتفاعه بها على أن العالم الذي خلف ثروة علمية قليلة أولى من استعارته لمن خلف مجدا عائلياً ، أو ترك ما لا يورث عنه ؛ لأن شرف العلم أقوى من شرف المال والجاه .

النوع الثاني : من الاستعارة العنادية هي الاستعارة التهكمية والتمليحية والاستعارة التهكمية وهي التي يقصد بها الهزء والسخرية بالمستعار له والاستعارة التمليلية وهي ما يقصد بها الظرافة والإتيان بشيء مليح يستظرفه الحاضرون مثل إيراد القبيح بصورة شيء مليح للاستظراف .

والاستعارة التهكمية والتمليحية وهما ما نزل فيهما التضاد أو التناقض منزلة التناسب واستعمل اللفظ في ضد معناه ، أو في نقيضة إبراز للخسيس في صورة الشريف لقصد الهزء والسخرية ، أو التمليح ، والتظرف « كإطلاق الكريم على البخيل ، والأسد على الجبان ولا يصح فيهما إطلاق البخيل على الكريم ، ولا إطلاق الجبان على الأسد ، وقد علمت من هذا التهكمية والتمليحية إلا أن الفارق بينهما من أنه إذا كان الغرض الحامل على استعمال اللفظ في ضد معناه الهزء والسخرية بالمقول فيه كانت تهكمية ، وإن كان الغرض الحامل على ذلك بسط السامعين ، وإزالة السامة عنهم بواسطة الإتيان بشيء مليح مستظرف كانت تمليحية»^(١).

(١) حاشية الدسوقي ، ٧٨/٤ .

الصورة البيانية ————— دراستي مسأله البيان ————— ❁

تقول : زارني اليوم كريم تريد رجلا بخيلا ، ورأيت على الجواد أسداً تريد جبانا فقد نزل أولاً - البخل منزلة الكرم - ونزل ثانيا - الجبن منزلة الشجاعة - ثم شبه البخيل بالكريم ، والجبان بالأسد - في الجود - في الأول - والشجاعة في الثاني - وكل من الجود في البخيل والشجاعة في الجبان تنزيل ثم استعير اسم الكريم للبخيل واسم الأسد للجبان ، فإن كان الباعث على استعمال اللفظ في ضد معناه التهكم والاستخفاف بالمقول فيه كانت الاستعارة تهكمية ، وإن كان الغرض الحامل هو بسط السامعين ، وإزالة السأم عنهم بتصوير القبيح في صورته مستحسنة كانت الاستعارة تمليحية ومن الظاهر الواضح عدم اجتماع البخل والكرم، أو الجبن والشجاعة في شيء واحد فكلتاها إذا استعارة عنادية - وعلى هذا النحو ما تجده في قول الله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (لقمان: ٧).

نزل التضاد بين التبشير والإنذار منزلة التناسب بينهما ، ثم شبه الإنذار بالتبشير ووجه شبه إدخال الشبه إدخال السرور إلى النفس في كل وإن كان تنزيلاً في المشبه ، ثم استعير اسم البشارة للإنذار بعد تناسي التشبيه وادعاء أن المشبه فرد من أفراد المشبه به وداخل في جنسه ، ثم اشتق بشر بمعنى أُنذر على سبيل الاستعارة التهكمية العنادية ، وعلى هذا النحو الاستعارة في قوله تعالى : ﴿ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ الْجَحِيمِ ﴾ (الصفات: ٢٣)، أي فجروهم إلى جهنم جراً عنيفاً . وقد نزل التضاد بين الهداية التي هي الدلالة برفق وبين الأخذ بمجامع الشيء وجره بقهر وعنف منزلة التناسب ثم شبه الأخذ بالعنف بالهداية بجامع الخير والنفع في كل ، وإن كان تنزيلاً في المشبه ، ثم تنويسي التشبيه وادعى أن المشبه وهو الأخذ بالعنف من أفراد المشبه به وداخل في جنسه واستعير لفظ الهداية للأخذ بالعنف واشتق منه - اهدوهم - بمعنى جروهم بعنف وشدة على سبيل الاستعارة التهكمية العنادية ، وذلك لعدم اجتماع اللطف والعنف في شيء واحد ^(١).

(١) انظر في هذا بغية الإيضاح ، ١٢١/٣ - ١٢٣ .

تقسيم الاستعارة باعتبار الجامع

الجامع : هو ما قصد اجتماع الطرفين فيه ، وهو ما يسمى في باب التشبيه وجه الشبه ، وسمي جامعا ؛ لأنه أدخل المشبه تحت جنس المشبه به تحت مفهومه وهو لا بد أن يكون في المستعار منه أقوى ؛ لأن الاستعارة مبنية على المبالغة في التشبيه والمبالغة توجب إلحاق المشبه بما هو أكمل في وجه الشبه .

والاستعارة تنقسم بهذا الاعتبار إلى قسمين - داخلية وغير داخلية ، فالداخلية أن يكون الجامع داخلاً في مفهوم الطرفين المستعار منه ، والمستعار له وذلك بأن يكون جزءاً من مفهوميهما ويتحقق ذلك حين تستعار الكلمة لما هو من جنسها فانتقال الكلمة من معنى إلى معنى يختلف حالها قربا وبعدا عن معناها الأول ؛ إذ قد تقرب المسافة إلى حد بعيد بين ما انتقلت منه الكلمة وما انتقلت إليه ؛ بحيث تتحرك في نفس الدائرة ، ولا تبعد عنها ، أو تنفصل ، فهي لم تغادر جنسها ، ولم تبرحه ، أو تتجاوزها وإنما تتصل به نوعاً من الاتصال وتدور معه في نفس المحيط ؛ ومن هنا فإن الكلمة لا تنفصل عن جنسها أو تتخطاه وإنما تستعار لما هو من نفس الجنس ، خذ قول المتنبي :

نثرتهم فوق الأحيدب نثرة كما نثرت فوق العروس الدراهم

فهو يصور لك ما فعله جيش سيف الدولة بخصومه وإن كان قد أسند الفعل إليه ؛ لأنه الأمر بذلك وتأمل ما حققه بناء التشبيه على الاستعارة هنا من رسم صورة هؤلاء القتلى ، وما آلت إليه جثثهم التي مزقت تمزيقا ومزقت تفريفا على جبل الأحيدب التي دارت حوله المعركة إن النثر إنما يكون لما من شأنه التفريق كالدراهم والدنانير ، ولا يكون للأجسام والرؤوس التي يكون من حظها

الصورة البيانية ————— دراستي في مسانيد البيان ————— ❁

التوزيع ولكن التصوير بالاستعارة يبين لك كيف تحكم الرجل في أعدائه قتلا وتنكيلا ، وكيف مزق أجسادهم وقطعها قطعاً صغيرة حتى لتكاد تحفن باليد ثم تنثر وتبعثر على الأرض وحين تتأمل الدائرة التي تحركت فيها الكلمة وانتقلت فيها من استعمال إلى استعمال في معنى آخر تجد المسافة بين المعنى المنتقل منه الكلمة والمعنى المنتقل إليه قريباً بعضه من بعض بحيث ترى الكلمة قد استعيرت إلى ما هو من جنس لفظها ، ولا يبعد عن هذا الجنس ، ولا يتخطاه أو يتجاوزه من خلال تشبيهه بفرق الأجسام الكبار بفرق الأجسام الصغار بجامع التساقط والتوزيع في كل واستعير النثر للفرق واشتق منه نثر بمعنى فرق على سبيل الاستعارة فيقول: «إن النثر في الأصل للأجسام الصغار ، كالدرهم والدنانير والجواهر والحبوب ونحوها لأن لها هيئة مخصوصة في التفريق لا تأتي في الأجسام الكبار ، ولأن قصد «النثر» أن تجمع أشياء في كف أو وعاء ثم يقع فعل تتفرق معه دفعة واحدة ، والأجسام الكبار لا يكون فيها ذلك ، لكنه لما اتفق في الحرب تساقط المنهزمين على غير ترتيب ونظام كما يكون في الشيء المنثور عبر عنه بالنثر ، ونسب ذلك إلى الممدوح إذ كان هو سبب ذلك الانتثار فالتفرق الذي هو حقيقة النثر من حيث الجنس المعنى وعمومه موجود في المستعار له بلا شبهة»^(١). وأنت ترى كيف وضع الإمام عبد القاهر معنى النثر وكيف نقله الشاعر إلى تفريق الرجال المهزومين وحين تنظر إلى استعمال الكلمة ونقلها إلى معنى آخر تجد أن الكلمة لم تبعد عن محيطها وأنها نقلت إلى ما هو من جنسها فالكلمة إنما انتقلت من مكان إلى مكان آخر في نفس المحيط والدائرة هذا وحين تتأمل التشبيه الصريح في البيت تجده ينهض ويقوم من خلال تشبيه قتل الأعداء وتفريقهم فوق جبل الأحيديب بتفريق مواقع الدراهم إذا نثرت فوق العروس ووجه الشبه هو التساقط على غير

(١) أسرار البلاغة ص ٥٨ .

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

نظام والتشبيه بصورته تلك يحكي الحالة النفسية السعيدة للجيش وقائده الذي يرى في تقطيع الأجسام، وجز الرقاب، وفصل الرؤوس عن الأجساد وبعثرتها، وتفرقها صورة من نثر الدراهم والدنانير في يوم الزينة فوق العروس إن نشوته بإعمال القتل، وتقطيع أجساد أعدائه تعدل نشوته وهو ينثر الدراهم فوق رأس العروس والأحباب في مهرجان الفرح وفي حفل الزفاف فالتشبيه هنا وفي سياقه أتى متوافقا مع الإحساس بالغبطة والفرح في هذا الموقف ولا يمكن تجاهل الموقف بما يعكسه من هذه الحالة النفسية التي تجعل القائد المنتصر يفرح بتقتيل أعدائه، وينتشي كما يفرح وينتشي في مواطن الأفراح والمسرات ولا يمكن تجاهل هذا حتى لا يكون هناك انفصال في الشعور وعدم توافق من خلال التناقض والإحساس بالنفرة من خلال تشبيه جثث القتلى وهي مقطعة ومفرقة وموزعة على غير ترتيب بالدراهم المنثورة فوق رأس العروس.

ومما جاء على هذا النحو ما تجده في قول الله تعالى: ﴿ وَقَطَّعْنَهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمْ أَصْلَحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَكَلَوْنَهُمْ بِالْحَسَنَةِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (الأعراف: ١٦٨)، بيان لما عليه اليهود حيث قطعهم في الأرض أمما فنفروا في كل البلاد، وتوزعوا في جميع الأوطان، لا يحتويهم وطن واحد كبقية الشعوب، وإنما هم مبعثرون في الأرض، موزعون في كل شتات والتقطيع إنما يكون لإزالة التماسك، والاتصال من الثوب وغيره والقطع حين يطلق إنما يكون لإزالة التماسك، والاتصال من الأشياء التي تلتصق أجزاؤها وهذه الأشياء المتماسكة إنما يقال فيها التفريق فيقال في القوام تفرقوا وتوزعوا وقد استعير التقطيع للتفريق والتقطيع والتفريق من جنس واحد فالاستعارة قريبة يقول الإمام عبد القاهر: «إن القطع إذا أطلق فهو لإزالة الاتصال من الأجسام التي تلتزق أجزاؤها، وإذا جاء في تفريق الجماعة، وإبعاد بعضهم عن بعض كقوله تعالى: ﴿ وَقَطَّعْنَهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ﴾ (الأعراف: ١٦٨) كان شبه الاستعارة وإن كان المعنى في الموضعين على



الصورة البيانية ————— دراستي مسائل عليّ البيان ————— ❁

إزالة الاجتماع ونفيه فإن قلت : قطع عليه كلامه أو قلت نقطع الوقت بكذا كان نوعاً آخر^(١) وهذه الاستعارة التي تشبه الحقيقة أو هي شبه الاستعارة على حد تسمية الإمام لها تخصب المعنى وتزيده ثراءً ، وتضيف إليه قوة على نحو لا تجده في أسلوب الحقيقة لو قيل : وفرقناهم في الأرض أمما ، لأن التقطيع في النص الكريم يشير إلى قوة الصلات ، ووثاقة الروابط ، والشائج ، واللحمة التي كانت قائمة ، ومحقة بينهم ، إذ كانوا في مكان واحد ، وعلى أرض واحدة فكانوا كالشيء المتماسك الذي هو أشبه ما يكون باللحمة كما في الثوب أو ما يكون على هذا النحو وقوله : «قطعناهم» تمزيق لتلك الروابط ، وتشتيت لهذا الجمع ، وإزالة لما بينهم من وشائج وصلات تربط كل فرد بالآخر ، والتي تجمع بين صاحب وصاحبه ، والأب وبنيه ، والأخ وأخيه على نحو يتعذر وجوده بنفس القدر لو قيل بدلا من «قطعناهم» فرقناهم .

ومما جاء على هذا الحد من تقطيع ما كان موصولاً من روابط النفوس ، ومما كان يجمعها من كل الروابط والشائج ، والصلات والقربات ما تجده في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُم مَّا خَوَّلْنَكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَؤُا ۚ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ (الأنعام: ٩٤) ، ففي هذا اليوم وهو اليوم الحق يجيئون فرادى منفردين لا شيء معهم لا أموال ، ولا أولاد ، ولا عشيرة ولا أعوان ، ولا أنصار ، ولا جاه ولا سلطان ، ولا غير ذلك مما كانوا يستعزون به ويستطيّلون لقد تبخر كل شيء وضاع ، وتقطعت الصلات ، وتمزقت الروابط والشائج والاستئناف في قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ﴾ (الأنعام: ٩٤) تهية لتجسيد هذا : «لقد تقطع بينكم» لقد وقع التقطع بينكم وتقطع ما كان بينكم من وصل ، وزوال ما كان بينكم من صلات ولحمة ولم يبق اتصال بينكم وبين ما كنتم تزعمون ، وقال الشريف

(١) أسرار البلاغة ص ٦٠ .

❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

الرضي : « وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ﴾ (الأنعام: ٩٤) على قراءة من قرأ برفع النون من بينكم وهذه استعارة لأنه لا فصائل هناك على الحقيقة فتوصف بالتقطيع ، وإنما المراد لقد زال ما كان بينكم من شبكة المودة ، وعلاقة الألفة التي تشبه لاستحكامها بالحبال المحصدة ، والقرائن المؤكدة »^(١).

ومن هذا النوع من الاستعارة الذي يرى فيه معنى الكلمة المستعارة موجودا في المستعار له ما تجده في قوله تعالى : ﴿ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ (سبأ: ١٩). ويقول الإمام عبد القاهر ومن هذا الضرب قوله تعالى : « ومزقناهم كل ممزق » يعد استعارة من حيث إنه تفريق على كل حال وليس بجنس غيره إلا أنهم خصوا ما كان مثل الثوب بالتمزيق ، كما خصوه بالخرق ، وإلا فأنت تعلم أن تمزيق الثوب تفريق بعضه عن بعض^(٢) وهنا شبه التفريق بالتمزيق بجامع عدم الاتصال في كل ، وحذف المشبه وتنوسي التشبيه ، وادعى أن المشبه فرد من أفراد المشبه به وداخل في جنسه واشتق من التمزيق بمعنى التفريق مزق بمعنى فرق على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية وإنما استعير التمزيق للتفريق ليشير إلى أن هذا التفريق نوع لكل فرقة من هذه الجماعة مع التطويح بها إلى مكان بعيد كما تنزع قطعة اللحم من الجسد ، ليشير بذلك إلى المعاناة الضخمة التي عاشها هؤلاء بعد أن تفرقوا في كل مكان ، وأزيل ما كان بينهم من اتصال .

ومن هذا الضرب من الاستعارة ما تجده في قول الله تعالى : ﴿ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ (المؤمنون: ٥٣) ، « وزبرا » أي قطعاً جمع زبور بمعنى فرقة وجماعة « وتقطعوا » أي تفرقوا في أمرهم ، وتحزب القوم بمعنى تجمعوا وصاروا أحزاباً « والحزب » الجماعة من الناس

(١) تلخيص البيان في مجازات القرآن ص ٦٣ .

(٢) أسرار البلاغة ص ٥٩ ، ٦٠ .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ الْبَيَانِ ————— ❁

تشاكت قلوبهم ، وجمعهم الاتجاه إلى هدف واحد وإن لم يلق بعضهم بعضا والآية ترد في سياق حافل بالتوبيخ ينكر على الناس هذا التقطيع والتمزق الذي بينهم وكان الأولى بهم أن يكون أمرهم واحدا ، لأنهم إخوة أبناء لرجل واحد وامرأة واحدة ، لكنهم تنكبوا الطريق فتنازعوا أمرهم بينهم ، وتقطعوا قطعا ، لذا يصور هذا التنازع والتخاصم في صورة حسية حين يبين أنهم تنازعوا أمرهم حتى تمزقوا مزقا ، وتقطعوا قطعا ، وذهب كل فريق في اتجاه بعيداً عن الآخر متوهما أنه نال الخير كله ، وهو لم يحصد سوى الخيبة والتشتت والضياع وفي قوله سبحانه : « تقطعوا » بدلا من قطعوا كما يقتضيه ، وتمزقوا وتصارعوا ، وتفرقوا فأوقعوا الضرر بأنفسهم ، لا أن الأمر هو الذي تقطع وفي قوله تعالى « تقطعوا » استعارة شبه تفريق الجماعة بالتقطيع بجامع إزالة الوحدة والاجتماع في كل وحذف المشبه وتنوسى التشبيه وادعى أن المشبه فرد من أفراد المشبه به وداخل في جنسه واشتق من التقطيع بمعنى التفريق تقطع بمعنى تفرق على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية ولا يخفى أن الجامع وهو إزالة الاجتماع داخل في مفهوم التقطيع ، وداخل أيضا في تفريق الجماعة ومن الواضح أن إزالة الاجتماع في التقطيع أقوى وأشد كما هو شرط الجامع . ومن هذه الاستعارة ما تراه في هذه الصورة التي يرسمها ذو الرمة لحركة كلاب الصيد في مطاربتها النشطة والطويلة للثور فأخذت تدور حول نفسها فتقل هذه الحركة الدائرية الجادة للكلاب في الأرض إلى التدويم الذي يستعمل لتحليق الطير في الهواء حيث يقول :

حتى إذا دومت في الأرض راجعة كبر ولو شاء نجى نفسه الهرب

فهو يشبه الحركة السريعة والدائرية لكلاب الصيد في مطاربتها المتحفزة والطويلة للثور ، ودورانها حول نفسها بتدويم الطير وتحليقه في جو السماء فانتقال الكلمة من حركة الطير إلى حركة كلاب الصيد ليس انتقالا يباعده بين

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

ما انتقلت منه الكلمة وبين ما انتقلت إليه ولكنه انتقال بالكلمة إلى ما هو من جنسها بحيث ظلت الكلمة في دائرتها لم تبرح هذه الدائرة ولم تتجاوزها ، وأبرزت حركة الكلاب على النحو الذي أحس به ذو الرمة ولذا فإنني أرى أنه لا وجه لنقد الأصمعي الذي قال تعقيبا على البيت المذكور « الفصحاء لا يقولون دوم في الأرض ، وإنما يقولون : دوم في الهواء إذا حلق ، ودوي في الأرض إذا ذهب »^(١). لكن إذا تأكد لدينا أن ذا الرمة إنما يصور الحركة السريعة والنشطة لكلاب الصيد في دورانها حتى كأنها ليست كلابا تتحرك في الأرض وتدور فيها وإنما كانت تدوم في السماء ومن أجل هذا أثر التعبير بدوم « فهو بفصاحته » وسليقته اللغوية الموروثة لم يكن ليجهل معنى التدويم ولكنه تعمد تطويع هذه المادة ليشكل منها القالب الذي يريد أن يجسم فكرته فما من شك في أنه يعرف أن التدويم إنما يكون للطير ولكنه يريد أن يجعل حركة الكلاب في هذه المرحلة الحاسمة من مراحل الصراع بينها وبين الثور تدويما كتدويم الطير في الهواء »^(٢).

ومن هذا الضرب من الاستعارة مما كان الجامع فيها داخلا في مفهوم الطرفين ما جاء في الخبر : « خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه كلما سمع هيعة طار إليها » والهيعة : الصيحة يفزع منها من هاع يهيع إذا جبن والعنان : بكسر العين اللجام وقوله : « طار إليها » أي عدا إليها فشبه العدو الذي هو قطع المسافة بسرعة في الأرض بالطيران الذي هو قطع المسافة بسرعة في الهواء واستعار اسم المشبه به للمشبه واشتق من الطيران طار بمعنى عدا والجامع قطع المسافة بسرعة وهو داخل في مفهوم كل من المستعار له وهو العدو والمستعار منه وهو الطيران لأنه جنس لكل منهما فالجامع بين العدو والطيران داخل في

(١) الموازنة ، بتحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد، ص ٣٩ .

(٢) ذو الرمة شاعر الحب والصحراء ص ٣٥٥ دار المعارف بمصر .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ❁

مفهوم كل منهما ، هذا ومع أن الطيران أسرع من العدو إلا أن هذه الاستعارة قريبة من الحقيقية ومع أنها كذلك إلا أنها أبانت عن الغرض من النص الشريف وهو الإسراع في تلبية داعي الله إلى الجهاد في سبيله ولأن ذلك يلزمه تهيؤ واستعداد ، ترى من وسائل الصياغة وأدواتها وحين تنعم النظر في الخبر الكريم ترى هذا يطل عليك من خلال هذا المجاهد الممسك بعنان فرسه كناية عن الاستعداد الكامل بعد إعداد نفسه ليكون في الطليعة ملبيا نداء ربه ، فإمساكه باللجام إشارة إلى ترقبه وانتظاره لسماع هيعة الحرب وصيحتها حتى يندفع مسرعا إلى ميادينها استجابة لأمر ربه في غبطة ، وفرح ، وحبور . وانظر إلى ما تشير إليه كلمة « كلما » وما وراءها من سرعة الاستجابة التي توثق تأهبه ، وترقبه ، ويقظته وكأنها تقوية للمعنى ، وتأکید له في قوله « ممسك بعنان فرسه » فيكون ذلك كله توطئه وتمهيدا للاستعارة في كلمة « طار » التي ترسم صورة واضحة القسمات والملامح لمجاهد يندفع مسرعا إلى مواطن الجهاد ، ويطير إليها تلبية واستجابة لأمر ربه .

ومن هذا الوادي مع فقد التوطئة والتمهيد قول مضر بن ربيعة الأسدي :
فَطَرْتُ بِمِنْصُلِي فِي يَعْمَلَاتٍ دَوَامِي الْأَيْدِ يَخْبُطُنَ السَّرِيحَا
و« المنصل » السيف و« يعملات » جمع يعمل بالفتح وهي الناقة القوية على العمل و« دوامي الأيد » دميت أيديها من شدة السير والعمل ، ووطئها الحجارة و« السريح » جمع « سريحة » وهي خرق تلف على أيدي الإبل إذا دميت وأصابها الوجع

والمعنى يقول إنه إذا زاره ضيف أسرع إلى سيفه فوضعه في نحور النوق فيسيل الدم على أيديها وتضرب بأيديها القيود المربوطة بها من ألم الجراح والنزع .



❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

ومن هذا النوع أيضا قول امرأة من بني الحارث بن كعب ترثي بعض من يخلصها :

لَوْ شِئَا طَارَ بِهِ ذُو مَيْعَةٍ لَأَحِقُّ الْأَطَالَ نَهْدٌ ذُو خُصَلٍ

و«الميعة» أول جري الفرس و«ولاحق» ضامر و«الآطال» جمع إطل بكسر الهمزة : الخصر و«النهد» المرتفع الجسم و«حصل» الشعر المتجمع والمعنى تقول : إنه كان فارساً ، يجيد الكر على الأعداء فلو أراد الغزو طار به جواد نشيط ضامر الخاصرتين مرتفع الجسم ، حسن الشكل ، مجتمع الشعر ففي هذين البيتين استعير الطيران وهو قطع المسافة بسرعة على الأرض بجامع قطع المسافة بسرعة في كل وهذا الجامع داخل في مفهوم الطرفين وهو في الطيران أقوى منه في العدو ولذلك استعير .

وسمى الإمام عبد القاهر هذا الضرب بأنه الاستعارة القريبة من الحقيقة لأن الكلمة لم تخرج عن جنس معناها أو تبرحه وتتجاوزها ، وإنما استعيرت الكلمة لما هو من جنسها مما يدور في محيطها ولا يبعد عنه فهي لم تنتقل من معنى إلى معنى بعيد ، وإنما انتقلت من معناها إلى معنى قريب منه فهي في نفس الدائرة لم تخرج عنها ، ولم تتجاوزها وإنما استعيرت الكلمة القوية في أداء المعنى إلى ما هو أضعف منها وأقل قوة على نحو ما استعير الطيران وهو قطع مسافة في الهواء للعدو وهو أهل في قطع المسافة بسرعة من الطيران والانتقال في الكلمة من معناها الدلالي إلى معنى قريب منه من السهل اليسير الذي لا يحتاج إلى شدة انفعال أو تحليق خيال ؛ لأن الكلمة إنما تتحرك من خلال هذا الانتقال حركة يسيرة محدودة في نفس المحيط والدائرة ، وهي وإن اكتسبت دلالة جديدة إلا أن اكتسابها لتلك الدلالة جاء بطريق غير مثير ولا لافت مما عدت بسببه استعارة قريبة من الحقيقة على نحو ما قال الإمام عبد القاهر .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَةٌ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ❁

ومن ذلك قول البحري :

يتراكمون في الأسِنَّةِ في الوغى كالفجر فاض على نجو الغَيْهَبِ

يقول الإمام عبد القاهر : « إن فاض موضوع لحركة الماء على وجه مخصوص وذلك أن يفارق مكانه دفعة فينبسط ثم إنه استعير للفجر لأن للفجر انبساطا وحالة شبيهة بانبساط الماء وحركته في فيضه »^(١). فالفيض في قوله « فاض » موضوع لحركة الماء حين يفارق مكانه فينبسط ويمتد في الحيز الذي يحيط به وللفجر في نظر العين حركة شبيهة بذلك فإن ضوءه ينبثق من مكانه ثم يتسع وينبسط على جوانب الأفق فالشبه بين الفجر والماء الذي يفيض ، هو الانبساط والاتساع وهو داخل في حقيقة الطرفين والاستعارة تبعية في الفعل إذ شبه منه فاض بمعنى انبسط .

هذا وقد يكون للكلمة مدلول حقيقي واسع ولكن العرف أتى إلى هذه الدلالة الواسعة فخصصها في جانب من المعنى وجزء حتى ترى وكأنها قد صارت مجازاً فيما هي حقيقة فيه على خلاف ما تكون الكلمة حقيقة فيه ، وكأن دلالة الكلمة تنكمش وتختصر وتتضاءل . خذ كلمة « المعدم » فإنها على حد ما يقول الإمام : موضوعة لمن عدم ما يحتاج إليه كأن يكون أعدم من المال أو من أي شيء آخر كالكبد ، أو الراحة أو أعدم من الملبس إلا أن العرف خصص كلمة « معدم » بما جنسه جنس المال وحين تقرأ قول المتنبي :

إِنْ كَانَ أَغْنَاهَا السُّلُوفُ فَإِنِّي أَمْسَيْتُ مِنْ كَبْدِي وَمِنْهَا مُعْدِمًا

تجد الإمام عبد القاهر وهو يبين ذلك بعد أن حدد مفهوم « المعدم » ودلالته الحقيقية بأنه الذي عدم ما يحتاج إليه كالكبد وكذلك المحبوبة يقول : « وكذلك المحبوبة فإنما تقع هذه العبارة في نفسك موقع الغريب من حيث إن العرق جرى في « الإعدام » بأن يطلق على من عدم ما جنسه جنس المال ،

(١) أسرار البلاغة ص ٥٧ .

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

ويؤنسك بما قلت إنك لو قلت : « عدم كبده » لم يكن مجازاً ، ولم تجد بينه وبين « خلا من كبده » و « زالت عنه كبده » كبير فرق ألا تراك تقول : الفرس عادم للطحال - تريد - ليس له طحال وهذا كلام لا استعارة فيه كما أنك لو قلت - الطحال معدوم في الفرس - كان كذلك^(١) وعلى أساس عد بيت المتنبي من الاستعارة القريبة من المال ، وخلو يده منه بإعدامه إياها بجامع مطلق فقد وإعدام واستعار إعدامه منها لإعدامه من المال وهي استعارة لأنها قريبة من الحقيقية .

وعلى هذا النحو تجد كلمة « الإثراء » إذ تراها تقع حقيقة في قولك : أثرى من المال ، وأثرى من المجد - فإذا قلت أثرى من الشوق فإنه يكون على حد قول الشاعر :

قد وقفنا على الديار وفي الركب حريب من الغرام ومثرى^(٢)

وفي ذلك يقول الإمام عبد القاهر : « فهو كقولك : كثر شوقه ، وحزمه ، وغرامه وإذا كان كذلك فهو في أنه نقل إلى شيء جنسه جنس الذي هو حقيقة فيه بمنزلة طار أو أظهر أمراً منه »^(٣) . فالاستعارة هنا قريبة من الحقيقة إذ يكون قد شبه الذي سلب ماله في الحرب بالإنسان الذي لا يوجد عنده غرام بجامع مطلق فقد في كل واستعير المشبه به للمشبه .

وعلى نحو ما رأيت ترى المسافة بين معاني الكلمات تدق وتكاد تختفي بحيث يشبه عليك الأمر حتى تعد الكلمة مجازاً وهي من الحقيقة أو حقيقة وهي من المجاز .

القسم الثاني : الاستعارة التي يكون الجامع فيها وصفاً خارجاً عن حقيقة الطرفين وهو كما يقول الإمام عبد القاهر فيه : « ضرب ثان يشبه هذا الضرب

(١) أسرار البلاغة ص ٦١ .

(٢) حريب بمعنى المسلوب ماله في الحرب .

(٣) انظر أسرار البلاغة ص ٦٠ ، ٦١ .

الصورة البيانية ————— دراستُ في مسانيد البيان ————— ❁

الذي مضى ، وإن لم يكن إياه وذلك أن يكون الشبه مأخوذاً من صفة هي موجودة في كل واحد من الطرفين المستعار له والمستعار منه على الحقيقة وذلك قولك : رأيت شمسا - تريد إنسانا يتهلل وجهه كالشمس فهذا له شبه باستعارة - طار - لغير ذي الجناح وذلك أن الشبه مراعى في التلألؤ ، وهو كما تعلم موجود في نفس الإنسان المتهلل ؛ لأن رونق الوجه الحسن من حيث حسّ البصر مجانس لضوء الأجسام النيرة^(١) ، وتقول : ضمت الأم زهرتها إلى صدرها حين بكت تريد طفلتها والجامع بين الزهرة والطفلة وصف خارج عن حقيقة الطرفين وهو - النضرة - .

ويفرق الإمام بين الطرفين الأول والثاني فيقول : « إن الفرق بين هذا وبين الأول أن الاشتراك هنا في صفة توجد في جنسين مختلفين ، مثل أن جنس الإنسان غير جنس الشمس ... وليس كذلك الطيران فإنهما جنس واحد بلا شبهة ، وكلاهما مرور وقطع للمسافة وإنما يقع الاختلاف بالسرعة وحقيقة السرعة قلة تخلل السكون للحركات وذلك لا يوجب اختلافا في الجنس »^(٢) .

الاستعارة العامة والخاصية

ومرد ذلك ومعياره راجع إلى وجه الشبه وما يبذل من فكر للوصول إليه وإدراكه فإن كان الوصول إلى وجه الشبه سهلا ميسورا في تناول العامة ، لا يعز عليهم ، ولا يغيب عنهم أو يحتجب كانت الاستعارة عامة مبتذلة كما يمثل لها الإمام عبد القاهر بنحو : رأيت أسدا ووردت بحرا ، ولقيت بدرا فاستعارة الأسد للرجل الشجاع ، والبحر للجواد والبدر للجميل كل هذه الأمثلة

(١) أسرار البلاغة ص ٦٢ ، ٦٣ .

(٢) أسرار البلاغة ص ٦٣ .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ﴾

وما جاء على شاكلتها استعارة عامية إلا إذا تدخلت فيها مهارة الأديب بصنعة ترفع من شأنها ، وتعلو من قدرها فتنتقلها من العامي السهل المبتذل إلى الخاصي النادر والبديع الجميل وسميت الاستعارة العامية عامية لإدراك الناس لها ويصبح منهم استعمالها فعامية نسبة للعامية وهي المبتذلة لامتهانها بتناول كل أحد لها إذا أريدت وذلك لظهور الجامع بين الطرفين فيها

الاستعارة الخاصة :

والاستعارة الخاصة الغربية هي ما كان الجامع فيها دقيقا وهي لا توجد إلا في كلام الفحول ، ولا يقوى عليها على حد تعبير الإمام عبد القاهر إلا أفراد الرجال كقول الشاعر :

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطيِّ الأباطح

« أراد أنها سارت سيرا حثيثا في غاية السرعة ، وكانت سريعة في لين وسلامة حتى كأنها سيولا وقعت في تلك الأباطح فجرت بها »

ومن بديع هذه الاستعارة ونادرها قول يزيد بن مسلمة بن عبد الملك يصف فرساً له بأنه مؤدب ، وأنه إذا نزل عنه ، وألقى عنانه في قربوس سرجه وقف مكانه إلى أن يعود إليه .

عَوْدُئُهُ فِيمَا أَزُورُ حَبَائِي إِهْمَالُهُ ، وَكَذَلِكَ كُلِّ مَخَاطِرِ

وَإِذَا احْتَبَى قَرْبُوسَهُ بَعْنَانَهُ عَلَكَ الشَّكِيمُ إِلَى انْصِرَافِ الزَّائِرِ^(١)

ومحل الصورة التي هي موضع الشاهد قوله - احتبى قربوسه بعنانه - الاحتباء وهو أن يشد الرجل ركبتيه إلى بطنه بنحو ثوب يمتد من جانبيه إلى ظهره والقربوس بفتح القاف والراء مقدم السرج وهو المراد ويحتمل أن يكون فاعل احتبى بتنزيله منزلة الرجل المحتبى فكأن - القربوس - ضم الفرس

(١) القربوس : هو مُقَدِّمُ سرج الفرس . والشكيم : الحديد في اللجام توضع في فم الفرس .

الصورة البيانية ————— دراستي مسأله البيان ————— ❁

ورأسه إليه - بالعنان كما يضم المحتبى ركبتيه إليه بنحو ثوب ، ويحتمل أن يكون قربوسه مفعول احتبى مضمنا معنى جمع ويكون الفاعل ضميرا عائدا على الفرس والمعنى جمع هذا الفرس قربوسه إليه بعناية كما يضم المحتبى ركبتيه إليه بثوب ونحوه والتشبيه على الاحتمال الثاني أتم وأدخل في تحقيق التشابه ؛ لأن القربوس في الهيئة أعلى من فم الفرس وهذه الحالة التي تنطبق على حالة الاحتباء إذ أن ركبتى المحتبى تكونان في الهيئة أعلى من ظهره ^(١) ، وقد شبه ضم اللجام مقدم السرج إلى فم الفرس بالاحتباء الذي هو ضم الركبتين إلى البطن بثوب أو غيره بجامع هيئة انضمام شيئين بواسطة شيء آخر أحدهما أعلى والآخر أسفل .

ومن هذا النوع من الاستعارة الخاصي النادر التي تحتاج إلى تأمل وفكر قول الشاعر :

اليوم يومان مذ عُيِّتَ عن بَصَرِي نفسي فداؤك ما ذنبي فأعذر ؟
أُمْسِي وَأَصْبَحُ لَا أَلْقَاكَ وَاحْزَنَا لقد تَأَقَّقَ فِي مَكْرُوهِ الْقَدَرُ

فهذا الحب الذي يقاس من هجر حبيبه له من غير سبب ، وبدون مقدمات فيتجرع كأس الهجر مترعة بالعلقم والصاب لقد تغير كل شيء في حياته وتبدل وتحول فلا الليل هو الليل ، ولا النهار هو النهار . لقد تجمد الزمن في حياته وأصبح يومه غير اليوم المعهود في دنيا الناس ، وكأنه يوم خاص به صيغ له ومن أجله فهو طويل طويل وممتد إنه يومان وليس يوما واحدا بعد أن غابت عن بصره ولذا فهو يتمنى لو يفتديها بوجوده وحياته ليعرف ما أغضبها ، وما جنت يدها فيسأل عن ذنبه الذي لا يعرفه حتى يعتذر عنه ، ويصلح ما أفسده ولكن حسرته تتضاعف حين يقف على الحقيقة المرة في أنه أصبح لا يراها فيزفر زفرة حارة ويصرح واحزنا وينشج نشيجا مرا يندب معه سوء

(١) انظر حاشية الدسوقي ، ضمن شروح التلخيص ٦٧/٤ ، ٦٨ .

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

الحظ الذي يلزمه والذي أتى نتيجة لمكيدة نسج خيوطها القدر تأنق في مكروهى القدر والاستعارة في كلمة «تأنق» يكسبها السياق الذي وردت فيه جمالا وحسنا فتصبح من الخاصي الغريب وإجراء الاستعارة على أساس حرمان الشاعر من حبيبه فيقال فيها : شبه الشاعر حرمانه من حبيبه ، واختيار القدر هو الحرمان بالذات من أشياء كثيرة كان يمكن أن يحرم منها أو يختبر فيها بالتأنق وهو التريث في الاختيار حتى يقع موقعه بإتقان وتناسى التشبيه وادعى أن المشبه فرد من أفراد المشبه به وداخل في جنسه ثم استعار المشبه به للمشبه ثم اشتق من التأنق تأنق بمعنى حرم على سبيل التصريحية التبعية وكانت هذه الاستعارة من الخاصي النادر لبعد المسافة بين طرفيها

ومما ذكره الإمام عبد القاهر للاستعارة الخاصة قول سوار بن المضرب
بَعْرَضٍ تَنُوفَةٍ لِلرَّيْحِ فِيهَا نَسِيمٌ لَا يَرُوعُ التَّرْبَ وَأَنْ^(١)

فهو يتحدث عن رقة النسيم في هذه الصحراء الواسعة ولقد استعار الشاعر الترويع - وهو الإخافة والإفزاع - لإثارة الريح التراب - بعد تشبيه إثارة التراب بالإفزاع والإخافة بجامع الحركة الهوجاء في كل - وقد دق وجه الشبه لأن الإفزاع والإضافة بعيدة الحضور في الذهن عند حضور إثارة التراب فكان الجمع بينهما غريبا لبعد ما بينهما .

وقال ابن المعتز :

يُنَاجِبُنِي الْإِخْلَافُ مِنْ تَحْتِ مَطْلِهِ فَتُخْصِمُ الْأَمَالَ وَالْيَأْسُ فِي صَدْرِي

فقد استعار المناجاة وهي الأسرار بالحديث لدلالة الإخلاف الخفية على حرمانه من الوصل بجامع عقلي هو الخفاء في كل ومعروف أن الجامع العقلي يعد خفيا بالنسبة للحس وإنما لطف الاستعارة ، وزاد جمالها من كون الإخلاف مستترا تحت المطل لا يلوح إلا من وراء ستار كما استعار الاختصام

(١) التنوفة الصحراء الواسعة - يروعُ التراب يخيفه ويفزعه ، وإن - متعب مجهد .

الصورة البيانية ————— دراستي مسائل علي البيان ————— ❁

لحلول الأمل في صدره مرة واليأس مرة أخرى كأنهما يتنازعان مكانا واحدا بجامع مطلق التدافع بين شيئين متعارضين وفي الجامع خفاء ودقة على أنه يصح أن تكون الاستعارة هنا مكنية بتشبيه الإخلاف بإنسان يتحدث من وراء ستار ، والأمل واليأس بمتخاصمين يتنازعان مكانا واحدا للإقامة فيه

ومن الاستعارة الخاصة ما عدها الإمام عبد القاهر في غاية الحسن ومن الفن الأول قول الشاعر :

لَقَدْ كُنْتَ فِي قَوْمٍ عَلَيْكَ أَشْحَةٌ بِنَفْسِكَ إِلَّا أَنْ مَا طَاحَ طَاحُ
يَوْدُونَ لَوْ خَاطُوا عَلَيْكَ جُلُودَهُمْ وَلَا تَدْفَعُ الْمَوْتَ النَفُوسَ الشَّحَاحُ

فالاستعارة قد تحققت من استعارة قوله - خاطوا - لحافظوا فشبه حفظهم له بخياطة جلودهم عليه بجامع مطلق الحرص عليه ، وعدم الاستغناء عنه واشتق من الخياطة خاط بمعنى حافظ على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية وهو تصوير يبين إلى أي مدى يحرصون على حياته ، وعلى بقائه حيا بينهم ولكن القدر له الكلمة العليا التي ليس لتعويقها من سبيل ولا يغني الحذر من مشيئة القدر ومما لاشك أن الاستعارة غريبة لغرابة وجه الشبه .

أما ما ترفعه الصنعة ، وتعلو به المهارة الجمع بين عدة استعارات قصدا كما قال الإمام عبد القاهر - إلى أن يلحق الشكل بالشكل ، وأن يتم المعنى والشبه فيما يريد على حد قول امرئ القيس :

فَقُلْتُ لَهُ لِمَا تَمْطِي بِصُلْبِهِ وَأُردِفَ أعْجَازًا ونَاءً بَكَلْكَلٍ

ويقول الإمام عبد القاهر : « ولما جعل لليل صلبا قد تمطي به ، ثنى ذلك فجعل له أعجازا قد أردف بها الصلب ، وثلت فجعل له كلكلاً قد ناء به ، فاستوفى له جملة أركان الشخص ، وراعى ما يراه الناظر من سواده إذا نظر قدامه ، وإذا نظر إلى خلفه ، وإذا رفع البصر ومدّه في عرض الجو »^(١) فالشاعر

(١) دلائل الإعجاز ص ٧٩

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

الذي يئن ويتوجع من تألق الهموم له ، ووحشتها عليه في ليله الطويل الثقيل تراه يخاطب الليل خطابا تتجاوب فيه أصداء الأسى في نفسه من هذا الليل الذي احتشدت عليه فيه كل الهموم والذي طال وامتد حتى كأنه لا آخر له فصوره في صورة جسم ضخيم طويل الظهر ، ثقیل الصدر ، ممتلئ الأعجاز فاستعار له صلبا يتمطى به ليزداد طولاً ، واستعار لأوله كلكلا - صدرا - ينوء به ، واستعار لآخره أعجازا ثقيلة تبطئ سيره وإنما صارت الاستعارة خاصة غريبة لجمعه بين عدة استعارات في قران واحد ولو أنه توقف عند استعارة واحدة لكانت دانية قريبة ولكن جمعه في البيت لعدة استعارات قوى بعضها بعضا ورسمت صورة مكتملة الملامح لليل امرئ القيس الطويل .

ولئن كان الإمام عبد القاهر قد أتى على الاستعارة هنا فإن قدامة قد عاب هذه الاستعارة وقال بعد أن ذكر البيت « فكأنه أراد أن هذا الليل في تطاوله كالذي يتمطى بصلبه لا أن له صلبا وهذا منخرج لفظة إذا تؤمل » ^(١).

هذا وإذا كان قدامة قد عاب الاستعارة في بيت امرئ القيس فقد أثنى عليها ولام من عابها فقال الآمدي بعد ذكره للبيت « وقد عاب امرأ القيس بهذا المعنى من لم يعرف موضوعات المعاني ولا المجازات وهو في غاية الحسن والجودة والصحة وهو إنما قصد وصف أجزاء الليل الطويل... فلما جعل له وسطا يمتد ، وأعجاز أردافه للوسط ، وصدرا متثاقلا في نهوضه حسن أن يستعير للوسط اسم الصلب ، وجعله متمطيا من أجل امتداده ؛ لأن تمطى وتمدد بمنزلة واحدة ، وصلاح أن يستعير للصدر اسم الكلكل من أجل نهوضه وهذه أقرب الاستعارات من الحقيقة ، وأسد لمعناها لما استعيرت له » ^(٢).

ومع إشادة الآمدي بالاستعارة في بيت امرئ القيس السابق يجيء ابن سنان الخفاجي ليرفض هذه الإشادة - مع تقديره للآمدي واعترافه بفضله - وحكم

(١) نقد الشعر لقدامة ، بتحقيق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي ، ص ١٧٥ .

(٢) الموازنة للآمدي ، بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، ص ٢١٤ .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ الْبَيَانِ ————— ❁

على الاستعارة في البيت السابق بأنها من الوسط فليست من الجيد المختار ، ولا من الرديء المستبعد والذي ألجأه إلى هذا الحكم المقياس الذي وضعه للحكم بجودة الاستعارة وهو ألا تكون الاستعارة مبنية على استعارة أخرى وبيت امرئ القيس الاستعارة فيه من هذا القبيل يقول ابن سنان : « وإنما قلت ذلك لأن أبا القاسم - يقصد الآمدي - قد أفصح بأن امرأ القيس لما جعل لليل وسطا وعجزا استعار له اسم الصلب ، وجعله متمطيا من أجل امتداده ، وذكر الكلكل من أجل نهوضه فكان هذا إنما يحسن بعضه لأجل بعض فذكر الصلب إنما حسن لأجل العجز ، والوسط والتمطي لأجل الصلب ، والكلكل لمجموع ذلك وهذه الاستعارة المبنية على غيرها فلذلك لم أر أن أجعلها من أبلغ الاستعارات وأجدرها بالحمد والوصف » ^(١).

هذا وقد فاضل ابن سنان بين بيت امرئ القيس ، السابق وبين بيت طفيل الغنوي في قوله :

وجعلت كُورى فوق ناجية يَقتات شحم سنامها الرّحل ^(٢)

وفضل بيت طفيل على أساس أن الاستعارة فيه غير مبنية على استعارة أخرى بخلاف الاستعارة في بيت امرئ القيس وعد الاستعارة في بيت طفيل من الاستعارات المرضية عند جماعة العلماء بالشعر وشرح الاستعارة بقوله : « لأن الشحم لما كان من الأشياء التي تقتات ، وكان الرّحل يتخونه ويذيبه كان ذلك بمنزلة من يقتاته ، وحسنت استعارته القوت للقرب والمناسبة والشبه الواضح » ^(٣) وقد حسن هذه الاستعارة أن الشحم نفسه مما يقتات ، ولذا يخيل إليك قبل أن تصل إلى نهاية البيت أن الاقتيات حقيقة وليس مجازا فإذا وصلت

(١) أسرار الفصاحة ص ١٢٣ .

(٢) الكور : رحل البعير ، والناجية : الناقة السريعة .

(٣) سر الفصاحة ص ١٢١ .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ﴾

إلى آخر البيت تبين لك ما لم تكن تتوقع وفاجأتك الاستعارة التي لم تكن تضعها في اعتبارك والاستعارة في هذا البيت تقوم من خلال تشبيه إذهاب الرحل شحم السنام من كثرة الاحتكاك به بالاختيالات وهو أكل الطعام بالفم بجامع إزالة الأثر شيئاً فشيئاً مع طول الوقت وحين تنظر في هذا الجامع تلاحظ أن فيه تفصيلاً ظاهراً ؛ لأنه لم ينظر إلى مجرد الإزالة بل نظر إليها حاصلة بالتدريج شيئاً فشيئاً ومع تسليمنا بأن الاستعارة في بيت ابن طفيل استعارة حسنة وجميلة لغرابة التشبيه فيها لكننا لا نوافق الخفاجي في تفضيله الاستعارة عند ابن طفيل على الاستعارة في بيت امرئ القيس ؛ لأننا لا يمكننا أن نتجاهل أن الاستعارة عند امرئ القيس قد بنيت على التشبيه الادعائي الذي ينهض ويقوم على أساس تشكيل الخيال لصورة في شكل جديد بعد أن يفرغ عليها حساً معيناً كما فعل امرؤ القيس الذي جعل لليله الطويل الممتد كذلكاً ينوء به ، وصلباً يتمطى ، وأعجازاً تترادف في خلق وإبداع والاستعارات الثلاث من قبيل الاستعارة المكنية فقد شبه في الأولى الليل بحيوان ، وحذف المشبه به ، ورمز إليه بلازمه وهو الصلب وفعل مثل ذلك في الاستعارتين الأخيرتين .

هذا وقد يتصرف في الاستعارة العامية بما يخرجها من الابتدال إلى الغرابة بأن يضم إليها تجوز لطيف اقتضته الحال كما في قول كثير عزة :

ولما قضينا من منى كل حاجةٍ ومسح بالأركان من هو ماسحُ
وشدَّتْ على دهم المهاري رحالنا ولم ينظر الغادي الذي هو رائحُ
أخذنا بأطراف الأحاديث يَتَتَا وسالت بأعناق المطيِّ الأباطحُ

يقول لما فرغنا من أداء مناسك الحج ، وقضينا أيام منى ، واستلمنا الأركان وشددنا الرحال ، ومضى الناس لا ينتظر الغادي منهم الرائح شوقاً للعودة إلى أوطانهم ابتدأنا في الأحاديث آخذين بأطرافها وفنونها ، شأن الرفاق في السفر قد شملتهم الغبطة بعد أن وفقوا في أداء الفريضة في الوقت الذي كانت تسير

الصورة البيانية ————— دراستي مسائل على البيان ————— ❁

فيه في الأباطح سيرا حثيثا وموطن الشاهد الشطر الثاني من البيت الأخير في قوله: (وسالت بأعناق المطي الأباطح) حيث شبه سير المطي في الأباطح سيرا حثيثا في لين وسلاسة بسيلان الماء في هذه الأباطح واستعار سيلان الماء في هذه الأباطح لسير الإبل سيرا حثيثا واشتق منه سالت بمعنى سارت حثيثا في لين وسلاسة والجامع بين الطرفين في الاستعارة هو - قطع المسافة بسرعة - والاستعارة على هذا النحو استعارة عامية لا يتوقف إدراكها على كثير عناء غير أنه تصرف فيها بما جعلها غريبة بحيث لا يدركها إلا الخواص ذلك أنه بعد أن استعار فعل - السيلا - لسير الإبل الحثيث حتى أفاد كأن سيولا جرت في تلك الأباطح أسند الفعل المستعار وهو - سالت - إلى الأباطح دون المطي الذي حقه أن يسند إليه فأفاد هذا الإسناد أن الأباطح امتلأت بالإبل إلى حد يخيل للرائي أن الأباطح هي التي تسيل إذ أن نسبة فعل الحال - وهي المطي - إلى المحل - وهو الأباطح - تشعر بشيوع الحال في المحل وكأن كل محل من هذه الأباطح سائر ، يقول العلامة الدسوقي في إسناد السيل إلى الأباطح : « أفاد ذلك الإسناد أن الأباطح امتلأت من الإبل وذلك لأن نسبة الفعل الذي هو صفة الحال في المحل تشعر بشيوعه في المحل ، وإحاطته ب كله وتوضيح ذلك أن السيلا المستعار للسير حقه أن يسند للمطي التي هي تسير فأسنده الشاعر للأباطح التي هي محل السير فهو من إسناد الفعل لمحلّه إشارة إلى كثرة الإبل ، وأنها ملأت الأباطح لأن نسبة الفعل الذي هو صفة الحال إلى المحل تشعر بشيوع الحال في المحل وإحاطته ب كله فلا يسند الجريان للنهر إلا إذا امتلأ النهر من الماء وكذا لا يقال : سارت الأباطح إلا إذا امتلأت بالسائر فيها لأنه قد جعل كل محل منها سائرا لاشتماله على ما هو سائر فيه فلو كان في الأباطح محل خال من الإبل لصدق عليه أنه غير سائر لعدم اشتماله على ما يسير فيه»^(١).

(١) حاشية الدسوقي ، ضمن شروح التلخيص ، ٩٠/٤ .

❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

وإنما أدخل الأعناق في السير حين جرّها بياء الملابس المقترضة لملابسة الفعل لها لأن السرعة والبطء في سير الإبل - يظهران - غالباً في أعناقها وحينئذ يكون قد أضيف إلى الاستعارة المذكورة مجازان عقليان أحدهما مصرح به وهو إسناد الفعل إلى الأباطح والآخر وعذر وهو إسناده إلى الأعناق ؛ لأن مقتضى الأباطح في سيرها ملابس لأعناق المطي أن تكون الأعناق سائرة فالبيت مشتمل على ثلاثة مجازات أحدها مجاز بالاستعارة والآخران مجازان عقليان فلما أن أضاف إلى الاستعارة هذين المجازين صارت الاستعارة غريبة^(١).

تقسيم الاستعارة باعتبار الطرفين والجامع :

والاستعارة باعتبار حسية الطرفين أو عقليتهما والجامع تنقسم إلى ستة أقسام :

الأول - محسوس لمحسوس والجامع حسي - كقوله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌّ ﴾ (طه: ٨٨) ، فإن المستعار منه ولد البقرة والمستعار له الحيوان الذي صنعه السامري من حلي القبط التي سبكتها نار السامري عند إلقائه فيها فلفظ العجل - وهو موضوع للحيوان المخصوص - استعير للعجل المصنوع من الذهب لاشتراكهما في جامع هو الشكل والصوت ، ومثله قوله تعالى : ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾ (الكهف: ٩٩) ، المستعار منه حركة الماء وجه خاص والمستعار له الحركة والاختلاط الناشئان عن الحيرة والارتباك والجامع بينهما ما يشاهد في كل من الحركة الشديدة والاضطراب والجميع حسي .

الثاني : استعارة محسوس لمحسوس والجامع عقلي كقوله تعالى : ﴿ وَءَايَةٌ لَهُمُ الْيَلُّ إِذْ سَلَخُوا مِنْهُ النَّهَارَ فِإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴾ (يس: ٣٧) . استعير السلخ - وهو

(١) انظر حاشية الدسوقي ٩٠/٤ ، ٩١ .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دُرِّسَتْ فِي مَسَائِدِ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ————— ❁

إزالة الجلد عن الذبيحة ليظهر اللحم لإزالة الله ضوء النهار ليظهر الليل والإزالة في كل حسية والجامع وهو مطلق ترتب كل شيء على شيء عقلي ففي المستعار منه ترتب ظهور اللحم على كشط الجلد وسلخه ففي المستعار له ترتب ظهور ظلمة الليل على إزالة ضوء النهار ومحوه .

الثالث : استعارة محسوس لمحسوس والجامع مختلف - بعضه حسي وبعضه عقلي مثل : رأيت بدرا يتحدث وأنت تريد إنسانا كالبدرا في حسن الطلعة ، ونباهة الشأن والأول حسي والآخر عقلي .

الرابع : استعارة معقول لمعقول والجامع لا يكون إلا عقليا : كقوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ﴾ (يس:٥٢) فالمستعار منه « الرقاد » أي النوم على اعتبار أن « المرقد » مصدر ميمي والمستعار « الموت » استعير الرقاد وهو صيرورة الحي في حالة يفقد معها الإحساس للموت بجامع عدم ظهور الأعمال التي يعتد بها في كل والقرينة المانعة من إرادة الرقاد الحقيقي قولهم بعد الحشر : ﴿ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ (يس:٥٢) وكل من الرقاد والموت وعدم ظهور الأعمال معاني عقلية .

الخامس : استعارة محسوس لمعقول ولا يكون الجامع إلا عقليا كقوله تعالى : ﴿ فَأَصْدَعَ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ (الحجر:٩٤) ، أي بلغ الأمة أمور الدين التي أمرت بتبليغها تبليغا واضحا لا لبس فيه ولا غموض فقد استعير الصدع الحسي - وهو كسر الزجاج - للتبليغ الذي لا ينمحي أثره - وهو عقلي - بجامع قوة التأثير في كل واستعير الصدع للتبليغ والتوضيح واشتق منه فعل الأمر - اصدع - بمعنى بلغ تبليغا لا ينمحي أثره .

السادس : معقول لمحسوس والجامع عقلي كقوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾ (الحاقة:١١) ، فإن المستعار كثرة الماء وهو حسي والمستعار منه التكبر أو التعالي وهو عقلي والجامع بينهما تجاوز الحد وهو

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ —————﴾ دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

عقلي فقد استعير الطغيان وهو التعالي والتكبر لكثرة ماء الطوفان وارتفاعه بجامع تجاوز الحد في كل واشتق منه - طغى - بمعنى زاد وارتفع على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية ^(١).

تقسيم باعتبار اللفظ المستعار :

والاستعارة باعتبار اللفظ المستعار تنقسم إلى قسمين أصلية وتبعية .

فالاستعارة الأصلية : هي ما كان اللفظ المستعار فيها اسم جنس يدل على واحد غير معين من جنسه سواء كان اسم ذات كأسد ، وشمس وبحر أو كان اسم معنى وهو المصادر كالخياطة والسباحة وغير ذلك .

ويدخل في الاستعارة الأصلية أسماء الأعلام التي اشتهرت بصفة معينة وذاعت شهرتها فيها ، لأنها صارت بالتأويل كاسم الجنس فمثال اسم الجنس الحقيقي وهو ما دل على ذات لفظ «أسد» كقولك : رأيت أسداً يحمل مدفعا أي رجلاً جريئاً بأسلاً وشجاعاً وإجراء الاستعارة فيه أن يقال : شبه الرجل الشجاع بالأسد بجامع الجراءة في كل ثم ادعى أن المشبه فرد من أفراد المشبه به وداخل في جنسه ثم استعير المشبه به للمشبه استعارة تصريحية أصلية ، ومثال اسم الجنس وهو اسم معنى - قولك : آلمني قتل زيد أخاه - وأنت تريد من القتل الإذلال له وإجراء الاستعارة هنا أن يقال شبه الإذلال بالقتل بجامع الألم الشديد في كل ثم ادعى أن المشبه وهو الإذلال داخل في جنس القتل وفرد من أفراد واستعير لفظ المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية

ومثال الاستعارة في أسماء الأعلام التي اشتهرت بصفة معينة وصارت بالتأويل اسم جنس لفظ «حاتم» ونحوه من كل علم اشتهر بنوع من الوصف كقولك : « رأيت اليوم حاتماً » تريد رجلاً كريماً فلفظ «حاتم» علم على

(١) انظر في هذا بغية الإيضاح ٣/١٣٠-١٣٤ بتصرف

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دُرُوسٌ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ❁

الذات المعروفة بصفة الجود والكرم ولكن تؤول فيه فجعل اسم جنس موضوعا لكل ذات متصفة بالجود والكرم ومن هنا صح استعارته لكل جواد بادعاء دخوله في جنس حاتم ، واعتباره فردا من أفرادهِ وإجراء الاستعارة أن يقال فيه : شبه فلان الكريم بحاتم بجامع السماحة والجود في كل ثم ادعى أن هذ الكريم أحد أفراد حاتم باعتبار مفهومه الكلي التأويلي ثم استعير اسم المشبه به للمشبه استعارة أصلية وإنما عدت الاستعارة أصلية لأن اللفظ المستعار وهو « حاتم » اسم جنس تأويلا إذ يصدق بهذا التأويل على كل فرد من أفراد الكريم

وسميت الاستعارة الأصلية أصلية نسبة للأصل بمعنى الكثير الغالب والمراد بالكثرة كثرة الأفراد لا كثرة الأنواع ولا شك أن الأصلية وإن كانت لا تجري إلا في نوع واحد إلا أن الموجود في الكلام من أفرادها أكثر من الموجود من أفراد التبعية ... ويحتمل أن أصلية نسبة للأصل أو بمعنى ما ابتنى عليه غيره ولا شك أنها أصل للتبعية لبنائها عليها»^(١).

الاستعارة التبعية وهي ما كان اللفظ المستعار فيها فعلا ، أو اسما مشتقا كاسم الفاعل ، والمفعول ، والصفة المشبهة ، أو حرفا من حروف المعاني كحروف الجر ، والاستفهام ، والترجي ، والتمني والنداء والفعل : وهو ما دل على حدث في زمن وله « مادة » هي حروفه الدالة على الحدث وله « صنعة » هي الهيئة الدالة على الزمان كما في صيغتي الماضي والمضارع - والاستعارة في الفعل باعتبار مادته غيرها باعتبار صيغته فمثال وصف للإنسان لا للحال وإنما توصف الحال بالدلالة شبهت الدلالة الواضحة بالنطق بجامع التوضيح في كل ثم استعير النطق للدلالة واشتق من النطق بهذا المعنى « نطقت » بمعنى دلت على سبيل الاستعارة التبعية ومثال الاستعارة في الفعل باعتبار صيغته ما تراه

(١) حاشية الدسوقي ١١٠/٤ .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ —————﴾ دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

في قوله تعالى : ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ (النحل: ١). فأمر الله لم يأت بعد وإنما سيأتي بدليل قوله : « فلا تستعجلوه » فكان سياق الكلام يقتضي أن يقول : يأتي أمر الله بصيغة المضارع وعبر بالماضي تجوزاً وتجري الاستعارة في هذا بأن يقال شبه الإتيان في المستقبل بالإتيان بالماضي وذلك لتحقيق الوقوع في كل ثم استعير - لفض الإتيان في الماضي - للإتيان في المستقبل ثم اشتق من الإتيان - أتى - بمعنى يأتي على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية وكما استعيرت صيغة الماضي للمستقبل تستعار صيغة المستقبل للماضي كما في قوله تعالى حكاية لقول إبراهيم عليه السلام لابنه اسماعيل : ﴿ قَالَ يَبْنِي لِيَّ أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ﴾ (الصافات: ١٠٢) ، ومن يتأمل النص الكريم يجد أن الرؤية قد وقعت فعلاً قبل أن يخاطب إبراهيم عليه السلام ابنه وكان مقتضى السياق أن يقول : إني رأيت في المنام - لكن عبر بصيغة المضارع بدلاً من الماضي تجوزاً وإجراء الاستعارة في هذا أن يقال : شبهت الرؤية الماضية بالرؤية الحاضرة استحضاراً للصورة العجيبة وهي صورة ذبح إبراهيم عليه السلام لابنه إسماعيل عليه السلام ثم استعير لفظ الرؤية في الحاضر للرؤية الماضية فصارت الرؤية الحاضرة بمعنى الرؤية الماضية واشتق من الرؤية بهذا المعنى - أرى - بمعنى - رأيت - على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية والاستعارة التبعية كما تكون في الأفعال على نحو ما سبق تكون في المشتقات كاسم الفاعل ، واسم المفعول ، والصفة المشبهة ، وأفعال التفضيل ، واسمي الزمان والمكان .

فمثالها في اسم الفاعل جليل أعمالك ناطق ، فناطق بمعنى دال وتجري الاستعارة على أساس تشبيه الدلالة الواضحة بالنطق ويستعار النطق للدلالة ويشق من النطق ناطق بمعنى دال استعارة تبعية ، ومثال الاستعارة التبعية في اسم المفعول رفع مقتولك أمره إلى الحاكم فمقتول مستعار للمضروب ضرباً شديداً وشبه الضرب الشديد بالقتل واشتق من القتل بمعنى الضرب مقتول

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دُرُوسٌ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ❁

بمعنى مضروب ، ومثالها في الصفة المشبهة قولك : إنما أصادق الأصم عن العوراء - فقد شبه التصامم بالصم في عدم السماع ثم استعير لفظ - الصمم - للتصامم فصار - الصمم - بمعنى التصامم واشتق من الصمم بهذا - أصم - صفة مشبهة بمعنى متصامم .

ومثالها في أفعال التفضيل قول الشاعر :

ولئن نطقت بشكر برك مفصحا فلسان حالي بالشكاية أنطق

أنطق بمعنى أدل شبهت الدلالة بالنطق واستعير النطق للدلالة الواضحة واشتق منه أنطق بمعنى أدل استعارة تصريحية تبعية ، ومثالها في اسمى الزمان والمكان قولك : هذا مقتل فلان - مشيرا إلى زمان ضربه ضربا عنيفا أو إلى مكان ضربه شبه الضرب الشديد بالقتل على نحو ما سبق واشتق من القتل بمعنى الضرب مقتل اسم زمان أو مكان فالاستعارة في الفعل وفي سائر المشتقات إنما يجري التشبيه في مصادرها أولا فأنت لا تجعل دلت نطق في قولك : نطقت حالك وإنما تجعل الدلالة نطقا ولا تجعل أن اصدع في قوله تعالى : ﴿ فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ (الحجر: ٩٤) وإنما تجعل الإبانة صدعا^(١) .

الدليل على تبعية الاستعارة في الأفعال والمشتقات :

والدليل على تبعية الاستعارة في الفعل وسائر المشتقات أن الاستعارة أساسها التشبيه فهي مبنية عليه والتشبيه يقتضي أن المشبه موصوف بوجه الشبه ، لأن الوجه وصف جامع بين الطرفين والذي يصلح أن يكون موصوفا هو الحقائق التي لها تحقق وثبوت في الخارج كالأسد والبحر ، أولها ثبوت وتحقيق في العقل كالعلم ، والذكاء ، أما الأفعال والمشتقات فلا ثبوت لها خارجا ولا عقلا ؛ لأنها متجددة متغيرة غير متقررة لدخول الزمان في مفهومها فلا تصلح لأن تكون موصوفا ولا يعترض على هذا بأن العرب قد وصفت

(١) انظر المنهاج الواضح في البلاغة لحامد عوني ، ص ٢٥٣-٢٥٦ .

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

المشتقات فقالوا : شجاع باسل ، وجواد فياض ؛ لأن باسل ليس وصفا لشجاع وإنما هو وصف لرجل موصوف بالشجاعة وكذلك البحر وما دامت الأفعال والمشتقات لا ثبوت لها لا خارجا ، ولا عقلا لتجددها وتغيرها لدخول الزمان المتغير في مفهومها فلا تصلح للتشبيه فلا بد أن يجري التشبيه أولا في المعنى القابل للوصفية وهو المصدر ثم يستعار المصدر المشبه به المصدر المشبه الذي يشاركه في وجه الشبه ويشترك منه الفعل بعد أن يحمل المعنى الجديد لمصدره الذي انتقل إليه بالاستعارة فيكون الفعل حينئذ تابعا لمصدره في هذا المعنى فإذا قلت نطقت حالك فإن الاستعارة تجري أولا في المصدر فيقال شبه الدلالة بالنطق ويتبع ذلك تشبيه دل بنطق^(١).

* * *

(١) انظر المطول ص ٣٧٢ ، ٣٧٣ .

الاستعارة في الحرف

قال تعالى ﴿ فَالْتَقَطَهُ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ (القصص: ٨) ، وقد أشار صاحب الكشف إلى الاستعارة في الحرف هنا فقال : « اللام في « ليكون » هي لام كي التي معناها التعليل كقولك : جئتك من سواء بسواء ولكن معنى التعليل فيها وارد على طريق المجاز دون الحقيقة ؛ لأنه لم يكن داعيهم إلى الالتقاط أن يكون لهم عدوا وحزنا ولكن المحبة والتبني غير أنه لما كان نتيجة التقاطهم وثمرته شبه بالداعي الذي يفعل الفاعل الفعل لأجله وهو الإكرام الذي هو نتيجة المجيء والتأدب الذي هو ثمرة الضرب في قولك : ضربته ليتأدب ، وتحريره أن هذه اللام حكمها حكم الأسد حيث استعيرت لما يشبه التعليل ، كما يستعار الأسد لما يشبه الأسد» ^(١) ، وبمراجعة السياق الذي ورد فيه النص الكريم نرى أن الذي حمل آل فرعون على التقاط موسى عليه السلام هو التبني والنفع ، وأما ذلك ما جهرت به امرأة فرعون في نهى قاطع عن التعرض له بأي لون من ألوان الإيذاء والضرر حين قالت : ﴿ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ (القصص: ٩) فلو أن ما رجوه قد تحقق لهم لكان الكلام : فالتقطه آل فرعون ليكون نافعا لهم ، وابنا يسعدون به وحينئذ تكون « اللام » قد استعملت في معناها الحقيقي . لكن الواقع الذي تحقق كان على خلاف ذلك فلم تترتب المحبة والسعادة به على الالتقاط ولكن الذي تترتب على ذلك العداوة والحزن . وبذلك صارت « اللام » مستعملة في غير معناها الحقيقي فتكون استعارة وإجراؤها على ما ذهب إليه صاحب الإيضاح أن يقال شبهت العداوة والحزن الحاصلان واقعا وفعلا بعد

(١) تفسير الكشف ، ٣د ، ص ١٥٧ ، ١٥٨ .

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

الالتقاط بالعلة الحقيقية التي التقطوه من أجلها وهي الفرح والسرور بجامع مطلق ترتب شيء على شيء فسرى هذا التشبيه إلى تشبيه ترتب العداوة والحزن على الالتقاط بترتب العلة الحقيقية عليه بجامع مطلق ترتب شيء على شيء ثم استعيرت اللام الموضوعية لترتب العلة الحقيقية على الالتقاط لترتب غير العلة الحقيقية عليه على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية .

وفي قوله تعالى : ﴿وَلَأَصْلِبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ (طه: ٧١). فالحرف «في» موضوع للظرفية الحقيقية فهو يدل على تلبس الظرف بالمظروف الحقيقيين كقولك : الكتاب في الدرج ، والماء في الكوز وجذوع النخل لا تصح أن تكون ظروفًا حقيقية وإذاً فالحرف «في» في الآية الكريمة مستعمل في غير ما وضع له لكن لما كانت الجذوع متمكنة من المصلوبين كتمكن الظرف من المظروف شبهت الجذوع بالظرف الحقيقي في هذا التمكن واستعير لها الحرف «في» وتجري الاستعارة هنا على أساس تشبيه الجذوع المستعلى عليها بالظروف الحقيقية بجامع التمكن في كل فسرى هذا التشبيه إلى تشبيه تلبس الجذوع بالمصلوبين بتلبس الظرف بالمظروف الحقيقيين بجامع مطلق تلبس شيء بشيء ثم استعيرت «في» الموضوعية لتلبس الظرف بالمظروف الحقيقيين لتلبس الجذوع المستعلى عليها بالمستعلى استعارة تصريحية تبعية «وهذه هي طريقة الخطيب في إجراء الاستعارة التبعية فهي تابعة عنده للتشبيه في متعلقاتها من مجروراتها ونحوها ، وتعلقها بها بمعنى ارتباطها بها ، وليس هو التعلق النحوي المعروف وعلى هذا يقال في المثال المذكور يقصد - زيد في نعمه - شبهت النعمى على زيد بدار مشتملة عليه ثم استعمل في النعمة لفظ «في» كما يستعمل في الدار وغيرها»^(١).

فالاستعارة في الحرف لا بد فيها على رأي الخطيب من تقدير التشبيه في المجرور - أولاً - ثم في معنى الحرف ثانياً - كما في المثال السابق «زيد في

(١) بغية الإيضاح ، ١٣٦/٣ .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ الْبَيَانِ ————— ﴿﴾

نعمة» يقدر التشبيه في المجرور بالحرف ، فتشبيه النعمة بالظرف الحقيقي بجامع التمكن في كل ، فقد صورت النعمة في صورة ظرف يحيط بزيد ويغمره من جميع جهاته هذا أولاً ، وثانياً يقدر التشبيه في معنى الحرف وهو الظرفية الحقيقية فيسري هذا التشبيه إلى تشبيه تلبس النعمة بزيد بتلبس الظرف بالمظروف الحقيقيين بجامع مطلق تلبس شيء بشيء ثم تستعار «في» الموضوع لتلبس الظرف بالمظروف الحقيقيين لتلبس النعمة بزيد على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية .

وفي قوله تعالى : ﴿وَلَا صَلِّبَنَّكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾ (طه: ٧١) السابق يقدر التشبيه أولاً في مجرور الحرف ، فتشبيه الجذوع المستعلّى عليها بالظروف الحقيقية فتصير الجذوع وكأنها أوعية لهم ومحتوية عليهم بجامع التمكن في كل وثانياً يقدر التشبيه في معنى الحرف وهو الظرفية الحقيقية فيسري هذا التشبيه إلى تشبيه تلبس الجذوع بالمصلوبين بتلبس الظروف بالمظروف الحقيقيين ، ثم تستعار «في» الموضوع لتلبس الظرف بالمظروف الحقيقيين لتلبس الجذوع المستعلّى عليها بالمستعلّي على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية ، وهكذا .

وسميت تبعية لأن التشبيه يجري أولاً في المجرور بالحرف ثم في معنى الحرف ثانياً من طريق السراية ، ثم ينقل الحرف إلى المعنى المراد فتكون الاستعارة حينئذ تابعة لتشبيهه .

ومذهب الجمهور في استعارة الحرف عقدهم التشبيه في متعلق معنى الحرف والمراد بمتعلق معنى الحرف المعنى الكلي الذي يستلزمه المعنى الجزئي للحرف ، فلفظ «في» مثلاً موضوع لمعنى جزئي وهو الظرفية الخاصة في نحو قولك - الماء في الكوز - وهذا المعنى الجزئي يتعلق بمعنى كلي هو مطلق ظرفية شيء في شيء ، ومعنى تعلّقه به استلزامه له إذ الخاص يستلزم العام ، «ولام العلة» موضوعة لمعنى جزئي هو ترتب علة خاصّة على معلول خاص كما في نحو :

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

جئت لتلقي العلم - وهذا المعنى الجزئي يتعلق بمعنى كلي هو مطلق ترتب شيء على شيء ، وهكذا وعلى أساس من هذا الفهم فإن الجمهور يقولون في قوله تعالى : ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ (القصص: ٨) شبه مطلق ترتب علة واقعية « كالعداوة والحزن » على التقاطهم لموسى - عليه السلام - بمطلق علة غائية « كالمحبة والسرور » بجامع مطلق ترتب شيء على شيء فسرى التشبيه من هذين الكليين إلى جزئياتهما وبناء على هذا التشبيه الناتج من السراية استعيرت « اللام » الموضوعية لجزئي من جزئيات المشبه به - وهو ترتب المحبة والسرور المتعلقين بموسى عليه السلام لجزئي من جزئيات المشبه ، وهو ترتب العداوة والحزن المتعلقين بموسى عليه السلام على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية .

ويقال في قوله تعالى : ﴿ وَلَا صَلِّبَنَّكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ ﴾ (طه: ٧١) شبه مطلق تلبس مستعلًى عليه بمستعلي بمطلق تلبس ظرف بمظروف بجامع مطلق تلبس شيء بشيء فسرى التشبيه من الكليين إلى الجزئيات وبناء على هذا التشبيه استعير لفظ « في » من أحد أجزاء المشبه به لأحد جزئيات المشبه استعارة تصريحية تبعية .

ويقال في قولك : زيد في نعمة ، شبه مطلق تلبس شيء لا يصلح للظرفية بمطلق تلبس ظرف بمظروف بجامع مطلق تلبس شيء بشيء فسرى التشبيه من الكليين إلى الجزئيات ثم استعير لفظ « في » من أحد جزئيات المشبه به لأحد أجزاء المشبه استعارة تصريحية تبعية وسميت الاستعارة في الحرف تبعية ؛ لأنها تابعة لتشبيهه على نحو ما بينا لا لأنها تابعة لاستعارة أخرى في المجرور على رأي الخطيب ^(١) .

(١) انظر المنهاج الواضح في البلاغة ، ص ٢٥٩-٢٦٣ .

قرينة الاستعارة التبعية في الأفعال والمشتقات :

وقرينة الاستعارة التبعية في الأفعال والمشتقات ترجع في الغالب إلى واحد مما يأتي :

١- فقد تكون القرينة التي تصرف عن إرادة المعنى الحقيقي نفس الفاعل الذي تجري فيه الاستعارة مما لا يمكن حدوث الفعل منه على سبيل الحقيقة كقولهم : نطق الحال بكذا فإن الحال ليست مما ينطق حقيقة وهذا مثال للفعل ومثال الوصف المشتق الحال ناطق بكذا فإن الفاعل هو الضمير وهو قرينه على الاستعارة

٢- وقد تكون القرينة مفعول الفعل وذلك حين يكون الفعل أو الوصف قابلاً لأن ينسب إليه حقيقة كقول ابن المعتز :

جمع الحق لنا في إمام قتل البخل وأحيا السماح
أي أزال البخل ، وأظهر السماح فتعلق القتل بالبخل دل على أن القتل مستعار للإزالة ، وتعلق الإحياء بالسماح دل على أن الإحياء مستعار للإظهار والنشر .

ومثل هذا قول القطامي :

نقريهم للهذيّات نقد بها ما كان خاط عليهم كل زراد
فقوله : نقريهم : أي نجعل قراهم وهو الطعام المقدم للضيف أول نزوله .
واللهذيّات جمع لهزم وهو السيف القاطع والمنسوب إلى اللهزم هو الطعنات أي نجعل قراهم عند اللقاء الطعنات فالقرينة مأخوذة من المفعول الثاني للفعل « نقري » فإطعام الضيف لا يكون بالسيف والاستعارة تهكمية بتنزيل الضرب بالسيف منزلة التحية بالإطعام فشبّه الضرب بالسيف عند اللقاء بالقرى وهو التحية بتقديم الطعام بجامع أن كلا تقديم ما يصل من خارج لداخل واستعير اسم القرى لتقديم الطعنات بالسيف واشتق من القرى نقريهم بمعنى نقدم لهم الطعنات على طريق الاستعارة التهكمية التبعية .

❁ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

٣- وقد تكون القرينة متعلقة بكل من مفعولية الأول والثاني كقول الحريري :
وأقرى المسامع — إما نطق — بيانا يقود الحرون الشموسا
والحرون من الخيل : ما لا ينقاد لصاحبه ومثله الشموس يقال حرن الفرس
وشمس إذا منع ظهره فهو يقول : وأقدم إلى السامع بيانا يكبح سحره وعذوبته
جماح النفوس الصوادف والشاهد فيه - وأقرى المسامع بيانا - فإن - أقرى -
استعارة تبعية قرينتها تعلق القرى بكل من السامع والبيان ذلك أن - القرى -
كما تقدم تقديم الطعام إلى الضيف فلا يصح تعلقه وإيقاعه بالمسامع والبيان
فعلم من هذا أن المراد به معنى يناسبها وهو التقديم كالمثال الذي قبله .

٤- أن يكون تعلق الفعل بالجار والمجرور غير مناسب فيدل ذلك على أن
المراد به معنى يناسب ذلك المجرور كقوله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ
أَلِيمٍ ﴾ (لقمان:٧) ، والبشارة المطلقة لا تكون إلا في الخير ، وإنما
تكون للشر إذا كانت مقيدة كما في النص الكريم ولأن التبشير إخبار
بما يفرح ويسر فلا يناسب تعلقه بالعذاب فعلم من هذا أن المراد
بالتبشير معنى يناسب العذاب وهو الإنذار أي الإخبار بما يحزن ففي
بشرهم استعارة قرينتها مجرور الحرف وإجراء الاستعارة هنا أن يقال :
نزل التضاد بين التبشير والإنذار منزلة التناسب بينهما ثم شبه الإنذار
بالتبشير في أن كلا إخبار بما يسر ثم استعير التبشير للإنذار واشتق منه
بشر بمعنى أنذر .

تقسيم الاستعارة باعتبار الملائم :

والاستعارة تنقسم باعتبار ذكر الملائم لأحد الطرفين وعدم ذكره إلى ثلاثة
أقسام مطلقة ومجردة ، ومرشحة .

١- الاستعارة المطلقة : وهي الاستعارة التي لم تقترن بعد تمام قرينتها
بصفة تلائم المستعار له أو تلائم المستعار منه أي لم تقترن بشيء يلائم

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي تَالِبٍ ————— ❁

الطرفين المستعار منه ، والمستعار له كما أنها أيضا الاستعارة التي لم تقترن بعد الكلام الذي أدت به بتفريع كلام آخر عليه يناسب الطرفين ، هذا والمراد بالصفة المعنوية وليست النعت النحوي كقولك : عطش إلى لقاءك شديد فالشوق مشبه بالعطش بجامع مع يترتب على كل من اللهفة والرغبة والقرينة قولك إلى لقاءك فالاستعارة مطلقة لعدم اقترانها بما يلائم أحد الطرفين وسميت هذه استعارة مطلقة لإطلاقها عن التقييد بما يلائم أحد الطرفين .

٢- استعارة مجردة : وهي ما اقترنت بما يلائم المستعار له وهو المشبه سواء كان هذا الملائم صفة نحوية ، أو معنوية ، أو تفريعا كقول البحري :

يُؤدُّونَ التَّحِيَّةَ مِنْ بَعِيدٍ إِلَى قَمَرٍ مِنَ الْإِيوَانِ بَادٍ

والإيوان اسم لبناء ضخمة ومنه إيوان كسرى فقد استعار القمر للإنسان الجميل وأنت ترى أن المستعار له وهو الإنسان الجميل وصف بما يلائمه من كونه مطلا من الإيوان تجريد للاستعارة والقرينة قوله :

يُؤدُّونَ التَّحِيَّةَ مِنْ بَعِيدٍ وَمِثَالِ الصِّفَةِ الْمَعْنَوِيَّةِ الَّتِي تَلَائِمُ الْمُسْتَعَارَ لَهُ قَوْلُ كَثِيرٍ عِزَّة :

غَمَرِ الرَّدَاءَ إِذَا تَبَسَّمَ ضَاحِكًا غَلَقْتَ لَصَحْكِهِ رِقَابَ الْمَالِ

والغمر في الأصل : الماء الكثير ، واستعمل هنا بمعنى كثرة العطاء وفي قوله : - تبسم ضاحكا - وصف للممدوح بالبشر وطلاقة الوجه مع الوقار لأنه لا يقهقه كما يفعل المبتذلون وقوله - غلقت - من غلق الرهن في يد المرتهن إذا لم يقدر الراهن على انفكاكه لعجزه عن أداء الدين والضحكة - بفتح الضاد وسكون الحاء المرة من الضحك ، ويريد - برقاب المال - أصوله : فهو يصفه بأنه جواد كريم وأنه كثير العطاء ، واسع البذل إذا ابتسم لطالبي معروفه تمكنت

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ —————﴾ دَرَسْتُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

رقاب أمواله من أيديهم ، وتعذر انفكاكها وقد استعير - الرداء - للعطاء بعد تشبيه العطاء به في أن كلا وقاية وحفظ ووصف الرداء - بالغمر - الملائم للمستعار له وهو العطاء تجريد للاستعارة ، وقرينتها بقية البيت : من تبسم الممدوح ، وحبس رقاب أمواله في أيدي العفاة ومثال التفريغ الذي يلائم المستعار له قولك : طغى الماء فأغرق الوادي شبه كثرة الماء بالطغيان واستعير المشبه به للمشبه وفي : أغرق الوادي - تفريغ يلائم المستعار له وهو كثرة الماء أتى به تجريدا للاستعارة والفرق بين الصفة والتفريغ أن الصفة تكون جزءا من الجملة التي وقعت فيها الاستعارة ، والتفريغ يكون كلاماً جديداً مستقلاً ملائماً لأحد الطرفين .

وسميت هذه الاستعارة مجردة - لتجردها - عما يقوي فيها دعوى الاتحاد بين الطرفين ذلك أن ذكر ملائم للمستعار له وهو المشبه بقربها من المعنى الحقيقي .

القيمة البلاغية للاستعارة المجردة في قوله تعالى : ﴿ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ ﴾ (النحل: ١١٢) ، وقد وقف صاحب الإيضاح أمام الاستعارة في الآية الكريمة وعدّها من الاستعارة المجردة ويفهم من كلامه أنه لم يرد من الإذاقة إدراك المذوقات بطريق اللسان ، وإنما أراد منها إصابتهم بالأحداث والنوائب فاستعيرت الإذاقة للإصابة بالمصائب والنوائب ، والجامع بين الطرفين مطلق الإدراك والإحساس في كلا الطرفين ، وقد شاع استعمال هذا اللفظ هنا في معنى الإصابة حتى صار كالحقيقة وعلى أساس هذا الشيوع في الاستعمال بني التجريد وأقيم في الآية على المعنى المشتهر فيكون معناها فأصابهم الله بلباس الجوع والإصابة تلائم الأحداث ولا تلائم اللباس فتكون تجريد الملائم منها المستعار له ، وإنما عدت الاستعارة هنا مجردة ولم تعد مرشحة مع أن الترشيح أبلغ من التجريد لما فيه من الإمعان في تناسي التشبيه ، لأن الغرض من الآية الدلالة على أمرين :

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ❁

أولهما : شدة الإصابة ، والثاني : شمولها وجعلها مرشحة لا يحقق الدلالة على كل من الأمرين فلو قيل : كساها لباس الجوع حتى تكون الاستعارة مرشحة لما أفاد الشدة وإن أفاد الشمول ؛ لأن الكساء ملامس للجسد فالإحساس به عن طريق الذوق ، ولو قيل فأذاقها الله طعم الجوع لتكون الاستعارة مرشحة فإنه وإن أفاد الشدة لم يفد الشمول الذي يدل عليه اللباس لذا كان عد الاستعارة مجردة محققا للغرض ، في حين أن الغرضين لا يحققانه بتمامه ^(١).

٣- الاستعارة المرشحة : وهي ما قرنت بما يلائم المستعار منه أي المشبه به سواء كان ذلك الملائم صفة نحوية أو معنوية أو كان تفريعا فمثال

الأول : رأيت أسدا حادَّ الأنياب منتفش اللبدة فقد استعير الأسد - للرجل الشجاع ثم وصف المستعار منه وهو الأسد بما يلائمه من حدة الأنياب ، وانتفash اللبدة ترشيحا للاستعارة ومن الاستعارة المرشحة بما يلائم المستعار منه بالتفريع قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَحَتِ تِجَارَتُهُمْ ﴾ (البقرة: ١٦) ، استعير الشراء للاستبدال والاختيار بعد تشبيه اختيار الضلالة على الهدى بالشراء الذي هو استبدال مال بمال بجامع ترك ما يرغب عنه والتعلق بما يرغب فيه وفرع على الاستعارة ما يلائم المستعار منه من الربح والتجارة ومن الاستعارة المرشحة بما يلائم المستعار منه بالتفريع قول الشاعر :

ينازعني ردائي عبد عمرو رويدك يا أخا عمرو بن بكر

(١) بغية الإيضاح بتصرف ٣/١٤٠ ، ١٤١ ، وانظر عروس الأفراح لبهاء الدين السبكي ١٣٠ ، ١٢٩/٤ .

❧—————الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ—————دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

لي الشطر الذي ملكت يميني ودونك فاعتجر منه بشرط^(١)

يقول : ينارعني عبد عمرو سيفي الذي أقي به نفسي ، وعرضي ، ثم التفت وقال له : تمهل فسأقسم بيني وبينك فأحتفظ لنفسي بقائمة الذي بيدي ، وأعطيك صدره والشاعر استعار الرداء للسيف بجامع أن كلا منهما يصون صاحبه بعد أن شبه السيف بالرداء والقرينة قوله : لي الشطر الذي ملكت يميني ؛ لأن الذي يكون يمين المحارب هو السيف وليس الرداء وفرع على ذلك وصفه بالاعتجار - لف الرأس بثوب أو غيره - وهو وصف يلائم المستعار منه فيكون ترشيحا .

هذا وقد يجتمع الترشيح والتجريد كما في قول زهير :

لدى أسد شاكي السلاح مقذف له لبد أظفاره لم تقلم

استعار الأسد للرجل الشجاع ثم أتى بجملته ملائمت بعضها يلائم المستعار له ، وبعضها للمستعار منه فقوله - شاكي السلاح - أي تامة تجريد ؛ لأنه يلائم المستعار له وهو الرجل الشجاع وقوله - مقذف - فإذا أريد به أنه يقذف به في الحروب فهو تجريد لملاءمته المستعار له ، أما إذا أريد أنه ضخم الجثة فهو ترشيح - وذكر اللبد والأظافر يلائم المستعار منه وهو الأسد فهو ترشيح والاستعارة الذي يجتمع فيها الترشيح والتجريد كهذه الاستعارة تعد من الاستعارة المطلقة لتعارض الصفتين فيها وإبطال التجريد ما يفيد الترشيح من شدة المبالغة .

هذا ويعد الترشيح أبلغ من التجريد لإفادته الزيادة في قوة المبالغة التي تؤديها الاستعارة ؛ لأنه يذهب بها إلى أبعد حد في ادعاء أن المشبه صار عين المشبه به

(١) «رويدك» اسم فعل بمعنى أمهل و«دونك» اسم فعل بمعنى حد ، و«الاعتجار» لف الرأس بنحو ثوب وأشار بالشطر الذي ملكت يمينه قاسم سيفه وبالشطر الآخر صدر السيف .

الصورة البيانية ————— دراستي مسائل عليّ البيان ————— ❁

ومن ثمّ كان أبلغ من التجريد ؛ لأن في التجريد جنوحاً إلى المشبه ، وميلاً له فيبعد الاستعارة عما تقتضيه من ادعاء لدخول المشبه في جنس المشبه له ، وأبلغ من الإطلاق ؛ لأن الإطلاق يقف في المبالغة عند الحد الذي تفيد به الاستعارة ، ولذا فإن الاستعارة المرشحة تُعدّ أقوى من المجردة والمطلقة ، ويلي الاستعارة المرشحة في القوة الاستعارة المطلقة ؛ لأنها على حدّ ما سبق لم يذكر معها شيء يلائم أحد الطرفين ، فهي مع تخلّيها عما يقوي تناسي التشبيه ، ويدعم دعوى الاتحاد من ذكر ما يلائم المشبه به ليس فيها ما ينافيهما من ذكر ما يلائم المشبه ، وإذا كان هذا حالها كانت خليقة أن تحتل مكاناً وسطاً بين المرشحة والمجردة ، ومن هنا يظهر أن الاستعارة المجردة لاشتمالها على ما يلائم المشبه أي المستعار له الذي يتعارض مع ما تقتضيه الاستعارة من تناسي التشبيه تعد أدنى من المرشحة والمطلقة ^(١).

الاستعارة التمثيلية :

قد أطلنا الوقفة أمام الاستعارة فيما مضى ورأيناها صورة فنية جميلة يعد الخيال مصدراً أساسياً لتشكيلها ، ويقوم المشبه به فيها مقام المشبه ، فالمستعار منه نقل إلى المستعار له ، فأنت في هذا اللون من الاستعارة تسقط ذكر المشبه من البين حتى لا يعلم من ظاهر الحال أنك أردته ، فالأسنان البيضاء تصير دُرّاً في قولك : ابتسمت عن در ، والمرأة الجميلة الحسناء تصبح بدراً في قولك : كشفت النقاب عن بدر ، والجواد الكريم يصير بحراً والشجاع تراه أسداً في قول الشاعر :

فلم أر قبلي من مشى البحر نحوه ولا رجلاً قامت تعانقه الأسد

والعدو يصير طيراً في قول الرسول ﷺ : « خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه كلما سمع هيعة طار إليها » ، فالذي حدث فيه النقل لفظ مفرد ليس

(١) انظر بغية الإيضاح ، ص ١٣٥-١٤٢ .

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

بمركب وهو الأسنان والحسناء ، والكريم والشجاع ، والعدو ، ويقول الإمام عبد القاهر في ذلك : « فالاستعارة أن تريد تشبيه الشيء بالشيء ، فتدع أن تفصح بالتشبيه ، وتظهره وتجيء إلى اسم المشبه به فتعيّره المشبه وتجريه عليه تريد أن تقول : رأيت رجلا هو كالأسد في شجاعته وقوة بطشه سواء فتدع ذلك وتقول : رأيت أسداً^(١) .

هذا لون من ألوان الاستعارة ترى فيه أن النقل والتحويل جرى في شيء واحد على حد ما سبق من أمثلة وعلى نحو ما تراه في قول الواواء :
فأمطرت لؤلؤا من نرجس وسقت وردا وعصت على العناب بالبرد
فاستعار اللؤلؤ للدمع ، والنرجس للعين ، والورد للخد ، والعناب للأنامل والبرد للأسنان ، فأنت ترى أن التحويل والنقل تم في شيء واحد ولفظ غير مركب ومن ثم فالاستعارة مفردة .

هذا وقد يحدث التغيير في جملة أشياء أو هيئة فتكون الاستعارة مركبة وهي الاستعارة التمثيلية .

فالاستعارة التمثيلية هي على حد ما يقول الخطيب ، وأما المجاز المركب فهو اللفظ المركب المستعمل فيما شبه بمعناه الأصلي تشبيه تمثيل^(٢) . فاللفظ المركب هنا مستعمل في معنى مشبه بمعناه الأصلي وطرفا هذه الاستعارة لا بد أن يكونا مركبين ففي قوله تعالى في شأن أهل الكتاب : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ﴾ (آل عمران: ١٨٧) ، والنبد وراء الظهر على حد ما يقول الزمخشري « مثل في الطرح » وترك الاعتداد ، ونقيضه جعله نصب عينيه^(٣) . ويقول

(١) دلائل الإعجاز ، بتحقيق الشيخ محمود شاكر ، ص ٦٧ .

(٢) بغية الإيضاح ، ١٤٦/٣ .

(٣) الكشف ، ٢٣٥/١ .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ الْبَيَانِ ————— ❁

الشریف الرضی : « فنبذوه وراء ظهورهم » وهذه استعارة والمراد أنهم غفلوا عن ذكره وتشاغلوا عن فهمه يعني الكتاب فكان كالشيء الملقى خلف ظهر الإنسان لا يراه فيذكره ، ولا يلتفت إليه فينظره ^(١) . وقد شبهت الهيئة الحاصلة من أخذ الميثاق عليهم مع إهماله ، وعدم الاعتداد به ورميه بعيدا عنهم بالهيئة الحاصلة من وجود شيء تافه حقير بيد إنسان فلم يحتفظ به ، ورمى به وراء ظهره بعيدا عن مطارح الأنظار والجامع بينهما الهيئة الحاصلة من وجود شيء يهمل ، ولا يعتنى به ازدراء لشأنه ، واحتقارا له .

ومن الذائع في هذا قولهم « هو يجمع بين السيفين في غمد » والمشبه هيئة من يحاول أن يجمع بين أمرين لا يمكن أن يجتمعا بحال من يحاول أن يجمع بين السيفين في غمد والوجه أن كلا يحاول ما لا يكون أبدا واستعير التركيب المشبه به للمشبه استعارة تمثيلية والاستعارة التمثيلية طرفاها لا بد من ملاحظة التركيب فيهما ، ويشبه أحد الطرفين بالآخر ، ويدعى دخوله في جنسه ، ويستعار للمشبه لفظ المشبه به من غير تغيير فيه يقول الإمام عبد القاهر : « وأما التمثيل الذي يكون مجازا لمجيئك به على حد الاستعارة فمثاله قولك للرجل يتردد في الشيء بين فعله وتركه - أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى - فالأصل في هذا أراك في ترددك كمن يقدم رجلا ويؤخر أخرى ... كما كان الأصل في قولك : « رأيت أسدا رجلا ثم جعل كأنه الأسد على الحقيقة وكذلك تقول للرجل يعمل في غير معمل ^(٢) ، أراك تنفخ في غير فحم وتخط على الماء ، فتجعله في ظاهر الأمر كأنه ينفخ ويخط ، والمعنى على أنك في فعلك كمن يفعل ذلك ، وتقول للرجل يعمل الحيلة حتى يميل صاحبه إلى الشيء كان يأباه ويمتنع منه - ما زال يفتل في الذروة ^(٣) ، والغارب

(١) تلخيص البيان في مجازات القرآن ، ص ٤٩ .

(٢) في غير معمل أي في غير فائدة ولا جدوى .

(٣) الذروة : أعلى السنام ، والغارب ما بين السنام والعنق .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ﴾

حتى بلغ منه ما أراد - فتجعله بظاهر اللفظ كأنه كان منه قتل في ذروة وغارب والمعنى على أنه لم يزل يرفق بصاحبه رفقا يشبه حاله فيه حال الرجل يجيء إلى البعير الصعب فيحكه ويفتل الشعر في ذروته وغاربه حتى يسكن ويستأنس^(١).

وإجراء الاستعارة في هذه الشواهد بحسب ترتيبها أن يقال شبه من يتردد في الأمر ولا يقطع فيه برأي إذ يتوجه إليه بقلبه تارة ، ويعدل عنه تارة أخرى بحال الرجل يتردد في الذهاب إلى أمر فتارة يقدم رجله متجهاً إليه وتارة يؤخرها منصرفاً عنه والجامع بينهما عدم القطع ، والتردد بين الإقدام والإحجام واستعار بعد الادعاء اللفظ المركب الدال على المشبه به للمشبه وفي إجراء الاستعارة في قوله : أراك تنفخ في غير فحم أن يقال مثل حال الرجل الذي يبذل الجهد في غير طائل فيمارس عملاً لا يعود عليه بنفع ولا فائدة بمن ينفخ في غير فحم فلا يخرج ناراً بجامع الحال الحاصلة من عدم الجدوى في كل واستعير بعد الادعاء ودخول المشبه به في جنس المشبه التركيب الدال على المشبه به للمشبه استعارة تمثيلية ، وتجري الاستعارة في الذي يخط على الماء بأن يشبه حال الرجل الذي يسعى ولا يحصل من سعيه على طائل بحال الرجل الذي يخط على الماء فلا يترك أثراً والجامع عدم الجدوى والفائدة واستعير بعد الادعاء التركيب الدال على المشبه به للمشبه ، وفي إجراء الاستعارة في قولهم : - ما زال يفتل منه في الذروة والغارب حتى بلغ منه ما أراد - أن يقال : شبه حال من يرفق بصاحبه ، ويلين له القول حتى يميل صاحبه إلى الشيء يعمل به بعد أن كان يأباه ويرفضه بحال الرجل يجيء إلى البعير الجامح النافر فيحكمه ، ويفتل الشعر في ذروته وغاربه حتى يسكن ويستأنس فيطيع صاحبه والجامع أعمال الحيلة للرد من الإباء إلى الانقياد ، ومن النفور إلى

(١) دلائل الإعجاز ، بتحقيق محمود شاكر ، ص ٦٨ ، ٦٩ .

الصورة البيانية ————— دراستي في مسائل البيان ————— ❁

الاستسلام واستعير بعد الادعاء التركيب الدال على المشبه به إلى المشبه على سبيل الاستعارة التمثيلية فالاستعارة التمثيلية « ما شبه فيها إحدى صورتين متزعتين من أمرين أو أمور بالأخرى ثم تدخل المشبه في جنس المشبه بها مبالغة في التشبيه فتذكر بلفظها من غير تغيير بوجه من الوجوه »^(١). والخطيب في الاستعارة التمثيلية معبر عما أراده الشيخ بكلامه فيها وناقل عنه كثيرا من أمثله والأمثال العربية كلها استعارات تمثيلية مشتهرة فالأمثال التي تستعمل في حالات شبيهة بالوقائع التي وردت وقيلت فيها في بادئ الأمر هي استعارات تمثيلية ولا تغير ألفاظها التي وردت عليها ؛ وإنما عدت الأمثال استعارات تمثيلية لأننا فيها ننقل جملة المثل من واقعة معينة إلى أخرى شبيهة بها ولا يغير المثل مطلقا عن صيغته التي ورد بها فيخاطب به المفرد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث بصيغة واحدة كقولهم : أحشفا وسوء كيلة^(٢) - ويضرب مثلا لمن يظلم من جهتين وإجراء الاستعارة هنا أن يقال : شبهت هيئة من يظلم من جهتين بهيئة رجل اشترى من آخر تمرا رديئا وطفف له المكيال والجامع الحال الحاصلة من الظلم من جهتين وبعد ادعاء دخول المشبه في جنس المشبه به استعير التركيب الموضوع للمشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التمثيلية . ومما يجب أن يوضع في الحسبان أن الإمام عبد القاهر قد جرى لفظ المثل على لسانه كثيرا مرادا به التشبيه العقلي ، ومرادا به المشبه به ، ومرادا به الاستعارة وما بنا ضرورة أن تستقصي هذا ولكني أذكر عدّة المثل من الاستعارة التمثيلية وذلك في قوله : « فمن حَقَّ أن تحافظ على هذا الأصل وهو أن الشبه إذا كان موجودا في الشيء على الانفراد من غير أن يكون نتيجة بينه وبين شيء آخر فالاسم مستعار لما أخذه الشبه منه كالنور

(١) بغية الإيضاح ١٤٦/٣ ، ١٤٧ .

(٢) الحشف : الرديء . والكيلة : اسم هيئة الكيل .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ —————﴾

للعلم والظلمة للجهل ، والشمس للوجه الجميل ... وإذا لم تكن نسبة الشبه إلى الشيء على الانفراد وكان مركبا من حاله مع غيره فليس الاسم بمستعار ولكن مجموع الكلام مثل^(١) . والشيخ يقصد بقوله «مثل» الاستعارة التمثيلية ؛ لأن التركيب تحقق من مجموع أشياء وليس من شيء واحد ومن أمثلة الاستعارة التمثيلية ما نراه في قوله تعالى : ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدَمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ (الحجرات: ١) ، في هذا النداء من الله للذين آمنوا به بالغيب تعليم وتربية هو ألا يسبقوا برأي في أمر من الأمور بعيداً عن الله ورسوله وألا يقولوا قولاً في أمر من الأمور قبل قول الله فيه على لسان رسوله عليه السلام فالتقديم بين يدي الله ورسوله هو السبق بقطع الأمر دونهما فلا أمر لهم ينفردون به دون أمر الله ورسوله ، وليس لهم أن يتعجلوا في أمر من أمور الدين قبل أن يأذن الله ورسوله لهم في ذلك فشبه حال الذي يتعجل بالحكم في شأن من شئون الدين قبل أن يأذن الله به بحال من يتقدم بين يدي متبوعه حين المشي في الطريق بجامع عدم المتابعة في كل واستعير بعد الادعاء التركيب الدال على المشبه به للمشبه وهو المتعجل بالحكم والمتسرع فيه قبل أن يأذن الله به ومن هذه الاستعارة ما تراه في قوله تعالى : ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ (الزمر: ٦٧) ، وهنا استعارتان تمثيليتان الأولى قوله : «والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة» إذ صورت الحالة التي تكون عليها الأرض يوم القيامة والله سبحانه وتعالى يتصرف فيها بأمره وقدرته كيف يشاء بصورة الشيء يكون في قبضة الإنسان ، وممسوكا بيده يتصرف فيه كيف يشاء والجامع وقوع كل تحت قدرة صاحبه وإرادته واستعير بعد الادعاء القبض باليد للتصرف الإلهي في الأرض .

والاستعارة الثانية في قوله سبحانه : «والسّموات مطويات بيمينه» إذ صوّرت

(١) أسرار البلاغة ص ٢٥٩ ، ٢٦٠ .



الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ الْبَيَانِ ————— ❁

حال السموات وقد طوى الله بساطها بقدرته وإرادته بصورة المطوي في يمين صاحبه والجامع وقوع كل تحت قدرة صاحبه وإرادته واستعير الطي في اليمين لطي السموات بقدرة الله تعالى : وخصت اليمين دون اليسار لأنها أشرف وأقوى وأدل على تمام التمكن والتصرف والعناية بما يوضع فيها : « ومتى قصد جعل الشيء في جهة العناية جعل في اليد اليمنى ، ومتى قصد خلاف ذلك جعل في اليسرى كما قال ابن ميادة :

ألم تكُ في يَمْنَى يَدِيكَ جعلتني فلا تجعلني بَعْدَهَا في شِمَالِكَ
أي كنت مكرماً عندك فلا تجعلني مهاناً وكنت في المكان الشريف منك فلا تجعلني في المنزل الوضيع» ^(١) ، وإجراء الاستعارة أن يقال : صور حاله مع الممدوح في وقت إكرامه له بصورة الشيء يضعه الإنسان في يمينه صوناً له ، وحرصاً عليه ، واعتزازاً به بجامع وضع كل في المكان الذي يصونه ويعتز به واستعير المشبه له للمشبه كما صور حاله مع الممدوح في حال إهانته وعدم إكرامه بحال الشيء يوضع في اليد الشمال استهانة به ، وزهداً فيه وازدراء له والجامع بينهما وضع كل في المكان الذي يهينه ، ويضائل من قدره واستعير المشبه به للمشبه استعارة تمثيلية ومما هو شبيه بهذا أن تقول لمخلوق : الأمر بيدك صور حال الأمر تتصرف فيه كيف تشاء من إنجازهِ وتقدر على ذلك ولا يشق عليك أو يصعب بحال الشيء يكون بيدك فلا يمتنع عليك ، وتتصرف فيه كما تشاء والجامع سهولة التناول وبعده عن التأني والامتناع .

ومن هذا الاستعارة في قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضُّ ﴾ (الأعراف: ١٥٤) ، ونقل الخطيب القزويني عن الزمخشري قوله : « قال الزمخشري : كأن الغضب كان بغريه على ما فعل ويقول قل لقومك كذا وألقى الألواح وجر برأس أخيك إليك فترك النطق بذلك وقطع الإغراء ولم يستحسن

(١) بغية الإيضاح ، ١٤٨/٣ ، ١٤٩ .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ﴾

هذه الكلمة ولم يستفصحها كل ذي طبع سليم وذوق صحيح إلا لذلك ، ولأنه من قبيل شُعْبِ البلاغة وإنما لقراءة معاوية بن قرة (ولما سكن عن موسى الغضب) لا تجد النفس عندها شيئاً من تلك الهزة وطرفاً من تلك الروعة^(١).

فكلام الزمخشري يشعر أن قراءة (ولما سكنت عن موسى الغضب) في غاية البلاغة ، وحسن التصوير ، وجمال التخيل وتتفوق في بلاغتها عنها في قراءة «ولما سكن عن موسى الغضب» والذي جعلها تتفوق في القراءة الأولى ما فيها من تمثيل بخلاف القراءة الثانية لخلوها منه وحين تحمل الاستعارة على أنها تمثيلية يكون قد صور الغضب الذي اشتعل في صدر موسى عليه السلام بعضاً من الوقت ثم هدأ وسكن بصورة رجل يغري غيره بما يؤدي ويضر حتى إذا حقق غايته ، وبلغ ما يريد سكنت عن الإغراء وتوقف بجامع التحول والانتقال من حال إلى حال واستعير بعد الادعاء التركيب الدال على المشبه به ، وهو سكوت الغضب للمشبه على سبيل الاستعارة التمثيلية. لكن الأولى أن تحمل الاستعارة على أنها مكنية لأن المذكور في الآية هو الغضب فيعد مشبها ويكون إجراء الاستعارة على هذا النحو وعدها مكنية أن يشبه الغضب بإنسان يغري بما يضر بجامع أن كلا منهما يؤدي صاحبه ويجلب إليه الضرر وحذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو السكوت وفي إثبات هذا اللازم للغضب تخيل أنه إنسان يقع منه السكوت بعد أن يحدث منه الكلام وقد قال الزمخشري استحساناً للتخيل في الآية إنك لو قارنت القراءتين الواردتين فيها : «ولما سكنت عن موسى الغضب» و «سكن عن موسى الغضب» لوجدت في نفسك هزة إعجاب للأولى وارتياحاً لها لما فيها من تخيل لا تجده في القراءة الثانية .

(١) بغية الإيضاح ، ١٤٩/٣ ، وتفسير الكشاف ٩٥/٢ ، ٩٦ .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دُرِّسَتْ فِي مَسَائِلِ عَلَيَّ الْبَيَّانِ ————— ❁

ومن الاستعارة التمثيلية على أحد احتمالين قوله تعالى : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا ﴾ (آل عمران: ١٠٣).

فإذا جعلت التركيب كله استعارة بأن تشبه حال المتمسك بدين الله وعهده مع الاحتماء بذلك بحال الرجل الذي يتدلى من مكان عال ومرتفع معتمداً على حبل قوي يحول بينه وبين السقوط ويستعار بعد الادعاء التركيب الدال على المشبه به للمشبه استعارة تمثيلية وإضافة الحبل إلى الله هو القرينة المانعة من إرادة المعنى الأصلي .

وإن جعلت الاستعارة في لفظ «الحبل» فهي استعارة تصريحية مفردة بتشبيه دين الله وعهده بالحبل بجامع الحفظ من الضرر في كل واستعير بعد الادعاء اللفظ الدال على المشبه به للمشبه وذكر الاعتصام ترشيح للاستعارة يقول الزمخشري « قولهم : اعتصمت يجوز أن يكون تمثيلاً لاستظهاره ، ووثوقه بحمايته بامتسك المتدلي من مكان مرتفع بحبل وثيق يأمن انقطاعه وأن يكون الحبل استعارة لعهده والاعتصام لوثوقه بالعهد أو ترشيحاً لاستعارة الحبل بما يناسبه » ^(١).

ومن هذه الاستعارة ما تجده في قولهم : «بلغ السيل الزبى» والزبى جمع زبية وهي حفرة تحفر للأسد إذا أرادوا صيده ، أصلها : الزابية لا يعلوها الماء فإذا بلغها السيل كان جارفاً مجحفاً ؛ ولذا يضرب هذا المثل تعبيراً عن اضطراب الأمر ، وشدته وعنفه ، وتجاوزه الحد ، وخروجه عن العادة ، والمألوف ، وبلوغه من العنف والجبروت أقصى ما يمكن أن يصل إليه في هذا الشأن ولذا تشبه هذه الحالة على هذا النحو بحالة السيل الجارف الذي يتجاوز الوديان والنجاد بعد أن يعمها ويملاؤها فيغمر الزوايا بحفرها في أماكنها العالية فيملأها ويغطيها بالماء الكثير ويستعار المشبه به للمشبه استعارة تمثيلية .

(١) تفسير الكشاف .

❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

وعلى هذا النحو يجيء قولهم : جاوز الحزام الطيبين والطيبان : مثني الطبي والطبي للحافر والسباع الضرع لغيرهما وهو في الناقة خلفها يعني ضرعها والحزام : الأصل أن يكون بعد الصدر من غير مسافة فإذا جاوز الطيبين فقد خرج عن حد الاعتدال ، ويضرب هذا المثل عند بلوغ الشدة منتهاها وكتب عثمان إلى عليّ - رضي الله عنهما - لما حوصِر : «أما بعد فإن السَّيْلَ قد بلغ الزُّبَى ، وجاوزَ الحزامَ الطَّيِّبَيْنِ ، وتجاوز الأمر بي قدره ، وطَمَعَ فيَّ من لا يدفع عن نفسه»

وَأَنْتَ لَمْ يَفْخَرْ عَلَيْكَ كَفَّاحٌ زَعِيفٌ وَلَمْ يَغْلِبْكَ مِثْلُ مُغَلَّبٍ
ورأيت القوم لا يقصرون دون دمي .

فَإِنْ كُنْتَ مَأْكُولًا فَكُنْ أَنْتَ آكِلِي وَإِلَّا فَادْرِكْنِي وَلِمَّا أَفْرَقَ
فقولهم « جاوز الحزام الطيبين » فهذا يعني أن الشدة قد بلغت منتهاها ، وأن الأمر قد جاوز كل حد في الاختلال والاضطراب ، وصار حاله على هذا النحو كحال البعير الذي يترهل حبله .

ومن حديث الإمام عبد القاهر عن هذه الاستعارة ما نراه في قوله : «اعلم أنك تجد الاسم وقد وقع من نظم الكلام الموقع الذي كونه مستعاراً ثم لا يكون مستعاراً وذاك لأن التشبيه المقصود منوط به مع غيره ، وليس به شبه ينفرد به على ما قدمت لك من أن الشبه يجيء منتزعا من مجموع جملة الكلام فمن ذلك قول داود بن علي حين خطب فقال : شكراً شاكراً إنا والله ما خرجنا لنحفر فيكم نهراً ، ولا لبنني فيكم قصراً ، أظن عدو الله أن لم يظفر به ، أرخى له في زمامه حتى عثر في فضل خطامه ^(١) . فالآن عاد الأمر في

(١) الخطام ككتاب حبل يوضع في عنق البعير ويشني في خطمه أي أنفه ليقْتَادَ به ، والنزعة بالتحريك الرماة بالنبل جمع نازع وفي المثل صار الأمر إلى النزعة أي قام بإصلاحه أهل الأناة والسياسة

الصورة البيانية ————— دراسته في مسانيد البيان ————— ❁

نصابه ، وطلعت الشمس من مطلعها ، والآن قد أخذ القوس باريها ، وعاد النبل إلى التربة ، ورجع الأمر إلى مستقره في أهل بيت نبيكم أهل بيت الرأفة والرحمة» ^(١). وقد حلل الإمام عبد القاهر الاستعارة في قوله «والآن قد أخذ القوس باريها» وسنذكر تحليله لها عندما يحين موعدنا فقوله : «أرعى له في عنانه ، فالمشبه هو حال العدو الذي ترك في بادئ الأمر وأهمل فلم يوقف عند حده أو يؤخذ على يده فأغراه ذلك بالتمادي في غيه وإجرامه والاندفاع وراء رغباته ومشتبهاته حتى هوى وسقط والمشبه به حال البعير الذي أرعى له الحبل حتى سقط بعد أن عثر في فضل خطامه واستعير التركيب الدال على المشبه به للمشبه .

هذا ويمكن عد هذه الاستعارة من الاستعارات الممكنة وذلك بأن يشبه العدو بالبعير الذي حذف ورمز إليه بشيء من لوازمه من مجموع أشياء وتحركها في مساحة أكبر وأوسع ، ودمجها لهيئة كاملة في هيئة أخرى في توافق وتلاؤم وانسجام أولى وأملأ وأحسن ؛ لأنها تحتوي حاملة كاملة بكل أبعادها من بدايات ونهايات وأحداث ولعل في ذكر الخطام الذي عثر البعير في فضله ما يوحى إلى ضرورة الكبج والإلجام والأخذ بشدة وقوة لأمثال هذه النماذج التي تسحب من خطامها كما يسحب البعير وهي نماذج تثير الرعب ، وتعبث في كل ديوان ، وتخيل في كل جماعة حتى تنكفى قوى البغي والشر إلى الخلف مهددة القوى بعد أن تقلم أظفارها ، وتقتلع مخالبها .

وفي قوله : « وطلعت الشمس من مطلعها » في هذا التركيب ما يؤثق ويؤكد المعنى في قوله : « وعاد الأمر في نصابه » وكأن قوله « وطلعت الشمس من مطلعها » يبين أن الشمس قبل أن يعود الأمر إليهم لم تكن تطلع من مطلعها المعروف والجهير وإنما كانت تطلع من مطلع آخر مما يوحى باختلال

(١) أسرار البلاغة ، ص ٢٥٨ .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ عَلِ الْبَيَّانِ ﴾

الأوضاع واضطراب الأمور وتغيّر نظام الأشياء ، وتبدّل قوانين الكون والطبيعة على نحو لا تراها على حال من الانتظام والانضباط كما كانت فلا الشمس تشرق من الشرق وتغرب في الغرب ولا الفجر يأتي قبل شروق الشمس وهكذا فرجوع الخلافة إلى أهل بيت النبي ﷺ رجوع بالأشياء إلى طبيعتها ، وعودة بالروح إلى أماكنها التي يجب أن تحل فيها حتى تتجلى فخامتها ، وكأنه كان هناك قبل رجوع الخلافة حواجز وسدود وعوائق وموانع قد غشيت على الأبصار وطغّت على البصائر فاختل كل شيء واهتز ، واضطرب ، وعودة الخلافة كانت تصحيحاً لهذا الخلل ، وتقويماً لهذا الاعوجاج ، وإنهاءً لهذا الخطأ كما كان إبعاداً للأهواء التي تتصارع ، وللخصومة التي تفجر ، وللآثرة التي تُسِفُّ كما كانت عودة للفجر الذي يتألق ويضيء ، وهذا ما تراه في استعارة حالة طلوع الشمس من مشرقها لعودة الخلافة إليهم وكأن الخلافة حين كانت في أيدي خصومهم وأعدائهم كانت الشمس تطلع من مغربها ؛ لأن كل شيء كان مقلوباً ومتحولاً .

وفي قوله « وعاد النبل إلى النزعة » يقال عاد السهم إلى النزعة أي عاد الأمر إلى أهله ، والمراد بالنزعة هنا أي الرامي بالنبل وفي قوله : « عاد » ما تشعر معه أن النبال كانت مُعْطَلَةً لأنها كانت بعيدة عن أيدي أهل الرمي والسداد الذين يعرفون كيف يوظفونها ويستثمرونها في تحقيق أبعد الغايات التي تملأ النفس بالنشوة والفؤاد بالحماسة ، وكلمة « عاد » مرة أخرى تشعر أن النبال قبل أن ترجع إليهم وتستقر في أيديهم كانت مُهْمَلَةً ؛ لأنها لم تكن في أيدي المستحقين لها ، الذين يعرفون كيف يحققون الأهداف من خلال الرمي بها حين يَسْتَجِرُّ النَّضال ، وتكون الحاجة مُلْحَةً إلى من يرفع الراية ، ويرمي بالسهم ؛ ولذا تبقى السهام عاطلة في أيديهم لا تحقق هدفاً ولا تصيب غرضاً ، والمشبّه حال ما يتحقق من نفع ، وما يصاب من غرض وهدف والمشبّه به حال النبال حين تكون في أيدي النزعة الذين يجيدون الرمي ، واستعير المشبّه به للمشبّه استعارة تمثيلية .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ الْبَيَانِ ————— ❁

وقد وقف الإمام عبد القاهر عند قوله «الآن أخذ القوس باريها» وحلَّها تحليلًا طيبًا ، فقال قوله : «الآن أخذ القوس باريها» ، وإن كان القوس تقع كناية عن الخلافة والباري عن المستحق لها فإنه لا يجوز أن يقال إن القوس مستعار للخلافة على حد استعارة النور والشمس ، لأجل أنه لا يتصور أن يخرج للخلافة شبه من القوس على الانفراد ، وأن يقال : «هي قوس» كما يقال : «هي نور» و«شمس» وإنما الشبه مؤلف لحال الخلافة مع القائم بها ؛ من حال القوس مع الذي براها وهو أن الباري للقوس أعرف بخيرها وشرها ، وأهدى إلى توتيرها وتصريفها ، إذ كان العامل لها فكذلك الكائن على الأوصاف المعتبرة في الإمامة والجامع لها يكون أهدى إلى توفية الخلافة حقها ، وأعرف بما يحفظ مصارفها عن الخلل ، وأن يراعي في سياسة الخلق بالأمر والنهي التي هي المقصود منها ترتيبا ووزنا تقع به الأفعال مواقعها من الصواب كما أن العارف بالقوس يراعي في تسوية جوانبها وإقامة وترها ، وكيفية نزعها ووضع السهم الموضع الخاص منها ، ما يوجب في سهامه أن تصيب الأغراض ، وتقرطس في الأهداف ، وتقع في المقاتل ، وتصيب شاكلة^(١) . الرمي^(٢) .

وأنت ترى الإمام عبد القاهر قد حلل الاستعارة تحليلًا بارعاً ويقال ذلك المثل حين يسند الأمر إلى أهله فالشبه فيه ليس منتزعاً من شيء واحد فليس منتزعا من الأخذ وحده ، بل من الأخذ ومما اتصل به من وقوعه من باري القوس على القوس وذلك هو الذي أفاد أن الأخذ واقع في مكانه الصحيح ، وموقعه الذي يجب أن يحل فيه وتجري الاستعارة من خلال تشبيه حال الأمر وقد وسد وأسند إلى من هو أهل له بحال القوس حين يأخذها باريها والجامع

(١) قرطس الرامي - أصاب الهدف و«الشاكلة» الخاصرة يكون فيها المقتل و«الرمي» هي الطريقة التي يرميها الصائد بسهمه .

(٢) أسرار البلاغة ص ٢٥٨ ، ٢٥٩ .

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ عَلِيِّ بْنِ

أَنْ كَلَّا أَعْرِفَ بِمَا أَخَذَ وَأَصْلَحَ لِأَنْ يُوْفِيَهُ حَقَّهُ فَالتَّغْيِيرُ الَّذِي حَدَثَ هُنَا حَدَثٌ فِي مَجْمُوعَةِ أَشْيَاءَ تَكُونُ مِنْهَا هَيْئَةٌ مُرَكَّبَةٌ .

وهناك أساليب تلتبس بين المجاز المفرد والمجاز المركب ولقد وقف الإمام عبد القاهر بين يديها وقفة يبين المراد منها ، ويردها إلى ما يجب أن تكون عليه وذلك كما في لفظ « اليد » التي عدها المتأخرون من باب المجاز المرسل الذي علاقته السببية إذ أن المراد من « اليد » في هذا هو القدرة وبين عبد القاهر لفظ « اليد » وكل ما يدل على التمكن والاقتدار من المجاز المركب الذي يمثل هيئة أو حالة فيقول : « وأما إذا أريد باليد القدرة فهي إذن أحسن إلى موضعها الذي بدئت منه وأصب ^(١) بأصلها لأنك لا تكاد تجدها تترادف معها القدرة إلا والكلام مثل صريح ومعنى القدرة منتزع من « اليد » مع غيرها أو هناك تلويح بالمثل ^(٢) . فعبد القاهر يبين أن كلمة اليد حين ترد في سياق التمكن والاقتدار تعد من خلال سياقها الذي وردت فيه من المجاز المركب ولذا تراها على هذا النحو في بيت الشماخ :

إِذَا مَا رَايَةً رُفِعَتْ لِحْدٌ تَلَقَّاهَا عَرَابَةٌ بِالْيَمَنِ

ويعلق الإمام عبد القاهر على تفسير المبرد لكلمة اليمين في بيت الشماخ بالقوة فيقول : « وهذا منهم تفسير على الجملة ، وقد قصد إلى نفي الجارحة بسرعة خوفا على السامع من خطرات تقع للجهال ، وأهل التشبيه جل الله وتعالى عن شبه المخلوقين ولم يقصدوا إلى بيان الطريقة والجهة التي منها يحصل على القدرة والقوة وإذا تأملت علمت أن ذلك عن طريق المثل » ، وقول الإمام « لم يقصدوا إلى بيان الطريقة والجهة » إشارة لافته ومنبهة إلى أنه لا بد من الوقوف أمام الأساليب طويلا ، وتمليها كثيرا ، والأخذ الجاد في العمل على تحليلها ، واستنطاقها ، وسبر أغوارها ، ورؤيتها رؤية عميقة من خلال

(١) أصب : أشد صباة وشوقا

(٢) أسرار البلاغة ص ٣٥٦ .

الصورة البيانية ————— دراستي في مسأله البيان ————— ❁

سياقها والمجال الذي تتحرك فيه ليس للوصول إلى ما تدل عليه ، وتشير إليه وإنما لمعرفة كيف تدل على ما تدل عليه وكيف أفادت ذلك ومن أين جاءت الفائدة فكلمة اليمين في بيت الشماخ من خلال سياقها تشير إلى القوة ، وترشد إلى ذلك فمن أين جاءها ذلك ؟ وكيف دلت عليه؟ وكيف أذاعته وأشاعته ؟ إن قولهم إن اليد مجاز عن القدرة لعلاقة السببية تضييع لدلالة تولدت في هيئة متكاملة قد تكون الكلمة المفردة هي مركز الدلالة فيها ولكن سياق القدرة والتمكن والاعتدال التي وردت فيه تنبثق من كل ذلك هيئة وعلى كل الأحوال علينا أن ندرك أن المهم ليس أن نعرف أن هذا الكلام أفاد ولكن أن نعرف كيف أفاد وما وجه دلالة على تلك الإفادة؟ وحين نرجع إلى الإمام عبد القاهر لنستجلي رؤيته في بيت الشماخ بعد ما أشار إلى تفسير المبرد لليمين بالقدرة كما أشرنا إلى ذلك فإننا نراه يقول : «وهكذا شأن البيت إذا أحسنت النظر وجدته إذا لم تأخذه من طريق المثل ، ولم تأخذ المعنى من مجموع التلقي واليمين على حد قولهم : «تقبلته بكليتي» وكقوله :

ولكن تلقّت باليدين ضَمائتي وملّ بفلجٍ فالقنفد عُودِي

وهو يشكوك إلى طبع الشعر ورأيت المعنى يتألم ويتظلم^(١) . فعراة الأوسى في سماحة نفس ، وسخاء يد ، وكرامة خلق يسمو إلى الخيرات ، وينهض بالمكرمات بجد ورغبة واهتمام ولأن قوله باليمين مما يشير إلى الاهتمام والعناية شبهت حالة عراة في حرصه على المجد ، واعتزازه به ، والعمل من أجله بحال الرجل يختاره قومه لحمل الراية في وقت الشدة والقتال قابضا عليها بيمينه خوفا من أن تفلت منه واستعير التركيب الدال على المشبه به للمشبه

(١) أسرار البلاغة ص ٣٦٠ ، الضمانة كالزمانة العاهة والمرض وفلج والقنقد : موضعان والعود جمع عائد وهو الذي يعود المريض .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ ﴾

ومما جاء على هذا النحو ما تراه في قول الشاعر :

هُوَ عَلَىكَ فَإِنْ الْأُمُورُ بِكَفِ الْإِلَهِ مَقَادِيرُهَا

شبهت الأمور المقدرة من خير وشر والله يتصرف فيها بمشيئته وحكمته بحال الشيء حين يكون في يد صاحبه فيتصرف فيه كيف يشاء واستعير التركيب الدال على المشبه به للمشبه استعارة تمثيلية ، ومن الشواهد التي ذكرها^(١) . الإمام عبد القاهر ما رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ : « إن أحدكم إذا تصدق بالتمرة من الطيب ولا يقبل الله إلا الطيب جعل الله ذلك في كفه فيريها كما يربي أحدكم فله^(٢) . حتى يبلغ بالتمرة مثل أحد » فالشبه منتزع من المجموع والاستعارة هنا في قوله : « جعل الله ذلك في كفه » وإجراء الاستعارة أن يقال شبهت حال الصدقة القليلة عند الله في محبته لها ، ورضاه عنها ، ولها بالشيء المحبوب يوضع في اليد حبا له ، واعتزازا به وحرصه واستعير التركيب المشبه به للمشبه .

ومن الاستعارة التمثيلية قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ (ق: ٣٧) ، أي إن في ذلك لذكرى لمن يصح أن يقال له قلب وحين تنظر إلى لفظ « قلب » تجده نكرة مجردة من الوصف إذ لم تقل الآية لمن له قلب يعي ويتعظ به حتى لا تفيد عند الوصف أن للكافر قلبا لا يتعظ به وإنما جاءت على هذا النحو حتى يخرج الكلام من دائرة الحقيقة إلى دائرة الاستعارة فالآية إنما سيقنت للتعريض بالكافرين فدلالتها بالتصريح أن من يتذكر ويتعظ فله قلب ، ودلالتها بالتعريض أن الذي لا يتذكر لا قلب ، ومبنى ذلك التخيل والتشبيه وذلك يمثل حال من عدم التذكر مع وجود القلب فيه في الواقع بحال إنسان خلق جسداً بدون قلب واستعير المشبه به للمشبه استعارة تمثيلية ويفهم

(١) أسرار البلاغة ص ٣٦٥ .

(٢) الفلو : المهر إذا فطم .



الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي تَالِبٍ ————— ❁

من كلام عبد القاهر أن في الآية تعريضا والتعريض خلاف التصريح والتعريض يتضمن عن طريق مفهومه تشبيه من لا يتذكر بمن لا قلب له نظير التعريض في قوله تعالى : « إنما يتذكر أولو الألباب » يقول الإمام عبد القاهر بعد أن ذكر الآية : « أي لمن أعلم قلبه فيما خلق القلب له من التدبر والتفكير والنظر فيما ينبغي أن ينظر فيه . فهذا على أن يجعل الذي لا يعي ولا يسمع ولا ينظر ولا يتفكر كأنه قد عدم القلب من حيث عدم الانتفاع به وفاته الذي هو فائدة القلب والمطلوب منه ^(١) .

هذا والأمثال العربية كلها التي تستعمل في حالات شبيهة بالوقائع التي قيلت فيها تعد استعارات تمثيلية مشتهرة لأنها تنقل فيها جملة المثل من واقعة وردت فيها إلى حالة أخرى شبيهة بها كما ذكرنا ذلك من قبل .

هذا والمثل السائر يدل على حالة غريبة هي مورده الذي قيل فيه أولا فقد استعاروا كلمة « مثل » لكل حالة غريبة أو قصة لها شأن وفيها غرابة بتشبيه الصفة أو القصة الغريبة بالمثل السائر بجامع الغرابة في كل واستعير لفظ « مثل » من المشبه له للمشبه على طريق الاستعارة التصريحية وقد ورد ذلك كثيرا في القرآن الكريم كقوله تعالى ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ ﴾ (الرعد: ٣٥) ، وكقوله تعالى ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾ (البقرة: ١٧) ، بمعنى حالتهم كحال المستوقد .

* * *

(١) دلائل الإعجاز ص ٣٠٤ .

أساليب من الاستعارة تلتبس بالتشبيه

سنعرض لصور من الاستعارة وإن كان قد ذكر فيها ما يوهم بوجود الطرفين وذلك لأنه قد تنوسي هذا التشبيه ، وصرفت النفس عن توهمه وقد سبقت الإشارة في الحديث عن حد الاستعارة والفرق بينها وبين التشبيه وتبين لنا أنه إذا ذكر المشبه كان الكلام تشبيها وإذا أسقط المشبه وترك كان استعارة لكن ذكرت صور ذكر فيها ما يوهم أنه المشبه وعدت من الاستعارة فمن ذلك على حد ما ذكر الخطيب قول ابن العميد في غلام جميل قام على رأسه يظله من الشمس :

قامت تظللني من الشمس نفس أعزُّ على من نفسي

قامت تظللني ومن عجب شمس تظللني من الشمس

وحين تتأمل لفظ « الشمس » في الشطر الثاني من البيت الثاني تجد أنه استعارة للغلام الجميل بعد جعله واحدا من الشمس الحقيقية على طريق التخيل والادعاء ولولا جعله من الشمس الحقيقية لما كان هناك داع للتعجب ، ولما كان له معنى ذلك أنه ليس من الغريب أن يظل إنسانا آخر فالتعجب إنما يكون من الأمر الغريب الذي لا وجود له وهو أن تظل شمس شمسا أخرى وإنما عدت استعارة مع أن المشبه ذكر صريحا في البيت الأول وذكر ضميره في البيت ؛ لأنه نظر إلى الجملة المستقلة والتي أسقط فيها المشبه وذكر مكانه المشبه به وكأن النظر بعد الإسقاط إلى قوله : ومن عجب شمس تظللني من الشمس .

ومما جاء على هذا النحو قول ابن طباطبا :

لا تعجبوا من بلى غلاته قد زرَّ أزراه على القمر

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَةٌ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ❁

البلى : الفساد والغلالة شعار أي ثوب ضيق الكمين كالقميص يلاقي البدن ، ويلبس أيضا تحت الدرع وزر بمعنى شد وبنى معنى هذا البيت على ما تقرر من أن ثياب الكتان يتسارع إليها البلى والفساد عند بروزها للقمر مباشرة فالشاعر استعار القمر لصاحب الغلالة ولا ينافي الاستعارة ذكر المشبه وهو ضمير الغيبة في - غلالته وأزراره - لأن الذي ينافيها ذكر المشبه على وجه ينبئ عن التشبيه بأن يكون المشبه أو نحوه فالشاعر استعار القمر لذي الغلالة بعد أن أدخله بالادعاء في جنس الأقمار ، لذا لم يعد غريبا أن تبلى ثيابه لملاصقتها لجسم قمر ومن شأن الأقمار إبلاء الثياب ^(١).

ومثل هذا قول الشاعر :

تَرَى الثِّيَابَ مِنَ الْكَتَانِ يَلْمَحُهَا نُورٌ مِنَ الْبَدْرِ أَحْيَاءُ فَيُثْلِيهَا
كَيْفَ تُنْكِرُ أَنْ تَبْلَى مَعَاجِرُهَا وَالْبَدْرُ فِي كُلِّ وَقْتٍ طَالَعُ فِيهَا ^(٢)

والاستعارة في إطلاق البدر على صاحبه المعاجر فالشاعر استعار البدر لذات الوجه الحسن وأدخله بالادعاء في جنس الأقمار الحقيقية فلم يعد غريبا أن تبلى معاجرها لأنها ملاصقة لجسم قمر ومن شأن الأقمار أن تبلى الثياب ؛ ولذا كان النهي عن التعجب ، ومن هذا أي ما عد استعارة مع ذكر المشبه والمشبّه به قول الشاعر :

صَحَّ أَنْ الْوَزِيرَ بَدْرٌ مَنِيرٌ إِذْ تَوَارَى كَمَا تَوَارَى الْبَدْرُ
غَابَ لَا غَابَ ثُمَّ عَادَ كَمَا كَانَا نَ عَلَى الْأَفْقِ طَالَعًا يَسْتَتِيرُ

فالتشبيه ظاهر لكن الشاعر قد زاد في مبالغته بالتخييل وتناسى التشبيه واستعار البدر للممدوح وأوهم أنه يتحدث عن بدر حقيقي فذكر أحواله وأوصافه من التواري والطلوع وساق هذا الكلام مساق الحجة حين قال : صح أن الوزير

(١) انظر بغية الإيضاح ١١٥/٣ .

(٢) يبلّيتها : يخلّقها ، والمعاجر : جمع معجز وهو ثوب تشدّه المرأة على رأسها .

❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

وهذا ما ذكره العباس بن الأحنف حين قال :

هي الشمس مسكنها في السماء فَعَزَّ الْفُؤَادَ عِزًّا جَمِيلاً
فلن تستطيع إليها الصَّعود ولن تستطيع إليك النزولاً

فالتشبيه هنا ظاهر كسابقه وقد جعلها شمساً حقيقية وبذلك تناسى التشبيه الذي عقده ومضى في حديثه عن الشمس الحقيقية التي تسكن السماء بعد أن تخيل أن المحبوبة شمس حقيقية وفي البيت الثاني اتخذ الشاعر من القضية الأولى وهي كون الحبيبة شمساً حقيقية حجة على أنه عليه أن يقطع الرجاء والأمل في وصال هذه المحبوبة ؛ لأنها في السماء وهو غير مستطيع الصعود إليها ، وهي لن تستطيع النزول إليه لأنها شمس حقيقية ومن الواضح استعارة الشمس للمحبوبة فهي لم تجعل كالشمس وإنما جعلت شمساً

ومن هذا قول المتنبي :

ما كنت أحسب قبل دفنك في الثرى أن الكواكب في التراب تغورُ
ما كنت آمل قبل نعشك أن أرى رَضْوَى على أيدي الرجال تسيرُ

ففي البيت الأول يقول قبل دفنك ما كنت أحسب وأظن أن النجوم تختفي في التراب ولولا أنه جعله كوكباً حقيقياً لما صح أن يقول : « ما كنت أحسب قبل دفنك » وفي البيت الثاني يريد أن يقول قبل حملك في النعش على أيدي الرجال ما كنت أظن أن رضوى تنقل من موضع إلى موضع ولولا أنه جعله جبلاً حقيقياً لما صح أن يقول : « ما كنت آمل قبل نعشك » فالكوكب ورضوى استعارتان مع أن طرفي التشبيه مذكوران لماذا ؟ لأن النفي المشوب بالتعجب في أول كل بيت من البيتين يكون خالي الفائدة إذا جعل الممدوح كالكوكب كرضوى ولم يجعل كوكباً على الحقيقة وجبلاً على الحقيقة لأن في التشبيه إحالة للمعنى فالنعش جبل والممدوح كوكب ولولا ذلك لما صح الكلام واستقامت صورته .

* * *

الاستعارة المكنية

الاستعارة تنقسم إلى استعارة تصريحية وقد أفضنا في الحديث عنها وإلى استعارة مكنية وهذا التقسيم للاستعارة إنما هو تقسيم لها باعتبار ذكر أحد طرفيها فالاستعارة تنقسم إلى هذين القسمين باعتبار ذكر أحد طرفيها خذ قول المتنبي :

حَمَلْتُ إِلَيْهِ مِنْ لِسَانِي حَدِيقَةً سَقَاها الْحَجَى سَقَى الرِّياضِ السَّحَابُ^(١)

فقد جعل القصيدة حديقة لما فيها من الإبداع المتنوع كما يكون في الروضة من الزهر والنبات وجعل العقل ساقيا لها كما يسقي الرياض السحاب جمع سحابة .

فقد استعار لفظ الحديقة للقصيدة الشعرية لاشتمالها على الإبداع على سبيل الاستعارة التصريحية ثم رشح لها بما يلائم المستعار منه فقال : « سقاها » لكنه أسند هذا الفعل إلى « الحجي » العقل على أساس تشبيهه بمن يتأتى منه السقى ثم حذف المشبه به وأثبت لازمه « سقاها » للمشبه على سبيل الاستعارة المكنية وفي إثبات لازم المشبه به للمشبه استعارة تخيلية لأن فيها تخيلا

ويرسم ذو الرمة صورة ليل الصحراء المعطر بأنفاس الخزامى وأريج الزهور فيقول :

وَرِيحُ الْخُزَامَى رَشَّهَا الطَّلُّ بَعْدَهَا دَنَا اللَّيْلُ حَتَّى مَسَّهَا بِالْقَوَادِمِ

فأنت ترى الليل وقد جسمه الشاعر في صورة طائر ضخم يزحم الأفق ، ويغشى الأرض بجناحيه وهو يدنو منها ويقترب حتى يمس أزهار الخزامى

(١) الحديقة : هي الروضة التي قد أحرق بها حاجز وهي ذات النخل والزرع وجمعها حدائق والحجي : العقل .



❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

التي أخذت قطرات الندى اللماع ترش أوراقها ، وتترقرق عليها فتتشر عطرها الفواح على نحو يسبط المشاعر ، وينشر الأُنس ويجمل الحياة فهو يجسم الليل ويشبهه بطائر ضخم ويحذف المشبه به ويرمز إليه بشيء من لوازمه وهي قوادمه على سبيل الاستعارة المكنية وفي إثبات لازم المشبه به « القوادم » للمشبه « الليل » استعارة تخيلية وهي قرينة المكنية

وفي تحديد هذه الاستعارة ثلاثة آراء يقول صاحب المطول : « في تحقيق معنى الاستعارة بالكناية والاستعارة التخيلية قد اتفقت الآراء على أن في مثل قولنا أظفار المنية نشبت بفلان استعارة بالكناية واستعارة تخيلية لكن اضطربت في تشخيص المعنيين اللذين يطلق عليهما هذان اللفظان ومحصل ذلك يرجع إلى ثلاثة أقوال » ^(١).

١- القول الأول : هو ما ذهب إليه الخطيب وهو أشهر هذه الآراء وأكثرها على ألسنة الدارسين وقد عرفها الخطيب على ما يفهم من كلامه بأنها التشبيه المضمّر في النفس الذي لم يصرح بشيء من أركانه سوى المشبه وذكر لازم المشبه به ، ليدل على التشبيه وعلى هذا يسمى التشبيه استعارة بالكناية أو مكنيا عنها ويسمى إثبات ذلك الأمر للمشبه استعارة تخيلية ففي قول أبي ذؤيب الهذلي :

وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا أَلْفَيْتُ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ ^(٢)

يقول إذا حان الحين ذوى الغصن ، وذبل الزهر ، وتصرم الأجل وعجزت كل الحيل ولا مرد لقضاء الله ويقال في إجراء الاستعارة شُبّهت المنية بالسبع تشبيها مضمرا في النفس بجامع الاغتيال في كل وحذف المشبه به وهو السبع وأثبت

(١) المطول ٣٨١ .

(٢) أنشبت أظفارها أي مكنتها وعلقتها - وألفيت بمعنى وجدت والتميمة يعني كل معاذة وهي خرزة تعلق على الصبي لتكون له حجابا من العين والهلاك في زعمهم .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دُرُوسَةٌ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ❁

لازمه وهو الأظفار للمشبه وهو المنية وإثبات لازم المشبه به للمشبه استعارة تخيلية وهي قرينة المكنية ويلاحظ على الخطيب هنا أنه أطلق على التشبيه المضممر في النفس وهو عمل من أعمال المتكلم استعارة وإذا كانت الاستعارة على حد ما هو معلوم مما سبق لفظ ينقل من معناه إلى غيره لعلاقة المشابهة والأعمال خلاف الألفاظ فلا وجه لتسمية التشبيه المضممر في النفس استعارة أما تسميتها مكنية فله وجه وهو أن الخفاء وهو معنى الكناية اللغوي موجود فيها لعدم التصريح فيها بالمشبه به والدلالة عليه بلازمه وهكذا فما هنا تشبيه مضممر في النفس بين المنية والسبع والكلمات مستعملة في معناها الموضوعية له ، لم تتجاوزه إلى شيء آخر ، فالمنية مستعملة في معناها الحقيقي وكذلك السبع ، فليس شيء في المنية يشبه السبع حتى يتوهم أنها مستعارة له ، وليس شيء في الأظفار يشبه المنية حتى يقال : إنها مستعارة لها وعلى هذا تكون هاتان الاستعارتان من الأمور المعنوية وليستا من المجاز اللغوي الذي هو استعمال الكلمة في غير ما وضعت له ، فالاستعارتان - المكنية والتخيلية ليستا في الألفاظ وإنما هما في أمور واعتبارات معنوية ونفسية أي في تشبيه مضممر ، ومن الشواهد الذائعة في هذا الباب وقد استشهد به الخطيب قول لبيد :

وغداة ريح قد كشفت وقرّة إذ أصبحت بيد الشمال زمامها

وغداة ريح معناه ورب غداة ريح قد كشفت الجوع بالقرى قوله : « وقرّة » معناه وبرّد فالقرّ والقرّة : البرد ، ويقال : شمال قرّة بفتح القاف ، وفي رواية « قد وزعت » ومعناه : كفت ورددت وقوله : « إذ أصبحت بيد الشمال » معناه إذ أصبحت في الغداة الريح زمامها بيد الشمال فهو يريد أن يقول : كم من غداة تهب فيها الشمال وهي أبرد الرياح ، وبرّد قد ملكت الشمال زمامه قد كشفت الجوع ، وكفّت عادية البرد عن الناس بإطعامهم . فهو يقدم الطعام للفقراء والمحتاجين عند اشتداد البرد ، وعند هبوب ريح الشمال حينما يكون الناس في ميسس الحاجة إلى الدفء .

❁—————الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ—————دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

يقول الخطيب : « فإنه جعل للشمال يدا ومعلوم أنه ليس هناك أمر ثابت حساً أو عقلاً تجري اليد عليه كإجراء الأسد على الرجل الشجاع والصراط على ملة الإسلام فيما سبق ، ولكن لما شبه الشمال لتصريفها القرة على حكم طبيعتها في التصرف بالإنسان المصرف لما زمامه بيده أثبت لها يدا على سبيل التخيل مبالغة في تشبيهها به ، وحكم الزمام في استعارته حكم اليد في استعارتها للشمال ، فجعل للقرة زماما ليكون أتم في إثباتها مصرفة كما جعل للشمال يدا ليكون أبلغ في إثباتها مصرفة فوقى المبالغة حقها من الطرفين»^(١).

ومن هنا يعلم أن الشاعر شبه الشمال بإنسان له يد تشبيها مضمرا في النفس بجامع مطلق التصرف في كل ، ثم تنوسي التشبيه ، ثم أثبت لازم المشبه به وهو اليد للمشبه وهو الإنسان وفي إثبات هذا اللازم للمشبه استعارة تخيلية وهي قرينة المكنية ، أما أنه استعارة فلأن اللازم المذكور وهو الأمر المختص بالمشبه به استعير للمشبه واستعمل معه ، وأما أنه استعارة تخيلية فلأن ذلك اللازم لما نقل واستعمل مع المشبه خيل للسامع أن المشبه من جنس المشبه به ويجب أن يُعلم أن قرينة المكنية استعارة تخيلية دائما وهي إثبات لازم المشبه به للمشبه وأنهما متلازمان فلا توجد إحداهما بدون الأخرى أي لا توجد التخيلية بدون المكنية ، والمكنية يجب أن تكون قرينتها تخيلية ، كما يجب أن يكون معلوما أن طرفي الاستعارة التخيلية مستعملان في معنيهما الحقيقيين ، فاليد والشمال كلاهما مستعمل في المعنى الموضوع له . والتجوز إنما هو في إثبات اليد للشمال على أن في بيت لبيد استعارة مكنية أخرى ؛ حيث شبه القرة تشبيها مضمرا في النفس بالمطية وحذف المشبه به بعد تناسي التشبيه ، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو « زمامها » وفي إضافة هذا اللازم استعارة تخيلية وهي قرينة المكنية هذا ومن الواضح أن الخطيب القزويني قد انتفع بما ورد عند الإمام عبد القاهر الذي يتحدث

(١) بغية الإيضاح ، ١٥٥/٣ .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَةٌ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ❁

عن الاستعارة المفيدة وهي « أن تريد تشبيه الشيء بالشيء فتدع أن تفصح بالتشبيه وتظهره وتجيء إلى اسم المشبه به فتعيّره المشبه ، وتجريه عليه تريد أن تقول رأيت رجلا هو كالأسد في شجاعته ، وقوة بطشه فتدع ذلك وتقول رأيت أسداً»^(١) فهناك الاسم وهو الأسد قد تناول شيئاً معلوماً وهو الرجل الشجاع ونقل الاسم عن مسماه الأصلي وهو الحيوان المفترس فجعل اسماً للرجل الشجاع على طريق الاستعارة هذا قسم من الاستعارة وهناك قسم آخر وهو أن يؤخذ الاسم على حقيقته ويوضع موضعاً لا يُتَبَيَّنُ فيه شيء يشار إليه ، فيقال هذا هو المراد بالاسم والذي استعير له ، وجعل خليفة لاسمه الأصلي ونائباً منابه ، ومثاله قول لبيد :

وغداة ريح قد كشفت ، وقِرَّةٌ إذ أصبحت بيد الشمال زمامها

وذلك أنه جعل للشمال يداً ومعلوم أنه ليس هناك مشار إليه يمكن أن تجري اليد عليه كإجراء الأسد والسيف على الرجل في قولك : انبرى لي أسد يزأر ، وسللت سيفاً على العدو لا يُفَلِّ ... ثم قال وليس لك شيء من ذلك في بيت لبيد وليس لك أكثر من أن تُخَيِّلَ إلى نفسك أن «الشمال» في تصريف «الغداة» على حكم طبيعتها كالمدير المصرف لما زمامه بيده ، ومقاداته في كفه وذلك كله لا يتعدى التخيل والوهم والتقدير في النفس» وبعد أن بين الإمام أنه لا يصح أن يراد «باليد» شيء هي جارية عليه كجريان الأسد على الرجل الشجاع في قولك : لقيت أسداً يفترس أعداءه قال : «وإنما غايتك التي لا مطّلع وراءها أن تقول : أراد أن يثبت للشمال في الغداة تصرفاً كتصرف الإنسان في الشيء يقلّبه فاستعار لها «اليد» حتى يبالغ في تحقيق الشبه وحكم «الزمام» في استعارته للغداة حكم «اليد» في استعارتها للشمال إذ ليس هناك مشار إليه يكون «الزمام» كناية عنه ولكنه وفي المبالغة شرطها من الطرفين فجعل على الغداة «زماماً» ليكون أتم في إثباتها مُصَرِّفةً كما فجعل على الغداة

(١) انظر دلائل الإعجاز ، ص ٦٧ .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ —————﴾ دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

« زماما » ليكون أتم في إثباتها مُصَرَّفَةٌ كما جعل للشَّمال « يدا » ليكون أبلغ في تصييرها مُصَرَّفَةٌ ويفرق الإمام عبد القاهر بين هذين الضربين من الاستعارة التحقيقية والتخييلية فيبين أنك إذا رجعت في القسم الأول ما سمي بالاستعارة التحقيقية - إلى التشبيه الذي هو المغزى من كل استعارة مفيدة وجدته يأتيك عفوا ، وإن رمته في القسم الثاني وجدته لا يُوَاطِّئُ تلك المؤاتاة ؛ إذ لا وجه لأن تقول إذ أصبح شيء مثل اليد للشمال ... وإنما يتراءى لك التشبيه بعد أن تَخْرُقَ إليه سترا ... كقولك : إذا أصبحت الشَّمال ولها في قوة تأثيرها في الغداة شَبَّهُ المالك تصريف الشيء بيده ... ألا ترى أنك لم ترد أن تجعل « الشمال » كاليد ومشبَّهة باليد كما جعلت الرجل كالأسد ومشبَّها بالأسد ولكنك أردت أن تجعل « الشَّمال » كذي اليد من الأحياء ، فأنت تجعل في هذا الضرب المستعار له وهو - نحو « الشمال » ذا شيءٍ وُغَرَضُكُ أن تثبت له حكم من يكون له ذلك الشيء في فعل أو غيره لا نفس ذلك الشيء ، فاعرفه ^(١).

هذا ومما يجب أن نقف على حقيقته أن الشيخ على الرغم من تقسيمه الاستعارة إلى هذين القسمين مع بيان التفرقة بينهما لم يسمَّ الضرب الأول تحقيقية والضرب الثاني تخيلية وإنما هذه القسمة قد سميت فيما بعد على يد من جاء بعده . هذا ومن يتابع الإمام عبد القاهر من خلال حديثه عن بيت « لبيد » يراه لا يرى فيه إلا استعارة واحدة وهي إثبات « اليد للشَّمال » وأن الذي سوَّغ وأجاز إضافة « اليد للشَّمال » هو هذا التشبيه الذي تحقق بين الشمال وذو اليد ، وهو الذي اعتمد عليه خيال الشاعر حين أضاف الشيء إلى غير ما هو له ، مما سمَّى فيما بعد الإمام عبد القاهر بالاستعارة التخيلية . ومما يجب أن نلفت النظر إليه أن الإمام عبد القاهر لا يرى في بيت « لبيد » إلا استعارة واحدة وهي التي تحققت من خلال إضافة « اليد للشَّمال » وهذه

(١) أسرار البلاغة ، ص ٤٥ - ٤٧ .

الصورة البيانية ————— دراستُ في مسأَلِ البَيَانِ ————— ❁

الاستعارة هي التي سميت فيما بعد الإمام عبد القاهر بالاستعارة التخيلية ، ولعل الإمام عبد القاهر أول من فطن إليها ، وعرف قيمتها ، وأخذ يبدئ ويعيد الحديث فيها في كتابيه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة كما أنه وقف على سرِّ بلاغتها ورفعها من حيث قيمتها الفنية على ما سمي فيما بعد بالاستعارة التحقيقية يقول في دلائل الإعجاز : « وليس هذا الضرب من الاستعارة بدون الضرب الأول في إيجاب وصف « الفصاحة » للكلام ، لا بل هو أقوى في اقتضاءها . والمحاسن التي تظهر به ، والصور التي تحدث للمعاني بسببه ، آنق وأعجب »^(١).

هذا وإذا كان الإمام عبد القاهر لا يرى في بيت « لبيد » إلا استعارة واحدة على نحو ما ذكر فإن الاستعارة المكنية لا سند لها في كتاب عبد القاهر فيما أرى ، ولعل أول من سمى الاستعارة التخيلية والمكنية المفسر العظيم الإمام فخر الدين الرازي في كتابه نهاية الإيجاز الذي لخص فيه كتابي أستاذ الإمام عبد القاهر وننتهي إلى أن الاستعارة عند الإمام عبد القاهر إما أن تكون في أن تجعل للشيء الشيء ليس به ، أو في أن تجعل للشيء الشيء ليس له ، وفسر الإمام عبد القاهر ذلك بقوله : « تفسير هذا أنك إذا قلت : « رأيت أسداً » فقد ادعيت في إنسان أنه أسد ، وجعلته إياه ، ولا يكون الإنسان أسداً ، وإذا قلت : « إذ أصبحت بيد الشمال زمأمها » فقد ادعيت أن للشمال يداً ومعلوم أنه لا يكون للشمال يد »^(٢) ، وقد ذكرنا من قبل أن الإمام عبد القاهر لم يشعر كلامه بذكر الاستعارة بالكناية وفي ذلك يقول الإمام سعد الدين « وأما الشيخ عبد القاهر فلم يشعر كلامه بذكر الاستعارة بالكناية ، وإنما دل على أن في قولنا « أظفار المنية » استعارة بمعنى أنه أثبت للمنية ما ليس لها بناء على

(١) دلائل الإعجاز ص ٤٦١ .

(٢) دلائل الإعجاز ص ٦٧ .

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

تشبيهها بما له الأظفار وهو السبع وذلك قريب مما ذكره المصنف في التخييلية»^(١).

هذا ومن خلال توضيح الإمام عبد القاهر لقسمى الاستعارة اللتين سميتا فيما بعد بالتحقيقية والتخييلية والفرق بينهما وعرضه في هذا البيت «ليبد» الذي بين أن التشبيه فيه لا يواتيك إلا بعد أن تخرق إليه سترا ، وتعمل تأملا وفكراً ، ورفض في هذا القسم وهو التخييلية أن يُتَمَحَّلَ لها ما يظنه البعض ممن يبغى التعمق على حد قوله ما يخرجها عن تخيلها على حد ما وقع منهم في بيت زهير :

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله وعُرِّى أفراس الصِّبا ورواحله^(٢)

فالشاعر قد جعل للصِّبا من الطيش ، والجهل ، والانهماك في اللذات أفراسا ورواحل وأنت لا تستطيع أن تثبت ذواتا أو شبه ذوات تتناولها الأفراس والرواحل في البيت على حد تناول الرجل الموصوف بالشجاعة ، والبدر الموصوف بالحسن والبهاء ... وليس إلا أنك أردت أن الصِّبا قد ترك وأهمل فصار كالأمر يُنْصَرَفُ عنه فتُعْطَلُ آلاته ، وتُطْرَحُ أدواته فإن جاء - وهو تكلف من يبغى التعمق وادعى أن الأفراس والرواحل مستعارة لما يشبهها من دواعي النفوس من الغرائز الجامحة ، والشهوات الموصلة للهوى والخمر واللذات ، فإنه يخرج إلى ما يضر المعنى ، وينبو عن طبع الشعر ، ويفسد الصورة ويقول الإمام عبد القاهر : «وليس من حَقِّك أن تتكلف هذا في كل موضع ، فإنه ربما خرج بك إلى ما يضر المعنى ، وينبو عنه طبع الشعر ، وقد يتعاطاه من يخالطه شيء من طباع التَّعَمُّق ، فتجد ما يفسد أكثر مما يصلح»^(٣).

(١) المطول ، ص ٣٨٣ ، ٣٨٤ .

(٢) صحا القلب : مجاز بالاستعارة عن السلوان أقصر باطله - امتنع عن باطله - الرواحل عدة السفر التي تحمل عن النوق .

(٣) أسرار البلاغة ، ص ٤٨ ، ٤٩ .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ الْبَيَانِ ————— ❁

هذا وكلام الخطيب في بيت «ليبد» وهذا البيت لزهير مأخوذ مما قاله الإمام عبد القاهر في هذين البيتين على نحو يظهر فيه أثر الإمام عبد القاهر واضحا حتى ليكاد كلام الخطيب يشته به .

هذا وقد سبق كلام الخطيب في بيت «ليبد» وحين نتابعه في بيت زهير الذي بين أن الاستعارة فيه تحتل أن تكون تخيلية وأن تكون استعارة حقيقية «فالسُّبَا» قد يكون مأخوذا من الصبوة وهي الجهل ، والفساد والطيش ، والانهماك في اللذات ، فيكون قد جعل للجهل والفساد أفراساً ورواحل معطلة عن الاستعمال فشبه الصُّبَا بما فيها من طيش وجهل وفساد بجهة من جهات المسير كالحج والتجارة ، وحذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهي الأفراس والرواحل والاستعارة مكنية وإثبات الأفراس والرواحل للصبأ قرينة المكنية ، وهي استعارة تخيلية وإن كان «الصُّبَا» بمعنى الفتوة والشباب وصغر السن والأفراس والرواحل قد تكون بمعنى الغرائز الجامحة والمنطلقة في سن الفتوة والشباب والتي تدفع النفوس إلى الهوى والحب واللذة والخمر فيكون قد شبه دواعي النفوس وشهواتها بالرواحل والأفراس واستعار الرواحل والأفراس لهذه الغرائز استعارة حقيقية عقلية ، وقد يكون المراد بالأفراس والرواحل الأسباب الموصلة لارتكاب المفاصد من المال والأصحاب وعليه فيكون قد شبه هذه الأسباب الحسية - من المال والأصحاب - بالأفراس والرواحل وحذف المشبه واستعير المشبه به للمشبه استعارة حقيقية حسية ^(١).

رأي الجمهور أو السلف :

ذهب السلف إلى أن الاستعارة بالكناية هي لفظ المشبه به المستعار في النفس للمشبه والمحذوف والمدلول عليه بذكر شيء من لوازمه وخواصه ، فالمقصود بقولنا أظفار المنية استعارة السبع للمنية كاستعارة الأسد للرجل

(١) انظر بغية الإيضاح ، ١٥٦/٣ ، ١٥٧ .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ —————﴾ دَرَسَتْ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

الشجاع في قولنا رأيت أسدا لكننا لم نصرح بذكر المستعار وهو السبع ، بل اجتزأنا عنه بذكر لازمه لينتقل منه إلى المقصود كما هو شأن الكناية ، فالمستعار هو لفظ «السبع» وهو غير مصرح به والمستعار منه هو الحيوان المفترس والمستعار له هو المنية ، وبهذا يشعر كلام صاحب الكشف في قوله تعالى : ﴿يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ﴾ (البقرة: ٢٧) حيث قال شاع استعمال النقض في إبطال العهد من حيث تسميتهم العهد بالحبل على سبيل الاستعارة لما فيه من إثبات الوصلة بين المتعاهدين ، وهذا من أسرار البلاغة ولطائفها أن يسكتوا عن ذكر الشيء المستعار ، ثم يرمزوا إليه بذكر شيء من روافده فينبهوا بتلك الرمزة على مكانه ونحوه قولك : شجاع يفترس أقرانه و«عالم يغترف منه الناس ... لم تقل هذا إلا وقد نبهت على الشجاع والعالم بأنهما أسد وبحر^(١) .

ومن هذه الاستعارة ما تراه في قول ذي الرمة :

وشاماتِ أطلالِ بأرضِ كريمة تراهنَ في جلدِ الترابِ بواقيا

فالشاعر يتحدث عن الشامات التي اختصت بها الأطلال في هذه الأرض الكريمة والشامات : جمع شامة وهي العلامة التي يخالف لونها سائره ويقال : كأنهم شامة أي هم ظاهرون ، فالشامات هنا قد اختص بها الطلل وهذه الشامات ليست في التراب وإنما في جلده إمعانا من الشاعر في أنسنته بإضفاء الصفات الإنسانية عليه ، فالطلل هنا مشخص له جلد تنتشر عليه شامات وعلامات واضحة تميزه وشبه التراب بالإنسان واستعار له الإنسان ، وحذفه ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الجلد .

ويقول في صورة أخرى تتكرر في شعره :

سقاء الكرى كأس الثعاس ورأسه لدين الكرى في آخر الليل ساجد

(١) التلخيص في علوم البلاغة ، ضبط وشرح عبد الرحمن البرقوقي ، ص ٣٢٥ .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ الْبَيَانِ ————— ❁

فهو يصور الليل ساقيا يسقي رفيقه كأساً من نعاس لا يكاد يتجرعها حتى يغلبه النوم ، فلا يستطيع له مقاومة ، ويخر رأسه ساجدا لدين الكرى وهو النوم ، فهو يشبه الكرى بساق واستعار له الساقى وحذفه ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو قوله : « سقاه » .

ومن هذه الاستعارة قول الرسول ﷺ وهو يتجهز لغزوة تبوك : « إني على جناح سفر » ، يقول الشريف الرضي : « وهذه استعارة واقعة موقعها ، ومقرطسة ^(١) غرضها لأنه عليه الصلاة والسلام شبه السفر بالطائر الذي قد همَّ بالمطار وجعل الآخذ أهُبَةً المسافرين كالكائن على جناح ذلك الطائر يُنْتَهَضُ نهوضه ويرقب تحليقه ^(٢) .

ومن هذه الاستعارة ، الاستعارة الشهيرة في قوله تعالى : ﴿ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾ (الإسراء: ٢٤) ، فهذا النص الكريم يوصي الأبناء بالآباء خيراً ويحثهم على ذلك حثاً قويا من خلال صورة الأمر التي تستحسن الوجدان ، وتحرك المشاعر ، وتثير العاطفة في تعبير شفيف لطيف ، يذوب رقة ، ويتدفق ولها يبلغ شغاف القلب ، ويلمس حنايا الوجدان ويفيض حنانا ورحمة ، وفي هذا القول الكريم تراه قد شبه الذل بطائر يرف بجناحيه واستعير المشبه به للمشبه ، ثم حذف المشبه ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الجناح والقرينة إضافة الجناح للذل وهي استعارة تخيلية ، وفي هذا يقول الشريف الرضي .

وهذه استعارة عجيبة ، وعبارة شريفة . والمراد بذلك الإخبات للوالدين ، وإلانة القول لهما ، والرفق واللفظ بهما ، وخفض الجناح في كلامهم عبارة عن الخضوع والتذلل وهما ضد العلو والتعزز ؛ إذ كان الطائر إنما يخفض

(١) يقال : رمى فقرطس أي أصاب الغرض والقراطس : هو الأديم ينصب للنضال .

(٢) المجازات النبوية ، ص ١٠٧ ، شرح محمود مصطفى .

❁ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

جناحه إذا ترك الطيران والطيران هو العلو والارتفاع ، وإنما قال الله تعالى : ﴿ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾ (الإسراء: ٢٤) لِيُبَيِّنَ أَنَّ سَبَبَ الذِّلِّ هو الرحمة والرأفة لئلا يقدر أنه الهوان والضراعة وهذا من الأغراض الشريفة والأسرار اللطيفة»^(١).

ومن هذه الاستعارة ما تراه في قول الرسول ﷺ يذكر فيه أشراف الساعة فيقول : « فعند ذلك تقىء الأرض أفلاذ كبدها » والاستعارة هنا مصورة تشيع الهول ، وتبعث الخوف ، وتصور الأرض بجرمها الهائل الضخم الكبير ، وقد حلّ بها الرعب ، وأصابها الفزع ، فإذا هي تُزَلْزَلُ زلزالها فيخرج كلُّ ما في جوفها من جثث مدفونة ، وكنوز مخبأة ومُغَيَّبَةٌ بداخلها على نحو يَفْعِمُ الحس ، ويذهل العقل ، وَيُرَوِّعُ النفس ، والاستعارة تقوم من خلال تشبيه الأرض وهي تتحرك هذه الحركة الفزعة الخائفة المضطربة بحركة الحيوان الضخم وهو يتقيأ ما في دواخله ، ثم يستعير من يتقيأ من داخله للأرض استعارة مسكوتا عنها ، وقد رمز لها بقوله : « يتقيأ » ويقول الشريف الرضي : « وفي قوله عليه الصلاة والسلام : « تقىء الأرض أفلاذ كبدها » زيادة فائدة في المعنى المراد ، وهو وصف الأرض بالمبالغة في إخراج كنوزها حتى لا يخفى منها خافية ولا يبقى باقية ، وذلك كما يقول القائل : قد تقيأ فلان كبده إذا أراد المبالغة في وصفه باستيعاب جميع ما في جوفه ، وذلك معروف في كلامهم ، وموضوع على قاعدة العرف بينهم»^(٢).

وتجد الاستعارة على هذا النحو في قول الشاعر :

إذا هزّه في عَظْمِ قِرْنٍ تَهَلَّلَتْ نواجد أفواه المنايا الضواحك^(٣)

(١) تلخيص البيان في مجازات القرآن ، بتحقيق علي محمود مقلّد ، ص ١٥٠ .

(٢) المجازات النبوية ، ص ٢٢٦ .

(٣) القِرْنُ : بكسر القاف النـد والنظير ، وتهللت تالّأت وأشرقت - والنواجد هي الأضراس .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَةٌ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ❁

شبهه المنايا عندما يهز السيف في عَظْمِ قِرْنِهِ بِإِنْسَانٍ يَضْحَكُ لِتَوْفَرِ دَوَاعِي السُّرُورِ وَالبَهْجَةِ ثُمَّ اسْتَعَارَ فِي نَفْسِهِ لَفْظَ الْمَشْبَهَةِ بِهِ وَهُوَ الْإِنْسَانُ الَّذِي يَضْحَكُ لِلْمَنَايَا بَعْدَ تَنَاسِيِ التَّشْبِيهِ وَادْعَاءِ أَنَّ الْمَشْبَهَةَ وَهُوَ الْمَنَايَا مِنْ أَفْرَادِ الْمَشْبَهَةِ بِهِ ثُمَّ حَذَفَ الْمَشْبَهَةَ بِهِ وَدَلَّ عَلَيْهِ بِذِكْرِ بَعْضِ لَوَازِمِهِ وَهُوَ «تَهْلُلُ النَّوَاجِدُ» وَإِثْبَاتِ بَعْضِ لَوَازِمِهِ لِلْمَشْبَهَةِ الْمَنَايَا عَلَى طَرِيقِ الْاسْتِعَارَةِ الْمَكْنِيَّةِ .

وَمِنْ هَذِهِ الْاسْتِعَارَةِ عَلَى هَذَا النِّحْوِ مَا تَرَاهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا ﴾ (الفرقان: ١٢).

وَيَقُولُ الشَّرِيفُ الرَّضِي فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا ﴾ (الفرقان: ١٢) وَهَاتَانِ الصِّفَتَانِ مِنْ صِفَاتِ الْحَيَوَانِ ، وَيَخْتَصُّ التَّغِيْظُ بِالْإِنْسَانِ ؛ لِأَنَّ الْغِيْظَ مِنْ أَعْلَى مَنَازِلِ الْغَضَبِ ، وَالْغَضَبُ لَا يُوصَفُ بِحَقِيقَتِهِ إِلَّا النَّاسُ ، وَالزَّفِيرُ قَدْ يَشْتَرِكُ فِي الصِّفَةِ بِهِ الْإِنْسَانُ وَغَيْرُ الْإِنْسَانِ ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ بِهَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ الْمُبَالِغَةُ فِي وَصْفِ النَّارِ بِالْإِهْتِيَاجِ وَالْاضْطِرَامِّ عَلَى عَادَةِ الْمَغِيْظِ وَالْغَضْبَانِ ^(١).

هَذَا وَالْآيَةُ سَبَقَتْ فِي مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ يَتَوَعَّدُ اللَّهُ بِهِ الْمَكْذِبِينَ يَوْمَ الدِّينِ وَهُوَ مَشْهَدٌ يَزْلُزِلُ الْقُلُوبَ الْجَافَةَ الصَّلْدَةَ ، الْقَاسِيَةَ ، وَيَهْزُ الْمَشَاعِرَ الْخَامِدَةَ هَزًّا عَنِيفًا ، وَيَأْخُذُ بِأَيْدِي هَؤُلَاءِ الْمَكْذِبِينَ أَخْذًا ، وَيَسُوْقُهُمْ إِلَى مَا يَنْتَظِرُهُمْ مِنْ سُوءِ السَّعِيرِ سَوْفًا وَهُوَ مَشْهَدٌ يَسْتَجِيشُ الْخِيَالَ . مَشْهَدُ النَّارِ الَّتِي جُسِّمَتْ بَعْدَ أَنْ خُلِعَتْ عَلَيْهَا فِيهِ الْحَيَاةُ وَهِيَ تَنْظُرُ فَتَرَى الْمَكْذِبِينَ بِالسَّاعَةِ فَتَهْتَاجُ فِي غَضَبٍ ، وَتَزْفِرُ وَتَغْتَاطُ ، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ تَتَصَعَّدُ الزَّفَرَاتُ عَلَى نَحْوِ يَهُولٍ وَيَرْعَبٍ ، وَفِي الْآيَةِ اسْتِعَارَةُ مَكْنِيَّةٍ تَتِمُّثِلُ فِي تَشْبِيهِ جَهَنَّمَ بِحَيَوَانٍ هَائِلٍ ضَخْمٍ هَائِجٍ يَزْفِرُ مِنْ شِدَّةِ غَضَبِهِ ، وَحَنْقِهِ ، وَغِيْظِهِ وَاسْتَعِيرَ لَهَا الْمَشْبَهَةَ بِهِ وَهُوَ هَذَا الْحَيَوَانُ الضَّخْمُ بِهَذِهِ الصُّورَةِ الْمُرْعَبَةِ وَالْمَزْلُزْلَةِ بَعْدَ تَنَاسِيِ التَّشْبِيهِ وَادْعَاءِ

(١) تلخيص البيان في مجازات القرآن ص ٢٠٦ .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ —————﴾ دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

أن المشبه من جنس المشبه به ، ثم حذفه مع ذكر بعض خواصه ولوازمه ، وهو الغيظ والزفير .

هذا وإذا كنا قد رأينا الاستعارة بالكناية عند الخطيب تنتهي عند التشبيه المضمّر في النفس المدلول عليه بإثبات لازم المشبه به للمشبه ، فإن الاستعارة عند الجمهور تفرض خطوة أخرى تُضيفها إلى ما هي عليه عند الخطيب دَمَجًا ، وَعُمُقًا ، وادعاء حين تتناسى التشبيه وتدعي دخول المشبه في جنس المشبه به ، فالخيال يزداد في الاستعارة عند الجمهور تحليقًا ، وترقيًا ، وصعودًا إلى درجة أعلى مما هو عليه عند الخطيب ، ففي بيت أبي ذؤيب الهذلي تتحقق الاستعارة المكنية عند الخطيب بتشبيه المنية بالسبع في اغتيال النفوس وذكر في الكلام اسم المشبه وهو المنية وحذف المشبه به وهو السبع وذكر لازم من لوازمه وهو الأظفار . أما عند الجمهور فتشبيه المنية بالسبع في اغتيال النفوس ، ويستعار في النفس المشبه به وهو السبع للمشبه وهو المنية بعد تناسي التشبيه وادعاء أن المشبه من جنس المشبه به ، ثم يحذف ، ويرمز إليه بذكر بعض خواصه ولوازمه ، وهو الأظفار التي تضاف إلى المشبه الذي هو المنية على سبيل الاستعارة بالكناية ، ففيها قدر من الزيادة في التصوير ، وإيغال فيه وتعميق ، ودمج ، وصهر على نحو لا تكون الاستعارة محققة في تشبيه المنية بالسبع تشبيها مضمّرًا في النفس ، ويثبت للمشبه لازم المشبه به وهو الأظفار ، وإنما هي المنية التي تشبه بالسبع ويستعار السبع لها ويحذف ويرمز إليه بلازمه فبدلاً من أن أقول : إن المنية كالسبع أقول إن المنية هي السبع ، ومن هنا أصبحت استعارة المنية للسبع استعارة مسكوتاً عنها في اللفظ وإن برز ظلها في التعبير حيث إن الذي يجري على المنية يجري على السبع ، وهكذا فالمسألة ليست تشبيهاً وإنما هي استعارة تمت ولذلك ترانا نعامل المشبه على أنه هو المشبه به ^(١).

(١) انظر التصوير البياني ، ص ٣٥٤ .

رأي صاحب المفتاح في الاستعارة بالكناية :

عرف السكاكي الاستعارة بالكناية بقوله : أن تذكر المشبه وتريد به المشبه به دالا على ذلك بنصب قرينة تنصبها وهي أن تنسب إليه وتضيف شيئا من لوازم المشبه به ^(١) وهكذا تكون الاستعارة بالكناية عنده لفظ المشبه المستعار للمشبه به على خلاف الذائع المشهور في الاستعارة التي يستعار فيها المشبه به للمشبه ، فالاستعارة المكنية عند السكاكي هي لفظ المشبه المستعار للمشبه به بادعاء أن المشبه عين المشبه به ورفض أن يكون غيره بقرينة ذكر اللازم . ففي قوله تعالى : ﴿ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾ (الإسراء: ٢٤) .

فالذل هنا يراد به الطائر بادعاء أنه عينه بقرينة إضافة الجناح ، وهو من خواص الطائر ولوازمه إليه مستعار للطائر .

وفي قولهم : أنشبت المنية أظفارها بفلان ، فالمنية شبهت بالسبع وادعى أن المنية والسبع شيء واحد ثم استعيرت المنية للسبع ، وفي قول الشاعر :
وإذا العناية لاحظتك عيونها نم فالمخاوف كلهن أمان
تشبه العناية بالحارس اليقظ ، ويدعي أن العناية والحارس شيء واحد وتستعار العناية للحارس .

ويقال في قولهم : يد الشمال شبهت الشمال بإنسان ، وادعى أن الشمال والإنسان شيء واحد ، ثم تستعار الشمال للإنسان استعارة مكنية ، ومن هذه الاستعارة قول ذي الرمة وقد سبق :

سقاء الكرى كأس الثعاس ورأسه لدين الكرى في آخر الليل ساجد

وفي إجراء الاستعارة يقال شبه الكرى بالساقى وادعى أن الكرى والساقى شيء واحد ، ثم استعير الكرى للساقى استعارة مكنية .

(١) مفتاح العلوم ، ص ١٧٩ .

❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

ومن هذا ما روى عن الرسول ﷺ : « ما من جرعة يتجرعها الإنسان أعظم أجراً عند الله من جرعة غيظ في الله » ويقول الشريف « وهذا القول مجاز ، والمراد بجرعة الغيظ هاهنا الصبر عند الاهتياج ، والكظم عند الانزعاج ، وترك اتباع نوازع النفوس ، إلى ما تدعو إليه في تلك الحال من شفاء غيظ ، أو تنفيس كرب ، أو إطلاق عقل ، أو فعل مراقبة لله سبحانه ، وتنجيلاً لثوابه ، واحتِجَازاً عن عقابه وشبه عليه الصلاة والسلام تلك الحال بالجرعة ؛ لأن الإنسان كأنه بالكظم لها ، والصبر عليها قد ضاق بها مراراً ، وأساغ منها حرارة وعلى ذلك قول الشاعر :

شربنا الغيظ حتى لو سقينا دماء بني أمية ما رويناً ^(١)

ويقال في إجراء الاستعارة في قول الرسول ﷺ : شبه الغيظ بشراب مر وادعى أن الغيظ والشراب المر شيء واحد ، ثم استعير الغيظ للشراب المر .

وفي قوله ﷺ « الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار » شبه الخطيئة بالنار ، فإذا كانت النار تأكل الحطب ، فإن الخطيئة تحبط الأعمال الصالحة وتضيعها ، وبعد تشبيه الخطيئة بالنار يدعي أن الخطيئة والنار شيء واحد تستعار الخطيئة للنار استعارة مكنية . هذا والاستعارة المكنية لا تنفك عن التخيلية « بمعنى أنه لا توجد استعارة بالكناية بدون الاستعارة التخيلية ؛ لأن في إضافة خواص المشبه به إلى المشبه استعارة تخيلية » ^(٢) كما أن الاستعارة المكنية إنما تتحقق بعد التشبيه وادعاء أن المشبه والمشبه به شيء واحد ، واستعارة المشبه للمشبه به ، ويقول العلامة الدسوقي في مثل : أنشبت المنية أظفارها « وتقرير الاستعارة بالكناية في المثال المذكور على ما ذهب إليه السكاكي أن يقال شبهنا المنية التي هي الموت المجرد عن ادعاء السبعية بالسبع الحقيقي وادعينا أنها فرد من أفرادها وأنها غير مغايرة له ، وأن للسبع

(١) المجازات النبوية ص ١٢٠ .

(٢) شرح السعد ١٠٥/٣ ضمن شروح التلخيص .

الصورة البيانية ————— دراستي في مسأله البيان ————— ❁

فردّين فرد متعارف وفرد غير متعارف وهو الموت الذي ادعيت له السبعية واستعير اسم المشبه وهو المنية لذلك الفرد الغير المتعارف أعني الموت الذي ادعيت له السبعية فصح بذلك أنه قد أطلق اسم المشبه وهو المنية الذي هو أحد الطرفين وأريد به المشبه به الذي هو السبع في الجملة وهو الطرف الآخر»^(١) على أن الاستعارة التخيلية عند السكاكي التي لا توجد استعارة مكنية بدونها، والمحققة من إضافة خواص المشبه به ولوازمه إلى المشبه كما في إضافة الأظفار إلى المنية، فإن اللفظ فيها مستعمل في صورة متوهمة اخترعها الخيال لتساكن اللازم في المشبه به، فالأظفار في المنية مستعار من معناها الحقيقي إلى شيء متوهم في المنية يشبه الأظفار في السبع وكأننا حين جعلنا المنية سبعا وشبهناها به جدّ الخيال واجتهد في أن يشكلها سبعا بمخالبه وأظفاره، وبهذا التخيل الذي هو فحوى ادعاء أن المنية سبع صارت المنية محققة في هذه الصورة صورة السبع استعار الأظفار لهذا العضو المتوهم والمقابل للأظفار في السبع.

«ويعتمد هذا الرأي كما نرى على إبراز ناحية التخيل والتشكيل في هذا الضرب وأن الأشياء فيه يتحول إلى صور ينهض الخيال بإبداعها وتكاملها واختراع هذه اللواحق لها ... وهكذا تجتهد القوى المتخيلة وهي قوة لا يجدّ نشاطها - في خلق الأشياء وتصويرها طبقا لضروب الحس، وألوان الشعور فأبو ذؤيب يستشعر ضراوة المنية التي اختطفت له خمس بنين في عام واحد، فتتولد في خياله في صورة سبع ولها شيء يبرز في خياله يشبه الأظفار في السبع»^(٢) ولعل هذا هو ما عناه السكاكي بقوله في الاستعارة التخيلية «وهي أن تسمي باسم صورة متحققة صورة عندك وهمية محضة تقدرها مشابها لها مفرداً في الذكر في ضمن قرينة مانعة عن حمل الاسم على ما يسبق منه إلى

(١) حاشية الدسوقي، ٢٠٥/٤.

(٢) انظر التصوير البياني، ص ٢٦٣.

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ —————﴾ دراسة في مسائل علم البيان

الفهم من كون مسماه شيئاً متحققاً وذلك مثل أن تشبه المنية بالسبع في اغتيال النفوس ، وانتزاع أرواحها بالقهر والغلبة من غير تفرقة بين نفاع وضرار ، ولا رقة لمرحوم ... تشبيهاً بليغاً حتى كأنها سبع من السباع فيأخذ الوهم في تصويرها في صورة السبع ، واختراع ما يلزم صورته ، ويتم بها شكله من ضروب هيآت ، وفنون جوارح وأعضاء وعلى الخصوص ما يكون قوام اغتيال السبع للنفوس بها ، وتمام اقتراسه للفرائس بها من الأنياب والمخالب ، ثم تطلق على مخترعات الوهم عندك أساميَّ المتحققة على سبيل الأفراد بالذكر وأن تضيفها إلى المنية قائلاً مخالب المنية أو أنياب المنية الشبيهة بالسبع لسكون إضافتها إليها قرينة مانعة من إجرائها على ما يسبق إلى الفهم منها من تحقق مسمياتها»^(١).

هذا وقد شاع التشخيص في لغة القرآن الكريم والتشخيص هو إضفاء الصفات الحية على من لا حياة فيه ويعده المرحوم سيد قطب لونا من ألوان «التخييل» يتمثل في خلع الحياة على المواد الجامدة ، والظواهر الطبيعية ، والانفعالات الوجدانية هذه الحياة التي قد ترتقي فتصبح حياة إنسانية تشارك بها الآدميين ، وتأخذ منهم وتعطي وتتبدل لهم في شتى الملابس وتجعلهم يحسون الحياة في كل شيء تقع عليه العين ، أو يتلبس به الحس ، فيأمنون بهذا الوجود أو يرهبونه في توفر وحساسية^(٢).

خذ قول المتنبي في رثاء والده سيف الدولة :

أسألكُ عنكَ بعدكَ كلَّ مَجْدٍ وما عهدي بمجدٍ عنكَ خالي
يمرُّ بقبرِكَ العافي فيكِي ويشغُلُهُ البكاء عن السؤال

(١) مفتاح العلوم ص ١٧٨ الطبعة الأولى ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي .

(٢) التصوير الفني في القرآن الكريم ، ص ٦١ ، دار الشروق .

الصورة البيانية ————— دراستي مسائل علي البيان ————— ❁

ففي الوقت الذي تصهر الأحزان قلبه من هول الفاجعة ، ووقع الكارثة ، وفداحة الأحوال التي يبعث بها فقد المصاب تراه يتوجه إلى كل مجدٍ ليسأله عنها وعن محامدها وفضائلها وعهده بالأمجاد أنها غير خالية منها هو يسأل المجد الذي لازمها في رحلة حياتها وعرف دقائق أسرارها . وهكذا أراك المجد مخاطباً ومسئولاً وهو سائل لهذا المجد الذي يأخذ معه ويعطي كما أراك المعنوي المجرد في صورة الحسي الذي يتحدث ويتكلم ويسأل فيجيب ويخبر ويقول المتنبّي في ملاحقة سيف الدولة لقبيلة بني كلاب :

طلبتهم على الأمواه حتى تخوف أن تفتشه السحاب

فسيف الدولة في ملاحقته للخارجين عليه من قبيلة بني كلاب يبين لك كيف تعقبهم ، وطاردهم ، وسار وراءهم قبل ظفره بهم يبحث عنهم في كل مكان حتى خاف السحاب وأصيب بالذعر من أن يصير عرضة للتفتيش ، وهكذا خلع الحياة على السحاب وأراك إياه في صورة الخائف المدعور .

وانظر إلى هذه الصورة الحية التي رسمها للزائرة البغيضة وهي الحمى التي لم تكن تأتي لزيارته إلا في الظلام فيقول :

وزائري كأن بها حياء فليس تزور إلا في الظلام

بذلت لها المطارف والحشايا فعافتها وباتت في عظامي

وهكذا ترى الصورة المعنوية بحيث ترى محسوسة ملموسة ، ولقد استطاع الشاعر أن يخدعك فتصورت عادة حسناء عاشقة تتسلل إلى مخدع عشيقها في ظلام الليل فيستقبلها مرحباً كالمشغوف بها ، ويبدل لها خير ما عنده من الفرش والأغطية وتظل مخدعاً حتى ينبهك إلى الحقيقة من طرف خفي بعد أن رفضت الزائرة المطارف والحشايا ، وباتت منه في العظام وحينئذ فقط تدرك الخديعة ، وتقف على الحقيقة ، وتعرف أنها الحمى .

❁—————الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ—————دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

وانظر إلى ذي الرمة في صورة يرسمها الليل الصحراء المعطر بأريج الخزامى فيقول :

وريح الخزامى رشَّها الطَّل بعدما دَنَا الليل حتى مَسَّها بالقوادِمِ
فدو الرمة كان عاشقا للصحراء ، مفتونا بسحرها ، متبتلا في محرابها ،
عاش حياته لا يستطيع أن ينفصل عنها بسحرها الغامض ، وسرها المجهول
وأنت تراه هنا يتحدث عن ليلها والليل زمن من الأزمنة فيريك إياه في صورة
مشيرة وعجيبة صورة طائر ضخَّم الجثة يزحم الأفق ، وَيُغَشِّي الأرض بجناحيه ،
ويأخذ في الدنو منها حتى يمسَّ أزهار الخزامى بقوادهم في الوقت الذي أخذت
قطرات الندى اللَّمَاع تترقرق على أوراقها فتتشع عطرها الذكي الفواح^(١).
وكما جعل ذو الرمة الليل طائرا ضخما جسم التراب وجعل له جلدا في
قوله :

وشاماتِ أطلالٍ بأرضٍ كريمة تراهن في جِلْدِ الترابِ بَوَاقِيَا^(٢)
فلقد جعل للتراث جلدا ، كما جعل الأطلال علامات تظهر فوقه وتأبط شرا
يجسم الكبرياء فيجعل لها أنفا وذلك في قوله :
يُغرِ ضِعَافَ القومِ عِزَّةَ نفسه ويقطع أنفَ الكبرياء عن الكبر
وعلى هذا النحو ترى سلم الخاسر حين يجعل للدهر حبال ويجعل للريح
عنانا في قوله :

فأنت كالدهر مَبْثُوثًا حَبَائِلُهُ والدهر لا ملجأ منه ولا هرب^(٣)
ولو ملكْتُ عِنانَ الريحِ أَصْرَفَهُ في كل ناحية ما فاتك الطلب

(١) انظر ذو الرمة شاعر الحب والصحراء ، ص ٣٤٩ .

(٢) والشامة : علامة في البدن يخالف لونها لون سائره .

(٣) حبال : جمع حباله وحبال الموت أسبابه ودواعيه .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَةٌ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ❁

فهو يصف الممدوح بالقوة التي لا يعز عليها شيء كما يصفه بعزة الملك ، وسعة السلطان فيصف الممدوح بأنه الدهر والدهر صائد ماهر يرمي حباله في كل مكان فلا يفلت منها صيْدٌ ولا يهْرَبُ فأنى له بالإفلات منه حتى إنه لو ملك عنان الريح وأزمتها يصرفها في كل اتجاه لما تمكّن من فوت الطَّلَب فيد الممدوح سوف تصل إليه ، وتأتي به في أي مكان فهو من البيت الأول جعل للدهر حبال من خلال تشبيهه بصائد له حبال وتشبيه الدهر بالصائد ؛ لأن في الدهر ما في الصائد ، فالدهر تفتك أحداثه بالإنسان وكذلك يصيب الصيد وهو آمن مطمئن فيفتك به ويقضي عليه .

وفي البيت الثاني تجد الريح تجسد فتشبه بذئ العنان وهو الحصان لما فيهما من تمرد وقوة .

ومن هذا ما يقوله معن بن أوس في اجتثاثه لبذور الحقد والغضب والكرامية فيقول :

وَذِي رَحِمٍ قَلَّمْتُ أَظْفَارَ ضِغْنِهِ بِحِلْمِي عَنْهُ وَهُوَ لَيْسَ لَهُ حِلْمٌ
فالضغن وهو أمر معنوي ليس له وجود حسي يجسده الشاعر ، فيجعل له أظفاراً وهذه الأظفار قد قَلَّمَهَا الشاعر ، وأذهب خطرهما ، ومن هذا قول ابن الرومي :

إِمَامٌ يَظَلُّ الْأَمْسَ يَعْمَلُ نَحْوَهُ تَلَفَّتْ مَلْهُوفٌ وَيَشْتَاقُهُ الْغَدُ
فالأمس هنا لم يعد أمساً وإنما صار إنساناً بعد أن شُبه به ، فالشاعر قد أضفى على الأمس صفة إنسانية من صفات الإنسان وأدعأها له إذ جعله يتلَفَّتْ تَلَفَّتْ مَلْهُوفٌ ، فهو يحس بأحاسيس الإنسان ، ويشعر بشعوره من الحب واللهفة ، وهذا الشبه على هذا النحو إنما يكون على أساس التخيل والادعاء ؛ لأن الأمس لا يعمل عمل الإنسان في التَلَفَّتْ إلا بعد إضفاء الصفة الإنسانية عليه .

❁—————الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ—————دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

هذا ومن مخاطبة ما لا يجري عليه الخطاب ما تراه في قول ليلى بنت طريف الشيباني في رثاء أخيها ومخاطبتها شجر الخابور :

أيا شجر الخابور مالك مورقا ؟ كأنك لم تجزع على ابن طريف
فقى لا يحب الزاد إلا من التقى ولا المال إلا من قنا وسيوف

فهي تخاطب شجر الخابور ، وتنادى عليه بعد أن أفرغت عليه الحياة ، وبثتها فيه . وكأنه حيٌّ عاقل شاخص يسمع وحين أجرت خطابها معه أجرتَه في تعجب ، ودَهِش ، واستغراب ؛ إذ كيف يورق في نضارة ، وكأنه لم يجزع ولم يحزن على ابن طريف ، وكأن ما بها من أسى ولوعة وحرقة وحزن قد فاض على الوجود من حولها فانطفأت فيه روح الحياة ، وأصبح كل شيء أمامها شاحبا منطفأً وذابلًا ، فكيف يفلت شجر الخابور من هذا الجفاف والانطفاء والذبول ؟ وكل هذا أساسه التخيل والادعاء وإضفاء الصفات الإنسانية على الأحياء فليلى الأخيلىة وهي في قمة انفعالها وحزنها الذي أرمض أحشائها وأنضج كبدها وهي تختزن في أعماقها وداخلها رصيذاً ضخمًا من مشاعر الالتئاع والأسى والحزن أنصبت على الموقف أنصبابا فرفعت من درجة حرارته ، وسخونته والشاعرة تقف وهي آسية حزينة تخاطب شجر الخابور بعد أن أخضعت موقفها في التَّصَوُّر للنفس وتحولاتها كي تقدم إحساسها العميق ، وتجربتها الوجدانية من خلال فن تصويري يروق ويمتع والتي تسأل في تجاهل لما هو معلوم ومعروف .

وانظر إلى قول المتنبي :

بكِتْ يَارِيعَ حَتَّى كِدْتُ أَبْكِيكَ وَجَدْتُ بِي وَبَدَمَعِي فِي مَغَانِيكَ
فَعِمَّ صَبَاحًا لَقَدْ هَيَّجَتْ لِي شَجْنًا وَارْدُدْ تَحِيَّتَنَا إِنَّا مُحْيَوُكَ

فالشاعر الباكي الحزين في البيت الأول وهو ينادي الربع تراه في قمة جيشانه وذهوله يبكي ويذرف الدموع حارة ساخنة حتى فنى وفنيت دموعه ،

الصورة البيانية ————— دراستي في مسأله البيان ————— ❁

وقد كاد الربع يبكي من شدة بكائه ، فالشاعر وهو في قلب الربع ينظر إلى آثار الديار ، وإلى أطلالها التي يحمل لها أطيّب الذكريات ، وأجمل المشاعر وهو تحت إحساس نفسي عميق ، ومشاعر ثرية وغنية يسكبها على الموقف فيزداد حرارة وسخونة ، فنداؤه للربع إنما يكون بعد أن شبّهه بإنسان ، وأضفى عليه من الصفات الإنسانية ما يصير بها حيًّا إنما يكون بعد أن شبّهه بإنسان ، وأضفى عليه من الصفات الإنسانية ما يصير بها حيًّا عاقلاً على سبيل التخيل والادعاء .

وفي البيت الثاني تراه يستمر في مخاطبته للربع ، ومحدثته إياه على عادة العرب في مخاطبة الأطلال والربوع بما بقي فيها من آثار وبما يحمل لها في فؤاده من ذكريات آثارت أشجانه وحركت مواجعه وأحزانه وهو في هذا الموقف الذي تتدافع فيه الأحزان في صدره ، وتتزاحم العواطف الثكلى في فؤاده يطلب منها أن ترد على تحيته بتحية مثله ، وهكذا . ومن خلال هذا الخيط النفسي والشعوري الذي يصله بالربع تجده ينادي عليه والربع ليس ممن ينادى عليه ، ويشخصه في صورة إنسان فيحييه ويأمره ، فالشاعر حين رأى الربع لم يره في صورته الحقيقية التي هو عليها وإنما رآه في صورة جديدة صورة تنبض بالحركة ، وخصائص تجيش بالحياة بعد أن نفخ الشاعر فيه من روحه ، ووصله بنفسه فانتقلت الحياة منه إليه وكل ذلك على سبيل التخيل والادعاء .

هذا وقد شاع التشخيص في أساليب القرآن الكريم ، ففي قوله تعالى : ﴿ وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ (التكوير: ١٨) .

وأصل التنفس إخراج النفس من الجوف فيعقبه الراحة وحين تتحدث الآية عن الصبح الذي يتنفس ، فإنما تخيل إليك أن الليل شيء ثقیل كان يكتّم أنفاس النهار حين كان يجثو عليه وحين تنجلي غياهبه ، وينقشع ظلامه ويذهب وتجيء هوائى الصبح في صورتها الودیعة الهادئة فيُخِيلُ إليك أن

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

الحياة تتنفس معه ويدب في الأحياء النشاط بعد أن تنفس فتتنفس معه الحياة ، فالصبح هنا مشبه بالإنسان الذي يدب بالحركة والنشاط ، واستمع إلى قول الله سبحانه مخاطبا السماوات والأرض فيقول : ﴿ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اأْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ (فصلت: ١١).

وها أنت ترى القرآن وهو يجلي مَشْهَدًا للسماوات والأرض ، ويرسمها في صورة العاقِلَتَيْنِ اللَّتَيْنِ يتوجه إليهما بالخطاب ، ويأمرهما فيسمعان ، ويستجيبان ، وينفذان الأمر الذي وجه إليهما في طاعة ، ورضى ، واستجابة ، وتسليم ، فالسماوات والأرض تُشَبَّهان بالإنسان الذي يؤمر فينفذ ويطيع .

وها هي الأرض تراها وقد صورت في صورة الكائن الحي وتراها مرة وهي خاشعة في قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ (الحج: ٥).

فالأرض قبل نزول الماء عليها خاشعة وخشوعها سكونها ، فإذا نزل الماء عليها اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، وإنما عبر هنا عن الأرض بأنها « خاشعة » حتى تتوافق وتتلاءم مع السياق ؛ لأن السياق سياق خشوع وعبادة وتسبيح ، فناسب أن تكون الأرض « خاشعة » لتشارك في هذا المشهد ؛ لأنها جزء منه ، فإذا نزل عليها الماء اهتزت وربت ، والسياق الذي وردت فيه هو : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ (٢٧) فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴿ ٢٨ ﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لُمُحْيِ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (فصلت: ٣٧-٣٩).

وإذا كنت قد رأيت الأرض هنا خاشعة فإنك تراها في سياق آخر هامدة في قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ (الحج: ٥).

الصورة البيانية ————— دراستي مسائل عليّان ————— ❁

فالأرض بتربتها الجافة الفاحلة قبل نزول الماء عليها « هامة » والهمود درجة بين الحياة والموت ، فإذا نزل الماء عليها اهتزت وربت ولأن الأرض قبل نزول المطر وتفتحها بالنبات كانت « هامة » لتناسب السياق الذي وردت فيه ، والسياق هو : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنٰكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ (الحج: ٥).

ولأن الجو هنا جو بعث وإخراج وإحياء جاء تصوير الأرض معه تصوير بأنها « هامة »^(١) ، والذي يهمننا هنا هو تشبيه الأرض الجامدة بالكائن الحي الشاخص .

ومن التشخيص ما تراه في قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَا حَ فِي نُسَخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةً لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ (الأعراف: ١٥٤).

وأنت ترى أن الغضب قد تجسد في صورة من يُغريه على أن يفعل ما فعل يقول الزمخشري « كأن الغضب كان يغريه على ما فعل ويقول له قل لقومك كذا ، وألق الألواح وجر برأس أخيك إليك »^(٢).

وهكذا ترى الغضب مجسدا في هذه الصورة صورة الذي يحث موسى عليه السلام على أن يفعل ما فعل ، فالغضب بإغرائه موسى نزل منزلة الشخص الأمر بذلك والمُغري عليه وهكذا أفرغ على الغضب الحياة ، وجعل منه إنسانا حيا قد سلط على موسى عليه السلام يدفعه ويشيره ويحركه .

(١) الأعراف ، الآية ١٥٤ .

(٢) الكشف ، ٩٦/٢ .

❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

وعلى هذا النحو تجد الروح وهو الخوف مُجَسِّمًا في صورة إنسان يتحرك فيذهب كما تجد البشري على هذا النحو مُجَسَّدَةً في شخص يجيء .

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجْندِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴾ (هود: ٧٤).

وعلى هذا النحو ما تجده في قوله تعالى : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ (الأنبياء: ١٨).

والقذف : إلقاء الشيء ورَمِيهِ بقوة وشدة والدَّمَغُ : وَسَم الشيء بسمة تغيّر معالمه ... والزاهق : الهالك والضائع ، فأيات الله وما تحمل من حق كأنها قذيفة تأتي على ما يختلقه الباطل وما يُروّجه من أوهام وضلالات فتدمغها ، وتزهقها ، وتخلق أنفاسها ، ولا تبقي أبداً على شيء ، فالآية ترسم هذا في صورة محسوسة وملموسة ومتحركة وكأنما الحق قذيفة تصيب الباطل فتزهقه وتدمره ، ومن هذا ما تراه في قوله تعالى : ﴿ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ (الإسراء: ٢٤).

وخفض الجناح كناية عن لين الجانب ، ولطف المعاشرة ، ورقة الحديث ، والمرء مأمور بأن يخفض لوالديه جناح الذل من الرحمة وكأنما للذل جناح يخفضه ويلينه في رضى ، وحب ، ومودة ، ورقة وحنان ، وتسليم ، وهكذا ترى التعبير القرآني ، وقد جعل للذل جناحاً كما جعل للبد في قوله :

وغداة ريح قد كشف وقرة إذ أصبحت بيد الشمال رماها

للقرة زماما ، وللشمال يدا تشبيها للذل بطائر يخفض جناحه لأفراخه تربية لها ، وشفقة عليها ^(١).

(١) انظر تفسير الألوسي ، ١٦٦/١٥ .

رد التبعية إلى المكنية :

الاستعارة في الفعل تلقي ظلاً على الفاعل يصير كأن به استعارة ، فالاستعارة التبعية تنقل إلى قرينتها فتصير استعارة مكنية ، ففي قول الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ ﴾ (الأعراف: ١٥٤).

فيمكن أن تكون هنا استعارة في الفعل « سكت » بأن يشبه انتهاء الغضب بالسكوت بجامع الهدوء في كل ، ثم استعير المشبه به للمشبه واشتق من السكوت بمعنى الهدوء سكت بمعنى هدأ على الاستعارة التصريحية التبعية والقرينة إسناد السكوت للغضب ، ويجوز أن تكون الاستعارة مكنية في قرينة التبعية بأن يشبه الغضب بإنسان ثم يحذف المشبه به ويرمز إليه بشيء من لوازمه وهو السكوت وإثبات السكوت للغضب استعارة تخيلية وهي قرينة المكنية والاستعارة المكنية هنا أَمْلاً وأقوم وأخصب ؛ لأن فيها عُنْصُرَ الإحياء ، وإبراز الغضب شاخصاً في صورة إنسان نائر يهتاج ، وينفعل ويتأثر ويهدأ .

ومن هذا قول الرسول ﷺ : « خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه كلما سمع هيعة طار إليها » ففي قوله : « طار » يصح أن تكون استعارة تبعية إذ شبه الإسراع عند سماع صيحة الحرب بالطيران بجامع السرعة في كل ، واستعير الطيران للإسراع واشتق من الطيران طار بمعنى أسرع على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية والاستعارة في سياقها التي وردت فيه تؤكد على فرط الاستجابة وسرعتها والاندفاع إلى ميادين الجهاد في لهفة وشوق من هذا المجاهد في سبيل الله الممسك بعنان فرسه في تهيؤ تام ، واستعداد كامل لتلبية داعي الجهاد ، وحين تتأمل قوله « كَلَّمَا » تجدها تؤكد سرعة الاستجابة كما أنها جاءت في هذا السياق تأكيداً للمعنى في قوله : « ممسك بعنان فرسه » تمهيداً لطيران هذا المجاهد إلى ساحة الجهاد تلبية واستجابة لنداء ربه ، وحين تنظر إلى فاعل الفعل « طار » فإنه يصح أن يكون موطن الاستعارة بتشبيه هذا الفارس بطائر بجامع مطلق السرعة وتحذف المشبه به وترمز إليه بشيء من لوازمه وهو قوله « طار » .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ —————﴾ دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

هذا وكل استعارة تبعية يمكن أن تجري الاستعارة في قرينتها على النحو الذي رأيتُه ، وفي هذه الاستعارة التي معنا الغرض الأصيل هو التركيز على السرعة وأنها سرعة سريعة كأنها الطيران ، ومن هنا فالأولى أن تكون الاستعارة تبعية في الفعل « طار » لأنه موضع الاهتمام ، ومحل العناية ؛ ولذا فإن التجوُّز فيه هو المقصد الأساسي ؛ لأن المقصود والمراد هو بيان سرعة هذا الفارس المستعد دوماً والممسك بعنان فرسه لينطلق في سرعة مذهلة تربية لداعي الجهاد وكأنها الطيران وليس القصد إلى تشبيهه بالطائر ، وإنما المراد إبراز سرعة استجابته تلبية لنداء الجهاد^(١).

وفي قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكِ فِي الْجَارِيَةِ ﴾ (الحاقة: ١١). فمن الممكن أن تكون الاستعارة تبعية في الفعل « طغى » وذلك بتشبيه علو الماء وكثرته بالطغيان بجامع مجاوزة الحد في كل واستعير المشبه به للمشبه واشتق من الطغيان طغى بمعنى علا على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية ويجوز أن تنظر إلى قرينة التبعية فتشبه الماء بإنسان وتحذف المشبه به وترمز إليه بشيء من لوازمه وهو « طغى » والأنسب أن تكون الاستعارة تبعية ؛ لأن الأولى هو التركيز على مشهد الطوفان بما فيه من هول ورعب ؛ إذ غَطَّى سطح الأرض يومئذ حتى تجاوز الربا بعد أن ملأ القيعان ، وأشاع جواً من الخوف والفرع ودمر كل ما على سطح الأرض ، ولم يبق على شيء بعد أن حملت الجماعة المؤمنة في الجارية ، فالتركيز على الطوفان ، وكثرة المياه كثرة فاقت كل تصور وحد يجعل الأنسب أن تكون الاستعارة تبعية ، ومن هذا قول ذي الرمة :

سقاء الكرى كأس النعاس ورأسه لدين الكرى من آخر الليل ساجد

فيمكن أن تكون الاستعارة تبعية وذلك بتشبيه الرغبة في النوم بالسقي بجامع الاحتياج إلى كل واشتق من السقي سقي بمعنى رغب واستعير المشبه به

(١) انظر التصوير البياني ، ص ٢٩٨ .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ الْبَيَانِ ————— ❁

للمشبه على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية والأولى أن تكون استعارة ممكنة وذلك بتشبيه الكرى بالساقى ، واستعير له الساقى وحذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو «سقاها» ولأن الصورة تهدف إلى تجلية سلطان النوم وإبرازه ، وبيان غلبته عليه وكأنه ساق يسقيه النوم كانت الاستعارة بالممكنة أملاً وأحسن ، ويقول أيضاً :

حَتَّى إِذَا دَوَّمَتْ فِي الْأَرْضِ رَاجِعَهُ كَبُرَّ وَلَوْ شَاءَ نَجَّى نَفْسَهُ الْمَهْرَبِ
يقال دَوَّى في الأرض ودَوَّمَ في الهواء ، فالتدوّم إنما يكون لتحليق الطير في الهواء وذو الرمة يتحدث عن حركة كلاب الصيد ودورانها حول الثور الوحشي ، ومطاربتها له فأخذت تدور حول نفسها وللتعبير عن هذه الحركة السريعة عبر بقوله : «تدوم» التي طوعها لتؤدي دورها المنوط بها في الصورة فهو يشبه حركة كلاب الصيد السريعة ودورانها حول نفسها في مطاربتها للثور الوحشي بتدويم الطير في الهواء واشتق من التدويم دَوَّمَتْ بمعنى تحركت في سرعة واستعير المشبه به للمشبه استعارة تصريحية تبعية ، ومن الجائز أن تشبه الكلاب بالطيور المحلقة في الهواء بجامع السرعة في الحركة في كل ، ثم يحذف المشبه به ، ويرمز إليه بشيء من لوازمه وهو قوله : «دومت» والشاعر بما يصب اهتمامه ويركزه على وصف هذه الحركة السريعة المتحفزة من كلاب الصيد بالثور الوحشي الذي حاول الهرب ، ولكن أنفته وكبرياهه حالا دون ذلك ومنعاه منه .

وعلى هذا النحو تجده يقول في وصف الجندب :

مُعْرُورِيًّا رَمَضَ الرِّضْرَاضَ يَرْكُضُهُ وَالشَّمْسُ حَيْرَى لَهَا بِالْجَوِّ تَدْوِيمٌ^(١)

(١) مُعْرُورِيًّا : أي راكبا - وَرَمَضَ : مشى على الرمضاء ، وهي الحجارة التي اشتد عليها وقع الشمس فحميت - وَالرِّضْرَاضُ - الحصى الصغار ، ويركضه يضربه برجله .

❧ ————— الصورة البيانية ————— دراستُ في مسائل على البيان

فالشاعر يشكل صورته على هذا النحو وتكون مادة «التدويم» العنصر المؤثر والفعال في رسمها وترى الشاعر يطوِّعها لإخراج فكرته على نحو طريف وجديد من خلال تجسيد المعنى ليزيد إحساسنا به ، والتفاعل معه ، فالشمس تتراءى لنا حيرى معلقة في الفضاء وكأنها تدور حول نفسها ويمكن أن تشبه حركة الشمس الحيرى والمعلقة في الفضاء وكأنها تدور حول نفسها بحركة الطير الذي يطير في الهواء بجامع مطلق الحركة في كل ويستعار المشبه به للمشبه استعارة تبعية ومن الممكن أن تشبه الشمس بطائر يحلق في الهواء ويحذف المشبه به ويرمز إليه بشيء من لوازمه على طريقة الاستعارة المكنية وهي الأولى؛ لأن التركيز ليس على الحركة التي أقيمت عليها الاستعارة التبعية، وإنما التركيز على أن نتخيل أن الشمس طائر محلق في أفق معلوم^(١).

هذا وقد عاب الأصمعي استعمال كلمة «التدويم» في البيت الأول على اعتبار أن «التدويم» هي حركة الطير في الهواء ، فكيف تستخدم مع كلاب الصيد ، وفي هذا تجاهل لما تقوم عليه الاستعارة من نقل الكلمة من مجال إلى مجال آخر على حدّ ما هو محقق في المجاز وللدكتور يوسف خليف كلام جيد يدفع به كلام الأصمعي فيقول : « فذو الرمة في مثل فصاحته البدوية وسليقته اللغوية الموروثة - لم يكن ليجهل معنى «التدويم» ولكنه تعمد تطويع هذه المادة ليشكل منها القلب الذي يريد أن يجسم به فكرته . فما من شك أنه يعرف أن التدويم إنما يكون للطير ، ولكنه يريد أن يجعل حركة الكلاب في هذه المرحلة الحاسمة كتدويم الطير في الهواء ، فهو يعرف أسرار لغته ولكنه يعرف أيضاً أسرار صنّعته الفنية » .

هذا وكل صور التبعية من الممكن أن تجري الاستعارة في قرينتها فاعلا كان أو مفعولا ، فمثال جريانها في الفاعل نطقت حالك بكذا يمكن إجراؤها في الفاعل فيشبه الحال بإنسان ويحذف المشبه به ويرمز إليه بشيء من لوازمه

(١) ذو الرمة شاعر الحب والصحراء ، ص ٣٥٥ ، والتصوير البياني ، ص ٢٩٩ ، ٣٠٠ .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ الْبَيَانِ ————— ❁

وهو «نظقت» استعارة مكنية ويمكن إجراؤها في الفعل «نظقت» وذلك بأن تشبه الدلالة بالنطق بجامع وضوح الأثر في كل ويحذف المشبه ويستعار المشبه به للمشبه استعارة تبعية ومثال اعتبار الاستعارة في المفعول وإجرائها فيه كما في الخبر الشريف من قول الرسول ﷺ لسيدنا معاذ بن جبل : « أَمِتُ أمر الجاهلية إلا ما حسن » فقوله ﷺ : « إلا ما حسن » يعني إلا ما عرف عند الجاهليين من مكارم الأخلاق فهو ﷺ ينبه على القضاء على أمر الجاهلية من خلائقها الفاسدة إلا ما حَسُنَ من مكارم الأخلاق كالكرم، والشجاعة، والنجدة، والصدق ، وغير ذلك مما هو على هذا الحد من الأشياء الجميلة والحسنة فيمكن تشبيه أمر الجاهلية الفاسدة بحي يموت كما يموت كل حي ويحذف المشبه به ويرمز إليه بشيء من لوازمه وهو إيقاع الموت على أمر الجاهلية استعارة مكنية ويمكن أن تكون استعارة تبعية في الفعل بأن يشبه محق أمر الجاهلية بالموت بجامع الاستئصال في كل ويحذف المشبه ويستعار المشبه به للمشبه على طريق الاستعارة التصريحية التبعية .

هذا والإمام السكاكي يرى أن الاستعارة التبعية تدخل صورها في المكنية وذلك بأن تجعل الاستعارة التبعية من الاستعارة بالكناية في قوله : « ولو أنهم جعلوا قسم الاستعارة التبعية من قسم الاستعارة بالكناية بأن قلبوا فجعلوا في قولهم : نظقت الحال بكذا الحال التي ذكرها عندهم قرينة الاستعارة بالتصريح استعارة بالكناية عن المتكلم بوساطة المبالغة في التشبيه على مقتضى المقام وجعلوا نسبة النطق إليه قرينة الاستعارة كما تراهم في قوله : « وإذا المنية أنشبت أظفارها » يجعلون المنية استعارة بالكناية عن السبع ويجعلون إثبات الأظفار لها قرينة الاستعارة وهكذا لو جعلوا البخل - في قول ابن المعتز « قتل البخل » استعارة بالكناية عن حي أُبْطِلَتْ حياته بسيف أو غير سيف فالتحق بالعدم ... لكان أقرب إلى الضبط فتدبره»^(١).

(١) مفتاح العلوم ص ١٨١ .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ —————﴾ دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

وكلام السكاكي هذا إنما يكون حين تغيب عنا معرفة ما هو محل للاهتمام في المجاز داخل الجملة فتارة يكون الاهتمام متجها إلى الفعل بصورته التي هو عليها وحينئذ فإن الأولى أن تكون الاستعارة تبعية وما يرى في قرينته ويلاحظ إنما هو شيء تابع للمجاز في الجملة وليس مقصودا في نفسه ، ولذا فالمهم الاهتمام بمعرفة المغزى الدقيق من التعبير من خلال الإحساس بالمعنى ، وتذوق التعبير مع تفسير كل صورة بما يتناسب معها وبما هو الأظهر فيها .

هذا وإذا كان السكاكي قد ردَّ الاستعارة التبعية إلى المكنية فإنما قصد برَدَّ التبعية إلى المكنية تَقْلِيلَ الأقسام ليكون أقرب إلى الضبط ورد عليه صاحب الكشف « بأنه قد يكون تشبيه المصدر هو المقصود الأصلي والواضح الجلي ويكون ذكر المتعلقات تابعا ومقصودا بالعرض ، فالاستعارة حينئذ تكون تبعية كما في قوله :

تقري الرياح رياض الحزن مزهرة إذا سرى التوم في الأجفان إيقاظا

فإن التشبيه ههنا إنما يَحْسُنُ أصالة بين هبوب الرياح عليها وبين القرى ولا يحسن التشبيه ابتداء بين الرياح والمضيف ولا بين الإيقاظ والطعام . نعم يلاحظ التشبيه بين هذه الأمور تبعا لذلك التشبيه ، ولا يصح أن يعكس فيجعل التشبيه بين الهبوب والقرى تبعا لشيء من هذه التشبيهات فلا يصح ههنا رد التبعية إلى المكنية عند من له ذوق سليم وقد يكون التشبيه في المتعلق غرضا أصليا ، وأما جليا ويكون ذكر الفعل واعتبار التشبيه فيه تبعا فحينئذ يحمل على الاستعارة بالكناية كقوله تعالى : ﴿ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ ﴾ (البقرة: ٢٧) فإن تشبيه العهد بالحبل مستفيض مشهور ، وقد يكون التشبيه في مصدر الفعل وفي متعلقه على السوية فحينئذ جاز أن يجعل استعارة تبعية ، وأن يجعل استعارة مكنية كما في قولك نطقت الحال .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَةٌ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ❁

فإن كلا من تشبيه الدلالة بالنطق ، وتشبيه الحال بالمتكلم ابتداء مستحسن فظهر أن ما اختاره السكاكي من الرد مطلقا مردود^(١).

هذا والاستعارة أساسها التشبيه غير أنها تمتاز منه بالمبالغة والإغراق فإنك تدعي أن المشبه هو عين المشبه به فأنت لا ترى أن هذا يشبه ذاك كما في التشبيه ولكنك تدعي أنه هو بناء على تخيل اتحادهما في الحقيقة وبناء على هذا كما يرى مؤلف دراسات في علم النفس أن الاستعارة التصريحية تتضمن عمليتين عقليتين :

أما الأولى : متمشية مع الحقيقة والواقع قائمة على قاعدة تداعي المعاني وهي إدراك ما بين المشبه والمشبه به من تشابه ونظرا لأن التشبيه هو أساس الاستعارة فإنهما يشتركان في هذه العملية .

وأما الثانية : فتتحقق في الاستعارة دون التشبيه وتُمَيِّزُهَا منه ، وهي عملية خيالية غير واقعية تلك هي ادعاء أن المشبه والمشبه به متحدان في الحقيقة ، فهما شخص واحد لا شخصان .

أما في الاستعارة المكنية فنجد ثلاث عمليات عقلية هي العمليتان السابقتان مضافا إليهما عملية ثالثة متصلة بالعملية الثانية هي تخيل اتصاف المشبه بما هو من خصائص المشبه به ، فإذا قلت إن عين القدر ترعاكم فإنك ترى «أولا» شبهها بين القدر والإنسان الذي يرعى الأشياء ويرُقُّبُهَا بعينه ثم تدعي «ثانيا» أن القدر هو إنسان لا أقل ثم تثبت «ثالثا» للقدر ما هو من لوازم الإنسان وهو «العين»^(٢).

(١) حاشية السيد الشريف على المطول ، ص ٤٠٢ ، ٤٠٣ .

(٢) علم النفس الأدبي ، حامد عبد القادر ص ٤٣ ، ٤٤ .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ —————﴾ دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

صور من التشبيه لا تبنى عليها الاستعارة :

هناك بعض النماذج من صور التشبيه لا تصلح للاستعارة ذلك أن الاستعارة تشبيه حذف أحد طرفيه وهذه النماذج لا يصح إلا أن تكون صوراً للتشبيه ولا تتحول في التعبير إلى استعارة .

يقول الإمام عبد القاهر : « فينبغي أن تعلم أنه ليس كل شيء يجيء مشبهاً به بكاف أو بإضافة » مثل إليه يجوز أن تسلط عليه الاستعارة وتنفذ فيه حكمتها فيه ، حتى تنقله على صاحبه وتدعيه للمشبه على حد قولك : « أبدتُ نوراً » تريد علماً و « سللت سيفاً صارماً » تريد رأياً نافذاً ، وإنما يجوز لك ذلك إذا كان الشبه بين الشيئين مما يقرب مأخذه ، ويسهل متناوله ، ويكون في الحال دليل عليه وفي العرف شاهد له حتى يمكن المخاطب إذا أطلقت له الاسم أن يعرف الغرض ويعلم ما أردت^(١) .

لقد لاحظ البلاغيون أن بعض صور التشبيه لا تصلح أن تكون أساساً للاستعارة ؛ لأنها غير متعارفة ، ولهذا فإن من الواجب أن تظل هذه الصور داخل دائرة التشبيه الاصطلاحي الذي يذكر فيه الطرفان ويعبر فيه عن المشبه بلفظه ، فليس كل تشبيه يصح تحويله إلى استعارة ، وإنما يجوز ذلك إذا كان الشبه بين الشيئين قريباً وفي الحال دليل على معرفة المقصود من الشبه ، ومن التشبيه الصريح الذي لا يصلح أن يكون استعارة قول النابغة :

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

ولقد وقف الإمام عبد القاهر معه وأطال الوقفة وغير خاف أن الحالة النفسية للمنشئ كانت تتراءى من وراء التشبيه بالليل وإيثاره على النهار ، واختياره ، وأن الدلالة الإيحائية للصورة التشبيهية إنما كانت تدل على هَوُلِ الموقف بالنسبة للشاعر المرتجف المدعور .

(١) أسرار البلاغة ص ٢٤٣ .

الصورة البيانية ————— دراستي في مسأله البيان ————— ❁

فالنابعة لن يمكنه الإفلات من قبضة النعمان القوية أو الهروب ، وكيف يستطيع ذلك ويقدر عليه والحمام الراصد يتعقبه أينما حلّ وأينما سار؟ ويد الممدوح الباطشة سوف تمتد إليه ، وتأتي به مكبلاً بالأغلال من أي مكان في الأرض بما له من سلطان يعم الدنيا ، ويملؤها كما يعمها ظلام الليل .

إذاً لا يستطيع الشاعر أن يصل إلى أي مكان لا تصل إليه يد الملك ولن يقوم لفظ غير الليل على يسره وبساطته بتصوير سطوة النعمان المرهوب ، والعجز عن الفرار منه من جانب ، وتصوير امتلاء قلب الشاعر بالخوف والرعب والظلمة لغضب النعمان عليه من جانب آخر ، ولقد أدار الإمام عبد القاهر حول الصورة في البيت مناقشة ثرية حينما أدرك بحسه الفني استحالة أن يكون المعنى على حد : « إن فررت منك أظلني الليل أو فررت منك وجدت ليلاً يدركني وإن خلت أن المنتأى واسع ، والمهرب بعيد » مما يحول التمثيل فيه إلى استعارة لماذا ؟

لأننا حين نرتضي المثال الأول ونقبل به فإننا في نفس اللحظة نذهب بمبراد الشاعر ، وما يقصد إليه ، ونضيع الفكرة الأساسية التي جاء بها البيت من تصوير سطوة الممدوح ، وأنه لا يفوته هارب ولا يستعصي عليه الإتيان به ، ومن ثم كان تشبيهه بالليل الذي يعم الأرض ، ويصل إلى كل مكان فيها وأقصى ما يمكن أن تدل عليه الصورة حينئذ أن تبين أن الشاعر حين يهرب من الممدوح يكون في تيه لا يجد فيه هدى ، وفي حيرة لا يستطيع الخلاص منها . ذلك أن الفكرة الجديدة التي تقدمها الصياغة بعد التبديل والتحويل ستأتي على هذا النحو : « إذ هربت منك استحالت الحياة على ظلاما وضللت طريقي كمن يضرب في أطناب ظلمة حالكة » وهذا شيء خارج عن الغرض لم يقصد إليه الشاعر ، ولم يضعه في تقديره ولا حسابه ؛ لأنه سيؤدي إلى عدم الإحساس بسطوة الممدوح وعنفه ، وجبروته وقوة أخذه ، وقدرته على الوصول إلى أي مكان من الأرض يريد أن يصل إليه بنفسه أو برجاله بعد أن ضاعت

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

مع تحويل التمثيل إلى استعارة كل الإمكانات اللغوية التي توصل إلى ذلك ، ومن ثَمَّ فَإِنَّ السَّوَادَ لَا يَحْقُقُ الْغَرَضَ ، وَمِنْ الْخَطَأِ عَدَّهُ عَلَى أَنَّهُ الْخَاصِيَّةُ الْمَطْلُوبَةُ ، وَفِي الْمَثَالِ الثَّانِي « إِنْ فَرَرْتَ مِنْكَ وَجَدْتَ لَيْلًا يَدْرِكُنِي وَإِنْ خَلْتَ أَنْ الْمُنْتَأَى وَاسِعٌ وَالْمَهْرَبُ بَعِيدٌ » لَا نَقْبَلُ بِهَذِهِ الْاسْتِعَارَةَ الْمَحْوَلَةَ عَنِ التَّمَثِيلِ وَإِنْ كَانَ لَا يَمْنَعُ مِنْ أَنْ الشَّاعِرُ وَاقِعٌ فِيهَا تَحْتَ غَضَبِ الْمَلِكِ لِمَاذَا ؟

لَأَنَّ هُنَاكَ حَدًّا يُمْكِنُ مَعَهُ تَحْوِيلُ التَّشْبِيهِ إِلَى اسْتِعَارَةٍ وَهَذَا حِينَ يَكُونُ الشَّبَهُ ظَاهِرًا وَذَلِكَ كَمَنْ قَصَدَ بِالتَّشْبِيهِ السَّوَادَ وَالظُّلْمَةَ مِثْلَ قَوْلِ ابْنِ طِبَابُطَا :

بَعَثْتُ مَعِيَ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مَظْلَمًا

يَقْصِدُ زَنْجِيَا أَرْسَلَهُ مَعَهُ الْمَخَاطَبُ مِنْ بَيْتِهِ وَمَنْزَلِهِ فَإِذَا كَانَ الشَّبَهُ خَفِيًّا فَإِنَّهُ لَا يَجْمَلُ وَلَا يَصِحُّ كَمَا فِي قَوْلِ النَّابِغَةِ :

فَإِنَّكَ كَاللَّيْلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكِي وَإِنْ خَلْتَ أَنْ الْمُنْتَأَى عَنْكَ وَاسِعٌ

عَلَى أَنَّهُ لَا بَدَّ مِنْ رَصْدِ الْقِيَمِ الْجَمَالِيَّةِ النَّابِغَةِ مِنْ دَلَالَاتِ الْأَلْفَاظِ ، وَمِنْ الْمَوْقِفِ الشَّعْرِيِّ ، وَرَبْطُهَا بِالْأَحْوَالِ وَالْمَقَامَاتِ ، وَوَصْلُهَا بِالذُّوقِ الْعَامِ ، وَمُوَافَقَتِهَا لِلطَّبَعِ السَّلِيمِ ، وَانْسِجَامِهَا مَعَ مَا يَسْمَحُ بِهِ الْعَرَفُ ، وَيَرْضِيهِ وَيَقْبَلُ بِهِ ، وَلَا يَتَصَادَمُ مَعَهُ .

وْخِلَافَ الْجَمِيلِ أَنْ تَقُولَ مَا لَا تَقْبَلُ بِهِ الطَّبَاعُ ، وَأَنْ تَسْلُكَ طَرِيقَةً مَجْهُولَةً فِي الْإِفْضَاءِ بِمَا فِي نَفْسِكَ ، وَأَنْ تَعَاكُسَ الْعَرَفُ فِيمَا تَوَافَقَ عَلَيْهِ وَارْتَضَاهُ فَتَجْعَلَ مِنَ الْمَمْدُوحِ « لَيْلًا » هَكَذَا ، وَلِذَا كَانَ الشَّاعِرُ دَقِيقًا فِي اخْتِيَارِهِ لِكَلِمَةِ « اللَّيْلِ » وَإِيْثَارِهَا عَلَى كَلِمَةِ « النَّهَارِ » مَعَ أَنْ كِلَا مِنْهُمَا يَحْمِلُ مَعْنَى الْعُمُومِ وَالْإِنْتِشَارِ « فَالنَّهَارُ » قَسِيمٌ « اللَّيْلِ » فِي هَذَا وَصْنُوهُ وَمِثَالُهُ وَمَا يَصِلُ إِلَيْهِ اللَّيْلِ يَصِلُ إِلَيْهِ النَّهَارُ ، وَمَا مِنْ مَوْضِعٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا وَيَدْرِكُهُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا ، وَلَكِنْ لَمَّا كَانَ الْمَقَامُ مَقَامَ خَوْفٍ ، وَرَهْبَةٍ ، وَغَضَبٍ كَانَ الْمَقَامُ لَيْلٍ لَا لِلنَّهَارِ إِذْ أَنْ اللَّيْلِ هُوَ الَّذِي يَشْعُرُكَ بِهَذَا ، وَلَيْسَ شَيْئًا آخَرَ « فَاخْتِصَاصُهُ اللَّيْلَ دَلِيلٌ

الصورة البيانية ————— دراستي في مسانيد البيان ————— ❁

على أن قد روى في نفسه ، فلما علم أن حالة إدراكه وقد هرب منه حالة سخط ، رأى التمثيل بالليل أولى^(١).

ويقوي هذا اختيار التَّسْقِ اللُّغوي المناسب للموقف المناسب ما ذكره عبد القاهر من قول عباس بن الأحنف :

نِعْمَةٌ كَالشَّمْسِ لَمَّا طَلَعَتْ بَثَّتِ الْإِشْرَاقَ فِي كُلِّ بَلَدٍ

فليس بخاف أنه يقصد هنا ما يقصده النابغة من تعميم الأقطار والوصول إلى كل مكان ، ولكن الشأن في النعمة أن تفرح وتبهج ، وأن تُسْعِدَ وتؤنس ؛ لذا مثل لها بما هو من مواطنها ، وبما هو أليق بها ، وأدُلُّ عليها ، وكان اختياره للشمس اختيار الشيء لما هو أشبه به وأولى ، ولو أنه عبّر « بالليل » بدل « الشمس » لكان كمن يضع الملح ؛ حيث يجب أن يوضع السكر ، وبذلك يكون الخطأ فاحشاً ، فالليل وحشة ورهبة ، والنعمة متعة وبهجة ، فكيف يجتمعان ؟

ويرتبط عمق الأداء بأداة التشبيه الداخلة على الليل ارتباطاً مباشراً ، ويظهر أثر ذلك ظهوراً واضحاً في دخولها على المشبه به ولما لم يصح تحويل التمثيل في بيت النابغة :

فإنك كالليل الذي هو مدركي

إلى استعارة فإنه يمتنع جعله تشبيهاً بليغاً فتحذف أدواته ولا تُنَوَّى ، ذلك أن التشبيه البليغ يقوم على هذا الأساس ، فإذا طُوِيَتِ الأداة وَغَابَتْ ، ولم تذكر ، وجعل مجرور الكاف « الليل » خبراً فلا بد من تقديرها وكأنها موجودة وتقديرها يباعد بين التشبيه الصريح الموجود في بيت النابغة والتشبيه البليغ ، فتجريد « الليل » لوصف النعمان بالسخط مستكره ؛ لأن ذلك يسبب الخلط بين الأغراض ، فلا يَجْمَلُ أن يقال أنت في حال السُّخْطِ ليل ، وفي حال الرضى

(١) أسرار البلاغة ص ٢٥٥ .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ —————﴾ دَرَسَتْ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

نهار إذ أن التعبير على هذا النحو يشعر بالهجاء من حيث يراد غير ذلك « وإنما الواجب أن يقال في مثل هذا : النهار لَيْلٌ على من يغضب عليه ، والليل نهار على من يرضى عنه ، وزمان عدوك ليل كله ، وأوقات ليله نهار كلها ... ولا تكاد تجد أحد يقول : « أنت ليل » على معنى أن سخطك تُظلم به الدنيا ؛ لأن هذه العبارة بالذم ، وبالوصف بالظلمة ، وسواد الجلد ، وتجهّم الوجه أخصّ ، وبأن يراد بها أخلّق وهذا المعنى منها إلى القلب أسبق فاعرفه »^(١).

ومن هذا الوادي ما تراه في قول الرسول ﷺ : « الناس كإبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة » هذا الحديث يبين أن الفاصل الكريم الذي يعول على نبل أخلاقه ، وفيض سماحته نذرة شحيحة لا تكاد العين تقع على واحد منها وسط الزحام من الزيف والبهتان ، وفي هذا الخبر تجد الرسول ﷺ يُجَلِّي هذه الحقيقة ، ويكشف اللثام عنها ، ويبرز ضخامة المزيف في الوقت الذي يكاد ينمحي الأصيل ، ولذا ترى الرسول ﷺ يبين نذرة المعدين الطيب الذي يجري في خلقه وسمته على أساس من الطبع الجميل لا يتكلف ولا يتصنع يرى العزة في سمو الإنسانية ، ونبل الإنسان يصل ما بينه وبين الله بالصلاة ، ويصل ما بينه وبين الناس بالصدقة والإحسان ، وأن تجري نظام وجوده على أن يمسّ بالرحمة والمواساة قلوب البائسين المستضعفين ، فالتشبيه يكشف عن إنسان من المتعذر عليك أن تصادفه في حياتك ، وإن كنت تجد الكثيرين ممن يدعون النجابة والأصالة والكرم ، فالخبر يرشدك إلى أن الماجد الكريم لا تكاد تراه أو تعثر عليه وسط هذا المسخ المشوه ، والكثرة الطاغية التي لا يُحصيها العدّ من الزيف والغش ، والبهتان . والتشبيه هنا لا يُحوّل إلى استعارة أو يصنع منه تشبيه مؤكد قد حذفت أداته وإنما يحتفظ بصورته التي جاء الخبر بها وتبقى الكاف أداة التشبيه لتمثل حاجزا بين طرفي التشبيه ، ولتقيم رابطة قوية بين جماعة الناس وجماعة الإبل إذ أنك لا تجد في كل مائة منها ناقة نجية نجابة

(١) أسرار البلاغة ، ص ٢٥٦ ، ٢٥٧ .

الصورة البيانية ————— دراستي مسائل علي البيان ————— ❁

صادقة ، وإنما اختيرت الإبل دون غيرها لتكاثرها في مرأى العين في البيئة آنذاك ، ولتنوعها بأشكالها وألوانها الموهمة بنجابتها ، وعتقها ، وكرمها على النحو الذي تراه في الناس حيث ترى الكثرة الهائلة من الناس يخدعك مظهرهم فتقرأ في ملامحهم عنوان الطيبة ، وتعرف في أحاديثهم لهجة الرشد والصلاح ، وكأنهم ملائكة ولكن الخبر الشريف يكشف الحقيقة فيعري هذا الزيف ، ويمزق كل هذه الأقنعة من الغش ، والخداع ، والبهتان ، ويظهرهم في صورهم الحقيقية من غير تمويه ، ولا تلفيق ولا تزوير ، والتشبيه بصورته الكاملة التي جاء عليها ، وبأركانها التي بنى منها لا يكشف عن الندرة التي تكاد تصل إلى العدم ، وإنما تراه وهو يفضح الزيف ، ويكشف التزوير المحققان في الكثرة من الطرفين وهما الناس والإبل وهذا التشبيه يبقى بصورته التي جاء عليها فلا يُحوّل إلى استعارة ؛ إذ لا يصح أن نطلق الإبل المائة التي لا تجد فيها راحلة ونريد جماعة الناس أقول وكما لا يجوز حذف «الإبل» في الخبر وإجراء وصفها على الناس لا يجوز استعارة الإبل للناس بأن تقول رأيت إبلا مائة لا تجد فيها راحلة تزيد ناساً لا خير فيهم ، ولا نفع يرجى منهم وذلك لأن الشبه بين الطرفين الإبل والناس ليس معروفاً ولا مشهوراً فليس كل تشبيه يمكن تحويله إلى استعارة ؛ لأن تحويل بعض التشبيهات إلى استعارة يعد إلغازاً وتعميماً مما يخل بفصاحة الكلام . يقول الإمام عبد القاهر «واعلم أن «المثل» قد يضرب بجمل لا بد فيها من أن يتقدمها مذكور يكون مشبهاً به ، ولا يمكن حذف المشبه به والاقتصار على ذكر المشبه ، ونقل الكلام إليه حتى كأنه صاحب الجملة إلا أنه مشبه بمن صفته وحكمه مضمون تلك الجملة .

بيان هذا أن قول النبي ﷺ : «الناس كإبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة» لا بد من المحافظة على ذكر المشبه به الذي هو «الإبل» فلو قلت «الناس لا تجد فيهم راحلة» أو «لا تجد في الناس راحلة» كأن ظاهر التعسف»^(١).

(١) أسرار البلاغة ، ص ١١٣ .

❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

ومما جاء على هذا الحد ما ذكره الإمام عبد القاهر من قول النبي ﷺ :
« مثل المؤمن كمثل النخلة أو مثل الخامة » فإن هذا التمثيل لا يتحول إلى
استعارة وإنما لابد من المحافظة على المشبه به فلا تستطيع أن تقول رأيت
« نخلة » أو « خامة » .

ومن هذا ما تراه في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ
مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا
أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَىهَا أُنْزِلَتْهَا مِنْهَا
لَيَالٍ أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ ﴾ (يونس: ٢٤) .

يمثل الله للحياة الدنيا بهذا التمثيل الذي نرى فيه الماء ينزل من السماء
فيمتصه النبات وينمو ، ويمرغ ، وتبدو الأرض وقد كسّتها الخضرة بلباس
فاخر من كل لون فتزينت وكأنها عروس مجلوة ، وأهل الأرض مفتونون بها ،
مزهوون بزينتها وجمالها يظنون أنهم متمكنون منها ، مُحَصِّلُونَ لثمرتها وأنهم
أصحاب الأمر والنهي فيها وفجأة ومن غير توقع ولا حساب يأتيها أمر الله ،
فإذا هي حصيد مهشم كأن لم يكن من قبل شيئاً وهكذا شبّهت حال الدنيا في
سرعة تقضيها ، وانقراض نعيمها بعد اغترار الناس بها واعتمادهم عليها بحال
نبات ذهبّت نُضْرَتُهُ فجأة ، وصار حطاماً بعد ما التفت وتكاثف ، وزين الأرض
بخضرته وعمّ نفعه الإنسان والحيوان وطمع الناس فيه ، وظنوا أنه قد سلم من
الجوائح ووجه الشبه الهيئة الحاصلة من سرعة التَّقْضِي ، وزوال النعيم بعد
الإقبال ، وعموم النفع ، واغترار الناس به ، واعتمادهم عليه ^(١) فلو حذفت
المشبه به أردت ما لا تحصل منه على كلام يعقل ويقول الإمام عبد القاهر لو
أردت أن تحذف « الماء » الذي هو المشبه به وتنقل الكلام إلى المشبه الذي هو
« الحياة » أردت ما لا تحصل منه على كلام يعقل ؛ لأن الأفعال المذكورة
المحدث بها عن الماء لا يصح إجراؤها على الحياة ^(٢) .

(١) انظر تفسير الكشاف ، ١٨٧/٢ .

(٢) أسرار البلاغة ، ص ١١٤ .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دُرِّسَتْ فِي مَسَائِدِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي تَالِبٍ ————— ❁

هذه الآية التي صورت الحياة الدنيا أجمل تصوير ووصفتها هذا الوصف الذي لا يتجاوز الحقيقة والواقع في قليل أو كثير لا يصح أن يتحول التمثيل فيها إلى استعارة أو إلى تشبيه مؤكد فتحذف أداة التشبيه «الكاف» التي هي ضرورة لازمة لربط الطرفين ، ومما لا يجوز تحويل التشبيه فيه إلى استعارة قول أبي تمام :

وكان المَطْلُ في بدءٍ وعَوْدٍ دُخَانًا لِلصَّنِيعَةِ وهي نار

فقد شبه المطل في العطاء بالدخان مع النار، وإذا كانت النفس تكره الدخان، وتضيق به ، ولا تحبه إلا أنها لابد أن تصبر عليه وتحمّله من أجل النار لأنها في حاجة شديدة إليها ، وكذلك المطل والصنِيعَة والتشبيه هنا من التشبيهات الصريحة النادرة الذي يذكر فيه الطرفان ولا يُحوّل إلى استعارة فلو قلت أقبستني نارا لها دخان أي صنِيعَة بعد مطل كان الكلام ملغزا ، ولم يكن مُبينًا عن معناه يقول الإمام عبد القاهر « قد شبه المطل بالدخان ، والصنِيعَة بالنار ، ولكنه صرح بذكر المشبه وأوقع المشبه به خبرا عنه وهو كلام مستقيم ، ولو سلكت به طريقة ما يسقط فيه ذكر المشبه فقلت : «أقبستني نارا لها دخان» كان ساقطا . ولو قلت : «أقبستني نورا أضاء أفقي به» تريد علما كان حسنا حُسْنَه إذا قلت : «علمك نور في أفقي» والسبب في ذلك أن اطراح ذكر المشبه والاقتصار على اسم المشبه به ، وتنزيله منزلته ، وإعطاءه الخلافة على المقصود إنما يصح إذا تقرر الشبه بين المقصود وبين ما تستعير اسمه له ، وتستبينه في الدلالة . وقد تقرر في العرف الشَّبه بين النور والعلم وظهر واشتهر كما تقرر الشَّبه بين المرأة والطبية ، وبينها وبين الشمس ولم يتقرر في العرف شَّبه بين الصنِيعَة والنار ، وإنما هو شيء يضعه الآن أبو تمام ويتمحلّه ، ويعمل في تصويره ، فلا بد من ذكر المشبه والمشبه به جميعا حتى يعقل عنه ما يريده ، ويبين الغرض الذي يقصده ، وإلا كان بمنزلة من يريد إعلام السامع أن عنده

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ﴾

رجلا هو مثل زيد في العلم مثلاً ، فيقول له : «عندي زيد» ويسوّمه أن يعقل من كلامه أنه أراد أن يقول : «عندي رجل مثل زيد» أو غيره من المعاني ، وذلك تكليف علم الغيب»^(١).

على أن التشبيهات التي لا يمكن أن تتحول إلى استعارة لم توضع قاعدة محددة يَتَبَيَّن من خلالها التشبيهات التي يمكن أن تحول إلى استعارات ، والتشبيهات التي لا يصح فيها ذلك ، وإنما ذكر غاية ما يُمكن أن يُقال في هذا الشأن من خلال سؤال طرحه ثم أجاب عليه حين قال : «فإن قلت فلا بد من أصل يُرجع إليه في الفرق بين ما يحسن أن يُصَرَف وجهه إلى الاستعارة والمبالغة وما لا يحسن ذلك فيه ، ولا يُجيبك المعنى إليه ، بل يصد بوجهه عنك متى أَرَدْتَهُ عليه . فالجواب إنه لا يمكن أن يقال فيه قول قاطع. ولكن ههنا نكتة يجب الاعتماد عليها ، والنظر إليها ، وهي أن الشَّبه إذا كان وصفاً معروفاً في الشيء قد جرى العرف بأن يُشَبَّه من أجله به ، وتعرف كونه أصلاً فيه يُقاس عليه كالنور والحسن في الشمس ، أو الاشتهار والظهور ، وأنها لا تخفى فيها أيضاً وكالطيب في المسك ، والحلاوة في العسل ، والمرارة في الصاب ، والشجاعة في الأسد ، والفيض في البحر ، والغيث ، والمضاء والقطع ، والحدّة في السيف ، والنفاذ في السنّان ، وسرعة المرور في السهم ، وسُرْعَةُ الحركة في شُعْلَةِ النار ، وما شاكل ذلك من الأوصاف التي لكل وصف منها جنس هو أصل فيه ، ومُقَدَّم في معانيه ، فاستعارة الاسم للشيء على معنى ذلك الشَّبه تجيء سَهْلَةً منقادة ، وتقع مألوفة معتادة . وذلك أن هذه الأوصاف من هذه الأسماء قد تعرف كونها أصولاً فيها»^(٢).

* * *

(١) أسرار البلاغة ٣٣٤ .

(٢) أسرار البلاغة ، ص ٢٤٩ ، ٢٥٠ .

شروط حسن الاستعارة

شروط حسن التحقيقية :

والاستعارة التحقيقية « التصريحية » سواء كانت مفردة أو تمثيلية مركبة لما كانت مبنية على أساس التشبيه فيكون حسنها أولا بحسن التشبيه التي بنيت منه كما يشترط أيضاً لحسنها ألا يشم في الاستعارة رائحة التشبيه .

والتشبيه الحسن الذي بنيت على أساسه الاستعارة يتحقق من خلال أمور :

الأمر الأول : ١ - كون وجه الشبه غريباً فإذا بنيت الاستعارة على تشبيه يكون وجهه غريباً كانت الاستعارة حسنة كقول ابن المعتز :

يناجيني الإخلاف من تحت مظلة فتختصم الآمال واليأس في صدري^(١)

يقول : إن الإخلاف يدلني دلالة خفية يسترها المطل على أنه نصيب أي على أنه حظي من وعد الحبيب فيجتمع في نفسي الأمل بسبب الوعد واليأس بسبب المماثلة ، وقد استعار المناجاة وهي الإسراء بالحديث لدلالة الإخلاف الخفية على حرمانه من الوصل بجامع عقلي وهو خفاء الدلالة في كل والجامع العقلي خفي بالنسبة للحسي ، وحسن الاستعارة جاء إليها من جعل الإخلاف مستترا تحت المطل كأنه ينبئ عن نفسه من وراء ستار ، وفي قوله : تختصم الآمال واليأس في صدري - استعارة الاختصاص لحلول الأمل في صدره مرة ، واليأس مرة أخرى كأنهما متخصصان يتنازعان مكاناً واحداً ويمكن تخريج الاستعارتين هنا على أنهما مكْنِيَتَانِ بتشبيه الإخلاف بإنسان يتحدث من خلف ستار والأمل واليأس بمتخصصين يتنازعان مكاناً للإقامة فيه والتخريج على أساس المكنية أجمل وأحسن لما في ذلك من تخيل بديع .

(١) الإخلاف : عدم الوفاء - والمطل : التأخير في إجابة المطلوب .

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

٢- كون المشبه به نادر الحضور في الذهن عند حضور المشبه كاستعارة الطغيان لفيضان الماء ، وعلوه وكثرته في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا أَلْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾ (الحاقة: ١١) فحضور الطغيان والتجبر في الذهن عند حضور فيضان الماء من النادر البعيد .

٣- أن يكون التشبيه الذي بنيت عليه الاستعارة وافيا بالغرض كاستعارة قولهم : أراك تكتب على الماء لحال الرجل الذي يُجهد نفسه بفعل ما لا ثمرة له ولا فائدة فيه ، فإن التشبيه هنا يحقق الغرض الذي أريد منه وهو بيان مقدار عدم الفائدة ^(١) .

الأمر الثاني : ألا يُشَمَّ في الاستعارة رائحة التشبيه لفظاً ؛ لأن ذلك يبطل الغرض من الاستعارة ويقلل من حسنها كقول الشاعر :

لا تعجبوا من بلي غلاته قد زرّ أزواره على القمر

فإن الضمير المضاف إلى الأزوار عائد إلى المشبه فُشِمَ منه رائحة التشبيه وإن كان ليس صريحا فيه ؛ لأن المشبه به وهو القمر لم يقع خبرا عنه ولا في حكم الخبر ، ولم يقع مضافا إلى المشبه حتى يكون صريحا في التشبيه يقول ابن يعقوب المغربي : « وإنما شرط في حسن الاستعارة ألا يشم رائحة التشبيه كما في قوله : « قد زراً زراه على القمر » لأن إشماء رائحته يبطل كمال الغرض من الاستعارة ومعلوم أن كمال الغرض من إيجاد الشيء هو حسنه ونقصانه قبحه في الجملة ، وإنما أبطل كمال الغرض لأنه أعنى الغرض من الاستعارة إظهار المبالغة في التشبيه ويحصل ذلك الإظهار بادعاء دخول المشبه في جنس المشبه به وادعاء أنهما مشتركان في الحقيقة الجامعة لهما » ^(٢) .

(١) انظر في ذلك الإفصاح عما تضمنته الإيضاح ، ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ .

(٢) شروح التلخيص ، ٢٢٣/٤ .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتُ فِي مَسَائِلِ عَلِيٍّ الْبَيَّانِ ————— ❁

هذا وهناك مواطن يحسن فيها التشبيه ولا تحسن الاستعارة ، وبالعكس ، فمن دواعي حسن الاستعارة التحقيقية ألا يشم منها رائحة التشبيه على نحو ما سبق وهذا يقتضي أن يكون وجه الشبه - وهو الجامع - في الاستعارة ظاهر الوضوح حتى لا تنقلب الاستعارة لُغْزاً لأن وجه الشبه إن كان خفياً ومن شأن الاستعارة إخفاء التشبيه وتناسيه ، فإن درجة الخفاء فيها تتضاعف ، ويغمض فهم المقصود منها فتصبح إلغازاً وتعمية ؛ لذا لا تحسن الاستعارة إذا كان وجه الشبه خفياً ، ويحسن التشبيه لإمكان إزالة الخفاء في وجه الشبه بالتصريح به في الكلام ، أو تقريره بذكر المشبه ولا يتأتى ذلك في الاستعارة ، فلا تقول : « رأيت أسداً في الحمام ، وتريد بذلك إنساناً أبخر نتن الفم ، لعدم تمييز الأسد بهذه الصفة ؛ ولذا لا يمكن أن ينتقل من الأسد مع القرينة المانعة عن إرادة الأصل إلا إلى إنسان موصوف بلأزم الأسد المشهور وهو « الشجاعة » وأما أن يراد نتن الرائحة والبخر فلا لخفائه والانتقال إلى الرجل بدون الوصف لا يفيد في التجوز ويجوز ذلك في التشبيه فنقول : هذا الرجل كالأسد في نتن الفم لزوال الخفاء بذكر وجه الشبه .

ولا يجوز أن تقول على سبيل الاستعارة : « رأيت إبلاً مائة ولا نجد فيها راحلة » : يعني أن المختار الفاضل من الناس في عزه وجوده وندرته كالنجيبة التي لا توجد في كثير من الإبل وأنت تريد بقولك : رأيت رجلاً كثيراً ليس بينهم إلا رجل واحد متميز بصفة الكمال وإنما لم يصح قولك هذا لخفاء وجه الشبه ويصح أن تقول ذلك على التشبيه كقول الرسول ﷺ : « الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة » لأن ذكر المشبه مع أداة التشبيه أزال الخفاء في وجه الشبه ولا نقول : « رأيت عوداً يسقى أوان الغرس » وأنت تريد إنساناً مؤدباً في صباه لعموض المعنى ، وإنما تقول ذلك على التشبيه فتقول : « التأديب في الصغر

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

كالعود يُسْقَى في أوان الغرس» ويقابل هذا أنه إذا قوِيَ التَّشَابُه بين الطرفين حتى اتحدا كالعلم والنور والشبهة والظلمة تَعَيَّنَت الاستعارة ولم يحسن التشبيه حتى لا يكون قريبا من تشبيه الشيء بنفسه ، فإذا فَهِمْتَ مسألة تقول : « حَصَلَ فِي قَلْبِي نَورٌ وَلَا تَقُولُ «عِلْمٌ كَالنَّوْرِ» وَإِذَا وَقَعْتَ فِي شَبْهَةٍ تَقُولُ «قَدْ وَقَعْتَ فِي ظُلْمَةٍ» وَلَا تَقُولُ : «وَقَعْتَ فِي شَبْهَةٍ كَالظُّلْمَةِ» أَمَّا الاستعارة المكنية فحسنها برعاية جهات حسن التشبيه لأنها تشبيه مضمَّر والاستعارة التخيلية حسنُها بحسب حسن المكني عنها ؛ لأنها لا تكون إلا تابعة للمكني عنها وليس لها في نفس تشبيهه ، بل هي حقيقة فحسنها تابع لحسن متبوعها ^(١).

* * *

(١) ابن يعقوب ، ٢٢٥/٤ - ٢٣٠ مع مختصر العلامة سعد الدين - نفس الصفحات .



الاستعارة بين الرداءة والحسن

مما يجب الالتفات إليه في هذه ما نجده في كلام النقاد العرب القدماء والبلاغيين من الحكم على بعض الاستعارات بالرداءة والقبح وعلى بعضها بالجمال والحسن مما يدفع الباحث إلى الجِدِّ والاجتهاد في معرفة المعيار الذي اعتمد عليه النقاد في حكمهم هذا ولأنهم حكموا على الاستعارة من خلال ما جرى به العرف عند القدماء في استعمال المجاز عند الشعراء المتقدمين رأيناهم يَدْعُونَ إلى عدم تجاوز ما ورد من نماذج المجاز عند المتقدمين ، واحتذاء هذه النماذج فيما تقسم به من خصائص عامة تتسم بالوضوح ، وتجري على منطق العقل في تحديد العلاقات ، والربط بين الأشياء .

يقول الآمدي في ذلك : « وإنما استعارات العرب المعنى لما ليس له إذ كان يقاربه ، أو يدانيه ، أو يشبهه في بعض أحواله ، أو كان سببا من أسبابه فتكون اللفظة المستعار حينئذ لائقة بالشيء وملائمة لمعناه نحو قول امرئ القيس :

فقلت له لما تَطَى بِجَوْزِهِ وَأَرْذَفَ أَعْجَازًا وَئَاءَ بَكْلَكُلِ

وقد عاب امرأ القيس بهذا المعنى مَنْ لم يعرف موضوعات المعاني ولا المجازات وهو في غاية الحسن والجودة»^(١) ، ويقول القاضي الجرجاني وقد كان الإمام عبد القاهر يستشهد به كثيرا : « وإنما الاستعارة ما اكتفى فيها بالاسم المستعار عن الأصل ، ونقلت العبارة فجعلت في مكان غيرها وملاكها تقريب الشبه ، ومناسبة المستعار له للمستعار منه ، وامتزاج اللفظ بالمعنى ؛ حتى لا يوجد بينهما منافرة ، ولا يتبين في أحدهما إعراض عن الآخر»^(٢) .

(١) الموازنة ، ص ٢١٣ ، ٢١٤ ، تحقيق محمد محيي الدين .

(٢) الوساطة بين المتنبي وخصومه ص ٤١ .

❁—————الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ—————دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

ويقول ابن رشيق «إنه لا يجب للشاعر أن يبعد الاستعارة جدا حتى ينافر ، ولا أن يُقَرِّبَهَا كثيرا حتى يَحَقِّقَ ولكن خير الأمور أوساطها»^(١).

وجاء الإمام عبد القاهر فانتفع بكل ما قيل قبله على نحو أكسبه مزيدا من الخبرة مع رقة الطبع فيقول : «فينبغي أن تعلم أنه ليس كل شيء يجيء مشبها به بكاف أو بإضافة «مثل» إليه يجوز أن تسلط عليه الاستعارة وتنفذ حكمها فيه حتى تنقله عن صاحبه وتدعيه للمشبه على حدّ قولك : «أبديت نورا» تريد علما و«سللت سيفا صارما» تريد رأيا نافذا ، وإنما يجوز ذلك إذا كان الشبه بين الشيئين مما يقرب مأخذه ، ويسهل متناوله ، ويكون في الحال دليل عليه ، وفي العُرف شاهد له ، حتى يُمكن المخاطب إذا أطلقت له الاسم أن يعرف الغرض ويعلم ما أردت»^(٢).

وإذا كان من غايات الاستعارة أن تفيد التشبيه مع المبالغة ووجازة الكلام فليس معنى تحقُّق هذه الغاية أن تكون مبرِّراً للحسن ، وإنما على منشئ الكلام أن يكون على دراية تامة بالمعنى الذي يريد تصويره ، وأن عليه أن يتمثله ، وأن يعيش بمشاعره وأحاسيسه في داخله . فإذا كان منشئ الكلام يريد تصوير موقف يرفضه ، ولا يقبله بل ويكرهه فإن عليه أن يكون فطناً ، وأن يكون تصويره له تشخيصاً للكرهية ، وتجسيدا لها ، ووضعها في إطارها التي يجب أن توضع فيه - وتصوير كراهيته لها على نحو تجعل من يتلقّى عنه ينفر منها ويكرهها ، وأن يفرّق بين ما يُحبّ من الشبه ، وما يكره كما أن على منشئ الكلام ألا يتغافل عن ملاحظة مقامات المخاطبين وما هو لائق بهم ، وما يجب أن يكون لأمثالهم . وعليه ألا يكون همّه تشكيل صورته الاستعارية في أية هيئة وصورة حتى ولو جاءت الألفاظ غير حسنة وإلا كان ضرر

(١) العملة ، ٢٧١/١ .

(٢) أسرار البلاغة ، ص ٢٤٣ .



الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دُرِّسَتْ فِي مَسَائِدِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي تَالِبٍ ————— ❁

الاستعارة أكثر من نفعها . وقد كانت هذه الجناية أكبر دليل للقادح في شعر أبي تمام حين تجاهل وتغافل مراعاة مقامات المخاطبين ، وما هو واجب لهم ، ولائق بهم .

انظر إلى أبي تمام حين لم يُراعِ في مخاطباته قدر الممدوح فيحسن له ظاهر اللفظ ، وإنما اقتصر على صميم التشبيه ، وأطلق اسم الجنس الخسيس كإطلاق الشريف النبيه وذلك في قوله :

وَإِذَا مَا شِئْتُ كُنْتُ رِشَاءً وَإِذَا مَا أُرِدْتُ كُنْتُ قَلْبًا

و«الرشاء» هو حبل الدلو جعله واسطة لنيل المعروف ، و«القلب» البئر يُعْتَرَفُ منه .

قَصَّ وجه الممدوح كما ترى بأنه رِشَاءٌ وقلب .

ومن هذا ما يقوله أبو تمام في مدح ممدوحه :

مَا زَالَ يَهْذِي بِالْمَكَارِمِ وَالْعُلَى حَتَّى ظَنَّنَا أَنَّهُ مَحْمُومٌ

فجعله يهذي ، وجعل عليه الحمى ، وظن أنه إذا حصل له المبالغة في إثبات المكارم له ، وجعلها مستبدة بأفكاره ، وخواطره حتى لا يصدُر عنه غيرها فلا ضير أن يتلقاه بمثل هذا الخطاب الجافي ، والمدح المتنافي ، ويقول عبد القاهر : قبل ذكر هذين البيتين : « وقد عرفت ما جناه التهاون بهذا النحو من الاحتراز على أبي تمام حتى صار ما يُنَعَى عليه منه أبلغ شيء في بسط لسان القادح فيه ، والمنكر لفضله ، وأحضر حجة للمتعصب عليه وذلك أنه لم يبال في كثير من مخاطبات الممدوح بتحسين ظاهر اللفظ ، واقتصر على صميم التشبيه ، وأطلق اسم الجنس الخسيس كإطلاق الشريف النبيه »^(١).

(١) أسرار البلاغة ، ص ٢٥٣ ، ٢٥٤ .

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

ومما يجب ألا يغيب عنا أن الإمام عبد القاهر حين يذكر لفظ التشبيه على هذا النحو في كثير من أمثلة الاستعارة فإنه لا يقصد التشبيه الصريح المقابل للاستعارة وإنما يريد بأمثلته الاستعارة ؛ لأنها قائمة على التشبيه ومبنية على أساسه وكلام الإمام عبد القاهر ظاهر الوضوح في التفريق بين التشبيه في الاستعارة مثل عَنَّتْ لَنَا ظُيَّةٌ وَالتَّشْبِيهِ الصَّرِيحِ فِي مِثْلِ زَيْدٍ أَسَدٌ وَذَلِكَ حِينَ يَقُولُ : « تَقُولُ فِي الْأَوَّلِ إِنَّهُ اسْتِعَارَةٌ لَا تَتَوَقَّفُ وَلَا تَتَحَاشَى الْبَتَّةَ ، وَإِنْ قُلْتَ فِي الْأَوَّلِ إِنَّهُ تَشْبِيهِ كُنْتَ مُصَيِّبًا مِنْ حَيْثُ تَخْبِرُ عَمَّا فِي نَفْسِ الْمُتَكَلِّمِ وَعَنْ أَصْلِ الْغَرَضِ وَإِنْ أَرَدْتَ تَمَامَ الْبَيَانِ قُلْتَ أَرَادَ أَنْ يَشْبَهَ الْمَرْأَةُ بِالظُّيَّةِ فَاسْتَعَارَ لَهَا اسْمَهَا مِبَالِغَةً »^(١).

هذا ولقد ذكر القاضي الجرجاني نماذج للاستعارة الحسنة التي جاءها على حَدِّ قَوْلِهِ الْحُسْنُ وَالْإِحْسَانُ ، وَذَكَرَ نَمَازِجَ لِلْإِسْتِعَارَةِ الرَّدِيئَةِ مِنْ مِثْلِ قَوْلِ أَبِي تَمَامٍ :

بَاشَرْتُ أَسْبَابَ الْغَنَى بِمَدَائِحِ ضَرَبْتُ بِأَبْوَابِ الْمُلُوكِ طُبُولًا
وَبَقُولِهِ :

لَهَا بَيْنَ أَبْوَابِ الْمُلُوكِ مَزَامِرُ مِنْ الذِّكْرِ لَمْ تَنْفُخْ وَلَا هِيَ تَزْمُرُ
وَبَقُولِهِ :

إِلَى مَلِكٍ فِي أَيْكَةٍ^(٢) الْمَجْدُ لَمْ يَزَلْ عَلَى كَبِدِ الْمَعْرُوفِ مِنْ نِيلِهِ بَرْدُ
وَبَقُولِهِ :

أَنْزَلْتَهُ الْأَيَّامَ عَنْ ظَهْرِهَا بَعْدَ اثْبَاتِ رِجْلِهِ فِي الرِّكَابِ

(١) أسرار البلاغة ص ٣٢٢ .

(٢) الأيكة الشجر الملتف .



الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دُرُوسَةٌ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ❁

وبقول أبي الطيب :

مسرَّة في قلوب الطيب مفرقها وحسرة في قلوب البئس واليلب^(١)

فقد جعل للطيب ، والبئس ، واليلب قلوبا .

وقوله :

تجمعت في فؤاده همم ملء فؤاد الزمان إحداها

وقد جعل للزمان فؤادا .

وغير ذلك من الاستعارات التي يقول علي بن العزيز الجرجاني في مثلها « فاسد مسامعك ، واستغن^(٢) ثيابك ، وإياك والإصغاء إليه واحذر الالتفات نحوه ؛ فإنه مما يُصدئ القلب ، ويُعميه ، ويطمس البصيرة ، ويكدِّ القريحة »^(٣) .

فقد قيل إن هذه الاستعارات من الاستعارات البعيدة المرذولة والمفرطة؛ لأن الاستعارة إما أن تُبنى من تشبيه قريب وهي الحسنة أو من بعيد مفرد وهي الرديئة القبيحة يقول ابن سنان : « وهي - يقصد الاستعارة على ضريين قريب مختار ، وبعيد مطرَّح ، فالقريب المختار ما كان بينه وبين ما استعير له تناسب قوي ، وشبه واضح ، والبعيد المطرَّح إما أن يكون لبعده مما استعير له في الأصل ، أو لأجل أنه استعارة مبنية على استعارة فتضعف لذلك »^(٤) .

إن المتأمل في هذه الاستعارات الرديئة التي أورد القاضي الجرجاني كثيرا منها قد بنى على تشبيه قريب ، ففي كبد المعروف تشبيه المعروف بإنسان حي له كبد بعد إضفاء الصفات الإنسانية عليه وهم يقولون في هذا يحيا به المعروف وفي قوله : أنزلته الأيام من على ظهرها ، فقد جعل للأيام ظهرها ،

(١) اليلب : الدروع اليمانية تتخذ من الجلود .

(٢) يقال استغننى ثيابه وتغننى بها أي تغطى بها حتى لا يرى ولا يسمع .

(٣) الوساطة ص ٤١ .

(٤) سر الفصاحة ، ص ١٢٠ .

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

والأيام تُنزلُه من على هذا الظهر وذلك بتشبيه الأيام بذِي ظهر حيٍّ وليس في هذا إغراب وبعد ؛ لأنهم يقولون قلبت له الأيام ظهر المجن أي عَادَتْهُ بعد مودّة والمِجَنّ هو الترس وهم يجعلون الطيب حيّاً يسعد ويفرح ويسرّ حين يوضع على مفرقها الحسن الجميل ، وأن البيض واليلب يتمنيان أن يكونا في مكان الطيب وعلى هذا النحو تتبعنا الاستعارات الرديئة التي ذكرها الآمدي ، والتي ذكرها القاضي الجرجاني ، والتي ذكرها أبو هلال العسكري وغيرهم لا نجد هذه الاستعارات في معظمها مبنية على تشبيهات بعيدة حتى يقال إن البعد في التشبيه هو السبب وراء قبح هذه الاستعارات ، ولعل الذي أفسد هذه الاستعارات وأصابها بالرداءة والقبح خروجها عن المعروف المألوف ، وبعدها عن ذلك بإثبات لواحق المشبه به للمشبه على نحو لم يعهده الخيال ، ولم يعرفه ويألفه بهذه الصورة وإن كان قد ألف غيرها « فإنهم جعلوا الدهر إنسانا ووصفوه بالوفاء والغدر ولكنهم لم يجعلوا له ابنا كيوم السبت ، ولم يتكلموا عن استيه ، ولم يجعلوا له أخدعاً ، ولم يقولوا إن كفّ الدهر تُقَطَّع من الزند إذا مدّها بسوء إلى مَجْتَدَى نصر بن منصور مع أنهم جعلوا له ساعدا وشبهوا الأقوام بهذا الساعد في صور حسنة جدا كقول ابن رميلة :

هم ساعد الدهر الذي يتقى به وما خير كف لا تنوء بساعد
كما جعلوا القصائد أناسي تشفع وتغضب ، أو ترفع وتضع ولكنهم لم يجعلوا لها طبولا ومزامير ينفخ فيها أو لا ينفخ ، وكذلك لم يجعلوا الندى يخر صريعا بين يديها»^(١).

الخروج عن المألوف ، والتمرد عليه كان من وراء رداءة هذه الاستعارات وغيرها مما جاء على مثالها من غير أن تكون هناك ضرورة تلجئ إلى ذلك ، ويقول الآمدي بعد أن ذكر ما ذكره من الاستعارات الرديئة عند أبي تمام التي

(١) التصوير البياني ، ص ٣٣٠ ، ٣٣١ .



الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ الْبَيَانِ ————— ❁

خرجت عن المألوف وذكر أمثلة من الاستعارة الحسنة «فهذا مجرى الاستعارات في كلام العرب ، وأما قول أبي تمام «ولكن أخادع الزمن الأبي» فأى حاجة إلى الأخادع حتى يستعيرها للزمن ؟ وكان يمكنه أن يقول : ولين معاطف الدهر الأبي ، أو لين جوانب الدهر ، أو خلائق الدهر كما تقول فلان سهل الخلائق ، ولين الجوانب ، وموطأ الأكناف ؛ ولأن الدهر يكون سهلاً وحزناً ، ولينا وصعباً على قدر تصرف الأحوال فيه ؛ لأن هذه الألفاظ كانت أولى بالاستعمال في هذا الموضع ، وكان تنوب عن المعنى الذي قصده ويتخلص من قبح الأخادع فإن في الكلام متسعاً»^(١) فالخروج عن الإلف والبعد عنه وإثبات لواحق للمشبه على نحو يخرج بالاستعارة إلى أفق بعيد غير معهود هو الذي أصاب هذه الاستعارات بالقبح ويقول الآمدي ومن القبيح في هذا قوله : يقصد أبا تمام :

يا دهر قوم من أخدعك فقد أضججت هذا الأنام من خرُك^(٢)

ويعلق على البيت فيقول : أي ضرورة دعتني إلى الأخدعين ؟

وكان يمكنه أن يقول : «من اعوجاجك» أو «قوم ما تعوج من صنعك» أي يا دهر أحسن بنا الصنيع ؛ لأن الأخرق هو الذي لا يحسن العمل ، وضده الصنع^(٣).

ومن ردى استعارات أبي تمام وقبيحها قوله :

لم تُسَقِّ بَعْدَ الْهَوَى مَاءَ أَقْلٍ قَدْ ذَى مِنْ مَاءِ قَافِيَةٍ يَسْقِيكُهُ فَهْمٌ

فإنه هنا يسقي ماء القافية بعد أن جعل لها ماء على الاستعارة ، فلو أراد الرونق لصلح ولكنه قال «يسقيكه» فبئس معنى الرونق ؛ لأنك إذا قلت «هذا

(١) الموازنة ، ص ٢١٧ .

(٢) الأخدعان : عرقان في العنق والخرق : الحمق .

(٣) الموازنة ص ٢١٩ .

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسْتُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

ثوب له ماء» لم تجعل الماء مشروباً فتقول : ما شربت ماء أعذب من ماء ثوب شربته عند فلان ، ورأيت على فلان الملك ، وكذلك لا تقول ما شربت ماء أعذب من ماء «قفا نبك» ، أو أعذب من ماء كذا ؛ لأن للاستعارة حداً تصلح فيه فإذا جاورته فسدت وقبحت^(١).

هذا والاستعارة في بيت أبي تمام التي عدها الآمدي في مقدمة استعارته القبيحة وهي :

يا دهر قوم من أخذعيك فقد أضججت هذا الأنام من خرقك

والتي عدت عند بعض النقاد من الاستعارات الرديئة كما ذكر الآمدي وغيره ، ونرى القاضي الجرجاني يقول : إن أبا تمام «إنما يريد : أعدل ولا تجر ، وأنصف ولا تحف لكنه لما رآهم قد استجازوا أن ينسبوا إليه الجور والميل ، وأن يقذفوه بالعسف والظلم والخرق والعنف وقالوا قد أعرض عنا ، وأقبل على فلان ، وقد جافانا وواصل غيرنا وكان الميل إنما وقع بانحراف الأخدع ، وازورار المنكب ، استحسناً أن يجعل له أخدعا ، وأن يأمر بتقويمه»^(٢).

وعلى كل فإن هذه الاستعارة مستهجنة لدى بعض النقاد وإن من وراء استهجانها الإغراب والبعد ، أو نبوء اللفظ ، وعدم سماحته مع كونه غير ملائم ولا مناسب لموقعه الذي حل فيه ، وكلام القاضي يشعر إلى أي مدى تتباين أذواق المتلقين في حكمهم على ما يتلقونه ، وقدراتهم في التعبير عما يحسونه ويتذوقونه ؟ واختلاف أذواقهم في تقدير بعض الاستعارات قبولا ورفضاً أو ردّاً ورفضاً ويؤكد هذا المعنى فيبين أن الحكم بحسن الاستعارة أو قبحها يحتاج إلى إحساس المتلقي بالمعنى ، وقدرته على تحليل الاستعارة ، وتوجيهها ، وكشف ما غمض من العلاقة بين المستعار له والمستعار منه وذلك أمر تتفاوت

(١) الموازنة ٢٢١ .

(٢) الوساطة ، ص ٤٣٢ ، ٤٣٣ .



الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلَالِيَّاتٍ ————— ❁

فيه قدرات المتلقين تبعاً لمحصلوهم من الثقافة ، وما تتوفر لديهم من أدوات معرفية تعينهم وتساعدهم على الحكم على ما يقع تحت أعينهم وفي أيديهم من مثل هذه الاستعارات ، وقد ضرب القاضي الجرجاني المثل في هذا الشأن حين قال : « وقد كان بعض أصحابنا يجاريني أبياتا أبعد أبو الطيب فيها الاستعارة وخرج عن حد الاستعمال والعادة فكان مما عدّ منها قوله :

مسرة في قلوب الطيب مفرقها وحسرة في قلوب البيض واليلب^(١)
وقوله :

تجمعت في فؤاده همهم ملء فؤاد الزمان إحداهما
فقال : جعل للطيب ، والبيض ، واليلب قلوباً ، وللزمان فؤاداً ، وهذه استعارة لم تجر على شبه قريب ولا بعيد ؛ وإنما تصح الاستعارة وتحسن على وجه من المناسبة ، وطرف من الشبه والمقاربة - فقلت له هذا ابن أحمد يقول :

ولهمت عليه كل معصفة هوجاء ليس للبه زبر^(٢)
فما الفصل بين من جعل للريح لباً ، ومن جعل للطيب والبيض قلباً !
وهذا أبو رميلة يقول :

هم ساعد الدهر الذي يتقى به وما خير كف لا تنوء بساعد
وهذا الكميت يقول :

ولما رأيت الدهر يقلب ظهره على بطنه فعل الممعك بالرم^(٣)
وشاتم الدهر العبقري يقول :

ولما رأيت الدهر وعراً سبيله وأبدي لنا ظهر أجب مسمعا

(١) اليلب : الدروع التي تتخذ من الجلود .

(٢) وله يوكه من باب تعب والوكه : ذهاب العقل والزبر : الرأي أو القوة .

(٣) التمعك : التمرغ .

❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

ومَعْرِفَةُ حَصَّاءٍ غَيْرِ مُفَاضَّةٍ عَلَيْهِ وَلَوْ نَا ذَا عِثَانَيْنِ أَتْرَعَا

وَجِهَةٌ قَرْدٍ كَالشَّرَاكِ ضَائِلَةٌ وَصَعَّرَ خَدَيْهِ وَأَنْفَا مُجَدَّعًا^(١)

فهؤلاء قد جعلوا الدهر شخصا متكامل الأعضاء ، تام الجوارح فكيف أنكرت على أبي الطيب أن جعل له فؤادا غير أن قال : أنا استبُرت^(٢) .

ووجدت بين استعارة ابن أحمر للريح لباً ، واستعارة أبي الطيب للطيب قلباً بوناً بعيداً ، وأصبت بين استعمال ساعد الدهر في بيت ابن رميلة ، واستعمال فؤادٍ للزمان في بيت أبي الطيب فصلاً جلياً وربما قصر اللسان عن مجازاة الخاطر ، ولم يبلغ الكلام مبلغ الهاجس^(٣) .

فصاحب القاضي الجرجاني قد أظهر عجزه عن الوقوف على الفرق بين استعارتي ابن أحمر وأبي رميلة من جهة ، واستعارتي المتنبي من جهة أخرى وإنما توقف عند الإحساس النفسي بالفرق بينهما من غير أن يشرح هذا الفرق ويجليّه ويبينه ويوضحه ويُترجم ما بداخله من إحساس تجاهه ، وأقرّ القاضي صاحبه عما عجز عن تبيانه بالنسبة للفرق بين استعارة ابن أحمر وأبي رميلة من جانب واستعارتي المتنبي من جانب آخر على أساس عجز اللسان وقصوره عن ترجمة ما يتردد في النفس من أحاسيس فيعبر عنه ذلك وتوجّه بشرح الفرق وتوضيحه فبيّن ما بين طرفي الاستعارة عند ابن أحمر وأبي رميلة ، والكميت ، وشاتم الدهر من علاقة تسوُّغ الاستعارة وتحسّنها ذلك أن الريح العاصفة لما كانت تخرج بهبوبها عن الاستقامة شبهت بالشخص الأهوج الذي فقد الاتزان ، والتّماسك في عقله ومن هنا جاز أن يجعلَ للريح عَقْلاً وأما الدهر فإنما المراد به أهله وحين يجعل الشاعر له ساعداً ، وعضداً ، ومنكباً ،

(١) المَعْرِفَةُ : بفتح الميم والراء : موضع العرف من الفرس والطيور : وحصاء : قد ذهب شعرها . العِثَانَيْنِ : جمع عِثْنَيْنِ ، وهي اللحية .

(٢) سَبَرُ الشَّيْءِ : خبره والسَّبَرُ : استخراج كنه الأمر كالاستبصار .

(٣) الوساطة ، ص ٤٢٩ ، ٤٣٠ .



الصورة البيانية ————— دراستي مسائل علي البيان ————— ❁

فقد أقيم أهله مقام هذه الجوارح ، وأما أبيات شاتم الدهر فإنما صدرت مصدر الهزل ، وجرت على عادة في الاستعمال متداولة . يقول القاضي الجرجاني :

حدثني جماعة من أهل العلم عن يونس بن عبد الأعلى ، سألت الشافعي عن مسألة فقال : إني أجد بيانها في قلبي ولكن ليس ينطق به لساني ، وما أقرب ما قاله من الصواب ، وأخلفه بالسداد ! وقد أجد لهذا الفصل الذي تخيل له بعض البيان ، وذلك أن الريح لما خرجت بعصوفها من الاستقامة ، وزالت عن الترتيب شُبّهت بالأهوج الذي لا مُسَكّة في عقله ، ولا زبر للبه ، ولما كان مدار الأهوج على التباس العقل حَسُنَ من هذا الوجه أن يجعل للريح عقلا ، فأما الدهر فإنما يراد بذكره أهله فإذا جعل للدهر ساعدا وعضوا ومنكبا فقد أقيم أهله مقام هذه الجوارح من الإنسان ؛ وليس للطيب والبيّض ، واليلب ما يشبه القلب ولا ما يجري مع هذه الاستعارة في طريق وأما أبيات شاتم الدهر فإنها صدرت مصدر الهزل ، وجرت على عادة في الاستعمال متداولة ، وذلك أنهم لما ابتدلوا اسم الدهر ، واعتمدوا على صرفه في الشكّاية والشكر ... وأحالوا عليه باللوم والعتب ، وألفوا ذلك ، واعتادوا حتى صار أغلب على كلامهم وأكثر في شعرهم وخطابهم من ذكر أهله وأبنائه ... صار كالشخص المحمود المذموم ، والإنسان المحسن المسيئ فوصل بأوصافه ... وجعل له أعضاء تُعدّ وتُنعت وتستكرم وتستهجن^(١).

هذا ويتفق الآمدي مع الجرجاني في نظرتة العامة لأبيات شاتم الدهر وأنها جاءت على سبيل التفكه والهزل حين قال بعد أن ذكر الأبيات « فجعل للدهر ظهر أجَب ، ومعرفة حصاء ، ولونا ذا عثانين وشبهه جبهته بجبهة قرد ، وجعل أنفه أنفاً مجدّعا ، وهذا الأعرابي إنما ملّح بهذه الاستعارات في هجائه للدهر ، وجاء بها هازئا ومثل هذا في كلامهم قليل جدا ليس مما يعتمد ، ويجعل أصلاً يحتذى عليه ويستكثر منه^(٢).

(١) الوساطة ، ص ٤٣٠ ، ٤٣١ .

(٢) الموازنة ، ص ٢٢٠ .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ ﴾

على حين ذكر أبو هلال أبيات شاتم الدهر واستهجنها ، وعلق عليها بقوله :
« وما أعرف متى رأى هذا للدهر جبهة كالشراك مع هذا الذي عدده فجاء بما
يُضحك الثَّكلى »^(١).

هذا وقد سبق أن عرضنا عرضاً سريعاً لرأي الآمدي في الاستعارة في قول
امرئ القيس :

فقلت له **لما تمطى بجوزه** وأردف **أعجازاً وناء بكلكل**

والتي عدها في غاية الحسن وقال بعد أن ذكر البيت وقد عاب امرؤ القيس
بهذا المعنى من لم يعرف موضوعات المعاني ، ولا المجازات وهو في غاية
الحسن ، والجودة ، والصحة ، وهو إنما قصد وصف أجزاء الليل الطويل فذكر
امتداد وسطه ، وتثاقل صدره للذهاب والانبعاث ، وترادف أعجازه وأواخره
شيئاً فشيئاً ، وهذا عندي منتظم لجميع نعوت الليل الطويل على هيئته ، وذلك
أشد ما يكون على من يراعيه ، ويرقب تصرفه ، فلما جعل له وسطاً يمتد ،
وأعجازاً رادفة للوسط ، وصدرًا متثاقلاً في نهوضه حسن أن يستعير للوسط اسم
الصلب ، وجعله متمطياً من أجل امتداده ؛ لأن تمطى ، وتمدد بمنزلة واحدة
وصلح أن يستعير للصدر اسم الكلكل من أجل نهوضه . وهذه أقرب
الاستعارات من الحقيقة ، وأشد ملائمة لمعناها لما استعيرت له »^(٢).

ويتفق الجرجاني مع الآمدي في الرؤية العامة للاستعارة في بيت امرئ
القيس السابق ويعلق عليه بقوله : « فجعل ليل صلباً ، وعجزاً وكلكلاً لما كان
ذا أول ، وآخر ، وأوسط مما يوصف بثقل الحركة إذا استطيل وبخفة السير إذا
استقصر ، وكل هذه الألفاظ مقبولة غير مستكرهة ، وقريبة المشاكلة ، ظاهرة
المشابهة »^(٣).

(١) كتاب الصناعتين ، ص ٣٣٤ .

(٢) الموازنة ، ص ٢١٤ .

(٣) الوساطة ، ص ٣٣٢ .



الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ الْبَيَّانِ ————— ❁

وبيت امرئ القيس هذا قد عرض للحكم على الاستعارة فيه الأمير أبي محمد بن سنان الخفاجي ، وخالف الآمدي فيما ذهب إليه من أن الاستعارة فيه في غاية الحسن والجودة وذكر كل ما قاله الآمدي تعليقا على بيت امرئ القيس السابق ، وقال بعد ذلك « وهذا الذي قاله أبو القاسم لا أرضى به غاية الرضى ، ولو كنت أسكن إلى تقليد أحد من العلماء بهذه الصناعة ، أو أجنح إلى اتباع مذهبه من غير نظر وتأمل لم أعدل عما يقوله أبو القاسم لصحة فكره ، وسلامة نظره ... لكنني أغلب الحق عليه ، ولا أتبع الهوى فيما يذهب إليه وبيت امرئ القيس عندي ليس من جيد الاستعارة ولا رديئها ، بل هو من الوسط بينهما وذكر بيت الغنوي الذي يقول فيه :

وجعلت كوري فوق ناجية يقتات شحم سنامها الرّحل^(١)
كما ذكر بيت ذي الرمة :

أقامت به حتى ذوي العود والثرى ولف الثريا في ملاءته الفجر
وقال في حقهما : إنهما أحمدا في الاستعارة ، وأشبه بالمذهب الصحيح منها ، وإنما قلت ذلك ؛ لأن أبا القاسم قد أفصح بأن امرأ القيس لما جعل لليل وسطا ، وعجزا ، استعار له اسم الصلب ، وجعله متمطيا من أجل امتداده ، وذكر الكلكل من أجل نهوضه ، فكُلّ هذا إما يحسن بعضه لأجل بعض ، فذكر الصلب إنما حسن لأجل العجز ، والوسط ، والتمطي لأجل الصلب ، والكلكل لمجموع ذلك ، وهذه الاستعارة المبنية على غيرها فلذلك لم أجعلها من أبلغ الاستعارات وأجدرها بالحمد والوصف وكانت استعارة طفيل وذي الرمة عندي أوفق وأصح ؛ لأنها غنية بنفسها غير مفتقرة إلى مقدمة جلبتها^(٢) وقد ذكرنا من قبل أن ابن سنان بين أن الاستعارة « على ضربين : قريب مختار ، وبعيد

(١) الكور : رحل البعير ، والناجية : الناقة السريعة .

(٢) سر الفصاحة ، ص ١٢٢ ، ١٢٣ .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ —————﴾ دراسته في مسائل علم البيان

مُطَرَّح ، فالقريب المختار ما كان بينه وبين ما استعير له تناسب قوي ، وشبهه واضح ، والبعيد المُطَرَّح ، إما لبعده مما استعير في الأصل أو لأجل أنه استعارة مبنية على استعارة فتضعف لذلك والقسمان معاً يشملهما وصفي لهما بالبعد^(١) واستعارة امرئ القيس التي لم يعدّها من القريب المختار ، ولا من الرديء المرذول ، وعدّها من الوسط وذلك لبنائها على استعارة أخرى وهي على هذا النحو - على حد قوله - ليست أشبه بالمذهب الصحيح وهو بهذا يكون قد غلا وتجاوز المقبول حين رفض كل استعارة بنيت على استعارة أخرى ؛ لأنها تبعد عن الحقيقة ، ولا تبنى عليها وإنما بنيت على مجاز ؛ لذا أبعدت وأوغلت في الخيال ، وعلى نحو ما رأينا الآمدي يصف الاستعارة في بيت امرئ القيس السابق بأنها في غاية الجودة والحسن نراه يقول : وكذلك قول زهير :

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله وعُرى أفراس الصِّبا ورواحله

فالصبا جعل لها زهير أفراساً ورواحل ، وبين ذلك الآمدي فقال : لما كان من شأن ذي الصِّبا أن يوصف أبداً بأن يقال : ركب هواه ، وجرى في ميدانه ، وجمّح في عنانه ، ونحو هذا حسن أن يستعار للصِّبا اسم الأفراس ، وأن يجعل النزوع أن تعرّي أفراسه ورواحله ، وكانت هذه أيضاً من أليق شيء بما استعيرت له ^(٢) .

والآمدي قد هياً لحسن الاستعارة هنا وبما هو على شاكلتها ، وقريب منها من قولهم : ركب هواه ، وجرى في ميدانه ، وجمع في عنانه وما هو على هذا النحو من المجاز المألوف ، فتكاد تنعدم المساحة الفارقة بين قولهم هذا وبين أن يكون لهوى الصبا أفراس ورواحل .

(١) سر الفصاحة ، ص ١٢٠ .

(٢) الموازنة ، ص ٢١٤ .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دُرُوسَةٌ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ❁

ونحو قول زهير على حد ما يقول الآمدي قول طفيل الغنوي :
وجعلت كُوري فوق ناجية يقتات شحم سنامها الرحل
ويعلق على البيت بقوله : « لما كان شحم السنام من الأشياء التي تقتات
وكان الرحل أبداً يتحوّنه ^(١) وينتقص منه ويذيبه ، وينتقص منه ويذيبه ، كان
جعله إياه قوتا للرحل من أحسن الاستعارات وأليقها بالمعنى » ^(٢) على أن
الشاعر لم يتوقف عند خياله الذي جعل للصبّ أفراسا ورواحل ، وإنما كثّف
من مساحة التصوير حين تحدث عن تعريته لها وهياً لذلك بقوله : « صحا
القلب عن سلمى وأقصر باطله » مما يوحي بترك ميدانه ، وتعرية أفراسه بعد
تخلية أدواته .

هذا ويذكر ابن سنان رأي الآمدي في بيت زهير وينقل كلامه فيه ثم يقول :
« وعندي أن الاستعارة في بيت طفيل أليق منها ^(٣) في هذا البيت ، والعلة
ما ذكرته في بيت امرئ القيس ، وذلك أن الاستعارة في بيت زهير مبنية على
قولهم - ركب هواه وجرى في ميدانه - على نحو ما قاله أبو القاسم - يقصد
الآمدي - وتلك استعارة بغير شك ، وقد بنى عليها ، وبيت طفيل أقرب وأحسن
لغناه بنفسه » وقد نبّهت من قبل أن ابن سنان قد غلا وتجاوز حين رفض كل
استعارة تكون قد بنيت على استعارة ؛ لأنها حين تبنى على مجاز تكون بعيدة
عن الحقيقة ، وأوغلت في الخيال هذا وقد عرض يحيى بن حمزة العلوي
للاستعارة في قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً
يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذْهَبَ اللَّهُ لِبَاسِ الْجُوعِ
وَالْخَوْفِ ﴾ (النحل: ١١٢).

(١) يتحوّنه : ينقصه .

(٢) الموازنة ، ص ٢١٥ .

(٣) سر الفصاحة ، ص ١٢٣ .

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

وبين ما اشتملت عليه الآية من المجاز ، وسمي ذلك بالاستعارة المرشحة وقال : « وهذا النوع يسمى الاستعارة المرشحة ... وزعم عبد الله بن سنان الخفاجي إنكار الاستعارة المرشحة ، وقال إن الاستعارة المرشحة من أبعد الاستعارات » وزعم أن الآمدي أنكر عليه ذلك مع أن الآمدي قد مات قبل أن يولد ابن سنان ورأى العلوي أن الاستعارة المبنية على استعارة والتي سماها المرشحة من أعجب الاستعارات حين قال : « فإن هذه الاستعارة المرشحة من أعجب الاستعارات ، وأغربها ، واستظرفها كل محصل من علماء البيان »^(١).

وإذا كان ابن سنان قد رفض الاستعارة المبنية على استعارة ، فإن ابن رشيق يروي عن بعض المتعقبين رفضهم لكل استعارة بنيت على تشبيه ما يعد إفراطاً في التجاوز والمغالاة حين ذكرت بيت ذي الرمة :

أقامت به حتى ذَوِي العُود والتوى وساق الثَّربَا في مُلَأَتِه الفجر

وفضل عليه ما كان من نوع قول لبيد :

وغداة ريح قد وزَّعت وقرة إذ أَصْبَحَت بيد الشَّمَال زمامها^(٢)

ويقول ابن رشيق تعقيباً على هذا : « وهذا عندي خطأ ؛ لأنهم إنما يستحسنون الاستعارة القريبة ، وعلى هذا مَضَى جلة العلماء ، وبه أتت النصوص عنهم وإذا استعير للشيء ما يقرب منه ، ويليق به كان أولى مما ليس منه في شيء ، ولو كان البعيد أحسن استعارة من القريب لما استهجنوا قول أبي نواس :

بُحَّ صوت المال ممَّا مِنْكَ يَشْكُو وَيَصِيحُ

(١) انظر هذا كله في الطراز ، ٢١٢/١ .

(٢) وزعت : كفت ، ويروى « كشفت » يريد أنه وزَّع القر وكفه بإطعام الطعام وإيقاد النيران .



الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسْتُ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ❁

فأي شيء أبعد استعارة من صوت المال ؟ فكيف حتى بُحَّ من الشكوى والصياح»^(١).

ويعد ابن الأثير هذه الاستعارة في بيت أبي نواس السابق من الاستعارات القبيحة ؛ لأنه فقد المناسبة بين المشبه والمشبه به ، ولا يستعمل هذا الضرب من التوسّع إلا جاهل بأسرار البلاغة والفصاحة أو ساه غافل يذهب به خاطره إلى استعمال ما لا يجوز ولا يحسن ويذكر بيت أبي نواس ويعقب عليه بقوله : « فقله »بح صوت المال» من الكلام النازل بالمرّة ومراده من ذلك أن المال يتظلم من إهانتك إياه بالتمزيق ، فالمعنى حسن ، والتعبير عنه قبيح وما أحسن ما قال مسلم بن الوليد في هذا المعنى :

تظلم المال والأعداء من يده لا زال للمال والأعداء ظلاما
وكذلك ورد قول أبي نواس :

ما لرجل المال أمست تشتكى منك الكلالا
فإضافة الرجل إلى المال أقبح من إضافة الصوت»^(٢).

فالاستعارة هنا منفرة تثير الاشمئزاز ولا تبعث على الجلال ، ولا يوجد لها رصيد من الفكر والإلهام ، فقبول الاستعارة إنما ينبع من عدم مغالاتها وخروجها على المعهود المألوف مع ضرورة قوة المشابهة على نحو بين وواضح ، وعدم فقد الملاءمة والمناسبة بين المستعار منه والمستعار له حتى تحقق الاستعارة الغرض الذي قصد إليه صانع الكلام على أن يكون الشبه محققا ومتقدرا مع جواز خلافة المشبه به للمشبه في الدلالة على المطلوب والمراد ، وهذه الخلافة يستطيع السامع أن يعقل منها المعنى ، ويصل إلى

(١) العملة لابن رشيق ، ٢٦٩/١ ، ٢٧٠ .

(٢) المثل السائر ، ص ١٤١ ، طبع المطبعة البهية بحوش قدم مصر المحمية .

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

الغرض ، وأن يكون المستعار له هو المراد بلفظ المستعار منه بعبارة جلية ومُبيّنة يقول الآمدي : وليس الشعر عند أهل العلم به إلا حُسْنُ التّأْتِي ، وقرب المأخذ ، واختيار الكلام ، ووضع الألفاظ في مواضعها ، وأن يورد المعنى باللفظ المعتاد فيه ، المستعمل في مثله ، وأن تكون الاستعارات والتمثيلات لائقة بما استعيرت له ، وغير منافرة لمعناه ، فإن الكلام لا يكتسي البهاء والرونق إلا إذا كان بهذا الوصف^(١).

ويقول الإمام عبد القاهر مشيراً إلى كل هذا : « فلاحتمال والصنعة في التصويرات التي تروق السامعين وتروّعهم ، والتخييلات التي تهزّ الممدوحين وتحركهم ، وتفعل فعلاً شبيهاً بما يقع في نفس الناظر إلى التصاوير التي يشكّلها ، وتفعل فعلاً شبيهاً بما يقع في نفس الناظر إلى التصاوير التي يشكّلها الحذاق بالخطيط والنفس ، أو بالنحت والنقر ، فكما أن تلك تُعجب وتخلّب ، وتروّق وتؤنّق ، وتدخل النفس من مشاهدتها حالة غريبة لم تكن قبل رؤيتها ، ويعشاها ضرباً من الفتنة لا ينكر مكانه ، ولا يخفى شأنه فقد عرفت قضية الأصنام وما عليه أصحابها من الافتتان بها ، والإعظام لها كذلك حكم الشعر فيما يصنعه من الصور ، ويشكّله من البدع ، ويوقعه في النفوس من المعاني التي يتوهم بها الجماد الصامت في صورة الحي الناطق ، والموات الأخرس في قضية الفصيح المعرب ، والمبين المميز ، والمعدوم المفقود في حكم الموجود المشاهد^(٢) ».

* * *

(١) الموازنة ، ص ٣٥١ .

(٢) أسرار البلاغة ، ص ٣٤٢ ، ٣٤٣ .

الاستعارة غير المفيدة

من أمارات سعة اللغة العربية ، ورحابة آفاقها ، وكثرة مفرداتها ، أن تُخصَّص لكل عضو من أعضاء الإنسان اسماً محدداً يتميز به وتُخصَّص كذلك لنظيره في الجمل والطَّير اسماً محدداً ، وعلى صانع الكلام أن يلاحظ الوضع اللغوي عند استعماله لكل لفظ من تلك الألفاظ لئلا يفوت الغرض الذي يقصد إليه واضع اللغة ، فالعرب قد وضعوا « الشَّفَّة » للإنسان و« المِشْفَر » للبعير و« الجحْفلة » للفرس و« المِنْسَر » للجراح و« المِنْفَار » للطائر و« الأَنْف » للإنسان و« المَرْش » بفتح الميم للبعير و« النُّخْرَة » بضم النون للفرس و« الخرطوم » للفيل وحين يتوسع المتكلم في الاستعمال ، ويستعمل شيئاً منها في غير الجنس الذي وضع له ، فقد استعاره ، وجاز به أصله ، ونقله عنه ومن ذلك قول عبد الله بن ربيعة التميمي المعروف بالعجاج :

أَيَّامُ أَبَدَتْ وَاضِحاً مُفْلَجاً أَغْرَ بَرَّاقاً وَطَرْفاً أَبْرَجاً
وَمَقْلَةً وَحَاجِباً مَزَجَّجاً وَفَاحِجاً وَمَرْسَناً مُسَرَّجاً^(١)

فاستعمال الشاعر « للمرسن » وهو للبعير في أنف المرأة إنما يكون على سبيل الاستعارة ، فالشاعر قد استعمل « المرسن » وهو للبعير في أنف المرأة وهو بهذا الاستعمال لا يفيد شيئاً زائداً عن اللفظ المختص بالمرأة وهو « الأنف » إذ لا فرق بين من « مرسناها » و« أنفها » فالاستعمال على هذا النحو كاستعمال الحقيقة في خلوها من حسن البلاغة .

(١) الفاحم الشعر الشديد السواد ، والمرش : الأنف وموضع الرِّسَنِ من أنف الدابة - وواضحاً : أي سنا واضحاً - والفَلَج التحريك تباعد ما بين الأسنان - المقلة : حدقة العين وطرفاً أبرجاً أي جميل حسن .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ —————﴾ دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

وعلى هذا فإن استعمال «المُشْفَر» في شفة إنسان إذا لم يرد به الدم بل قصد به مجرد التعبير عن هذا العضو المخصوص في الإنسان يعتبر خاليا من الفائدة ، أما إذا قصد به الدم وتشبيهه شفة إنسان في الغلط وقبح المنظر بمشفر البعير فإنه يكون استعارة مفيدة .

ومن هذا قول الفرزدق يذم رجلا من ضبّة ويتهمه في نسبه :
فلو كنت ضبيّا عرفت قرابتي ولكن زنجيّا غليظ المشافر
يريد أن يقول له إنك زنجي كأنه جمل لا يهتدي لشرفي ، فقد شبه شفتي الضبّي بشفة البعير في الغلط واستعار لها المشافر قصداً إلى المبالغة في تشويه صورته ، ولأن الاستعارة المقصود بها الدم ؛ لذا تكون استعارة مفيدة .
ومن ذلك قول الحطيئة يهجو الزبرقان بن بدر - وكان الحطيئة قد نزل عليه ضيفا ، فأهمل أمره ، ولم يرع حق ضيافته فتركه الحطيئة إلى آل بغيض فأكرموه ، وأحسنوا لقاءه :
قروا جارك العيمان لما جفوته وقلص عن برد الشراب مشافره^(١)

فهو يهجو الزبرقان هجاء مرا ويقول له - بقيت في جوارك وأنا شديد الظمأ إلى شربة لبن ، ولا أجد عندك ما أسد به رمقي إلا الماء البارد حتى تقلصت منه شفتي وتشققتا ، وساءت حالتهما حتى صارتا كشفتي البعير وهو بذلك يشوه نفسه ، ليدل على سوء معاملة الزبرقان وما جرته عليه سوء المعاملة من تشقق شفتيه حتى صارتا كشفتي البعير فكلامه قائم ومبني على أساس الاستعارة ، ومن ذلك قول أبي النجم العجلي يصف إبلا حين تشرب :
تسمع الماء كصوت المسحل بين وريدها وبين الجحفل^(٢)

(١) قروا : أضافوا وأطعموا - العيمان : شديد الظمأ والحاجة إلى اللبن - تقلصت مشافره : تشققت .

(٢) المسحل : حمار الوحش سمي باسم سحيلة وهو صوت نهاقه .



الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَةٌ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ❁

فقد استعمل « الجحفل » بدلا من المشفر .

ومن ذلك قول أبي دؤاد الإيادي يصف فرسا :

فَبِتْنَا جُلُوسًا لَدَى مُهْرِنَا .: نُنْزِعُ مِنْ شَفْتِيهِ الصَّفَارَا ^(١)

فاستعمل « الشفة » في الفرس وهي موضوعة للإنسان ، فهذا ونحوه لا يفيدك شيئا زائدا عن اللفظ المختص وهو « الجحفلة » فلا فرق من جهة المعنى بين قوله : من شفتيه وقوله من جحفتيه ، وهذه الشواهد عدها الإمام عبد القاهر من قبيل الاستعارة غير المفيدة القائمة على التوسُّع اللغوي بعيدا عن دعوى المبالغة التي تقوم على أساسها الاستعارة ، وكأن الاستعارة غير المفيدة عنده هي اللفظ الذي استعمل في غير الجنس ، لكن إذا هدفت إلى غرض بلاغي فاستعملت في الهجاء والمبالغة في الذم والتهكم والسخرية ، فعندئذ تكون من الاستعارة المفيدة على نحو ما رأينا عند الفرزدق وغيره ، فالفرزدق شبه شفتي الضَّبِّي بشفتي البعير كما سبق .

فالاستعارة بنيت على تشبيه أفاد دَمًا وكان المعنى على حد أن نقول : كأن شفته في الغلظ مشفر بعير وهكذا .

ويقول الإمام عبد القاهر : « واعلم أن الواجب كان ألا أعدَّ وضع « الشفة » موضع « الجحفلة » و « الجحفلة » في مكان « المشفر » ونظائره التي قدَّمت ذكرها في الاستعارة وأضنَّ باسمها أن يقع عليه ، ولكني رأيتهم قد خلطوه بالاستعارات ، وعدَّه معدَّها فكرهت التشدُّد في الخلاف واعتدلت به في الجملة ، ونبهت على ضعف أمره بأن سمَّيته « استعارة غير مفيدة » وكان وزان ذلك وزان أن يقال : « المفعول على ضريين مفعول صحيح ، ومشبه بالمفعول » فَيُتَجَوَّزُ باعتبار المشبَّه بالمفعول في الجملة ، ثم يفصل بالوصف ، ووجه شبه هذا النحو الذي هو نقل « الشفة » إلى موضع « الجحفلة » بالاستعارة الحقيقية لأنك

(١) الصَّفَارُ : ما بقي في أسنان الدابة من التبن وغيره .

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

تنقل الاسم إلى محاسن له . ألا ترى أن المراد بالشفة والجحفلة عضو واحد ، وإنما الفرق أن هذا من الفرس ، وذاك من الإنسان والمجانسة والمشابهة من واحد ؟ فأنت تقول أعير الشيءُ اسمه الموضوع له هنالك أي في الإنسان هاهنا أي في الفرس ؛ لأن أحدهما مثل صاحبه وشريكه في جنسه كما أعرت الرجل اسم الأسد ؛ لأنه شاركه في صفته الخاصة به وهي الشجاعة»^(١).

* * *

(١) أسرار البلاغة ، ص ٤٠٤ ، ٤٠٥ .



الفصل الثالث

الكناية

إذا كان التشبيه لمح صلة بين طرفين متمايزين يقاس فيه شيء على شيء على أساس من التناسب الذهني والحسي ، ويحتفظ فيه كل طرف بحدوده ومعالمه المتميزة . وإذا كانت الاستعارة تقوم أساساً على الاندماج ، والانصهار والخلط والتفاعل بحيث نرى الأشياء وهي تتبدل ، وتتغير ، وتتحول إلى أشياء أخرى فترى في صورة جديدة وعلى هذا النحو يعظم سلطان الحس بالأشياء فتتراءى في شكل آخر بحيث تُجسّد لحظات من الإحساس العميق بالمواقف والأشياء على أن هذا التبديل والتحويل لا يتم عشوائياً بل ينبني على علاقات واضحة بين الكلمة وبين ما انتقلت إليه ، واستعملت فيه ، ومن ثم فإن الكناية نوع من التصوير يقوم على الاكتنان ، والستر ، والتغطية وتغليف المعنى المقصود بغلاف رقيق شفاف حيث إن التعبير يكون باللفظ الذي يحتوي على معنى يفهم منه معنى آخر على أن الكناية فيها جانب مما في الاستعارة وهي الصلة التي تجمع بين المعنى الحقيقي والمعنى الكنائي مما يسمى « بالعلاقة » ولئن كانت تلتقي بالاستعارة في هذا الجانب فهي تتحرّر مما هو لازم فيها مما يُسمّى « بالقرينة » التي تمتنع في التعبير الاستعاري من إرادة المعنى الحقيقي ؛ إذ لا يمنع في التصوير الكنائي هذا المعنى مع المعنى الكنائي فقرينة الكناية

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

غير ملزمة بأن يكون المقصود فيها لازم المعنى فقط دون أن يراد بها المعنى الحقيقي ، ولهذا ذكر البلاغيون أن هذا اللون من ألوان التصوير والتعبير عبارة عن « لفظ » أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه»^(١).

ومن ثَمَّ كانت الحرية في هذا النمط التصويري واسعة وبهذا يقترب في مستوى الإدراك من التشبيه الذي يقوم على تصوير المجرد في صورة المحسوس ؛ إذ غالبا ما يكون المعنى الكنائي مجرداً تَمَثَّل جزئيات في صورة محسوسة ، ففي قول ذي الرمة :

عَشِيَّةً مَالِي حِيلَةَ غَيْرِ أَنِّي بَلْفَظِ الْحَصَى وَالْخَطِّ فِي التَّرْبِ مُوَلِّعُ
أَخْطُ وَأَمْحُو الْخَطَّ ثُمَّ أَعِيدُهُ بِكَفِّي وَالْغَرْبَانَ فِي الدَّارِ وَقَّعُ
كَأَن سَنَانًا فَارَسِيًّا أَصَابَنِي عَلَى كَبْدِي بَل لَّوَعَةُ الْبَيْنِ أَوْجَعُ

أراد ذو الرمة أن يؤكد على أن نصال الحب الحادة قد استقرت في قلبه ؛ لذا فهو يشير إلى ما يعانیه من حيرة ، وقلق ، واضطراب وإلى ما يكابده من ضيق وحزن وكره واستغراقه الطويل الممتد مع همومه التي استبدت به ، وسيطرت عليه فأشار إلى كثافة ما يعانیه ويكابده من ضيق ، وقلق ، وحيرة ، وإلى ما يزدحم في خاطره من الأفكار المضطربة الطاغية وهو يحس أنه عاجز عن التحكم فيها ، أو السيطرة عليها فإذا به تارة يمضي إلى حصي الأرض يلقطه ثم يعود فيلقيه على الأرض ، وتارة أخرى إلى التراب يخط فيه خطوطا لا معنى لها ثم يعود فيمحوها إنها نَفْسُ المَهْمُومَةِ المتحيرة تظهر في هذا السلوك المضطرب الذي تَنِم عن حيرة تعلوه ، وعن هم يجتاح نفسه الحائرة الموزعة التي عجزت عن مواجهة الموقف وقد أَحَسَنَ ذو الرمة في تصوير حاله حين صَوَّرَ استغراقه مع حيرته وهمومه في ليله الذي يكابد أحزانه وأوجاعه والذي فقد معه كل حيلة إلا لقط الحصى وإلقاءه ثانية ، والخط بيده في التراب ثم

(١) بغية الإيضاح ١٧٣/٣ .

الصورة البيانية ————— دراستي في مسائل عليّ البيان ————— ❁

مَحْوُ ما خطّه وهكذا مما يدلّل على تبديد النفس بسبب ما غشيها من الحيرة ، والاضطراب والهّم وهو المعنى الكنائي وهذا المعنى لا يمنع من أن يراد معه المعنى الحقيقي ، هذا وحين تمضي مع مصطلح الكناية لنعرف كيف دار هذا اللون من التصوير على ألسنة العلماء والبلغاء حتى صار مبحثاً مُحدّد الصوَى ، واضح المعالم ، بيّن الحدود ، فإذا ذهبنا إلى سبويه العالم النحوي المتوفى ١٨٠هـ نجد الكناية عنده حاملة لمعناها اللغوي الذي يدور على التغطية ، والستر ، والخفاء «ففلان وفلانة» كناية عن شخص مجهول أو غير معروف فإذا أدخلت الألف واللام فقلت : «الفلان والفلانة» كان ذلك كناية عن «الناقة»^(١) فزيادة الألف واللام على «فلان» تجعل المعنى الكنائي خاصاً بالحيوان وهكذا يدور المصطلح البلاغي في دائرة العرف اللغوي الذي خص فيه «فلان» بالإنسان و«الفلان» بالحيوان .

فإذا تركت صاحب الكتاب إلى أبي عبيدة معمر بن المثنى المتوفى سنة ٢١٠هـ فإننا نقرأ له في كتاب مجاز القرآن عن قوله تعالى : ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾ (النساء: ٤٣).

قوله : « كناية عن حاجة ذي البطن والغائط الفيح من الأرض المتصوّب وهو أعظم من الوادي»^(٢) وفي قوله تعالى : ﴿أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ (المائدة: ٦).

كناية عن الغشيان^(٣) وفي قوله تعالى : ﴿وَلَيْكُنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ (البقرة: ٢٣٥). السر الإفضاء بالنكاح ، وقال رؤبة بين العجاج :

فَعَفَّ عَنْ إِسْرَارِهَا بَعْدَ الْعَسَقِ

يعني غشيانها أراد الجماع قال امرؤ القيس بن حجر الكندي :

(١) الكتاب لسبويه ١٤٨/٢ ، طبعة أولى ، ١٣٣٢هـ .

(٢) مجاز القرآن لأبي عبيدة ، بتحقيق محمد فؤاد سزكين ، ١٢٨/١ .

(٣) مجاز القرآن ، ١٥٥/١ .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ —————﴾ دراستُ في مسائل علم البيان

أَلَا زَعَمْتَ بِسَبَاسَةِ الْيَوْمِ أَنَّنِي كَبَرْتُ وَأَلَّا يُحْسِنَ السَّرَّ أَمْثَالِي ^(١).

وفي قوله تعالى: ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ (ص: ٣٢) المعنى للشمس وهي مضمرة ^(٢) وفي قوله تعالى: ﴿وَلَكَا سُقُطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ (الأعراف: ٤٩).
يقال لكل من ندم وعجز عن شيء ونحو ذلك: سقط في يد فلان ^(٣).

وبمثل هذا يفسر أبو عبيدة هذا الأسلوب في كتابه مجاز القرآن ، وهو تفسير لا يتجاوز ستر ما يُستهجن ذكره ، وبيان ما عاد عليه الضمير مما لم يذكر صراحة في الكلام ، وكذلك ما يفهم من دلالة السياق ، فإذا تركت أبا عبيدة إلى الفراء فإنك تجد الرجل في معاني القرآن قريباً من أبي عبيدة في مجازة ، وما يزال المصطلح يدور حول التعبير عن الشيء بضميره ، ففي قوله تعالى: ﴿فَاتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ (البقرة: ٢٣) ، «والهاء كناية عن القرآن ، فاتوا بأية من مثل القرآن» ^(٤) ، أو التعبير عن الشيء بما يستهجن التصريح به ، ففي قوله تعالى: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾ (المائدة: ٦) ، يقول : الغائط الصحراء ، والمراد أو قضي أحدكم حاجة كما في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ لَا تُؤَاعِدُوهُمْ سِرًّا﴾ (البقرة: ٢٣٥) ، يقول لا يضع أحدكم نفسه في عدتها بالرغبة في النكاح والإكثار منه ^(٥) فالسر المقصود به النكاح والتعبير عن الشيء بما يفحش التصريح بذكره غرضه معروف من أغراض التصوير الكنائي .

ولا تبعد الكناية عند الجاحظ كثيراً عن فهم من سبقه لها ؛ إذ هي تطلق على كل ما يقصد ستره وتغطيته ، والتعبير عن الشيء تلميحاً لا تصريحاً كما

(١) مجاز القرآن ، ٧٥/١ ، ٧٦ .

(٢) سورة ص ، الآية ٣٢ .

(٣) مجاز القرآن ، ٢٢٨/١ .

(٤) معاني القرآن للفراء ، ١١٩/١ .

(٥) المصدر السابق ١٥٣/١ .



الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دُرُوسَةٌ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ❁

سماها أيضاً «اشتقاقاً» فهو يذكر قول شريح : «والحدة كناية عن الجهل ... وقولهم إذا قالوا فلان مقتصد فتلك عن البخل ...»^(١).

ويذكر قول العجوز لقيس بن سعد : «أشكو إليك قِلة الجردان في بيتنا : فقال : ما أطف ما سألت تذكر أن بيتها فقير من الأدم والمأدوم فأكثر لها يا غلام من ذلك»^(٢).

ويذكر قول حذيفة لأخيه الرماح : «ويقال لموضع الغائط الخلاء ، والمذهب والمخرج ، والمرحاض وكل ذلك كناية واشتقاق»^(٣).

وما قاله الجاحظ لم يخرج في أصل الفكرة عمن سبقه هذا إذا استثنينا الكناية بالاشتقاق .

وما دمنا قد تحدثنا عن الكناية عند الجاحظ المعتزلي فإن ذلك يجبرنا إلى الحديث عنها عند ابن قتيبة السني ، ولعل المتتبع لتطور هذا البحث تقع عيناه ولأول مرة على باب خاص بالكناية والتعريض عرض فيه الرجل لكثير من الشواهد التي ذكرها تحت هذا العنوان وفيها خلط الرجل كثيراً بين ما هو من أساليب الكناية وما هو لغيرها على طريقة أهل هذا الزمان في الكناية والتأليف ولكن الجديد الذي تقع عليه عنده أنك تجد الرجل يحلل بعض الأساليب الكنائية على طريقة جعلته يقترب من المتأخرين في تناولهم لمسائل هذا المبحث بعد أن تحدد عندهم هذا المصطلح ، وضعت مقاييسه وأصبح واضحاً مستقلاً فهو - مثلاً - يقول :

«وكلام العرب إيماء وإشارة وتشبيه يقولون : «فلان طويل النجاد» والنجاد حمائل السيف وهو لم يتقلد سيفاً قط وإنما يريدون أنه طويل القامة فيدلون

(١) البيان والتبيين ، ١/ ١٤٥ .

(٢) الحيوان ، بتحقيق فوزي عطوي ، ٥/ ٢٧٦ .

(٣) المصدر السابق ، ٥/ ٢٨٨ .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ ﴾

بطول نجاهه على طوله ؛ لأن النجاد القصير لا يصلح على الرجل الطويل ويقولون : « فلان عظيم الرماد » ولا رماد في بيته ، ولا على بابه وإنما يريدون أنه كثير الضيافة فناره وارية أبدا وإذا كثر وقود النار كثر الرماد ^(١) فأنت ترى أن الرجل قد استوفى التحليل البياني للصورة الكنائية على النحو الذي لم يزد عليه البلاغيون فيها شيئا .

ويقول : « والله تعالى يقول في كتابه : ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَأَنَّا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾ (المائدة: ٧٥) ، فدلنا بأكلهما الطعام على معنى الحدث ؛ لأن من أكل الطعام فلا بد من أن يحدث ، وقال تعالى حكاية عن المشركين في النبي ﷺ : ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ (الفرقان: ٧) فكنى بمشيئته في الأسواق عن الحوائج التي تعرض للناس فيدخلون لها الأسواق ^(٢) .

كانهم رأوا أن النبي ﷺ إذا بعثه الله تعالى أغناه عن الناس وعن الحوائج إليهم ، ويقول ابن قتيبة في قوله تعالى : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ (المدثر: ٤) .

أي طهر نفسك من الذنوب ، فكنى عن الجسم بالثياب لأنها تشتمل عليه ، قالت ليلى الأخيلية وذكرت إبلا .

رَمَوْهَا بِأَثْوَابٍ خَفَافٍ فَلَا تَرَى لَهَا شَبَهًا إِلَّا التَّعَامَ الْمُنْفَرَا
أي ركبوها فرموها بأنفسهم ^(٣) .

ويقول ابن قتيبة « وقد يَكُونُ باللباس والثوب عما ستر ووقى لأن اللباس والثوب واقيان ساتران ، وقال الشاعر :

(١) تأويل مختلف الحديث ، بتحقيق محمد زهدي النجار ، ص ١٦٣ .

(٢) تأويل مختلف الحديث ، ص ١٦٥ .

(٣) تأويل مشكل القرآن ، بتحقيق الأستاذ سيد صقر ، ومحمد زهدي النجار ، ص ١٠٧ .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ

كثُوبُ ابْنِ بَيْضٍ وَقَاهُمْ بِهِ فَسَدَّ عَلَى السَّالِكِينَ السَّبِيلَ
 قال الأصمعي : ابن بَيْضٍ : رجل نحر بعيراً له على ثَنِيَّةٍ فَسَدَّهَا فلم يقدر
 أحداً أن يجوز فضرب به المثل فقليل سدَّ ابن بَيْضٍ الطريق .
 وقال غير الأصمعي : ابن بَيْضٍ رجل كانت عليه إِتَاوَةٌ فَهَرَبَ فَاتَّبَعَهُ مُطَالِبُهُ
 فَلَمَّا خَشِيَ لِحَاقَهُ وَضَعَ مَا يَطَالِبُهُ بِهِ عَلَى الطَّرِيقِ وَمَضَى ، فَلَمَّا أَخَذَ الْإِتَاوَةَ
 رَجَعَ ، وَقَالَ : (سد ابن بَيْضٍ الطريق) أي : منعنا من اتباعه حين وفى^(١)
 بما عليه ، فكأنه سد الطريق . فكَنَى الشاعر عن البعير - إن كان التفسير على
 ما ذكره الأصمعي ؛ أو عن الإِتَاوَةِ إن كان التفسير على ما ذكر غيره - بالثوب -
 لأنهما وقيا كما يقي الثوب^(٢) .

ويقول في قوله سبحانه : ﴿ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾ (التوبة: ٦٧) .

« أي يمسكون عن العطية . وأصل هذا أن المعطي بيده يمدّها ويبسطها
 بالعطاء ، فقليل لكل من نجل ومنع : قد قبض يده » .
 ومنه قوله : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ﴾
 (المائدة: ٦٤) أي ممسكة^(٣) .

وابن قتيبة كسواه يختلط عنده مصطلح الكناية بغيره ؛ إذ نلاحظ خلطه بين
 الكناية والاستعارة ، فقد يطلق الاستعارة على ما الكناية فيه بينة الوضوح فهو
 يقول « فمن الاستعارة في كتاب الله قوله - عز وجل - : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ
 سَاقٍ ﴾ (القلم: ٤٢) أي عن شدة من الأمر كذا قال قتادة ، وقال إبراهيم عن أمر
 عظيم . وأصل هذا أن الرجل إذا وقع في أمر عظيم يحتاج إلى معاناته والجِدِّ
 فيه - شمر عن ساقه فاستعيرت الساق في موضع الشدة :

(١) وفى : يقال وفى الشيء يفي وفاءً ، ووفياً : تمّ .

(٢) تأويل مشكل القرآن ص ١٠٩ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٢٦ ، ١٢٧ .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ —————﴾ دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

وقال دريد بن الصَّمَّة :

كمِيشُ الإزار خارجٌ نصفُ ساقه صُبُورٌ على الجَلَاءِ طَلَّاعٌ أَتْجُدُ ^(١)

وقال الهذلي :

وكنْتُ إذْ جَارَى دَعَا لِمَضُوفَةٍ ^(٢) أَشْمَرٌ حَتَّى يَنْصُفَ السَّاقَ مِئْزَرِي ^(٣)

ومن الواضح أنه لا توجد أدنى مشابهة بين الشدة والساق حتى تُستَعار الساق لها ، وإنما القول الكريم من باب الكناية لأنه يلزم من الوقوع في أمر عظيم يحتاج إلى معاناته أن يشمر الإنسان عن ساقه وتحليل ابن قتيبة لبعض نماذج الكناية ، وبتوسعه فيها ، وبتجميعه لما تفرق في مكان واحد يجعلها أقرب تناولاً ولا عنده منها عند غيره ويجعلها خطوة تقدم بها على طريق البحث تحسب له .

وإذا تركنا ابن قتيبة وذهبنا إلى أبي العباس محمد بن يزيد المعروف بالمبرد زعيم المدرسة البصرية ، وإمام النحاة في عصره فإننا نجده يتكلم عن الكلام ويبين أنه يقع على ضروب والكناية ضرب منه ، ثم يبين أن الكناية تقع هي أيضاً على ثلاثة ضروب ، وبالنظر في الضروب الثلاثة تجدها لا تخرج عن تفسيرها بما يدل عليه لفظها من ناحية التعمية ، والتغطية ، والستر ، أو من ناحية استهجان التصريح باللفظ الخسيس المفحش إلى ما يدل على معناه ، أو تكون للتفخيم والتعظيم بأن يدعي الرجل باسمه ، أو اسم ولده تعظيماً ^(٤) له .

(١) كمِيش الإزار مثل في الجد والتشهير والكميش الخفيف السريع ، وأضاف الكميش إلى الإزار مجازاً وتوسعاً ، وقوله : خارج نصف ساقه يصفه بالحدّ والنشاط - والجلَاء والجلَى الأمر الشديد والخطب العظيم وطلَّاع أنجد أي : ركَّاب لصعاب الأمور .

(٢) مَضُوفَةٌ : أي أمر ضافه أي نزل به مشكل القرآن ص ١٠٣ ، ١٠٤ .

(٣) تأويل مشكل القرآن ، ص ١٠٣ ، ١٠٤ .

(٤) الكامل في اللغة والأدب ، ٥/٢ ، ٦ ، المكتبة التجارية الكبرى لصاحبها مصطفى

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ الْبَيَانِ ————— ❁

ويتحدث أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب عن الكناية والتعريض ، ويطلق عليهما لطافة المعنى ، ويشرحه بقوله : « وهو الدلالة بالتعريض على التصريح ^(١) وابن المعتز يطلق الكناية ويريد بها التعريض ^(٢) .

أما قدامة فيتحدث عن الإرداف ، ويجعله من نعوت اللفظ والمعنى ، ومن يَنْبَغُ في شواهدة التي أتى بها يجد أنها أمثلة للكناية ، وحدَّ الإرداف بقوله : « وهو أن يريد الشاعر دلالة على معنى من المعاني ، فلا يأتي باللفظ الدال على ذلك المعنى ، بل بلفظ يدل على معنى ، هو ردُّفه وتابع له ، فإذا دلَّ على التابع أبان عن المتبوع ^(٣) وبالتأمل في هذا التعريف الذي حدَّ به قدامة الإرداف تجد أن المذكور تابع ورادف ، والمراد متبوع له ومردوف ، وقد مثل بقول عمرو بن أبي ربيعة المخزومي :

بعيدة مهوى القُرْطُ ^(٤) إِمَّا لِنَوْفَلٍ أَبُوهَا وَإِما عَبْدُ شَمْسٍ فَهَاشِم

ويقول : « وإنما أراد الشاعر أن يصف طول الجيد ، فلم يذكره بلفظه الخاص ، بل أتى بمعنى هو تابع لطول الجيد ، وهو بُعْدُ مهوى القُرْطِ ^(٥) .

فالمذكور وهو بُعْدُ مهوى القُرْطِ تابع ورادف ، والمراد وهو طول الجيد متبوع له ومردوف ، ومن الأمثلة التي ذكرها قول امرئ القيس :

وَيُضْحِي فَتَيْتُ الْمَسْكُ فَوْقَ فَرَاشِهَا نَنُومُ الضُّحَى لَمْ تَنْتَقِ عَنْ تَفَضُّلٍ ^(٦)

(١) قواعد الشعر ، ص ٥٣ ، طبعة مصطفى الحلبي .

(٢) بديع ابن المعتز ص ١٩٧ ، تحقيق خفاجي ، الطبعة الثانية ١٣٧٨ هـ ، ١٩٨٥ م .

(٣) نقد الشعر لقدامة ، ص ١٥٧ ، تحقيق خفاجي .

(٤) بعيدة مهوى القُرْطُ أي طويلة العنق .

(٥) نقد الشعر ، ص ١٥٧ ، ١٥٨ .

(٦) الفتيت : ما تفتت من المسك على جلدها ، ونثوم الضحى : التي تنام وقت الضحى ، ولم تنتطق أي لم تجعل في وسطها نطاقا كي تعمل في البيت .

❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

فإنما أراد امرؤ القيس أن يعبر عن ترف المخدومة ، وأن لها من يقوم بشأن بيتها وخدمتها ، وأن فتيت المسك يبقى على فراشها التي تنام عليه إلى الضحى ، ويقول قدامة : « وإنما أراد امرؤ القيس أن يذكر ترفه هذه المرأة ، وأن لها من يكفيها فقال : « نثوم الضحى » وأن فتيت المسك يبقى إلى الضحى فوق فراشها وكذلك سائر البيت ، أي هي لا تنتطق لتخدم ولكنها في بيتها متفضلة »^(١).

وهو إنما ذكر نثوم الضحى وأراد ثراءها وترفها وغناها ، فالمذكور وهو نثوم الضحى تابع ورادف ، والمراد وهو الترف والثراء والغنى متبوع له ومردوف هذا . ولم يذكر قدامة من شواهد الإرداف ما ليس منه ، وكانت شواهد في هذا الباب من باب الكناية عن صفة .

أما أبو هلال العسكري فيعقد فصلاً للكناية والتعريض ويعرف الكناية بقوله : « وهو أن يكنى عن الشيء ، ويعرض به ، ولا يصرح على حسب ما عملوا باللحن والتورية عن الشيء » ويفهم من بعض أمثله التي ساقها أنه يقصد بالكناية ما تفيد من الستر ، والتمويه ، وعدم التصريح بما يستهجن ذكره على حد ما تراه في قوله تعالى : ﴿ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ (المائدة: ٦).

فالغائط كناية عن قضاء الحاجة ، وملامسة النساء كناية عن الجماع ، وقوله تعالى : ﴿ وَفُرْشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ (الواقعة: ٣٤) ، كناية عن النساء ، وقد عدّ أبو هلال ما هو من التشبيه في باب الكناية^(٢). كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ هَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ (فاطر: ١٢).

هذا ، وقد عقد أبو هلال فصلاً لما أطلق عليه الإرداف والتوابع وقال في تعريفه : الإرداف والتوابع أن يريد المتكلم الدلالة على معنى ، فيترك اللفظ

(١) نقد الشعر ص ١٥٨ .

(٢) كتاب الصناعتين ص ٤٠٧ .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ الْبَيَانِ ————— ❁

الدال عليه الخاص به ، ويأتي بلفظ هو ردفه وتابع فيه ، فيجعله عبارة عن المعنى الذي أراده ، وذلك مثل قوله تعالى ﴿ فِيهِ قَصَصْتُ الطَّرْفَ ﴾ (الرحمن: ٥٦). وقصور الطرف موضوعة العفاف على جهة التوابع والإرداف ، وذلك أن المرأة إذا عفت قصرت طرفها على زوجها ، فكان قصور الطرف ردفاً للعفاف ، والعفاف ردف وتابع لقصور الطرف ^(١).

فالمذكور وهو أنهم قاصرات الطرف تابع ورادف ، والمراد هو عفافهن متبوع له ومردوف ، هذا وقد عد أبو هلال من الإرداف قوله تعالى ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ ﴾ (البقرة: ١٧٩) ، وقال في هذا : « ذلك أن الناس يتكافئون عن الحرب من أجل القصاص ، فيحيون فكأن حياتهم ردف للقصاص الذي يتكافئون عن القتل من أجله ، والواقع أن دلالة الكلام على القصاص دلالة مباشرة وظاهرة ، ولا تدخل في الإرداف ؛ لأن الإرداف أن تترك المعنى المراد فلا تذكره بلفظه الخاص به ، وفي هذا الشاهد تجد أن الحياة التي ذكر أنها ردف للقصاص منصوص عليها بلفظها الخاص بها. هذا ، وقد ذكر أبو هلال ما يدخل في فصل الإرداف والتوابع في فصل المماثلة التي عرفها بقوله : « أن يريد المتكلم العبارة عن معنى فيأتي بلفظة تكون موضوعة لمعنى آخر .. إلا أنه ينبئ إذا أوردوه عن المعنى الذي أراد كقولهم - فلان نقى الثوب يريدون به أنه لا عيب فيه .. وكذلك قولهم : فلان طيب الحجة أي : عفيف ، قال النابغة رقاق النعال طيب حُجْراتهم يُحيون بالريحان يوم السباسب ^(٢)

فقوله : « رقاق النعال » أي : أنهم ملوك ليسوا بأصحاب مشي ولا تعب فتخفف نعالهم ، وقوله : « طيب حُجْراتهم » أي أعفاء الفروج ، يقال : فلان طيب الحجة ، وطيب معقد الإزار ، إذا كان عفيف الفرج نقيا من الدنس ،

(١) كتاب الصناعتين ، ص ٣٨٥ .

(٢) دلائل الإعجاز ص ٦٦ .

❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

والسباسب . ويوم السباسب يوم عيد لهم ومثل هذا لا يمدح به السوق فضلاً عن الملوك .

هذا أما الإمام عبد القاهر فقد تناول الإرداف الذي نص عليه قدامه وتناوله الدارسون من بعده كأبي هلال ، وسماه الكناية التي عرفها بقوله : « والمراد بالكناية أن يريد المتكلم معنى من المعاني ، فلا يذكره باللفظ الموضوع به في اللغة ، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود ، فيوميء به إليه ، ويجعله دليلاً عليه ، مثال ذلك قولهم : « هو طويل النجاد » يريدون طويل القامة و « كثير رماد القدر » يعنون كثير القرى ، وفي المرأة : « نثوم الضحى » والمراد أنها مترفة مخدومة لها من يكفيها أمرها ، فقد أرادوا في هذا كله كما ترى معنى ، ثم لم يذكروه بلفظه الخاص به ، ولكنهم توصلوا إليه بذكر معنى آخر من شأنه أن يردفه في الوجود ، وأن يكون إذا كان . أفلا ترى أن القامة إذا طالت طال النجاد ؟ وإذا كثر القرى كثر رماد القدر ؟ وإذا كانت المرأة مترفة لها من يكفيها أمرها ، ردف ذلك أن تنام إلى الضحى »^(١).

هذا ، وقد ذكر الإمام عبد القاهر أن الكناية أبلغ من الإفصاح « فإذا قلت : هو طويل النجاد ، وهو جم الرماد كان أبهى لمعناك ، وأنبأ من أن تدع الكناية وتصرح بالذي تريد »^(٢) ، وليس معنى أن الكناية أبلغ من التصريح « أنك لما كنييت عن المعنى زدت في ذاته ، بل المعنى أنك زدت في إثباته فجعلته أبلغ ، وأكد وأشد فليست المزية في قوله : « جم الرماد » أنه دل على قرى^(٣) ، هذا ووجه كون الكناية أبلغ من التصريح أنها كدعوى الشيء ببينة ، وتقديم الدعوى ومعها البينة والدليل أقوى من تقديمها بغير دليل ، وتركها تتأرجح بين القبول والرفض ، يقول الإمام عبد القاهر « ... أن الصفة إذا لم تأتكم

(١) دلائل الإعجاز ص ٦٦ .

(٢) المصدر السابق ص ٧٠ .

(٣) المصدر السابق ص ٧١ .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دُرِّسَتْ فِي مَسَائِدِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي تَالِبٍ

مصرحاً بذكرها ، مكشوفاً عن وجهها ، ولكن مدلولاً بغيرها ، كان ذلك أفهم لشأنها ، وألطف لمكانها ...» ^(١).

ويبين الإمام أن من أسرار جودة الكناية أنها من قبيل دلالة المعنى على المعنى ، والمعنى الأول هو الذي يقوم بالسفارة بين منشئ الكلام وبين من يتلقاه عنه ، ولا بد لكي يؤدي هذه السفارى على الوجه الأمثل والأحسن أن يكون متمكناً في دلالاته ، بحيث تفهم منه معناه الذي تقصده يقول الإمام عبد القاهر : « .. وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة من تجد ؛ لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض ... لمعرفتك من « كثير رماد القدر أنه مضياف ، ومن طويل النجاد أنه طويل القامة » ^(٢) ، ومن هنا فإن الكناية حينئذ من دلالة المعاني على المعاني ولهذا فإن من دواعي حسن الكناية كما ذكرنا أن يكون المعنى الأول متمكناً في دلالاته ، مستقلاً بوساطته ؛ بحيث يسفر بين المتلقي وبين المعنى الثاني أحسن سفارة ، وذلك لقلة الكلفة فيه ، وسرعة وصوله إلى المستمع . انظر إلى الإمام وهو يمتدح الكناية في قول الشاعر :

لَا أُمْتِعُ الْعَوْدَ بِالْفَصَالِ وَلَا أَتْبَاعُ إِلَّا قَرِيْبَةَ الْأَجَلِ

ويرفضها إذا لم يحسن المعنى الأول السفارة بين المتلقي وبين الوصول إلى المعنى الثاني « الكنائي » ولا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ، ولفظه معناه ، ولا يكون لفظه أسبق إلى سمعك من معناه إلى قلبك ، وقولهم : « يدخل في الأذن بلا إذن ، فهذا مما لا يشك في أنه يرجع إلى دلالة المعنى على المعنى » ^(٣) ، ولذا عاب قول عباس بن الأحنف :

(١) دلائل الإعجاز ص ٣٠٦

(٢) المصدر السابق ص ٢٦٢ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٦٧ .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ —————﴾ دَرَسَتُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

سَأُطَلِّبُ بَعْدَ الدَّارِ عَنْكُمْ لِتَقْرَبُوا وَتَسْكُبُ عَيْنَايَ الدَّمُوعَ لِتَجْمَدَا

وذلك للغموض الناشئ نتيجة لعدم استخدام الألفاظ الاستخدام الأمثل مما ترتب معه تعقيد المعنى ، وعدم وضوح الدلالة عليه ، فنحن أمام شاعر يريد أن يحظى بوصل دائم مهما كلفه ذلك من آلام الفراق ، وعذاب الحرمان ، فالدهر خئون ، وهو دائماً يسير في اتجاه مضاد لما يرغبه الإنسان ويحبه ؛ ولذا فسوف يخادع الدهر ويغالطه ، ويسعى للفراق حتى يحقق له الدهر في غفلة منه تحقيق رجائه بالوصل الدائم والسرور المقيم والشاعر عبر بسكب الدموع عما يوجبه الفراق من الحزن والكمد فأحسن وأصاب ؛ لأن من شأن البكاء أن يكون أمانة على الألم ، ودليلاً عليه ، وكناية عنه ، ولكنه حين عبر بجمود العين ليكون كناية عنها يوجبه اجتماع شمل الأحبة من الفرح والسرور أخفق ولم يصب ؛ لأن جمود العين إنما يكون بخلها بالدمع في وقت بكاء ، لا وقت فرح وسرور ولذا جرى العرف بزم العين حين تمتنع عن معونة صاحبها ومساعدتها له في وقت طلب الدمع يقول الشاعر :

أَلَا إِنْ عَيْنًا لَمْ تُجِدْ يَوْمَ وَاسِطٍ عَلَيْكَ بِجَارِي دَمْعِهَا لَجْمُودُ

«فأتى بالجمود تأكيداً لنفي الجود بالدمع ، ومحال أن يجعلها لا تجود بالبكاء وليس هناك التماس بكاء ؛ لأن الجود والبخل يقتضيان مطلوباً يبذل أو يمنع ولو كان الجمود يصلح لأن يراد به السلامة من البكاء ، ويصح أن يدل به على أن الحال حال مسرة وحبور لجاز أن يدعى به الرجل فيقال : «ولا زالت عينك جامدة» كما يقال : «لا أبكي الله عينك» وذاك مما لا يشك في بطلانه وعلى ذلك قول أهل اللغة : «وعين جمود لا ماء فيها ، وسنة جماد ولا مطر فيها ، وناقاة جماد لا لبن فيها» وكما لا تجعل السنة والناقاة جماداً إلا على معنى أن السنة بخيلة بالقطر ، والناقاة لا تسخو بالدر كذلك حكم العين لا تجعل «جموداً» إلا وهناك ما يقتضي إرادة البكاء منها ، وما يجعلها إذا بكت محسنة موصوفة بأن قد حادت وسخت وإذا لن تبك مسيئة موصوفة

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي تَالِبٍ

بأن قد ضنت وبخلت وجملة الأمر أننا لا نعلم أحدا جعل جمود العين دليل سرور وأمانة غبطة ، وكناية عن أن الحال حال فرح»^(١).

وعبد القاهر يجعل الكناية أبلغ من الحقيقة كما ذكرنا ، لأن للإثبات بها مزية لا تكون للتصريح ، وإثبات الصفة في الكناية إنما تثبت بإثبات دليلها والشيء إذا جاء ومعه دليله كان أقوى منه من غير دليل ، والصفة في الكناية لا تقصد لذاتها ، وإنما لما يدل به عليها يقول الإمام : «وكما أن الصفة إذا لم تأتكم مصرحا بذكرها ، مكشوبا عن وجهها ، ولكن مدلولا بغيرها ، كان ذلك أفخم لشأنها ، وألطف لمكانها .. وتفسير هذه الجملة وشرحها : أنهم يرومون وصف الرجل ومدحه ، وإثبات معنى من المعاني الشريفة له ، فيدعون التصريح بذلك ، ويكونون عن جعلها فيه بجعلها في شيء يشتمل عليه ويتلبس به ، ويتوصلون في الجملة إلى ما أرادوا من الإثبات ، لا من الجهة الظاهرة المعروفة ، بل من طريق يخفى ، ومسك يدق ، ومثاله قول زياد بن الأعجم .

إِنَّ السَّمَاةَ وَالْمَرْوَةَ وَالنَّدَى فِي قُبَّةٍ ضُرِبَتْ عَلَى ابْنِ الْحَشْرِجِ^(٢)

فالشاعر حين أراد أن يثبت هذه الصفات وهي السماحة ، والمروءة ، والندى إلى الممدوح أثبتها إلى شيء يتصل به ، ومقصود عليه ، وإثباتها إلى ما هو مقصور عليه إثبات له . وعن هذا الطريق في الإثبات خرج كلامه إلى ما خرج إليه من الجزالة ، وظهر ما ظهر فيه من الفخامة «ولو أنه أسقط هذه الوساطة من البين لما كان إلا كلاما غفلا ، وحديثا ساذجا»

ومن هذه الكناية على هذا النحو ما ذكره الإمام عبد القاهر من قول يزيد ابن الحكم يمدح به يزيد بن المهلب وهو في حبس الحجاج :

أَصْبَحَ فِي قَيْدِكَ السَّمَاةُ وَالْمَجْدُ وَفَضْلُ الصَّالِحِ وَالْحَسَبِ

(١) دلائل الإعجاز ص ٢٧٠ ، ٢٧١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٦٦ .

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسْتُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

ويقول في شأنه: «فتراه نظيرا لبيت «زياد» وتعلم أن مكان «القيد» ها هنا هو مكان «القبة» هناك^(١).

هذا والكناية التي تأتي في طريق إثبات الصفة تأتي على ضربين ، الأول : إثبات مثل قول زياد بن الأعجم ، وقول يزيد بن الحكم السابقين ، وأبي نواس في قوله :

فَمَا جَارَهُ جَوْدٌ وَلَا حَلٌّ دُونَهُ وَلَكِنْ يَصِيرُ الْجَوْدُ حَيْثُ يَصِيرُ

ففي مثل هذا تثبت الصفة للممدوح من خلال إثباتها للمكان الذي يكون فيه ، وقول البحثري :

أَوْ مَا رَأَيْتَ الْمَجْدَ أَلْقَى رَحْلَهُ فِي آلِ طَلْحَةَ ثُمَّ لَمْ يَتَحَوَّلْ

ويقول الإمام تعليقا على بيت أبي نواس ومما هو على مثاله : «ذاك لأن مدار الأمر على أنه جعل المجد والممدوح في مكان ، وجعله يكون حيث يكون»^(٢).

الثاني : كما في قول الشنفرى يصف امرأة بالعفة :

يَبِيتُ بِمَنْجَاةٍ مِنَ اللَّوْمِ بَيْتُهَا إِذَا مَا يَبِيتُ بِالْمَلَامَةِ حُلَّتِ

فقد نفى اللوم عنها بعد أن نفاه عن بيتها وكان مذهب الشنفرى هنا «مذهب «زياد» في التوصل إلى جعل «السماحة والمروءة ، والندى» في ابن الحشرج بأن جعلها في القبة المضروية عليه وإنما الفرق أن هذا ينفي؛ وذاك يثبت وذلك فرق لا في موضع الجمع ، فهو لا يمنع أن يكون من نصاب واحد»^(٣) ، وقد بين الإمام عبد القاهر أن محاسن هذا الأصل لا تنتهي فقال: «وليس لشُعْب هذا الأصل وفروعه وأمثله وصوره وطرقه ومسالكه حد ونهاية»^(٤).

(١) انظر دلائل الإعجاز ص ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ .

(٢) المصدر السابق ص ٣١١ .

(٤) المصدر السابق ص ٣١٣ .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي تَالِبٍ

والآن وبعد أن طالعت ما رصده القوم من صور هذا الأسلوب الجميل التي «تبدو منه محاسن تملأ الطرف ، ودقائق تعجز الوصف ، وترى هنالك شعراً شاعراً ، وسحراً ساحراً ، وبلاغة لا يكمل لها إلا الشاعر المغلق ، والخطيب المصقع»^(١)، يجب أن نعرف أن الكنايات الحسنة التي أفاض في ذكرها الإمام وهي من الكناية عن صفة أو نسبة لا تكون جميعها في مستوى واحد ؛ وإنما يتفاوت الحسن فيها تبعاً لمهارة الشاعر : وما يهتدي إليه من إحكام في التصوير ، ودقة في تشكيل صورته ، ويلاحظ أن الشيخ قد توقف أمام الكناية عن صفة التي أصابها الذبول ، واعتراها الضعف فحكم عليها بالرداءة والقبح ، وذكر في ذلك بيت البحري :

ظَلَلْنَا نَعُودَ الْجُودِ مِنْ وَعْكَ الَّذِي وَجَدْتَ وَقُلْنَا اعْتَلَّ عُضْوٌ مِنَ الْمَجْدِ

وأنت ترى أن البحري قد دقق في عقد تلازم بين الممدوح وبين الجود ؛ بحيث إن اعتل الممدوح أو شكا يعتل معه الجود ، لكن الشيخ عبد القاهر ينفي التناسب عن هذا البيت ، ويجعله دون غيره . ولعل السر ، وراء قصوره وضعفه عدمُ اللياقة في التعبير التي خرج البيت بسببها من دائرة الاستحسان من مثل «عبادة المجد» قوله «وعكك الذي وجدت» وفي أول البيت كان الجود معتلاً فعاده وزاره ، وفي آخره كان المعتل عضواً من المجد مما لا يستساغ ذوقاً ، يقول الإمام عبد القاهر : «واعلم أنه ليس كل ما جاء كناية في إثبات الصفة يصلح أن يحكم عليه بالتناسب . معنى هذا أن جعلهم الجود ، والكرم ، والمجد يمرض بمرض الممدوح ، كقول البحري السابق ، وإن كان يكون القصد منه إثبات الجود والمجد للممدوح فإنه لا يصح أن يقال : إنه نظير لبيت «زياد»^(٢) إن السماحة والمروءة والندى

(١) دلائل الإعجاز ص ٣٠٦ .

(٢) المصدر السابق ص ٣١١ ، ٣١٢ .

❁—————الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ—————دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

هذا ، ويمكن أن نستشف من قيم الكناية البلاغية أنها طريق من طرق الفن القولي ، تقوم بنصيبها كاملا في أداء المعاني الذهنية ، والخطرات النفسية ، وتجسيدها في صورة مادية ملموسة ومحسوسة ، وتصويرها أحسن تصوير على نحو تتأكد معه المعاني ، وتثبت في النفس ، وترسخ في القلب ، من ذلك ما يقوله القرآن الكريم في تصوير حال الكافر يوم القيامة حين يبصر حال المؤمنين ، وقد تحقق وعد الله لهم بالجنة والنعيم المقيم ، ووعيده الشديد بالعقاب والهوان للكافرين : ﴿ وَيَوْمَ يَعْضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾ (الفرقان: ٢٧) ، ففي سبيل التعبير عن المعنى الكنائي - وهو الندم اللاذع ، والأسى ، والحزن ، والحسرة نراه يصور ذلك في صورته الذي يعرض على يديه لشدة ما يعانيه من الندم وكأن يداً واحدة لا تكفيه لأن يعرض عليها فيعرض على يديه أو يداول بينهما ، وهي حركة معهودة يرمز بها إلى حالة نفسية سيئة تعاني من القلق والحزن والاضطراب ، فيصورها في هذه الصورة المجسمة التي ترمز إلى الإحساس الشديد بالندم والتحسر على الذي فات .

وانظر إلى امرئ القيس وهو يشير إلى ما يعتصره من حزن يلفه من هم وكرب ، فيقول :

ظَلَلْتُ رِدَائِي فَوْقَ رَأْسِي قَاعِدَا أَعُدُّ الْحَصَى مَا تَنْقُضِي عِبْرَاتِي

لقد استقرت نصال الحزن في صدره على نحو لم يعد له أمل في الخلاص منها حين غشى ديار الحي موضع لهوه ولعبه ، فوجدها مقفرة متغيره ؛ لذا فهو يقعد متذكرا يعد الحصى ما تنقضي دموعه ، ولا تنفد عبراته ، وقوله : إنه ظل قاعدا ورداؤه فوق رأسه يشير إلى استغراقه العميق ، وطول الزمن الذي ظل فيه على هذه الحالة ، وقوله : «أعد الحصى ما تنقضي عبراتي» إشارة إلى طول تلك الحالة التي ظل فيها مستغرقاً مع همومه التي ابتلعت ، يعد الحصى في عبث وذ هول ما تنقضي عبراته ، وما تنفد دموعه ، ورداؤه يظل فوق رأسه ،

الصورة البيانية ————— دراستي في مسانيد البيان ————— ❁

يقيه حر الهاجرة في قلة حيلة ، وعجز شديد وضياح ما بعده ضياح ونظر بيت امرئ القيس قول ذي الرمة الذي يظهر سلوكه اللاشعوري المضطرب الذي يفصح عن ثورة نفسية جارفة تجتاح نفسه الحائرة الموزعة :

عَشِيَّةَ مَالِي حِيلَةٌ غَيْرَ أَنِّي بَلَقْتُ الْحَصَى وَالْحَطَّ فِي التُّرْبِ مُوَلِّعٍ
أَخْطُ وَأَمْحُو الْخَطَّ ثُمَّ أُعِيدُهُ بِكَفِّيَّ ، وَالْغُرْبَانَ فِي الدَّارِ وَقِعٍ
كَأَن سِنَانًا فَارِسِيًّا أَصَابَنِي عَلَى كَبِدِي بِلَ لَوْعَةِ الْبَيْنِ أَوْجِعٍ

إنه مضطرب النفس ، موزع الخاطر ، مشتت الفكر ، قليل الحيلة ، عاجز عن مواجهة الموقف ، تنزاحم الهموم في صدره ، وتضطرب الأفكار في ذهنه ، فيحس بعجزه عن السيطرة عليها ، والتحكم فيها فتراه تارة وهو مشلول التفكير في ذهول يمضي إلى حصى الأرض ، يلقطه ثم يعود فيلقيه ، وتارة يخط في التراب خطوطاً لا معنى لها ، ثم يعود فيمحوها في سلوك لا شعوري مضطرب ، يعكس نفسه الحزينة الموجوعة المشتتة ، فالكناية هنا تصوير للأسى الدفين ، والاضطراب النفسي الشديد ، ومن الكنايات الواصفة البالغة نهاية الحسن في تصوير المعنى المجرد في صورة حسية شاخصة مشاهدة ومرئية ومحسوسة قول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ (الإسراء: ٢٩).

فالغل : وهو اليد المشدودة إلى العنق والمقيدة تصوير للبخل ، وتكنية عنه ، وهي صورة قميئة ، ولك أن تتصور مدى ما يتصف به هذا المنظر من قبح تزدرية النفس ، وتنفر من رؤيته مما يدفع السامع إلى البذل والعطاء ، والبسط كل البسط تصوير للإسراف وتكنية عنه ، ونهاية البخل والإسراف أن يقعد الإنسان ملوماً محسوراً ، والحسير لغة هو عجز الدابة مع عدم تمكنها من السير ، فتقف ضعفاً وعجزاً وكذلك البخيل يحسره بخله فيقف ولا يتقدم ومثله المسرف حيث ينتهي به إسرافه إلى وقفة الحسير ملوماً في الحالتين على

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ —————﴾ دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

البخل والإسراف ، والتوازن هو القاعدة الكبرى ، وخير الأمور الوسط ^(١) . وعلى هذا النحو ما تجده في قول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴾ (المنافقون: ٥) ، وقوله سبحانه : ﴿ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ ﴾ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ » تصوير بالكناية عن تضخم الأنا والكبر والإعراض ومعنى ﴿ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ ﴾ أي عطفوها وأمالوها استكبارا على نحو يظهر منه موقفهم النفسي ، وحقدهم ، وإعراضهم ، ورفضهم . فهم يلوون رءوسهم ويديرونها في أكثر من اتجاه شمالاً ويميناً في حركة مشاهدة ومنظورة ؛ لأنهم لا يستطيعون ما يطلب منهم فيرفضونه ، ولا يقبلونه ، ثم إنهم لا يقفون عند ليّ رءوسهم وإعراضهم ، بل يتخطون ذلك ويتجاوزونه إلى الصد عن سبيل الله ، ويسلكون طريقاً بعيداً عن رسول الله ، ويمعنون في الصدود والخلاف ، وهذا شأن المنافقين أبداً ودوماً .

وإذا كانت الكناية تعرض المجرد في صورة المشاهد المحسوس فإنها تكون الوسيلة الملائمة للتعبير عن المعنى ، حين يكون التصريح به غير لائق ذوقاً وشعوراً ؛ ولذا تجيء الكناية في مثل هذا فتكون رقيقة مهذبة لا تخذش الحياء ، ولا تثير الاشمئزاز ، ولا تفرض على الأذن سماع ما ينبو سماعه فيما توحى به ، وفيما تصوره من معان كناية ، انظر مثلاً كيف عبرت عن التبول والتبرز في قوله تعالى : ﴿ مَا الْمَسِيحُ أَبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾ (المائدة: ٧٥) لتضعه مقابلاً لما يعبر عنه من الحدث والتبول والتبرز ، لترى كيف ترفع الصورة هنا إلى قمة تتضاءل أمامها قمم عالية في المحافظة على رقة الشعور ، ورهافة الإحساس ، ومراعاة الذوق العام واللباقة النفسية والشعورية ، وقل مثل ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ لَا تُوَاعِدُوهُمْ سَرًّا ﴾ (البقرة: ٢٣٥).

(١) انظر في ظلال القرآن ٢٢٢٣/٤



الصورة البيانية ————— دراستُ في مسأَلِ البيانِ ————— ❁

أي نكاحاً وقوله تعالى ﴿ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ (النساء: ٤٣) ، وكله مما سبق ومر علينا ، ورأينا مقصود القوم حين استخدموا هذا اللون من التعبير في التعبير عن الفاحش من القول ، والمردول من الحديث بما لا ينبو عنه الذوق ، أو يجافيه الطبع ، أو تشمئز من ذكره النفس ولذا يقول ابن أبي الإصبع : وعلى الجملة لا تجد معنى من هذه المعاني في الكتاب العزيز يأتي إلا بلفظ الكناية ؛ لأن المعنى الفاحش متى عبر عنه بلفظه الموضوع له كان الكلام معيباً من جهة فحش المعنى ، ولذلك عاب (قدامة) على امرئ القيس قوله :

فَمَثَلُ حُبْلَى قَدْ طَرَفْتُ وَمُرْضِعٍ فَأَلْهَيْتُهَا عَنْ ذِي تَمَائِمٍ مُّحَوِّلٍ
إِذَا مَا بَكَى مِنْ خَلْفِهَا انصرفت له بِشِقِّ وَتَحْتِي شِقُّهَا لَمْ يُحَوِّلِ

وقال (أعني قدامة) وعيب هذا الشعر من جهة فحش المعنى ، يريد أنه عبر عنه بلفظه ، فجاء الكلام فاحشاً ، وهو عيب ، ولذلك تنزه القرآن عنه ولو استعار امرؤ القيس لمعناه لفظ الكناية ... لم يكن إلى عيبه سبيل^(١) هذا ، وإذا أضفت إلى ذلك ما ذكرناه مما تقوم الصورة الكنائية به من التعبير عن المعنى المجرد بالمشاهد المحسوس التي صورة أجزائه التي مثلت وصورته ، وما تتركه المدركات الحسية من تأثير في النفس بتأكيد المعنى وتثبيته وتقديره عرفت مدى القيمة البلاغية ، والأثر النفسي لهذا النمط الراقى من التعبير غير المباشر الذي يلجأ إليه صانع الكلام ؛ لكي لا يظهر المعنى الصريح بل يحاول إخفائه وستره حتى يجتنب نفسه التصريح بما يجب إغماضه وتغطيته وعدم الجهر به والإفصاح عنه أو ما لا يقبله ويرضاه لعبارته من الفحش والابتذال في الوقت الذي يستثير شوق المتلقي كي يحقق له المتعة الفنية من خلال أعمال الفكر ، والبحث ، والتأمل للوصول إلى المعنى الكنائي المراد .

* * *

(١) تحرير التحبير ، بتحقيق الدكتور حفني شرف ، ص ١٤٤ .

الكناية عن المتأخرين

تعريفها - هي في اللغة : أن تتكلم بالشيء وتزيد غيره - وهي مصدر كُنيت بكذا عن كذا إذا تركت التصريح به ، وبابه رمى يرمي - وورد كنوت بكذا عن كذا فهو كدعا يدعو ، ويرد على الاحتمال الثاني قولهم في المصدر كناية ، ولم يسمع كناوة بالواو .

وهي في الاصطلاح : لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه ^(١) . فأشار بقوله : « لفظ » ليخرج ما دل مما ليس بلفظ كالكتابة والإشارة وقوله : « أريد له » خرج به لفظ الساهي والسكران ، وقوله : « لازم معناه » خرج به اللفظ الذي يراد به نفس معناه ، وهو الحقيقة الصرفة ، والمراد « باللزوم » مطلق الارتباط ولو بعرف لا اللزوم العقلي ، وقوله : « مع جواز إرادته » أي إرادة معناه « معه » أي مع ذلك اللازم فمن قيودها أنها بعد إرادة اللازم بلفظها لا بد أن لا تصحبها قرينة تمنع من إرادة المعنى الأصلي مع ذلك اللازم ، وذلك « كطويل النجاد » وهو حمائل السيف إذا أطلق وأريد به لازم معناه الذي هو طول القامة مع جواز إرادة معنى طول النجاد نفسه بأن لا توجد قرينة تمنع من إرادة نفس معنى طول النجاد « فظهر » بما ذكر وهو أن الكناية يصحبها جواز إرادة المعنى الأصلي ^(٢) . ففي قول الشاعر

« طويل نجاد السيف » شهم كأنما تصول إذا استخدمته بقبيل

فالمعنى الحقيقي لقوله : طويل نجاد السيف أن نجاهه طويله ، وليس هذا مراداً إنما المراد لازم هذا المعنى ، وهو طول القامة إذ يلزم من طول النجاد أن

(١) بغية الإيضاح ١٧٣/٣ .

(٢) مواهب الفتاح لابن يعقوب ٢٣٨/٤ .

الصورة البيانية ————— دراستي في مسائل البيان ————— ❁

تكون القامة طويلة - ويصح مع هذا إرادة المعنى الحقيقي أيضا بأن يراد المعنيان جميعا - طول النجاد ، وطول القامة .

ويقول المتنبي متحدثا عن سيف الدولة حين ظفر ببني كلاب :

رميتهم ببحرٍ من حديدٍ له في البر خلفهم عباب
فمسأهم وبسطهم حريراً وصبّحهم وبسطهم تراباً
ومن في كفه منهم قناة كمن في كفه منهم خضاب

ففي البيت الثاني يتحدث عن بني كلاب حين غزاهم سيف الدولة ، فيبين أن بني كلاب كانوا يفتشون الحرير حين غزاهم سيف الدولة ليلاً ، وما إن طلع الصباح حتى صارت هذه البسط بعد هزيمتهم تراباً ، وهذا المعنى الظاهر ليس هو المعنى المراد ، وإنما المراد أن سيف الدولة ألحق بهم هزيمة ساحقة بعد أن تمكن منهم ، وحطم سلطانهم ، وأنهى ما كانوا يتمتعون به من مظاهر السيادة والترف وتبدلت أحوالهم من العزة والسيادة إلى الذل والشقاء ، فقوله : وبسطهم حرير كناية عن الترف والسيادة والنعمة ، أما قوله : وبسطهم تراب فكناية عن الهوان والضياع والذلة والهزيمة الساحقة وفي البيت الثالث يريد أن يبين أنهم خذلوا وهزموا وتحولوا من حال إلى حال حتى صار الرجل فيهم كالمرأة ، أما قوله : «ومن في كفه منهم قناة» فكناية عن الرجل ، وقوله : «كمن في كفه منهم خضاب» فكناية عن المرأة ، فالكناية لون من ألوان التعبير يؤدي المعنى أداء غير مباشر فهي تشارك المجاز في هذا ، كما تشاركه في وجود صلة وعلاقة بين المعنى الثاني للعبارة ، وهو المعنى الكنائي ، وبين المعنى الأول ، والفرق في هذا بين المجاز اللغوي والكناية أن المجاز اللغوي يمتنع معه إرادة المعنى الأصلي بل لا بد في المجاز من قرينة لفظية أو حالية تمنع من إرادة المعنى الأصلي ، وتحول دونه ، على حين أن الكناية لا يمتنع معها إرادة المعنى الحقيقي ، ففي قولهم في الكناية : «محمد طويل النجاد» المعنى

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ —————﴾ دَرَسَتْ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

الحقيقي لهذا التعبير هو أن نجاد محمد طويلة وليس هذا مراداً ، إنما المراد لازم هذا المعنى ، وهو أن محمداً طويل القامة إذ يلزم عادة من طول النجاد أن تكون القامة طويلة ، ويصح مع هذا أن يراد المعنى الحقيقي أيضاً فيكون المعنيان - الحقيقي والكنائي - مرادين . هذا ، ويلاحظ أن التلازم بين المعنيين الحقيقي والكنائي مصدره العرف والعادة في معظم الأحيان فالعرف الجاري بين أهل العربية في الزمان البعيد هو الذي جعل في - فلانة نثومة الضحى - كناية عن أنها مترفة مخدومة لها من يكفيها أمرها ، ويقوم بشئونها ، فالمعنى الحقيقي للفظ أن فلانة هذه تنام إلى الضحى ، وليس هذا هو المراد ، وإنما المراد ما يلزم من هذا المعنى ، وأنها من ذوات الترف والنعمة لها من يقوم بتدبير أمورها ، والقيام على شئونها ، والعرف هو الذي جعلنا نربط بين استخدام بسط الحرير وبين حياة الترف والتنعم والزينة والعزة والسيادة كما أن (وصبغهم وبسطهم تراب) يجعلنا نربط بين الالتصاق بالتراب ، وبين حياة المهابة والضعفة والهوان والفاقة والذل على أنه قد استقر في العرف أن الرجل هو الذي يحمل الرمح والسيف ، وأن المرأة هي تتجمل وتزين وتلون يديها بالحناء . ولأن العرف يختلف من عصر إلى عصر كانت الكنايات في كثير منها تمثل العصر الذي ظهرت فيه ، ولا تكاد تفارقه ففي الكناية عن الكرم شاع عن العرب قولهم : فلان كثير الرماد ، وجبان الكلب ، ومهزول الفصيل ، وحين نحاول تفسير الكناية في الشاهد الأول نجد أن كثرة الرماد تدل على كثرة إحراق الحطب نتيجة لكثرة طهي الطعام ، يلزم من ذلك كثرة الآكلين من الأضياف وهذا يدل على الجود والكرم . هذا ، وجبن الكلب في المثال الثاني معناه عدم نباحه وجود الزائرين وامتناعه عن ذلك ، وذلك لكثرة رؤيته لهم وإلفه لمشاهدتهم إذ يترددون كثيراً على بيت صاحبه ، وهزال الفصيل في الشاهد الثالث ناشئ عن حرمانه من لبن أمه ، وذلك إما لتقديمه إلى الأضياف أو نحرها ، وتقديم لحمها للضيوف ، ومؤدى ذلك كله في الأمثلة الثلاثة

الصورة البيانية ————— دراستي في مسأله البيان ————— ❁

الكناية عن الجود والكرم ومن البين في هذه الشواهد الثلاثة ارتباطها ارتباطاً وثيقاً بالبيئة والحياة العربية في الصحراء بما لها من تقاليد إذ إن طهو الطعام في هذا التاريخ كان بالحطب ، كما أن الكلاب هي التي كانت تقوم بحراسة البيوت ، واقتناء الإبل ونحرها كان من عاداتهم في هذا التاريخ ، وكل ذلك يرتبط بتقاليد البيئة العربية حينئذ وإن عادت غريبة على حياتنا اليوم ، ومن ثمّ فلا يستسيغ الذوق مثل هذه الأساليب الآن على أنه إلى جانب هذه الكنايات التي تعد تعبيراً عن عصر معين ، وبيئة معينة توجد كنايات تتجاوز هذا وتتخطاه ولا تكون تعبيراً عن زمن معين وبيئة معينة لأنها بنيت من عناصر ثابتة في الإنسان لا تتبدل ولا تتغير ولذلك تكون صالحة لكل بيئة ولكل زمان ومكان وذلك كالكناية عن الزهو والغرور والتّضخّم والتكبر والامتلاء بتصغير الخد في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ (لقمان: ١٨) ، و«صَعِرَ» مال عنقه أو وجهه إلى أحد الجانبين ، ويقال : فلان أعرض بوجهه كبرا و«أصَعَرَ خده وصَعَرَ خده أي أماله عجباً وكبرا» والصَّعَرُ «داء يصيب الإبل فيلوي أعناقها والتعبير القرآني يختار هذا التعبير للتغيير من الحركة المشابهة للصَّعَر حركة الكبر ، والازورار ، وإمالة الخد للناس في تعال واستكبار وقوله : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ (لقمان: ١٨) نهْيٌ عن المشي في تخايل ونفخة وقلة مبالة بالناس . وهي حركة كراهية يمقتها الله ، ويمقتها الخلق ، وهي تعبير عن شعور مريض بالذات يتنفّس في مِشِيته الخيلاء^(١).

ومن هذه الكنايات الواصفة التي تصلح للأزمان جميعها وللأجيال جميعاً جيلاً من بعد جيل ما تجدها في قوله تعالى : ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفِيَّهُ عَلَىٰ مَا أُنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ (الكهف: ٤٢).

(١) انظر في ظلال القرآن ٥/ ٢٧٩٠ .

❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

إن النص الكريم يأتي تعبيراً عن نهاية أليمة لقصة رجلين أحدهما مؤمن والآخر كافر ، وهذا الكافر يملك جنتين من أعناب قد حفتا بالنخيل ، تتوسطهما الزروع ، ويتفجر بينهما نهر ، وهذا الكافر الذي يملك الجنتين قد امتلأ قلبه بالغرور ظناً منه أن ما به من نعيم سيظل محفوظاً له حتى في الملاء الأعلى فتَمَادَى في غِيَّهٍ وقد نَسِيَ الله ، ولم يذعنْ قلبه بالإيمان لمن وهبه الجنتين ، وأفاض عليه بالعطاء والنعم ، وفي لحظة غضب جبار السماوات عليه فدمر جنتيه ، وعصف بزروعهما وثمارهما ، وما إن وقف الرجل على مشهد الدمار والبوار حتى شعر بالحسرة والندم ، وأصبح يقلب كفيه ندماً وحسرة على ما أنفق فيها ، وهي خاوية على عروشها ، ولكنه ندماً جاء بعد فوات الأوان .

هذا ، ومما يجب أن يكون معلوماً أنه لا يلزم في الكناية أن يكون المعنى الحقيقي للفظ الممكنى به متحققاً في الواقع ، إذ يصح القول بأن « فلان طويل النجاد » كناية عن طول القامة ، وإن لم يكن له نجاد ، بل يصح الكناية حتى مع استحالة المعنى ، كقولهم : « المجد بين بُرْدِيهِ ، والكرم تحت رداءه » كناية عن إثبات المجد والكرم للممدوح - فإن المعنى الحقيقي لكل من العبارتين وهو حلول المجد بين البردين ، وحلول الكرم تحت الرداء مستحيل الحصول ؛ إذ إن الحلول الحسِّي بين الأشياء أو تحتها من شأن الأجسام لا المعاني .

هذا ، ومما يُفَرِّقُ به بين المجاز والحقيقة وجوب وجود القرينة المانعة من إرادة المعنى الحقيقي في المجاز دون الثانية وهذا فرق في طبيعة الدلالة ، ففي المجاز كما قلنا لا يصلح فيه المعنى الحقيقي فإذا قلت رأيت أسداً يحمل مدفعا ، فلا يصح أن يراد بالأسد هنا الحيوان المفترس ، وذلك بخلاف الكناية . ففي قولك « فلانة نئوم الضحى » فإنه يصح أن تريد معناه الحقيقي المباشر أي النوم في الضحى ، ولهذا كان الاختلاف قائماً بين أهل العلم في مثل هذا التعبير هل هو أسلوب من الحقيقة أم لا ؟ وكونه من أساليب الحقيقة أي أنه مستعمل في

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ الْبَيَانِ ————— ❁

المعنى الحقيقي الذي وضعه له واضع اللغة لينتقل منه الذهن إلى المراد ، أم أنه مستعمل في المعنى المراد فنثوم الضحى مستعمل في المرأة المترفة المنعمة الثرية التي لها ما يقوم على شئونها ، وطويل النجاد مستعمل في طول القامة فيكون مجازا ؟ أم أنه أسلوب وسط بين الحقيقة والمجاز ؟ وقد بين الإمام السيوطي مذاهب العلماء في الكناية بقوله : « الكناية وفيها أربعة مذاهب » (أحدها) أنها حقيقة ، قال ابن عبد السلام وهو الظاهر ؛ لأنها استعملت فيما وضعت له ، وأريد بها الدلالة على غيره « الثاني » أنها مجاز « الثالث » أنها لا حقيقة ولا مجاز ، وإليه ذهب صاحب التلخيص لِمَنْعِهِ في المجاز أن يراد المعنى الحقيقي مع المجازي وتجويزه ذلك فيها « الرابع » وهو اختيار الشيخ تقي الدين السبكي أنها تُقَسَّم إلى حقيقة ومجاز ، فإن استعملت اللفظ في معناه مرادا منه لازم المعنى أيضا فهو حقيقة ، وإن لم يرد المعنى ، بل عُبر بالملزوم عن اللازم فهو مجاز ؛ لاستعماله في غير ما وضع له ، الحاصل أن الحقيقة منها أن يستعمل اللفظ فيما وضع له ليفيد غير ما وضع له ، والمجاز منها أن يريد به غير موضوعه استعمالا وإفادة^(١).

ومما يتصل بهذا أن نتساءل هل يصح في أسلوب الكناية إرادة المعنى المباشر مع وجود المانع الخارجي من إرادة هذا المعنى ؟ لا مانع من ذلك كأن نقول لمن لا ناقة له ولا فصيل : فلان مهزول الفصيل ، وكأن نقول لمن لا كلب له : فلان جبان الكلب وهكذا .

وعلى هذا النحو ما تجده في قول الله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ (المائدة: ٦٤).

ففي قوله سبحانه ﴿ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ أرادوا بذلك - لعنهم الله - أنه سبحانه ممسك ما عنده ، بخيل تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، فإن كلاً من غل اليد

(١) الإتيان في علوم القرآن ٤١/٢ .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ ﴾

وبسطها كناية عن البخل ، والجود من غير قصد في ذلك إلى إثبات يد وغل أو بسط ثم ردّ الله عليهم مقالتهن ، وشاكل كلامهم بما يناقضه ، فقال : « بل يدها مبسوطتان ينفق كيف يشاء » بما يبين فيض إغداقه وإعطائه وكرمه . وقد ذكر الزمخشري أن مثل هذا الأسلوب يعد مجازاً فيما كان كناية فيه ، وهذا يتحقق على هذا النحو في صور الكناية التي يستحيل فيها إرادة المعنى الحقيقي للتركيب الممكنى به ؛ إذ إنه يرى أن يشرط الكناية صحة جواز المعنى الحقيقي للتركيب ، ويقول الزمخشري : « غل اليد وبسطها مجاز عن البخل والجود ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ (الإسراء: ٢٩) ، ولا يقصد من يتكلم به إثبات يد ، ولا غل ، ولا بسط ولا فرق عنده بين هذا الكلام وبين ما وقع مجازاً عنه ؛ لأنهما كلامان مُعْتَقَبَانِ على حقيقة واحدة حتى أنه يستعمله في مَلِكٍ لَا يُعْطِي عَطَاءَ قُطْ ، ولا يمنعه إلا بإشارته من غير استعمال يد وبسطها وقبضها ، ولو أعطى الأقطع إلى المنكب عطاءً جزيلاً لقالوا ما أبسط يده بالنوال ؛ لأن بسط اليد وقبضها عبارتان وقعتا متعاقبتين للبخل والجود^(١) ، ونؤكد أن قول الله تعالى السابق ﴿ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ مجاز عن الكناية تفادياً لملاحظة المعنى المباشر ، والتوقف عنده ، هذا ، ومما يعد مجازاً فيما كان كناية فيه أي مجازاً عن الكناية ما تراه في قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ (آل عمران: ٧٧).

فإن عدم تكليمهم ، وعدم النظر إليهم كنايةتان عن الإهمال ، والاستهانة ، وعدم الالتفات إليهم ممن يصح منه الكلام والنظر والالتفات ، أما بالنسبة لله سبحانه فإنهما يصيران مجازاً في هذا المعنى . يقول الزمخشري : في قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ (آل عمران: ٧٧) مجاز عن الاستهانة بهم والسخط عليهم تقول : فلان لا ينظر إلى فلان تريد نفي اعتداده به وإحسانه إليه

(١) تفسير الكشاف ، ٣٥٠/١ .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي تَالِبٍ

﴿ وَلَا يُزَكِّيهِمْ ﴾ (آل عمران: ٧٧) ولا يثني عليهم ، فإن قلت : أي فرق بين استعماله فيمن يجوز عليه النظر وفيمن لا يجوز عليه ؟ قلت : أصل فيمن يجوز عليه النظر كناية ؛ لأن من اعتد بالإنسان التفت إليه ، وأعاره نظر عينيه ثم كثر حتى صار عبارة عن الاعتداد والإحسان ، وإن لم يكن ثمَّ نظر ثم جاء فيمن لا يجوز عليه النظر ، مجرداً لمعنى الإحسان مجازاً عما وقع كناية عنه ^(١) ، ومن هنا يظهر أنه إذا أمكن المعنى الأصلي كان كناية ، وإذا لم يمكن كان مجازاً في هذا المعنى أي مجاز عن الكناية كما بين الزمخشري .

ويقول الزمخشري في قوله تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾

(طه: ٥).

« لما كان الاستواء على العرش وهو سرير الملك مما يردف الملك جعلوه كناية عن الملك فقالوا : استوى فلان على العرش ، يريدون مَلَك ، وإن لم يقعد على السرير البتة ، وقالوه أيضاً لشهرته في ذلك المعنى ومساواته ملك في مؤداه وإن كان أشرح وأبسط ، وأدل على صورة الأمر ونحوه قولك : يد فلان مبسوطة ، ويد فلان مغلولة بمعنى أنه جواد أو بخيل لا فرق بين العبارتين إلا فيما قلت ، حتى أن من لم يبسط يده قط بالنوال أو لم تكن له يَدُ رَأْسًا قِيلَ فيه يده مبسوطة لمساواته عندهم قولهم : هو جواد ، ومنهم قول الله عز وجل : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ (المائدة: ٦٤) أي هو بخيل : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ أي هو جواد من غير تصور يد ولا غل ولا بسط ^(٢) فقوله : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ مجاز عن متفرع عن الكناية فيمن يجوز عليه القعود على السرير أي أنه بهذه الصورة يصير مجازاً فيما كان كناية فيه .

(١) الكشف ، ١٩٧/١ .

(٢) المصدر السابق ، ٤٢٧/٢ .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ —————﴾ درستنی مسائل علم البیان

هذا وقول الله تبارك وتعالى : ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ (الدخان: ٢٩) مجاز عن عدم الاكتراث بهلاكهم ، والاعتداد بوجودهم ، وفيه تهكم بهم وبحالهم المنافية لحال من يعظم فقده ، فيقال فيه : بكت عليه السماء والأرض وبكاء السماوات والأرض لا يكون إلا على سبيل المجاز ثم هو بعد هذا كناية عن عدم الاكتراث بفقدهم والاعتداد بموتهم ، فالعبرة فيها مجاز وتخيل وذلك بجعل غير العاقل عاقلاً وقد جرت العادة في لسان العرب إذا مات رجل خطير قالت العرب في تعظيم مهلكه ، بكت عليه السماوات ، وبكته الريح ، وأظلمت له الشمس ، وقال جرير :

تبكي عليك نجوم الليل والقمر

وقالت الأخيلية :

أيا شجر الخابور مالك مورقا كأنك لم تجزع على ابن طريف
وذلك على سبيل التمثيل والتخيل مبالغة في وجوب الجزع والبكاء عليه^(١).

وفي قول الله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورى: ١١).

«قالوا مثلك لا يبخل فنفوا البخل عن مثله ، وهم يريدون نفيه عن ذاته قصدوا المبالغة في ذلك ، فسلكوا به طريق الكناية ؛ لأنهم إذا نفوه عمن يسد مسدّه ، وعمن هو على أخصّ أوصافه فقد نفوه عنه ونظيره قولك للعربي : العرب لا تخفر الذمم كان أبلغ من قولك أنت لا تخفر ، ومنه قولهم : قد أيفعت لذاته ، وبلغت أثرابه ، يريدون إيقاعه وبلوغه ، وفي حديث ربيعة بنت صيفي في سقيا عبد المطلب ألا وفيهم الطيب الطاهر لذاته والقصد إلى طهارته وطيبه ، فإذا علم أنه من باب الكناية لم يقع فرق بين قوله : ليس كالله شيء ، وبين قوله : ليس كمثله شيء إلا ما تعطيه الكناية من فائدتها وكأنهما عبارتان

(١) تفسير الكشاف ، ٤٣٢/٣ .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دُرِّسَتْ فِي مَسَائِدِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي تَالِبٍ

مُعْتَقِبَتَانِ عَلَى مَعْنَى وَاحِدٍ ، وَهُوَ نَفْيُ الْمِمَّاثِلَةِ عَنْ ذَاتِهِ ، وَنَحْوُهُ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ بَلَّ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ فَإِنْ مَعْنَاهُ بَلْ هُوَ جَوَادٌ مِنْ غَيْرِ تَصَوُّرٍ يَدٌ ، وَلَا بَسَطَ لَهَا ؛ لِأَنَّهَا وَقَعَتْ عِبَارَةٌ عَنِ الْجَوْدِ لَا يَقْصِدُونَ شَيْئًا آخَرَ حَتَّى أَنْهَمُ اسْتَعْمَلُوهَا فَيَمْنُ لَا يَدْرِكُ ، فَكَذَلِكَ اسْتَعْمَلَ هَذَا فَيَمْنُ لَهُ مِثْلٌ وَمِنْ لَا مِثْلَ لَهُ ^(١) .

فَتَنْظِيرُ الزَّمْخَشَرِيِّ فِي أَنَّ الْكِنَايَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ (الشورى: ١١) تَجْرِي عَلَى طَرِيقِ الْكِنَايَةِ فِي قَوْلِهِمْ أَيْفَعْتُ لِدَاتِهِ ، وَبَلَغَتْ أَتْرَابَهُ ، وَالْعَرَبِيُّ لَا يَخْفِرُ الذَّمَّ إِلَّا أَنْ هُنَاكَ فَرْقًا بَيْنَ الْكِنَايَةِ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَبَيْنَ الْكِنَايَةِ فِي هَذِهِ الْأَمْثِلَةِ مِنْ نَاحِيَةِ الْوَاسِطَةِ ؛ لِأَنَّ الْوَاسِطَةَ فِي الْأَمْثِلَةِ الْمَذْكُورَةِ بَعِيدًا عَنِ الْآيَةِ مَتَصَوِّرَةٌ وَصَحِيحَةٌ وَهِيَ مَعْنَى يَفَاعُ اللَّدَاتِ ، وَبَلُوغُ الْأَتْرَابِ ، وَالْعَرَبِيُّ لَا يَخْفِرُ الذَّمَّ ، لَكِنِ الْآيَةُ لَيْسَتْ كَذَلِكَ لِأَنَّهَا إِنْ كَانَتْ كَذَلِكَ أَوْجَبَتْ الْمِثْلَ الَّذِي تَنْفِي عَنْهُ الشُّبْهَ ، فَإِنَّ الذَّهْنَ يَنْتَقِلُ مِنْ هَذَا إِلَى نَفْيِ الْمِثْلِ ضَرُورَةً وَنَفْيِ الْمِثْلِ عَنْ اللَّهِ وَاجِبٌ أَنْ يُلْغَى ؛ لِأَنَّ حَقِيقَةَ الْإِلَهِ لَا تَقْبَلُ التَّعَدُّدَ ، وَالِاشْتِرَاكَ ، وَالتَّمَاثُلَ فِي مَفْهُومِهَا ، وَلِهَذَا أَلْحَقَهَا الْإِمَامُ الزَّمْخَشَرِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - بِقَوْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ ﴿ بَلَّ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ (المائدة: ٦٤) فَصُورَةُ الْمَعْنَى الْمُبَاشِرِ لِلْفِظِ الْكِنَايَةِ لَيْسَتْ مَوْجُودَةٌ وَمِنْ هُنَا تَكُونُ الْوَاسِطَةُ مَلْغَاةً حَتَّى لَا تَسْتَحْضِرَ الْيَدَ الْمَبْسُوطَةَ ، وَلَا الْمِثْلَ الَّذِي نَفَى عَنْهُ الشُّبْهَ ، وَمِنْ هُنَا لَا يَقَعُ فَرْقٌ بَيْنَ قَوْلِنَا لَيْسَ كَاللَّهِ شَيْءٌ وَبَيْنَ ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ (الشورى: ١١) وَكَذَلِكَ لَمْ يَقَعِ فَرْقٌ بَيْنَ ﴿ بَلَّ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ (المائدة: ٦٤) وَبَيْنَ جَوَادٍ وَكَأَنَّهُمَا عِبَارَتَانِ مُعْتَقِبَتَانِ عَلَى مَعْنَى وَاحِدٍ ، وَهَذَا إِذَا تَأَمَّلْتَهُ رَاجِعٌ إِلَى قَوْلِهِ مُجَازًا عَنْ مَا كَانَ كِنَايَةً فِيهِ ؛ لِأَنَّ الْمَجَازَ لَيْسَ فِيهِ إِرَادَةُ الْمَعْنَى الْحَقِيقِي لِتَنْتَقِلَ مِنْهُ إِلَى الْمَعْنَى الْمَقْصُودِ وَإِنَّمَا هُوَ كَلَامٌ مُسْتَعْمَلٌ فِي غَيْرِ مَا وَضَعَ لَهُ ،

(١) الكشاف ، ٣/ ٣٩٩ .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ﴾

فالمعنى الحقيقي لبسط اليد ليس مراداً ، وإنما استعمل بسط اليد في الجود بعد ما أفرغناه من هذا المعنى المباشر»^(١).

هذا وقد اختلف العلماء في زيادة الكاف أو عدم زيادتها في قوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورى: ١١) فمنهم من قال إن «الكاف» زائدة ، ومنهم قال بعدم زيادتها . فمن قال بزيادة الكاف ، قال إن التقدير «ليس كمثلته شيء» وإنما قدرت زائدة فراراً من المحال العقلي ؛ لأنها لو لم تقدر زائدة صار المعنى ليس شيء مثل مثله فيلزم المحال ؛ لأنها حينئذ تكون نافية للتشبيه عن مثل الله ويكون ذلك تسليماً بثبوت المثل له سبحانه .

هذا وقد جعل الخطيب القزويني نفي شبه المثل طريقاً لنفي المثل ، فبين أن الكاف ليست زائدة ، لأنها لا تؤدي إلى ذلك المحال ونفى فيها وجود المثل لله بنفي وجود مثل مثله على طريق الكناية ؛ لأن نفي مثل المثل يستلزم نفي المثل ضرورة أنهما متساويان في النفي والإثبات ، وتكون الآية كناية عن نفي المماثلة عن ذاته بالطريق الأبلغ . يقول الخطيب : «وعليه قوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورى: ١١) على أحد الوجهين وهو ألا تجعل الكاف زائدة ، قيل : وهذا غاية لنفي التشبيه ، إذ لو كان له مثل لكان كمثلته شيء ، وهو ذاته تعالى ، فلما قال : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورى: ١١) دل على أنه ليس له مثل»^(٢).

رأي الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز - رحمه الله -

يرفض الدكتور دراز - رحمه الله - أن تكون في القرآن الكريم كلمة مقحمة ، أو أن يكون في بعض حروفه حرف زائد ، ويصرح بقوله : «فإن الحكم في القرآن بهذا الضرب من الزيادة أو شبهها إنما هو ضرب من الجهل - مستوراً

(١) انظر : التصوير البياني ، ص ٣٩٩ ، ٤٠٠ .

(٢) بغية الإيضاح ، ٣ / ١٨٤ .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ ————— ❁

أو مكشوفًا - بدقة الميزان الذي وضع عليه أسلوب القرآن « فلا توجد في القرآن كلمة إلا ووراء وجودها سرٌّ وهي مفتاح لفائدة جلييلة ، ولا يوجد في القرآن حرف إلا جاء لمعنى ، فإن عمي عليك وجه الحكمة في كلمة منه أو حرف ، فيإيك أن تعجل كما يعجل الظالمون ، ولكن قل قولاً سديداً هو أدنى إلى الأمانة والإنصاف . قل : « الله أعلم بأسرار كلامه ولا علم لنا إلا بتعليمه » ثم إيك أن تركز إلى راحة اليأس فتقع عن استجلاء تلك الأسرار ، قائلاً : أين أنا من فلان وفلان ؟ ، ثم ذكر هذه الآية الكريمة مثلاً لما قالوا فيها بزيادة « الكاف » وحاول أن يكشف مدلول هذا الحرف ، وأن يوضح الكناية في هذا النص الكريم ، ثم قال - رحمه الله - بعد أن ذكر قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ (الشورى: ١١) .

« أكثر » أهل العلم قد ترادفت كلمتهم على زيادة الكاف ، بل على وجوب زيادتها في هذه الجملة فراراً من المحال العقلي الذي يفضي إليه بقاؤها على معناها الأصلي من التشبيه ، إذ رأوا أنها حينئذ تكون نافية الشبيه عن مثل الله ، فتكون تسليمًا بثبوت المثل له سبحانه ، أو على الأقل محتملة لثبوته وانتفاءه ؛ لأن السالبة - كما يقول علماء المنطق - تصدق بعدم الموضوع ، أو لأن النفي كما يقول علماء النحو - قد يوجه إلى المقيد وقيده جميعاً ، فقول : « وليس لفلان ولا يعاونه » إذا لم يكن له ولد قط ، أو كان له ولد لا يعاونه ، وتقول : « وليس محمد أخا لعلي » إذا كان أخا لغير علي ، أو لم يكن أخا لأحد ، وقليل منهم ذهب إلى أنه لا بأس ببقائها على أصلها ؛ إذ رأى أنها لا تؤدي إلى ذلك المحال لا نصّاً ولا احتمالاً ؛ لأن النفي مثل المثل يتبعه في العقل نفي المثل أيضاً . وذلك أنه لو كان هناك مثل لله لكان لهذا المثل مثلٌ قطعاً ، وهو الإله الحق نفسه ، فإن كل متمثلين يعد كلاهما مثلاً لصاحبه . وإذا لا يتم انتفاء مثل المثل إلا بانتفاء المثل وهو المطلوب .

❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسْتُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

ومن الواضح أن هذا رأي الخطيب ومن تبعه من البلاغيين وهو يجري على أساس الكناية .

وبعد ذلك قال - رحمه الله - وقصارى هذا التوجيه - لو تأملته - أنه مصحح لا مرجح ، أي أنه ينفي الضرر عن هذا الحرف ^(١) . ولكنه لا يثبت فائدته ولا يبين ميسر الحاجة إليه ، ألسنت ترى أن مؤدى الكلام معه كمؤاده بدونه سواء ؛ وأنه إذا كان قد ازداد به شيئاً فإنما ازداد شيئاً من التكلف والدوران وضرباً من التعمية والتعقيد ؟ وهل سبيله إلا سبيل الذي أراد أن يقول : « هذا فلان » فقال : « هذا ابن اخت خالة فلان » ؟ فمآله إذاً إلى القول بالزيادة التي يسترونها باسم التأكيد ، ذلك الاسم الذي لا تعرف له مسمى ها هنا ، فإن تأكيد المماثلة ليس مقصوداً البتة ، وتأكيد النفي بحرف يدل على التشبيه هو من الإحالة بمكان .

فهو يبين أن هذا التوجيه كما أنه مصحح هو مبين لطريقة الكناية التي جرت فيها الدلالة من حيث إن نفي مثل المثل دال على نفي المثل وإنما كان نفي مثل المثل دليلاً قاطعاً على نفي المثل ؛ لأن المثل لو وجد لوجب أن يردفه مثل له ، ولما توجه النفي إلى الرادف كان برهانا على نفي المردوف ، ولم تكن الدلالة هنا من طريق الكناية إلا اعتماداً على أصالة هذا الحرف ^(٢) . والقول بأنه زائد للتوكيد قول لا يعتد به ؛ لأن تأكيد المماثلة ليس مقصود البتة .

ثم يقول - رحمه الله - ولو رجعت إلى نفسك قليلاً لرأيت هذا الحرف في موقعه محتفظاً بقوة دلالاته ، قائماً بقسط جليل من المعنى المقصود في جملته ، وأنه لو سقط منها لسقطت معه دعامة المعنى ، أو لتهدم ركن من أركانه ، ونحن نبين لك هذا من طريقين ، أحدهما أدق مسلماً من الآخر :

(١) الكاف .

(٢) الحرف المقصود به الكاف وانظر التصوير البياني ص ٤٠٦ .

الصورة البيانية ————— دراستي في مسائل عليّ البين ————— ❁

« الطريق الأول » وهو أدنى الطريقين إلى فهم الجمهور أنه لو قيل « ليس مثله شيء » لكان ذلك نفيًا للمثل المكافئ ، وهو المثل التام المماثلة فحسب ؛ إذ إن هذا المعنى هو الذي ينساق إليه الفهم من لفظ المثل عند إطلاقه ، وإذا لدب إلى النفس ديبب الوسائوس والأوهام . أن لعل هنالك رتبة لا تضارع رتبة الألوهية ولكنها تليها ، وأن عسى أن تكون هذه المنزلة للملائكة والأنبياء ، أو للكواكب وقوى الطبيعة ، أو للجن والأوثان والكهان فيكون لهم بالإله الحق شبه ما ، في قدرته ، أو علمه ، وشرك ما في خلقه وأمره فكان وضع هذا الحرف في الكلام إقصاءً للعالم كله عن المماثلة ، وعما يشبه المماثلة وما يدنو منها ، كأنه قيل ليس هناك شيء ، وهذا باب من التنبيه بالأدنى على الأعلى على حد قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَقُلْ هُمَا أَفْرٍ وَلَا تَنْهَرُهُمَا ﴾ (الإسراء: ٢٣) ، نهيا عن يسير الأذى صريحاً ، وعما هو فوق اليسير بطريق الأخرى .

« الطريق الثاني » وهو أدقهما مسلكاً ، أن المقصود الأولى من هذه الجملة وهو نفي الشبيه ، وإن كان يكفي أن يقال : « ليس كالله شيء » أو « ليس مثله شيء » لكن هذا القدر ليس هو كل ما ترمي إليه الآية الكريمة ، بل إنها كما تريد أن تعطيك هذا الحكم تريد في الوقت نفسه أن تلفتك إلى وجه حاجته ، وطريق برهانه العقلي ، ألا ترى أنك أردت أن تنفي عن امرئ نقيصة في خلقه فقلت : « فلان لا يكذب ولا يبخل » أخرجت كلامك عنه منخرج الدعوى المجردة عن دليلها ، فإذا زدت فيه كلمة فقلت : « مثل فلان لا يكذب ولا يبخل » لم تكن بذلك مشيراً إلى شخص آخر يماثله مبرأً من تلك النقائص ، بل كان هذا تبرئة له هو ببرهان كلي ، وهو أن من يكون على مثل صفاته وشيئته الكريمة لا يكون كذلك لوجود التنافي بين طبيعة هذه الصفات وبين ذلك النقص الموهوم .

وعلى هذا المنهج البليغ وضعت الآية الحكيمة قائلة « مثله تعالى لا يكون له مثل » تعني أن من كانت له تلك الصفات الحسنى ، وذلك المثل

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ﴾

الأعلى لا يمكن أن يكون له شبيه ، ولا يتسع الوجود لاثنيين من جنسه ، فلا جرم جرى فيها بلفظين ، كل واحد منهما يؤدي معنى المماثلة ؛ ليقوم أحدهما ركناً في الدعوى ، الآخر دعامة لها ورهاناً ، لتشبيه المدلول عليه « بالكاف » لما تصوب إليه النفي تأدي أصل التوحيد المطلوب ، لفظ « المثل » المصرح به في مقام لفظ الجلالة أو ضميره نبه على برهان ذلك المطلوب .

هذا ، وقد نبه الشيخ - رحمه الله - إلى وجه الدلالة على الوحدانية في هذه الآية ، ووجهها على نحو لم يسبق إليه ، فقال : « واعلم أن البرهان الذي ترشد إليه الآية على هذا الوجه برهان طريف في إثبات وحدة الصانع ، لا نعلم أحداً من علماء الكلام حام حوله ؛ فكل براهينهم في الوحدانية قائمة على إبطال التعدد بإبطال لوازمه وآثاره العلمية حسبما أرشد إليه قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (الأنبياء: ٢٢) . أما آية الشورى فإنها ناظرة إلى معنى وراء ذلك ينقض فرص التعدد من أساسه ، ويقرر استحالة الذاتية في نفسه بقطع النظر عن تلك الآثار ، فكأننا بها نقول لنا : إن حقيقة الإله ليست من تلك الحقائق التي تقبل التعدد والاشتراك والتماثل في مفهومها كلا فإن الذي يقبل ذلك إنما هو الكمال الإضافي الناقص ، أما الكمال التام المطلق الذي هو قوام معنى الإلهية فإن حقيقته تأبى على العقل أن يقبل فيها المشابهة ، والاثنيّة لأنك مهما حققت معنى الإلهية حققت تقدماً في كل شيء ، وحققت سلطناً على كل شيء ، وعلواً فوق كل شيء .. فلو ذهبت تفترض اثنين يشتركان في هذه الصفات لتناقضت ؛ إذ تجعل كل واحد منهما سابقاً مسبوقاً ومنشأً منشأً ، ومستعلياً مستعلًى عليه ، أو لأحلت الكمال المطلق إلى كمال مقيد فيهما ؛ إذ تجعل كل واحد منهما بالإضافة إلى صاحبه ليس سابقاً ولا مستعلياً ، فأنى يكون كل منهما إلهاً ولإله المثل الأعلى؟ ^(١) .

(١) النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن ، ص ١٣٠-١٣٦ دار القلم الطبعة الثانية ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م .

الصورة البيانية ————— دراستي في مسائل البيان ————— ❁

فقد تبين أن على نفي تعدد الإله هنا تكمن في الصفات التي يجب أن تتحقق في الإله الحق ، وهذه الصفات لا بد أن تبلغ حد الكمال المطلق حتى يكون الموصوف بها إلهاً ، فيجب أن تكون كل صفة من صفاته سبحانه مستعلية على مثلها ، وإرادته يجب أن يكون لها الكمال المطلق؛ بحيث تستعلي على كل إرادة ، وكذلك بقية الصفات من قدرته وملكه ، وكونه الأول والآخر والظاهر والباطن والملك والقدوس ، والسلام إلى آخر صفات الكمال المطلق وطبيعة هذه الصفات حين تبلغ درجة الكمال المطلق ، يستحيل عليها أن تتعدد فالإرادة التي تعلو على كل إرادة يستحيل أن تتعدد ، وهل يمكن أن يكون في الوجود إرادتان ، كل منهما مستعلية هذا الاستعلاء ، وبالغة الكمال المطلق ؟ هذا مستحيل عقلاً مثل ذلك في بقية الصفات ^(١).

رحم الله أستاذنا الدكتور محمد عبد الله دراز الذي أوسع النص تحليلاً وتشريحاً ، وأظهر دقائقه البيانية ، والعقائدية على وجه رائق شفاف ، تفجرت ينباعه رائقة صافية من بيان الأستاذ الكبير ؛ لذا حرصت على نقل كلامه بالرغم من طوله لما يتدفق به من شتى المعاني الرائعة التي تجدها على نحو فياض في مؤلفه «النبأ العظيم» الذي كان ثمرة ناضجة لرجل عاش بكل وجدانه وكيانه في جو القرآن .

* * *

(١) انظر التصوير البياني ص ٤٠٨ .

أقسام الكناية باعتبار المكنى عنه

والكناية تنقسم باعتبار المعنى المراد بها إلى ثلاثة أقسام ؛ لأن المعنى المراد بها - وهو المكنى عنه إما أن يكون صفة لازمة لصفة أخرى ، هي المذكورة في اللفظ ، فتكون كناية عن صفة ، وإما أن تكون كناية عن موصوف ، وإما أن تكون كناية عن نسبة بالإثبات أو النفي حاصلة بين شيئين .

فالكناية المطلوب بها صفة هي الكناية التي يكون لفظها المكنى به دالاً على صفة بينها وبين صفة أخرى تلازم ارتباط ؛ بحيث إذا أدرك السامع من اللفظ الصفة المكنى بها انتقل ذهنه إلى الصفة الملازمة لها ، وهي المقصودة بالذات والمراد بالصفة المعنى القائم بالغير كطول القامة ، والكرم لا خصوص النعت النحوي^(١).

فالكناية عن صفة يصرح فيها بالموصوف وبالنسبة إليه ، ولا يصرح بالصفة المطلوب نسبتها ، وإثباتها ولكن يذكر مكانها صفة تستلزمها ، فقولك : محمد طويل النجاد ، كناية عن طول قامته ، فقد صرح بالموصوف « محمد » وصرح بالنسبة ، وهي إسناد طول النجاد إليه ، ولم يصرح بالصفة المطلوب نسبتها وهي « طول القامة » ولكن ذكر مكانها صفة أخرى تستلزمها وهي « طول النجاد » ومن هذه الكناية قول امرئ القيس :

وَيُضْحِي فِتْيَتُ الْمَسْكِ فَوْقَ فَرَاشِهَا نَوْمُ الضَّحَى لَمْ تَتَّطِقْ عَنْ تَفَضُّلِ

ووراء الكناية في هذا البيت كثير من المعاني التي تتزاحم وتتكاثر ، ويقول أبو هلال : « أراد أنها مكفية ، ونوم الضحى ، وترك الانتطاق للخدمة يردفان

(١) مواهب الفتاح لابن يعقوب ٢٥١/٣ .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَةٌ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ❁

الكفاية ، فعبر بهما عنها ، وأراد أيضاً أنها من أهل الترفه والنعمة فتستعمل المسك الكثير فينتشر في فراشها ، وهذه الحال تردف الترفه والنعمة ^(١) .

وراء الكناية هنا تتراءى المعاني كثيرة ومتزاحمة لابن أبي الإصبع فيتدفق في غزارة ، ويفيض بالتحليل العميق والشرح المسهب في استشفاف ذوقي لما ينكشف له من أسرارها في ضرب من الأسلوب ، تلمس فيه قوة التعبير وشدة أسرهِ ؛ إذ ينطلق مع النص الشعري ، فلا يرى أن الكناية لا تفيد صفة الترف فقط ، وأن لها من يخدمها ، ويسهر على رعاية شئونها . وإنما يبين أنها مع هذا غَذِيَّةُ النِّعْمَةِ ، دقيقة البشارة ، متفجرة الشباب والحيوية ، وأنها كثيرة الخطوة ، وعظيمة الثروة ، يقول بعد أن ذكر البيت : « فإنه أراد أن يصف هذه المرأة بأنها مخدومة ، لها من يكفيها أمر بيتها ، فعبر عن ذلك بلفظ يدل على أنها موصوفة بالنعمة ، ودقة البشارة ، واقتبال الشباب ، وكثرة الخطوة ، وعظم الثروة فعدل عن لفظ هذا المعنى الذي أراده إلى لفظ هو ردفه حيث قال :

ويضحى فتيت المسك فوق فراشها نـوم الضحى

لأنها لا تنام الضحى إلا وهي مخدومة ، عندها من يكفيها أمر بيتها فهي لا تبشر الأعمال ، ولذلك تكون منعمة مرفهة غير شظفة ، ولا ممتهنة ألا تراه أكد ذلك بقوله : « ولم تنتطق عن تفضل »

أي لم تشد في وسطها نطاقاً على ثوبها الذي تنام فيه كفعل من يريد أن يعمل عملاً من النساء ودل قوله :

ويُضحى فتيت المسك فوق فراشها

على أنها حظية عند الرجال المثرين ، وأنهم في غاية الميل إليها مع القدرة بالثروة على الاستكثار من حرائر النساء ومن الإماء ، إما لإفراط جمالها ،

(١) كتاب الصناعتين ص ٣٨٧ .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ﴾

أو لسعد جدها ، وأنها ممن يسمح لها من أعلى الطيب وأغلاه بما يبقى فتبيته في صبيحة كل ليلة على فراشها ، بعدما يتصعد منه ، ويلصق بجسمها ، ويعلق بشعرها وبشرتها ولا يعطي قوله : «إن هذه المرأة لها من يخدمها جميع ما يعطيه قوله : «نثوم الضحى» فإن هذا اللفظ مع دلالة على أنها مخدومة يدل على كثرة النوم الذي لا يكون إلا من غلبة الدم الطبيعي في سن النمو وطبيعة الدم حارة رطبة ، وهي طبع الحياة ومادتها فيكون اللون به مشرقا ، والماء في الوجه كثيراً ، والأخلاق حسنة لأجل اعتدال المزاج ، ولو ترك لفظ الإرداف وعبر عما قصده باللفظ الخاص ، وهو قوله : «إنها مخدومة» لم تحصل هذه المعاني التي حصلت بلفظ الإرداف^(١).

وذكر مثل هذا في تحليله لحديث أم زرع حيث قالت : «زوجي رفيع العماد ، عظيم الرماد ، قريب البيت من الناد» فإنها أرادت مدح زوجها بتمام الخلق ، والتقدم على قومه ، ونهاية الكرم ولو عبرت عن هذه المعاني بألفاظها لاحتاجت بإزاء كل معنى لفظاً يخصه ، فتكثر الألفاظ ، ولا يدل كل لفظ إلا على معناه فقط وألفاظ الإرداف كل لفظ منها يدل على جميع ما أرادت من صفات المدح على انفراد ؛ لأن قولها «رفيع العماد» يدل على تمام الخلق إذ بناء البيوت على مقادير أجسام الداخلين لها غالباً ، ويدل على عظم قدر صاحبه ؛ إذ لا يقدر على أن يرفع بيته على البيوت إلا من قدره مرتفع على الأقدار ، ويدل على الكرم أيضاً ؛ لأن الوفود والضيوفان يعمدون إلى قصد البيوت المرتفعة دون بيوت الصرم^(٢). وكذلك عظم الرماد يدل على عظم القدر وعظم الكرم ، وكثرة الثروة ومثله قولها : «قريب البيت من الناد» ليسبق إلى الضيف ؛ لأن الضيف يقصد النادي ، وهو موضع مجمع رجال الحي

(١) تحرير التعبير ص ٢٠٩ ، ٢١٠ .

(٢) الصرم : بكسر الصاد الدور المتجمعة المتقطعة من الناس



الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِعِ الْبَيَانِ ————— ❁

للحديث ، فإذا كان البيت قريباً منه صاحبه إلى الضيف أسبق ، ولا تحصل هذه المعاني إلا من لفظ الإرداف» ^(١).

وأنت ترى أن الشرح البلاغي هنا خفيف الظل ، بارد النسيم إذ يقدم للقارئ باقات نضرة من التحليل البياني للصورة الكنائية التي تدل على المعنى دلالة غير مباشرة ، وتعطيه مذاقاً خاصاً ومن التعبير عن الشرف والعزة ما تراه في قول الأحنس بن شهاب التغلبي :

وكلُّ أناسٍ قاربوا قَيْدَ فَحْلِهِمْ ونحن خلعنا قَيْدَهُ فَهُوَ سَارِبٌ ^(٢)

أراد أن يصف قومه بالعزة والغلبة والمنعة ، وأنهم يطلقون الفحل ومن ورائه سوائهم الكثيرة في المرعى ، وكلب الكأ ، ولا يخشون أن يقترب منها أحد لما لهم من عز يحول دون أطماع المغامرين ، ويحمي أموالهم فلا يقترب منها ، يقول أبو هلال : « أراد أن يذكر عز قومه فذكر تسريح الفحل في المرعى والتوسيع له فيه - وذلك أن الأعداء لعزهم لا يقومون عليهم ، فيحتاجون إلى تقييد فحلهم مخافة أن يساق فيتبعه ^(٣) ، السرح» ^(٤).

هذا وتنقسم الكناية عن الصفة إلى ما يأتي :

١ - قريبة : وهي ما كان الانتقال فيها من المعنى المكنى له إلى المعنى المكنى عنه بلا واسطة ، كالانتقال من عض الأصابع إلى الندم ، ومن تقليب الكفين إليه أيضاً ، وكالانتقال من طول النجاد إلى طول القامة ، وكالتكنية عن كبر عجيذة المرأة ، ونهود ثدييها بارتفاع قميصها من أن يمس بطناً أو ظهرًا ، وهي كناية قريبة ، كما في قول الشاعر :

(١) تحرير التعبير ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ .

(٢) يقال : سرب الفحل يَسْرُبُ سُرُوباً إذا توجه للمرعى ، وتقول العرب : سربت الإبل تَسْرُبُ وسرب الفحل سروباً أي مضت في الأرض ظاهرة حيث شاءت .

(٣) السَّرْحُ : المال السائم ، والسَّرْحُ : المال يسام في المرعى من الأنعام .

(٤) كتاب الصناعتين ص ٣٨٦ ، ٣٨٧ .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ —————﴾ دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

أَبَتِ الرُّوَادِفِ وَالثُّدِيِّ لِقُمْصِهَا مَسَّ البَطُونِ وَأَنْ تَمَسَّ ظُهُوراً^(١)

وهذه الكناية القريبة تنقسم إلى :

- ١- واضحة : وهي ما لا تحتاج في إدراكها إلى نظر كالأمثلة المتقدمة
- ٢- خفية : وهي ما تحتاج في إدراكها إلى شيء من التفكير ، أو كان اللزوم فيها مبنياً على عُرْف لم يبلغ حد الشهرة العامة كقولهم كناية عن الأبله : عريض القفا ، فإن تجاوز الحد في عرض القفا من لوازم البله فيما يقال ، وقولهم في الكناية عن الغباوة ضخم الرأس ، فإن تجاوز الحد في ضخامتها ملازم للغباوة ، على حد قولهم انظر إلى قول طرفه بن العبد يمدح نفسه بصغر رأسه ، وذلك في قوله :

أَنَا الرَّجُلُ الضَّرْبُ الَّذِي تَعْرِفُونَهُ خَشَّاشُ كُرَاسِ الْحَيَةِ الْمُتَوَقَّدِ^(٢)

يمدح نفسه بأنه خفيف اللحم مما يجعله نشيطاً سريع الحركة ، غير كسول ولا متراخ ، مما يدفعه ذلك إلى الإسراع في وقت الملهمات ، وكشف المهمات في خفة وسرعة وشبه تيقظه ، وذكاء ذهنه بسرعة حركة رأس الحية وشدة توقدها .

- ٢- الكناية البعيدة ما ينتقل الذهن فيها من المعنى الأصلي ، وهو المكنى به إلى المقصود ، وهو المعنى المكنى عنه ، كما في قولنا «زيد كثير الرماد» كناية عن أنه جواد كريم ، فالمطلوب بهذه الكناية صفة ، وهي «الجود» وبين كثرة الرماد وصفة الجود وسائط عدة لا بد من مراعاتها للوصول إلى

(١) الروادف : جمع ردف بكسر فسكون وهي عجيزة المرأة ، والثدي : بضم الثاء مع التشديد وكسر الدال ، وتشديد الياء ، جمع ثدي بفتح فسكون والقمص بضم القاف والميم وسُكِّنَ للضرورة جمع قميص وقد جمعت هذه الأشياء للمبالغة .

(٢) الضرب : الخفيف اللحم - والخشاش : الصغير الرأس وهو كناية عن ذكائه ، والمتوقد : سريع الحركة .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دُرُوسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلَالِيَّانِ ————— ❁

هذه الصفة ، فينتقل الذهن أولاً من كثرة الرماد إلى كثرة الإحراق ، ومن كثرة الطهي ، ثم إلى كثرة الأكلة ، ومنها إلى كثرة الضيفان ، ومنها إلى الكرم ، ومثله قول الشاعر :

ومايك في من عيب فاني جبان الكلب مهزول الفصيل^(١)

فقد كنى عن جوده ، وكثرة قراه الأضياف بجبن الكلب ، وهزال الفصيل ، فقد انتقل من جبن الكلب إلى الكرم بوسائط ، إذ ينتقل من جبن الكلب إلى تأديبه ، ومنه إلى استمرار ما يوجب نباحه ، وهو اتصال مشاهدته وجوهاً إثر وجوه ، ثم ينتقل من هذا إلى كون صاحبه مقصداً للداني والقاصي ، ومن هذا إلى أنه يقري الأضياف ، ومن قرى الأضياف إلى الجود والكرم ، وهو ينتقل في الكناية من هزال الفصيل إلى الكرم بعدة وسائط أيضاً لدلالة هزال الفصيل على فَقْدِ أُمِّه مع حاجته إليها ، وفقد أُمِّه في مقام المدح دليل على شدة الدافع إلى نحرها ، وإعدادها للضيوف وهذا دليل الكرم ومن هذا النوع قول نصيب :

لعبد العزيز على قومِهِ وغيرهمُ مِنَّنٍ ظَاهِرُهُ^(٢)

فبابك أسهلُ أبوابِهِم ودارك مأهولة عامرُهُ^(٣)

وكلب آنسُ بالزائرين من الأم بالابنة الزائرة

« فإنه ينتقل من وصف كلبه بما ذكر إلى أن الزائرين معارف عنده ، ومن ذلك إلى اتصال مشاهدته إياهم ليلاً ونهاراً ، ومنه إلى لزومهم سُدَّتِهِ ، ومنه إلى تسني مباهجهم لديه من غير انقطاع ، ومنه إلى وفور إحسانه إلى الخاص والعام وهو المقصود »^(٤).

(١) الفصيل : ولد الناقة .

(٢) مِنَّنٍ : جمع منة وهي النعمة الظاهرة .

(٣) المأهولة : الدار التي فيها أهلها .

(٤) بغية الإيضاح ١٧٨/٣ .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ —————﴾ دَرَسَتْ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

ونظيره مع زيادة لطف قول الآخر :

يكادُ إذا ما أبصر الضيف مقبلاً يكلمه من حبه وهو أعجم

فإذا وصف الكلب في السابق بالأنس بالزائرين لمعرفته إياهم لكثرة ترددهم على دار صاحبه فإن هذا البيت يدل على هذا المعنى مع المبالغة في هذا الأنس ، حتى جعله حباً غامراً يكاد يخرج بالكلب عن طبيعته ، فينطقه بالترحيب بالضيف وتحيته للضيف ، وإن كان أعجم لا يحسن الكلام ، ومن هذا اللون من الكناية قول ابن هرمة :

لا أمتع العُودَ بالفِصال ولا أبتاع إلا قريّة الأجل^(١)

يبين في الشطر الأول أنه يذبح الفصال ، ولا يتركها لأمهاتها تفرح بها وتسرع وتتمتع ، وعلى هذا يكون قد انتقل من عدم إمتاع النوق بأولادها إلى ذبح الأولاد للضيوف ، ومن ذبحها للضيوف إلى الكرم ، ويمكن أن تنتقل من ذبح الأولاد إلى اتخاذ لحمها للطهي ، ومن هذا إلى كثرة الأكلة ، ومنها إلى كثرة الضيوف ، ومن كثرة الضيوف إلى الكرم ، وفي قوله في الشطر الثاني :

ولا أبتاع إلا قريّة الأجل

ينتقل من ابتاعه قريبة الأجل إلى عدم إبقائها حية ونحرها ، ومن نحرها وطهيها وتقديمها للضيفان ، ومن هذا إلى أنه مضيف كريم ، ومن لطيف هذا القسم على حدّ ما قال الخطيب قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا ﴾ (الأعراف: ١٤٩).

والسقوط يكون حسياً أو معنوياً ، وسقط في يده زلّ وأخطأ ، أو وَقَعَ في الحيرة والندم ، والنص الحكيم جاء في شأن قوم موسى الذين أغراهم « السامري » بعبادة العجل الذي صنعه لهم من حلي النساء ، ولما تبين لهم بعد

(١) أمتع بالشيء : دام له وسرّ به ، والعود : جمع عائد وهي الناقة الحديشة النتاج ، والفصائل جمع فصيل وهو ولد الناقة .

الصورة البيانية ————— دراستي مسائل على البيان ————— ❁

ذلك فداحة الجرم الذي اقترفوه ، وخطأهم الذي ارتكبوه حين عبدوا العجل توافقاً مع طبيعتهم التي ما تكاد تستقيم خطوة حتى تلتوي وتبعد عن الطريق ندموا على ما فعلوا ، وجهروا بقولهم : ﴿ لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (الأعراف: ١٤٩).

هذه الكناية التي عضوا فيها أصابعهم من الندم تتمثل في جعل الرؤوس هي التي سقطت على الأصابع لتعضها ولم تجعل الأصابع هي التي ارتفعت إلى الأنفواء للدلالة على أن شدة الإحساس بالندم كان من القوة بحيث خارت له قواهم ، فمالت الرؤوس إلى أسفل في ندم شديد وحزن عميق .
ومن هذا اللون من الكناية قول المتنبي في مدح سيف الدولة بعد جفوة كانت بينهما :

تشتكي ما اشتكى من طرب الشوق ق إليها والشوق حيث النحول

وهذا البيت من الشواهد الذائعة التي تردد في كتب البلاغيين واستشهدوا به للكناية عن صفة إذ هو يدل على كذب المرأة التي يتحدث عنها الشاعر ، فليس بها من الشوق مثل ما به ، وأمانة ذلك أن النحول يلازم الشكوى من الشوق ويصاحبه ، وهو محقق لذي الشاعر ، إذ هو نحيل وهي على خلاف ذلك فادعائها الشكوى من الشوق كذب وافتراء ، فهي ليست صادقة في شكواها مما يشتكي منه . يقول صاحب المشكل في شعر المتنبي وقد روى البيت بطريق آخر :

تشتكي ما اشتكى من ألم الشوق ق إليها والشوق حيث النحول

«أي أنها تشكو إليّ ملقاً ، وأشكو إليها حرقاً ، ثم أقام على تملقها وتخلقها برهانا عياناً ؛ فقال : «والشوق حيث النحول» أي النحول عندي وهو نتيجة الشوق ، فلو كان بها شوق كما بي ، لكان بها من النحول ما بي ، ولا نحول لديها فلا شوق بها»^(١).

(١) شرح المشكل ، بتحقيق الأستاذ مصطفى السقا ، والدكتور حامد عبد المجيد ، ص ٢٥٦.

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

وقد عرض هذا البيت مع مجموعة من الأبيات الأستاذ الدكتور محمد زكي العشماوي في حديثه عن الفرق بين الخيال والتوهم^(١) ومن هذه الأبيات :

ما لنا كُلُّنا جَوًّا يا رسول ؟ أنا أهْوَى وَقَلْبُكَ المَبْتُولُ
كَلِّمَ عَادَ مَنْ بَعَثَتْ إِلَيْهَا غَارَ مَنْنِي وَخَانَ فِيمَا يَقُولُ
أَفْسَدَتْ بَيْنَنَا الْأَمَانَاتِ عَيْنَا هَا وَخَانَتْ قُلُوبُهُنَّ الْعُقُولُ
تَشْكِي مَا اشْتَكَيْتُ مِنْ طَرْبِ الشُّو ق إِلَيْهَا وَالشُّوقِ حَيْثُ النُّحُولُ

وأمضي الآن مع هذه الأبيات وهي التي مدح فيها المتنبي سيف الدولة على أثر تلقيه هدية منه ، بعث بها إليه ، وقد بدأها بالغزل ، وفي تحديد المراد « بالتاء » في قول الشاعر « تشككي » من قوله :

تَشْكِي مَا اشْتَكَيْتُ مِنْ طَرْبِ الشُّو ق إِلَيْهَا

هل التاء تاء المؤنثة المخاطبة أم تاء المذكر ؟

عدَّ الأستاذ الدكتور محمد زكي العشماوي « التاء » للمخاطب المذكر وعلى هذا الأساس يكون الرسول الذي حمل أمانة من الشاعر لِيُوصِّلَهَا إِلَى الْمَرْأَةِ هو الذي يشككي ، وهذا ما أنكره أستاذنا الأستاذ الدكتور محمد أبو موسى وهذا ما نسلم به ونؤيده ، وقد جاء البيت شاهداً للكناية عن صفة هي كذب المرأة ، وقد نطقت بهذا كتب البلاغة بلا استثناء ، لكن ما يحتاج إلى نظر هو قول أستاذنا الدكتور « إن فهم الكناية على هذا النحو الذي ذهب الأستاذ الدكتور العشماوي إليه يأتي على كل ما في الأبيات من معنى جليل » وقد عرض أستاذنا الأستاذ الدكتور محمد أبو موسى هذه الأبيات « وبيّن أنها تجري في أوصالها حكمة دفيئة ، وخبرة عميقة بأحوال الناس ، ومتصرفات القلوب ،

(١) قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث ، ص ٧٨-٨١ الهيئة العامة للكتاب إسكندرية

الصورة البيانية ————— دراستي مسائل علي البيان ————— ❁

وتنطوي في بعدها الثاني على موقف نفسي جعلها أقرب إلى الإشارة والرمز منها إلى الإفصاح» وهذا شيء مُسلمٌ به ومقبول ، ذلك أن حياة المتنبي التي تناوبت عليها الخطوب ، وتناوحت عليها العواصف ، واختلفت عليها العوامل جعلته ينتزع الحكمة من بحار الخبرة والتجربة وقراءة النص .

في ضوء هذا نفهم منه هذا ويتسع لفهم غيره ، فللشعر أصوات على أن أستاذنا ينفي أن يكون المغزى قصة المرأة المغوية ويلتمس دليله بما ورد في الأبيات نفسها ، فليس صَبًّا على حدِّ قوله من يقول لصاحبته الحسناء « فحسن الوجوه حال تحول » وكذلك من يقول : « فإن المقام فيها قليل » وليست هذه روحاً مَشُوقَةً تعانق الحياة في نشوة الحب ، وإنما هي روح تعاني رؤية الوجود من زاوية العدم ، ليس المغزى إذن من هذه الأبيات هو حب هذه الفتاة المغوية ، وإنما وراءها مرام بعيدة ، منها الإشارة إلى هذه العزائم الواهية التي تتساقط في هوة الأنانية التي عاش المتنبي يصْطَلِي بناها من الحاقدين ، وهذه الأنانية أفسدت أقدس ما في الحياة ، أفسدت الأمانات ، وبثت الخيانة حتى العقول خانت قلوبهن ، فأى قيمة بقيت في حياة الناس»^(١).

هكذا يقول أستاذنا الأستاذ الدكتور محمد محمد أبو موسى وأحب أن أقول إن الحديث عن المرأة مرتبط بتفسير النص ، وحتى يكون التفسير مقبولاً لا بد أن نربطه بظرفه الذي أنشئ فيه ، وأن نضع في اعتبارنا أن المتنبي قال شعراً في المرأة ، ولكنه لم يخضع لسلطان الحب بحسب تكوينه ورؤيته للحياة ، لقد صاغ شعراً في الغزل ، ولكنه الغزل الصنّاعي ليرضي الفن وبيته الجهير الذائع الذي يقول فيه :

إذا كان مدحٌ فالنسيب المقدم أكلُ فصيحٍ قال شعراً متيم

(١) التصوير البياني ص ٣٩٠ .

❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

تفهم من مضمونه أن المتنبي (غير متيّم) وإن افتنّ في النسيب ، وهو قرينة على عدم حبه على أن الأبيات التي نتحدث عنها هي من قصيدة قيلت في مدح سيف الدولة بعد جفوة بينه وبين المتنبي كان مبعث الجفاء فيها أطماع الأخير التي حجبت صفو كل علاقة طيبة بينهما ، فلما تركه وذهب إلى كافور يتلمّس عنده حياة مشرقة مضيئة بعد أن خبا في وجدانه شعور العروبة ، وتنكر للعواطف الضامّة إلى المودة والإخاء ، ولم يتعطف للذكريات القديمة ، وأوغل في تجاهلها ثم غرق في حياته الجديدة بعيداً عن الشام رجاء أن ينال إمارة أو يحقق ولاية فلما حيل بينه وبين ما يريد ، وبدأ ينطفئ في صدره نور الأمل ، وتظلم في وجهه الدنيا وضيق عليه ، وسجن إلى أن تمكن من الهروب من مصر فهرب وهو يشعر أن الأرض تزلزل من تحت قدميه ، وتراءت لناظريه حياته وهو يخرج من رعب ليدخل في رعب ، ويهرب من هول ليدخل في هول أشد منه ويتنقل من مكان إلى مكان فلما جاءت هدية من سيف الدولة وهو بالكوفة سنة ٣٥١هـ بعد قطيعة طويلة استطار من الفرح ، وأنشأ هذه القصيدة في مدح الأمير الحمداني ، وصدرها بمقدمة غزلية ، وصاغ من تجاربه في الحياة معاني يرمز بها إلى ما تردى فيه المجتمع من مثالب ، وهو يقلّب صفحات التاريخ الذي عاش أيامه صفحة بعد صفحة ، فلا يرى في سجلّاته إلا الأحوال التي تفجرت في وجهه ، والمؤامرات التي حاكها خصومه له ، والمكائد التي توثبت عليه في جهالة ، وحقد ، وعصبية . هذه الأحوال التي أجهده وأثقلت سيره ، وأوهت عاتقه أعادته إلى نفسه يفكر معها ، واهتدى في النهاية إلى أن ما يجب أن يسير في ضوئه فيما بقي له من أيام ، وإذا كنت وأنت تمضي مع أبيات المتنبي يأخذك منها ما تقطر به من رقة وما تفيض به من سلاسة ، وما تتدفق من لهفة واشتياق فلا تنس أن البين نال منه ، وأن الغربة أثّرت ، وأن هذه القصيدة قطعة من نفس الشاعر صبّ فيها وجدّه لصديقه القديم الذي يمثل العروبة التي يعشقها ، فإذا رأيته قد اتخذ من الغزل

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دُرِّسَتْ فِي مَسَائِدِ الْبَيَّانِ ————— ❁

وسيلة يتوسل بها إلى مدح الأمير فما الغرابة في ذلك ؟ أليست المرأة سر الحياة العجيب ؟ فهي زوج تحمل ، وأم ترضع ، وهي أخت وبنت تحفظ ميزان المجتمع ، وترقق طبعه ، ويقوم عليها بناؤه ، وحفظ نوعه. إن الشاعر العربي يُصَدِّرها في قصائده يستلهم منها وحيه ، ويستمد منها قوته في المديح والفخر وها هو عنترة يستثير بها الحمية ساعة الحرب والقتال ، فتراه يهتف ، ويقول :

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ وَالرِّمَاحَ نَوَاهِلُ مَنَّى وَبَيْضُ الْهِنْدِ تَقَطَّرُ مِنْ دَمِي
فَوَدِدْتُ تَقْيِيلَ السَّيُوفِ لِأَنَّهُمَا لَمَعَتَا كِبَارِقَ ثُعْرِكَ الْمَتَبَسِّمِ

فإذا انتقلت إلى قول المتنبي في أبياته التي جاءت بعد الأبيات السابقة حين قال :

وَإِذَا خَامَرَ الْهَوَى قَلْبَ صَبٍّ فَعَلَيْهِ لِكُلِّ عَيْنٍ دَلِيلُ

إذ يريد أن يقول : إذا خالط قلبَ محب هوى من يحبه فملكه ، واستبد به ، واستولى عليه وغلبه ففيما يظهر من تغير حاله دليل لكل عين على ما يضمّره ، ومُضْمِر عما يخفيه ويستتره ، وفي قوله بعد هذا البيت :

زَوَّدِنَا مِنْ حُسْنِ وَجْهِكَ مَا دَا م فَحُسِّنَ الْوَجْهَ حَالُ تَحْوُلُ
وَصَلَيْنَا نَصْلَكَ فِي هَذِهِ الدُّنَى ————— يَا فَإِنْ الْمَقَامُ فِيهَا قَلِيلُ

إنه يطلب منها في البيت الأول ألا تبخل عليه ، وأن تُطلَّ عليه بوجهها المشرق الصبوح ، حتى يتزوّد منه بما يعينه على السير في بعض مراحل الطريق؛ لأن حُسْنَ الوجوه عرض لا يبقى مع مرور الزمن ، ولا يستمر ، ولذا يُعَلَّلُ بأن حُسْنَ الوجوه حال تحول أي تذهب وتغنى ، وقد ترى في هذا جَلَّافَةً ، وعدم لياقة أن يواجه المحبوبة بمثل هذا الكلام ، لكن من قال : إن المتنبي قد نفذ إلى طوايا قلبه سحر المرأة ؟ أو أن لها سُلْطَانًا عليه ؟ فما تردد على لسانه من غزل ، فإنما هو غزل تصنّعه ؛ لأن قلبه لم تلتهب فيه عواطف الغرام ، فنزوعه

❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

إلى المجد كان شغله الشاغل ، وحياته المفزعة أبعدته عن الحب فتصنعه ولعله وهو يتصنع الغزل هنا في مقدمة مديحه للأمير أنه حين قال : « فحسّن الوجوه حال تحول » أنه أخذ العبرة من مرور الزمن والأيام تلك العبرة التي أرجعته إلى الحقيقة التي لا تتخلف . وهي أنه لا شيء يبقى على حال ، أو يستمر عليه ؛ ولذا فإن عليه أن يعيد حسابه ، وأن ينظر في حياته وأن يعيشها بروح جديدة بلا خطايا ولا أخطاء ، وإذا كان قد طلب منها الوصل في البيت الثاني لكي يدوم الوصل منه إليها فما ذلك إلا لأن الحياة أيامها معدودة ، والبقاء فيها قليل ؛ ولذا فإنه لابد للعاقل من أن يأخذ خطوة مختلفة في حياته الجديدة على خلاف ما قد كان حتى يجنب نفسه عثرات الحياة ، ولذا أكد رؤيته الجديدة بعد الأبيات السابقة بقوله :

مَنْ رَأَاهَا بَعَيْنَهَا شَاقَهُ الْقَطَا نُ كَمَا تَشْوِقُ الْحُمُولُ

إن من يصوب النظر ويصعده في الدنيا بالعين التي يجب أن يُنظر بها إليها أو من عرف الدنيا حق معرفتها تيقن أن أهلها راحلون ، وأنه لا بقاء لأحد ، فالكل إلى فناء ؛ ولذا فإن القاطن يشوقه كما أن الظاعن يشوقه ، فالتشبيه يفيد التسوية ، والمراد بالحمول الراحلون ^(١) .

الكناية عن الموصوف :

والكناية عن الموصوف هي الكناية التي يكون لفظها المكنى به والأعلى صفة لها اختصاص ظاهر بموصوف معين ، ويكون المقصود من ذكرها الدلالة بها عليه ، كقولهم في الكناية عن الخمر : أم المصائب ؛ لشهرة الخمر عند العقلاء بجلب المصائب ، وتكنيتهم عن المرأة : بالبيضة في قول امرئ القيس :
وَبَيْضَةُ خَدْرٍ لَا يُرَادُ خَبَاؤُهَا تَمَتَّعْتُ مِنْ لَهْوٍ بِهَا غَيْرِ مُعْجَلٍ

(١) انظر التصوير البياني في شعر المتنبي ، ص ٥٥-١٦١ .

الصورة البيانية ————— دراستي في مسائل عليّ البَيَّان ————— ❁

وتكنيتهم عن المرأة بالشاة كما في قول عنترة :

يا شاة ما قنص لمن حلت له حُرُمْتُ عليّ وليتها لم تحرم
فقوله : يا شاة كناية عن المرأة ، والعرب تكني أيضاً عن المرأة بالنعجة ،
وأراد يا شاة قنص أي صيد - ولمن حلت له لمن قدر عليها ، وحرمت عليّ أي
هي من قوم أعداء . وليتها لم تحرم ، أي ليتها لم تكن حتى لا تكون لها
حرمة .

كما كنى العرب بالشجر عن الناس في قول المسيّب بن علس :

دَعَا شَجَرَ الْأَرْضِ دَاعِيَهُمْ لِيَنْصُرَهُ السَّيْدُ وَالْأَنْثَابُ
يقول ابن رشيّق : فكنى بالشجر عن الناس ، وهم يقولون في الكلام
المنثور : جاء فلان بالشوك والشجر ، إذا جاء بجيش عظيم ^(١).

كما كنوا بالنخلة عن المرأة قال ابن أبي الإصبع : ومن مليح الكناية قول
بعض العرب :

أَلَا يَا نَخْلَةً مِنْ ذَاتِ عَرَقٍ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ السَّلَامُ
سَأَلْتُ النَّاسَ عَنْكَ فَخَبَّرُونِي هُنَا ^(٢) مِنْ ذَاكَ يَكْرَهُهُ الْكَرَامُ
وَلَيْسَ بِمَا أَحَلَّ اللَّهُ بِأَسْ إِذَا هُوَ لَمْ يُخَالَطْهُ الْحَرَامُ
فأما الهناء فمن عادة العرب الكناية بها عن مثل ذلك ، وأما الكناية بالنخلة
عن المرأة فمن طريف الكناية وغريبها ^(٣).

هذا وقد يكنى عن المرأة « بالسّرحة » واحدة السّرح ، شجر طويل يستظل
بظلها وهم يقولون لامرأة الرجل « سرحته » وهي كناية حين ينظر إلى أن

(١) العملة ص ٣١١ .

(٢) هنا الأصل هُنا خففت للشعر .

(٣) تحرير التحرير ص ١٤٥ ، ١٤٦ .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ﴾

دلالة السرحة على المرأة دلالة عرفية ، وقد اشتهر عندهم هذا على أساس أنه رُوعي في السرحة الظل والفِيء ، والراحة في هذا الظل ، وكان عمر رضي الله عنه أو غيره من الخلفاء قد حُظر على الشعراء ذكر النساء ، فقال حميد بن ثور الهلالي :

تَجَرَّمْ أَهْلُهَا لِأَن كُنْتُ مُشْعِرًا جُنُونًا بِهَا يَا طُولَ هَذَا التَّجَرَّمِ
وَمَا لِي مِنْ ذَنْبٍ إِلَيْهِمْ عَلِمْتُهُ سَوَى أَنِّي قُلْتُ يَا سَرْحَةُ اسْلَمِي
بَلَى فَاسْلَمِي ثُمَّ اسْلَمِي ثُمَّتَ اسْلَمِي ثَلَاثَ تَحِيَّاتٍ وَإِنْ لَمْ تَكَلِّمْ^(١)

ولأن حميدا لجأ إلى التعبير « بالسرحة » لما لم يجد سبيلاً إلى التصريح بالاسم كان عدّها من الكناية أولى ؛ إذ كانت علاقة المشابهة بين المرأة والسرحة قوية فتستعار السرحة للمرأة والسياق هنا يرجح أنها كناية عن المرأة ؛ لأن الشاعر لم يجد سبيلاً للتصريح فكنى عنها وقد يُتجنب ذكر المرأة في مواطن تكره النفس ذكرها فيها ، فقد ذكر أن رجلاً كتب إلى عمر ابن الخطاب - رضي الله عنه - من مَغَزَى كان فيه :

أَلَا أَبْلُغُ أَبَا حَفْصٍ رَسُولًا فَدَى لَكَ مِنْ أَحْيَى ثَقَّةٍ إِزَارِي^(٢)
قَلَائِصَنَا هَذَاكَ اللَّهُ إِنَّا شُغِلْنَا عَنْكُمْ زَمَنَ الْحِصَارِ^(٣)
فَمَا قُلُوصٌ وَجِدُنْ مَعْقَلَاتٍ قَقَا سَلْعٍ بِمُخْتَلَفِ النَّجَارِ^(٤)

(١) العمدة ، ٣١٢/١ .

(٢) أبو حفص كنية عمر بن الخطاب ، والإزار هنا كناية عن النفس والأهل .

(٣) كنى بالقلائص عن النساء ، ونصبها على الإغراء ، وهي في الأصل جمع قلووص ، وهي الناقة الشابة .

(٤) المَعْقَلَةُ : المشدودة بالعقال ، والتشديد فيه للتكثير ، وقُلُوصٌ معقلات : يعني نساء معقلات لأزواجهن كما تعقل النوق عند الضراب .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ

يُعَقِّلُهُنَّ جَعْدٌ شَيْطَمِيٌّ وَبِئْسَ مُعَقِّلُ الذُّودِ الظُّوَارِ (١)

قال ابن قتيبة وإنما كنى بالقلائص ، وهي النوق الشواب عن النساء ، وعرض برجل يقال له : جعدة كان يخالف إلى المغيبات من النساء ، ففهم عمر - رضي الله عنه - وجاء بجعدة ونفاه بعد أن جلده ، وهذه الأبيات نقلها ابن رشيقي ، وتعليق ابن قتيبة عليها ، وقال محقق الكتاب الأستاذ سيد صقر : إن هذا الرجل هو : أبو المنهال بقبيلة الأكبر الأشجعي ، وسبب كتابته بهذا الشعر إلى عمر أنه بلغه وهو في غزاة له أن جعدة بن عبد الله السلمي والي مدينتهم كان يُخْرِجُ النساء إلى سلع عند خروج أزواجهن إلى الغزو ، فيعقلهن ويأمرهن بالمشي وهو يقول لا يمشي في العقال إلا الحصان ، فربما وقعت فتكشَفَ ، فيتهج بذلك جعدة ؛ لأنه كان غرلاً صاحب نساء (٢) .

* * *

(١) الشَيْطَمِيٌّ : الطويل الجسم الفتى ، والياء زائدة ، وقيل الشَيْطَم : الطَّلُقُ الهشّ الوجه الذي لا انقباض له ، والذود : القطيع من الإبل ، والظُّوَارُ كَفُعَالٍ - بالضم جمع ظئر ، وهو من الجموع العزيزة ، والظئر : العاطفة على غير ولدها المرضعة له من الناس والإبل أراد أنه يتعرض لهن ، فكنى بالعقل عن الجماع أي أن أزواجهن يعقلونهن .

(٢) تأويل مشكل القرآن ، ص ٢٠٥ ، والعمدة لابن رشيقي ، ١/ ٣١١ ، ٣١٢ .

تقسيم الكناية عن الموصوف باعتبار ما يكنى به

والكناية عن الموصوف تنقسم باعتبار لفظها المكنى به إلى قسمين :
الأول : أن يكون لفظها المكنى به دالاً على معنى واحد ، وذلك كالأمثلة التي سبقت ، وقد ذكر الخطيب من هذا النوع قول البحثري في طعنة أصاب بها الذئب فقتله :

فَاتَّبَعْتُهَا أُخْرَى وَأَضَلَّتْ نَصْلَهَا بَحِثْ يَكُونُ اللَّبُّ وَالرَّعْبُ وَالْحَقْدُ^(١)

فمكان اللب معنى واحد ، وكذلك الرعب والحقد ، ففي البيت ثلاث كنايات وليست كناية واحدة ، والمكنى عنه واحد فيها وهو القلب .

ويقول ابن سنان تعليقاً على هذا البيت : «لأنه أراد القلب فلم يعبر عنه باسمه الموضوع له ، وعدل إلى الكناية عنه بما يكون اللب ، والرعب والحقد فيه وكان ذلك أحسن ؛ لأنه إذا ذكره بهذه الكنايات كان قد دل على شرفه وتمييزه عن جميع الجسد بكون هذه الأشياء فيه ، وأنه أصاب هذا المرمى في أشرف موضع منه ، ولو قال أصبته في قلبه لم يكن في ذلك دلالة على أن القلب أشرف أعضاء الجسد ، فعلى هذا السبيل يحسن الإرداف»^(٢).

ومن الكناية عن الموصوف ما ذكر في قول عمرو بن معد يكرب :
الضَّارِبِينَ بِكُلِّ أَتَيْضٍ مِخْذَمٍ وَالطَّاعِنِينَ مَجَامِعِ الْأَضْغَانِ^(٣)
فالكناية «بمجامع الأضغان» عن القلب .

(١) أَضَلَّتْ - بمعنى غَيَّبَتْ ، والنصل - حديدة الرمح والسهم .

(٢) سر الفصاحة لابن سنان ص ٢٣٢ .

(٣) والمِخْذَمُ : القاطع من السيوف ، والأضغان جمع ضغن وهو الحقد ومجامع الأضغان القلوب .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دُرُوسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلَالِيَّاتِ ————— ❁

ومن الكناية عن الموصوف قول أمير الشعراء أحمد شوقي عن اللغة العربية :

إن الذي مَلَأَ اللُّغَاتِ مَحَاسِنًا جعل الجمال وسرّه في الضّادِ

ومما هو زائع في الكناية عن الموصوف قول أبي نواس في الخمر :

فلما شَرِبْنَاها ودبَّ دِيْبُهَا إلى موطن الأسرارِ قلتُ لها قَفِي

فالكناية في قوله : « موطن الأسرار » فالشاعر يريد أن يبين تأثير الخمر فيقول : فلما شربنا الخمر ودبَّ ربيها أي سرى مفعولها إلى القلب أو العقل قلت لها : قفي » فالشاعر لم يعبر تعبيراً مباشراً بالقلب أو العقل ، ولكنه انصرف عن هذا فلم يعبر صريحا وعبر بما هو أوقع في النفس ، وأملح لديها فقال : « موطن الأسرار ذلك أن القلب أو العقل يفهم منه أنه موطن السرِّ ومكانه فالكناية « بموطن الأسرار » عن القلب أو العقل كناية عن موصوف .

وإن حلفت لا ينقص النأي عهدا فليس لمخضوب البنان يمين .

فقد شاع في اللغة العربية وصف المرأة بأنها مخضوبة الكف أو البنان ثم صار ذلك كناية عنها من قبيل الكناية عن موصوف ، ومن الكناية عن الموصوف ما تراه في قوله تعالى :

﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَرٍ ۖ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۖ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَحٍ وَدُسِّرَ ۖ ﴾ (القمر: ١١-١٣).

فقوله سبحانه : ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَحٍ وَدُسِّرَ ۖ ﴾ (القمر: ١٣) أي سفينة نوح ﷺ التي حملت الذين آمنوا من قومه ، ومضت تجري بهم في موج كالجبال بعيدا عن الأهوال التي تحيط بهم بعد أن انهمر ماء السماء وتفجرت الأرض عيوناً والتقى ماء السماء بماء الأرض على أمر قد قدره الله وقضاه ، وقوله ﴿ عَلَى ذَاتِ أَلْوَحٍ ۖ ﴾ (القمر: ١٣) أي أخشاب عريضة ﴿ وَدُسِّرَ ۖ ﴾ (القمر: ١٣) أي مسامير جمع دسار من الدسر وهو الدفع ، والمراد « السفينة »

❁ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

توصف ولا تُذكر لفخامتها ، والظاهر من العبارة تفخيم شأنها ، وتعظيم أمرها ؛ إذ هي تجري بالجماعة المؤمنة وسط هذا الهول بعين من الله ، ورعاية منه سبحانه هي تأتي في سياق يطل منه الهول والرعب ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَرٍ ۖ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ (القمر: ١١، ١٢) والفعل مسند إلى الله مباشرة ، فالله سبحانه يتحدث عن نفسه بضمير الجمع المعظم لها ، ومن ثمَّ يحسُّ من يقرأ هذا أو يسمعه أن يد الجبار تعمل ففتح أبواب السماء بماء مصبوب منهمر غزير ومتتابع ﴿ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ (القمر: ١٢) وكأن الأرض كلها صارت عيوناً متفجرة بالماء في رسم مصوِّرٍ وحقيقي لمشهد التَّفَجَّر الذي يتحقق على مستوى الأرض كلها .

ووسط هذا الهول والرعب تأتي الكناية عن السفينة بيانا لأهميتها ، ومكانتها ، وشدة الحاجة إليها . فهي سفينة عظيمة قد صنعها سيدنا نوح - عليه الصلاة والسلام - استجابة لأمر الله من ألواح نوعها عظيم وغريب وهو ما يستفاد من التذكير ، فالتذكير يفيد أنها ألواح من نوع خاص ، وكذلك الدسر ، وأنها صُنِعَتْ بيد نبي الله نوح ﷺ تحت عناية الله ورعايته الذي أوحى إلى نبيه ﴿ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا ﴾ (المؤمنون: ٢٧) .

فهي سفينة قد صنعت في هذا الجو ، وقد كَلَّأَهَا الله بحفظه وعنايته حتى تُحَقِّقَ الأَمْنُ والسَّلامَةُ للجماعة المؤمنة التي تحملها في جوٍّ من الأمان بعيداً عن المخاوف وسط هذه الأهوال والمخاطر ، ويمكن أن تكون الكناية عن السفينة بذات ألواح ودسر ليس بيانا لأهميتها ومكانتها ، ومتانة بنائها وتركيبها ، وإنما هو تهوين من شأنها ، وقوة بنائها ، ومتانة تركيبها ، وأنها بذاتها لا تحفظ أحداً وإنما الذي يحفظ هي عناية الله ورعايته ، وإن كانت السفينة وسيلة للنجاة من الطوفان ، وكأنهم وسط هذا الموج الهادر الذي لا يُعْصَمُ منه أحد ، والذي يتلع الحياة والأحياء في غضب مزمجر ، ويبعث بالمخاطر والأهوال في الأجواء كلها ، وهم على ألواح مشدودة بمسامير لا تغني عنهم من الله شيئاً ولا تمنعهم

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي تَالِبٍ

من خطر الموج الغاضب الذي ارتفع وعلا حتى صار كالجبال وهم على ظهر هذه الألواح الهَيَّنة وقد نجوا وهم لم ينجوا لأنهم كانوا عليها وأنها كانت آمنة ، وإنما نجوا إكراما من الله لنوح عليه السلام ولمن آمن معه وهذا الفهم وإن كان مخالفا للأول إلا أنه لا حرج على فضل الله الذي ينصر بالسبب الواهي الضعيف ، فهو الذي يحفظ عباده الصالحين بحفظه ويكلوهم بعين عنايته ورعايته ولعلنا نستأنس في هذا بقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾ (هود: ٤١).

وهذا تعبير يصور أن السفينة في حال جريانها في رعاية الله وحماه ، وأنها محفوظة بحفظه لها وسط مشهد حافل وهائل ومرهوب ؛ إذ تشق طريقها وتجري بمن تحملهم من الجماعة المؤمنة وسط موج كالجبال حتى رست واستقرت على جبل الجودي في أمان ونجاة وسلامة .

ومن الكناية عن الموصوف ما تراها في قوله تعالى : ﴿ أَوْ مَنْ يُنشِئُ فِي الْحَلِيِّ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ (الزخرف: ١٨).

والحلية : الزينة وما يتحلّى به من حُلِي وثياب ، وهذا من شأن النساء ، فالتعبير القرآني كناية عن المرأة وهو يرد في سياق يكشف في إبانة عن تردّي أوضاعها في الجاهلية وعن الهوان الذي كان يصاحبها ، وتتمرغ في أحواله وقبل هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ (النحل: ٥٨) ذلك أن انحرافهم عن العقيدة الصحيحة جرّهم إلى هذا البلاء وسوّ لهم وأد البنات ، أو الإبقاء عليهن في الذل والهوان ، والنظرة الوضيعة والحقيرة ذلك أنهم كانوا يخشون الفقر والعار مع ولادة البنات ؛ لأنهن لا يقَاتِلْنَ ولا يَكْسِبْنَ وقد يقعن في السبّي عند الغارات فيَجْلِبْنَ الذل والعار ، أو يعيش كلاً على أهلهن فيجلبن الفقر ، والآية تنكر على المشركين في أسلوب استفهامي فيه إنكار وتوبيخ أن يجعلوا لله الجانب الضعيف من المخلوقات وهو جانب الأنوثة في الوقت الذي يجعلون لأنفسهم جانب القوة

❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

وهو جانب الذكورة ، إذ المعروف في عالم الأحياء أن الذكر في جانب الصراع والخصام أقوى وأشد بأساً والمراد بقوله : ﴿ أَوْ مَنْ يُنْشَأُ فِي الْحِلْيَةِ ﴾ (الزخرف: ١٨) أي يتربى في الزينة والنعمة وهو إذا احتاج إلى مجاثاة^(١) الخصوم ، ومجازاة الرجال كان غير مبين^(٢) والمراد بالإبانة في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ (الزخرف: ١٨) الكشف والتجلية والإفصاح عن القوة حين تدعو دواعيها أي : أم اتخذ ممن يُنشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين وترك لكم أن تتخذوا من تجعلون منهم فرسان قتال وأبطال حروب ؟

أفما كان من اللياقة والأدب ألاَّ يَخُصُّوا الله بمن ينشأ في الحلية والدعة والنعومة ، فلا يقدر على جدال ولا قتال بينما هم في بيئتهم يحتفلون بالفرسان والمقاول من الرجال ؟ ويلفت صاحب الكشف إلى ما يجب أن ينشأ عليه الرجال حين يقول : « وفيه أنه جعل النشأ في الزينة والنعومة من المعايير والمذام وأنه من صفة ربات الحجال ، فعلى الرجل أن يجتنب ذلك ، ويأنف منه ، ويربأ بنفسه عنه ويعيش كما قال عمر - رضي الله عنه - « اخشوشنوا واخشوشبوا ... وإن أراد أن يزين نفسه زينها من باطن بلباس التقوى »^(٣).

الثاني : ما يكون الكناية فيه مجموع معان مختلفة ضم بعضها على بعض لتكون جملتها مختصة بالموصوف فيتوصل بذكرها إليه كما يقال في الكناية عن الإنسان : زارني حيٌّ مستوي القامة عريض الأظفار ، فالكناية مجموع هذه المعاني ، فالحياة صفة في الإنسان ولكنها لا تخصه ، وكذلك استواء القامة ، وعرض الأظفار ، ولكنها مجتمعة تحدّد معناه وتدلل عليه ؛ لأنها لا توجد مجتمعة على هذا النحو في غيره .

(١) مجاثاة الخصوم : مفاعلة من جثا يجثو إذا برك على ركبتيه .

(٢) تفسير الكشف ٤١٥/٣ .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دُرُوسَةٌ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ❁

يقول ابن يعقوب : « فإنه لو كنى عن الإنسان باستواء القامة وحده شاركه فيه بعض الشجر ؛ إذ المراد باستواء القامة نفى الاعوجاج ، ولو كنى بالحيِّ لساواه التماسح كما قيل ، ولو كنى بعرض الأظفار وحده ، أو بعرض الأظفار مع الحيِّ ساواه الجمل مثلاً بخلاف مجموع الأوصاف الثلاثة يختص بها الإنسان »^(١).

الكناية عن نسبة :

« والمراد بالنسبة كما هو العرف إثبات أمر لأمر أو نفيه عنه »^(٢) وضابطها : « أن يصرح بالصفة ويقصد بإثباتها لشيء الكناية عن إثباتها للموصوف بها »^(٣) وسبيل هذه الكناية أن يترك المتكلم إثبات هذه الصفة لموصوفها ويثبتها لشيء يتصل به ، وله به ارتباط وثيق ؛ ليكون إثباتها لما يتصل به دليلاً على ثبوتها لموصوفها الحقيقي .

كقولك وأنت تريد إثبات الكرم لشخص مُعَيَّن الكرم بين برديه ، كما تقول لمن تريد أن تثبت له المجد بين ثوبيه تاركاً اللفظ الصريح الدال على إثبات الكرم إلى اللفظ الدال على وجوده بين برديه لتؤكد بذلك وجوده فيه وكذلك حين تريد أن تثبت له المجد فتترك اللفظ الصريح الذي يدل على ثبوت المجد له إلى اللفظ الدال على وجوده بين ثوبيه ، والمراد نسبة الكرم والمجد له ، فعدل عن التصريح بذلك إلى جعل الكرم موجوداً فيما يحيط به من ثوبيه والكرم موجوداً فيما يحيط به من بردين ليفهم السامع إثباتهما لشخصه ، إذ ليس بين ثوبيه وبرديه سوى ذات الممدوح فيكون هذا التعبير كناية عن إثبات الكرم والمجد له .

(١) ابن يعقوب المغربي ٣/٢٤٩ ، ٢٥٠ .

(٢) ابن يعقوب ، ٤/٢٥٨ .

(٣) بغية الإيضاح ، ٣/١٨٢ .

❧—————الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ—————دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

هذا ، وقد يتوهم متوهم أن قولهم : (المجد بين ثوبيه) كناية عن صفة لا عن نسبة لمشابهته قولهم : (طويل نجاده) في أن كلا منهما يشتمل على ضمير يعود على الموصوف هو الضمير المضاف إلى الثوبين ، والضمير المضاف إلى النجاد فيكون الموصوف مصرّحاً به والصفات المذكورة المكنى بها وهي طول النجاد وكون المجد بين الثوبين منسوبة إليه وبذلك تكون النسبة حاصلة ، والمطلوب هو الصفة المكنية عنها ، والرد على هذا التوهم يأتي من خلال ما بين الكنايتين من فرق ، ففي الكناية الأولى صُرحَ فيها بالصفة وهي المجد وما يصرح به لا يكون مطلوباً فتعين أن يكون المطلوب بها نسبة المجد وإثباته إلى صاحب الضمير المذكور المعبر عنه بجعل المجد بين ثوبيه وفي الكناية الثانية لم يصرح فيها بالصفة وهي طول القامة ، وإنما جعل طول النجاد دليلاً عليها فكانت هي المطلوبة والنسبة ليست مطلوبة ؛ لأنها حاصلة بالفعل في قولك : طويل نجاده إذ الضمير فيه هو الموصوف وقد نسب إلى هذا الموصوف طول القامة وإن كان قد عبر عنها بطول النجاد فتكون النسبة حاصلة بالفعل والمطلوب غيرها جاء في الإيضاح بتصريف « قال السكاكي : وقد يظن هذا من قسم - زيد طويل نجاده - فيكون من الكناية المطلوب بها صفة - وليس بذلك فطويل نجاده بإسناد الطول للنجاد ، وطول النجاد كما تعرف قائم مقام طول القامة ، فإذا صُرحَ من بُعدُ بإثبات النجاد لزيد بالإضافة كان ذلك تصريحاً بإثبات الطول لزيد»^(١) فتكون الصفة هي المكنى عنها فيه لا النسبة ، أما قولهم : المجد بين ثوبيه - فهو عكسه في ذلك فلا يكون مثله .

ومن الشائع في الكناية عن نسبة قول زياد بن الأعجم :

إن السماحة والمروءة والتّدى في قبة ضربت على ابن الحشرج

(١) بغية الإيضاح ، ١٨٢/٣ بتصريف .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ عَلِ الْبَيَّانِ ————— ❁

أراد إثبات هذه الصفات لهذا الأمير فعدل عن ذلك ولم ينسبها إليه مباشرة ، وإنما أثبتتها لُقْبَةً مضروبة عليه ، فقد كنى عن إثبات هذه الثلاثة إلى الممدوح بإثباتها للقبة التي ضربت عليه ؛ لأنه إذا أثبت الأمر في مكان الرجل وحيزه الذي هو فيه فقد أُثبت له فالنسبة المكنى بها هي إثبات وجود هذه الصفات في القبة ، والمكنى عنها هي إثبات هذه الصفات للممدوح ويقول الإمام عبد القاهر مبينا القيمة الفنية لهذا الأسلوب : « وكما أن الصفة إذا لم تأتْ مُصَرَّحاً بذكرها ، مكشوفاً عن وجهها ، ولكن مدلولاً عليها بغيرها كان ذلك أفخم لشأنها ... كذلك إثباتك الصفة للشيء تُثَبِّتُها له ، إذا لم تُلقَهِ إلى السامع صريحا ، وجئت إليه من جانب التعريض والكناية والرمز والإشارة كان له من الفضل والمزية ومن الحسن والرونق ما لا يقبل قليله ، ولا يُجْهَل موضع الفضيلة فيه وتفسير هذه الجملة وشرحها أنهم يرمون وصف الرجل ومدحه وإثبات معنى من المعاني الشريفة فيدعون التصريح بذلك ويكونون عن جعلها فيه بجعلها في شيء يشتمل عليه ويتلبس به ، ويتوصلون في الجملة إلى ما أرادوا من الإثبات لا من الجهة الظاهرة المعروفة ، بل من طريق يخفى ، ومسلِك يدقُّ وذكر قول زياد بن الأعجم السابق وهو :

إن السماحة والمروءة والتدى في قبة ضربت على ابن الحشرج وبين مراده فقال : أراد كما لا يخفى أن يثبت هذه المعاني والأوصاف خللاً للممدوح وضرائب^(١) فيه فترك أن يصرح فيقول : « إن السماحة والمروءة والتدى لمجموعة في ابن الحشرج أو مقصورة عليه ، أو مختصة به وما شاكل ذلك مما هو صريح في إثبات الأوصاف للمذكورين بها ، وعدل إلى ما ترى من الكناية والتلويح ، فجعل كونها في القبة المضروبة عليه ، عبارة عن كونها فيه ، وإشارة إليه فخرج كلامه بذلك إلى ما خرج إليه من الجزالة ، وظهر فيه

(١) «الضرائب» جمع ضريبة وهي الخليقة والسجية والطبيعة .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ ﴾

ما أنت ترى من الفخامة ، ولو أنه أسقط هذه الوساطة من البين لما كان إلا كلاماً غفلاً وحديثاً ساذجاً^(١).

وهذا الشرح والتبيين يعدّ أول شرح يشرح هذه الطريقة ويميزها تمييزاً لا يشتبه بغيره ، ولا يلتبس بسواه ، ولم يسبقه على هذا النحو أحد ممن سبقه.

وقد ذكر الإمام عبد القاهر من الكناية عن نسبة قول يزيد بن الحكم يمدح به يزيد بن المهلب وهو في حبس الحجاج :

أَصَحَّ فِي قَيْدِكَ السَّمَاحَةُ وَالْجُحْدُ وَفَضْلُ الصَّلَاحِ وَالْحَسْبِ

فيزيد جعل السماحة ، والمجد ، والفضل ، والحسب في قيد يزيد ابن المهلب وأراد نسبة هذه المكارم إليه ، ويقول الإمام عبد القاهر تعليقاً على هذا البيت : « فتراه نظيراً لبيت زياد وتعلم أن مكان « القيد » هاهنا هو مكان « القبة » هناك^(٢) فهذه الصفات الحسنة الجميلة الطيبة من السماحة والمروءة والندى والمجد والفضل والصلاح ملازمة للمذكورين لا تفارقهما ، ولا تبرحهما ، أو تبتعد عنهما وإنما تتحرك معهما فليست هذه الصفات في قبة ابن الحشرج ، أو في قيد يزيد بن المهلب وإنما هي تسير مع الممدوحين أينما سارا ، وتتبعهما أينما كانا في حلٍّ أو ترحالٍ ، وفي قول أبي نواس :

فما جازه جودٌ ولا حلٌّ دونه ولكن يصير الجود حيث يصير

ففي ذلك إثبات الصفة للممدوح بإثبات في المكان الذي يحل فيه ، فهي تتحرك معه مصاحبة له أينما حل أو رحل فقد أثبت الجود للممدوح بإثباته للمكان الذي يكون فيه « فالكناية في كل من الشطرين تدل على معنى واحد هو ثبوت الجود للممدوح وفائدته تكرار المعنى بعبارتين مختلفتين هو تأكيد نسبة الجود وقُدِّمَت الأولى على الثانية وإن كان الغرض منهما واحداً لقوة

(١) دلائل الإعجاز ، ص ٣٠٦ ، ٣٠٧ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٠٨ .

الصورة البيانية ————— دراستي مسائل علي البيان ————— ❁

دلالته على المقصود ؛ لأن الانتقال فيها إلى المعنى المراد بواسطة ، ذلك لأن عدم تقدم الجود عن الممدوح وعدم تأخره عنه يدل على وجوده في مكانه ، ووجوده في مكانه يدل على ثبوته له ، والانتقال في الثانية بلا واسطة»^(١).

وكقولهم : « ومثلك لا يبخل - قال الزمخشري : نفوا البخل عن مثله وهم يريدون نفيه عن ذاته قصدوا المبالغة في ذلك فسلكوا به طريق الكناية لأنهم إذا نفوه عمن يسد مسدده وعمن هو على أخص أوصافه فقد نفوه عنه» وذلك بناء على القاعدة المشهورة : ما ثبت لأحد المثلين يثبت للآخر ومن الكناية عن نسبة قولهم للعربي : العرب لا تخفر الذمم يريدون أنت لا تخفر ؛ لأنه إذا نفى عن العرب نقض العهد فقد نفاه عنه ؛ لأنه واحد منهم . وقولهم في الولد الذي أدرك سن البلوغ أيفعت لداته ، وبلغت أترابه^(٢) ... يشبتون له البلوغ على جهة التأكيد بإثباته لقرنائه ونظرائه ، وعلى هذا النحو خرجت الآية الكريمة : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ (الشورى: ١١).

على أساس أن الكاف ليست زائدة فقد نفى فيها وجود - المثل لله - بنفي وجود مثل مثله على طريق الكناية لأن نفي مثل المثل يستلزم نفي المثل ضرورة أن المثلين متساويان في النفي والإثبات^(٣).

ومن الكناية عن نسبة ما هو ذائع جهير من قول الشنفرى الأزدي يصف امرأة بالعفة :

يبيت بمنجاة من اللوم بيتها إذا ما يبيت بالملامة حلت

فقد كنى أولا عن صفة العفة بالنجاة من اللوم والذم لأن النجاة من اللوم والذم تستلزم النجاة من دواعيه وموجباته ككافة المعايير والمثالب وذلك

(١) الإفصاح عن ما تضمنه الإيضاح للشيخ أحمد الحجار ، ص ٢٢٤ .

(٢) أيفع وصل سن البلوغ - اللدات : الأقران - الأتراب - النظراء .

(٣) انظر في هذا حاشية الدسوقي ، ٢٦٢/٤ .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ أَعْلَامِ الْبَيَّانِ ﴾

يستلزم العفة - وكنى - ثانياً عن إثبات العفة لها « المعبر عنها بالنجاة من الذم » بإثباتها للمكان الذي يحيط بالمرأة وهو البيت وإثبات العفة للمكان يستلزم إثباتها لمن هو فيه ؛ لأنه لا وجود للعفة في المكان إلا بوجود من يتصف بها ، ففي البيت كنيانان أحدهما عن الصفة والثانية عن النسبة جعلت الأولى وهي النجاة من اللوم طرفاً للثانية وهي إثبات النجاة منه إلى البيت ^(١).

وقد جاء في الإيضاح أنه « قد يظن أن هنا قسماً رابعاً وهو أن يكون بالكناية الوصف والنسبة معاً كما يقال : يكثر الرماد في ساحة عمرو في الكناية على أن عمرًا مضياف وليس بذلك ؛ إذ ليس ما ذكر بكناية واحدة ، بل هو كنيانان : أحدهما عن المضيافية - أي الكرم - والثانية عن إثباتها لعمرو ، وقد ظهر بهذا أن طرف النسبة المثبتة بطريق الكناية يجوز أن يكون مكنياً عنه أيضاً كما في هذا المثال ونحوه بيت الشنفرى المتقدم فإن حلول البيت بمنجاة من اللوم كناية عن نسبة العفة إلى صاحبه ، والمنجاة من اللوم كناية عن العفة » ^(٢).

هذا وقد يكون الموصوف بالكناية غير مذكور في الكلام وذلك إذا كان المطلوب بالكناية صفة أو نسبة صفة إلى موصوف كقولهم : « كثر الرماد في هذه الساحة » فإن كثرة الرماد كناية عن صفة المضيافية ، وإيقاع الكثرة في الساحة كناية عن ثبوت هذه الصفة لصاحب الساحة وهو لم يذكر في الكلام ^(٣).

ومثال المطلوب بها نسبة قوله ﷺ في شأن من يؤذي المسلمين : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » فهو كناية عن نسبة نفي صفة الإسلام عن

(١) انظر الإفصاح عما تضمنه الإيضاح ص ٢٢٥ ، ٢٢٦ .

(٢) بغية الإيضاح ، ١٨٥/٣ .

(٣) انظر مواهب الفتاح لابن يعقوب ٢٦٤/٤ .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دُرُوسَةٌ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ❁

المؤذي وهو غير مذكور في الكلام ووجه الكناية فيه أن مدلول الجملة في الحديث الشريف حصر الإسلام فيمن لا يؤذي المسلمين ولا ينحصر فيه إلا بانتفائه عن المؤذي - فقد أطلق الملزوم وهو حصر الإسلام فيمن لا يؤذي وأريد اللازم وهو انتفاء الإسلام عن المؤذي ^(١).

أما الكناية عن الموصوف فلا يمكن إلا أن يكون غير مذكور ؛ لأنه هو المطلوب بالكناية .

ومن الكناية عن نسبة وإن كان قد أُخرج في صورة أبداع وأغرب على حد قول الإمام عبد القاهر في قول حسان - رضي الله عنه :

بني المجدُ بيتاً فاستقرتِ عَمَادُهُ علينا فَأَعْيَى النَّاسَ أَنْ يَتَحَوَّلَا

فأنت ترى المجد هنا قد استقر في بيته الذي أقام عماده في آل حسان وكون المجد بنى بيتاً جرى على طريق الاستعارة التصريحية على نحو تضاعف فيه الجمال والحسن من خلال التكثيف بالتصوير على نحو ترى المجد فيه في صورة الباني لقواعد هذا البيت الذي يغالب الزمن والأحياء وإذا كان المجد قد أقام هذا البيت فإنه يشير إلى ما وراء ذلك من نسبة كل الصفات الماجدة والنبيلة لهم ، وامتزاجها بدمائهم ونفوسهم على نحو لا يشاركهم فيها غيرهم ، ولا ينافيهم فيها سواهم ، وعلى هذا النحو جاء قول البحري :

أَوْ مَا رَأَيْتِ الْمَجْدَ أَلْقَى رَحْلَهُ فِي آلِ طَلْحَةَ ثُمَّ لَمْ يَتَحَوَّلْ

وإذا كان المجد قد بنى بيتاً قد استقرت عماده عند آل حسان - رضي الله عنه - فإن المجد عند البحري قد ألقى رحله ومتاعه وأقام واستقر في آل طلحة ولم يتجاوزهم أبداً إلى غيرهم ، وكون المجد قد ألقى رحله أسلوب يجري على طريقة الاستعارة المكنية التي شَخَّصَت المجد وجسَّدته وجعلته يثبت ويستقر في آل طلحة ولا يبرحهم إلى غيرهم أو يتركهم إلى سواهم مما يعني أنهم

(١) مواهب الفتاح لابن يعقوب ، ص ٢٦٤ .

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسْتُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

أَمَّا جِدُّ نُبْلَاءَ ، ويقول الإمام عبد القاهر تعليقاً على هذا البيت والذي قبله : « ذاك لأن مدار الأمر على أنه جعل المجد والممدوح في مكان وجعله يكون حيث يكون » ^(١) فقد أراد كل من الشاعرين إثبات صفة المجد للممدوح بإثباتها في المكان الذي يحل فيه ولزومها له حيث كان ونظير هذا قول المتنبي في مدح كافور :

إِن فِي ثَوْبِكَ الَّذِي الْمَجْدُ فِيهِ لَضِيَاءٌ يُزْرِي بِكُلِّ ضِيَاءٍ
أَرَادَ أَنْ يَشْبِتَ الْمَجْدَ لِكَافُورٍ فَلَمْ يَصْرَحْ بِهَذَا وَأَثْبَتَهُ لِمَا لَهُ بِهِ تَعْلَقُ وَهُوَ
الثَّوْبُ وَهَكَذَا .

* * *

(١) دلائل الإعجاز ص ٣١١ .

التعريض

رأى الإمام السكاكي أن يسمى بعض أنواع الكناية بأسماء تختلف باختلاف الاعتبارات ، فهي تتنوع عنده إلى عدة أنواع - تعريض ، وتلويح ، ورمز وإيماء وإشارة .

فالتعريض : لغة خلاف التصريح وهو ينفصل عنه انفصلاً تاماً في دلالاته وفي الاصطلاح : إمالة الكلام إلى عرض^(١) يدل على المقصود أي توجيه الكلام إلى جانب يفهم منه المعنى المراد .

هذا وقد قال الزمخشري رحمه الله عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ ﴾ (البقرة: ٢٣٥).

وهو أن يقول لها : إنك لجميلة أو صالحة أو نافقة ومن غرضي أن أتزوج وعسى الله أن ييسر لي امرأة صالحة ونحو ذلك من الكلام الموهوم أنه يريد نكاحها حتى تحبس نفسها عليه إن رغبت فيه ولا يصرح بالنكاح فيقول : إني أريد أن أنكحك أو أتزوجك أو أخطبك ، وروى ابن المبارك عن عبد الرحمن ابن سليمان عن خالته قالت : دخل علي أبو جعفر محمد بن علي وأنا في عدتي فقال : قَدْ عَلِمْتُ قَرَابَتِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَحَقَّ جَدِّي عَلِيٌّ وَقَدَمِي فِي الْإِسْلَامِ فَقُلْتُ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ أَتُخَطِّبُنِي فِي عَدَّتِي وَأَنْتَ يُوْخِذُ عَنْكَ فَقَالَ أَوْ قَدْ فَعَلْتُ ؟ إِنَّمَا أَخْبَرْتُكَ بِقَرَابَتِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمَوْضِعِي وَيفرق الزمخشري - رحمه الله - بين الكناية والتعريض حين يقول : « فَإِنْ قُلْتُ : أي فرق بين الكناية والتعريض ؟ قلت : الكناية أن تذكر الشيء بغير لفظه الموضوع

(١) العرض : بضم العين الجانب والناحية تقول عرضت بفلان إذا قلت قولاً لغيره ، وأنت تعنيه فقد أشرت بالكلام إلى جانب وأردت به جانباً آخر .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ —————﴾

له كقولك : طويل النجاد والحمائل لطول القامة ، وكثير الرماد للمضياف والتعريض أن تذكر شيئاً تدل به على شيء لم تذكره كما يقول المحتاج للمحتاج إليه جئت لأسلم عليك ولأنظر إلى وجهك الكريم ، ولذلك قالوا :

وحسبك بالتسليم مني تقاضيا

وكان إمالة الكلام إلى عرض يدل على الغرض ، ويسمى التلويح ؛ لأنه يلوح منه ما يريده»^(١) فالدلالة في التعريض دلالة استتباعية تفهم من عرض الكلام ، فهي ليست دلالة لفظية ، أما الدلالة في الكناية فهي لفظية وإن كانت بلفظ غير موضوع للمعنى الكنائي .

ومن أمثلة التعريض قول الرسول ﷺ في شأن من يؤذي المسلمين «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» فلفظ الحديث المذكور من قبيل التعريض إذا كان المقصود به شخص معين ذلك أن معناه الصريح حصر الإسلام في غير المؤذي ويلزمه نفي الإسلام عن كل مؤذ وهو المعنى الكنائي ، فإذا قصد به نفي الإسلام عن مؤذ معين بالذات كانت الكناية تعريضاً وكان المعرض به نفي الإسلام عن ذلك الشخص المعين المفهوم من سياق الكلام ومعنى هذا أن اللفظ قد يستعمل في معنى مكنى عنه ليلوح به إلى معنى آخر بالقرائن والسياق^(٢) كما في الحديث الشريف ، فإن حصر الإسلام فيمن لا يؤذي يلزم انتفاء الإسلام عن مطلق مؤذ ، فإذا استعمل هذا اللفظ في هذا اللازم ولم يرد به شخص معين بالذات كان كناية ، وإن كان هناك شخص معين موصوف بالإيذاء وقد قصد إليه بالكناية كان الكلام تعريضاً ، ومن التعريض قولك لآخر «لست بخائن ولا مرء» فهو كناية من قبيل التعريض بخيانة ومرءاة من تخاطبه وفضل التعريض أنك تستطيع أن تنال من خصمك وأن تندد به من غير أن تخرج عن دائرة الأدب بحيث لا يكون له عليك سبيل .

(١) تفسير الكشاف ، ١/ ١٣٤ .

(٢) انظر ابن يعقوب ، ٤/ ٢٦٨ .

الصورة البيانية ————— دراستي مسائل عليّ البيان ————— ﴿﴾

هذا ودلالة الكلام على « المعنى التعريضي » من أدق وجود الدلالة وأشدّها خفاء - وانظر إلى قوله تعالى : ﴿ قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآهَتِنَا يٰأَبْرَاهِيمُ ﴿٦٣﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسَعَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴾ (الأنبياء: ٦٢، ٦٣).

يقول الزمخشري : « هذا من معاريض الكلام ولطائف هذا النوع لا يتغلغل فيها إلا أذهان الراضة من علماء المعاني والقول فيه أن قصد إبراهيم - صلوات الله عليه - لم يكن إلا أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم وإنما قصد تقريره « أي الفعل » لنفسه ، وإثباته لها على أسلوب تعريضي يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيّتهم ، وهذا كما لو قال صاحبك وقد كتبت كتابا بخط رشيق وأنت شهير بحسن الخط ، أأنت كتبت هذا ؟ وصاحبك أُمي لا يحسن الخط ولا يقدر إلا على خرمشة فاسدة فقلت له بل كتبه أنت كأنّ قصدك بهذا الجواب تقريره لك مع الاستهزاء به لا نفيه عنك وإثباته للآمي أو المخرمش ؛ لأن إثباته والأمر دائر بينكما للعاجز منكما استهزاء به وإثبات للقادر»^(١).

والغرض من التعريض عند الزمخشري هو إلزامهم الحجة وتبكيّتهم على نحو ما سبق عنده ، أما عند أبي السعود الذي عقّب على قوله تعالى : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴾ (الأنبياء: ٦٣) بقوله : « مشيراً إلى الذي لم يكسره سلك - عليه السلام - مسلكاً تعريضياً يؤديه إلى مقصده الذي هو إلزامهم الحجة على الطّف وجه وأحسنه بحملهم على التأمل في شأن آلهتهم»^(٢).

وغاية المعنى التعريضي هنا أن الأصنام عاجزة عن أن تفعل شيئاً لانفسها ، ولا لغيرها فاتخاذها آلهة تُعبد ضلالٌ مُبين .

(١) تفسير الكشاف ، ١٥/٣ .

(٢) تفسير أبي السعود ، ٧٤/٦ .

❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

ومن التعريض على حد ما ذكر الخطيب من قول الله تعالى في عرض^(١) المنافقين ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ (البقرة: ٢، ٣) إذا فسر «الغيب» في الآية بالغيبية عن حضرة النبي ﷺ أو عن جماعة المسلمين على معنى هدى للذين يؤمنون عن إخلاص لا للذين يؤمنون عن نفاق ، ففي هذا تعريض بالمنافقين الذين يظهرون الإيمان إذا حضروا مجلسه ويظهرون الكفر أمام أهلهم إذا غابوا ، فقد كنى بثبوت الهداية للمتقين الذين يؤمنون بما جاء به الرسول ﷺ في حال غيبتهم عنه وحضورهم لديه كنى بذلك عن إخلاصهم في عبادتهم وعقيدتهم ، وفي ذلك تعريض بنفي الصدق والإخلاص عن المنافقين الذين قال الله فيهم بعد قليل من آيات السور ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ (البقرة: ١٤) والإخلاص عن المنافقين^(٢) .

ومن بديع التعريض ما روى عن عمر بن الخطاب - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - وذلك أنه كان يوم الجمعة فدخل عثمان بن عفان فقال له عمر أي ساعة هذه ؟ فقال له عثمان يا أمير المؤمنين انقلبت من السوق فسمعت النداء فما زدت على أن توضأت ، فقال عمر : والوضوء أيضاً ، وقد علمت أن رسول الله ﷺ كان يأمر بالغسل ، فقوله أي ساعة هذه تعريض بالإنكار عليه لتأخره عن الحضور للصلاة وترك السبق إليها ، وهو من التعريض المعرب عن الأدب .

ومن التعريض ما تراه في قوله تعالى : ﴿ فَقَالَ أَلَمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرْنَكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرْنَكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّىَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ (هود: ٢٧) .

(١) العُرْضُ : الناحية والجانب والمراد التعريض به .

(٢) الإفصاح عما تضمنه الإيضاح ، ص ٢٢٨ .

الصورة البيانية ————— دراستي مسائل على البيان ————— ❁

فقوله : ﴿ مَا نَرْثُكَ إِلَّا بَشَرًا ﴾ (هود: ٢٧) تعريض بأنهم أحق بالنبوة منه ، وأن الله لو أراد أن يجعلها في أحد من البشر لجعلها فيهم فقالوا : هب أنك واحد من الملائم ومواز لهم في المنزلة فما جعلك أحق منهم بهم ؟ ألا ترى إلى قولهم : ﴿ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ ﴾ (هود: ٢٧) ^(١).

هذا والتعريض لا يختص بالكناية ، فقد يفهم التعريض من أسلوب الحقيقة كقول الرجل للمرأة يعرض لها بالخطوبة إنك لمرغوب فيك لأحوالك الجميلة وقد ماتت امرأتي وأنا محتاج لمن يقضي لي حوائجي .

وأنس به وقول السائل المحتاج يعرض بطلب الصدقة والإحسان إني فقير عريان لم أطمع القوت منذ أيام - وقد يفهم التعريض من أسلوب المجاز كقول الرجل لمن آذاه أذيتني فستعرف وهو كلام خبري قصد به إنشاء التهديد وهو مجاز مرسل بعلاقة اللزوم ، فإن كان مع المخاطب مؤذ آخر فهم في عرض الكلام وجانبه أنك تهدده كما هددت بصيغة المجاز صاحبه ^(٢).

هذا ، ويقول السكاكي : إن الكناية تتفاوت إلى تعريض وتلويح ورمز وإيماء أو إشارة ^(٣) ، فالسكاكي يرى تسمية بعض أنواع الكتابة بأسماء تختلف باختلاف الاعتبارات ، فهي تتنوع عنده إلى أربعة أنواع تعريض ، وتلويح ، ورمز ، وإيماء أو إشارة .

١- فإذا اشتملت الكناية على تعريض بموصوف غير مذكور في الكلام سمي تعريضاً وقد سبق الحديث عنه .

٢- والتلويح على حد ما يقول السكاكي كناية كثرت فيها الوسائط بين اللازم والملزوم كما في نحو فلان كثير الرماد ، وفلان جبان الكلب ،

(١) المثل السائر لابن الأثير ، ص ٢٥٠ .

(٢) انظر : الإفصاح عما تضمنه الإيضاح ، ص ٢٢٨ .

(٣) مفتاح العلوم ص ١٩٠ .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ —————﴾

ومهزول الفصيل وكقولهم: «فلان كثير الإخوان» كناية عن حسن آخرقه فإن الذهن ينتقل أولاً من كثرة الإخوان إلى سهولة خلقه ، ومنها إلى أنسهم به ، وارتياحهم إليه ، ثم ينتقل من هذا إلى حسن معاشرته ومعاملته ، ثم إلى حسن أخلاقه وسميت الكناية تلويحاً ، لأن التلويح في الأصل : أن تشير إلى غيرك من بعيد كما يقول صاحب المفتاح وكثرة الوسائط بعيدة الإدراك غالباً

٣- والرمز كناية قلّت فيها الوسائط أو عدمت مع خفاء في اللزوم بين المستعمل فيه والأصل فمثال ما قلّت فيه الواسطة قولهم : فلان عريض الوسادة فهم يكونون بعرض الوسادة عن عرض القفا ويكونون بعرض القفا عن البله والغباء ما عدمت فيه الواسطة فلان عريض القفا كناية عن البله وليس بينهما واسطة عرفاً ومثل هذا فلان مكتنز اللحم ، أو مفتول العضلات كناية عن القوة وإنما سميت هذه الكناية رمزاً لأن الرمز أن تشير إلى قريب منك مع خفاء الإشارة كالإشارة بالشفة أو الحاجب فإنه إنما يشار بها غالباً عند قصد الإخفاء على حد قول الشاعر :

رمزت إلى مخافة من بعليها من غير أن تبدي هناك كلامها

٤- والإيماء أو الإشارة : كناية قلّت وسائطها أو انعدمت بلا خفاء أي مع وضوح اللزوم ومثال ما قلّت فيه الوسائط بلا خفاء قول البحري

أو ما رأيت المجد ألقى رَحْلَهُ في آل طلحة ثم لم يتحول

انتقل من إلقاء المجد رحله في بيوت بني طلحة إلى أنه جعلها مكاناً له ومن ذلك إلى إثبات المجد لهم ؛ لأن المجد لا يستقر في مكان إلا تبعاً لوجود صاحبه فيه والتلازم واضح ، ومن أمثلة الإشارة التي عدمت فيها الوسائط قول أبي تمام يصف إبلا وقد ذكره السكاكي :

أَبَيْنَ فَمَا يَزُرُّنْ سَوَى كَرِيمٍ وَحَسْبُكَ أَنْ يَزُرُّنْ أَبَا سَعِيدٍ

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِدِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي تَالِيسٍ

انتقل من إثبات زيارتها لأبي سعيد مع حلفها ألا تزور غير كريم إلى إثبات الكرم له بدون واسطة مع وضوح التلازم ومن أمثلة ذلك قولك الآخر: «الحظ حليف الوفي» فتكنى بمخالفة الحظ للوفي عن اتصافه بالوفاء وسميت هذه الكناية إشارة أو إيماء لأن أصل الإشارة أن تكون حسية وهي ظاهرة ومثلها الإيماء كما يقول الدسوقي في حاشيته^(١).

ومن الشواهد التي ذكرها السكاكي للإشارة أو الإيماء قول عبد الرحمن ابن حسان:

إِذَا اللَّهُ لَمْ يَسْقِ إِلَّا الْكَرَامَ فَسَقَى^(٢) وَجْوهَ بَنِي حَنْبَلٍ
وَسَقَى دِيَارَهُمْ بِأَكْرًا مِنَ الْغَيْثِ فِي الزَّمَنِ الْمَحْجَلِ
كنى بدعائه لسادة بني حنبل أن يمطرهم الله بالغيث على تقدير أنه لا يمطر إلا الكرام عن تحقق الكرم فيهم واللزوم واضح بين المعنيين وقول الآخر:

مَتَى تَخْلُو تَمِيمَ مِنْ كَرِيمٍ وَمَسْلَمَةَ بْنَ عَمْرٍو مِنْ تَمِيمٍ
كنى بعدم خلو بني تميم من كريم إذا كان فيهم مسلمة عن ثبوت الكرم لمسلمة.

* * *

(١) انظر في هذا مواهب الفتاح في تلخيص المفتاح لابن يعقوب ٢٦٩/٤، ٢٧٠، والمفتاح للسكاكي ص ١٩٣، ١٩٤.

(٢) سَقَى بالتشديد أكثر من سقيه بالمطر، والوجوه: السادة والباكر أول النهار.

القيمة الفنية للكناية

يرى الإمام عبد القاهر أن الكناية أبلغ من الحقيقة ؛ وذلك لأن للإثبات بها مزية لا تكون للتصريح وإثبات الصفة في الكناية إنما يثبت بالإثبات دليلها والشيء إذا جاء ومعه دليله كان أقوى منه من غير دليل والصفة في الكناية لا تقصد لذاتها وإنما لما يدل عليها به ، يقول الإمام عبد القاهر : «وكما أن الصفة إذا لم تأت مصرحاً بذكرها مكشوفة عن وجهها ولكن مدلولاً عليها كان ذلك أفخم لشأنها ، وألطف لمكانها ، كذلك إثباتك الصفة للشيء تثبتها له إذا لم تلقه إلى السامع صريحاً ، وجئت إليه من جانب التعريض والكناية والرمز والإشارة كان له من الفضل والمزية ومن الحسن والرونق ما لا يقل قليله ولا يجهل موضع الفضيلة فيه وتفسير هذه الجملة أنهم يرومون وصف الرجل ومدحه وإثبات معنى من المعاني الشريفة له فيدعون التصريح بذلك ويكنون عن جعلها فيه يجعلها في شيء يشتمل عليه ويتلبس به ويتوصلون في الجملة إلى ما أرادوا من الإثبات لا من الجهة الظاهرة المعروفة بل من طريق يخفى ، ومسلك يدق ومثاله قول زياد بن الأعجم :

إن السامحة والمروءة والندى في قبة ضربت على ابن الحشرج^(١)

فالشاعر حين أراد أن يثبت هذه الصفات وهي السامحة والمروءة والندى أثبتها لشيء يتصل به ومقصود عليه ، وإثباتها إلى ما هو مقصور عليه إثبات له وعن هذا الطريق في الإثبات خرج إلى ما خرج إليه من الجزالة وظهر ما ظهر فيه من الفخامة على حد تعبير الإمام عبد القاهر وهكذا .

(١) دلائل الإعجاز ص ٣٠٦ .

الصورة البيانية ————— دراستی في مسأله البيان ————— ❁

فمزية الكناية على التصريح لا تتحقق في المعنى الممكنى عنه وإنما تتحقق في إثبات ذلك المعنى للذي ثبت له معنى طول القامة وكثرة القرى والضيافة وغير ذلك مثلاً لا يتغير بالكناية عنهما بطول القامة وكثرة الرماد وإنما يتغير بإثبات شاهده ودليله وما هو علم على وجوده وذلك لا محالة يكون أثبت من إثبات المعنى بنفسه ، يقول الإمام عبد القاهر : « اعلم إن سبيلك أولاً أن تعلم أن ليست المزية التي تثبتها لهذه الأجناس على الكلام المتروك على ظاهره ، والمبالغة التي تدعي لها في أنفس المعاني التي يقصد المتكلم إليها بخبرة ، ولكنها في طريق إثباته لها وتقريره إياها وتفسير هذا أن ليس المعنى إذا قلنا إن الكناية أبلغ من التصريح أنك لما كُنيتَ عن المعنى زدت في ذاته ، بل المعنى أنك زدت في إثباته فجعلته أبلغ وأكد وأشد فليست المزية في قولهم : « جم الرماد » أنه دل على قرى أكثر بل إنك أثبت له القرى الكثير من وجهه هو أبلغ ، وأوجبته إيجاباً هو أشد ، وأدعته دعوى أنت بها أنطق ، وبصحتها أوثق»^(١).

فالمبالغة التي تتولد من الكناية وتخلع بها على المعنى بهاء وحسنا هي في الإتيان بالحقيقة مصحوبة بدليلها ، وعرض القضية ومعها برهانها . كما نستشف من القيمة البلاغية للكناية أن هذه الطريقة من التعبير تقوم بنصيبها كاملاً في أداء المعاني الذهنية ، والخطرات النفسية وتصويرها أحسن تصوير ، وذلك بالتعبير عن المعنى المجرد بالمشاهد المحسوس مع ما تتركه المدركات الحسية من تأثير في النفس بتأكيد المعنى وتثبيتته وتقريره وتفخيمه في نفوس السامعين .

وانظر إلى قوله تعالى تصويراً لحال الكافر يوم القيامة : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيِّنَنِي أَتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴾ (الفرقان: ٢٧) ،

(١) دلائل الإعجاز ص ٧١ .

﴿————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ —————﴾ دَرَسَتُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

فهذه الحركة الحسية المادية التي تتمثل في وضع اليدين بين الأسنان ، وعضهما تأتي تعبيرا صارخا عن إحساس الظالم بفداحة إجرامه والمصير الأسود الذي يترتب به مما يعني إحساسه الشديد بالندم ، والتحسر على ما فات وذلك ما تضطرب له نفس الكافر في ذلك اليوم وهو المراد من الآية الكريمة وعلى نحو النحو ما تجده في قول الله تعالى : ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ (الكهف: ٤٢) ، وتأتي الآية في سياق يتحدث عن قصة الرجلين اللذين امتلکا جنتين فتكبر أحدهما واستعلى بما يملك ، واغتر بما عنده وتحت يده من الخير العميم ولم يشكر فضل الله المنعم عليه بل استبد به الغرور ، وركبه الطيش والترق وصار مُدِلًّا بجاهه وثرائه وحسب أن جنته لن تبيد أبدا فإذا بكلمة الله تحقق على كل ظالم وقد ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ ﴾ (الكهف: ٤٢) وإذا بجنته وقد أحيط بها وشملها البلاء والتدمير من كل جانب وإذا بالرجل يقف على أطلالها كما يقف الأب على مصارع ابنائه بعد أن نزلت بهم نازلة فأخذتهم جميعا وأصبح ﴿ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ ﴾ (الكهف: ٤٢) كمدا وندما وحسرة عبر القرآن عن ذلك كله بقوله : ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ (الكهف: ٤٢) فتقلب الكفين كناية عن هذا الشعور بالندم والحسرة والخيبة والضياع .

هذا ومما تتميز به الكناية وتتفوق حين يستخدمها أهل البيان رقيقة مهذبة لا تخذش الحياء ، ولا تثير الاشمئزاز ، ولا تفرض على الأذن سماع ما ينبو سماعه فيما توحى به ، وفيما تصوره من معان كناية ، انظر إلى قوله تعالى : ﴿ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِّنَ الْغَايِبِ أَوْ لَمْ يَسْمَعْ مِنَ الْنِّسَاءِ ﴾ (النساء: ٤٣) في الكناية عن قضاء الحاجة من التبول والتبرز وكناية عن إتيان النساء ، وفي قوله تعالى : ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ﴾

الصورة البيانية ————— دراستي مسانيد البيان ————— ❁

كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴿ (المائدة: ٧٥) ، وانظر إلى قوله تعالى : ﴿ كَانَ يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾ (المائدة: ٧٥) تعبيراً عن قضاء الحاجة وأنت ترى كيف ترتفع الصورة هنا إلى قمة عالية في المحافظ على رهافة الحس ، ورقة الشعور ، والذوق العام ، ومن ذلك تعبيراً عن إتيان المرأة ما تراه في قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ لَا تُؤَاعِدُوهُمْ سِرًّا ﴾ (البقرة: ٢٣٥) ، وغير ذلك من التعبير عن الفاحش من القول ، والمرذول من الأحاديث بما لا ينبو عنه الذوق ، أو يجافيه الطبع السليم ، ومن هذا ما عده ابن سنان من حسن الكناية عما يجيب أن يكنى عنه في الموضع الذي لا يحسن فيه التصريح كقول امرئ القيس :

فَصِرْنَا إِلَى الْحَسَنِ وَرَقَّ كَلَامُنَا وَرَضْتُ فَذَلْتُ صَعْبَةً أَيْ إِذْلَالُ^(١)

يقول ابن سنان : كنى عن المباذعة بأحسن ما يكون من العبارة^(٢).

* * *

(١) قوله : « فصرنا إلى الحسنى » أي إلى ما نحب من الأمور « ورق كلامنا » أي صرنا الصباً ، وجد اللعب واللهو والغزل ، فلم نرفع أصواتنا لئلا يشعر بنا « ورضت فذلت » أي بعد امتناع وصعوبة ، والمعنى : لئنها بالكلام والمداراة كما يراض البعير بالسير حتى يذل وقوله : « أي إذلال » محمول على « رضت » لأن معناه أذلت .

(٢) سر الفصاحة ، ص ١٦٣ .

خاتمة

اتفق البلاغيون على أن المجاز أبلغ من الحقيقة بمعنى أنه يحقق مبالغة في المعنى لا يؤديها التعبير بأسلوب الحقيقة ، وأن الاستعارة أبلغ من التشبيه لما فيها من ادعاء دخول المشبه في جنس المشبه به وتناسي التشبيه كما أنها أبلغ من المجاز المرسل والكناية على أن الكناية أبلغ من التصريح ، ووجه الأبلغية في المجاز والكناية فالانتقال فيهما من الملزوم إلى اللازم^(١) فهما كدعوى الشيء بينة ذلك أنك حين تقول رأيت أسداً في الحمام ، إنما تريد أن تقول رأيت رجلاً مقداماً جريئاً في الحمام ، وهذه دعوى قام عليها دليلها وهو إثبات معنى الأسدية له إذ يلزم من كونه أسداً أن يكون مقداماً جريئاً للزوم الإقدام والجرأة للأسد ، وأنك حين تقول في الكناية محمد طويل النجاد إنما تريد أن تقول محمد طويل القامة ، وهي أيضاً دعوى قام عليها دليلها وهو اتصافه بطول النجاد إذ يلزم من كونه طويل النجاد أن يكون طويل القامة - وكأنك قلت في الاستعارة رأيت مقداماً جريئاً في الحمام لأنه أسد وقلت في الكناية : محمد طويل القامة ؛ لأنه طويل النجاد .

هذا ، والإمام عبد القاهر يوضح المراد بالأبلغية في مجال المقارنة بين هذه الأساليب فبين أن مراتب المبالغة التي يتفاوت في أدائها تعبير عن تعبير ليس مرجعها إلى إثبات زيادة في حقيقة المعنى الذي يراد أدائه وإنما هي زيادة في تقريره وإثباته ، فالتشبيه في قولنا : (محمد أسد) يفيد زيادة تأكيد في إثبات الشجاعة لمحمد لا تفيدها المبالغة إذا أديت بأسلوب الحقيقة فقلت محمد أكثر الناس شجاعة ، ولا يفيد التشبيه أنك أضفت إلى شجاعة محمد قدراً آخر

(١) انظر في هذا حاشية الدسوقي ضمن شروح التلخيص ، ٢٧٥/٤ .

الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دَرَسَتْ فِي مَسَائِلِ الْبَيَانِ ————— ❁

لم يكن موجوداً فيه والاستعارة كذلك إذا قلت : (رأيت أسداً يحمل مدفعاً) أفادت تأكيداً لقوة شجاعته لا تفيدها الحقيقة إذا قلت : رأيت شجاعاً يحمل مدفعاً ولا يفيدها التشبيه إذا قلت رأيت شجاعاً كالأسد وكذلك الكناية إذا قلت : زيد كثير الرماد تفيد تأكيداً لإثبات الكرم له لا تفيدها المبالغة إذا أدت بالتعبير الحقيقي كقولك : كرم زيد لا يبارى ، ولا تفيد الكناية أنك زدت على كرمه قدرًا ليس موجوداً فيه ، وهذا ما بينه الإمام عبد القاهر من أن أبلغية المجاز على الحقيقة ، وأبلغية الاستعارة على التشبيه وأبلغية الكناية على التصريح في التعبير عن المعنى الواحد ليس معناها أن الأبلغ يفيد زيادة في أصل المعنى لا يفيدها غيره ، بل المراد أنها تفيد تأكيد الإثبات للمعنى وتقريره يقول الإمام عبد القاهر « اعلم أن سبيلك أولاً أن تعلم أن ليست المزية التي تُثبتها لهذه الأجناس على الكلام المتروك على ظاهره ، والمبالغة التي تدعي لها في أنفس المعاني التي يقصد إليها المتكلم بخبره ، ولكنها في طريق إثباته لها ، وتقريره إياها تفسير هذا أن ليس المعنى إذا قلنا إن الكناية أبلغ من التصريح أنك لما كُنيت عن المعنى زدت في ذاته ، بل المعنى أنك زدت في إثباته فجعلته أبلغ وأكد وأشد فليست المزية في قولهم : « جمَّ الرماد » أنه دلَّ على قرى أكثر ، بل أنك أثبت له القرى الكثير من وجهه هو أبلغ ، وأوجبته إيجاباً هو أشد ، وأدعيته دعوى أنت بها أنطق ، وبصحتها أوثق . وكذلك ليست المزية التي تراها لقولك : (رأيت أسداً) على قولك : (رأيت رجلاً) لا يتميز عن الأسد في شجاعته وجراته أنك قد أفدت بالأول زيادة في مساواته الأسد ، بل إن أفدت تأكيداً وتشديدًا وقوة في إثباتك له هذه المساواة ، وفي تقريرك لها فليس تأثير الاستعارة إذاً في ذات المعنى وحقيقته ، بل في إيجابه والحكم به ، وهكذا ترى المزية أبداً في ذلك تقع في طريق إثبات المعنى دون المعنى نفسه ... فإنك إذا قلت - في التمثيل - : « أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى » فأوجبت له الصورة التي يُقطع معها بالتحير والتردد كان

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

أبلغ لا محالة من أن تجري على الظاهر فتقول : قد جعلت تتردد في أمرك فأنت كمن يقول : أخرج ولا أخرج فيقدم رجلا ويؤخر أخرى»^(١).

وهكذا ترى أن أساليب البيان تتفاوت في قوة تأثيرها في النفس ، وفي مدى ما تولده من شعور بثبوت المعاني التي يراد التعبير عنها وتأكيدا .

والله أعلى وأعلم

(١) دلائل الإعجاز ، ص ٧١ ، ٧٣ .

أهم المراجع

- ١- أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر ، تحقيق الأستاذ محمود شاكر .
- ٢- أسس النقد الأدبي دكتور أحمد بدوي .
- ٣- الأسلوب للأستاذ أحمد الشايب .
- ٤- الإفصاح عما تضمنه الإيضاح للشيخ أحمد الحجار .
- ٥- أصول النقد الأدبي للأستاذ أحمد الشايب .
- ٦- أساس البلاغة للزمخشري .
- ٧- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود .
- ٨- الأمثال في القرآن الكريم لابن القيم ، تحقيق محمد سعيد نمر الخطيب .
- ٩- إعجاز القرآن الكريم للباقلاني ، تحقيق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي .
- ١٠- الأدب وفنونه ، دكتور عز الدين إسماعيل .
- ١١- الأسس للإبداع الفني في الشعر خاصة دكتور مصطفى سويف ، دار المعارف .
- ١٢- الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية ، دكتور مجيد عبد المجيد ناجي .
- ١٣- أنوار الربيع في أنواع البديع لابن معصوم المدني ، تحقيق شاكر هادي شكر .
- ١٤- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ، دار الفكر - لبنان .
- ١٥- الأصول الفنية للشعر الجاهلي ، دكتور سعيد إسماعيل شلبي .
- ١٦- الإعجاز البلاغي دراسة تحليلية لتراث أهل العلم دكتور محمد أبو موسى .
- ١٧- الإرشادات والتنبيهات في علم البلاغة لمحمد بن علي الجرجاني ، تحقيق الدكتور عبد القادر حسين .
- ١٨- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادي ، تحقيق محمد علي النجار .
- ١٩- البرهان في علوم القرآن للزكشي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم .
- ٢٠- البلاغة التطبيقية ، دكتور أحمد موسى .

❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

- ٢١- البلاغة العربية (قراءة أخرى) دكتور محمد عبد المطلب ، الشركة المصرية العالمية للنشر .
- ٢٢- بين البلاغة والأسلوب دكتور محمد عبد المطلب ، مكتبة عين شمس .
- ٢٣- البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري دكتور محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة .
- ٢٤- البيان في ضوء أساليب القرآن دكتور عبد الفتاح لاشين .
- ٢٥- البيان والتبيين ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- ٢٦- البديع لابن المعتز .
- ٢٧- البديع لابن أبي الإصبع المصري ، تحقيق دكتور حفني شرف .
- ٢٨- ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان دكتور محمد عبد المنعم خفاجي .
- ٢٩- بناء الصورة في البيان العربي موازنة وتطبيق دكتور كامل حسن البصير .
- ٣٠- البلاغة العربية دكتور حسني عبد الجليل .
- ٣١- التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل البيان دكتور محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة .
- ٣٢- التصوير البياني في شعر المتنبي دكتور الوصيف هلال الوصيف ، مكتبة وهبة .
- ٣٣- التفسير القيم لابن القيم ، تحقيق محمد حامد الفقي .
- ٣٤- التعبير القرآني دكتور فاضل صالح السمرائي .
- ٣٥- التعبير البياني رؤية بلاغية نقدية دكتور شفيع السيد .
- ٣٦- تجريد البناني على مختصر السعد .
- ٣٧- التلخيص في علوم البلاغة ، شرح الأستاذ عبد الرحمن البرقوقي .
- ٣٨- تحرير التحرير لابن أبي الإصبع المصري ، تحقيق دكتور حفني شرف ، لجنة إحياء التراث .
- ٣٩- تلخيص البيان في مجازات القرآن للشريف الرضي تحقيق علي محمود مقلد .
- ٤٠- تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة تحقيق الأستاذ سيد صقر .
- ٤١- تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة تحقيق محمد زهدي النجار .
- ٤٢- التصوير الفني في القرآن للأستاذ سيد قطب .
- ٤٣- تفسير القرطبي « الجامع لأحكام القرآن » .

الصورة البيانية ————— دراستي مسائل علي البيان ————— ❁

- ٤٤- التفسير النفسي للأدب دكتور عز الدين إسماعيل .
- ٤٥- التفسير القرآني للقرآن الكريم للأستاذ عبد الكريم الخطيب .
- ٤٦- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن تحقيق دكتور محمد خلف الله ، ودكتور محمد علوان سلام .
- ٤٧- الجمان في تشبيهات القرآن لابن نايقا البغدادي تحقيق دكتور مصطفى الصاوي الجويني .
- ٤٨- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع السيد أحمد الهاشمي .
- ٤٩- الجملة العربية والمعنى دكتور فاضل صالح السمرائي .
- ٥٠- الحديث النبوي من الوجهة البلاغية دكتور عز الدين علي السيد .
- ٥١- حاشية السيد الشريف على المطول .
- ٥٢- خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية دكتور عبد العظيم المطعني .
- ٥٣- الخيال مفهومه ووظائفه دكتور عاطف جودة نصر .
- ٥٤- الخيال الرومانسي تأليف سير موريس بورا ترجمة إبراهيم الصيرفي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .
- ٥٥- ديوان امرئ القيس تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم .
- ٥٦- ديوان الشماخ تحقيق صلاح الدين الهادي .
- ٥٧- ديوان الأعشى تحقيق دكتور محمد محمد حسين .
- ٥٨- ديوان النابغة تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم .
- ٥٩- دراسات ونماذج في مذاهب الشعر ونقده دكتور محمد غنيمي هلال .
- ٦٠- ديوان الحماسة شرح التبريزي .
- ٦١- دلائل الإعجاز ، تحقيق : الأستاذ محمود شاكر .
- ٦٢- ذو الرمة شمولية الرؤية وبراعة التصوير دكتور خالد ناجي السمرائي دار الشئون الثقافية ، بغداد .
- ٦٣- ذو الرمة حياته وشعره دكتور محمد محمد الكومي الهيئة المصرية للكتاب فرع اسكندرية .
- ٦٤- ذو الرمة شاعر الحب والصحراء دكتور يوسف خليف ، دار المعارف .

❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَتُهُ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

- ٦٥- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي .
- ٦٦- سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي .
- ٦٧- شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي للأستاذ عباس محمود العقاد .
- ٦٨- الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه دكتور محمد النويهي .
- ٦٩- شرح أحاديث من صحيح البخاري دراسة في سمت الكلام الأول الدكتور محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة .
- ٧٠- الشعر في ظلال المنادرة والعساسة دكتور عمرو شرف الدين .
- ٧١- شروح التلخيص ، ابن يعقوب المغربي ، وبهاء الدين السبكي ، والدسوقي ، وغيرهم .
- ٧٢- الشعر الجاهلي ، دراسة في منازع الشعراء دكتور محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة .
- ٧٣- صفوة التفاسير محمد علي الصابوني .
- ٧٤- الصورة الأدبية دكتور مصطفى ناصف ، مكتبة القاهرة ١٩٨٥ م .
- ٧٥- الصورة والبناء الشعري دكتور محمد حسن عبد الله ، دار المعارف .
- ٧٦- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وحقائق الإعجاز ، ليحيى بن حمزة العلوي .
- ٧٧- طبقات فحول الشعراء ، لمحمد بن سلام الجمحي ، شرح الأستاذ محمود شاكر .
- ٧٨- علم البيان دكتور عبد العزيز عتيق .
- ٧٩- عيار الشعر لابن طباطبا العلوي تحقيق عباس عبد الستار - دار الكتب العلمية - بيروت .
- ٨٠- علوم البلاغة ، لأحمد مصطفى المراغي .
- ٨١- العملة لابن رشيح تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد .
- ٨٢- علم الأسلوب دكتور صلاح فضل ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .
- ٨٣- غرائب التنبهات على عجائب التشبيهات لعلي بن ظافر الأزدي ، تحقيق دكتور محمد زغلول سلام ، ودكتور مصطفى الصاوي الجويني .
- ٨٤- الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري .

الصورة البيانية ————— دراسة في مسأله البيان ————— ❁

- ٨٥- فن التشبيه دكتور علي الجندي ، مكتبة الأنجلو .
- ٨٦- الفوائد المشوقة إلى علوم القرآن لابن القيم منشورات دار مكتبة الهلال ، بيروت .
- ٨٧- فن الاستعارة دراسة تحليلية في البلاغة والنقد مع التطبيق على الأدب الجاهلي ، دكتور أحمد عبد السيد الصاوي ، الهيئة المصرية للكتاب فرع الإسكندرية .
- ٨٨- في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب .
- ٨٩- في الميزان الجديد دكتور محمد مندور .
- ٩٠- قراءة في الأدب القديم دكتور محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة .
- ٩١- قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث دكتور محمد زكي العشماوي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، فرع الإسكندرية .
- ٩٢- الكامل في اللغة والأدب لمحمد بن يزيد المبرد .
- ٩٣- كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري ، تحقيق : مفيد قميحة .
- ٩٤- الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للإمام محمود بن عمر الزمخشري .
- ٩٥- لباب البيان دكتور محمد حسن شرارة .
- ٩٦- لسان العرب لابن منظور ، دار المعارف .
- ٩٧- لمسات بيانية في نصوص من التنزيل دكتور فاضل صالح السمرائي .
- ٩٨- لبيد بن ربيعة العامري دكتور يحيى الجبوري ، دار القلم - الكويت .
- ٩٩- مفاتيح الغيب للإمام فخر الدين الرازي .
- ١٠٠- المطول للعلامة سعد الدين .
- ١٠١- المفضليات للمفضل بن محمد بن يعلى الضبي ، تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون ، دار المعارف .
- ١٠٢- معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ، دكتور أحمد مطلوب .
- ١٠٣- من أسرار التعبير القرآني دراسة تحليلية لسورة الأحزاب ، الدكتور محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة .
- ١٠٤- مجاز القرآن لأبي عبيدة ، تحقيق محمد فؤاد سزكين .

❦ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

- ١٠٥- من بلاغة القرآن دكتور أحمد بدوي .
- ١٠٦- الموازنة للآمدي ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد .
- ١٠٧- المجازات النبوية للشريف الرضي شرح محمود مصطفى .
- ١٠٨- معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي .
- ١٠٩- مدخل إلى كتابي عبد القاهر دكتور محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة .
- ١١٠- المثل السائر لابن الأثير ، المطبعة البهية بحوش قدم - مصر .
- ١١١- المجاز في اللغة والقرآن الكريم بين الإجازة والمنع دكتور عبد العظيم المطعنى ، مكتبة وهبة .
- ١١٢- مشاهد القيامة في القرآن ، للأستاذ سيد قطب .
- ١١٣- معاهد التنصيص على شواهد التلخيص ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد .
- ١١٤- النابغة الذبياني دكتور محمد زكي العشماوي .
- ١١٥- النقد المنهجي عند العرب دكتور محمد مندور ، نهضة مصر .
- ١١٦- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازي .
- ١١٧- نقد الشعر لقدامة بن جعفر ، تحقيق : دكتور محمد عبد المنعم خفاجي .
- ١١٨- نقد النثر المنسوب لقدامة تحقيق دكتور طه حسين ، وعبد الحميد العبادي .
- ١١٩- نظرات في علم البيان ، دكتور محمد عبد الرحمن الكردي .
- ١٢٠- الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي الجرجاني ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ومحمد علي البجاوي .

* * *

محتويات البحث

الفصل الأول

فن التشبيه

(٩-٤١٠)

قيمتة الفنية ، وفائدته ، تعريفه ، التشبيه عند المبرد ، التشبيه عند الجاحظ ، التشبيه عن ابن طباطبا ، التشبيه عند قدامة ، التشبيه عند الرمانى ، التشبيه عند أبي هلال العسكري ، التشبيه عند ابن رشيق ، التشبيه عند أبي الإصبع ، تعريف التشبيه للخطيب القزويني ، أركان التشبيه ، صور نامية من التشبيه ، التشبيه المفرد والإفاضة في تحليل الكثير من صوره ، التشبيه المركب ، الإفاضة في تحليل صور منه ، الدلالة النفسية في التشبيه ، تصوير التشبيه للنفس المريضة الملتوية والمعقدة ، تصوير التشبيه للخطر الداهم ، وأثره النفسي ، تصوير التشبيه لحال الإنسان المشرك ، ولنفسه المتهالكة ، التشبيه الخيالي ، والتشبيه الوهمي ، صور من التشبيه الذي يصور أحوال النفس في أبيات من مطلع معلقة امرؤ القيس وغيره ، صور من التشبيه الضمني ، التشبيه الحسي - التشبيه العقلي ، أقسام التشبيه باعتبار حسية الطرفين أو عقليتهما ، المشبه والمشبه به في التشبيه الحسي ، صور من التشبيه الحسي من بصرية وسمعية وشمعية وذوقية ولمسية ، البديع من وجه الشبه المركب الحسي ، تشبيه المحسوس بالمعقول ، تشبيه المعقول بالمعقول ، تصوير العقلي في صورة حسية ، تقسيم وجه الشبه إلى تحقيقي وتخيلي ، التشبيه والتمثيل ، العلاقة بين التشبيه والتمثيل ، رأي الإمام عبد القاهر ، رأي السكاكي ، رأي الخطيب ، مواقع التمثيل وأثره ،

❧ ————— الصُّورَةُ الْبَيَانِيَّةُ ————— دِرَاسَةٌ فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْبَيَانِ

أسباب تأثير التمثيل في النفس، تقسيم التشبيه باعتبار الوجه إلى مفرد ومركب، ومتعدد، الخطأ في انتزاع وجه الشبه المركب، دققة في الوجه المركب، التشبيه المجمل والمفصل، التشبيه المرسل والمؤكد، أدوات التشبيه، أغراض التشبيه، تقسيم التشبيه باعتبار الطرفين، أقسام التشبيه المتعدد، متى يكون الجمع بين الطرفين المختلفين حسنا جميلا؟ آراء المعاصرين في بعض التشبيهات الحسية، عيوب التشبيه - التشبيه البعيد والقريب - معنى التفصيل في وجه الشبه - موازنة في استقصاء التفاصيل، رفع الابتذال عن التشبيه وتجديد صورته، التشبيه والتشابه.

الفصل الثاني

المجاز اللغوي

(٤١١-٦٢٢)

المجاز المفرد والمركب، أقسام المجاز المفرد، المجاز المرسل، علاقاته السببية، المسببية، الجزئية، الكلية، اعتبار ما كان، اعتبار ما يكون عليه الشيء في المستقبل، علاقة المحلية، علاقة الحالية، علاقة الآلية، علاقة المجاورة، أنواع الحقيقة، بلاغة المجاز المرسل، الاستعارة أركانها، هل الاستعارة مجاز لغوي أو عقلي؟ الرد على من يقول إن الاستعارة مجاز عقلي، هل نصب القرينة المانعة من إرادة المعنى الأصلي ينافي الادعاء، الفرق بين الاستعارة والكذب، الاستعارة لا تصح في علم التشخيص، التشبيه البليغ هل يدخل في مسمى الاستعارة؟ رأي الإمام عبد القاهر في التشبيه البليغ، الاستعارة التحقيقية، قرينة الاستعارة وتنوعها، تقسيم الاستعارة باعتبار الطرفين إلى وفاقية وعنادية - تقسيم الاستعارة باعتبار الجامع، الاستعارة العامة والخاصة، تقسيم الاستعارة باعتبار حسية، الطرفين أو عقليتهما مع

الصورة البيانية ————— دراستي مسائل على البيان ————— ❁

الجامع ، تقسيم الاستعارة باعتبار اللفظ المستعار ، قرينة الاستعارة التبعية ، تقسيم الاستعارة باعتبار الملائم ، الاستعارة تحليل صورها ، أساليب من الاستعارة تلتبس بالتشبيه ، الاستعارة المكنية ، آراء البلاغيين فيها ، تحليل صورها التشخيص ، رد الاستعارة التبعية إلى مكنية ، رأي السكاكي في رد الاستعارة التبعية إلى مكنية ، صور من التشبيه لا تنبني عليها استعارة ، شروط حسن الاستعارة ، صور من التشبيه لا تنبني عليها استعارة - شروط حسن الاستعارة ، الاستعارة بين الرداءة والحسن .

الفصل الثالث

الكناية

(٦٢٣-٦٩٩)

متابعة لدوران هذا المصطلح على أيدي العلماء والكتاب من سيبويه ، وأبي عبيدة والفراء ، والجاحظ ، وابن قتيبة ، والمبرد ، وثلعب ، وابن المعتز ، وقدامة وأبي هلال وصولاً إلى الإمام عبد القاهر ، الكناية عند المتأخرين ، تحليل صور لها ، رأي الإمام السيوطي في الكناية ، أقسام الكناية باعتبار المكنى عنه إلى صفة وموصوف ونسبه - التعريض أمثلة له القيمة الفنية للكناية - خاتمة ٧٠٠-٧٠٢

أهم المراجع ٧٠٣

المحتويات ٧٠٩

* * *



كتب للمؤلف

- الصورة البيانية دراسة في مسائل علم البيان .
- الأداء الجمالى في البناء التركيبى من علم المعانى
- ألوان من تاريخ البلاغة وفن المعانى قراءة فى بدائع الفن .
- التصوير البيانى فى شعر المتنبى .